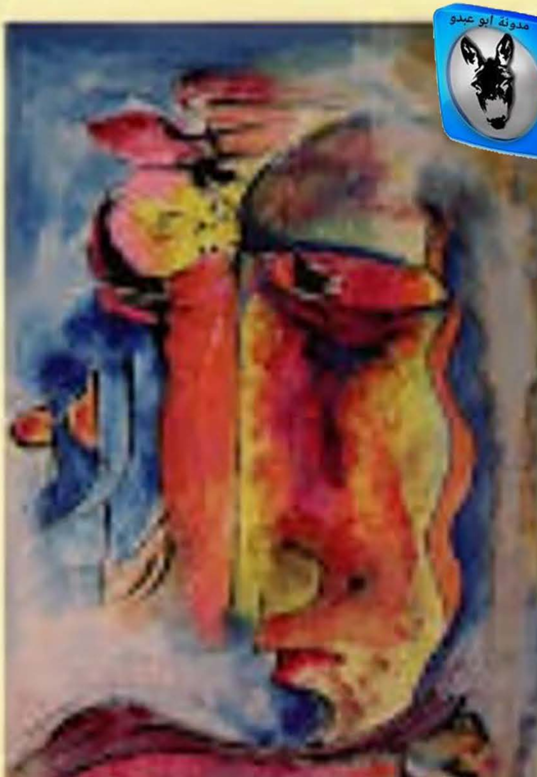
مازن عرفة

وَصَايا الغُبَار



رواية

وَصَايا الغُبَار

رواية

مازن عرفة مواليد دمشق 1955، إجازة في الآداب قسم اللغة الفرنسية 1983، دكتوراه في علم الكتاب 1990 بولونيا، من أعماله المنشورة: **العالم العربي في الكتابات البولونية** في القرن التاسع عشر "باللغة البولونية"، **سحر الكتاب وفتنة الصورة** من الثقافة النصية إلى سلطة اللامرئي 2008.

مازن عرفة؛ وصايا الغبار، رواية

الطبعة الأولى2011

هاتف: 00963 112236468

فاكس:00963112257677

ص . ب: 11418، دمشق . بيروت

www.attakwin.com

info@attakwin.com

taakwen@yahoo. com

مازن عرفة

وَصَايا الغُبَار

رواية

التكوين

إلى "ورد" وسامر

ورد

أستيقظ في الصباح الباكر، والعتمة في الغرفة تبددها زرقة نهار شتائي تتسلل من النافذة، صوت حبات المطر التي تقرع زجاجها يشعل لحناً صباحياً عذباً، يختلط بهديل الحمام البري الذي بنى أعشاشه تحت أسقف المنازل القديمة. بالكاد ألمح في حلكة الزرقة الصباحية شجرة السرو الباسقة عالياً أمام النافذة، حيث التجأت العصافير إلى أعشاشها المخفية بين أغصانها الكثيفة. أصحو رويداً، أتأرجح بين اليقظة والمنام، وأشعر بدفء غريب يلفح جسدي العاري وأنا مستلق على الفراش تحت غطاء سميك. مازلت أحلم حلماً جميلاً يمنحني دفء جسد فتاة تغفو على صدري، وأنفاسها المنتظمة تلفح وجهي.

أتمسك بالحلم حتى لا يذوب بالنسيان، فأحاول أن أغرق في النوم، وعندما يداعبني الصحو من جديد، مع موسيقى حبات المطر المتساقطة وهديل الحمام وزقزقة العصافير، ألجأ إلى حلم اليقظة ليستمر المنام. يتجاوب دفء الفراش مع دفء الحلم، وتبقى الفتاة غافية على صدري بأنفاسها المنتظمة.

لو يستمر هذا الحلم في الواقع ليبدد كآبتي التي تلازمني منذ أن رجعت من السفر، وقد ازداد عطشي إلى أنفاس تلفحني وليالي عشق ومجون تسللت هاربة مني، وبقيَت هناك. أنقلب إلى جانبي الأيمن فأصطدم بالجسد العاري، وأحس بثديين صغيرين ناعمين يداعبان صدري، لا أجرؤ على فتح جفوني خوفاً من أن يهرب الحلم، تتجول كفي على ظهر لدن يشتعل حرارة تحت الغطاء، تتطاول، تصل إلى مؤخرة لينة ألتقطها برؤوس أصابعي، ثم تغرق فيها يدي بانتشاء، إنه جسد امرأة حقيقية. أجعل جفن عيني ينفرج قليلاً من قلب الحلم، ألمح وجهاً يغفو!

كيف أصحو من حلم يستمر في اليقظة، فإذا هو جسد يعانقني بشوق! هل كان هذا حلماً، أو شيئاً من فقدان الذاكرة أصابني، ولم أعد أتذكر ما حدث ؟ نافذتي وقد انسدلت على طرفها غلالة رقيقة بيضاء تشوبها مسحة من اللون الليلكي، طاولتي وقد تبعثرت عليها أوراقي تحت مصباح مطفأ، كتب تتراصف على رفين جداريين بغير انتظام، ساعة جدارية، لوحة شيماء عن الحزن في العيون العسلية ...... هذه غرفتي، وهذا جسد امرأة حقيقية يغفو بجانبي.

لا أتذكر أنني دعوت فتاة إلى بيتي البارحة ليلاً، أفتح عيني وأتحسس دفء الجسد وأتأمل الوجه الناعم، العينين المغمضتين دون إطباق كامل، الأنف الرقيق مع صوت أنفاس بالكاد تُسمع، الشفتين الصغيرتين المكتنزتين بحمرة الكرز، صدراً يعلو ويهبط فيجعل الثديين يداعبان الحنين والاشتياق. ألتصق أكثر بالجسد العاري، تتجول يدي، تتحسس رطوبة الليل الندية بين الفخذين، فأصحو بالكامل، لكن لا أجرؤ على إيقاظ الجسد النائم الذي لا أعرف من أين أتى! في العادة لا أدعو فتاة إلى بيتي، أخاف أن ينكسر ترتيب الأشياء فيه، أفعل العكس تماماً، ولعند سهام فقط، هناك نمضي بضع ساعات في الفراش، ولكن لا أقضي الليل عندها، غالباً ما أشعر بالاختناق والحاجة للهروب منها بعد أن تنطفئ الشهوة، وأرجع لأمضي ليلي في البيت.

غيوم سوداء رمادية مكتنزة بالمطر لا تسمح للعتمة بالتبدد رغم قدوم الصباح، صوت قرع المطر وهديل الحمام يتناغمان مع دفء الجسد، فأعود بالذاكرة إلى ليلة البارحة. شربت أنا وصديقي بعض النبيذ مع عشاء في مطعم "عالم الأحلام"، صديقي يقول دائماً "في المدينة نبيذ وفي القرية الجبلية مشروب سحري، كل له أجواؤه". تسكعنا طويلاً في الشوارع تحت مطر ناعم خفيف، تنسمنا الهواء البارد المنعش، وتداعت الذكريات من نشوة النبيذ، فجاء حزن بددته

دعوة صديقي إلى قريته في أقرب فرصة، حيث هناك للمشروب السحري طقوس جميلة لا تدعو للكآبة، هناك أمام امتداد البحر ننتشي بالشراب والمدى الأزرق البعيد معاً، بعكس الغرف المختنقة في المدينة.

ثم عدت إلى شقتي وحيداً حزيناً، حيث اختلطت نشوة النبيذ بالحنين إلى أيام المجون قبل العودة إلى هنا، أتذكر وكأنني رميت نفسي على السرير بملابسي وغفوت سريعاً، ثم تراءى لي أنني بين ذراعي فتاة تتنفس بجسد يضج بالحياة، وفي الصباح اكتشفت أن الحلم حقيقة. هل التقطتها من الشارع ليلاً ودعوتها إلى منزلي؟ لا أعتقد، فأنا لا أفكر بهذه الطريقة ولست بحاجة إليها، عندما أرغب بجسد أمضي ببساطة إلى سهام. ربما كنت تحت تأثير نشوة النبيذ وحرقة الوحدة هذه المرة ففعلتها! ولكن وجهها يبدو ناعماً بريئاً لا يوحي بمسلك فتاة تتسكع في الشوارع لتلتقط زبائنها، تنام بعمق واسترخاء وكأنها في بيتها، وطيف ابتسامة يزين شفتيها الناعمتين، هكذا تراءى لي.

هل هي فتاة تسكن في الجوار، ترصدت عودتي وجاءتني ليلاً لحظة دخولي إلى المنزل؟ لا أتذكر مثل هذه الفتاة، فمن أصادفهن هنا سيدات متقدمات في العمر مترهلات الجسد، يثرثرن دون انقطاع في الشارع، ويتحركن بتثاقل مثل بطات غبيات أو بقرات متعجرفات، وأحياناً ألتقي فتيات جامعيات في السنوات الأولى، نحيلات شاحبات ترتسم الكآبة على وجوههن كيفما تحركن، يمررن من أمامي دون أن يلتفتن إلي.

يتمطى الجسد، تتنزه يداه بحنان على صدري، تقترب شفتاه من فمي، تطبع قبلة ناعمة، تجتاحني اليقظة والدهشة والرغبة، يوقفني خوفي من انكسار الحلم اليقظة، خشية ردة فعلها إذا ما فاجأتها بشيء لا ترغبه. "صباح الخير، من ....."، أتردد، كيف أسأل فتاة أمضت

في سريري ليلة كاملة من أنتِ؟ يبدو أنها فهمت تساؤلي وترددي، تمطت من جديد وطبعت قبلة ناعمة أخرى "أنا ورد، أتعبتني ليلة البارحة، ولكنها كانت ممتعة"، وعادت فأغفت. ورد ! لا أعرف فتاة بهذا الاسم، وأتعبتها ليلة البارحة، صحيح أن جسدي شبه مخدر وأشعر بانتشاء ما، إلا أنني لا أتذكر ما حدث البارحة، سوى عودتي إلى غرفتي الباردة.

يتناغم الآن اسم ورد مع صوت المطر، مع هديل الحمام الذي أصبح يتداخل أو يتناوب مع زقزقة عصافير شجرة السرو. ورد تحدثت وكأنها تعرفني منذ زمن بعيد، صحت وغفت دون أن تحل لي أحجية وجودها في بيتي، وفي سريري بالذات. مادمت قد أتعبتها سأتركها قليلاً لترتاح، وبعدها تصحو لتذكرني بكل شيء.

يبدو أنني في الأيام الأخيرة أصبحت أعيش خارج الزمن كالمريض المحموم دون أن أعي ما يحدث لي بالضبط، وخاصة منذ أن بدأت أفكر بكتابي الجديد عن العوالم الداخلية، والذي قد يتطور موضوعه نحو العوالم الماورائية، كما يقول صديقي. يبدو أن التفكير في هذا الموضوع قد تملكني بشدة، بحيث يجعلني أنفصل عن الواقع وأعيش حُمى وهلوسات متتالية، لم أعد أميز الخيال والوهم من الواقع، ولم أعد أذكر كيف دعوت فتاة إلى منزلي، لاكتشف جسدها الدافئ صباحاً في سريري، ولتستغرب من أنني لا أتذكر أن اسمها ورد، ولتذكرني بأنني أتعبتها ليلاً ولكنها أمضت ليلة ممتعة.

ورد، أحب هذا الاسم وأحلم أن أعشق فتاة اسمها ورد، ورد اسم جميل كما هو اسم شيماء. ورد تغفو والمطر مشتعل بالحنين، والذكريات تتداعى، والمطر يذكرني بشيماء. فلقد سرنا طويلاً في مطر ناعم خفيف ذات مساء، عندما انتهى احتفال افتتاح معرضها التشكيلي الأول في المركز الثقافي الذي أعمل به. شيماء فنانة تشكيلية تحب أن ترسم وجوه فتيات حزينة بعيون واسعة عسلية، تشرح لي أن الوجوه

الحزينة هي تراكمات القهر واليأس والكبت الذي تعيشه الفتيات في مجتمعاتنا الشرقية، أما العيون الواسعة العسلية فهي أمل اللقاء بعالم أفضل، بشاب يأتي من الحلم منفتح القلب والعقل. أُسَرُ لحديثها، العيون العسلية هي التي جعلتني أعود إلى هنا بعد أن أنهيت دراساتي العليا في "سلومانيا"، ولذلك فاجأتني شيماء بالعيون العسلية التي تعيش في لوحاتها وتتنفس.

أصبحت أتأمل لوحات شيماء طوال الأسبوع الذي استمر فيه المعرض، وأذهب بعيداً مع العيون العسلية وبالحديث مع شيماء، أصبحت أعشق العيون العسلية في لوحاتها، ولم أدر إلا وبدأت أعشق عيون شيماء العسلية. وبعد انتهاء معرضها بقيت تتردد إلى مكتبة المركز، فقد قررت أن تبدأ دراساتها العليا في كلية الفنون الجميلة بموضوع المؤثرات الفلكلورية المحلية في الفن التشكيلي من خلال نماذج من بيئتها الجنوبية، إذ تنتصب البراكين الخامدة وصخور البازلت السوداء، فالطبيعة الجرداء كما تقول تركت الحياة اليومية البسيطة غنية بعناصر فنية إبداعية كرد فعل على القساوة والجفاف. ازداد عشقي لشيماء، فبعد عينيها العسليتين ورسومها للوجوه الحزينة ها هي تحاول أن تكشف بعضاً من ارتسام الحياة البسيطة في تعبيراتها الفنية.

أخذت شيماء تتردد إلى مكتبي في المركز، لتستفيد من الكتب فيه وأساعدها في عملها العلمي. تزورني كل يوم تقريباً، تشرب القهوة وأنا أتأمل عينيها العسليتين، وشعرها العسلي المفرود على كتفيها، وأناملها العسلية التي ترسم بها، وثدييها ذويْ الشامتين العسليتين اللذين يكادان أن يقفزا من بلوزة مفتوحة الصدر كلما انحنت لتناول فنجان القهوة. تحدثنا عن عالم الصورة، وعن "حياة الصورة وموتها "لريجيس دوبريه، تحدثنا عن الفلكلور والواقعية والرومانسية والانطباعية والسريالية والوحشية والدادائية في الفن، ثم

تحدثنا عن علاقة الفن بالشعر، والشعر بالموسيقى، والموسيقى بالسينما. وعندما ازدادت الحميمية حدثتني عن بيئتها المتشددة، والشباب فارغي العقول من بيئة البراكين الخامدة وصخور البازلت السوداء، الذين يدورون حولها ويعرضون عليها الزواج، فترفضهم لأنهم متشددون لا يؤمنون بحرية المرأة، ولا يتفهمون الأجواء الطليقة لفنانة تحتاج إلى الحرية كي ترسم وتبدع. ثم انتقلت الأحاديث إلى تفاصيل حياتها اليومية، كيف تنهض كسلى من الفراش في ساعة متأخرة من الصباح، تجلس في غرفتها وسط لوحاتها وألوانها المتناثرة بعد ليلة عمل طويلة، ثم تشرب المتة وحدها قرب النافذة، فهي لا تحب ثرثرة والدتها وأختها الصباحية مع نسوة الحارة. تحدثت عن كل شيء، عن كل تفاصيل حياتها في المنزل، ولم يبق أمامي إلا أن أسألها "عندما تنامين ماذا ترتدين، البيجاما أم قميص النوم، وما ألوان ملابسك الداخلية، وهل تتأملين جسدك عارية أمام المرآة، وما رؤاك الجنسية عندما تمارسين أحلام اليقظة؟".

شيماء صبية ناعمة وجميلة في بداية الثلاثينات من عمرها، استمتع بحديثها ولوحاتها، وهي تقرأ ما أكتب وتستمتع به وبحديثي، منفتحة على الحياة إضافة إلى ـ وهذا المهم ـ أنها تمتلك عينين عسليتين، فلماذا لا أتزوجها؟

بحت لها بحبي وعشقي لعيونها العسلية ورغبتي بالزواج بها، وشرحت لها أن الأحاديث والنظرات المتبادلة التي تدور وتناور من بعيد حول الجنس باسم الصداقة هي غبية جداً، فلماذا لا نواجه أنفسنا ونبدأ حياة حقيقية. تفاجئني "أهل مناطق البراكين الخامدة وصخور البازلت الأسود لا يسمحون لأحد من خارج البيئة والطائفة بالزواج من بناتهم". أستغرب وهي تستعمل كلمة طائفة، شعرت بلهجة حديثها وكأنها قادمة من صحراء غابرة، حيث الشرف والكرامة هما زينة القبيلة وبناتها! عن ماذا كنا نتحدث إذاً طوال الوقت! أين

هي الحياة المنفتحة خارج إطار الشبان فارغي العقول المتشددين الذين يدورون حولها وترفضهم. تستمر بالحديث "أهلي يذبحونني من الوريد إلى الوريد إذا تزوجت غريباً"، تفاجئني أيضاً كلمة غريب، الآن فهمت لماذا ترفض الذهاب معي إلى منزلي، لأنني غريب، من بيئة وطائفة أخرى. يبدو أنها تمرر الوقت معي ريثما يأتي الزوج المناسب من الطائفة حيث لا يكون غريباً، وأنا أتوه معها بأحاديث غبية كنت أظن أن لها معنى، ودون أن أصل إلى قلبها، أو على الأقل إلى جسدها، بل كنت أظن أنني وصلت أخيراً إلى العينين العسليتين اللتين رجعت من أجلهما.

انتهى الحديث مع الغريب، وانتهت الأحاديث كلها، عن "حياة الصورة وموتها"، وعن الفلكلور والفن والشعر والموسيقى والسينما، عن الاستيقاظ الصباحي وشرب كأس المتة قرب النافذة، وانتهت الرغبة في معرفة ما ترتديه ليلاً، وماذا تفعل أمام المرآة، وما هي أحلامها الجنسية. لم يعد هناك ما نتحدث عنه، وثدياها ذوا الشامتين العسليتين بقيا مختبئين خلف بلوزة مفتوحة الصدر، لا تسمح لهما بالانفلات.

قصرت زيارات شيماء، ثم تباعدت، وأخيراً اختفت شيماء، بعد أن تركت لي لوحة عن الوجوه الحزينة والعيون العسلية، علقتها على الجدار في غرفتي، حيث أكتب قرب النافذة وأحلم بالعيون العسلية. وبعد عدة شهور، لمحتها في الشارع من بعيد، كانت تمطر يومها بغزارة، وتراءى لي أنها حامل في الأشهر الأخيرة، كدت أذهب إليها بدفق حنان وود لأطمئن عليها، فقد كانت تسير بصعوبة تحت المطر، ولكن ما ردني هو شعوري أن الرجل الذي يسبقها بخطوات هو زوجها، كان متذمراً من سيرها البطيء، رجل بشوارب عريضة مفتولة ولباس رأس مميز من بيئتها، تأكدت أنه من الطائفة وأنه ليس غريباً. عندها تأملت فيها وجهاً حزيناً يحمل كل تراكمات القهر واليأس والكبت، ولكن عينيها لم تعد عسليتين.

تُرعد السماء فجأة مع برق شديد، تلتمع فيه الأشياء بالغرفة للحظات بضياء قوي، فيزداد طرق حبات المطر على النافذة، تختفي صورة شيماء التي لم يبق من ذكراها سوى لوحتها عن الوجوه الحزينة والعيون العسلية معلقة على الجدار.

يلتمع البرق من جديد فيضيء جسد ورد الغافية قربي، التفت إليها، لم أتأمل عينيها عندما صحت لدقيقة واحدة فيما إذا كانت عسليتين أم لا. أقرر النهوض وتحضير فنجاني قهوة، سيصبح لدي مبرر لإيقاظها ومشاهدة لون عينيها، وربما سأسألها إن كانت تنتمي إلى بيئة وطائفة ما. أرتدي بسرعة سروالاً وكنزة خفيفة، فالمطبخ عندي بارد بشكل دائم، سأحضر القهوة بسرعة وأرجع إلى دفء الفراش.

لماذا لم أفكر بالقهوة من قبل كذريعة لأوقظ ورد؟ لا أعرف كيف تحبها في الصباح، سادة أم وسط أم حلوة، يفاجئني التفكير برغباتها، على الرغم من أنني لا أعرف هذه الفتاة، أو ربما لا أتذكرها، أصلاً أنا لا أتذكر كيف حضرت إلى غرفتي! أحمل صينية القهوة الوسط وأعود إلى الغرفة لأسمع صوت فيروز في المذياع، تفاجئني ورد وقد جلست مرتدية غلالة وردية شفافة لا أعرف من أين أتت بها، رمت بظهرها على مسند السرير تحت الغطاء وقد ارتسم ثدياها من خلالها كعصفورين غافيين. تبتسم، فيطير صوابي، وكأني أعرف هذه الابتسامة منذ زمن بعيد ويرتعش القلب لها، أشعر بورد قريبة مني، وكأنني أعشقها، وتهاجمني دفقة حنان نحوها بحيث تزور عيني دمعتان، وكأنهما انفجرتا من اختناقات عميقة في الذاكرة. أتأمل بسرعة عينيها، إنهما سوداوان وليستا عسليتين، ومع ذلك أضيع بهما، وكأنني أعرفهما قبل أن أعشق العسليتين.

تشم ورد رائحة القهوة، فتصرخ منفعلة بالمتعة المفاجئة، وكأن الرائحة تسربت إلى أعماق رأسها، وسرعان ما رمت الغطاء عنها،

فظهر كل جسدها العاري تحت قميصها الوردي الرقيق. تأخذ فنجان القهوة، تقترب به من أنفها وتتنشق رائحتها من جديد، تنساب عميقاً مع إغماضة العينين، وتتناول رشفة منها وهي تبتسم لي، أجلس على الفراش عند قدميها، أتلمسهما والقلب يرتعش، أتأمل كل تفاصيل جسدها المنفتحة أمامي تحت قميصها.

"ورد، كيف أتيت إلى هنا؟".

تضحك بغنج "أنت دعوتني فأتيت".

" لا أتذكر أنني دعوتك!".

" أنت دعوتني بالتأكيد، أنت تعرفني منذ زمن بعيد، إلا أنني لم أعد أراك منذ أن سافرت من أجل متابعة دراساتك في سلومانيا، وعندما رجعت شعرت أنت بالضيق والوحدة والحاجة إلى تبديدهما، والأهم الحاجة إلى الجسد، فدعوتني، وهاأنذا قد أتيت".

"ولكن كيف دخلت؟".

"دخلت، أدخل من أي مكان، ولكنني أفضل الدخول من النافذة عندما تمطر السماء بغزارة، والغيوم السوداء الممتلئة مطراً تجعل الأجواء ملائمة لحضوري".

ألمس ركبتها وتذهب يدي قليلاً على فخذها الناعم "ورد، لا تسخري مني".

تضحك وقد ارتد رأسها إلى الخلف، وكأنها تستنفذ صبري لأحل الأحجية، ترشف القهوة وتنظر إلي بابتسامة دلع "دخلت من النافذة بعد أن فتحها المطر لي، وأنت دعوتني فأتيت، هذه هي كل الحكاية".

أرتعش لضحكتها، تذهب يدي عميقاً بين فخذيها، أشعر برطوبتها الندية، تضع فنجان القهوة على الطاولة الصغيرة قرب السرير، تطفئ المذياع، تقترب مني مرتعشة، فمها يكاد يلتصق بفمي، أسألها من جديد "ورد، من أنت؟".

تأخذ شفتي بفمها العذب، تتناوب الكلمات والقبل الرطبة الدافئة وهي تلمس وجهي بكفّها اليمنى وتحيط عنقي بذراعها اليسرى "هل تتذكر..... إلهام..... التي كنت تقف..... تحت المطر لأجلها..... وتلتقط الرسائل منها.....؟".

أبعد فمي قليلاً وقد علت وجهي الدهشة "أنت إلهام! لقد كبرت كثيراً، وجسدك النحيل أصبح ممتلئاً شهياً، أكاد لا أعرفك بعد هذه السنين الطويلة، كان عمرنا في الثالثة عشرة عندما جمعنا الحب بكل براءة الانتقال من الطفولة إلى المراهقة، ولكن لماذا غيرت اسمك إلى ورد؟".

تسكتني من جديد بقبلاتها التي أصبحت محمومة، وتتناوب من جديد الكلمات والقبل "وهل تتذكر..... هند..... ذات الجاكتة الحمراء..... التي كان بيت أهلها يقع في نهاية البلدة عند التلال..... ملتصقاً بالأفق".

أبعد فمي مستهجناً "أنت إلهام أم هند؟!".

لا تتوقف، بل تأخذ شفتي بقوة أكبر، أشعر بلسانها يذهب عميقاً في فمي، بحيث شعرت بأنها تكاد تلتهمني "وهل تتذكر سهير..... وجورجيت..... ورولا.....؟".

تختلط الأمور في ذهني، إلهام، وهند، وسهير، وجورجيت، ورولا! جميع الفتيات اللواتي أحببتهن قبل أن أسافر، منذ أن أكتشفت ارتعاشة القلب وخبرته عند رؤية فتاة تسحرني بلفتة منها، وتتركني غارقاً في لجة حنين لشيء مبهم غامض. لكن ورد تجعلني أشعر بالاضطراب المشوب بالذعر، هل تستغل حالة الحمى التي يبدو أنها عادت إلي؟ وهاهي تتلاعب بي، من أين لديها المعرفة بهذه الأسماء؟! هل أنا أتوهم وأتحدث مع نفسي كالممسوسين؟ لا! فورد موجودة، ألمسها، وطعم قبلاتها في فمي، وجسدها تحت الغلالة يشتعل بقربي. أشعر بالقلق والاضطراب والتوتر والحيرة وكأني

أهذي، أنفصلُ عنها، وكأن الرغبة القوية بها قد توقفت أمام هذا الضياع، أنفصلُ من عناقها المحموم، أسحب يدي بالرغم من إغراء الرطوبة الدافئة بين الفخذين، أرتمي على السرير وقد شعرت بالتعب المفاجئ، فتأتي ورد متسللة إلي وتتكور إلى جانبي كعصفور صغير، يبحث عن الأمان والدفء بحضني.

تُرعد السماء بشدة، ويلمع برق يضيء الغرفة للحظة، فيشتد هطول المطر، يتعالى على صوت الهديل والزقزقة، يبدو أن الحمام والعصافير قد لجأت إلى أعشاشها المخبَّأة، ربما هي تسترجع الآن ذكرياتها على صوت المطر، تجلس في دفء أعشاشها، تتأمل, وتتنفس الحنين وموسيقى المطر.

أقفز صبياً صغيراً بين بحيرات المياه المتجمعة في الشارع الترابي، أنتشي تحت المطر بالرغم من تسرب المياه إلى حذائي العتيق، ولا أبالي، أذهب لأشتري خبزاً في الصباح الباكر، ولا يهم المطر، فطعم الخبز الساخن المغمس بقطراته وأنا أمضغها على الطريق لا يعادله طعم..... أكبُر قليلاً، فأنحني قرب بحيرات المطر ذاتها وفي الشارع نفسه، وألتقط رسائل حب طفولية من إلهام بنت الجيران، ترميها لي أرضاً وأنا التقطها من خلفها بسرعة حتى لا يرى أحد ما نفعل ويكشف علاقة الحب بيننا. كانت خطة طفولية ذكية، بحيث أن كل الشارع لاحظ ما نفعل، والشارع يصفق ويصفر حتى أن الخبر وصل إلى والدي ووالدتي "مجنون، تترك دروسك وتركض وراء فتاة عابثة". وبقيت مجنوناً بإلهام أكثر من سنتين، أنتظرها تحت المطر، ونتبادل القبل على صفحات الرسائل المعطرة، وامتلأ درج الطاولة العتيقة بالرسائل والهدايا التذكارية الطفولية منها إلى جانب الطوابع والنقود القديمة والبطاقات البريدية التي كنت أجمعها، وفقط، الغزل البريء لم يتطور إلى اكتشاف الجسد، فكل شيء كان يحاصر طفولتنا الذاهبة بخطوات سريعة نحو المراهقة، وهي تتلمس ارتعاشات الحب الأولى.

انتقلت أسرة إلهام من بلدتنا، وكبرتُ قليلاً، أصبحتُ في حوالي السادسة عشرة من عمري. ومرت هند بقربي ذات مرة، ابتسمت "أنت الذي تقرأ كتباً كثيرة"، شعرت بالاعتزاز بشيء يميزني، وسحرتني هند بابتسامتها وبالجاكتة الحمراء التي ترتديها. كان منزل أهلها يقع في طرف البلدة، ولا شيء بعده سوى التلال الجرداء. وحتى أستطيع رؤيتها قررت أن أمارس رياضة الركض صباحاً ومساءً نحو التلال، كنت أركض تحت المطر والرعد والبرق، أركض وأركض والعرق يتصبب مني بغزارة، أمر دائماً قرب بيتها، ولا أراها، ومع ذلك أستمر بالركض. وعندما التقيت بها مصادفة في السوق وأنا ذاهب لأشتري خبزاً، كانت تتحدث بعفوية وحيوية بين سرب من صديقاتها، ارتبكتُ واضطربتُ وتلعثمتُ ولم أستطع أن أفعل شيئاً، مرت من أمامي بجاكتتها الحمراء ورمت لي ابتسامتها الساحرة مع حركة مغناج برأسها ذي الشعر الأسود الفاحم، فدفعتني كي أركض من جديد نحو التلال، وبحماس شديد، صباحاً ومساءً.

وذهبَت هند وبقيت في الذاكرة ابتسامتها الساحرة وجاكتتها الحمراء، وأقلعت عن ممارسة الركض نحو التلال، إلا أنني بقيت أمارس الركض نحو الأحلام.

تنفستُ حياة مراهقتي من خلال سهير، قريبتي التي تكبرني بثلاثة أعوام، وعلمتني اكتشاف الجسد. كنا نذهب لندرس في البستان أمام بيتها، فهي مشهورة بكسلها، متأخرة بدروسها وتعيد صفها، بينما كنت أنا متميزاً بدراستي. يدفعنا الأهل للدراسة معاً علها تشعر بالعدوى مني وتصبح ذكية وناجحة. نذهب إلى البستان ولا ندرس أبداً، إذ أصابتني هي بالعدوى وأصبحنا لا ندرس، نفترش العشب الأخضر الرطب تحت شجيرات رمان كثيفة تفتحت براعمها بورود برتقالية والكتب في أيدينا، ولا ندرس، نتحدث وتضحك، فتضحك معنا شجيرات الرمان، وأذوب بضحكتها ولا ندرس. وذات صباح كان هناك ضباب ناعم في يوم ربيعي، وكأنه هبط ليسترنا، وكانت هي

متمددة على العشب الندي، وانحسر قميصها عن صدرها؛ فبان طرف ثديها، تشجعت يدي وتسللت إليه، فلم يبدر منها سوى تهديد مغناج بصوتها الناعم، وبقيت يداها لامباليتين ممسكتين بكتابها. سحبتُ ثديها من مخبئه حتى بانت حلمته البنية الغامقة، التفت يدي عليه بحنان ورفق وأخذت أداعبه معتصراً حلمته، استرخت، تمسكت بكتابها بشدة وهي ترمق يدي بطرف عينها صامتة، وأخذت أداعبه في الضباب، وأداعبه ساعة وساعتين في الضباب، واستمرت المداعبة طويلاً، ليلاً ونهاراً في ضباب الأيام والأحلام، حتى لم يبق من سهير في الذاكرة إلا ثديها الغض الطري الناعم بحلمته البنية الغامقة، مستسلمة بانتشاء لمداعبتي وصوتها المغناج الرخيم يهددني..... وكان ذلك أول اكتشاف للجسد، في ضباب صباح ربيعي تحت شجيرات الرمان.

جورجيت كانت صديقة الطفولة في مدرسة ملحقة بدير للراهبات في بلدتنا، كان والدي يفتخر بأنه اختار لي هذه المدرسة بالرغم من اختلاف الدين، ويرفض تسجيلي في المدارس الرسمية "هناك لا يوجد تعليم جيد ولا تدريس لغات أجنبية"، هكذا كان يقول دائماً. ولم أخيب ظنه، فقد تميزت بدراستي وتعلمت الفرنسية بشكل جيد. وجورجيت، رفيقتي في الصف، كسولة بالفرنسية، وبما أن أهلها يسكنون في الحارة قربنا فقد كانت تأتي مساءً لتسألني عن الواجبات المدرسية، وتدخل أحياناً لتراجع معي دروس الفرنسية. وفي أيام البرد الشتائية، إذ يتساقط المطر بغزارة، كنا نجلس تحت الغطاء الصوفي لنتدفأ وندرس.

وذات مرة التقت ساقي المكشوفة من تحت البيجاما بعري فخذها من تحت التنورة مصادفة تحت الغطاء، كان شعور طفولي غريب بالملامسة، نظرنا إلى بعضنا طويلاً، ثم نهضت وذهبت، وانتهت الحكاية. ولكن المطر لم ينقطع عن التساقط، والساقان بقيتا تتذكران بعضهما بعضاً وتعيشان ملامستهما بحنين، إذ إنه بعد سنوات طويلة التقينا بالحميمية والرغبة المفاجئة، فاشتعلت الذكرى سريعاً،

ذكرى الساقين اللتين التقيتا ذات مرة. كانت جورجيت قد أصبحت فتاة مكتملة، وثدياها يملأن كنزتها الصوفية وجسدها يشتعل، تطير على أجنحة الرغبة ببنطالها الجينز وكنزتها الخمرية. وما إن نظرت إلى عينيها الجميلتين حتى تذكرت السيقان بعضهما، وقفت أمامي بالدهشة القديمة، عانقتني بذراعيها، والتفت علي بساقيها، والتصقت بي بجسدها بالكامل، نظرنا إلى بعضنا طويلاً هذه المرة فيما التقى القلب بالقلب والحنين بالحنين والرغبة بالرغبة، وكان هناك مطر جديد ورائحة عطر ليمون ملأت أحاسيسي بشذاه، شممته عند رقبتها الدافئة. تعانقت السيقان كلها بحميمية وتداخلتا بشوق قديم، والذراعان والصدران والشفاه والعيون، ببنطالها الجينز والكنزة الخمرية. وما إن ارتفعت حرارة الساقين حتى تذكرتا ملامسة الطفولة تحت الغطاء الصوفي، فتخلتا عن البنطال والكنزة وبحثتا عن غطاء صوفي جديد، فيما بقي المطر يهطل بغزارة، بحيث تسللت قطراته إلى جسدينا المنتشيين.

ذهبت جورجيت بشبقها الجنوني وشذى عطر الليمون على رقبتها الدافئة، وذهبت أنا إلى الجامعة، وهناك التقيت برولا التي كانت تعيش مع عمتها العانس بسبب سفر أهلها إلى بلد صحراوي للعمل.

كانت رولا غريبة في كل شيء، في شكلها وتصرفاتها، كانت نحيفة وطويلة بشعر قصير مقصوص فوق الأذنين، بحيث تخالها من بعيد صبياً، وخاصة مع ثدييها الصغيرين الممحيين تحت ملابسها الفضفاضة القصيرة. وكانت ملابسها غريبة أكثر من شكلها، بنطال ملتصق على جسدها النحيل إلى ما تحت الركبة بقليل، قميص فضفاض أبيض نظيف ولكنه غير مكوي بشكل دائم مع سترة دون أكمام، شيء قصير وشيء طويل بحيث أن ملابسها الداخلية بألوانها المتعددة كانت تظهر بوضوح مع كل حركة وانحناءة، وهي لم تكن تهدأ أبداً في حركاتها وانحناءاتها، فالسبت أحمر ناري، والأحد

أسود مخرم بالدنتيلا، والاثنين أبيض بزهور زرقاء، والثلاثـاء مخطـط بالأصفر والأزرق والنهدي، أما الأربعـاء والخمـيس فلـم يكـن لـدينا محاضرات في الجامعة، والجمعـة يـوم عطلـة، فلـم أكـن أعـرف مـا تلبسه.

كانـت رولا انفعاليـة وكئيبـة بـشكل دائـم، تـضحك ضـحكتها الصغيرة الهستيرية بموسيقى شبيهة بمواء قطة، تهرب من ضـياعها إلى مجموعتي حيث نجلس في كافيتريا الجامعة، نصرخ ونحن نثرثـر عـن الأوطان والثورات. كان شكلها وطريقة حـديثها وتـصرفاتها الغريبـة، وبشكل خاص انحناءاتها المستمرة، تجذبني إليها وتثيرني، ولذلك مـا أن طلبت مني التنزه قليلاً ذات يوم حتى وافقت بالرغم من أنها كانـت تمطر مطراً قوياً. وأصبحنا نتنزه دائماً، ودائماً تحت المطر، أوصلها إلى البيت دون أن تدعوني إليه على الرغم من اقتراحاتي المستمرة بالتعرف إلى عمتها. تتألم باستمرار من شيء ما تفتقده، ربما مـن غيـاب أهلـها وفقدانهم مع وجود عمة يبدو أنها لا تستطيع أن تمنحها بعض الحنان، تتألم لتصل إلى درجة أن الدموع تملأ عينيهـا دون أن تـستطيع التعـبير تماماً عما بداخلها. تختلط دموعها بقطـرات المطـر، فيـصبح وجههـا جميلاً؛ يدفعني لأن ألتقطه بين الذراعين وأضمه على الصدر وأكفكف دموعها، ولتنسل اليدان إلى جسدها النحيل والرقيق، المكـشوف مـن بين كل فتحات ثيابها القصيرة والطويلـة والفـضفاضة. ولكـن لم أكـن لأستطيع أن أفعل ذلك في الشارع أو الكافيتريا،لم يكن لدي لأواسيها سوى إمساك يديها ورسم دوائر حنان عليها والاستماع إلى موائهـا. لم يكن لدينا سوى الشارع والكافتيريا، حيث لا مجال للبكاء على صدري في هذين المكانين، ولا مجال لأشاهد كامل ألوان ملابـسها الداخليـة بشكل طبيعي على مدى الأسبوع كله.

كانت تبكي بصمت، وأنـا أحـاول أن أحبـها بـصمت، وأحـب مشاهدة ملابسها الداخلية وملامستها بـصمت، بكـت طـويلاً وذهبـت وهي تبكي، تركت لي بكاءها ونزواتها وألوانها، وسـافرت فجـأة دون

أن تودعني. ولم يَبْقَ لي سوى ذكرى ألوان الأحمر الناري، والأسود المخرم بالدنتيلا، والأبيض بالزهور الزرقاء، والمخطط بالأصفر والأزرق والنهدي، وبكاؤها تحت المطر، حيث تختلط دموعها بحبات المطر.

يعيدني صوت هديل الحمام وزقزقة العصافير إلى غرفتي، إذ يخفت قليلاً قرع حبات المطر على زجاج النافذة، يتسلل شيء من أشعة الشمس إلى الغرفة من بين الغيوم الداكنة، فتختفي صور إلهام وهند وسهير وجورجيت ورولا، يبدو أنه أخذتني غفوة من الذكريات وأحلام اليقظة. أستيقظ على صوت ورد ضاحكة، واقفة قرب السرير، وهي تحمل صينية عليها كوبان من الشاي بالليمون والنعنع، من أين تعرف أنني أحب الشاي بالليمون والنعناع!

ورد منتصبة أمامي، وتفاصيل جسدها المثيرة تشف من تحت غلالتها الوردية، أتأملها بحب وشوق، الحلم اليقظة مازال مستمراً، ولكنني بعد الغفوة أشعر أنني بعيد عن الحمى والهلوسة. أكتشف أن لِورد أنامل إلهام وهي ترمي رسائلها الطفولية، أقصد وهي تحمل صينية الشاي، ولها بسمة هند الساحرة التي جعلتني أركض نحو التلال صباحاً ومساءً، وها هي توقظني وتنعشني بها الآن، وينتصب تحت غلالتها الوردية ثديا سهير بحلمتين بنيتين غامقتين يدعواني لأداعبهما طويلاً تحت شجيرات الرمان في الضباب الصباحي، وألمح فيها ساقي جورجيت اللدنتين وهما تدعوان ساقيَّ للالتحام معهما وعطر الليمون يفوح بشذاه من رقبتها وجسدها كله بشكل يُسكرني، وبالرغم من الابتسامة التي لا تفارق وجهها فلديها مسحة حزن خفيفة، كتلك التي لدى رولا، كيف اجتمع كل هذا فيها؟!

تجلس ورد على طرف السرير، يبدو أنها قرأت أفكاري، تعرف ما أحب، وكأنها قادمة من الحنين والاشتياق في داخلي.

"ورد، هل أنت ذاكرتي؟".

تبتسم ابتسامة لذيذة من جديد "لا، أنا أحلامـك القديمـة عنـدما كانت مشتعلة في الماضي، وكنت تتلمس الحياة وتحـاول أن تكتـشف لها معنى، وتحاول إيقاف اللحظات لتنفـصل عـن الزمـان والمكـان، وأنت تكتشف ذاتك من خلال عشق الصبايا حولك".

"ورد لماذا أتيت الآن بعد أن تركتيني طويلاً؟".

"أنـا لم أتركـك، أنـتَ الـذي تـركني، سـافرت إلى بلـد أجـنبي ورميتني، ورميت كل ذكريات العـشق والحـنين، عـشت هنـاك مجونـك اليومي مع أجساد العيون الرمادية دون أحلام، أفرغت شهواتك ونزواتـك دون حنين ودون انتظار تحت المطر".

"والآن عدت إليكِ".

"عدت ولازلت تعـيش ذكرياتـك المهلوسـة هنـاك، حاولـت أن تعوض بعضاً من اشتهائك للمجون، فلجأت إلى سهام، وكانت سهام جسداً دون حنين ودون مطر".

"ولكن سهام لطيفة، تستقبلني متى أرغب بها".

"سهام دون أحلام، أنت تهرب منها ما أن ينتهي توترك الجسدي النهم، حتى إنك لم تقض عندها ليلة واحدة حتى الصباح. وسـهام تعـرف أنهـا لـن تلتقط أحلامك، ولذلك فهي ربما الآن بين ذراعي أحد الراغبين بها".

"وماذا يعني ذلك ؟".

"تعود كل ليلة إلى غرفتك حزيناً وكئيباً مـن الوحـدة، تحـاول أن تملأ ليلـك بالكتابـة والموسـيقى، واسـتنجدت بإلهـام وهنـد وسـهير وجورجيت ورولا، وعندما تنامى الـشوق بـداخلك إلـيهن إلى درجـة الانفجار دعوتني، فأتيت".

أستغربت لهجة ورد التي بدت لي قاسية، وكأنها تعاقبني، حـتى إنني نسيت أن آخذ أية رشفة من كأس الشاي بالنعناع والليمون بقـربي على الطاولة، تعاتبني لأنني فقدت بـراءتي وعفـويتي الأولى. ألاطفهـا

متودداً ومعتذراً "أنا آسفٌ جداً"، أقترب من وجهها، ألامسه بقبلتين ناعمتين بكل ما أمتلك من الرقة والحميمية المختزنة في داخلي، أداعب بلطف شعرها المنسدل على كتفيها العاريتين، تتخلله أصابعي وتسترسل مع انسياب خصلاته، أنزل إلى عنقها، فيسحرني شذى الليمون، أهمس بعشق "أريد أن أرجع إلى براءتي وعفويتي".

" أنا معك".

" لا، أريدكِ دائماً بقربي، أرغب أن أمضي بقية العمر معك، أرغب..... أن أتزوجك".

" تتزوجني؟!".

تنفجر ورد بضحكة أشبه ما تكون هستيرية لا تتناسب مع الأجواء الشاعرية واللمسات الحنونة والقبلات التي داعبتها بها، تضحك وتضحك حتى تنقلب على ظهرها، ممسكة بخاصرتيها وقد امتلأت عيناها بالدموع من الانفعال. يمر زمن وسط ذهولي، تهدأ قليلاً، تبقى مبتسمة وقد أمسكت يدي بحنان "تتزوجني، كيف؟ أنا لست حقيقية، أنا وهم من صنع خيالك وذكرياتك، أنت خلقتني من رغباتك وحنينك".

وكأنني لم أستوعب ما قالته، ولازلت منفعلاً متناسياً ضحكها الهستيري، "وأرغب بأطفال جميلين منك".

تتماسك حتى لا تعاودها نوبة الضحك "أطفال الوهم وخيالات الحلم!". تتوقف قليلاً وتحاول أن تأخذ بعض الجدية دون أن تستطيع ذلك، وتتابع "بأي أعمار تريدهم مباشرة، في الخامسة أم في العاشرة، وماذا ستفعل بهم؟ وماذا ستطعمهم؟ وهل سيخرجون من المنزل ليبحثوا عن أطفال حلم ليلعبوا معهم؟!".

" ورد، لا تسخري مني، لا تستغلي حالة الضعف واليأس لدي، لا تستغلي الكآبة والوحدة والهلوسة التي أعيشها الآن، ورد أنا أحبك، أنا أعشقك.....".

يزداد بي الانفعال والشوق لعناقها، أشعر برغبة شديدة للالتحام بها والضياع فيها. تتمدد مستسلمة فيما كنت آخذ فمها بقبلة مجنونة، فتقابلني بالتهام شفتي بجنون أكبر، وعندما تسللت يدي إلى ما بين فخذيها كانت الرطوبة قد أصبحت نداءً حاراً جارفاً، أجدها بالرغبة نفسها التي لدي، أتمدد، ونعود عاريين دون أن نخلع ما نلبس، أعتصر جسدها الغض بقوة وقبلاتي تغطي وجهها، تغطي عينيها وأنفها ووجنتيها، تنزلق القبلات على عنقها، أنزل، أضيع بين ثدييها الممتلئين وأتنفسهما، أزحف إلى بطنها وخاصرتيها، أغمر وجهي مابين فخذيها، أمتص رحيق الرطوبة بعمق، تصرخ بي برجاء وأنين وهي تلهث "التحم بي وامتلكني بقوة، دعني أضيع فيك".

ألتحم، ننصهر ونصبح جسداً واحداً، أصبحت عيناها عيني إلهام، فأضيع بسوادهما وعمقهما، وأقبل شفتي هند بنهم بعد أن أزحت ضحكتها الساحرة مؤقتاً، وأخذت تمتص فمي وأحزاني، أمسك بثديي سهير وأعتصرهما بكفي بعنف وقد أطبقت أناملي على حلمتيها البنيتين الغامقتين بحيث تحول تأوهها إلى غناء ملأ فضاء الغرفة، وألتحمُ بجسد جورجيت وقد التفت ساقاي بساقيها، متحسسة نعومتها ولدونتها، وقد فاح من ثناياها شذى عطر الليمون، وأعري أخيراً رولا وأرمي بملابسها الداخلية الملونة بعيداً، فيتناثر الأحمر الناري والأسود المخرم بالدنتيلا والأبيض بزهور زرقاء والمخطط بالأصفر والأزرق والنهدي على أرضية الغرفة والكرسي والطاولة وطرف السرير. نلتحم أنا وورد، ونصبح حقولاً خضراء مغسولة بالمطر، وأزقة البلدة الصغيرة ببحراتها الممتلئة ماء بعد المطر، نصبح قصائد شعر تصوغها زقزقات العصافير وهديل الحمام وهي تتنفس المطر في أعشاشها، نغتسل بالحنين والصفاء والشذى والصدى والمدى والألق، ننتشي بعمق ونذهب معاً هناك عالياً حيث ننسل من الزمان والمكان، ونذهب هناك إلى اختلاط ألوان قوس قزح بفرح اللحظات وموسيقى الكلمات، لحظات لم يعشها أحد وكلمات لم يبح بها أحد.

يقترب المساء أشعر بأني نائم ولست بنائم، صوت المطر والرعد والتماع البرق يجعل الذكريات تتداعى، أعود من السفر، وما أن مضت عدة أيام حتى بدأت أسأل عن الأصدقاء القدامى والفتيات اللواتي أحببتهن منذ زمن بعيد. كل شيء تغير، والعالم أصبح غريباً، شيءٌ ما انهار ولم يعد من الممكن إصلاحه.

عرفت أن إلهام قد أصبحت عانساً، عجوزاً قبل الأوان، تسكن في مدينة قرب البحر، فقدت ألق عينيها، واندمجت في حياة تنظيمية حزبية تقود البلد. تحولت من كتابة الرسائل الغرامية الطفولية إلى كتابة التقارير الأمنية عن "المعادين للوطن وخط الثورة"، ثم ترقت في عملها نتيجة جهودها وأصبحت محللة لها، ونسيت أيام المطر. وبقدر ما كانت تفقد ألقها وسحر عيونها كان يزداد أذاها للناس حولها، بحيث لم يعد من معنى لحياتها إلا بهذا العمل، ربما لتعوض به عن وحدتها الروحية.

أما هند ذات الجاكتة الحمراء، التي كانت سليلة عائلة شيوعية مناضلة، انتظم أفرادها جميعهم في النضال من أجل مجتمع عادل وتحول منزل أهلها قرب التلال الجرداء إلى ملتقى اجتماعي ثوري، فقد تزوجت فجأة قبل أن تصل إلى العشرين، ضمنت مستقبلها مع تاجر ماشية بدوي قادم من الشمال، تجاوز الأربعين من عمره، قبلت به وبأغنامه دون أن يركض من أجلها صباحاً ومساءً نحو التلال الجرداء. وعندما التقيت بها مصادفة عند أصدقاء وكان ابنها يقف إلى جانبها، بطولي تقريباً ممتلئ الجسد بأصول بدوية. هند كبرت في العمر وزحفت تجاعيد خفيفة على وجهها، لم تعد تلبس جاكتة حمراء وفقدت بسمتها الساحرة، وعندما حيتني لم تسألني إذا مازلت أقر كثيراً.

وتزوجت سهير أحد الأقرباء، سافرت معه إلى بلاد الصحراء، حيث ذهب للعمل هناك، وتم حبسها في المنزل عشرين عاماً وهي

تنجب ولداً وراء آخر. وعندما عادت كانت تلبس جلباباً أسودَ، لا تظهر منه سوى عينيها، ثم تنازلت عندما استقرت في البلدة وكشفت عن وجهها فقط بعد أن وافق زوجها. وعندما قابلتها عند أقرباء لاحظت على طرفي يديها بثوراً، فأسرت لي قريبة أن المسكينة قد أصيبت بمرض جلدي وأصبح كامل جسدها مليئاً بالبثور، خجلت من سؤال قريبتي فيما إذا كانت البثور قد غطت ثدييها أيضاً.

أما جورجيت فقد هربت ذات ليلة مع شاب من غير دينها، كان قادماً من الشمال لتأدية الخدمة العسكرية قرب البلدة، وظل يغريها كل يوم بصدره العاري المنتفخ، وهو يمارس رياضة كمال الأجسام في غرفته المكشوفة أمام بيت أهلها، وعندما أنهى خدمته العسكرية اختطفها معه إلى الشمال حيث يسكن أهله. اضطرت أن تغير دينها حتى تكتمل أوراق زواجها الرسمية حسب القوانين المرعية في البلد وأن تختفي عن عيون أهلها، ويبدو أنها لم تستطع أن تغير عقلها وأفكارها، فعندما حاول زوجها وأهله أن يجعلوها ترتدي الحجاب على الرأس تنازعت معهم، وبقيت صادقة وصافية في داخلها. ثم هربت مع شاب آخر بعد أن حصلت على الطلاق بصعوبة، لتعيش في قرية بعيدة يعيش سكانها بوئام بتعدد أديان وطوائف ودون حجاب على الرأس، تعيش الآن بعيدة وحزينة، ولكنها مستقرة وأولادها يحتفلون بعيد الميلاد وعيد الفطر.

أما رولا فلم أستطع أن أعرف عنها شيئاً، سوى أنها انتهت في مستشفى للأمراض النفسية.

أغفو وأصحو، والليل يخيم على الغرفة والجو لازال عاصفاً في الخارج، ورد إلى جانبي متمددة، مضى يوم عطلة وسأذهب غداً إلى العمل، شربت معي القهوة والشاي ولكنها لم تطلب طعاماً، إذا لم أكن أنا جائعاً فلماذا أحرمها منه، تساءلت "ورد، هل أنت جائعة؟".

" لا، عندما تجوع أنت وترغب بالطعام أتناوله معك".

" ورد، اِبْقِ معي، غداً عندما أذهب إلى العمل تـستطيعين البقـاء في البيت، تقومين بترتيبه وتحضري طعاماً لنا".

" لا أستطيع".

" لماذا؟ أشعر بأنك تحبيني كما أحبك والانسجام موجود بيننـا، والأمور تسير بشكل حميمي طبيعي".

"لا أسـتطيع البقـاء في المـنزل، أنـا موجـودة فيـه عنـدما تكـون موجوداً فيه فقط".

"وأثناء غيابي أين تذهبين؟".

"أذهب، هذا سر لا أبوح به".

"ماذا يحصل إذا حضرت معي فتاة مثل شـيماء إلى المـنزل، هـل تأتين وتبقين؟".

"أكره شيماء، كدت أن تخونني معها وأنت تحاول دعوتها بشكل مستمر إلى البيت".

"كيـف تعـرفين بكـل هـذا! لا أفهـم، مـاذا كـان سيحـصل لـو تزوجتها؟!".

"كنت سأحاول أن أمنعـك، وإذا لم أنجـح بـذلك سـأغادرك إلى الأبد، ولن ترى وجهي بعد ذلك".

مطر غزير يهطل على المدينة، مطر يهطل في الغرفة، مطر يهطل في القلب، يذهب نظري إلى السقف، هذا المصباح الـذي يـشبه عينـاً زجاجية مزروعة فيه يزعجني، مالك المنزل قال لي " لا تهتم بـه, إنـه مصباح صغير معطل". يزعجني هذا المصباح ويوترني، يعطيني شعوراً بأنه يراقبني بشكل دائم.

* * *

"أبو رعد"- السيد لؤي

مطر غزير يهطل على المدينة، وغيوم سوداء مكتنزة بحبات المطر تجثم عليها، وكأنها لا تتزحزح من مكانها، مطر يغسل الشوارع والحدائق وأسطح المنازل والنوافذ والشرفات، يغسل الحزن من القلوب المختنقة وراء النوافذ المغلقة، ويدفعها إلى الشعور بالحنين والاشتياق للغامض والمبهم وراء حدود المطلق، فتبكي لتتخفف من ركام الأزمنة المُغبرة وحصار الأمكنة الترابية. صوت المطر يقرع النافذة بموسيقى الاشتياق إلى الحنين، وورد هي الحنين، فأشعر بالثقة لوجودها قربي، وأكتب بسكينة ومتعة طوال الليل. نامت ورد بعد انتشائها المجنون وتركتني أعمل، إلا أنه من وقت لآخر كانت تصحو للحظات، ترفع رأسها قليلاً كقطة تنشد لمسة حنان، تنظر إلي، وتبتسم بنداء سري للانسياب إليها، أبادلها نظرة حب عميقة، معللاً إياها بتسلل قريب إلى دفئها، وأرجع إلى أوراقي، فتعاود النوم من جديد، وأتابع الكتابة حتى الصباح.

أعمل الآن بتصميم على كتابي الجديد عن العوالم الداخلية للإنسان، فقد قررت التركيز عليه والمضي به إلى الأمام، بعد أن طال التفكير بموضوعه. ينبغي أن أكتشف معنى هذه العوالم وحدودها، الغنية بتنوعها، وعمقها، وقدرتها على سبر أسرار الذات، ومعرفة القوى الكامنة فيها وإمكانيات تفجيرها. وعليَّ أن أؤكد نظريتي أن ليست كلها تقود إلى العوالم الماورائية، على عكس ما يرغب صديقي الشاعر المجادل، وهو يحاول إقناعي أنها ستتطور في النهاية حتماً إليها. فقد كان عليَّ كشخص عقلاني أن أحاذر الوقوع في الأوهام، وأن أعيش في الواقع بشكل دائم، بين الناس الأحياء الذين يتحركون حولي.

عند الصباح قررت الذهاب إلى العمل، لا أشعر بالتعب أو النعاس على الرغم من ليلتي الحافلة بالنشاط بين السرير الدافئ والأوراق البيضاء التي أخذت تمتلئ، بالعكس داهمني إحساس بحيوية غريبة لم أختبرها من قبل. خرجتُ أنا وورد من البيت، دون أن أدري من أين أتت بملابسها، ثم مضت واختفت في حلكة رمادية زرقاء تحت المطر، دون أن تبوح لي إلى أين ستمضي، وأين ستقضي وقتها، وعدتني وقد تجرأت على منحي قبلة مجنونة في الشارع "عندما تعود إلى البيت ستجدني في سريرك".

أسير في الشارع وقد تملكني شعور بالرضى والانتشاء من ذكرى ليلة البارحة، جسد ورد اللافح ووضع المخطط الأولي للكتاب، يعززه الانتشاء الجميل بأجواء المطر، إلا أن ذلك كان يتناوب في داخلي مع مشاعر القلق والاضطراب، إذ لا أستطيع أن أفهم كيف مضت تلك الليلة مع ورد، لازلت غير مصدق، هل كان ذلك حلماً، أم هلوسة، أم حقيقة! ولكني أذكر أنه في لحظة خروجي من الغرفة لمحت فنجانيّ قهوة وكوبيّ شاي ببقايا شرائح الليمون، كانا لا يزالان على الطاولة الصغيرة قرب السرير.

أصل إلى مكتبي مبتلاً بماء المطر، أراجع برنامج العمل اليومي، وأقلب الصحف اليومية لمتابعة تغطية النشاطات الثقافية في المركز الذي أعمل فيه مشرفاً، يرافقني فنجان قهوة كبير في محاولة محو آثار سهر الليلة السابقة. يبدأ نهاري مع فيروز، دائماً أستمع إليها ساعة صباحية، تمنحني بشفافيتها معنى إنسانياً عميقاً ليوم جديد، وأضع بعد ذلك شريطاً لموسيقى شوبان في آلة التسجيل، ترافقني معظم النهار بصوت منخفض حالم، فتملئ أجواء المكتب بانسياب ألحان البيانو، وتعطيني القدرة على إنهاء الدوام الرسمي، الذي أصبحت أشعر به ثقيلاً بعد مرور أكثر من سنتين من العمل الإداري الروتينيٍ الممل في هذا المركز. ومن وقت إلى آخر أسترق النظر إلى الحديقة المعتنى بها بشكل جيد عبر

الجدار الزجاجي، حيث تنتظم الشجيرات والورود بين الممرات التي تقود إلى بحرات اصطناعية بنوافير، تسبح فيها بطات بيضاء مدللة. الأخضر بلونه الكثيف المشرق في الحديقة يعيد للنفس بعضاً من سكينتها، والماء المتساقط من هذه النوافير بأشكاله الجميلة المتناثرة ينعشها، وأنا بحاجة إلى ذلك يومياً، ولكن المطر يعطي الحديقة يوم هطوله ألقاً جميلاً مفتقداً في الأيام العادية، فيتحول استراق النظر إلى تأمل طويل يذهب إلى ما بعد الأخضر، وأصل إلى العيون العسلية.

يُقال لي دائماً أنه من حسن حظي أنني استطعت العمل في هذا المركز الرسمي المرفَّه، الواقع في أحد الأحياء الراقية من المدينة، التي تتكاثر فيها السفارات وأماكن سكن المسؤولين والدبلوماسيين وكبار التجار، فالحدائق الملكية الجميلة والشوارع النظيفة المزروعة ورداً هي سمة مميزة أينما تحركت، بعكس الحي الشعبي الذي أسكن فيه، حيث لا مكان يهرب إليه القلب ليرتاح من الركام المغبر المكدس في كل الزوايا، ومن الزعيق الصادر من وراء النوافذ. ولكن هنا لا هديل حمام ولا زقزقة عصافير، تصلني من وراء النافذة، وعوضاً عن ذلك لا تتوقف صفارات سيارات شرطة المرور، وهي تقطع الطرق باستمرار لتسهل مرور مواكب المسؤولين والضيوف الرسميين.

السكرتيرة الثلاثينية النحيلة تجلس في مكتبها الصغير الجانبي، أسمع صوتها وقد بدأت عملها الخاص الصباحي على الهاتف، الذي يستمر رنينه تقريباً طوال النهار، بالاطمئنان على أولادها، والاتصال بصديقاتها اللواتي أمضت معهن سهرة الأمس، تتخللها أحاديث طويلة مع عشيقها الأخير، تتبادل معه الحكايات والأشواق التي لا تنتهي، وإمكانيات اللقاء عند تغيُّب زوجها المسائي الطويل في العمل أو في أسفاره الكثيرة خارج المدينة. ذات مرة قال لي مدير المركز "اقبلها كما هي، ولا تكلفها بالأعمال التي لا ترغب بها، إنها مفروضة علينا من

أصدقاء يهمنا استمرار العلاقات الودية معهم، ولكن كن حذراً في الحديث أمامها".

يدخل المستخدم ويخرج إلى المكتب بشكل مستمر، ويسأل دائماً بطريقة لجوجة "أستاذ، هل تريد شيئاً؟". أطلب كأساً جديداً من الشاي كلما فرغ القديم، الشاي هنا دون رفاهية، لا شرائح ليمون ولا أوراق نعنع خضراء. ورد عرفت البارحة ما أحبه سريعاً، وشربت معي شاياً بشرائح ليمون وأوراق نعناع أخضر، حيث أحتفظ منها بشكل دائم في الثلاجة، كيف عرفت ذلك؟ هل دخلت إلى عقلي أم خرجت منه!

يتابع مساعدي عمله اليومي في تجهيز قاعة المحاضرات، الوضع في مركزنا لا يحتمل أية أخطاء تسيء إلى "سمعتنا الوطنية "مع كل الاحتفالات الرسمية التي تحدث فيه، وتبث غالباً بشكل مباشر عبر التلفزيون الرسمي، وتُغطى بوكالات الأنباء العالمية، أما النشاطات الثقافية فتحظى بشكل مسبق بموافقات رسمية ومتابعات من قبل أجهزة "حفظ الاستقرار الوطني"، وتُسجل كلها بالصوت والصورة في أرشيف منظم تلبية لمتطلبات الجهات المعنية.

صباح يوم يبدأ، مثل كل الأيام، قبل أن أضيع في زحمة الاتصالات الهاتفية وزيارات المراجعين، وما يتخلل ذلك من تسكع صحفيين وكتاب وأشباه مثقفين في مكتبي، يحضرون في أثناء ضغط الأعمال لشرب الشاي والقهوة وقضاء بعض من أوقات فراغهم، فأجاملهم بكلمات ودية بين اتصال هاتفي وآخر. صباح مثل كل الصباحات، مع استثناء صغير في هذا اليوم، فمساءً ستقام حفلة موسيقى كلاسيكية في المركز. وإلى هنا فالخبر عادي، ولكن الشيء الاستثنائي فيه أن العازف الضيف قدم من بلد أجنبي ليس لبلدنا معه "علاقات طيبة "على المستوى السياسي في هذه الفترة بالذات، في إطار التجاذبات الودية والتناقضات المتوترة، بتناوباتهما المستمرة.

وكان من الطبيعي أن تشارك سفارة بلاده برعاية هذا النشاط الثقافي الموسيقي، مما تطلب من أجهزة "حفظ الاستقرار الوطني "استنفاراً غير عادي.

كانت مثل هذه الحفلات الموسيقية شيئا عادياً في مسار الفعاليات الثقافية في المدينة، وأصلاً من كان يهتم بالموسيقى الكلاسيكية في هذه الأيام هم نخبة صغيرة من بقايا المجتمع المخملي بأصوله البورجوازية القديمة، التي وصلت إلى شبه الاندثار مع اجتياح الحداثة الثورية لطموحاتها الارستقراطية القديمة، وهي تحاول بحضورها مثل هذه المناسبات أن تثبت أنها مازالت تعيش، وإن كان ذلك على هامش الحياة والمجتمع، ولذلك لم يكن هناك أي اهتمام رسمي مباشر بها. لكن في هذه المرة كان الوضع مختلفاً تماماً، فهذه سفارة أجنبية تشارك في رعاية الحفل، والخطير أن العلاقات شبه متوترة مع الدولة التي تمثلها في هذه الفترة.

ومنذ بداية الدوام الرسمي في هذا الصباح حضر إلى مكتبي رجل ضخم في الأربعينيات من عمره، لمحته منذ أن كان يتقدم بخطوات سريعة في الممر مع ارتسام مظهر جدي على الوجه وثقة عالية بالنفس من طريقة اقتحامه الغرفة، يتبعه شاب نحيل يبدو أنه مساعده المرافق له، والذي لا يستطيع أن يجاريه بسرعة خطواته واتساعها. كان مظهرهما متناقضاً، إذ بدا الرجل الضخم عملاقاً بوجود الآخر النحيل إلى جانبه. حياني القادم بصوت عال وأجش "مرحباً يا رفيق، معكم "أبو رعد "من جهاز حفظ الاستقرار".

كان من المتعارف عليه عندهم أن جميع العاملين في الدولة هم من المؤتمنين على أسرارها الوطنية والمرضيين عنهم، ولاسيما في المجالات الثقافية التي تعد حساسة جداً في" الدفاع عن مكتسبات الثورة"، وإلا لما سُمح لهم بالعمل فيها. فهم جميعاً بالتالي إما رفاق أو أشباه رفاق، يتم الاستفسار عنهم بإجراءات أمنية معقدة قبل

قبولهم في العمل، وإن كان هذا لا يمنع تسلل بعض غريبي الأطوار أمثالي إلى المؤسسات الرسمية، تحت غطاء شهاداتهم التخصصية العليا. كانت اللهجة الآمرة للرفيق "أبو رعد "توحي بالثقة الشديدة بالنفس، وكأنه يريد إعطاء انطباع أنه قد تم اختياره لخبرته الكبيرة والطويلة في مجال عمله، وبما يتناسب مع مهمة شديدة الأهمية في هذا اليوم. ودون أن يجلس بادرني مسرعاً وبلهجة شبه آمرة بطلب معلومات عن أمسية الليلة في المركز، وعلى الرغم من محاولته أن يكون ودوداً إلا أن طبيعة لهجته القاسية وصوته الأجش ووجهه شبه المشوه فرضت جواً من عدم الإلفة، إضافة إلى أنني مسبقاً لا أرتاح للتعامل مع الجلفين، الذين لا يتناسب اختيارهم للتعامل مع مجال حساس جداً كالمجال الثقافي. فقدمت له بطاقة الدعوة للحفلة المتضمنة برنامج الأمسية، لكنني فوجئت برميها على مكتبي بنوع من اللامبالاة قائلاً "أخبرني مباشرة بالأشياء العملية".

فكرت بالأشياء العملية التي يطلبها "أبو رعد"، فهي ليست من اختصاصي كإداري، وقد أصبحت من كثرة التعامل مع هؤلاء العناصر أعرف ما يتم تكليفهم به وما هي الأشياء العملية المطلوبة منهم. فعليهم في مثل هذه الحالة أن يراقبوا بشكل خاص المواطنين المحليين الذين يحضرون إلى الأمسية، وبشكل خاص تتبع من يتحدث منهم مع السفير أو مع أحد أعضاء السفارة، وما يحدث بينهما من مصافحات ومعانقات وابتسامات ووشوشات وإيماءات وملامسات مرافق والتفاتات تبدو عفوية، فلكل شيء إيحاءاته الأمنية، ومن الممكن أن تأخذ تفسيرات ذات أهمية على المستوى الأمني، وتكشف ما "وراء الأكمة". ولذلك أستغربت الإلحاح على طلب المعلومات العملية عن الأمسية وبطريقة لجوجة، إذ يبدو أن الرجل قد كُلف بالمهمة الخطيرة على عجل وفي اللحظات الأخيرة، وحضر إلى مكتبي دون أن يكون لديه فكرة عما هو مكلف به. فأجبت

حتى أنهي المقابلة بسرعة "حفلة موسيقية تُعزف فيها مقطوعات لمؤلفين مشهورين".

يفاجئني بسؤاله "من هم هؤلاء المؤلفون؟".

فكرت قليلاً بماذا علي أن أجيبه، وتساءلت عن السبب الذي يدفعه للاهتمام بمؤلفين موسيقيين كلاسيكيين! فأجبت "شوبان، وموزارت، وتشايكوفسكي".

ولكن الدهشة تزداد لدي بسؤال جديد غير متوقع "وهل هؤلاء الأشخاص مضمونو الولاء لبلدنا وقضيتنا ولنهجنا الثوري؟".

يبدو أن وقع أسمائهم الغريبة عليه قد حرك حسه الأمني، وربما فكر مباشرة بأن يكون لهم علاقات أو صلات بدول معادية لنا. وحتى لا أدخل في متاهة شرح أن هؤلاء موسيقيون وليسوا محاضرين، وأنهم عاشوا في القرن الثامن عشر، حيث لم تكن دولتنا الثورية موجودة ولا الدول الإمبريالية المعادية لها، فقد اختصرت الحديث وقلت "بالتأكيد فهم مؤمنون بقضايانا العادلة، ويؤيدون حقنا في استرجاع حقوقنا المغتصبة من العدو الغاشم الذي ضرب عرض الحائط بكافة المواثيق الدولية، ودائماً كان يُسمح بدخولهم إلى البلد ويتجولون فيه بحرية كاملة، وقد شاهدوا آثار العدوان الهمجي في المناطق المحررة، وبالمناسبة فقد ألفوا في بلادهم جمعيات صداقة للدفاع عن مبادئنا الثورية العظيمة".

انتهى الحديث، فأنا مصدر ثقة للمعلومات وتقييمها مادمت موجوداً في مثل هذا الموقع.

"شكراً رفيق، تحياتي".

خرج "أبو رعد "هو ومرافقه النحيل مسرعاً كما دخل، وبنفس الثقة بالنفس دون أن يلتفت إلى الوراء. انتهت المقابلة المهمة التي ستقرر كيفية التعامل مع الأمسية الموسيقية، وذهب الرفيق "أبو رعد

"لوضع خطة ذكية لمراقبتها والسيطرة عليها، وربما سيحاول التعامل بلطف مع شوبان وموزارت وتشايكوفسكي، ويطلب منهم كتابة تقرير "ثقافي "عن الأوضاع في بلدانهم، ومن ثم رفعه إلى الجهات المعنية لدينا، لكي تستطيع اتخاذ القرارات المناسبة على ضوئه في الأزمات السياسية المستمرة في المنطقة.

أطلب كأساً جديداً من الشاي، صوت فيروز الصباحي ومنظر المطر عبر النافذة تستدعي ذكريات طفولتي في بلدتي الصغيرة القريبة من المدينة. كنت أستيقظ على صوت فيروز في الصباحات الباردة، وأذهب لأشتري خبزاً ساخناً من الفرن، تنساب أغنياتها من نوافذ المنازل، ومن البقاليات الصغيرة التي فتحت أبوابها باكراً، ومن سيارات الأجرة العابرة. ولكن "أبو رعد"، النسخة المعاصرة المهذبة لعناصر جهاز "حفظ الاستقرار"، أعادني إلى البلدة ليذكرني "بأبو أحمد "الذي كان يعمل مع هذا الجهاز في بلدتنا بنهاية الستينات، عندما كنت صبياً صغيراً وقد بدأت أكتشف العالم حولي. كانت مجموعته المؤلفة من خمسة رجال تقف برأس الشارع الرئيسي قريباً من الفرن بسيارتهم اللاندروفر، حيث يجلس السائق دائماً جلسة مواربة على مقعده وراء المقود وقد ترك الباب مفتوحاً وتدلت قدماه منه، في حين توزع الأربعة الباقون وقوفاً بجانبها، مستندين بظهورهم إليها أو متكئين على مقدمتها الطويلة، ويراقبون كل ما يتحرك في الشارع، حتى ولو كانت النملة، أما "أبو أحمد "فلا يفارق جهاز اللاسلكي الكبير يده. كانوا يثيرون الخوف بمجرد رؤيتهم، ليس بسبب الحكايات التي أكسبتهم سمعة مخيفة من مثل "اقتحام المنازل ليلاً "و "من يأخذونه لا يرجع"، وإنما أساساً من مظهرهم الذي يصدم. كانوا كلهم ضخام الجسد بكروش قاسية ممتلئة، تتدلى من فوق أحزمة البنطال، وبوجوه شبه مشوهة ترتسم عليها بقايا ندب من جروح قديمة، أو ربما قد ولدوا هكذا، وتزينها دائماً شوارب ضخمة

مشعثة لا تتناسب مع رؤوسهم الحليقة، ولا أتذكر أنني رأيتهم مرة بذقون حليقة. يلبسون دائماً ملابس قديمة فضفاضة، ربما كي تسمح لهم بحرية الحركة، في حين تبرز قبضة المسدس من البنطال فوق المؤخرة، وهي الإشارة التي تجعل رجل الجهاز معروفاً فيبتعد الناس عنه توجساً.

لا أعرف من أين تأتيني مثل هذه الصورة عن مجموعة "أبو أحمد "بجانب الفرن، الذي كنت أقف بالدور أمامه طويلاً، ربما تشوهت مع مرور الزمن! ولكن الذي لا أنساه أنه كان لي الشرف ذات مرة أن أصافح "أبو أحمد "وأنا واقفاً في الدور الطويل. جاء "أبو أحمد "وقتها وقد ابتعد الجميع عن طريقه، وأخذ أرغفة خبز نشرها على جدار مقابل لكي تنشف قليلاً، لا أتذكر إن دفع ثمنها أم لا. ولكن بما أن دوري كان أمامه فقد بدا وكأنه فوجئ بوجود صبي صغير عليه أن يأخذ دوره، وأخذ دوري طبعاً ولكنه حاول أن يعوض ذلك بلطف مفاجئ، فسألني "أنت ابن المرحوم "أبو محمد "الذي كان يقاتل في الجبهة في الخمسينيات؟".

وصافحني بيده، وهذا ما لم أنسه في حياتي، فقد أمسكت بيدي الصغيرة الناعمة يداً ضخمة خشنة قاسية وثقيلة، كادت أن تهرسها، واستمر الألم لدقائق بعد أن تركها من حرارة المصافحة الحميمية الودية. هل كانت تلك لحظة إنسانية من شخص تحفظ ذاكرة البلدة عنه أنه شارك في اعتقال شيوعيين وناصريين وبعثيين قدامى وقوميين سوريين منها في أوج الصراعات السياسية في الستينيات، مما لم يجعله محبوباً حتى في عائلته؟!

" أبو أحمد "عمل سائقاً على إحدى سيارات الأجرة بين البلدة والمدينة بعد صرفه من الخدمة إثر تغير في الأوضاع السياسية، ولكنه ظل أرعنَ وجلفاً طوال الوقت، تعرف بوجوده في الشارع دون أن تراه من صراخه الأجش بصوت عال، وبقي يأتي إلى المخبز ويأخذ حصته

من الأرغفة دون دور. وبسبب من تهوره في القيادة فقد توفي ثلاثة أشخاص بعد أن انقلبت سيارته نتيجة سرعته الزائدة عند أحد المنعطفات، وخرج حياً بعد أن تحطمت ساقه. لم يتأسف الكثير من الناس عليه، وانزوى بعدئذ في منزله الذي يملأه صراخاً دائماً بصوته الأجش، ولم يعد يخرج منه بعكازه إلا لماماً.

كان صوت فيروز مستمراً وأنا أنظر إلى الحديقة عبر النافذة، وقد اغتسلت تماماً بالمطر الذي كان يهطل منذ البارحة، ففي مثل هذه اللحظات الهادئة تتداعى الذكريات الجميلة المليئة بالمواقف الإنسانية. لكن زيارة "أبو رعد "المفاجئة قلبت الذكرى، فأتت صورة "أبو أحمد "القديمة، وهي صورة لازالت مستمرة، ولكن ليس بفجاجته التي وصلت إلى الذروة. فأمثاله من العناصر مازالوا يأتون إلى النشاطات الثقافية التي يقيمها المركز، يحضرون وكأنهم قادمون من ميدان معركة بلباسهم الميداني، لينهونها داخل المركز. يبحثون عن معلومات سريعة عن موضوع المحاضرة، ويحاولون معرفة من سيحضرها من المسؤولين عن طريق صغار الموظفين، ويعفون أنفسهم من متابعتها للتخلص من مآزق الضياع في متاهات العولمة والأسلمة وما بعد الحداثة والشيزوفرينيا والتفكيكية والشركات العابرة للقارات، التي لا تمس أمن الوطن ولا تهدده. وترتفع التقارير إلى الجهات المعنية أن الوضع في المحاضرات مستقر ومنضبط، فلم يتحدث فيها أحد عن العشائر والقبائل والطوائف والعائلات والأحزاب الحاكمة والمجموعات المعارضة في المجتمعات العربية، وأن الأمور بخير.

ذات مرة عند بدئي للعمل الجديد في المركز أقيمت حفلة موسيقى كلاسيكية، عادية مثل كل الحفلات، ودون رعاية من سفارة أو جهة أجنبية. كنت قادماً من السفر منذ مدة غير بعيدة، ولازلت أشعر بالانفصام بين هنا وهناك، بين النظام والفوضى، محاولاً التأقلم

مع الفوضى الطبيعية هنا. ومنذ بداية عملي، حاول اثنان من العناصر المتابعة للنشاطات في المركز إقامة علاقة ود معي، ربما لتأمين المعلومات لهم في الصباح عن النشاطات دون تكليف أنفسهم عناء حضورها في المساء، حيث تستمر إلى ساعة متأخرة. ولكن الأمور لم تنجح بيننا، إذ لم أكن أزودهم سوى ببطاقات الدعوة الرسمية، فأنا لا علاقة لي بالأمور العملية الخاصة بهم، ولم أكن حتى أعرفها في ذلك الوقت. ولكن فوجئت بقدومهم مساءً بعد بدء الحفلة بأكثر من عشر دقائق حيث أُغلِقت الأبواب بالكامل، ولم تُفتح لهم حسب التعليمات الناظمة للعمل، حتى لا يحدث تشويش على الفنانين الموسيقيين في أثناء عزفهم. كان على المسرح عازف غيتار كلاسيكي، بالكاد يُسمع صوت عزفه على الأوتار، وعادةً لا تستخدم هنا الميكروفونات لتقوية الصوت، وذلك لمعايشة أجواء العصور التي تم فيها تأليف الموسيقى القديمة. أما الحضور فقد كانوا يصغون بصمت عميق ليلتقطوا تلاعب أنامله الرقيقة على الأوتار والانفعالات المرافقة على وجهه. تسلل البواب بهدوء إلى الصالة حيث أتابع الحفلة، وهمس بأذني "اثنان من عناصر حفظ الاستقرار في الباب يريدون الدخول لمراقبة الحفلة".

أجبته بهمس ساخطاً "حتى أنت من غير المسموح دخولك إلى الصالة بعد بدء الحفلة، تعرف التعليمات".

"ولكن يا أستاذنا، هؤلاء من الجهاز ولا أستطيع التعامل معهم هكذا!". أصرَّ هامساً بأذني.

"قل لهم هذه هي التعليمات، ممنوع دخول أحد بعد بدء حفلات الموسيقى الكلاسيكية، كان عليهم الحضور مع الجمهور قبل إغلاق الأبواب، وكفى".

"ولكن يا أستاذنا هذه المرة معهم فروج مشوي ساخن مع كل المقبلات لكي تتعشوا معاً".

فروج مشوي! أستغربت ذلك، وساخن! بالتأكيد يجب أن يتم

أكلـه حـالاً، إذ إنـه سـيبرد حـتى انتـهاء الحفلـة، وأيـن سـنأكله مـع المقـبلات، في عتمـة الـصالة، أم في الـصفوف الأولى، أم قـرب العازف! ربما يظنون أنها حفلة طرب راقصة في أحد الملاهي، وربمـا وجدوها فرصة لتقوية أواصر الود والمحبة عن طريـق عـشاء فـاخر في جلسة شعبية خلال الأمسية، سنأكل وقوفاً ونعطي فخذاً شهياً للعـازف الضيف، كان يجب أن أسأل البواب إن كان قد أحـضروا معهـم أيـضاً زجاجة الويسكي، وإن كان لديهم استعداد لاصطحاب الراقصة معهـم في نهاية الحفلة!..... اعتقدت أنهم عادوا أدراجهم بعد عدم سمـاحي لهم بالدخول.

انتهت الحفلة في ساعة متأخرة، وخـرج الجميـع منـها، أَطفـأتُ الأضواء، وأَغلقتُ الأبواب الأوتوماتيكيـة في المركـز، وعنـد البـاب الرئيسي فوجئت أن العنـصرين مـازالا ينتظـران، لا أعـرف مـن أجـل ماذا! لإعطائي درساً في التعامل معهما، أم لأكل الفروج الذي أصـبح بارداً! وحتى لا أصطدم بهما وخوفاً من الاحتمالين خرجت مـن بـاب جانبي، وذهبت إلى البيت مسرعاً، إذ كانـت علـى وشـك أن تمطـر، دون أن يهمني معرفة إلى متى انتظروا.

في صباح اليـوم التـالي كانـت الـسماء ملبـدة بـالغيوم ومكفهـرة بالكامل، وهي تنذر بعاصفة شديدة، شعرت بقلق داخلي، فأسـرعت إلى مكـتبي في المركـز، جلـست لأطلـب فنجـان القهـوة، ولكـن السكرتيرة تفاجئني بأن المدير يتصل علـى الهـاتف بإلحـاح منـذ مـدة ولعدة مرات، وطلب منها إبلاغي بضرورة الحضور بسرعة إلى مكتبـه فور وصولي. سألتُ السكرتيرة "هل هناك شيء ما خطـير؟!"، رفعـت كتفيها ورسمت علامة استغراب على وجهها دلالة على عـدم معرفتـها بالسبب دون أن تنطق بكلمة، ولكـن مـا إن أسـرعت بالـذهاب حـتى كأنني لمحت ابتسامة خبيثة على فمها، أخفتها بسرعة عنـدما لاحظـت استدارة رأسـي باتجاههـا. هـل هنـاك شـيء خطـير! ربمـا لا، فعلـى الأغلب خُيل لي أنها تبتسم.

أذهب إلى مكتب مدير المركز، أقرع الباب بعد أن أخبرته سكرتيرته الحسناء بقدومي، أدخل، اتجه إلى طاولة المدير العريضة مباشرة، أفاجئ برجل عملاق جداً يجلس خلفها باسترخاء، مستنداً بأريحية على الكرسي ذي المسند العالي، التفتُ شمالاً فوجدتُ المدير جالساً على طرف الأريكة حتى يكاد أن يسقط عنها، وقد تضاءل حجمه أمام العملاق وأصبح صغيراً جداً. قلت في نفسي، إذا كان المدير "المدعوم جداً "يجلس هكذا، فمعنى هذا أن العملاق الجالس وراء المكتب هو رجل مهم ونافذ جداً. ذكرني شكل العملاق بـ" أبو أحمد "الذي عرفته في طفولتي، لكن بما أن العملاق أضخم كثيراً من "أبو أحمد "بلدتي ويجلس بهذه الطريقة وفي موقع المدير، فهو رئيس مجموعته، أو بالأحرى رئيس مجموعات فيها الكثير من "أبو أحمد".

يبادرني المدير دون أن يدعوني للجلوس "أنت حضرت منذ زمن قريب إلى الوطن وتعمل مباشرة في أهم مركز ثقافي في المدينة.....".

شعرت أن المدير يختار كلماته بعناية شديدة، يوجهها لي وهو ينظر إلى العملاق بين جملة وأخرى، وكأنه يأخذ موافقته ورضاه عما يقوله. يستمر المدير "أنت تعرف الظروف الصعبة والدقيقة التي يمر بها وطننا في ظل أوضاع إقليمية ودولية معقدة وحساسة، وأنت تعرف سياسة الغطرسة والتعنت والعدوان الإجرامي التي يمارسها الأعداء ضدنا، ويريدون بها سلب حقوقنا والنيل من صمودنا، منتهكين المواثيق والشرائع الدولية".

أحسست بالتعب، لا أدري من الوقوف أم من الخطاب الثوري المتفجر، فمثل هذا الخطاب يحتاج إلى جموع "غفورة "من الجماهير المناضلة، حتى تمتصه بالتصفيق والهتافات، لكنني متخلف فكرياً وعقلياً وإيديولوجياً في مثل هذه القضايا الوطنية، فجلست دون أن

يدعوني أحد إلى ذلك. فهمت الآن كيف أن المدير مدعوم جداً، مادام لديه مثل هذه المؤهلات الخطابية ذات المستويات العالية. يتابع المدير الحديث ناظراً إلى العملاق أكثر مما ينظر إليَّ "ولذلك يجب أن نفوت على الأعداء أية فرصة للتسلل إلينا وزعزعة الصفوف الداخلية.....".

تساءلت في نفسي ما علاقتي أنا بسياسة الغطرسة والتعنت وزعزعة الصفوف الداخلية، أنا رجعت إلى البلد كي أبحث عن عيون عسلية، ولا أظن أن هذا البحث سيزعزع الصفوف الداخلية!

يستمر المدير "أنت جديد هنا، ولك دورك المهم في دعم النضال الثوري والتماسك الوطني، أنت تشرف على نشاطات ثقافية حساسة، قد يتسلل الأعداء وطوابيره منها إلى صفوفنا بالأفكار المخربة، وأنت مثقف وتعرف ما معنى غسل عقول المواطنين الشرفاء، إنما عملك البارحة في الأمسية الموسيقية لم يكن مشرفاً وغير متعاون مع الأجهزة المختصة. أرجو أن لا يتكرر ذلك، سنعتبره سوء فهم هذه المرة، ولا تزعزع ثقتنا وثقة القيادة فيك. شكراً، تستطيع العودة إلى عملك".

نهض العملاق ـ أقصد "أبو أحمد "العملاق ـ فجأة، فقفز المدير القزم واقفاً وابتعد إلى الوراء، مدَّ "أبو أحمد "العملاق يده لي مصافحاً من وراء الطاولة، أمسكت يدي الصغيرة الناعمة التي اعتادت الكتابة يداً خشنة قاسية وثقيلة، وشدت عليها، كادت أن تهرسها، يتكلم أخيراً بصوت جهوري بعد أن كان صامتاً طوال الدرس الوطني لي "نحن نقدر التزامك بالتعليمات الإدارية، ونتمنى أن تتعاون معنا دائماً". وهز يدي عدة مرات تعبيراً عن الاتفاق والعلاقات الطيبة الجديدة التي سنبدؤها من هذا اليوم، وعندما سحبتها بقي الألم يرافقني دقائق من حرارة المصافحة. وبالرغم من محاولته الودودة، فقد كان قاسياً في كل شيء، ليست فقط يده، وإنما أيضاً صوته،

وتعبيرات وجهه، وهامته العالية، وطريقة حديثه. تراجعتُ مرتبكاً وانسحبتُ، حتى إنني كدت أتعثر بالسجادة الفاخرة التي تزين مكتب المدير، السجادة التي جاءته هدية من أحد أصدقائه التجار عندما استلم منصبه، هذا ما قيل لي! ربما هذه أقاويل تلاحق المسؤولين الصغار. وتذكرت هنا بالضبط عبارة زعزعة الصفوف الداخلية، فتراجعت عن التفكير بالسجادة الفاخرة.

خرجت من المكتب، بقيت السكرتيرة مهتمة بعملها دون أن ترفع رأسها نحوي، ربما هي مفروضة عليه أيضاً من أصدقاء يهمه استمرار العلاقات الودية معهم، وإلا لما كانت تتصرف بهذا الاستعلاء. لكن في أثناء خروجي لمحت أيضاً على فمها ابتسامة خبيثة، أخفتها عندما لاحظت استدارة رأسي إليها، أو ربما خُيل لي ذلك. رجعت مسرعاً إلى مكتبي، أغلقت على نفسي الباب، لأضع خطط التعاون الدائم، الإستراتيجية والتنفيذية، حتى لا تهتز ثقة الإدارة والقيادة بي. وأخذت أفكر طويلاً وأبحث أين لم أكن متعاوناً البارحة بالضبط، مما كاد أن يؤدي إلى زعزعة الصفوف الداخلية، وربما فتح ثغرة في الجبهة الداخلية يتسلل منها الأعداء! لم أعرف أين بالضبط. وعلى الأغلب أظن أن عدم التعاون قد ظهر حينما تسببت بضياع نكهة الفروج وهو ساخن، إذ ربما ستتكلف الميزانية العامة أموالاً طائلة من أجل إعادة تسخينه..... ولكن الحادثة مرت بخير. وللأسف لم يعد أحد يدعوني إلى فروج مشوي أو ما شابه حتى أكون متعاوناً، بل لأظهر حماسي الشديد للتعاون، ولكن الجيد أنه لم يكتشف أحد من المسؤولين أنني كنت أفضل البحث عن عيون عسلية في هذه الحفلات، بدلاً من تناول فروج مشوي ساخن مع المقبلات من أجل عدم زعزعة الصفوف الداخلية، ونجوت في هذه المرة.

زيارة الرفيق "أبو رعد "ذكرتني بـ" أبو أحمد "الذي عرفته بلدتنا في طفولتي، يبدو أنني كبرت، وذهبت إلى الخارج، ورجعت، ولا

زلت أصادف أمثال "أبو أحمد"، بـل ووجدتـه في مركـز عملـي، وإن كان ذلك بشكل أكثـر تهـذيباً، ولكنـه كـان قـد تـضخم بطريقـة غـير معقولة، ربما تعبيراً عن تضخم سلطاته ونفوذه، وعلـى كـل الأحـوال فهم جميعاً يجعلونك تخـاف في النهايـة، وإذا مـا كـان لـك الـشرف وصافحت أحدهم مصافحة ودية؛ فإن يدك تكـاد أن تنـهرس، وتبقـى متألمة لدقائق من حرارة المصافحة. صديقي عمار الذي رأيته آخر مـرة قبل السفر، كان يفهم الأوضاع ويحللها بـشكل جيـد، وربمـا لأجـل هذا اختفى، وعلى كلٍ كانت إحدى اكتشافاته المهمة أن داخل كل منا يوجد "أبو أحمد"، وظيفته ضبط تصرفاتنا وأفكارنـا ومراقبتـها، وبمـا فيها بشكل خاص أحـلام اليقظـة، لكـي تنـسجم حياتنـا بالكامـل مـع مسيرة الثورة والوطن. وبصعوبة تخلصت من "أبو أحمد "في داخلـي، والصعوبة فيٍ ذلك ليس فقط لشدة بأسه وتشبثه للبقاء في داخلي، بـل لتعاونه أيضاً مع أستاذ الديانة، رمـز القمـع الـديني في بلـدتنا، الـذي حاول أيضا أن يعشش في داخلي. كنت بحاجة للخروج من البلد حتى أستطيع الخلاص منهما معاً، ونجحت عندما خرجـت، ولكـن أحتـل مكانهما قادم جديد إلى داخلي، وأخذ يحاول ضبط تصرفاتي وطريقـة أفكـاري وأحـلام يقظـتي بالطريقـة نفـسها، تـسلل المنقـذ الأمريكـي العالمي، الذي قرر أن ينقذنا من ذواتنا، بالسلاح الأمريكـي أو الحلـم الأمريكي لا يهـم، ولـذلك لم يكـن مـن الـسهل مقاومتـه ولفظـه إلى الخارج، ولا يهم إن كنت في أي بلد، فوجـوده يختـرق البلـدان كمـا العوالم الداخلية.

أستيقظ مـن تـداعي الـذكريات وأحـلام اليقظـة الـتي أصـبحت ترافقني بشكل دائم، حتى ولو كنـت أتحـدث مـع أحـدهم، وكـأنني أهرب بواسطتها من مواجهة الواقع الذي يحاصرني دائمـاً بعبثيتـه..... مرت على زيارة الرفيق "أبو رعد "حوالي ساعة مـن الـزمن، أرد علـى بعض الاتصالات، أشرب الشاي وأتأمل عبر الزجاج الجداري المطـر المتساقط على الحديقة. انقطع المطر فجأة، ولكن الشمس لم تـشرق،

فقد حل مكانها ضباب مُلغز كثيف، بحيث اختفت معالم الأشياء وحدود الأمكنة في نسيجه القطني المسحور، أصبحت أشجار الحديقة أشباحاً متأرجحة متراقصة مسافرة في المبهم، لا يمكن معرفة ماذا تخفي وراءها، وكأن شيئاً غريباً غير متوقع يمكن أن ينبثق من خلفها في أية لحظة. ومع أنني أحب أجواء الضباب بسبب المجهول المختبئ خلفه، إلا أن ضباب اليوم يبعث على القلق الشديد، وترقب ظهور شيء مفاجئ، بحيث أن مجرد التفكير بذلك يجعلني أتوتر بشدة.

لم تمض أكثر من ساعة على ذهاب "أبو رعد "حتى فوجئت بانبثاق رجل أمامي في الثلاثينيات من عمره، ممشوق القامة، وسيم الوجه، حليق الذقن والشارب، أنيق المظهر، ببذلة وربطة عنق فاخرة، يتبعه رجل في الأربعينيات أشقر الشعر، لا يقل أناقة عن الأول، لكن دون ربطة عنق. تقدم من طاولتي، وصافحني محيياً بود وممسكاً بيدي طويلاً، وكأن هذه الحركة مبادرة تعبير عن الرغبة في إيجاد حميمية خاصة بيننا من اللقاء الأول، وكانت النتيجة أن فرضَ وجوده عليَّ مباشرة منذ اللحظة الأولى للقائه بطريقة لطيفة، وإن كانت لا تخلو من المداهنة.

سألني بتهذيب شديد "هل نستطيع الجلوس وحدنا والتحدث لبعض الوقت، نحن من "جهاز الإشراف الحضاري ـ قسم المعلومات". ثم عرفني على مرافقه "السيد لؤي، مساعدي والمسؤول عن نشاطات المراكز الثقافية في المدينة".

صافحني المرافق مبتسماً بنظرة ثعلب ماكر، اقتحمتني بعنف دون أن أستطيع ردها.

طلبت قهوة وجلسنا معاً على الأرائك مقابل طاولتي، وأنا أتساءل في نفسي عن هذا الجهاز المعلوماتي الجديد الذي لم أسمع به، "الإشراف الحضاري ـ قسم المعلومات "! بالتأكيد هم قادمون

أيضاً من أجل الأمسية الموسيقية، فمثل هذه الحفلة الخطيرة لا ينبغي أن تفوت مراقبتها على أي جهاز في البلد. لكن فكرت بأن هذا جهاز غريب تماماً، فعناصره لا تمتلك قبضات قاسية شديدة تؤلم اليد عند التحية، هل هؤلاء الذين يضربون بأيدي مخملية، فيكون تأثيرها أقوى من القبضات الحديدية!

جاء المستخدم بالقهوة، فنهض السيد لؤي وأخذ فنجان قهوة وقدمه بانحناء واحترام شديد للشاب ذي ربطة العنق "تفضل معلم".

يبدو أن "المعلم "ذو رتبة عالية مع أنه ليس عملاقاً، وأن كل ما يجري أمامي الآن يختلف عما حدث مع المعلم "أبو أحمد "العملاق ومع "أبو رعد". دهشت عندما أخذ "المعلم "يحدثني عن الحديقة الجميلة التي يطل عليها مكتبي بدلاً من أن يطلب معلومات عن الأمسية الموسيقية، قال لي دون أن ينظر إليَّ "مكتبك يطل على حديقة جميلة، ولكن هذا الضباب يخبئ خلفه المجهول، لا تعرف ماذا يخفي وراءه، وكأن شيئاً غريباً غير متوقع من الممكن أن ينبثق خلف هذه الأشجار الأشباح!".

شيء ما غير متوقع، هذا ما كنت أفكر به قبل قليل! هل قرأ أفكاري، أم هو نوع من التخاطر بيننا، أم أن المنظر الواحد يعطي إيحاءات متشابهة؟ يتابع "المعلم "الحديث وهو ما يزال ينظر إلى الحديقة "أمام منزلي حديقة صغيرة، عندما يزهر الياسمين بزهوره البيضاء فيها مع قدوم الربيع يصبح كل الشارع محملاً بشذاه العبق".

وفي أثناء ذلك يتابع السيد لؤي كل حركة أو إيماءة تصدر من "معلمه "ليؤكد موافقته وثناءه على كل ما يقوله، دون أن تغادره الابتسامة والنظرة الماكرة كلما التفت إلي. لم أكن أعرف أن هناك في الأجهزة من لديهم هذا الحب للطبيعة وبمثل هذه الشاعرية الرقيقة، ربما هذا "المعلم "حالة استثنائية، وعمله بعيد عن ضرورات استخدام العنف ومتطلباته.

فاجأني "المعلم "وهو ينتقل من الحديث عن الحديقة موجهاً كلامه ونظراته إلي مباشرة "كيف أحوالك هنا بعد أن رجعت من سلومانيا؟"، أجبت "بخير"، فأردف "الذين بقوا هناك بعد إنهاء دراستهم ولم يلتزموا بالعودة أساؤوا للوطن، بركضهم وراء المال والجنس وإغراءات الحياة الغربية..... وللأسف من كُلف من الأجهزة والرفاق بمتابعة دراسة هؤلاء الطلاب وتصرفاتهم اللاوطنية هناك هو نفسه من أساء للوطن قبلهم، عندما اهتم بتصريف العملة الخضراء لحسابه بنسبة سرقة عالية، والتجارة بالسيارات المستعملة مُستغلاً بساطة القادمين الجدد للدراسة، والافتخار بتعداد الفتيات اللواتي استطاع فض بكارتهن، أكثر مما اهتم بأوضاعهم النفسية وانحرافاتهم، بحيث انتقلت العدوى منه إلى هؤلاء الطلاب! أما أنت فكنت وطنياً بعودتك، وبالأصل أنت لم تنغمس في تلك الممارسات".

كدت أفغر بفمي لدهشتي عما يعرفه عن أوضاع الدارسين في الخارج، ربما هذا "المعلم "قد درس معهم وعاش حياتهم حتى تجمعت لديه مثل هذه المعلومات الدقيقة، أو لديه جهاز منظم هناك يزوده بكل تحركاتهم. لكنني أردت أن أشرح له أن المسألة ليست وطنية أبداً بشأن عودتي إلى البلد، حتى لا يبني آمالاً كبيرة على تعاوني معه. القضية تتلخص ببساطة في أنني كنت هناك مهتماً بالعيون وإيحاءاتها إلى جانب دراستي التخصصية، ومن خلال تعاملي مع الفتيات في سلومانيا وجدت أن لديهن عيوناً رمادية فقط، رمادية باردة لم تثر اهتمامي ولم تحرك مشاعري، إذ لم يكن يهمني تعدادها بقدر ما كان يهمني معرفة أعماقها وسبر أغوارها وقدرتها على إثارة الأحلام لدي، وعندما فقدت الأمل منها في النهاية رجعت إلى هنا، هكذا وببساطة، لأبحث عن عيون عسلية حقيقية دافئة، جاءتني في ذات حلم، وقالت لي إنَّها تنتظرني.

إلا أنه لم يترك لي المجال لأجيب بشيء، إذ إنه استمر بالحديث وهو يتنقل بطريقة ذكية بين المواضيع، ونظره لا يفارق الحديقة من جديد "أحب موسيقى شوبان، يعدونه في بلده بمثابة بطل قومي، وكان هناك نية لنقل رفاته إليها من فرنسا ولم أدر ما حدث بعد ذلك، أما موزارت النمساوي فقد أصبح معروفاً لدينا على المستوى الشعبي، بعد أن أخذت فيروز لحناً لأغنية لها من السيمفونية الأربعين له، وتشايكوفسكي لا أحب موسيقاه الروسية الصعبة، بعكس مواطنه ريمسكي كورساكوف بعمله الممتاز عن ألف ليلة وليلة".

وكمن أصابتني صاعقة، هل هذا رجل من الأجهزة، أم متخصص بالثقافة الموسيقية! "الإشراف الحضاري ـ قسم المعلومات"، إذا كان لديهم مثل هذه المعلومات عن موسيقى الأمسية، فهم يعرفون ما يريدون بالضبط منها.

لم يعد "المعلم "يتحدث عن الموسيقى ـ أقصد عن الحفلة الموسيقية ـ، إذ انتقل للحديث عن موضوع آخر "العالم يتغير بتحولات عنيفة، المعرفة الصحيحة والتحليل المعلوماتي الدقيق هما الآن أساس نجاح أي جهاز يهدف إلى الحفاظ على أمن الوطن من خلال استباق الأحداث وتوقعها، العولمة تجتاح الآن جميع المجتمعات تحت مظاهر الأمركة، وعلينا أن نحافظ على هويتنا الوطنية دون الانجرار في الوقت نفسه إلى الأسلمة".

تصيبني الدهشة من جديد، من أين "للمعلم "مثل هذه المعلومات، وهو لا يحضر المحاضرات السقيمة في مركزنا! على الأغلب هو من يطلب كافة تسجيلاتها، ويستمع إليها. ربما بدأت أفهم الآن سر هؤلاء الشبان النحيلين الذين كنت أظنهم يعملون لصالح أحد مراكز الأبحاث، التي تنتهي كلها بكلمة "إستراتيجي"، إنهم تابعون بالتأكيد "لجهاز الإشراف الحضاري ـ قسم المعلومات". تقارب أعمارهم الثلاثينيات، وقد لفت انتباهي التزامهم بحضور

النشاطات كافةً في المركـز، دائمـاً بملابـس مرتبـة، وسـيمو الوجـه، حليقو الذقن والشارب، وإذا كان لـدى أحـدهم شـارباً فهـو خفيـف. كانوا يختلفون عن طلاب الجامعة، على قلتهم، الذين يمكن التعـرف عليهم مباشرة من مظهرهم، مشعثو الشعر واللحى، يحملـون صـحفاً وكتباً، ويثيرون الصراخ والفوضى أينما تحركـوا. كمـا إنهـم يختلفـون عن الحضور التقليديين الذين اعتادوا متابعة النشاطات في المركز بدلاً من الذهاب إلى المقاهي، وهؤلاء يمكـن معرفتـهم بـسرعة أيـضاً، إذ إنهم سرعان ما يغطون في النوم مع بدء المحاضرة. أما هـؤلاء الـشبان النحيلون، الذين يحملون دفاتر مفكـرات في أيـديهم، فهـم يحيـونني دائماً بتهذيب شديد مع ابتسامة وانحناءة خفيفة من الرأس، إذ يعرفون عملي هنا، ولكنهم لا يتحدثون إلي ولا يطلبون أيـة معلومـات. ومـع زيارة مثل هذا "المعلم "بدأت أفهـم سـر تـصرفاتهم اللبقـة والتـزامهم بالحضور، حيث هم أول الواصلين وآخـر المغـادرين مـن الحـضور. يتابعون المحاضرات بانتباه دون المـشاركة بالنقـاش، وموجـودون في أي تجمـع في بهـو المركـز لمـا يزيـد عـن شخـصين، يـستمعون إلى التعليقـات بعـد انتـهاء المحاضـرة، وقـد يـنزوون جانبـاً ليـدونوا ملاحظاتهم على دفاترهم. لا أتذكر أنهم غادروا محاضـرة أو انـسحبوا منها، حتى ولو كانت عن التفكيكية أوالـشيزوفرينيا أو احتمـال وجـود عوالم أخرى في كواكب أخرى غير كوكبنا، وكـأنهم يفهمـون كـل مـا يقال فيها.

يعيـدني صـوت "المعلـم "إلى الواقـع "أتحـدث معـك كمثقـف وطني......".

علت وجهي طيف ابتسامة شبه ساخرة مع كلمـة "وطـني"، فهـا هو يكررها للمرة الثانية، ولكن يبدو أن السيد لؤي بنظرته الماكرة قـد التقط بسرعة الابتسامة برغم غياب أية إيماءة واضحة لهـا، كـان كمـن يقرأ الأفكار. من الجيد أن "المعلم "قد توقف هنا بحـدود معرفتـه لي،

فمصطلحات "وطني "و "حقنا المشروع الذي تكفله المواثيق الدولية "و "الأوضاع الصعبة والخطيرة التي تمر بها المنطقة "التي أسمعها منذ أن وعيت على الحياة، لا تدخل في قاموسي الفكري، وكنت أفضل أن يبقى الحديث محصوراً بشذى عطر الياسمين في الحديقة أمام منزله. ولكن المعلم لم ينته من معلوماته عني! فقد خُيل لي أنه قد توقف، استمر بالحديث "أطلعت على كتابك، أكاديمي من الطراز الأول، ولكنك تخفي آراءك السياسية خلف السطور بمهارة، كما تصلني تقارير عن محاضراتك الأخيرة، وخاصة موضوعك الجديد عن العوالم الداخلية للإنسان، وتأكيداتك بعدم امتداداتها إلى العوالم الماورائية".

شعرت فجأة بأنني أصبحت شبه عارٍ وقد تصبب العرق من جبيني، وقبل أن أبادر إلى قول أي شيء نظر إلى ساعته ونهض فجأة، يبدو أن الوقت المحدد لزيارتي قد انتهى، قال "ربما لن أراك قريباً، ولكن السيد لؤي سيتابع النشاطات في المركز".

ممشوق القامة أنيق الثياب ينهض بثقة ويعرف ماذا يريد هذا "المعلم"، إذاً هو واحدٌ من أولئك الشبان المسؤولين الذين يحضرون افتتاح معارض الفنون التشكيلية ومعارض الكتب، يوزعون التعليمات على عناصرهم، ثم يتجولون في المعرض وقد تأبط ذراعهم مفكرون وصحفيون وناشرون وإداريون في مناصب عليا، ويتبادلون الأحاديث والطرائف، ويحتفون ببعضهم باستعراضية ظاهرة: الشبان المسؤولون لإظهار قدرتهم على خرق صفوف المثقفين والإداريين بذكاء ولطف غير معروف عنهم مسبقاً، والمثقفون والإداريون لإظهار حظوتهم لديهم وإبعاد الشكوك عن ارتباطاتهم المالية بمراكز الفساد.

نهض "المعلم "وقد أربكني حضوره وقدرته على توجيه الحديث وقراره إنهاء الزيارة، فيما كنت أنا سلبياً طوال الوقت، لم يكن أمامي من مجال سوى أن أسأل، وأتذكر، وأجيب بنعم. وحتى

أستعيد بعض الثقة بنفسي سألته متلعثماً وهو يودعني "والأمسية ألا تريدون أية معلومات عنها".

فوجئت بنفسي وأنا أقدم خدماتي لأول مرة ودون أن يطلب أحد مني ذلك، أجابني ودون أن يلتفت إلي "نحن نتدبر أمورنا، ولكن أرجو أن تتعاون مع السيد لؤي".

ودعني السيد لؤي منحنياً بتهذيب دون أن تفارق الابتسامة والنظرة الماكرة وجهه عندما ينظر إلي، "سنلتقي "قال لي.

ويبدو أن المفاجآت لم تنته، "المعلم "كان يبتعد بخطوات هادئة وقصيرة، ولكنه كان مستمراً بالحديث "انتبه ورد تكاد تفضح كل شيء عنك، انتبه أين تقضي وقتها في غيابك عن البيت".

ورد؟! هل وصلت الأمور إلى هنا.

أنظر إلى النافذة، عاودت السماء تمطر غزيراً.

* * *

صديقي

صديقي رجل نزق، انفعالي، متوتر بشكل دائم، إلا أن ملامح وجهه تمتلك تعابير الثقة بالنفس، مما لا يعكس قلقه الدائم في داخله. وبالرغم من غرابة جسده الممتلئ وهامته القصيرة فإنه يمتلك وسامة تجعله إلى جانب حديثه الممتع محبوباً قريباً من القلب، وبشكل خاص بين الفتيات. يعيش حريته الشخصية منفلتاً من القوانين والتحريمات، فلا يقف شيءٍ أمام جموح خياله، وخاصة عندما ينظم أشعاره، التي يلقيها دوماً في أثناء لقاءاته المسائية مع أصدقائه، بحيث يختلط الشعر بالحديث اليومي. وإذا ما شعر بالضجر من شخص ما، يبتعد عنه، ويتخلى عنه ببساطة مهما تكن العلاقة بينهما، وإذا ما أحب شخصاً ما يبقى يشرب معه نبيذاً ويلقي عليه أشعاره، والتي غالباً ما ينسى تسجيلها. "سيأتي دائماً غيرها"، هكذا كان يقول.

"العنب ذاكرة الأرض منذ أقدم العصور، يختزن حنين الأيام للكلمات التي ترتسم شعراً، ومن لا يصنع نبيذاً من العنب وينتشي به حتى الثمالة يفقد رائحة الأرض والقدرة على استحضار الكلمات، ويصبح عندئذٍ بلا جذور ولا حنين، مطروداً من جنة السكارى الحالمين "يردد دائماً.

أسأله "وشِعرك المجنون".

"هو نشوة النبيذ المعتق، الذي يجعلك تعود حراً عارياً، تتمدد على أغصان شجرة عالية تصل بك إلى النجوم، وتسخر من الذين تحت، الغارقين في خوائهم الروحي"، يلفظ هذه العبارة وهو مغمض العينين، وكأنه يحلق عالياً بخياله.

"إذاً لا شِعر دون انتشاء بنبيذ معتق، يا صديقي"،

"بدونهما لا تولد الأشياء والكلمات، وعندما أموت سأطلب من

الأصدقاء أن يدفنوني تحت كرمة، وليتركوا لي أوراقاً وأقلاماً وشمعة في القبر لاستمر بكتابة الشعر، وعندئذ سترى كيف سيعرش السهل كله بكروم عنب، وسيزداد عدد السكارى الحالمين".

"وهل يوجد مكان للمطر والموسيقى في كل هذا؟"، أسأله وكليّ رغبة أن أجد تقاطعاً بين عالمينا.

"ستجعلنا الأيام نرى إذا كان هناك علاقة بين الشعر والمطر، وبين الموسيقى والنبيذ".

يأتي الشعرُ صديقي من رغبته بالتمرد وعدم رضاه عن كل ما يدور حوله، يلقيه عفوياً على مسامع أول من يلتقيه، بشرط أن يكون قد شرب معه نبيذاً ذات مرة، فالنبيذ عنده علامة اللقاء على طريق الصفاء والتواصل الإنساني. تتدافع لديه الإيحاءات الشعرية في الشارع، والمقهى، والمنزل، وأجملها ما يكون في السرير عندما ينام مع فتاة يظن أنه يحبها بعد أن يكون قد شرب حتى الثمالة، وكثيراً ما يظن! أما أعمق الأشعار فتأتيه عندما يشرب من "المشروب السحري "في قريته البعيدة برؤوس الجبال، هكذا يقول لي، هناك تنفتح شهيته لاختراق حدود المكان والزمان، فيُنزل الآلهة من السماء، ويرفع مكانها آخر فتاة يعشقها، ويجعل المطر يهطل صيفاً، والشمس تنير السماء ليلاً.

وفتيات صديقي العشيقات أصبحن كثراً، يأتين كأسراب الطيور ويذهبن، فعندما تتجاوز إحداهن الحدود وتُلمح للاقتران به يتململ، ويقلع عن التغزل بها، والإقلاع عن البوح بالغزل شعراً معناه عند صديقي الضجر، ثم الهروب من الوقوع في الفخ. لميس هي الفتاة الوحيدة الذكية التي فهمت اللعبة، جعلته يتعلق بها دون أن يشعر بالضجر أو الملل، ومنذ مدة طويلة يتغزل بها في السرير وخارجه، بل بدأ يفكر بتسجيل أشعاره فيها، ولكن بالرغم من ذلك فمن غير المعروف متى سيضجر منها، وهي ما تحاول تأجيله.

"ربما سينهار في النهاية، ويقع"، أسرت لي ذات مرة هامسة.

يبدأ جنون صديقي مساءً، شعراً ومشروباً ومجوناً، أما في أثناء النهار فيحاول أن يكون عملياً جداً من أجل استمرار نجاح دار نشره. يقمع رغباته ونزواته وتقلباته، يكتفي بالشاي والقهوة، ويتوقف عن إلقاء الشعر، وتتحول فتاته الأخيرة من عشيقة إلى موظفة منضبطة في داره، ريثما يأتي المساء فقط. يحاول في زحمة العمل أن يكون دمثاً مع مجموعة واسعة من المثقفين يترددون إلى دار نشره، بما يشبه التسكع، كما يحدث في مكتبي بالمركز، روائيون وشعراء ومفكرون ومترجمون وصحفيون، من المبدعين وأشباه المبدعين الراغبين بالتسلق عن طريق الكتابة، وإلى جانبهم سياسيون قدامى فقدوا أمجاد قيادتهم "للمسيرات الثورية "المُجهضة. صديقي نفسه كان ينوس قديماً بين انفلات الجنون الفردي والهوس الشعري من جهة وبين متطلبات النضال الثوري ومحاولة تأطيره واجهة ثقافية لحزبه من جهة أخرى. وحسم أمره أخيراً، وقرر أن يناضل وحده على طريقته الخاصة، وأن يهيم كالريح وحده، فأسس دار نشر ناجحة، يعمل فيها صباحاً حيث يشرب الشاي والقهوة فقط، ومساءً ينظم الشعر، ويعشق النساء، ويشرب نبيذاً. ومن وقت لآخر يزور بلدته الواقعة في رؤوس الجبال، ليتناول هناك المشروب السحري الذي يجعله يحلق عالياً ويتصل بالسماء.

"تكتسب الحياة معناها وتجددها عندما تدور حول ثالوث مقدس، الشعر والعشق والنبيذ، وعندما تنتعش أنت بالأمل تستطيع أن تمنحه لمن حولك "قال لي ذات مرة.

أسأله "ومشروبك السحري في القرية ؟".

يجيبني، وقد ظهر السرور على أسارير وجهه وارتسمت ابتسامة واسعة على فمه، "إنه ذروة الانتشاء، هل تعرف نشوة الوحي الشعري، ونشوة الاتصال بجسد تعشقه، ونشوة الانفصال عن الوعي

بالنبيذ، شرابنا السحري في القرية بأعالي الجبال يحقق هـذه النـشوات الثلاث معاً، وهو ما يجعلك تحلق عالياً في الـسماء"، ثم يكمـل بعـد لحظة صمت وتأمل "يجب أن تتذوقه كي لا أبقى أشرح لك طويلاً".

" أحضر لي معك زجاجة في المرة القادمة عنـدما تـزور القريـة، وسنشربه معاً هنا في المدينة، هل أنت موافق؟".

يضحك صديقي بقهقهة عالية "عندما يخرج هـذا المـشروب مـن القرية يفقد قيمته هنا في الغرف المختنقة، يصبح مـاء. يكتـسب قوتـه الـسحرية مـن وجـوده في أعـالي الجبـال، ومـن الأجـواء الماورائيـة المحيطة بها، وأخبرك أننا لا نشربه من زجاجة، بل بقدور صغيرة مـن الفخار، نغترفها من جرن حجري يعـود إلى عـصور قديمـة، العجـائز يقولون إنه مقدس، يسكب قواه على شاربه، ولذلك سنذهب معـاً إلى القرية في المرة القادمة لتعيش معي التجربة".

صديقي صاحب مشروع ثقافي ارتبط اسمـه بـدار نـشره، لم يجـرؤ أحد على تبنيه من قبله خوفاً مـن نـزوات الـسلطة وتقلباتهـا، وبـالأخص خوفاً من المتعصبين الخضر والمتعصبين السود، فهو يعمـل علـى جمـع تراث المجموعات العديدة في المنطقـة ونـشرها، والمختلفـة فيمـا بينـها بعوالمها الماورائية، ويهتم بشكل خاص بـالمحظور منـه. وإذا مـا عـرف بكتاب عن هذا الموضوع لرحالة غربي زار المنطقة قـديماً أو حـديثاً بـأي لغة كانت سارع إلى إيجاد مترجم له لينشره، وإذا ما تجرأ باحـث معاصـر على تأليف كتاب في أحد التشعبات العديدة للموضوع نفـسه، وأعجبـه، نشره حتى ولو اضطر إلى تجاوز قيود الرقابة، ويسجل عليه عندئـذٍ: طبـع في "ما وراء البحار"، ليتقي تـساؤلات عناصـر أجهـزة "حفـظ الاسـتقرار وتحقيقاتهم ".

وعناصر الأجهزة أخذت تزوره بشكل يـومي في مكتبـه، مُـدعين صداقتهم له، بالرغم من تبرم وجهه المستمر وتأففـه أمـامهم مـن كـل الزيارات التي تعطل أعماله. ولكنهم أصدقاءه، هم يحبونـه حـتى ولـو

لم يحبهم، وقد ازدادت شدة المحبة له عندما شعروا أن مكتبه الواقع في قبو إحدى البنايات بمركز المدينة يمنحهم مادة دسمة لكتابة تقاريرهم الوهمية عن من يزوره من المناضلين والمعارضين القدامى. صديقي يسخر منهم بشكل دائم ـ أي من هؤلاء المناضلين والمعارضين ـ، ويردد "لازالوا يعيشون في أوهام مواقعهم القيادية القديمة وقد أصبحوا عجائز، فقدوا أسنانهم وتقوست ركبهم وانحنت ظهورهم، ولا يحلمون الآن إلا بعلبة حبوب فياغرا ومراهقة، علها تنسيهم إخفاقات مسيراتهم الثورية وتبعثرها، سيموتون ولن يتركوا وراءهم جيلاً شاباً بديلاً، شاخوا هم وأفكارهم، ثم يأتي الموت والاندثار".

ذات مرة في بداية علاقتي بصديقي زرته في مكتبه للتحضير لنشر كتابي الأول، شاهدت مجموعة من العجائز تتكئ على أكتاف بعضها بعضاً، وتصعد الدرج من القبو بتثاقل، تذكرت صورهم القديمة عندما كنت صغيراً، هؤلاء هم المناضلون القدامى. سألت صديقي "ماذا حل بهؤلاء المناضلين القدامى، ولماذا يأتون إليك؟".

يجيب "هذا حديث يحتاج إلى جلسة هادئة، لنشرب شاياً ونتحدث قليلاً".

"لا أرغب بشايك الأسود هنا، وخاصة أنه دون ليمون ونعناع".

"ولكن اِجلسْ واسْمع، بعضهم أصبح يذهب إلى المسجد علّه يجد مكاناً يحجزه في أحد العوالم الماورائية، ومن لم يجرؤ على الركوع أمام رجل دين بلحية طويلة والاعتراف أمامه بذنوبه الثورية القديمة يذهب إلى المقهى، يلوك أحلامه القديمة بانتظار موته البطيء وهو يبدد أيامه كالدخان، رجالٌ وحيدون مهجورون..... وعندما تنتاب أحدهم رغبة تذكر أمجاده الوطنية الوهمية، وخطبه الحماسية القديمة، وإلصاقه المنشورات على الجدران ليلاً، يخط بضعة صفحات عن تاريخ نضاله، ثم يأتي إلى هنا".

"وأنت تستقبلهم "أقول مستغرباً.

"وماذا أفعل، استقبلهم، ولكنني لا أنشر لهم شيئاً، فأنا ليس لدي مأوى عجزة للأحلام الثورية المنسية".

أتساءل في سري وكأنني أتحدث مع نفسي، متذكراً فشلي مع شيماء وخيبتي في البحث عن عيون عسلية حتى الآن "يبدو أن كل شيء ينهار حولنا، أصبحنا نعيش مأساة، حيث لا أمل يتعلق به الإنسان، فهذه الأحلام الثورية القديمة أصبحت حكاية متخلفة تنوء بثقلها، وحلم عشق صغير لعيون عسلية لا أستطيع أن أجده في هذا الواقع".

يوقظني صديقي من شرودي، وقد فهم خيبتي من امتعاض وجهي، ويجيبني بلهجة العارف بأمور مجتمعنا وبصنعة مشروعه الثقافي "لا يا صديقي، لقد صنعنا أمالاً جديدة، عدنا إلى تراثنا ونبشنا فيه، وأنعشنا منه عوالمنا الماورائية القديمة، استدعيناها ونحن نعيشها ونجترها كل يوم".

"ولكنها أوهام، هروب من الواقع، لا تعني شيئاً ملموساً" أقولها بثقة.

"هكذا نظن أنا وأنت تحت غطاء عقلانيتنا، لكن العوالم الماورائية أصبحت جزءاً من حياة الناس اليومية، يندمجون فيها، ولا يتخلون عنها لأنها تعطيهم أمالاً بما سيحدث بعد الموت، علها تعوض لهم قهر الحياة وبؤسها".

وبما أنه لم يكن هناك أحد في المكتب قررت أن أستغل الفرصة، فاقتربت من صديقي وسألته هامساً "وما قصة عناصر جهاز الاستقرار يركضون وراء هؤلاء المناضلين العجائز، ولا يدعونهم يستكينون في أحلامهم الماورائية الجديدة"، قلت هذا وأنا أعرف أن رجال "أبو أحمد "العملاق يأتون إلى هنا دائماً.

يتأفف صديقي وقد اتخذ وجهه انطباعاً جدياً "يظنون أنهم سيقودونهم إلى أوكار المتشددين الخضر والمتشددين السود، الذين يدعون للاقتصاص بأيديهم من شاتم الدين وتاركه! هؤلاء عجائز لا يستطيعون العودة إلى منازلهم مع أعمارهم المتقدمة وأمراضهم المزمنة إذا ما خاطروا وابتعدوا عنها قليلاً".

"ويتركون رجال الأعمال الجدد الذين يسرقون الهواء والماء والذكريات والأحلام، ليكدسوها أوراقاً خضراً في بنوك الغرب" استمر هامساً.

يقترب صديقي مني أكثر "لا يوجد مثل هؤلاء الرجال، من يدير البلد هو.....".

ينقطع الحديث فجأة مع دخول أشخاص إلى المكتب، أنسحب بهدوء، إلا أن صديقي لا ينسى أن يُلمح "لا تنسى موعدنا مساءً، هناك قصائد جديدة ونبيذ معتق، وستكون معنا لميس".

خرجت يومها من مكتب صديقي وركبت سيارة أجرة للعودة إلى البيت، كان المطر يهطل بغزارة والزحام على أشده، أخذت السيارة تزحف كالسلحفاة مع أرتال السيارات الأخرى في شوارع ضيقة مختنقة، فيما راحت مسَّاحاتها تزيح حبات المطر المتساقطة على زجاجها الأمامي بصعوبة، فيتناوب بانتظام صوت قرع حبات المطر على الزجاج مع صوت انزلاق المسَّاحات. بقيت أتأمل المطر دون أية رغبة بالحديث مع السائق الذي لم يكن يبدو لي ودوداً على كل الأحوال، وأخذت أفكر بالمناضلين القدامى وعوالمهم الماورائية الجديدة.

في مثل هذه الأجواء العاصفة والماطرة تتداعى الذكريات بانسياب، أخذتني إلى بلدتي أيام السبعينيات، حيث كانت أحزاب المناضلين القدامى تتسابق إلى "اختطاف "أكبر عدد من الشبان ما دون العشرين إلى صفوفها، في حركة محمومة لاستيعابهم وتأهيلهم وفق

معتقداتها. شبان صغار يدخلون معترك الحياة لأول مرة دون أية خبرة، في حين لم يكن مهماً التدقيق في مؤهلاتهم ومعرفة مدى استعدادهم للانتظام في هذا التوجه أو ذاك، فقد كان صراعاً مكشوفاً حول تجميع أكبر عدد من المناصرين بغض النظر عن طرق تفكيرهم. بعثيون ناهضون، يمتلكون السلطة والقوة ورغبة التغيير آنذاك، شيوعيون بمشاريع راديكالية، استطاعوا أن يخترقوا بها صفوف العائلات التقليدية الإسلامية، ناصريون يحاولون استرجاع وهج الأمجاد القديمة عندما كانت عائلات بأكملها تُحسب على تياراتهم الشعبية، قوميون سوريون منعزلون بتنظيمهم الحديدي في إطار عائلتين أو ثلاثة، أما الإسلاميون فلم يكونوا قد برزوا بعد بقوة، إذ إنهم سينتظرون تعثر المشاريع الثورية لهذه الأحزاب ليصعدوا على أنقاضها.

أيمن صديق الطفولة والفتوة، يكبرني بعدة أعوام، ولكن صداقتنا نمت في النزهات المسائية مع شلة من الأصدقاء، حيث كنا نشتري سندويش الفلافل الساخن، نأكلها ونحن نتمشى في شارع العشاق، الذي يخترق البلدة طولياً، من مدخلها وحتى نهايتها عند التلال الجرداء. في تلك الأيام كنا نتمشى ونصرخ عالياً ونضحك باستمرار، نعاكس الفتيات في بلدة كانت لازالت متحررة من التحريمات الكهنوتية القادمة من الصحراء. وفي تلك الأيام كانت تمطر، لكن مطراً ربيعياً ناعماً يستثير العشق في القلوب ويوحي بالأمل، ليس كما في هذه الأيام مطراً غزيراً في الشتاء وفي الصيف، مطراً منذراً بالتوجس والقلق أكثر مما يشعل الحنين.

أيمن من عائلة فلاحية تقليدية ذات شأن عندما كان جده مختاراً للبلدة وأحد القلائل القادرين على القراءة والكتابة، إلا أنها انحدرت إلى الفقر والبؤس بعد أن فقدت هذا المنصب بموت الجد. وكان نصيب أيمن ـ أو ربما من سوء نصيبه ـ أن وقعت قرعته مع الشيوعيين، في حين نجوت أنا من التجاذبات السياسية بعد أن فهمت

خطأً في وقتها عدمية ألبير كامو عندما قرأت روايته "الغريب"، التي جعلتني وقتها أندمج مع الضياع أكثر من رغبة الالتزام. كان صديقي أيمن شاباً نحيلاً ذا بنية ضعيفة هشة، تلاحقه الأمراض بشكل دائم، لكن وسامة وجهه وتصرفاته الأنيقة الموروثة من جده جعلته محبوباً. أما في داخله فقد كان دائم التوتر والقلق والضياع، ليس فقط بسبب بنيته وأمراضه المزمنة، بل وأيضاً لوفاة والده مبكراً بالسرطان، ومن ثم وفاة والدته حزناً على زوجها مباشرة بعده، مما ترك لديه شعوراً دائماً بالوحدة دون وجود ملجأ أمان. ولكل هذا لم يكن أيمن مؤهلاً لأي نشاط حزبي سياسي، فلا رغبة لديه بإقناع الآخرين بخطه السياسي، ولا قدرة لديه على إلصاق المنشورات على الجدران تحت جنح الظلام، ناهيك عن العراك مع عناصر الأحزاب المنافسة في المظاهرات والمناسبات الوطنية وغير الوطنية، وانهياره أمام أول استدعاء أمني، كل ما هنالك أن بعضاً من قلقه وتوتره كان يختفي لإحساسه بالانتماء إلى جماعة ما.

واستطاع أيمن بعد فترة قصيرة من الانتماء إلى الحزب الحصول على بعثة إلى إحدى بلدان الثلوج، في إطار سياساتها لدعم ما يسمى "النضال الوطني في الدول النامية "آنذاك، وبما أنه ينتمي إلى تنظيم سري فقد تم تهريبه من أجل السفر للدراسة عن طريق إحدى البلدان المجاورة مع مجموعة من الرفاق. ومع شعوره بالأمان والاسترخاء في البلد الجديد بعيداً عن الملاحقات الأمنية نسي الحزب مباشرة، ونسي الطبقة العاملة ونضالاتها، وانمحت من ذاكرته الملاحقات الأمنية، وهو في الأصل كان بعيداً عن عقائد الحزب، لم يكن ليستطيع استيعاب المادية التاريخية أو المادية الديالكتيكية، لا باللغة العربية ولا الأجنبية. وبدلاً من ذلك عاش هناك حياته يناضل مع طالبات عابرات في السرير حتى نهاية دراسته، ومن ثم استمر بالإقامة هناك حتى شعوره بالحنين إلى البلد، وذلك دون أن يتحدث أو يهتم بالسياسة طوال تلك الإقامة. لكن السجلات الأمنية في البلد حفظت

ملفه تحت عبارة "شيوعي مزمن"، إذ إنه ما أن رجع بشهادة دكتوراه عن نضالات الطبقة العاملة في البلدان النامية، غير صالحة لأي عمل، حتى تلقفته الأجهزة الأمنية تحت خانة "ممنوع من العمل في أي من مؤسسات الدولة بسبب خطورته الشديدة"، مما جعل توتره وقلقه القديم يعود إلى الواجهة. ولحسن حظه وجد فتاة صغيرة بسيطة من البلدة، رأت فيه صورة والدها المتوفى، واقتنعت ببقايا الوسامة لديه، وذهلت بصورة الشهادة العليا المعلقة في غرفته دون أن تعرف موضوعها، وتزوجته، لتكتشف بسرعة أن قلقه وتوتره "الوطني"، الذي عاوده بشدة بعد الرجوع إلى الوطن، قد انتقل إلى حياتهما الزوجية، مع رزمة محترمة من الأزمات المالية العميقة والمستمرة.

المرة الأخيرة التي شاهدت فيها أيمن بعد عودته من السفر كانت في يوم عاصف شديدة البرودة، وصادف التقائي به نهار الجمعة ظهراً في أثناء مروري أمام مسجد المدينة الرئيسي لحظة خروج المصلين منه. وبالرغم من السرعة التي كنت أسير بها هرباً من المطر الشديد، إلا أنني لمحت أيمن فجأة وبدهشة كبيرة بين جموع المصلين الخارجين من المسجد، وسرعان ما التقت نظراتي بنظرات صديقي المناضل القديم، الذي ارتبك بشكل واضح، ولم يجد مجالاً للهروب مني فاضطر لتحيتي. وكان من الطبيعي أن يعانقني بالمحبة والود القديم، حيث توقفنا قليلاً تحت مظلة إحدى المحلات التجارية القريبة.

وسألته مباشرة وبكل المحبة والود أيضاً "أيمن، ماذا كنت تفعل في الداخل؟".

فأجابني متلعثماً "كنت في الداخل مع الناس".

" هل أصبحت مؤمناً تمارس الطقوس الدينية".

لايزال متلعثماً وكمن يرغب الهروب من الإجابة "لا، ولكن بما أنني كنت مع المجموع فقد كان علي أن أفعل ما يفعلونه".

وكان عليَّ أن أتابع الموضوع رغم شعوري بحصاره وإيلامه، فسألته من جديد "ولكن لماذا حضرت إلى المسجد، مادمت لا ترغب في داخلك بممارسة الطقوس الدينية باقتناع؟".

تنهد أيمن بعمق وكأنه قد قرر أن يفضي بأسراره إلى صديقه القديم "هربت من البيت الضيق وصراخ الأطفال، هربت من زعيق الزوجة المستمر التي تندب حظها باستمرار بزواجها من خائب فاشل، هربت من طلبات الشراء التي لا تنتهي لديها، وذهبت إلى الشارع لأدخن السيجارة التي تمنعني عنها زوجتي بعد أزمتي القلبية التي كادت أن تودي بحياتي، تصور أنها تخاف من موتي ليس خوفاً عليَّ وإنما خوفاً على من يطعم الأولاد من بعدي"، ثم صمت قليلاً وكأنه غارق في حزنه.

" ثم ماذا ؟ "سألته لأستثيره في متابعة الحديث.

"ثم ماذا! هربت اليوم أيضاً كالعادة، ووجدت نفسي في الشارع، شعرت بالحر الشديد، أصبحت أمام المسجد، أتت نسمة برودة منعشة من بوابته، فدخلت".

"ولكن اليوم بارد والسماء تمطر، ولا يوجد حر شديد يدفعك إلى الدخول؟!".

"أقصد شعرت بالبرد الشديد، وأتت موجة دفء من داخله، فدخلت، وكان عليَّ أن أعمل مثل ما يعمل كل الناس".

"ولكن يا أيمن إذا لم تكن مقتنعاً بذلك، فلماذا لا تذهب بدلاً من ذلك إلى كافتيريا مبردة، عفواً أقصد مدفئة، وتجلس هناك، وتدخن مع فنجان شاي ساخن" ـ وكدت أقول بشرائح الليمون وأوراق النعناع الأخضر ـ.

يبتسم أيمن بحزن "هناك يجب أن تدفع نقوداً، وأنت تعرف الأزمة المالية، ثم هناك أيضاً الوحدة، تجلس وحيداً وتجتر أحزانك، هنا دفء وجماعة ولا تدفع نقوداً لأحد، هنا مجاناً.....".

تمتمت هامساً "بل وقد يدفعون لك نقوداً، حسنة لوجه من في السماء".

"..... ثم إنني أدخن بمجرد خروجي من المسجد".

" أتفهمك، ولكن في مقالتك الأخيرة عن كتابي مدحت التوجهات العقلانية فيه التي أصبحنا نفتقدها في حياة مجتمعنا؟!".

صمت أيمن، وكان على الحديث أن ينتهي هنا، عانقت أيمن من جديد مودعاً، على أمل اللقاء في إحدى الكافيتريات الدافئة، لأدعوه إلى فنجان شاي بشرائح الليمون وأوراق الشاي الأخضر على حسابي. شعرت بالحزن على المناضلين القدامى، وأيمن محسوب عليهم، حامل شهادة دكتوراه في نضالات الطبقة العاملة، تم منحه إياها دون أن يعرف ماذا سيعمل بها في بلده. أيمن ذهب إلى المسجد، ونظر إلى الأعلى فوجد عالماً ماورائياً مفتوحاً، لا بيتاً ضيقاً فيه، هناك لا صراخ أطفال، ولا زوجة تزعق باستمرار وتندب حظها معه، وطلبات شراء لا تنتهي، هناك لا أزمات قلبية، ولأحد يمنعه من تدخين السجائر، والأهم من هذا أن كل شيء هناك مجاناً، كافيتريات مبردة أو مدفئة حسب الطلب. وإضافة إلى ذلك فقد يجد والده ووالدته، اللذين تركاه في لحظة حاسمة من حياته، ليموتا فجأة دون أن يقولا له لماذا رحلا، وتركاه وحيداً. وسيجد هناك أيضاً بالتأكيد جماعة لن تفرض عليه المادية التاريخية والمادية الديالكتيكية، جماعة تضمن حمايته بعيداً عن الملفات الأمنية، التي لازالت تسجله "شيوعي مزمن "لهفوة تم ارتكابها منذ أكثر من عشرين عاماً، هفوة لم تستمر أكثر من عام ونصف. ولكن الذاكرة الأمنية أذكى من أن تنسى، فقد يكون عميلاً متلبساً بزي حمل يخدع الناس حوله، ولا يزال يدفع الشباب إلى إلصاق المنشورات الوهمية ليلاً، التي أصبحت تضيء بمصابيح ملونة على طريقة الإعلانات الأمريكية.

ومنذ ذلك اليوم بعد لقائي أيمن أمام المسجد ازداد تلبد الغيوم الكثيفة السوداء في السماء، ببرق ورعد وبرد شديد وهطول مدرار في ذلك الصيف، برق ورعد أصبحا يتناغمان مع كل صوت يصدر من حركة شيء ما بإيقاع منتظم، مثل صوت مسَّاحات زجاج السيارة، وصوت السائق يوقظني "أستاذ، يبدو أنك غفوت، لقد وصلت".

بعد عدة أيام من حديثي مع صديقي عن المناضلين القدامى، اتصل بي في مكتبي يدعوني للاطلاع على أعمال جديدة يرغب بنشرها، نظرت عبر الجدار الزجاجي، كان المطر قد توقف منذ فترة، لكن السماء مازالت ملبدة بالغيوم، ولأنه لم يكن لديَّ ما أعمله قررت أن أتمشى إلى مكتبه في وسط المدينة. في الطريق ولسوء الحظ عادت تمطر من جديد، مما اضطرني إلى الركض في الشارع، وعندما أشتد المطر أخذت سيارة أجرة. توجس قلبي من شيء ما، وكأن المطر ينذرني، ينذرني هذه المرة بشيء ما غير مريح، ولكنني تجاهلت الأمر، فلقد بدأت الاعتياد على المفاجآت غير المريحة، والتي غالباً ما تؤدي إلى نتائج سيئة. وصلت مكتب صديقي ونزلت الدرج إلى القبو، وأثناء نزولي سمعت صوتاً أجشاً أعرفه دون أن أتذكر أين التقيت بصاحبه.

"جئنا نشرب عندك شاياً، رفيقنا".

وبمجرد النطق بهذه العبارة تذكرت مباشرة صوت "أبو رعد "الذي زارني الأسبوع الماضي في مكتبي بالمركز، ولكن هذه المرة يبدو أنه يستعمل كلمة رفيق للدلالة على ائتلاف وطني دخل به حزب صديقي مع السلطة منذ زمن.

صديقي يجيب دائما بشجاعة "للأسف ليس لدي اليوم شاياً أو قهوة، نفذت المؤونة فجأة، ونسيت أن أشتري كمية جديدة منها".

توقفت في العتمة عند باب المكتب الخارجي في محاولة للتراجع والانسحاب بهدوء قبل أن يلمحني أحد، فلم أكن أتوقع

وجود "أبو رعد "هنا، كما أن زيارته لـصديقي بالتأكيـد هـي مفاجئـة، وإلا لما حدد معي موعداً الآن. رميت نظـرة خاطفـة قبـل أن انـسحب ويكتشف أحد وجودي، فرأيت "أبو رعد "جالساً علـى أريكـة جانبيـة على طريقة "أبو أحمد" العملاق، متمـدداً ومـسترخياً بـسلطة واضـحة كمن يسيطر على المكان، وإلى جانبه مرافقه الصغير النحيـل الجـالس على طرف أريكة أخرى على طريقة مدير المركز. فكرت أنه مادام "أبو رعد "يجلس بهذه الطريقة ويطلب شاياً على عكس طريقته السريعة في التعامل معي في المركز، فهذا معناه أن القضية التي حـضر مـن أجلـها هنا هي أهم بكثير من الحفلة الموسـيقية في مركـزي، ويبـدو أنـه لـن يحتاج الآن إلى معلومات عملية، إذ إن طريقة جلوسه توحي بأن لديـه المعلومات، والمهمة المكلف بهـا تبـدأ وتنتـهي هنـا، لـذلك قـررت التريث قليلاً في العتمة لأستمع إلى بقية الحديث.

سمعت "أبو رعد "يسأل "رفيقنا، عرفـت مـن جهـاز الرقابـة أنـه ستصدر لديك ثلاثة كتب لرفاقٍ من حزبـك القـديم الـذي تقـول إنـك انسحبت منه، يبدو أن العلاقاتً الجيدة لا زالت مستمرة معهـم حـتى إنهم يلجأون إليك لنشر كتبهم، وقد طُلب منيٍ متابعة الموضوع حـتى تحصل على الموافقة الرسميـة لنـشرها، طبعـاً إذا لم يكـن هنـاك مـن خطورة من وراء ذلك".

وقبل أن يسأل صديقي أي سؤال التفـت "أبـو رعـد" إلى مرافقـه النحيل، الذي أخرج بسرعة ورقة مسودة مكتوبة على عجل بخط اليـد وقدمها له، فأخـذها واسـتمر بالحـديث وهـو ينظـر إليهـا "المؤلفـون الثلاثة هم ابـن عـربي، والجـلاح، والـسهران ورد". وتهجـى الاسـم الأخير بصعوبة، وأردف بـسرعة "أحـد أئمـة الجوامـع مـن أصـدقائنا ومخبرينا الذين نعتمد عليهم، وهو ثقة لأنه يتحـضر لمنـصب روحـي رفيع، قال في تقريره لنا إن الأول ابن عربي بالرغم من ماركـسيته فهـو من النهج الذي انشق عن الخط السوفيتي القديم واقترب من القـوميين

في توجهاته، وبالتالي فهو بالنتيجة عربي أصيل لا خوف منه، أما الثاني ..... "وأعاد النظر إلى الورقة "الجلاح.....".

فتدخل صديقي وصحح الاسم "الحلاج"، فتابع "أبو رعد "" الجلاح، الحلاج، لا يهم، لكنه هو الخطير، يدعو إلى التمرد على السلطة ومقاومتها بالعنف الجماهيري المسلح، ولا أدري كيف تتعاون معه! أما الثالث....."، وأعاد النظر إلى الورقة من جديد "السهران ورد.....".

وتدخل صديقي من جديد "السهروردي".

فأجابه "لا يهم فهذا الاسم معقد، وهو خطير أيضاً، ولكن وضعه حساس جداً، فهو يُكفر الفقهاء الأجلاء بشدة، ولكن لا يمكننا اتخاذ إجراءات مباشرة ضده بسبب حساسية وضعه لدينا، فهو وإن كان يقيم في بلدنا إلا أنه ينتمي إلى دولة إسلامية تقف معنا في خط المواجهة الأول للدفاع عن شرفنا وعزتنا وكرامتنا الوطنية، في وقت انفضت به بعض قوى العربان عن دعمنا، وانضمت إلى الهجمة الشرسة التي يتعرض لها وطننا العظيم من قوى غاشمة معادية".

عندما سمعت هذه العبارات من "أبو رعد "تداعت إلى ذاكرتي كلمات مدير المركز عن الوطن أمام "أبو أحمد "العملاق، وأدركت عندئذٍ أنه قد تخرج هو والرفيق "أبو رعد "من نفس دورة الإعداد الوطني، وعلى الأغلب كانا من المتفوقين لأهمية المراكز التي استلموها، "أبو رعد "ذهب إلى "جهاز الاستقرار الوطني"، ربما لضخامة جسده، وتكشيرة وجهه المخيفة، وصوته الأجش، وثقافته المميزة في الحياة العملية التي انعكست على حسه الأمني، أما المدير فقد استبعدوه عن الجهاز على الأغلب لضآلة جسده، ولكنهم أعطوه إدارة أهم مركز ثقافي في العاصمة بسبب ولائه الشديد ومؤهلاته الخطابية الوطنية، المناسبة للاحتفالات الرسمية.

يتابع "أبو رعد" "نريد يا رفيقنا أن تتعاون معنا، وأن تعطينا

عناوين سكنهم الأخيرة التي لا نستطيع إيجادها في السجلات الرسمية، وهذا ما يزيد شكنا فيهم وبخطورتهم بسبب تنقلاتهم المستمرة، وتغيير أماكن إقامتهم بشكل دائم".

يلمحني صديقي في عتمة الباب لكنه يصمت، في حين كان "أبو رعد "يتابع "وماداموا ينشرون عندك فعلاقتك طيبة معهم، هل مازالوا من المناضلين، أم تخلوا مثلك عن حزبك الذي تقول إنه أصبح عتيقاً؟ أو ربما تعرفت على......"،

وينظر إلى الورقة من جديد بيد مساعده، فيصيح به مؤنباً "صححها يا ابني، ليس الجلاح، وإنما الشلاح، كما قال رفيقنا". ويستمر بالحديث "أو ربما تعرفت على ابن عربي والشلاح في أثناء تأدية الخدمة العسكرية، فمن الطبيعي أن لا يؤديها الثالث مادام من أصول إسلامية غير عربية من بلاد الجبال البعيدة، على الأقل أعطنا عناوين سكنهم".

وفي اللحظة التي قررت فيها الذهاب بعد أن تعرفت على الموضوع، أراد صديقي أن يتخلص من ورطته برميها عليَّ "ها هو صديقنا قد حضر، تفضل, اُدْخُلْ، هو مسؤول إداري في أحد المراكز الثقافية في العاصمة، ويعرف الكثير من التفاصيل العملية عن أمثال هؤلاء المفكرين، لأنه يتصل بهم لضرورة العمل، وعلى الأغلب فهو يعرف أين يقيمون الآن". قال ذلك بلهجة شبه ساخرة.

فوجئ "أبو رعد" بوجودي على الباب، فاضطررت إلى الدخول، وعندما تعرف عليَّ نظر إليَّ نظرة شذر واستهزاء مع احتقار واضح، وخاطب صديقي وهو يشير بأصبعه نحوي" هذا الرفيق ليس أهلاً للثقة، أخبرنا الأسبوع الماضي بقدوم....."، ونظر إلى مساعده الذي أخذ يبحث بين أوراقه في قعر حقيبته الجلدية المهترئة دون أن يجد الورقة المنشودة، فتدخلت وقلت "شوبان وموزارت وتشايكوفسكي".

وأكمل "أبو رعد" "أخبرنا عن قدومهم إلى الأمسية، وصل أعضاء السفارة كلهم، ولكن هؤلاء الثلاثة لم يحضروا".

لم يستغرب صديقي كثيراً، فقد حدثته عن الحكاية سابقاً، ولذلك تابع "أبو رعد "" أغلقوا أبواب الصالة، ونحن لازلنا ننتظرهم، ولا أدري لماذا صفق الحضور فجأة، فقد صعد إلى المنصة شاب أشقر مخنث، يتمايل مثل فتيات الليل، شككت بأمره منذ البداية، وخاصة مما كان يضع على رقبته....."، والتفت إلى مساعده "ماذا كشفت التقارير اسمها؟"، بحث المساعد من جديد في أوراقه، وبصعوبة وجدها "بابيونة يا سيدي".

واستمر "أبو رعد" "شككت فيها منذ البداية، فجميع من في القاعة لا يلبس مثلها، فهم يضعون إما ربطة عنق عادية أو بدونها، أما هذه البايلونة، فقد عرفت مباشرة أنها تحوي جهازاً لاقطاً، وخاصة أنه كان يلبس معطفاً بذَنَب على شكل مثلث لم أرَ مثله في حياتي، والذنب كان موجوداً لكي يبعد الانتباه عن هذه البايلونة.....".

ونظر "أبو رعد" بفخر ليرى ردة فعلنا على اكتشافاته الأمنية الذكية.

ثم تابع قائلاً "وبدلاً من أن يلقي محاضرة علينا مكان هؤلاء الثلاثة ويتحدث معنا فإنه ذهب إلى طرف المنصة، وجلس قرب صندوق أسود كبير مرمي هناك....."، أجاب المساعد بسرعة مبتسماً دون أن ينظر إلى الأوراق هذه المرة "بيانو، بيانو سيدي". وتابع"..... وجلس إلى البانيو، وأخذ ينتظرهم معنا، وحتى لا يشعر بالملل وهو ينتظرهم فقد أخذ يقرع عليه بشكل مزعج، بحيث وضعت قطعتي محارم ورقية في أذني. وعندما لم يحضر هؤلاء الثلاثة بعد طول انتظار، انفض الناس وعادوا إلى بيوتهم. أما أنا فقد أصابني صداع من هذا الشاب المجنون، فمظهره المخنث الغريب يؤكد أنه لوطي مفعول به، بحيث عشقه كل من في الصالة، وأخذوا يصفقون له

عندما نهض، ويتسارعون للحديث معه في البهو، وأخيراً فقد كان من حصة السفير العجوز، فقد ركب معه بسيارته وذهبا معاً. دائماً أقول إن معظم هؤلاء الممثلين الرسميين لبلادهم هم شاذون جنسياً، وعلى كل الأحوال هو غير صالح للتعاون معنا وغير مؤهل لكتابة أي تقرير ثقافي عن بلاده".

ووجه بعدئذٍ خطابه مباشرة إليَّ "لم تخبرنا أن الطائرة لن تقلع بهم إلى بلدنا، وأنهم ألغوا الحجز في اللحظات الأخيرة".

يبدو أن "أبو رعد "خلط بين الحفلة الموسيقية في المركز وندوة تقام في مركز آخر فيها محاضرون أجانب، فأنا لا أذكر أنني قلت له سيحضرون، ولم أذكر أية طائرة، فقد أنهيت حديثي بأنهم ألفوا جمعيات وطنية في بلدهم للدفاع عن حقوقنا المغتصبة، وإذا ظن هو أنهم سيأتون من بلدهم البعيد بالطائرة لإلقاء محاضرة، فهذه مشكلته.

وأنهى "أبو رعد "حديثه معي "لولا أن التقارير لدينا تصفك بأنك متعاون جداً، لقلت إنك مشترك بمؤامرة أجنبية، وإن دورك محدد فيها بإلهاء الأجهزة المختصة بأعمال هامشية لحرفها عن المخاطر الحقيقية التي تهدد الوطن".

انسحبت بهدوء، وقلت لصديقي أنني سأعود غداً، خرجت والعاصفة مستمرة بشدة، وقد تبادر إلى ذهني مباشرة أن هذه الأخبار السيئة عني ستصل إلى "أبو أحمد "العملاق مباشرة، وسأفقد الثقة التي منحني إياها بعد هفوة الفروج المشوي، ولن تكتفي التقارير بتهمة عدم التعاون للمرة الثانية، بل ستزينها عبارة "مسؤول إداري في مركز ثقافي مضمون الولاء، يتردد إلى وكر يتجمع فيه المناضلون القدامى"، فعليَّ أن أتهيأ إذاً لفقدان منظر الحديقة عبر الزجاج الجداري منذ الآن.

تقلقني فكرة فقدان عملي المريح في المركز بالرغم من الضجر الذي أخذ ينتابني بشدة من الأعمال الإدارية المملة، إذ إن هذا معناه

فقدان منظر الحديقة الجميلة أمام مكتبي، وخاصة عندما يغسلها المطر، فتكتسب خضرة رطبة، متألقة ومنعشة. كما إن منظر الحديقة عبر الزجاج يتناغم دائماً في داخلي مع المنظر الذي أشاهده من نافذة البيت، التي تنتصب أمامها شجرة سرو باسقة تطل على منازل قديمة، وإن كان صوت طرقات حبات المطر على نافذة منزلي له متعة خاصة عندما يتداخل مع هديل الحمام وزقزقة العصافير. صحيح أن عملي في المركز يعطيني بعض السلطة المعنوية في أوساط المثقفين، ولكن هذا لا يهمني، فما يعنيني في هذا العمل هو أنه يعطيني مجالاً للبحث عن عيون عسلية رجعت إلى البلد من أجلها. ومع أنني فشلت مع شيماء، فمجال اللقاء يبقى هنا مفتوحاً مع فنانة تشكيلية أخرى، أو شاعرة، أو حتى موسيقية، تهتم من خلال إبداعاتها بالعيون العسلية، وبشرط أن تمتلك هي بالأصل عيوناً عسلية. ولأجل كل هذا شعرت بالتوتر والقلق مما قد يقدم عليه "أبو رعد"، سيرفع تقريراً عني بالتأكيد إلى "أبو أحمد "العملاق بعدم التعاون، فقررت أن أعود إلى البيت، وسأعتذر من لقاء الليلة مع صديقي، فليس لدي مزاج كي أسمع شعراً وأشرب نبيذاً. وعلى كل الأحوال فالعاصفة أخذت تشتد بقدر ما يزداد التوتر في داخلي، وأجواء الرياح والمطر غير مناسبة للخروج من المنزل في هذه الليلة، ثم أنني سأجد ورد في البيت مادام هناك مطرٌ، وستخفف من قلقي في دفء الفراش.

أرجع إلى البيت وتدخل ورد في اللحظة التي أدخل فيها، تأتي كالعادة من النافذة مع المطر، نصنع شاياً مع شرائح الليمون وأوراق النعناع الأخضر، نتمدد في الفراش، أروي لها كل ما حدث في نهاري، وخاصة عند صديقي. أشعر بالراحة مع ورد لأنها تسمعني، أبوح بما أرغب به أمامها ولا أخفي شيئاً، أتحدث بصوت عال، فأتخفف من التوتر الداخلي، ولكن المشكلة أن ورد تسمعني فقطً، وتتقبل كل ما أقوله وأقرره وأفعله، لا تعترض ولا تناقش، بل

تتجاوب معي في كل ما أرغبه، وإن كانت تتأفف بعض الـشيء عنـدما أتركها وحيدة في الفراش وأجلس لأكتب في الليل.

أسـألها "ورد، أنـت مليئـة بالمـشاعر والأحاسـيس الجياشـة، تتعاملين معي بصدق، وتمنحينني نفسك بكـل الحـب والتفـاني، ألا تخافين أن لا أعاملك بشكل لائق كفتاة جميلـة، كـسيدة محترمـة، لا أدري كيف؟".

تقول بثقة "لا تجرؤ، لأنني أنا أحلامك ومـا تختـزن في داخلـك من حنين".

"ولكنك تخافين من شيء واحد".

"ما هو؟".

"تخافين من حضور فتـاة مثـل شـيماء إلى البيـت، وتظـنين أنهـا ستحل مكانك".

"قلت لك سابقاً ما إن تَحضر شيماء أو أي فتاة لها عيـون عـسلية إلى البيت فسأغادرك نهائياً، ولكن لست أنـا الـتي أخـاف مـن ذلـك، أنت الذي تخـاف مـن حـضورها"، لازالـت ورد تتحـدث بثقـة قويـة بالنفس.

"أنا!"، أقولها بكل الاستغراب والدهشة.

"نعم، تخاف أن تفقـدني، وتفقـد عندئـذٍ حنينـك، وماضـيك، وذاتك".

"ولكن لماذا لا تخافين من سهام؟".

"سـهام ليـست خطـيرة بالنـسبة لي، فهـي لـيس لـديها عينـان عسليتان، وليس لديها حنين، وتكره المطر، وأنـت أصـلاً لا تـدعوها إلى هنا. وعلى كل الأحوال أرجو أن نغير الموضوع، فأنت متوتر جـداً بعد لقائك غير المريح في مكتب صديقك مع "أبو رعـد"، وأرجـو أن لا ينعكس هذا بشكل سيء على ليلتنا".

"تتحدثين وكأنك تعرفينه؟"، أسألها بنبرة حادة.

أخذت ورد تتحدث الآن بدلال وغنج وكأنها ترغب في أن تـثير أعصابي كمقدمة لإثارتي جسدياً "أعرفه، نعـم، وأعـرف معلمـه" أبـو أحمد "العملاق أيضاً". تضحك وترتمـي علـى مـسند الـسرير، فتـبرز حمالة صـدر سـوداء مغريـة جديـدة، وتمـسك بيـدي وتـدفعها نحـو ثدييها.

أسحب يدي بقوة وقد ظهـر الانزعـاج علـى وجهـي "ومـن أيـن تعرفين معلمه، وأنا لم أحدثك عنه!".

تستغرب لهجتي الغريبة عليهـا، فتـصرخ "ألا تفهـم أخـيراً، أنـا أعـرف جميـع الأشـخاص الـذين تعـيش معهـم، إنهـم يعشـشون في تلافيف دماغك، وأنا بنت خيالك، أعرفهم جيداً كما تعرفهم أنت".

وكأنني لم أسمعها فاستمر بالنبرة الحادة الـتي أخـذت تعلـو مـع تكثـف غـيظ شـديد في داخلـي، يكـاد أن يـصل إلى حـد الانفجـار "والسيد لؤي أيضاً، أتعرفينه؟".

"نعم، بنظرته وابتسامته الماكرة، وأعرف معلمه الأنيـق والوسـيم الذي أثارك بحـدة ملاحظاتـه وسـعة ثقافتـه، وجعلـك تـركض وراءه لتقديم معلومات عن الأمسية".

وكأنهـا جـرحتني في كـرامتي، أصـرخ محـاولاً كـتم الغـيظ في داخلي والتماسك قليلاً "تعرفين كل هذا دون أن أحدثك به؟!".

تصمت ورد حزينة، أفاجأها من جديد مـنفعلاً "أخـبريني، وهـل تتحدثين معهم؟".

تصرخ الآن بغضب شديد "أنا لا أتحدث مع أحـد سـواك، أنـت الذي تتحدث معهم وتتحدث عنهم، أظنك قد بدأت تقترب من حافـة الجنون".

تبتعد ورد عني وتدير ظهرها لي، أسمعها تنشج في بكـاء بحرقـة

شديدة، أصمت، أتأمل ظهرها الناعم الجميل من تحت قميصها الوردي الشفاف، كما اكتشفته في أول ليلة تعرفت عليها. أكره هذه الدوامة التي أعيش فيها بقلق، "أبو رعد "والسيد لؤي، يلاحقانني حتى في المنامات ويحولونها إلى كوابيس. أعانقها بلطف، أحيطها بجسدي وألتف عليها معتصراً إياها في حضني، أعرف أنها تهدأ بهذا الوضع، تشعر بالحماية به وتدفع مؤخرتها نحوي أكثر كمقدمة لإثارتي جنسياً. أقترب بفمي من رقبتها تحت أذنها، أقبلها بكل الحب، وأنا أتنشق شذى رائحة جسدها المنعشة والمعششة تحت شعرها، تتسلل يدي إلى ثديها الناعم الغض تحت حمالة الصدر السوداء الجديدة، تداعبه بنعومة فتسترخي دون أن تتوقف عن النشيج، وإن خفتت وتيرته.

أستغل فرصة هدوئها فأهمس بحذر شديد "ورد أنا آسف، فقط أخبريني أين تذهبين عندما نغادر المنزل، أنا متوتر جداً، يبدو أنهم يعرفون كل شيء عني وعنك، أريد فقط أن أعرف ما يحدث حولي دون أن أسبب لك ألماً، فأنا أثق بك أكثر مما أثق بنفسي، بل على العكس أصبحت أنا متردداً، لا أعرف ما أفعله، هل هو الصحيح أم الخطأ، هل ما أعيشه هو الخيال أم صدمة الواقع، ولذلك أنا ألجأ إليك".

تلتفت إلي والدموع في عينيها "أنا أذهب إلى عالمي".

"وهل عالمك حقيقي أم وهمي؟".

تجيب من بين دموعها بصوت مختنق أدمى قلبي "كان وهماً عندما كان جزءاً من عوالمك الداخلية، ثم انفصل وتشكل واقعاً حقيقياً بعيداً عنك، ولذلك فأنا أتجسد وأستطيع الحضور إليك بشكل دائم وعندما ترغب".

"أخبريني قليلاً عن عالمك؟".

"تعرفه، فأنت صنعته عندما كان جزءاً من كيانك، ثم أخذ ينمو وحده ويتطور خارج سيطرتك".

"وهل تحول إلى عالم ماورائي؟".

"اتركني الآن، ليست لدي الرغبة بالحديث، جعلتني اليوم في حالة مزاجية سيئة، سنتحدث عن ذلك في يوم آخر".

أتراجع عن أسئلتي القلقة، وأكفكف دموعها بقبلاتي "ورد، كيف أجعلكِ تكفين عن البكاء، كيف أجعلك سعيدة؟".

تنقلب ورد فوقي، لا أعرف كيف نصبح عاريين دائماً بشكل مفاجئ، كل ما أعرف هو أنني شعرت برطوبة عالية لزجة بين فخذيها، فانزلقت فيها بيسر وشوق، التحمت بي بقوة بعد أن جلست فوقي بوضع تستطيع فرض أوامرها وشروطها ورغباتها عليَّ. كنت شبه مشلول تحتها، فقد قيدتني بيديها ورجليها، تحكمت بجسدي وأخذت تدير هي كل حركات الصعود والهبوط، والخروج والدخول، والانزلاقات والدورانات، متحكمة بأدق التفاصيل، تزيد سرعة الاهتزازات بوتيرة عالية عندما ترغب فيطير صوابي، ومن ثم تبطئها قليلاً لتشاهد آثار الانفعالات والمتعة على وجهي، لتعاود الانطلاق من جديد.

لم يكن فقط هذا الالتحام الجسدي هو ما يشلني، وإنما وبشكل أعمق كل السحر الذي يتناغم مع كل أنة ونفس يصدر عنها. فلازال شَعر إلهام ينسدل كليل أسود عميق يفتح أسراره فجأة، يروح ويجيء مع كل اهتزاز متطايراً، ويقفز مع كل حركة ارتداد من الرأس، لترفع خصلاته عن عيني هند، اللتين تتألقان بوميض غامض قادم من مساءات التلال الجرداء. وميض يأتي ويذهب مع تطاير الخصلات الناعمة التي تعيش الحضور والغياب مع شعاعات الألق في عينيها. ألق يندغم مع ابتسامتها الساحرة، التي يتناوب عليها التغضن فالانبساط مع موسيقى أنات المتعة، التي أخذت وتيرتها تتصاعد من صدر سهير مع كل الحنين إلى شجر الرمان، والثديان يقتربان من وجهي عندما تنحني قليلاً، فتمسني حلمتاه بالصدى، تمسحان

بطيفهما زغب الخدود ورموش العينين، ويرسمان حكايات عشق ومطر في القلب. تتصاعد موسيقى دافئة، ترافقها رقصات خصلات الشعر مع تراقص الثديين، وترتسم عليهما أخيلة الابتسامات القادمة من تلاعب ألق العيون بنداءات قادمة من أعماق الحنين والمبهم، والمرتسمة في تغضنات الشفاه. تتحرر يداي، تمسكان بخصر جورجيت الممتلئ عذوبة، تتجولان صعوداً حتى انحناءة الصدر مع العنق، ترجعان على أطرف الظهر وتصلان إلى ترجرجات المؤخرة مع الصعود الذي أصبح طيراناً، والهبوط الذي يأخذ معه ارتعاشات القلب. تصبح الرطوبة بين الفخذين ساقية تروي العشب حولها، وقد أخذ ينمو في التقاء هديل الحمام مع زقزقات العصافير. تجتاحني غمامة ضباب، أسمع صوت رولا تبكي، أخذ وجهها بين يدي، يتبعثر من النشوة، تهدأ وتبتسم. أشعر بالنشوة تتصاعد بطريقة مجنونة، تندمج أناتي مع التأوهات العالية لورد، لتشكل معاً صدى لحن قديم يصعد من عمق الغابات الخضراء وقمم الجبال الشاهقة وامتداد السهول الفسيحة.

تقلع إلهام عن كتاب التقارير الأمنية، وتعود إلى كتابة رسائل الحب الطفولية، ولا تقبل هند بتاجر المواشي، لأنه لا يركض من أجلها نحو التلال الجرداء صباحاً ومساء، وتخلع سهير جلبابها الأسود لأنها شعرت بالاختناق به، مفضلة مطراً ربيعياً تحت أشجار الرمان بدلاً من ذهب الصحراء، ولن يغري جورجيت الصدر العاري الرياضي لبطل كمال الأجسام، ويجعلها تبتعد عن دينها وأهلها، وتخرج رولا من مستشفى الأمراض النفسية معافاة، فقد كان انهياراً عصبياً بسيطاً عابراً، وهي تبتسم تحت المطر الآن دائماً بدلاً من البكاء. نقترب أنا وورد من الذروة معاً أكثر فأكثر، يداعبنا مطر ربيعي، يدخل عبر النافذة، ويملأ فضاء الزمان والمكان في الغرفة، يهطل في العيون وفي القلوب وفي الحنين، يرتفع انسياب الساقية بين الساقين، فتصبح نهراً يغمر الأعشاب حوله، يغمر الجسد والسرير وأرض الغرفة، يرتفع

حتى النافذة ويلتحم مع المطر القادم عبرها، ومع هـديل الحمـام وزقزقـة العصافير، ويتهادى تحت لوحة شيماء.

أصرخ مع لحظة الانتشاء "ورد، كيف أجعلك سعيدة؟".

وكأني سمعت منها همساً، صوتاً، صراخاً، "هـل تريـدني حقـاً أن أكون سعيدة؟".

أجيب "نعم سأفعل كل ما تريدين وكل ما تـرغبين حـتى تكـوني سعيدة"، قلتها من أعمـاق قلـبي وقـد انفلتـت ذروة النـشوة منـا معـاً وساحت، وتبعثرت.

في هذه لحظة الانصهار هذه تقول ورد "أريدك أن تنـسى العيـون العسلية!".

العيون العسلية! من أيـن جـاء ت ورد في هـذه اللحظـة بـالعيون العسلية. لا أدري بماذا أجبت، ولكـن الأمـور كانـت قـد أفلتـت مـن يدي، ويبدو أنني غمغمت بشيء ما، ولكن ما إن ارتد وعيي قلـيلاً إلا وشعرت وكأن عرقاً بارداً تصبب علـى كامـل جـسدي، وسـقطت في هاوية، وشيء في داخلي يصرخ "لا، لا أسـتطيع، تركـت كـل شـيء ورجعت من أجل البحث عن عيون عسلية".

تتمدد ورد منتشية وكأنها حصلت علـى مـا أرادت، إذ لم أدر مـاذا انتزعت مني قبل ثوان، هل وعدتها بـشيء عـن العيـون العـسلية؟ المـرأة ذكية، تستطيع في لحظة جنون جنسي أن تنتزع من الرجل ما تريده.

تجول نظـراتي حـائرة في الغرفـة، حبـات المطـر تقـرع زجـاج النافذة، والليل انسدل خارجها بعتمـة كثيفـة بـسبب الغيـوم الداكنـة، الساعة الجدارية، المصباح المطفأ علـى طاولـة تبعثـرت عليهـا أوراق الكتابة، لوحة شيماء عن العيون العسلية معلقـة علـى الجـدار، وهـذا المصباح المعطل الذي يشبه عيناً زجاجيـة مزروعـة في الـسقف، هـو الذي يراقبني، إنه يراقبني حتماً، وكأنه يرى كل ما أمارسه مـع ورد ، وما أبوح به لها..... أغفو، تتكور ورد في حضني، ونستسلم للنوم.

يأتي الصباح ثقـيلاً، يـوقظني هـاتف صـديقي بعنـف "تجـاوزت الساعة الحادية عشرة، ظننت أنك في عملك بالمركز، لنلتقِ بعد قليل وننهِ عمل البارحة".

أنظـر إلى الأجـواء العاصـفة والمكفهـرة في الخـارج عـبر النافـذة، أتحسس جسد ورد العاري والـدافئ بجـانبي "صـديقي العاصـفة مـستمرة والأجواء غير مناسبة للقاء".

يسخر صديقي "العاصفة أصبحت مستمرة بشكل دائم في بلـدنا، وسيبقى المطر يتساقط دون نهايـة، يبـدو أنهـا لـن تنتـهي هـذه المـرة بهدوء، ولا معنى لتوقف الأعمـال. وبـالرغم مـن العاصـفة يجـب أن نلتقي مساءً هذه الليلة، لديَّ أشعار جديدة وزجاجـة نبيـذ معتقـة مـن أرض البراكين الخامدة والصخور السوداء".

" هل لديك مواعيد اليوم في المكتب، "أبو رعـد "مـثلاً؟ "أسـأله وقد قررت النهوض.

" ولا حتى الرفيق "أبو خالد "". يرد بثقة.

" وإذا ما جاءت زيارة مفاجئة؟".

" نتصرف وقتها".

تودعني ورد بقبلة جريئة في الشارع كالعادة، ولكنها هـذه المـرة تذهب وكأنها حزينة دون أن أفهم السبب، ثم تختفي تحـت المطـر في غمامتها، وأذهب أنا إلى وكر صديقي. أنزل الدرج وأنا أتمـنى بـأن لا تكون هناك مفاجآت جديدة في هذا اليوم، وخاصة هنا..... ولكن بمـا أن الأجـواء مكفهـرة وعاصـفة، فمفاجـأة مـن عيـار ثقيـل يجـب أن تنتظرني. فما أن أصـل إلى المـدخل حـتى ألمـح رجـلاً يجلـس علـى الأريكة في مكتب صديقي، مديراً ظهـره إلى البـاب، الـشعر الأشـقر وأناقة الملابس، والصوت المهذب، كلـها تجعلـني أعرفـه مباشـرة، السيد لؤي! من أين انبثق، وكيـف تـصادف أنـه موجـود في موعـدي بالـذات، وبـشكل خـاص بعـد لقـاء البارحـة مـع "أبـو رعـد"،

مصادفات؟!..... لا أحد يعرف بهذه التفاصيل إلا ورد، ولكنني على ثقة بأن ورد لا تتحدث مع أحد، أو ربما أحد ما يستغلها بطريقة ما دون أن تدري.

أقرر الانسحاب مباشرة وبهدوء، فمع السيد لؤي ومعلمه لا مجال للفضول وإبداء الذكاء، ولكن مثل هذه الحركات لا يمكن أن تنطلي على السيد لؤي، فمع الوقت سأكتشف أنه يمتلك ما يشبه الحاسة السادسة في مجال عمله، إذ إنه في اللحظة التي قررت فيها التراجع والانسحاب رفع يده محيياً دون أن يدير رأسه إلي ودون حتى أن يراني "أهلاً أستاذ، أنا أنتظرك لنلتقي من جديد".

لم يعد هناك من مجال للتراجع، وعندما التفت صدمتني نظرته وابتسامته الماكرة، أدخلُ وأجلسُ.

"تحيات المعلم لك"، قالها لي بكل احترام مع انحناءة خفيفة من ظهره، وكأن المعلم موجود بيننا، وتابع "عرفت أنك ستكون هنا، ولكنني وصلت منذ نصف ساعة، وتحدثت مع صديقك قليلاً".

يبدو أن السيد لؤي يفهم اللعبة جيداً الآن ومعلوماته دقيقة، فصديقي لم يعد رفيقاً منذ وقت طويل، ولهذا يشير إليه دون هذا اللقب. أما عقلي أنا فلم يعد يفهم ما يدور حولي، وخاصة عندما يرتبط الموضوع بالمعلم والسيد لؤي.

يتابع السيد لؤي "أي كتاب لابن عربي أو الحلاج أو السهروردي....." وتبادلنا نظرات الدهشة أنا وصديقي، فقد لفظهما بشكل جيد وبوضوح وبدون قراءتها من ورقة.

واستمر متابعاً بتمهل"..... هي كتب مميزة وضرورية الآن في هذه الأوقات، فهؤلاء المبدعون تركوا تراثاً صوفياً غنياً يغلب عليه الطابع الفلسفي، نَبَع من تراكم الخبرات والمذاهب المتنوعة في منطقتنا، تراث منسجم مع بيئاتنا الاجتماعية التي تسيطر عليها العلاقات الحميمية والودودة، والتي يشغلها العشق بكل أشكاله،

وبشكل خاص العشق الإلهي"، قال كل ذلك بهدوء وكأنه يعطي كل كلمة معناها ودلالتها في سياق الجملة، فهو يعرف بما يتحدث.

نتبادل أنا وصديقي نظرات الدهشة والاستغراب، بحيث إن تعابير ذلك بدت بوضوح على وجه صديقي، أما أنا فعلى درجة أقل، فقد اكتشفت سابقاً لدى المعلم في "جهاز الإشراف الحضاري ـ قسم المعلومات "ثقافة موسيقية عالية، وهاهو السيد لؤي يبدي معرفة عميقة بالتيارات الصوفية في تاريخيتها.

يسأله صديقي بثقة العارف، فهذه كتبه وهذا مجال عمله "ولماذا هي ممتازة وضرورية برأيك في هذه الأوقات بالذات يا سيد لؤي؟"،

يبتسم السيد لؤي بمكر شديد "هذا رأي المعلم.....". وقالها من جديد بكل الاحترام مع الانحناءة الخفيفة من الظهر،"..... فهذه التيارات الصوفية المسالمة تستطيع أن تسحب البساط من تحت أقدام التيارات الأصولية القادمة من الصحراء، والتي تدعو إلى العنف، وتقطع الطريق عليها. وهي تستطيع أيضاً أن تجذب إليها الشباب المتدينين، فينشغلون بأحوال الاتصال والتوحد مع الإله بدلاً من الاتصال والتوحد مع أمراء الجماعات الذين لا يعرفون إلا العنف والقتل، هؤلاء الذين تضخ لهم الصحراء ذهباً تمت مراكمته من أموال النفط".

ويجد صديقي الفرصة ليسأل عندئذ "ولكن لماذا تلاحق أجهزة الاستقرار كتب هؤلاء الصوفيين الثلاثة؟".

يجيب السيد لؤي "جهاز الإشراف الحضاري ـ قسم المعلومات يتابع الأمور بدقة، وخاصة أن معلمنا المحترم قد استلم الموضوع بشكل شخصي. هناك خطأ تقني، فلقد تبين أن أحد أئمة المساجد كتب تقريراً كاذباً إلى قسم الاستقرار، أراد به ضرب حركات التصوف الحالية، ليخلو الجو له ولجماعته الأصولية. وعند دراسة التقرير من قبل المحللين في قسمنا اكتشفنا بسرعة وبكل بساطة أن من كَتَبَه يتلقى

معونـة مـستمرة مـن الـصحراء، ويتلقـى تعليماتـه مـن هنـاك بـشكل أسبوعي، وعرفنا أهدافه الخبيثة بسرعة".

"ولكن "أبو رعد "جاء إلى هنا وطلب عنـاوين سـكنهم؟"، سـأل صديقي.

"لا تهتم كثيراً بهذا الأمر، فالمعلم يعرف أن ابن عربي مولـود في الأندلس، وعاش مابين القرنين الحـادي عـشر والثـاني عـشر، أي في وقت لم تكن فيه بلدنا الحالية موجودة، وله كتاب صعب ومعقـد مـن عشرين مجلـداً اسمـه "الفتوحـات المكيـة"، ومـات ابـن عـربي ميتـة طبيعية".

"والحلاج؟"، سأل صديقي في محاولة لاستثارته وإبداء انزعاجـه مما حدث البارحة.

"الحلاج، الذي يخطئ صاحبنا بلفظه، لديـه هـذا الاسـم بـسبب نَسَبه لصنعة والده الذي كان يحلج القطن، وبعضهم كان يلقبه بحـلاج الأسرار، أي كاشـفها. هـذا الـصوفي الـذي عـاش في القـرن العاشـر الميلادي كان كمن أصابه مس من جنـون بالنـسبة لمـن حولـه، لـيس بسبب فكرة وحدة الوجود كما لدى ابن عربي، بـل لـتفكيره المـستمر بالاتحاد مع الإله والتماهي معه عـشقاً، ولـذلك تم الإفتـاء بأنـه كـافر بالشريعة، وبعد إيداعه السجن ثماني سنوات لم يتراجع عـن تفكـيره، فقطعـت يـداه ورجـلاه، ثم أُحـرق جـسده ورمـي في نهـر دجلـة في العراق، ميتة شنيعة أليس كذلك؟".

وحتى لا يتوقف السيد لؤي سارع صديقي وسأل "ولمـاذا يهـتم" أبو رعد "بالأصول الإسلامية للسهروردي؟".

"الذي كتب التقرير يكره الإسماعيليين، ويرى أنهـم تعـاملوا مـع الفرنجة في أثناء الغزو الصليبي في إحدى الفترات التاريخية. وشـهاب الدين السهروردي المقتول عاش في القرن الحادي عشر، وسُمي بهـذا الاسم نسبة إلى بلده سهرورد الواقعة في بلاد فـارس، هـو إسمـاعيلي

نزاري، تلقى علومه في قلعة "آلموت "الشهيرة، الواقعة في أعالي الجبال ببلاد فارس. وفي حلب أفتى فقهاؤها بهدر دمه متهمين إياه بالكفر والزندقة، عندما لم يستطيعوا مواجهته، وقد خيره الملك الظاهر غازي ابن الناصر صلاح الدين بالميتة التي يرغب بها، فطلب هذا الصوفي أن يحبسوه في مكان مغلق وأن يُمنع عنه الأكل والشرب حتى يموت، وقد ندم الملك على قتله بعد ذلك".

نهض السيد لؤي دون أن يسمح لنا باسترداد الأنفاس من وقع صاعقة معلوماته ـ أقصد معلومات معلمه ـ علينا، وأثناء خروجه لم ينسَ أن يلقي نظرته وابتسامته الماكرة عليَّ "هل أمورك بخير مع عوالمك الماورائية..... سنلتقي قريباً".

شعرت بصداع شديد مفاجئ وقلق داخلي بعد خروج السيد لؤي، وسألت صديقي "عن ماذا كنتم تتحدثون قبل حضوري".

رد صديقي عليَّ بلهجة شك تساوره نحوي "تحدثنا! لم نتحدث، هو تحدث، يعرف كل شيء عن أعمالي وتحركاتي ومشاريعي، يعرف كل شي عن سهراتنا أنا وأنت..... ولميس، وكأنك تنقل له كل التفاصيل!".

"وبماذا تساورك الشكوك؟ "أسأله.

"ليس بك، ولكن بالوضع الذي يجمعني معك ومع لميس، ودون أن تُحضر ورد لسهرتنا".

أشعر بجفاف قاسٍ في حلقي، لقد فعلها السيد لؤي إذاً! يستمر صديقي"..... سهام وفهمنا قصتها، لا تخرج معك من المنزل لأنها من أسرة تقليدية، أما ورد فلماذا لا تخرج معك! هل هي قاصر ولا تستطيع التجول معها خوفاً من القانون؟ منذ متى كان لديك ميلاً شاذاً نحو القاصرات"، قال كل ذلك ولازالت لهجته مستنكرة.

"السيد لؤي هو الذي أوحى لك بكل هذا، أليس كذلك؟".

"قال شيئاً بهذه المعاني بعد أن سألني سؤالاً غريباً لماذا نحب بعضنا".

كان علي أن أجد تبريراً قوياً يفهمه صديقي، وإلا فإن التوتر سيسود بيننا، "أنت تعرف أن لميس موجودة لأنها شعر ونبيذ، شيئان متناغمان وتتحكم بهما، ورد موجودة وغير موجودة، فهي موسيقى ومطر، والاثنان متناغمان، ولكن عندما يشعلان الحنين فأنا لا أعود أتحكم بهما....."، ثم أكملت وكأنني أحدث نفسي "لا أرغب بفقدان ورد، وفي الوقت نفسه أبحث بإصرار عن عيون عسلية".

فهم صديقي بمقاربتي الشعرية هذه الحقيقة، متجاوزاً إيحاءات السيد لؤي الخبيثة، إلا أنني قبل خروجي سألته فجأة "هل في سقف غرفتك مصباح معطل يشبه العين الزجاجية؟".

أجاب باستغراب "نعم يوجد، ومالك المنزل قال لي بأن لا أهتم به فهو معطل".

أسأله "وهل يزعجك وجوده؟"،

"أحياناً، لا على الأغلب يزعجني، وخاصة عندما أشعر بالاضطراب والبلبلة، أكون متمدداً بالسرير، ويجول ناظري في الغرفة، أتمنى عندئذٍ أن أحطمه".

"المطبخ عندك دافئ وواسع ومريح، ما رأيك أن ننقل سهرتنا الليلة إليه؟".

يصبح الجو ودوداً مع صديقي، نتفق على اللقاء مساءً، مع لميس والشعر والنبيذ. خرجت من القبو وكانت تمطر، مطراً ليس مريحاً ولكنه ليس مزعجاً، فالأفكار تبلبلني، "أبو رعد"، السيد لؤي، صديقي، لميس، وصراع شديد في داخلي ما بين ورد وفتاة قادمة بعيون عسلية، رأيتها تناديني ذات حلم ورجعت لأجلها.

***

لـيـس

توطدت علاقتي مع صديقي منذ أن قرر نشر كتابي "سحر الكلمات والصور"، الذي يبدو أن موضوعه خارج إطار المشروع الثقافي لدار نشره، إلا أنه وجد فيه جانباً مثيراً جعله يُقدم على نشره "كل ما تكتبه عن الكلمات والصور هو عمل علمي أكاديمي، غير صالح الآن للقراءة والفائدة في حياتنا المليئة بالاختناقات اليومية والفوضى والاضطراب، ولكن ما تكتبه عن السحر هو الذي يثيرني، وهو ما نحتاج إليه في هذه الأوقات الصعبة، وإذا ما تابعت هذا الموضوع فسوف يقودك إلى ملامسة الجنون، سيجعلك تنتقل من العوالم الداخلية التي صنعتها أنت بنفسك، وتعيشها بخيالك، إلى العوالم الماورائية التي ستعيد هي صنعك من جديد وتسيطر عليك".

يبدو أن صديقي قد اكتشف الجانب الشاعري السحري من كتابي الذي من الممكن برأيه أن يقود إلى الجنون، وكأنه يحرضني على الاستمرار بهذا الاتجاه لأكتب فيه، ولكنني لست بشاعر مجنون مثله، وإن كان بي مسٌ من الجنون. فمن الصعب تصديق أنني رجعت إلى البلد فقط من أجل البحث عن العيون العسلية، والتي لها من الإيحاءات ما يجعل القلب يرتعش عندما يراها والدمع يشتعل في المآقي حنيناً للضياع بها، أليس هذا جنوناً؟ ولكن هذا ما حدث، فقد رجعت، ولأجل هاتين العينين، وهارباً من العيون الرمادية في بلاد الثلوج.

أفهم أن لي عالماً داخلياً واسعاً، انبثقت فجأة ورد من الحنين فيه، ورد تعطيني بعضاً من الطمأنينة والهدوء، فأستكين إليها، ولكنها بالمقابل تجعلني في بعض الأحيان أشعر بالاضطراب، تقول لي إنني لا أستطيع مواجهة ذاتي، ولذلك أهرب إليها. وبالرغم من تعلقي بها إلا أنني منذ أن حدثتها عن حكايتي القديمة مع شيماء أخذت تستشعر

الخطر من البحث المهووس لدي عن العيون العسلية، فهددتني واتخذت موقفاً واضحاً "إما أنا، أو صاحبة العيون العسلية".

فكرت مراراً بحديث صديقي عن الجنون، وأنا أشعر أنني أغرق في الفوضى المجنونة حولي منذ رجوعي. الخراب والخواء يحاصرانني هنا، حيث يتطاول المنحرفون، والمهووسون، والممسوسون، والشاذون، والقاصرون، والاستعراضيون، والقمعيون، والساديون، والانفصاميون، ليصبحوا عمالقة مثيرون للاشمئزاز، يتحكمون بحياة الناس البسطاء، يدمرون الصفاء في حياتهم، وينظرون إليهم كحشرات صغيرة تدب على الأرض، يزعجهم وجودها فيسحقونها، ويستمرون في تضخمهم، عمالقة أكبر في شبكة تعاضدهم ضد البسطاء وأحلامهم..... عالم مجنون منفلت بالكامل، لا يمكن مقاومته إلا بجنون أكبر وبلا حدود. وأنا لا أريد هذا العالم، ولا أرغب بمواجهته، أعمل كي أبقى بعيداً عنه، ولكنه لا يتركني، يترصدني، ويحاصرني بعبثيته، وقد قرر أن يسحقني مع البسطاء. ألهذا يدفعني صديقي لأقاومه بالجنون؟ وأنا سأصل إلى الجنون دون أن يدفعني أحد نحوه، مادمت سأبقى هكذا ضائعاً ومحاصراً في هذا العالم المليء بالفوضى، سأصبح مجنوناً بغض النظر إن كنت سأتفهم معنى العوالم الماورائية أم لا، حسب رأي صديقي، فهذا الواقع الفاسد المنحل هو الذي يجعل الإنسان مختل العقل، وليس الهروب منه إلى العوالم الماورائية.

منذ أن رجعت من السفر وأنا لا أنسجم مع ما يدور حولي، لا أحب عملي الإداري في المركز، أجد صعوبة في التواصل مع الناس الذين أعمل معهم، أشعر بغربة هنا وكأنني أنتمي إلى لامكان، فهل تعلقي بأمل اللقاء مع ذات العيون العسلية وبحثي الدؤوب العابث عنها هو جزء من هذا الجنون، لأجل أن أعيش وأتنفس، وبالتالي للشعور بالانتماء إلى مكان ما!

ورد جاءت من الحنين الذي انبثق من عالمي الداخلي، من صفاء الطفولة، ورائحة المطر، وأغاني الحقول، وسهر الليالي، أما ذات العيون العسلية فهي الحلم المشتعل في القلب، الذي أستشعر بحدس داخلي قوي أنه قادم، وسيعيد الانسجام والتناغم إلى حياتي. وورد استشعرت بحدسها الأنثوي أيضاً أنني أعيش في انتظار هذا الحلم، لا بل أخذت تعرقل بحثي عنه، لأنه سيجعلها تذهب. وبما أن الحنين المنبثق من الماضي سيصطدم في النهاية مع الحلم الذاهب في المستقبل، فماذا سيحدث عندئذٍ في داخلي، هل أستقر وأهدأ وأكسر حصار الجنون، أم بالعكس أنهار وأندفع إلى حافة هاوية الانتحار.

أعيش في عالم خارجي أخرق وحقير، وأهرب إلى عالم داخلي ناعم ومريح، أما هذه العوالم الماورائية التي يحدثني عنها صديقي فهي غريبة عني. أنا مقتنع أنها وهم صنعه البشر بخيالهم، يخلقون كائنات خيالية ويعطونها قوى سحرية غرائبية، يجلسونها في مملكة تقع في أعالي الجبال أو ما وراء البحار، أو بالأحرى هناك عالياً بعيداً جداً في السماء، حتى لا يستطيع أحد أن يتلصص على ما فعله الخيال. تأكل، وتسكر، وتعيش ليالي ماجنة بعد أن تثمل بالخمرة المقدسة، فتضج لياليها بجنس شبق، تولد منه البحار والجبال والأنهار والغابات.

وقد يعشق إله عابث مجنون من السماء فتاة ناعمة ممشوقة القوام من الأرض، يلتقطها وهي تستحم وتداعب جسدها في بحيرة مسحورة، أو تعشق إلهة مشبوبة بالنزوات الجنسية أحد الرجال الممشوقي القامة، يغريها بعريه وهو يتجول في الغابات بحثاً عن طرائده، فيقع هو طريدة لها,هؤلاء يقضون ليالي حب يملؤها شبق مجنون عابث على سرير من الغيوم الواسعة، فيسقط مع المطر من اتحادهما السماوي أبطال أنصاف آلهة، يعشبون الحقول وذاكرة البشر بحكايات لا تنتهي، يتسامرون بها أيام البرد وهم يتحلقون حول نيران مشتعلة، ينشدون الدفء حولها، ويقتلون بها الخوف من المجهول.

وحتى تكتمل الحكايات حول النار، فلابد من آلهة طيبة تريد الخير للبشر وآلهة سيئة تعلن الشر لهما، فتمتلك الأولى جيشاً عرمرماً من الكائنات النورانية المقاتلة، وتمتلك الثانية عصابات من الكائنات النارية الحارقة، لا تقل قوة عن هذا الجيش. وحتى تضاهي العصابات بأس الكائنات النورانية وشدتها وعظمتها فإنها تنوع كائناتها المقاتلة، فتشكل كتائب نارية مخيفة من الشياطين والعفاريت والمردة والجن والغيلان والسعالي والتنانين.

وفيما الآلهة التي صنعها البشر تعيش مسرورة في الأعالي بلياليها الماجنة، يقوم هؤلاء البشر المساكين بصنع تماثيل لها، تجلس حزينة في معابد حجرية، ويقومون بالتذلل لها ليل نهار، عساها ترد عنهم طوفانات الأنهار، وحرائق الصواعق، وأوبئة الموت. يأتي البشر المساكين إلى هذه التماثيل ويبكون، يطلبون منها صيداً وفيراً، ولكنها لا ترد عليهم، وتبقى حزينة. يتمرغون أمامها على التراب، ويعفرون ملابسهم، ويلطمون خدودهم، لا ترد عليهم أيضاً، وتبقى حزينة. يشربون خمراً لينسوا، وعندما ينهضون سكارى يعجبهم الاهتزاز والانحناء والتمايل أمامها، فتأخذهم النشوة، وتنتظم الحركات في طقوس راقصة ترافقها ترانيم سحرية ويدورون حولها، ولكن التماثيل لا تبتسم.

يتساءل البشر لماذا الآلهة حزينة؟ فيتوقعون السبب، أنها جائعة مثلهم، فيقررون أن يقدموا لها أضاحي مقدسة لتشبع وتبتسم، يقدمون فتيات عذراوات وأولاداً بكراً، يليقون بمقامها القدسي. وعندما يشاهد البشر دم الأضاحي يُثارون وينتشون بلونه ورائحته، فيبلغ بهم الهياج أشده، ويفقدون الحس بالواقع، ويشعرون عندئذ بأنهم قد تواصلوا أخيراً مع هذه التماثيل، وجعلوها مسرورة، تبتسم في ممالكها السماوية. ومن وقتها يذبح البشر بعضهم على مرِّ التاريخ، ويقدمون الأجساد المضرجة بالدماء أضاحي إلى الآلهة كي لا تبقى حزينة، وكلما ازدادت الذبائح البشرية بدماء تغطي الأرض كلها، شعرت الآلهة

بالرضى، وبقيت مسرورة. وإذا ما توانى البشر عن تقديم الأضاحي للتماثيل في الأرض أو في السماء، وانقطع تدفق الدماء، تغضبُ الآلهة، فترسل لهم جيوش الشر من الشياطين والعفاريت والمردة والجن والغيلان والسعالي والتنانين لتطاردهم، وتجعل حياتهم جحيماً على الأرض. فالدم هو حياة الآلهة على الأرض!

هذه هي العوالم الماورائية التي أعرفها، ولا أدري كيف تشكلت لدي هذه الرؤية عنها. فقد تمثل جانبها السماوي بشاعرية أسطورية لها كثير من الإيحاءات المبدعة في حياتي اليومية، ولكن بالتأكيد فإن جانبها الأرضي شكَّل منذ طفولتي عالماً مرعباً، ينمو ويكبر ويتضخم كثيراً في داخلي، وقد احتجت إلى وقت طويل حتى استطعت أن أتخلص من تأثيره المدمر. وبمجرد أن يذكر أحد أمامي العوالم الماورائية، فإن أفكاري تتداعى وتتجه إما إلى جانبها الأسطوري الشاعري أو إلى جانبها الأرضي الواقعي المرعب، حسب الموقف الذي أتعامل معه، فهل هذا ما يتحدث عنه صديقي؟

صديقي في الصباح عقلاني وواقعي وحاد الذهن، وعلى الأغلب يتفهم بعضاً من رؤيتي عن العوالم الماورائية بين فناجين القهوة وأكواب الشاي، ولكنه سيسخر في الوقت نفسه من عوالمي الداخلية، ومن حكاية ورد وحلمي بذات العيون العسلية. وفي المساء فإنه على النقيض من ذلك يتحول إلى شخص انفعالي نزق به جنون محبب، بالتأكيد تحت تأثير الشعر والنبيذ، وسيتهكم عندئذٍ من أفكاري عن العوالم الماورائية، ولاسيما الجانب الضارب بالتشاؤم منها، ولكنه سيرغب بالتعرف إلى ورد، ويحاول أن يدعوها للسهر معنا إلى جانب لميس، وسيتفاعل أيضاً مع جنوني وولهي بالعيون العسلية. هنا يكمن سر جاذبيته في هذا التضاد، ولكنني سأحتال عليه وأفكر باختيار وقت مناسب، وقت انتقالي بين الحالتين، حالته العقلانية وحالته الانفعالية، فأجعله يقبل فكرة كتابي الجديد عن سحر العوالم الداخلية، دون أن يفرض عليَّ عوالمه الماورائية، وفي الوقت

نفسه أجعله يتقبل وجود ورد الحنين وذات العيون العسلية الحلم.

أفاجئ صديقي ذات يوم بالقدوم إلى مكتبه قبل انتهاء العمل لديه بساعة تقريباً، طلبت منه أن نقوم بنزهة، نتناول بعدها نبيذاً في زاوية مطعم قديم، وبما أن فترة توقيت عقلانيته لم ينتهِ فقد أبدى تذمراً "ولكن هناك أعمال يجب أن أنجزها في الوقت المحدد، دعني أعمل".

أصر على دعوتي "الأجواء ربيعية، هطل مطر غسل الأشجار والطرقات، القلوب منتعشة، فلنكسر حدة النظام وعقلانيته قليلاً في هذا اليوم".

يعرف صديقي أسرار الشعر والنبيذ كلها، التي بدأ يجعلني أعيشها معه بممارسة طقوسها في كل ليلة تقريباً، أما أسرار الموسيقى والمطر عندي فما زالت مغلقة عليه، لا أنفتح بالكثير منها أمامه، ربما بسبب خوفي على ورد وعلى حُلمي بالعيون العسلية. وبما أن الزمن اليومي لحالته العقلانية قد أخذ بالأفول، فقد تراخى وانتهى تردده ووافق على الخروج، ولكن مع بعض الاضطراب في تصرفاته. قال "أنت وأمطارك التي تبلل ملابسنا، تجعلنا نركض مثل العصافير المذعورة، لنلتجئ تحت مظلة أول محل تجاري نصادفه، ننتظر سدى ولا تنقطع".

ولكن ما إن سرنا قليلاً في شارع تحف به أشجار باسقة على جانبيه حتى فوجئ بتساقط رذاذ مطر ربيعي على وجهه، فأغمض عينيه ورفع رأسه إلى السماء "معك حق، ينتعش القلب تحت مثل هذا المطر الناعم، يغريني أكثر بالشعر والنبيذ، ويجعلني أشتاق أكثر إلى لميس".

سررت وقد بدأت أجد تقاطعاً بين عالمينا، فقررت أن أستغل لحظة التواصل والتناغم لديه مع المطر فأبادره بالحديث "هل ترى كم هي رائعة العوالم الداخلية التي يثيرها المطر، وسوف تكتشف جمالها

أكثر إذا توصلت إلى إدراك سر تناغم موسيقى سقوط المطر مع هديل الحمام وزقزقة العصافير".

أصمت قليلاً، أجده يسمعني وهو مسرور ومنتشٍ، فأقرر الانتقال إلى موقف أكثر تحدياً بعد ما شعرت بقوة ما طرحته "أما عوالمك الماورائية هذه فأنا رجل عقلاني لا أؤمن بوجودها، ولا أدري لماذا تحرضني وتدعوني إليها؟".

يفاجئ صديقي بمبادرتي الهجومية فيقرر الخروج من حالة الانتشاء والتحول للدفاع عن وجهة نظره، فيبادرني بالسؤال "أليست هذه العوالم الماورائية هي نتاج المخيلة، كما تقول؟".

أجيب "نعم، نحن نصنعها بالمخيلة، نضع فيها خبراتنا الحياتية، ونضيف إليها آمالنا وأحلامنا بعالم أفضل، بدلاً من هذا العالم المقهور الذي نعيش فيه".

يؤكد صديقي عندئذٍ بثقة "إذاً، هي موجودة".

أجيب من جديد "نعم موجودة، ولكن من خلال انعكاسها من المخيلة على شكل نصوص وصور، أساطير وحكايات وصلوات يرتلها البشر، أيقونات وتماثيل يقبلونها ويسجدون لها، وقد تتحول هذه التخيلات من تجسداتها الملموسة على الأرض إلى رموز تجريدية نرفعها إلى السماء، نخاطبها بلغة البشر".

يرد "لكنها موجودة في العقول والمخيلات باستمرار، تتحرك وتتطور".

أقاطعه "صحيح هي موجودة فيها، لكن المشكلة تبرز عندما تنفصل عن واقع تخيلها وتتحول إلى وهم، وهم كبير سيطر سيطرة كبيرة على حياة معظم البشر وجعلهم عبيداً لها".

يعترض من جديد "لا ليس بوهم، تصبح حقيقة بالرغم من أنها نتاج المخيلة، ولذلك يذهب الناس إليها بالأحلام والرؤى، ويتسامون للاتحاد بها، ثم ينتقلون إليها بالكامل بعد الموت".

" يُخيل إليهم أنهم يذهبون وينتقلون "أقول ذلك بكل الإصرار.

ينفعل صديقي "لا، يذهبون وينتقلون حقيقة إليها، لا يهم ما تفكر به أنت، بل ما يفكرون ويقتنعون به، هم يتعاملون بحب مع عوالم الملائكة والحوريات، ويكرهون عوالم الجن والشياطين والعفاريت، وهم يختارون الذهاب إلى عوالم النور والنعيم والفردوس والجنة، ويخافون الوقوع في العوالم السفلية وعوالم الجحيم وجهنم".

أجيب بهدوء، وكأنني بدأت أصل إلى رؤى أولية لتشكيل أفكار كتابي عن العوالم الماورائية ـ أقصد العوالم الداخلية ـ "ليذهبوا يا صديقي، ليس لي اعتراض على ذلك، ولكن هناك كهنة موتورون يستغلون ويتعيشون من ذهابهم إلى العوالم الماورائية، يجعلونهم ينسون أحلامهم على الأرض، وينسون الأزمنة والأمكنة التي التصقوا بها منذ طفولتهم. هؤلاء الكهنة، الذين يقمعون البشر روحياً باسم السلطة في السماء، يتكامل دورهم مع من يقمعهم أيضاً باسم السلطة على الأرض".

يقاطع صديقي حماسي واندفاعي "وكأنك تفكر فقط بالتشبث بالأرض، وتمنع البشر من التحليق إلى السماء!".

أستجمع كل قدرات الإقناع لدي لأنهي الموضوع لصالحي "بالتأكيد لا أفكر بهذا، على العكس يمكن للبشر أن يحلقوا عالياً، ولكن في سماوات عوالمهم الداخلية، وعندها سيتعرفون على قواهم الخفية المجهولة، وسيختبرون عندئذٍ قدراتهم على كشف المبهم والغامض من خلال الشاعرية وتأمل الأشياء، من خلال الحدس والتخاطر والتنبؤ واختراق الأزمنة والأمكنة، بعيداً عن كائنات تملؤهم رعباً وتهددهم بعذابات سادية في صحوهم ونومهم".

أتوقف قليلاً أمام صمت صديقي وكأنّي وجدت تقاطعاً جديداً مشتركاً معه، أقرر أن أستفيد من هذه اللحظة بالتوجه إلى عوالمه "ألا

تحلم أنت بعالم جميل عندما تبوح ما بقلبك شعراً أمام عيني لميس، وتكتشف فيهما كروم عنب تمتد حتى الأفق، وعندما تمتص طعم النبيذ من شفتيها وأنت تقبلها، فتتنشق ذاكرة الأرض وعشقها لكلمات شعرك؟ أنا أرى عوالمك الداخلية متسعة بشعرك ونبيذك اتساع الكون المليء بالأسرار".

يبتسم صديقي وكأنّي لمست شغاف قلبه، يقول بهدوء شديد وكأنه يستسلم "المطر يثير فيك الرؤى المختزنة بالحنين، ويطلقها صدى لنداءات قادمة من الأعماق".

أبادله الود قائلاً "تماماً كما يثير النبيذ فيك الكلمات كصدى للنداءات ذاتها".

أصبحت أعرف كيف أنهي الحديث لمصلحتي مع صديقي، يكفي أن أذكره بالشعر والنبيذ وعشقه للميس، وكيف يكتشف الأشياء والأمكنة والأزمنة والكلمات حوله من خلالهما، حتى يستسلم أمامي، فأبتسم وأنتشي. كان هذا في البداية، لكن مع الزمن عندما عرفني أكثر، وعرف عشقي للموسيقى والمطر، وحنيني لورد، حتى أصبح هو يستشعر جانباً من مكمن ضعفي وأسباب قلقي الدائم، أستسلم أمامه، فيبتسم وينتشي. ازداد الصراع بين الشعر والنبيذ من جهة والموسيقى والمطر من جهة أخرى، وبشكل غير معلن بين لميس الجسد الواقعي وورد الحنين القادمة من أعماق الذات. أما سري الخاص عن العيون العسلية، نبع أحلامي الخفي، فلم أبح به لأحد، ولم تكتشفه إلا ورد، وربما استشعر صديقي شيئاً منه، فهو يردد دائماً بطريقة ملغزة "ومع ذلك سترى كيف ستقودك عوالمك الداخلية إلى عوالم ماورائية، أشعر أن أحلامك ليست أرضية، وإنما ماورائية!".

أصبحنا نلتقي أنا وصديقي بشكل شبه يومي، يرافقني في نزهاتي تحت المطر الناعم الخفيف، وأنا أشرب معه نبيذاً، يُسمعني أشعاره

العفوية وهو يقتحم بها المجهول والمحرمات، وأنا أسمعه هديل الحمام وزقزقة العصافير وهي تحلم تحت المطر. ثم نظم أشعاراً بطريقة جديدة أكثر عفوية عن موسيقى المطر المتساقط على أوراق الأشجار، وعلى بلاط الأزقة، وعلى الوجوه المبتسمة والوجوه الحزينة في الشوارع، وعلى القلوب المختنقة وراء النوافذ ذات الستائر المنسدلة. لميس تأتي، تشاركنا النبيذ أينما كنا، وورد لا تأتي، تكتفي بالشاي مع شرائح الليمون وأوراق النعناع الأخضر في منزلي.

أنظر إلى لميس في سهراتنا، أقارنها بورد، عالمان مختلفان تماماً. ورد عالم يشتعل بحنين الماضي، ولميس عالم حقيقي لا يقتصر على السرير، وإنما ينبثق في تفاصيل الحياة اليومية ويعيش، في البيت، وفي الشارع، وفي العمل.

تسحرني ورد، بابتسامتها التي تثير بي الحنين إلى شيء مبهم قديم، محبب ولكنه مفتقد، تسحرني بجسدها المثير الذي ما أن ألمسه حتى تجتاحني الرغبة بالالتحام به، فأعانقها وأتوحد بها ألقاً مجنوناً، سرعان ما يرمي بي بعيداً في الماضي الممطر عشقاً. ولكن بعد ما اعتدت على ورد، على طريقة تسللها من النافذة مع المطر، وعلى أنفاسها وهمساتها ولهاثها وغفوتها بين ذراعي، بدأت أفكر بأسرارها المغرية المختزنة في ذاكرتها وحديثها وجسدها وتصرفاتها، التي تجعلني مشلولاً أمام سحرها وفتنتها. فأنا أصبحت أعرف جسدها الأبيض الذي يغريني بتفاصيله المكتنزة الحليبية، جسدٌ أبيض وكأن الشمس لا تراه، إلا أنني ذات مرة انفصلت لثوانٍ من حصار عناقها ولهاثها، لأتأمل ارتعاشات جسدها بشاعرية، فوجئت بتغير غريب فيه، فقد أصبح مائل إلى السمرة الشبقة رغم معرفتي الأكيدة ببياضه. وأعرف ثدييها وهي تعلوني وتلهث في لحظات نشوتها، يتدليان ويهتزان متأرجحين، ويكادان يلامسان وجهي كحمامتين صغيرتين تتطاولان إليه بأجنحة مرفرفة، إلا أنه ذات مرة أيضاً أخذتني الغفوة على صدرها بعد نشوة عنيفة، فوجدت نفسي أضيع بين تلال ثديين

ضخمين، بحيث شعرت أن رأسي وصدري وجسدي كله يسقط ويغرق في بحر متماوج من النعومة. وهكذا في غفلة من لحظات النشوة بدأت ألاحظ أن أعضاء جسدها وتفاصيله تتغير من وقت لآخر، ملامح وجهها، اكتناز شفتيها، خصرها الرشيق، مؤخرتها الممتلئة، فخذاها الناعمان، لا بل أن تسريحتها تتغير أيضاً، وملابسها التي تخلعها في الفراش بإغراء شديد تتبدل وتتنوع، لتتشارك كلها في عملية استلابي، تجعل النار تشتعل في الجسد، ولا تنطفئ إلا وقد تحولتُ إلى حطام مبعثر على شاطئ بعيد لجزيرة منعزلة غير مأهولة.

أنظر بذهول إلى التبدلات الغريبة في ورد، وخاصة في جسدها، أتأملها طويلاً، وأفكر كيف تستطيع أن تتلون هكذا باستمرار، ومنذ أن عرفت بحكايتي مع شيماء أصبح كل شيء فيها يتغير بتجدد مذهل، حتى رائحتها وهمساتها وملمس جلدها واكتناز جسدها، أخذت الوضعيات التي نمارس بها الجنس تتغير بطرق لا تنتهي، بمقدار ما يستطيع الخيال الذهاب بعيداً في البحث عن أقصى درجات المتعة، واكتشاف وسائل جديدة وغريبة وعجائبية لتكثيفها وإطالتها، فالمهم ألا أشعر بالملل والضجر. تبتسم ورد، تفهم دائماً ما يدور بذهني، أشعر بحدة ذكائها، ولكنها في الوقت نفسه أستشعرها مليئة بالخبث، تتلون بكل الرغبات التي تعيش في خيالي لحظة الاشتياق لها، جسدٌ متلون يعشش في الرغبات، ولكنها تستغل أيضاً ضعفي أمام المطر، تستغل حالات الوجد أمام الحنين لذكريات الماضي، تستغلني جسدياً وعاطفياً، المهم أن لا أتركها، ولا أغادرها، لا إلى شيماء ولا إلى أية فتاة تمتلك عيوناً عسلية.

وفيما أتذكر ورد أتأمل لميس طويلاً، شبه غافية على صدر صديقي، وقد جلسنا في المطبخ هذه المرة نتناول عشاءنا ونشرب نبيذنا، في المطبخ بالذات هرباً من المصباح المعطل في السقف، الذي اكتشفت أنه غير معطل، وأن هناك من يترصد الناس من وراءه، يستمع إلى ما يتحدثون به، ويراقب كيف يحلمون، ومن يزورهم في الحلم مع قدوم المطر.

لميس امرأة عادية، لكنها حقيقية بدرجة لامعقولة، ومن هنا سلطتها القوية على صديقي الذي لا يحب الارتباط بأحد، جعلته يتعلق بها دون أن يعترف بذلك. ومع أن في وجهها مسحة من جمال غابر نادر، نما من رائحة الأرض هنا، فإن جسدها لا يمتلك الكثير من إغراء النسوة اللواتي يعشن من إطراء الرجال، فهي سمراء نحيلة، ليس فيها شيء مكتنز ممتلئ، يهتز مع سيرها وتمايلها وانحنائها، حتى إن ثدييها الصغيرين اللذين يطلان من وراء بلوزتها شبه المفتوحة دائماً يبدوان كعصفورين، ما أن تنظر إليهما حتى ترغب بأن تتركهما راقدين غافيين دون أن تزعجهما حتى بهمسة شوق. وعندما يعانقها صديقي، أشعر بها تختفي بجسدها الصغير الناعم النحيل بين ساعديه القويين، حتى أخاف على أضلاعها أن تنسحق في لحظة انتشاء مليئة بالانفعال. أما ملابسها فهي أكثر من عادية، بنطال أسود عتيق واسع، لا يُظهر أياً من تقاطيع جسدها، وفوقه بلوزة، على الأغلب بيضاء، وجاكيت رقيق رمادي، في حين تترك شعرها الكستنائي الناعم ينسدل وحده على وجهها دون أن تعتني بتسريحه. هذا هو المميز فيها ولا شيء غيره.

وبالرغم من بساطة لميس فأنا أفهم كيف يُسحَرُ بها صديقي، فهو في جنونه يستطيع أن يستشف جمالاً داخلياً، يتفاعل مع كل كلمة تقولها، أو حركة تقوم بها، أو إيماءة تبدر منها، فلميس تعيش في التفاصيل اليومية العابثة وتتنفس. تدخل بيت صديقي بعد أن تقرع الجرس طويلاً بطريقة إيقاعية مزعجة، هكذا لمتعة خاصة بها ولتعلن عن قدومها، معتبرة أن هذا ليس إزعاجاً، بل إعلان فقط، نوع من النشيد الوطني الخاص بها. لا تأبه لمن يكون موجوداً من الأصدقاء في المنزل، فترمي بقدمها اليمنى إلى الأعلى، فتنخلع فردة حذائها وتطير لتستقر في مكان ما في المدخل، ولتلحقها الفردة الثانية إلى مكان آخر بعيد عنها، وكأنهما يكرهان الاجتماع، وعلى الجميع الاحتماء من سقوط إحدى قذائف حذائها، وهذا يعني "انتبهوا أنا

أتيت ودخلت". وفي طريقها إلى الداخل تقلب لوحة ما معلقة على الجدار لتجعل أسفلها عالياً، وهذا معناه "أنا مررت من هنا"، وعندما يسألها صديقي عن هدف فعلها بقلب الأشياء، تجيبه "هكذا، هذه نظرة سريالية إلى العالم، العالم مقلوب بالأصل، وأنا أعيده إلى طبيعته حتى تفهمه بمعناه الحقيقي، وعندئذٍ ستكتب شعراً أجمل".

وما إن تشاهدني لميس جالساً أتصفح كتاباً حتى تحييني قائلة "ما أحوال عوالمك الداخلية وعوالمك الماورائية، هل بدأت تكتب عن السحر والجنون، أم مازلت عقلانياً مليئاً بعُقد المفكرين؟".

ثم ما يلبث أن يضج البيت، بصوتها وحركاتها، تفتح الثلاجة فتستنكر "دائماً معلبات لعينة غير صحية، وزجاجات نبيذ شبه فارغة، وخبز يابس، ولا شيء غيره".

تمسك ورقة وقلماً وتكتب لائحة "بيض بلدي بصفارين، لحم غنم محلي غير مجمد، جبنة فرنسية، مرتديلا إيطالية، بطاطا متوسطة الحجم من حقول الجنوب، خيار وبندورة وبقدونس وفليفلة ونعناع من البساتين، وليس من مزارع المسؤولين، ليمون وبرتقال وتفاح مقطوفين في صباح اليوم ذاته، وزيتون أخضر وأحمر وأسود ومحشي بالفليفلة الحمراء ومحشي بالزعتر الأخضر، خبز غير يابس، خمس زجاجات نبيذ ملآنة وليست فارغة، وزجاجة عطر برائحة البنفسج لي، وفردة حذاء بدل تلك التي سقطت من النافذة".

ترمي اللائحة بوجه صديقي "أذهب إلى السوق واحضرها بسرعة، أيها الرأس الممتلئ بقصائد الشعر التي لا تطعم بطناً يتلوى من الجوع، ولا تتلصص في طريقك على الفتيات الصغيرات والكبيرات، القصيرات والطويلات، العاريات والمحجبات، بحجة الإيحاءات الشعرية".

يدمدم صديقي معترضاً ومتأففاً من الضجيج والشغب الذي أججته منذ وصولها ومن طلباتها المستمرة، تسكته بقبلة صغيرة على

فمه، وتمسك بيده وتدفع به إلى الباب "أذهب واشترِ كل شيء ووفق المواصفات الأنثوية في اللائحة".

ينفذ صديقي طلباتها مبتسماً، فهو لا يقوى على الاعتراض أمام ابتسامتها الساحرة، وهو يُمَني النفس بعشاء يتناسب مع حضور نشوة النبيذ وجنون الشعر، يعرف أنها ستحضّر عشاءً بأطباق بسيطة من الطعام، ولكن بطريقة أنيقة، وبحس متعة التلذذ بمنظرها، فتزينها شرائح البندورة، والخيار، والليمون، والنعناع، والبقدونس المفروم، وحبات الزيتون الملونة. وفي أثناء تحضير العشاء لا تهدأ، تستنكر الفوضى في حياته وتؤنبه عليها، الفوضى التي لن تستطيع حتى زوجة تقليدية غبية أن تعيد الترتيب إليها، كتبٌ مرمية هنا وهناك، ملابس متروكة على الكرسي، صحون وسخة، سكين ضائعة، كأسٍ مكسورة، ثلاجة فارغة. وكلما يطلب منها الهدوء أو الصمت قليلاً، تزعل، تنزوي في زاوية لدقائق، ثم تعود فتضحك لوحدها، وتقبله، أو تعض أذنه، وقد ترتمي عليه وتعاركه قليلاً بعد أن تقلبه على السرير أو الأريكة.

وما أن يصبح العشاء جاهزاً حتى يكون صديقي الذي قد أنهك وليست لميس، مع أنها هي التي تضج طوال الوقت بالحركة، فيتنفس الجميع الصعداء، إذ تتحول من فتاة عملية إلى أنثى مغرية، تأكل وتُطعم، تُقبل وتدلل، وتحكي حكايات ساخرة لا تنتهي، فتضحك بصخب حتى ولو لم يجارها أحد. تسأل صديقي "ألن تتغزل اليوم بشفتي المغريتين؟".

يرد عليها "واليوم أيضاً؟ البارحة تغزلت بأنفك، وقبل البارحة بأذنك، وقبلها بعينيك.....".

"على هذه الحال يبدو أن الطريق طويل حتى تصل كلماتك إلى مابين فخذي الناعمين، مروراً بتلال نهدي الصغيرين".

ينفتح القلب عند صديقي، تشتعل الكلمات في قصائده،

وتتساقط مطراً في فضاء الغرفة، تتسلل إلى عيني لميس فتجعلهما جميلتين أكثر، وعميقتين أكثر، وحالكتي السواد أكثر. وعندما تصل لميس أخيراً إلى لحظة الإنهاك، ولا تعود بقادرة لا على الضحك ولا على البكاء، وتكاد أن تغفو، أنسحب عندئذٍ من الجلسة، أتسلل من الغرفة، أغلق الباب ورائي بهدوء، أنزل إلى الشارع، وأتمشى إلى البيت. وبقدر ما يكون الجو ماطراً ومنعشاً فإنني أمنّي النفس بلقاء ورد في البيت، في حين حيوية لميس تحتل حيزاً كبيراً من ذهني.

الفوضى الرائعة المحببة التي تشعلها لميس عندما تزور صديقي تدفعني كي أفكر كثيراً بورد وبطريقة حياتي معها، بل وجعلتني أتغير شيئاً فشيئاً بعواطفي تجاهها. أصبحت أخرج من عند صديقي بعد العشاء وأتمشى في نزهة طويلة، أجعل الطريق يطول أكثر كي لا أعود إلى البيت إلا متأخراً، حتى ولو كانت السماء تهطل مطراً ناعماً محبباً للقلب، مما كان يعني أن ورد تنتظر التسلل من النافذة. بدأت أستشعر هذا التغير في داخلي دون أن تفهم ورد ما بي، وعلى الأغلب أنا الذي لا أفهم ما يحدث لي. ورد لا تصرخ، ولا تعبث، لا ترمي بحذائها ليطير في السماء، ولا تقلب اللوحات لأرى العالم على حقيقته، ورد لا تطلب مني شراء الطعام والنبيذ، لا تُحضّر العشاء، ولا تبحث عن السكين الضائعة، بل إنها لا تطلب طعاماً أو شراباً إذا لم أشعر أنا بالرغبة بذلك، لا تطلب الخروج معي من المنزل إلى نزهة، أو إلى السوق، أو إلى السينما. ورد لا تعيش إلا في السرير، ورد جسد يشتعل ويلبي الرغبات، بينما لميس جسد وقلب وحياة نابضة..... لميس حياة تضج بالحياة مع أن عينيها ليستا عسليتين، فكيف لو كانتا عسليتين!

كلما أشاهد لميس أستشعر في داخلي أكثر قدوم ذات العيون العسلية، والتي ستملأ حياتي بالفوضى الرائعة المحببة، وستعيد قلب العالم الذي أعيشه لتجعله مفهوماً، كما تقلب لميس اللوحات في منزل

صديقي، لميس تدفعني لكي أكثف بحثي عنها، فتاة الحياة اليومية والحلم، متجاوزاً خيبتي مع شيماء. ألهذا يشتد الصراع في داخلي بين الحنين والحلم، بين ورد وذات العيون العسلية؟

في سهرتنا الأولى في المطبخ، أخذنا نخطط أنا وصديقي لتجاوز مشروع النبيذ، والانطلاق إلى جباله كي أمر بتجربة "مشروبه السحري". يقول لي "سأجعلك تبتعد عن عوالمك الداخلية، وتتسلل إلى عوالم ماورائية لم تسمع بها من قبل، بعيداً عن عقلانيتك القاسية".

تتساءل لميس وهي تنظر إليَّ "لماذا؟ هل بدأت تخطو نحو العوالم الماورائية؟! هذا ممتاز، ولكنك ستصبح في القريب العاجل مجنوناً إذا ما اتصلت بها".

ثم تتوجه إلى صديقي وتقول له "يتراءى لي أن أولى بوادر الجنون بدأت تظهر على وجهه وتصرفاته، وهو مازال يخطو الخطوات الأولى في البحث عن العوالم الماورائية، فهو ينظر إلى السقف دائماً، أصبح عنده خوفٌ مرضيٌ من المصابيح المعطلة، يتوهم أن أحداً ما يراقبنا من خلفها، بحيث جعلنا ننتقل إلى المطبخ، ولكنه لم يحدد هل هم من الأرض أم من كوكب آخر؟ برأيي إذا استمر بهذه الحالة العابثة فمن الأفضل أن ننقله إلى مستشفى للأمراض النفسية المصباحيّة".

يستمر صديقي بالهجوم عليَّ مكملاً ما بدأته لميس "بالإضافة إلى ذلك فمنذ أن رجع من السفر أصبح تائهاً في عوالمه الداخلية، عوالم تنبثق منها الورود بكثافة وتخنقه بالحنين، تبلبل أفكاره وتشوش رؤيته، بحيث أخذ يشاهد ما هو غير موجود، أشباح وخيالات تتراءى وتختفي، لا يعرف أين يتوجه، هل يتعلق بالماضي أم يرنو نحو المستقبل، ولن ينجو من هذا الاختناق إلا إذا قفز نحو المجهول بعيداً عن الحنين، وسيرى عندئذٍ ما لا يُرى".

أنظر إليه نظرة عتب، ورد الحنين هي سرنا الخاص الذي حاول

السيد لؤي استغلاله لبث النزاع بيننا دون نجاح، وإذا ما أمسكت لميس هذه الحكاية فلن ننتهي من تعليقاتها الساخرة. من الجيد أنها لم تفهم ما يقصد صديقي، ومع ذلك لن تترك شيئاً يمر دون تعليق، فتقول "مجنون في حقل من الورود! إذاً سيصبح عاشقاً لفتاة مثلي، فتاة نحيلة ومسكينة، لكنها خبيثة، والدليل أنها استطاعت أن تقنع شاعراً منفلتاً من كل شيء أن يدفئها بكلماته".

أرد "أقبلُ أن أكون عاشقاً لفتاة مثلك، ولكن بشرط أن تكون لها عينان....."، أتماسك في اللحظة الأخيرة، وأصمت حتى لا أفضح حلمي.

تسألني عندئذٍ "ولكن لماذا أنت حزين هكذا دائماً، صديقك قال لي أن لديك عشيقة مخبولة بالكامل اسمها سهام! لم أشاهد في حياتي امرأة مخبولة، وأنا أتمنى ذلك، لماذا لا تحضرها معك إلى سهراتنا، فإذا كانت في الحقيقة مخبولة فسنضحك أكثر، وستكون جلساتنا مليئة بالمجون والجنون أكثر، أريد مثلاً..... أن أرى كيف ترقص المخبولة إذا ما شربت زجاجة نبيذ كاملة، هل سترقص وتبدأ بخلع ملابسها، أم سترقص وترتدي فوق ملابسها ما تجده مرمياً على الكرسي من فوضى صديقك؟!".

أجيب "لا أريد أن أحضرها، دعيني أكتفي بمتعة النظر إلى عاشقين رائعين مثلكما، ألا يكفي هذا؟".

تستغلٍ لميس الفرصة وتتوجه إلى صديقي "انظر كم هو ذكي، يراقب جيداً ويفهم ما يدور حوله بعبقرية".

يقاطعها صديقي "أشك أنه يستطيع أن يفهم ما بداخله حتى يفهم ما يدور حوله، وأحياناً كثيرة يتوهم ما يحدث أمامه".

تنتفض لميس وتقفز عليه وتكاد أن تخنقه "سأقتلك عندما أجد السكينة الضائعة، هل يتوهم ما يحدث أمامه، ألسنا نحن بعاشقين".

يجيب وهو يضحك "بلى، نحن عاشقان، ولكن لم نصبح بعد رائعين، فهو يرى كل شيء مقلوباً".

تهدأ "أحب رؤيته للوقائع، أنا وإياه نفهم العالم جيداً، أنتَ تحتاج لقلب العالم مثلنا حتى تفهمه وتعرف كم نحن رائعان، ولكن لنعد ونسأله لماذا لا يُحضر حبيبته المخبولة معه إلى سهرتنا؟".

أجيب "سهام ليست حبيبتي، هي سيدة محترمة، لا تتناول مشروبات روحية، ولا تجلس مع أناس سكارى عابثين مثلنا".

يضحك صديقي بصوت مرتفع "محترمة جداً؟! أشرح لنا أكثر كيف هي محترمة".

" أقصد محترمة في الشارع، فهي من أسرة تقليدية، هجرها زوجها بعد عشرة أعوام من الحياة معها، عشق جارتها وتزوجها. وهي تعيش وحيدة وتخاف على سمعتها، تسير في الشارع بملابسٍ محتشمة، لا تلبس البنطال، وتضع معطفاً يخفي كل شيء، وغطاءً على الرأس، لا تلتفت لا إلى اليمين أو إلى اليسار، ولا تسمح لأحد بالسير معها، حتى أنا أيضاً".

تقفز لميس هذه المرة عليَّ مستنكرة وكأنها تود تمزيقي "امرأتك المخبولة محترمة؟ أما أنا فلست محترمة يا مهووس بالنساء الغبيات، أليس كذلك؟".

أجيب وقد شعرت بأظافرها الرقيقة تطبق على رقبتي "أنا آسف يا ذكية، قلتُ لك نصف الحقيقة، أقصد أن سهام محترمة في الشارع، وتصبح غير محترمة في البيت".

يتدخل صديقي بلهجة ساخرة "غير محترمة في البيت! هذا يعني أنها تعرف جميع فنون الجنس غير المحترمة بالأشكال والوضعيات كافة، ويعني هذا أيضاً أن لديها سلسلة من العشاق يتسللون إليها في الليل بعد هجران زوجها لها، مما صقل تجربتها الجسدية فأصبحت خبيرة، غير محترمة يعني أنك تقضي ليالي ماجنة وحمراء رائعة معها".

أصمت طويلاً، أفكر كم هي مسكينة سهام، ينادونها بسهام المخبولة للسخرية منها، ولكن لا أحد يعرف أن الواقع حولها مخبول أكثر، فتعيش مختنقة. وأنا لا أدري لماذا لازلت أذهب إليها أحياناً، فليس لديها لا حنين ولا عيون عسلية، بل لا جسد لديها، دمية لتفريغ التوترات الجنسية، أذهب إليها في لحظات الضيق الشديد دون أن أدري لماذا، وما أن أدخل إليها حتى أفكر بالهروب بسرعة بعد أن أفرغ طاقتي، وأقول لنفسي بأنني لن أرجع، ولكنني أرجع..... أفكر بكل هذا للحظات، وأصمت.

ومن جديد تلتقط لميس ما قاله صديقي وتتوجه بالحديث إليَّ بلهفة "أين ذهبت بخيالك، أخبرني فقط كيف تكون غير محترمة معك في بيتها، وبالتفصيل رجاءً، حتى أطبق ذلك مع صديقك، فيتعلق بي أكثر".

لكن صديقي ينتفض معترضاً "لا، أرجوك هي بالطرق المحترمة تكاد أن تلتهمني، فكيف مع الطرق غير المحترمة، لا تشرح لها شيئاً جديداً، فأنالم أعد أحتمل حيويتها أكثر".

ورغم ذلك أجيب "صديقي يقصد بالطرق غير المحترمة هو ما تمارسه النساء مع عشاقهن بشبق لا حدود له، مما لا يسمحن لأنفسهن بممارسته مع أزواجهن، مع العشاق ينفلتن من كل القيود والمحرمات والعُقد، وبمقدار ما يكثر العشاق وتزداد الليالي الجنسية تتطور خبرة المرأة بالطرق غير المحترمة".

لأول مرة يكتسب وجه لميس حيرة غريبة وهي تسمع مثل هذا الحديث، فهي لم تتزوج ولا تعرف مثل هذه الحكايات عن نسوة ينفلتن من القيود، فهي تعيش حياة صريحة دون أية تعقيدات، فتسأل "أين توجد مثل هؤلاء النسوة؟".

أجيب "في الحارات العتيقة الغارقة في الظلام، المسورة بالعتمة الحالكة السواد، هناك نسوة يعرفن كيف يتسللن من كوات نور صغيرة

والناس نائمون، ثم يفعلن ما يفعلن..... أما سهام، فهي بعكس ما حكى عنها صديقي، مسكينة تماماً، لأنه لا يتوقع أن أقع أنا مع امرأة بسيطة".

"ماذا تعني بمسكينة؟".

"مسكينة ليس فقط لوحدتها، ولكن أيضاً لبساطتها الشديدة، فهي بالكاد حصلت على الشهادة الابتدائية، لا تعرف شيئاً من الحياة سوى العمل الممل، والتسوق في المجمع التجاري الضخم قرب بيتها، ومشاهدة التلفزيون.....".

يقاطعني صديقي "أي إنها لا تحب لا الشعر ولا الموسيقى!".

وأردف أنا "ولا النبيذ ولا المطر".

تمتعض لميس "لا تحب الشعر والموسيقى، ولا النبيذ والمطر، هذه مخبولة بالكامل، لا أريد أن أتعلم منها شيئاً من الطرق المحترمة وغير المحترمة وهي بهذا الغباء الشديد. لا تحضرها إلى هنا، اذهب معها إلى أية مقبرة، واستمتعا بسهرتكما هناك بين الأموات. وإذا أردت المجيء لعندنا، ابحث عن امرأة أخرى بدلاً منها، امرأة حقيقية، نحيلة وسكيرة وعابثة، غير محترمة لا في الشارع ولا في السرير، مثلي تماماً، والآن اتركنا ودعنا ننم بعد هذه الحكاية الحزينة، وامضِ أنت إلى مقبرتك".

* * *

سهام

أصمت أمام صديقي ولميس طويلاً كلما ذكرا سهام، صمتي علامة على تبرمي بالحديث عنها ومحاولتي الهروب منه. أتذكر ما حدث لي..... مع سهام، ومع السيدة سهام، ومع..... لا أعرف ما أسميها سوى "الجنية سهام "! لا أجرؤ على البوح بذلك لأحد، شيءٌ ما أقوى مني يحاول أن يخفي ما حدث ليلتها، حتى ورد لا تعرف ما حدث في تلك الليلة البعيدة عنها، بالرغم من قدرتها على التسلل إلى مسارب الذاكرة. يبدو أن ورد نفسها بكل الحنين المختزن فيها من الماضي لا يمكنها الدخول إلى منطقة خاصة، مُغلقة عليها في الذاكرة، منطقة لا زمنية غافية طوال الوقت.

ثم أتى أمرٌ غرائبي، وكأنه قادم من كون ثانٍ مغاير لعالمنا، ليوقظ هذه المنطقة ويحرضها في زمن لا أرضي غير مدرك إلا حدسياً، فحدث معي ما حدث. وربما ورد هي أيضا قادمة من كون ثالث مغاير، تسللت من بوابات لازمنية إلى كوننا، انفتحت على ذاكرتي ودخلت حياتي مع المطر. وبعكس التجربة الكابوسية مع الجنية سهام، يمكن أن تكون ورد قد استطاعت التأقلم مع إمكانية الحضور والغياب ضمن شروط معينة لا أفهمها، وإن كان بعضاً منها يتعلق بالحنين الذي اختزنه في داخلي للمطر.

على كل الأحوال كانت تجربة كابوسية قاسية مع السيدة سهام، أو مع الجنية سهام، تجربة سريعة استمرت أربعة أيام فقط، حدثت قبل أن أتعرف إلى ورد وأستقر معها على وضع مريح شبه مستمر.

كانت عوالمي الداخلية منذ الصغر غنية وحيوية، لم أفكر وقتها كيف تستطيع الانفلات بسهولة من القوانين التي تحكم توضع الأشياء وحركتها في المكان، وتحديداً بالارتباط مع عالمنا حيث يعيش

البشر. أليست العوالم الداخلية جزءاً من عالم البشر هذا، وهو ما نسميه بالعالم الخارجي مقارنة بها ؟ ومع ذلك لم يتبادر إلى ذهني التفكير كيف تنفلت، ولماذا؟

منذ الصغر كان المعلمون يشرحون لنا في المدرسة أن أي جسم له ثلاثة أبعاد في المكان، الطول والعرض والارتفاع، ومع تقدمنا في التعلم أضافوا أن له أيضاً بعداً رابعاً هو الزمن، وجميعها تخضع لقوانين محددة. إلا أنه مع ازدياد الوعي المترافق مع اشتعال عوالمي الداخلية بقوة منذ المراهقة، أخذت أكتشف إمكانية التحرر من قوانين العالم الخارجي، سواء في أحلام اليقظة التي أتحكم بها جيداً، أو في المنامات الليلية التي تتحكم بي في أثناء نومي. كنت أستطيع مثلاً الطيران في أحلام اليقظة، بغض النظر عن قانون الجاذبية، وأصل إلى شرفة بنت الجيران، وأقبلها طويلاً، وكنت أستطيع أن أتعارك مع عناصر جهاز الاستقرار وأهزمهم كلهم، واحدٌ مقابل عشرة، وكنت أتسلق السموات السبع لأرى ما وراءها، ساخراً من تحريمات أستاذ الديانة، وهو يقول إن الأسئلة ممنوعة هنا لأنها تحولت إلى تجديف، ولكنني أصر أنه ربما هناك أيضاً سماء ثامنة وتاسعة وعاشرة، فلماذا لا أحاول اختراقها ورؤية من يتحكم بها.

ومع أن بنت الجيران تزوجت وذهبت بعيداً، إلا أنني بقيت أطير في أحلام اليقظة وأقفز إلى الشرفات، ولكن مع التحول إلى بنت الجيران الثانية، التي ما أن تتزوج أيضاً حتى أطير إلى التالية. أما حلم العراك مع عناصر جهاز الاستقرار وهزيمتهم فقد اختفى نهائياً من أحلام اليقظة بعد إرسال العنصر "أبو أحمد "ليستقر في داخلي ويراقب أفكاري وأحلامي الداخلية، بل وأخذ يرسل تقاريره المنتظمة عنها إلى رؤسائه في الجهاز. ومثله أيضاً اختفاء حلم يقظة شتيمة السماء بعد إرسال أستاذ الديانة أيضاً إلى داخلي، فأبعد له "أبو أحمد "مكاناً إلى جانبه، وتعاونا معاً على تسجيل أفكاري وأحلامي، ولكن

أستاذ الديانة كان يرفع تقاريره إلى الآلهة الجالسة على عرشها في السماء، ولا أدري إن كان يُسرب منها شيئاً إلى جهاز الاستقرار إضافة إلى ذلك..... هكذا كان وضع أحلامي الداخلية عندما كنت في البلد قبل أن أسافر.

وبما أن صلاحيات "أبو أحمد "وأستاذ الديانة كانت تنتهي على الحدود الدولية، فقد تخلصت منهما عندما سافرت إلى "سلومانيا"، تخلصت منهما نهائياً، ولم أسمح لهما بالتسلل إلى داخلي بعد ذلك أبداً. ولكن لسوء الحظ انسل بدلاً منهما إلى داخلي مراقب جديد، يستغل أحدث تقنيات الاتصالات السمعية ـ البصرية المعاصرة في إرسال تقاريره إلى رؤسائه عن أفكاري وأحلامي، وكان هذا هو المنقذ الأمريكي العالمي، الذي قرر أن ينقذنا من أنفسنا، بالسلاح الأمريكي أو الحلم الأمريكي، لا يهم! وبالرغم من إمكانيات القوة والسيطرة لديه فقد تحولت المواجهة معه إلى عراك مستمر، سواء على مستوى العوالم الداخلية أو على مستوى العالم الخارجي.

وهكذا انتظمت عوالمي الداخلية منذ طفولتي في إطار حرية نسبية من الخيال، لكنها لم تتعدَ عناصر تركيباتها ما هو موجود في العالم الخارجي، ولم تتعدَ حكايات بنات الجيران، أو حساباتي مع "أبو أحمد "أو أستاذ الديانة أو المنقذ الأمريكي العالمي الذكي.

ثم بدأت أتعرف على مكتشفات حديثة لعلوم الفيزياء الفلكية بسبب حبي للقراءة والمعرفة العلمية، ولاحقني شغف شديد بها لغرابتها وحاجتي إلى أجوبة عن التساؤلات الوجودية الإنسانية القلقة التي استمرت دون نهايات حاسمة، وخاصة بعد ما عرفت أن البحار والجبال والأنهار والغابات والسهول لم تأتِ من تزاوج الآلهة، وإنما من انفجار كوني عظيم بدأ من بيضة كونية. وبما أن للبيض تأثير مهم في حياة بلدتنا من حيث إمكانية كتابة طلاسم السحر عليه، فقد اختلطت وتصارعت في ذهني نتائج الاكتشافات العلمية مع شطحات

الخيال العلمي، وعـوالم الأسـاطير، وحكايـات العجـائز في البلـدة. فالكون قبل الانفجار الأعظمي جاء من حالة العـدم الموجيـة الـساكنة المستقرة بتناظراتها المطلقـة، وهنـاك أيـضاً سلـسلة مـن الانفجـارات الأعظمية لبيـضات كونيـة متتاليـة، شـكلت كونـاً نواسـياً في تمدداتـه وتقلصاته المتناوبة، في حين اقتـصرت قـوانين نيـوتن علـى مجـالات الكرة الأرضية، فقد حلـت مكانهـا قـوانين النـسبية والكوانتيـة، الـتي تتحكم بالكون كله في لانهاياته الكبرى والصغرى. وفي ازدحام كـوني من ملايين المجرات، التي تحوي كل واحدة منها بلايـين النجـوم، لم يبقَ مكان لكائنات أستاذ الديانـة الماورائيـة، مـن الجـن والـشياطين، التي لم يتعرف عليها أحـد مـن العلمـاء، وبقيـت حبيـسة الحكايـات. كانت هذه المعارف العلمية قفزة لخيالي من أحلام اليقظة بـالرغم مـن كل غناها إلى عالم جديـد مفتـوح بتوقعـات لا نهائيـة، ومـن أسـاطير صغيرة مرتبطة ببنت الجيران إلى عوالم جديدة بأساطير كـبيرة مفتوحـة عن البدايات والنهايات الكبرى.

وبطفـرة مـن المكتـشفات الجديـدة الـتي تم التأكـد منـها علـى مستوى الرياضيات فقط، بدأت أسمع فجأة عن وجـود أكـوان أخـرى غير كوننا المعروف والمدرك لنا، أكوان متوازية أو أكوان منطلقـة مـن جذر واحد، لها أبعاد شبيهة بأبعاد عالمنا، ولكـن لا يمكـن الاتـصال فيما بينها لاختـلاف الـبنى المكانيـة والزمانيـة. ومـن وقتـها أصـبحت مهووساً بملاحقة كل الأخبار العلمية وغير العلمية عنها، فربما سكنت الآلهة القديمة في إحـداها بعـد أن مـلأت حياتنـا بالفوضـى ورغبـات القتل وحب الدم المسفوك، ومن ثم تخلت عنـا لـسبب غـير مفهـوم، بالرغم من أننا مازلنـا نقـدم لهـا آلاف الأضـاحي البـشرية في حروبنـا اليومية.

وازداد اندفاع التعرف على العوالم المغايرة عنـدما أخـذت أقـرأ عن عوالم بأبعاد غير رباعية مما نعرفه في عالمنا، بدءاً من عالم البعـد

الواحد بتدرجاته المتصاعدة نحو الأبعاد اللانهائية. من هنا بدأ الجنون يضرب عقول مؤلفي الخيال العلمي، فأخذوا يصنعون حكاياتهم وأساطيرهم الجديدة، والتي بدت أساطير الآلهة القديمة أمامها متخلفة جداً. فمنهم من قال إننا نستطيع الانتقال إلى الأكوان الأخرى عن طريق الأحلام الليلية، ثم نعود إلى عالمنا عندما نستيقظ. ومنهم من قال إن هناك بوابات لازمنية للانتقال بين هذه العوالم، ولكنها تحتاج إلى سرعات تتجاوز سرعة الضوء للمرور منها، بل إن بعضهم قال إننا نستطيع العودة إلى الماضي دون تحطيم قانون السببية أساس الأحداث في كوننا، من خلال القفز إلى كون آخر موازٍ. فانفتح خيالي بحدود مجنونة، فربما هناك عوالم مليئة ببنات الجيران اللواتي لا يتزوجن، ويبقين جالسات على الشرفات، عوالم بدون قمع "أبو أحمد" وأستاذ الديانة والمنقذ الأمريكي العالمي.

ومع الحديث المتزايد عن وجود كائنات عاقلة في الكون غيرنا، بدأت الحكايات تتالى عن زيارات لها إلى كوكبنا، بل ورأى البعض أن المنجزات في الحضارات القديمة إنما تعود إلى هذه الكائنات الزائرة، التي يمكن أن تكون قد خلقت البشر في أنابيب اختبار، أو تزاوجت مع كائنات حيوانية دنيا فظهرت طفرة البشر. وبلغ الهوس ببعضهم أن سمى هذه الكائنات الزائرة بالآلهة، التي أخذ الناس بعبادتها بعد مغادرتها المفاجئة لنا دون سبب مفهوم، ولازالوا يعبدونها..... ولا أدري ما هي الحكايات التي سنستمر ببنائها في المستقبل، شيء يصيبني بالدوار عندما أفكر بذلك، جنون في جنون، يتجاوز الجنون الصغير في عالمنا الأرضي، وتصبح أحلام يقظتنا الحالية أمامها حلم نملة صغيرة تتحرك في مجرة كبيرة.

ما حدث مع الجنية سهام في تلك الليلة يتجاوز الكوابيس، شيء عشته وأدركته بكل حواسي، وكأن أحد عوالمي الداخلية اصطدم ببعد زمني لعالم آخر وتشابك معه، عالم يقع خارج كوننا الذي نعرفه

بحواسنا المباشرة، في كون آخـر تقـاطع زمنـه بطريقـة لا أفهمهـا مـع عالمي الداخلي وتفاعل معه، فحدث ما حدث، وتم اختزان ذلـك في الذاكرة اللازمنية الغافية المغلقة حتى على ورد، وإن كانـت ورد علـى الأرجح قد ارتبطت بذاكرة لازمنية أخرى، ولكنها أكثر مرونة وانفتاحاً واستمرارية مع عالمنا.

لو حدثت صديقي بما حدث ليلتها، لقال منتصراً "هـل تـرى كيـف أن العوالم الماورائية موجودة، وها أنت تتصل بها، ولكن كبريـاءك العقـلاني لا يتنازل عن حتمياته".

ولو حدثت لميس بها، لظلت تضحك طويلاً في كل مـرة تـراني فيها، وتعلق ساخرة "مهووس أنت بعوالمـك الداخليـة حـتى الجنـون المرضي، فـإذا لم تكـن قـادراً علـى إيجـاد امـرأة طبيعيـة اذهـب إلى العجوز التي تقرع أبواب البيـوت بحثـاً عـن عـروس، فتنحـل عندئـذٍ عقدك الجنسية والنفسية مع فتاة تقليدية محترمة".

حدث ما حدث بعد عودتي من السفر بفترة قصيرة، فقد انتقلـت من عالم منظم مريح وعقلاني في "سـلومانيا"، إلى عـالم تـضرب فيـه الفوضى هنا في كل مكان وبكل لحظـة. وكـان علـي التـأقلم مـع هـذا العالم الجديد ـ القديم، الذي انقطعت عنه أكثر من خمـس سـنوات، فوجدته قد تغير جذرياً نحو الجنون. وكان هـذا ضـرورياً مادمـت قـد عدت برغبتي الخاصة ودون أي ضغط من أحد، هرباً من بلاد العيـون الرمادية، وأملاً في إيجاد ذات العيون العسلية، حلمي الخـاص الـذي قـررت أن أعـيش في محاولـة جـادة لإيجـاده هنـا. ولكـن الانقطـاع المفاجئ عن الليالي الماجنة مع ذوات العيون الرمادية تركني في حالـة قاسية من الحرمان..... بدأت أعي أكثر أنه في بلادنا لا يمكن ممارسـة الجنس بشكل طبيعي واعتيادي إلا مع زوجة بعقد قانوني وشرعي، أو في بيت دعارة تغطيه حماية أمنيـة رسميـة، لكـن بـشكل سـري، أمـا العشيقة والصديقة وسيدة الأعمال ورفيقـة النـضال فـلا يمكـن الحيـاة

معهن حياة جنسية طبيعية إلا إذ كان المرء من دوائر السلطة العليا ورجال المال المتحكمين، الذين يبنون نفوذهم من اختناقات الناس البسطاء..... وجميع هذه النوعيات لا تدخل في حسابي.

في ظل الأجواء النفسية والجسدية التي عشتها عند عودتي، أصابت البلد موجة حر شديدة لم يسبق لها مثيل، لم ينجُ منها إلا أصحاب الشقق المكيفة، الذين كانوا يختزنون كمية كبيرة من البرودة في أجسادهم، بحيث يستطيعون السير في الشوارع بملابسهم السميكة والأنيقة، مع ربطات العنق والمعاطف. أما أنا فقد كنت أشعر بالحر الشديد يلفحني أينما تحركت، في الشارع أو في البيت، يتصبب العرق الغزير مني باستمرار، ولاسيما من جبيني، ليسيل ويغطي عيني بغلالة رقيقة، تجعلني دائماً أرى كل ما حولي وكأن غمامة من البخار القطني المائل إلى الشفافية تغلفه، فأضيع بين الواقع والسراب. ومع أنني كنت أمسح العرق المتصبب مني بغزارة بطرف قميصي إلا أنه كان يستمر في الهطول، ولهذا كان التوتر والقلق يرافقني بشكل دائم. وفي صدمة هذه الضغوط النفسية والجسدية وفي هذه الأجواء الحارة لم أكن قد وضعت خططاً للبحث عن ذات العيون العسلية، ولم تتسلل بعد ورد من مطر النافذة، فكل ما حولي يصدمني بشدة، يوترني ولا يدعني أفكر بشكل طبيعي.

تعرفت على سهام في "مؤسسة الأعلاف للحيوانات الداجنة"، حيث تعمل هناك، وكان قد تم الطلب مني إقامة سلسلة محاضرات عن كيفية توثيق أطنان من الأوراق الرسمية، المرمية والمكدسة في القبو منذ الاحتلال الإفرنجي لبلدنا. وافقت على مضض، رغبة مني في إثبات وجودي العلمي بسرعة، فأنا قادم جديد ولا أحد يعرفني. ذهبت إلى المؤسسة في يوم شديد الحرارة حسب الموعد، وانتقلت بشكل مفاجئ من الجو الحار الملتهب في الخارج إلى صالة مكيفة شديدة البرودة، مما أدى إلى إصابتي بصدمة التحول النفسي من جو

سرابي إلى جو رفاهية استعراضي. شعرت وكأن انفصاماً قد أصابني نتيجة هذا الانتقال من جو الناس البسطاء إلى أجواء الناس المُرفهين، رافقه صداع شديد واهتزاز في الرؤية. ووجدت نفسي أدخل إلى قاعة اجتماعات، توضعت في منتصفها طاولة مستطيلة كبيرة، جلس حولها خمسة عشر شاباً وفتاة بوجوه غريبة، مشوهة بتطاولها غير الطبيعي، وقد تركوا كرسيين متجاورين عند رأسها، جلست على واحد منهما وبقي الثاني فارغاً.

وما إن حاولت الشروع بإلقاء محاضرتي الأولى حتى قاطعني الجميع بأصوات غريبة، وكأنها صادرة من شريط تسجيل تم إبطاء سرعته "من فضلك، لا نستطيع أن نبدأ ما لم تحضر السيدة سهام"، فتوقفت مستغرباً.

جاء مستخدم يحمل صينية توضعت عليها زجاجات شاي مفلطحة وأوعية قهوة متطاولة، استنكر الجميع "كيف تحضر المشروبات الساخنة والسيدة سهام لم تحضر بعد؟ أعدْها بسرعة".

نهض شاب ليغلق نافذة مفتوحة بسبب الضجيج القادم من كوكب آخر ـ كما قال ـ ، تنادى الجميع "كيف تغلق النافذة ولم نأخذ رأي السيدة سهام؟! ربما لها اتصالات تخاطرية من خلالها، اتركها مفتوحة حتى تحضر".

سألت إحدى الفتيات بصوت هامس، إذ يبدو أنها جديدة في العمل من طريقة ارتباكها بالكلام "هل أستطيع أن أعطس قبل أن تأتي السيدة سهام؟".

اختلف الحضور بين موافق ومعترض، فهذه واقعة جديدة لم تنجز دراستها من قبل على المستوى الديني والوطني، وتحديد قوانينها الناظمة. وفي أثناء نقاشهم الحامي كانت الفتاة قد عطست، غير قادرة على التحكم بنفسها وقبل أن يصلوا إلى نتيجة، فتطايرت الوثائق الرسمية من على الطاولة، وانتصبت أطراف شوارب الرجال

إلى الأعلى من شدة العطسة البريئة، فصمت الجميع وجلين من تداعيات الحادثة.

مِلتُ إلى الرجل الجالس بقربي، الذي تبدو عليه مظاهر الوقار والهدوء ولم يتدخل في النقاش العبثي حول العطاس، وهمست قائلاً له "أرجوك، ما الحكاية؟ من هي سهام، من أي كوكب ـ عفواً أقصد من أية مديرية في مؤسستكم؟".

أجاب بمظهر جدي، ولكن بصوت مرتفع مستنكر حتى يبعد عنه الشبهات "السيدة سهام من فضلكم! ثم ألا تعرفون السيدة سهام؟! هي رئيسة الديوان في المؤسسة".

تنادت الأصوات بعدئذٍ:

"هي التي تقرر ما يجب عرضه على المدير العام من البريد الرسمي، وتحدد من يستطيع مقابلته من المراجعين وفق المصالح الوطنية العليا".

"تقرر من يشرب الشاي أو القهوة في المؤسسة، حسب أيام الأسبوع، وضمن سياسات الادخار الوطني".

"تأخذ القرار النهائي بالإستراتيجيات العامة والخطط التنفيذية ضمن سياسات الدولة الاقتصادية والثقافية والحيوانية".

"تمثل المدير العام في الاجتماعات الأمنية السرية خارج المؤسسة".

"يزورها خصيصاً الرفيق "أبو رعد "ليأخذ رأيها بالأوضاع الأمنية في المنطقة، وتقدم له تقريراً إستراتيجياً سرياً كل أسبوع".

"صحيح أنها تحمل الشهادة الابتدائية، إلا أن خبرتها العملية تعادل شهادتك النظرية التي تحملها من الغرب".

"يقولون إن لها اتصالات مع إخواننا الجن الصالحين، الذين يساعدونها على تنفيذ أعمالها كافةً وإعانتها على أعداء الوطن وعملائهم في الداخل".

بعد نصف ساعة من الانتظار تم الإعلان عن قدوم السيدة سهام بعد انتهاء لقائها مع المدير العام، فانبعثت من مكان ما موسيقى رسمية وطنية صاخبة. تهيب الجميع من دخولها، رفعوا ظهورهم وشدوا أكتافهم، ووضعوا أيديهم على الطاولات، وتحولت وجوههم من متطاولة إلى مستديرة. دخل من الباب ثديان ضخمان ممتلئان في قميص أحمر قرمزي، تقدما وهما يهتزان إلى الأعلى والأسفل على إيقاع موسيقى الفصول الأربعة لفيفالدي، وجلسا على الكرسي الفارغ بجانبي، فهدأت الموسيقى. ترتفع من جديد بعد عشر دقائق موسيقى السيمفونية الأربعين لموزارت، فقد لحق بهما رأس وجسد بلباس أحمر خمري، ليجلسا مع الثديين. إلا إنه بعد عشر دقائق جديدة تضج بشكل قوي موسيقى السيمفونية التاسعة لبيتهوفن، فقد اقتحمت القاعة وراءهما مؤخرة عريضة وعالية وسمينة وثقيلة، بسروال أحمر، انحشرت في الباب ودخلت منه بصعوبة بالرغم من اتساعه وهي ترج من ثقلها، فتذهب يميناً وشمالاً من طرف الغرفة إلى طرفها الآخر على إيقاع الموسيقى، لتلتحق ببقية الأعضاء. اكتملت أخيراً السيدة سهام، سكنت الموسيقى، أستطيع إذاً أن أبدأ المحاضرة.

قالت السيدة سهام، وهي تنظر إلي بطرف عينها مبتسمة "على الجميع أن ينتبهوا إلى ما سيقوله المحاضر المحترم، وعليكم تسجيل جميع المعلومات على دفاتركم".

وما أن بدأتُ بالكلام حتى شعرت بساق السيدة سهام تلتصق بساقي، واستمر هذا طوال المحاضرة، فقلت في نفسي "بسيطة هذه حركة عفوية إنسانية".

اليوم الثاني، التصقت ساقها وفخذها وطرف مؤخرتها بي بالكامل من تحت الطاولة طوال المحاضرة، وبالرغم من سريان حرارتها إليَّ فقد قلت في نفسي "مسكينة الكرسي ضيق لا يتسع لجسدها الضخم، فأخَذتْ قسماً من الكرسي الذي أجلس عليه، وعلى كل الأحوال هذا تعبير من المودة والحميمية".

اليوم الثالث، انحشر ساقها وفخذها تحت جسدي بضراوة ناعمة، حتى كدت أجلس في حضنها، وقالت "انتبهوا جيداً للمحاضرة، سأشاهد ما تسجلونه في دفاتركم". ومع حركتها هذه داخلني الشك، وتساءلت فيما إذا كانت ترغب بشيء محدد! إلا أنني أبعدت هذه الفكرة السيئة من رأسي، فالسيدة سهام محترمة جداً في المؤسسة، وهي تمثل أخلاقيات الإدارة العامة.

اليوم الرابع والأخير، أجلستني في حضنها بالكامل فغرقت به، واستندت بظهري إلى ثدييها الضخمين المريحين، قالت "لا يرفع أحد رأسه عن دفتره، من يكتب بشكل جيد سيحصل على مكافأة مالية عالية، ومن يهمل واجبه الوطني سأسلمه إلى "أبو رعد "ليأخذه إلى القبو". وفي أثناء ذلك قامت بفتح سحاب بنطالي، وأوغلت يدها عميقاً بضراوة وحشية، فهمت عندئذٍ ما تريده، وتابعت المحاضرة وقدمت فكرة عن الكتب والمقالات الجنسية كمثال نموذجي للتوثيق.

انتهت المحاضرة الأخيرة، همست لي السيدة سهام "سنجد طريقة لتكملة المحاضرات معاً، أريد أن أرفع مستواي العلمي بشكل مستمر".

وقبل أن أخرج من المؤسسة قالت لي "سيقيم المشاركون في المحاضرات احتفالاً صغيراً بمناسبة انتهائها، وبما أن المطاعم أصبحت غالية الأسعار، فسيحضر الجميع إلى شقتي غداً الساعة العاشرة ليلاً ونحتفل هناك معاً، سننتظرك".

يبدو بعد غيابي الطويل للدراسة في "سلومانيا "أن الأوضاع الاجتماعية قد تطورت في البلد، بحيث أصبح الشباب والفتيات يستطيعون الاجتماع بسهرات لطيفة وبريئة في منزل أحدهم، بدلاً من المواعيد الغبية في زوايا الحدائق المستورة بالشجيرات الصغيرة، أو في الكافيتريات المرتفعة الأسعار والمليئة بدخان السجائر المزعج.

ذهبتُ في الموعد المحدد إلى شقة السيدة سهام، قرعت

الجرس، فتحت الباب امرأة غريبة الوجه والشكل. وقبل أن أتبين ملامحها، هاجمتني أمواج من عطر كثيف وثقيل وعتيق، سبب لي حساسية شديدة في أنفي، فسالت الدموع من عيني بكثافة وغطتهما بغلالة رقيقة، فأصبحت أرى ما حولي من وراء ستار شفاف، وضاع كل شيء حولي في غمامة بألوان تتدرج مابين البنفسجي والنهدي، وكأنني دخلت أجواء سحرية.

سألت "هل هذا منزل السيدة سهام، أم أنني أخطأت العنوان؟".

ضحكت المرأة بصوت عالٍ بحيث سمعه كل من في البناء، وأجابت "أنا سهام، أدخل قبل أنً يرانا أحد".

فكرت لماذا الخوف من أن يرانا أحد، أليست هذه سهرة بريئة عند سيدة محترمة! دخلت وسألت "أين الصبايا والشباب؟".

" اعتذروا كلهم عن المجيء، لأن توقيت السهرة متأخر جداً وبيوتهم بعيدة، قالوا إنهم يخافون أن يتحدث عنهم أحد بالسوء، ولذلك سنحتفل لوحدنا".

نظرت إلى السيدة سهام، لم تعد سيدة كما في المؤسسة، عندما كانت ترتدي ملابس محتشمة. أتأملها الآن من خلف غلالة الدموع، فأراها شبه عارية، إذ لم ترتدِ سوى ثوبٍ قصيرٍ، يكشف عن كامل فخذيها الضخمين والممتلئين، وظهر منه صدرها الواسع حتى منبت الثديين. وسرعان ما اشتكت من الثوب الضيق الذي قالت إنه يكاد يخنقها، ففكت زرين علويين فاندلق ثدياها العملاقان، وهبطا نحو الأسفل، وكادا أن يلامسا أرضية الغرفة. وأرخت سحاباً من الخلف، فتحررت المؤخرة واندلقت إلى الخلف مع هبوط إلى الأسفل، وسقطت حرة لتملأ خلفية الغرفة.

تطلعتُ إلى وجه سهام، فلاحظت طبقات من مساحيق الزينة قد تكدست فوقه، حمرة خمرية كثيفة على الشفتين المكتنزتين، وحمرة وردية ثقيلة على الخدين المنتفخين كبالونين، وحمرة نهدية على

الجفنين اللذين سقطا بتثاقل فوق العينين، وخطّان من الحمرة القرمزية انسحبا من طرفي عينيها نحو أذنيها، في حين انتصبت رموشها الطويلة بحمرة كستنائية ثقيلة كأشواك حادة. أما شعرها فقد كان غريباً، يتدلى بجدائل متلوية فبدا مثل أفاعي مرمية على الكتفين، وقد تثاقلت أذناها بقرطين ثقيلين من الزمرد، كان يُفضل حملهما باليد بالمقارنة مع حجمهما. ولاحظت أيضاً أنها كلما كانت تفتح فمها لتتحدث ألمح شعلة نارية حمراء داخله تتراقص ممتدة إلى الخارج، أما أظافرها المطلية بالأحمر الناري فقد كانت طويلة جداً، تكاد تنفصل عن رؤوس أصابعها وتسقط.

شعرت بالرعب من هذا الكائن الماورائي، هذه جنية الحكايات التي كان يتحدث عنها فلاحو البلدة المُسماة "المُذرَة"، تغوي الرجال بغنائها العذب ليلاً قرب السواقي في الغياض، وما أن ينسحر أحدهم بصوتها ويقترب منها حتى كانت تصيبه بالشلل، أو تجعله معتوهاً، أو تحوله إلى تيس، وقد تفترسه. وتذكرت ما قاله أحدهم في المؤسسة أنها تتصل بالجن الذين يعينوها على أعمالها، فقررت التراجع والهروب من المنزل، وقد هاجمتني أفكار سوداء عما يمكن أن يفعله الجن ببني الإنسان. إلا أن الجنية سهام أمسكت يدي بلطف، فسرى في داخلي سكون وهدوء وطمأنينة، وقادتني إلى الصالون، فمشيت معها مشلولاً ومسحوراً.

انفتح الباب بلمسة من أصبعها، فهاجمتني هذه المرة روائح جديدة مغايرة، روائح طعام شهي، جعلني أتذكر جوعاً عتيقاً يرافقني منذ أن رجعت من السفر. طاولة كبيرة، أكبر من طاولة قاعة الاجتماعات، مليئة بكل ما لذ وطاب من المأكولات الشهية، تتصاعد منها الأبخرة لتصل إلى أنفي وتجعلني أشعر بعدم التوازن، ويغللها غمام بين النهدي والسماوي، في حين كانت شعلات نار صفراء برؤوس زرقاء تتوزع على الجوانب وفوق صحاف الطعام، من أجل إعطاء أجواء سحرية جنية .

قلت لنفسي "وليمة ملكية تليق بقدرات جنية عاشقة!".

أستغرب من نفسي إذ بدأت التحدث بلغة الجنية، فقد انتقلت أفكارها إلي عن طريق التخاطر على ما يبدو، بحيث لم أعد أعرف هل هذه هي كلماتي أم كلماتها.

تَربّعَ في منتصف الطاولة فخذ غزال يسيل منه الدهن مشتعلاً، وضلع خاروف مشوي فوق طبقات من شرائح البصل والبندورة، وإلى جانبهما ديك رومي محشي بالرز والمكسرات، وانتظمت حولهما أربع بطات، وست دجاجات مشوية بلون أشقر محمر فوق أكوام من البطاطا المقلية في نطاق أول، وأزواج حمام وعصافير، وشرائح من لحم البقر، مقلية بزيت الزيتون ومغطاة بطبقات من الثوم المهروس بحمض الليمون في نطاق ثاني، وكباب بالصنوبر والفليفلة الحادة مشوي مع البقدونس والبصل والبندورة في نطاق ثالث. وتوضع على طرف الطاولة طبق عملاق مليء بالمحاشي، كوسا وباذنجان وورق عنب وفليفلة، محشية كلها بالرز واللحم، ومرمية على شرائح من دهن الخاروف الذائب. وعلى الطرف الآخر انتصب طبق كبير من الرز مغطى بطبقات من اللحم الناعم المفروم مع مكسرات، جوز، ولوز، وفستق، وصنوبر، وكستناء، وإلى جانبه أوعية مليئة بالفاصولياء، والبازلاء، والبامية، المطبوخة بعصير البندورة. وتوزعت في كل مكان فارغ صحاف الكبب المقلية المُشْقَرة والمشوية التي يتساقط منها الدهن الذائب، والمقليات من البطاطا، والفطر، والباذنجان، وتناوبت إلى جانبها أوعية الحساء، بعظم الخروف، وبالدجاج والشعيرية، وبالخضار، وبالعدس، وبالفطر، وتداخلت بينهما أطباق المعكرونة بالجبن، وبعصير البندورة، وبالخضار. ثم تزينت الطاولة بصحون السلطات الخضراء والصفراء والحمراء والخمرية المغطاة بطبقات المايونيز.

وعلى طاولة أصغر حجماً توزعت أطباق عملاقة من الفواكه،

بعضها ليس في أوانها، برتقال أحمر، وتفاح زهري، وأجاص قرمزي، وتوت فريز أصفر، وموز نهدي بخطوط زرقاء، وبطيخ حليبي، ومشمش كحلي. وانتصبت في منتصف الطاولة شجرة تمر وشجرة جوز هند، متثاقلتين بثمارهما. وانتصبت بين الأطباق أباريق العصير الطبيعي..... وفجأة لمحت بينها مذهولاً زجاجات كوكاكولا، إلى هنا وصلوا أيضاً؟!

تحرك الجوع الشديد في داخلي، الجوع القديم الضارب بجذوره في عمق الزمان، فأنا لم أعد أذكر متى تناولت طعاماً طبيعياً، منذ شهر أو شهرين، أو ربما منذ عودتي من السفر، لا ألتهم في هذه الأيام سوى الهامبرغر والبيتزا والتشيكن هاوس والكوردون بلو، الملفوفة بعلب كرتونية، والتي أزدردها في الطريق بدقائق. أما الآن فسألتهم كل شيء بهدوء، لن أترك طبقاً واحداً، سأكل على دفعات وأرتاح بين الفينة والأخرى، لأعاود الهجوم مرة ثانية وثالثة ودون نهاية، وسأطلب من الجنية أن تُجدد بقواها السحرية بعض الأطباق التي لم أقرأ عنها سوى في كتب التراث، مثل الغزال والديك الرومي.

أسأل الجنية سهام "ألا يوجد نبيذ فرنسي مع هذه الوليمة الملكية الجنية الفاخرة؟".

ترد باستغراب "لا هذا حرام، الخمرة منكر لا يجوز الاقتراب منها، مثله مثل لحم الخنزير، حتى في عالم الجن لدينا! ثم كيف تطلب مشروباً أجنبياً يتعارض مع مشروباتنا المحلية الوطنية، فنحن جن ملتزمين".

"والكوكاكولا؟!".

"لا هذا مشروب عالمي، لا يقتصر فقط على معشر الجن والإنس، بل وتشربه الكائنات اللطيفة على كوكب بلوتو".

أستغرب أنني بدأت أتحدث مع الجنية سهام بشكل طبيعي، وكأنني أصبحت ممسوساً بها، ولكنني لم أكن أفكر بالحقيقة بها، بل

بالوليمة الرائعة، إذ سرعان ما هممت بالجلوس لأبدأ بفخذ الغـزال، مـع أنني لاحظت خيبة أمل كبيرة على وجهها، إذ يبـدو أنهـا كانـت تأمـل أن الوليمة ستكون طريقاً يقود إلى القلب، فأتجاوب مع انفعالاتهـا المـشبوبة وأعشقها، في حين كانت انفعالاتي المشبوبة متوجهة إلى الوليمة لا إليهـا. يبدو أن كل شيء يصلها عن طريق التخاطر، تفهـم توجـه انفعـالاتي، إذ داهمني شعور بأنها ستبدأ معي بمحاولة أخرى جديدة.

أمسكت الجنية سهام بيدي وسحبتني إلى أريكة مجاورة، وعيـوني، وعقلي، وقلبي، وحواسي، كلها مع الوليمة، لم تستطع أن تنتزع تأثيرهـا مني بالرغم من قواها السحرية، ولكنني فوجئت بالكامل بعد أن وَضَـعتْ يدي على صدرها الدافئ وهي تقول لي "دعني أسر لـك قبـل الطعـام مـا بقلـبي مـن أحـزان قديمـة وخيبـات أمـل، أريـد أن أكـون معـشوقة لـك بالكامل، ولن أعطي نفسي لأحد غيرك".

ثم أخذت تبكي وتبكـي، تبكـي دون انقطـاع وبـدون نهايـة، حـتى أحسست أنها ستبكي حتى نهاية العـالم، بكـى معهـا الغـزال، والخـروف، والديك الرومـي، والبطـات، والـدجاجات، والحمامـات، والعـصافير، والبقرات، الموجودة على طاولـة الطعـام. تبكـي وقـد أخـذت الـدموع الذهبية الحارة تسيل من عينيها، اللتين اتسعتا بحيث لم يبقَ من وجهها سوى عينين كبيرتين محمرتين من شدة البكـاء، وهـي تقـول "زوجـي الغدار".

لم أعرف أن لدى الجن هذا الضعف، ثم قالت إنها ستعـشقني أنـا، فمن أين أتى زوجها هذا... على الأغلب هذه ليست الجنية سهام، نـسيت السيدة سهام... هذه السيدة سهام. يبدو أن هناك تلاعب بالأدوار بينـهما، أو أنهما وجهان لكائن واحد.

أحـضرتُ علبـة محـارم ورقيـة وحاولـت بكـل جهـدي مـسح دموعهـا، انتـهت العلبـة، وجـدت ثانيـة وثالثـة ورابعـة، مـسحت ومسحت، ولكن سيل الدموع الذهبية لم ينقطع. سالت على خـديها،

ثم إلى مابين ثدييها، وتسللت من تحت الثوب لتخرج ساقية من بين فخذيها، لتسيل على الأرض متلألئة.

ومع استمرارها بالبكاء تبلل ثوبها، فقمت بعصر أطرافه بصعوبة بسبب قصره، ولكن دون فائدة، فنهضَتْ وخلعته وحدها، فظهرت كل أكوام اللحم المكدسة تحته، لا شيء سوى اللحم. انتهت المحارم الورقية، أشارت السيدة سهام إلى خزانة في طرف الصالون لأحضر منها مناشف لمسح الدموع. فتحت الخزانة، مفاجأة جديدة، فهي مليئة بقمصان النوم من جميع الألوان والتفصيلات، عددتها، سبعون قميص نوم! ماذا تفعل بها كلها؟ سخرت لفكرة مماثلتها لعدد عشاقها من الإنس والجن! فتحت الدرج السفلي، أخذت منه مناشف بيضاء، وزرقاء، وبرتقالية، وخضراء، وأخذت أمسح بها الأرض من الدموع التي أصبحت وردية شفافة. لا فائدة، امتلأت أرضية الغرفة بساقية الدموع بارتفاع عدة سنتيمترات. رفعنا رجلينا إلى الأريكة حتى لا تبتل بها، فانفرج فخذيها، وشاهدت مغارة واسعة وعميقة، شبيهة بمغارة علي بابا، باب أسود خارجي، في حين يتلألأ الداخل بأنوار وردية، وخمرية، وقرمزية.

نظرت إلى الطاولة، والروائح الشهية تتلاعب بي، وسألتها "ألا نستطيع أن نأكل قليلاً، لقد عرفت مدى الحزن المختزن في قلبك.....".

اعترضت بنشيجها وقالت "دعني أحدثك أولاً كيف هجرني زوجي، وبعدها سنأكل".

توقفت عن البكاء، وانقطع سيلان الدموع، ولكن ليس بالكامل، فالتنهدات مع طفرات صغيرة منها كانت تأتي من وقت لآخر، وأخذت تروي لي الحكاية :

" كان زوجي الحاج شبقبق رجلاً محترماً، مولعاً بالنوم معي باستمرار، وأنا كنت حيوية ومنفتحة جنسياً دون عقد، أستطيع تلبية

رغباته ونزواته كافةً. لديه مخزن لبيع الأقمشة النسائية، يستبقي به شاباً يعتمد عليه في عند غيابه. ولذلك كان لديه كل الوقت ليقفز علي كالديك، يقفز بحيوية في الصباح، والظهر، والمساء، هذا دون الحديث عما يحدث في الليل، يلتهمني قبل الطعام وفي أثنائه وبعده، يأخذني بمتعة في غرفة النوم على السرير وتحت السرير، وفي المطبخ وأنا أحَضر الطعام، أو أخبز الخبز، أو أغلي القهوة، وأمام النافذة وهي مفتوحة، أنا أنظر إلى الشارع وهو يلهث ورائي، ومرة أخذني على السقيفة بالرغم من سقفها المنخفض. وإذا كان لديه زبونات في المحل يعتذر منهن لعشر دقائق لتنفيذ عمل ضروري، خمس دقائق للطريق وخمس أخرى ليأخذني بملابسي، ويعود مسرعاً إليهن. وعندما تزورني جارتاي سميرة وبهيرة ويراهنَّ تأتيه الرغبة دائماً، فأعتذر منهن لدقائق من أجل تحضير الضيافة، وأذهب لغرفة النوم ليمتطيني بشوق عجيب، وعندما أرجع إليهن مشعثة الشعر ممزقة الثياب متصببة من العرق، يستغربن "ألازال هناك رجال يضربون زوجاتهم؟!".

وكل يوم في الصباح أترك زوجي نائماً محطماً بعد ليلة طويلة ماجنة، أنهض وأفتح باب المنزل، وتفتح جارتنا سميرة باب شقتها المقابلة، ونتحدث. أنت تعرف أن النساء تحب الثرثرة، نتحدث طويلاً عن نساء الحارة وعشاقهن، أمضي الوقت بالحديث ريثما يستيقظ الحاج شبقبق وأعد له الفطور. سميرة امرأة جميلة، ولكنها مطلقة، ولذلك تخاف كثيراً على سمعتها، تلبس باحتشام وهي واقفة على الباب خوفاً من مرور رجل من الجيران، تشد الروب دو شامبر بزنار متين على خصرها، فلا يبدو شيئاً من تحته. إلا أنني بدأت ألاحظ أن الزنار أخذ ينحل أكثر فأكثر مع هذه المحادثات الصباحية، وبدأ ينكشف من تحت الروب دو شامبر قميص النوم ونحن نتحدث. ثم ظهرت بملابسها الداخلية من تحته، متعللة بأنها استيقظت من النوم قبل قليل. وبعد ذلك ظهرت تحته عارية بالكامل، قائلة بأنها

خرجت قبل قليل من الحمام، إلا أنها مضطرة لتروي لي على عجل أخباراً مهمة عن جارتنا بهيرة التي تسكن في الشقة تحتنا، فقد سمعت أنها تذهب إلى الشيخ الساحر محمود، ولكن لا تعرف لماذا. وفجأة داهمني إحساس بأن أحداً يقف ورائي، ألتفت فجأة، فوجدت الحاج زوجي يقف ورائي مستيقظاً، ولكن بعضوٍ شديد الانتصاب، فأغلقت سميرة الباب بسرعة. تساءلتُ، هل كان يتلصص عليها من ورائي هكذا كل يوم؟ ألهذا تنتابه رغبة شبقة عارمة بأن يمتطيني بشوق شديد في اللحظة التي أغلق فيها الباب؟ أبعد الشك عن نفسي، فالحاج شبقبق يحبني، وهو رجل محترم في السوق لا يمكن أن يلوث سمعته! ولكنني منذ ذلك الوقت أنهيت المحادثة الصباحية مع سميرة، إذ شككت بسوء نيتها هي، وليس بنية زوجي.

ومنذ أن أغلقت الباب وانقطعت عن الحديث مع سميرة، لم يعد الحاج يقترب مني، رغم أنني أصبحت كل يوم أشتري قميص نوم جديد له، ولكن عضوه كان مرتخياً بشكل دائم، لا ينتصب أبداً. ولم يعد الحاج يرجع إلى البيت إلا متأخراً، وينطرح نائماً على الفراش حتى دون عشاء، مع أن الشاب الذي يعمل معه في المحل أسر لي ذات مرة أن الحاج لازال يغيب عن المحل كل ساعة لمدة عشر دقائق، وأضاف الشاب أنه جاهز لأي خدمات شخصية، إذ سمع أن الحاج يغيب كثيراً عن البيت.

توقفت السيدة سهام عن الحديث قليلاً، وتنهدت، فسألتها "ألا نستطيع أن نأكل الآن، فلقد بدأت أشعر بجوع شديد؟".

تجيبني "انتظر لن يهرب الطعام وسيبقى ساخناً، ولكن ألا تريد أن أخبرك بما حدث بعد ذلك، كيف هجرني الحاج وتركني وحيدة وحزينة؟".

" بلى، أرغب بذلك، ولكن سنأكل بعدها، أليس كذلك؟".

استمرت السيدة سهام بالحديث "كرهت الجارة سميرة لغدرها،

ونزلت لعند الجارة بهيرة أشكو لها مصابي، وما ألم بي من نوائب الزمن، وإليكَ حديثي معها :

قالت لي الجارة بهيرة "بسيطة ومسكينة وغبية أنت يا سهام، جارتك الذكية سميرة ذهبت لعند الشيخ الساحر محمود، أعطته مالاً وفيراً، فسحر زوجك وربطه".

أسألها بدهشة "ماذا يعني يا بهيرة سحره وربطه؟".

تشرح بهيرة "ألا تعرفين ما يعني هذا؟! ألم تطلب سميرة أثراً من زوجك ذات مرة؟".

" لا أفهم ماذا يعني الأثر يا بهيرة، وكأنك اليوم تتحدثين بالطلاسم؟".

" ستبقين يا سهام طوال عمرك بسيطة، ألم تحصل سميرة على شَعر أو محرمة أو قطعة ثياب لزوجك؟".

" أتذكر أنها طلبت مني منذ وقت قريب قبل انتهاء محادثتنا الصباحية ملابس قديمة لزوجي، لتستخدمها في مسح الأرض وتنظيف الأثاث من الغبار لديها!".

"مسكينة يا سهام، لقد أخذت سميرة أثراً من ملابسه إلى الساحر محمود، قرأ عليها طلاسم سحرية، ودفنها في المقبرة، ومن وقتها أصبح عقل زوجك ضائعاً بعشقها. ثم ألم تشاهديها تسكب ماءً على الدرج أمام شقتك؟".

"نعم شاهدتها، قالت إن هذه ماء مقدسة لتحرس منازلنا من الشياطين والعفاريت!".

"هذه مياه مسحورة يا غبية من عند الشيخ محمود، مقروء عليها طلاسم ليزداد انشباك زوجك الحاج بالسحر عند مروره فوقها. ثم هل أرسلت سميرة صحناً من الطعام لتتذوقي أنت وزوجك من طبخها الشهي؟".

"نعم، كثيراً ما كانت ترسل صحوناً وقد أحب زوجي طعامها".

"انتهت الحكاية، لقد أخذوا عقل زوجك أولاً بـالأثر المـدفون، وشبكوه ثانياً بالمياه المسحورة، ثم أطعموه ثالثاً من الخلطة السحرية".

"ما هي الخلطة السحرية؟".

"تطبخ سميرة طعاماً ثم تتفل به كمية من بصاقها، وتخلط الطعـام بعد ذلك بمسحوق سحري مجفف، يتكون من قدم أرنب أنثـى ورأس عصفور خنثى وعضو ذكري لثور، مطحونة كلها معاً، ثم ترش عليهما شيئاً من بولها. وبما أن زوجك أحب طعامها فقد وقع صريع عشقها".

" جعلتيني أشعر بالقرف، هل من المعقول أنـني أكلـت أنـا هـذه القذارة! سأذبحك يا سميرة عندما أراك. ولكن أخبريني يا بهيرة، بمـا أنني أكلت مثله، فلماذا لم أعشقها أنا أيضاً؟".

" قرؤوا عليها طلاسم سحرية ذكرية يا غبية، وتركيبة جعل المرأة عاشقة هي معاكسة، مسحوق عضو أرنب ذكـر ورأس عـصفور خنثـى وحافر بقرة، وطبعاً مع قليل من بول الرجل. ولكـن إذا كنـت تـرغبين بالنوم مع النساء فأنا جاهزة يا حبيبتي سهام دون طلاسم سـحرية، مـا رأيك؟".

" أنت الغبيـة، كيـف تـرغبين بـالنوم معـي ولـيس لـديك عـضو ذكري؟".

" ستبقين أنت الغبية دائماً يا سـهام، وسـتحتاجين إلى كـثير مـن خبرة الحياة لتتعلمي معناها واكتشاف متعها".

" أنا هكذا غبية يا بهيرة، لا أستمتع إلا بعضو منتصب مثل عـضو الحاج. ولكن بما أن زوجي أصبح مسحوراً بعشق سمـيرة، فلمـاذا لم يعد عضوه ينتصب بالرغم من كل قمصان النوم المثيرة الـني أشـتريتها له، وماذا ستستفيد سميرة من هذا الوضع غير المنتصب؟".

" يا مجنونة، أخذوا خيطاً وعقدوا له عقدة على اسمك، فعـضوه يرتخي عندك، ولكنه ينتصب عندها".

" وماذا أفعل يا بهيرة، جعلتيني حزينة، كيف أجعله ينتصب عندي ويرتخي عندها؟!".

" اذهبي يا جارتي سهام إلى الشيخ محمود، وادفعي له نقوداً أكثر ليفك جميع أنواع السحر الذي أوقع زوجك به بسحر مضاد، ثم اطلبي منه أن يفك العقدة في الخيط التي ربطت زوجك بالنفث عليها بطلاسم سحرية مضادة، وبهذا سيعود لعشقك، ويعود عضوه للانتصاب عندك وللارتخاء عندها".

وهكذا انتهت المحادثة مع بهيرة على أن أذهب إلى الشيخ محمود".

أتدخل أنا الآن بالحديث وأسألها "وهل ذهبتِ يا سهام إلى الشيخ محمود بعد انتهاء محادثتك مع الجارة بهيرة؟".

أجابتني سهام "نعم، ذهبت، ولقد حزن حزناً شديداً عندما شاهدني، قال إنه لم يرَ في حياته امرأة في مثل حسني وجمالي، ولو عرفني قبل ذلك لما ربط زوجي من أجل جارتي القبيحة سميرة".

أسألها "وماذا فعل لك الشيخ محمود يا سهام ؟".

تجيب "الأجدر أن تسأل ماذا فعل بي! في البداية أحضر سبع ورقات خضر من نبات السدر، ودقها بين حجرين عليهما كتابات سحرية، ثم ألقى المسحوق في وعاء ماء، ووضع يده المقرفة ذات الأظافر الطويلة السوداء فيه، وأخذ يقرأ طلاسم عليه، وطلب مني أن أسقي بعضاً منها لزوجي وأضيف البقية إلى ماء اغتساله. وقال لي الشيخ محمود أيضاً إنه سيذهب إلى المقبرة ويستخرج أثر زوجي ويحرقه بسحر مضاد".

" وهل نجح ذلك؟!".

" لا لم ينجح ذلك، بقي عضو الحاج شبقبق مرتخياً عندي ومنتصباً عندها. رجعت لعند الشيخ محمود، فقال لي يبدو أن السحر

قد تمكن من زوجي. وأحضر إناءً نظيفاً وكتب عليه بمداد طاهر أدعية سحرية قوية باللغة العربية، ثم محاها بسكب زيت حبة البركة السوداء فوقها، فذابت فيه. وزيادة في الحيطة، أحضر ورقاً أبيضَ طاهراً غير مسطر، وكتب عليه بالزعفران وماء الورد المخلوط بالمسك طلاسم أخرى، ولكن باللغتين الرومية والعجمية، وحلها أيضاً في نفس وعاء زيت حبة البركة، ثم جفف الورقة وحرقها حتى لا تترك أثراً. وطلب مني أن أسقيه ما بالوعاء لعدة مرات..... ولم ينجح هذا الدواء أيضاً، فالسحر كان معنداً في جسمه بشكل عميق.

وفي المرة الثالثة قرر استعمال سحر ثلاثي المفعول، أحضر سبع بيضات بصفارين مسلوقة، وسبع حبات فول كبيرة مزروعة في الصحراء، وقرن كل بيضة مع حبة فول ليقرأ عليها طلسماً خاصاً، لأطعمه كل يوم زوجاً منها، وقال لي إن هذا يفك السحر بالتأكيد عن زوجي وسيرجعه طبيعياً. ثم أحضر الخيط القديم الذي عقد له به بعد أن وجده مرمياً في قعر صندوقه، وقطع العقد بشفرة حادة وهو ينفث عليها، وقال هذا لفك الربط ليعود عضوه إلى الانتصاب عندي. ثم طلب مني أن أحضر ثلاثة فؤوس، ألقي كل واحدة منها في نيران عيدان من زعرور الجبال المشتعلة بقدح حجرين صوانيين، فإذا ما أصبحت الفأس محمرة من شدة الحرارة طلب مني أن أبول عليها، فينطفئ لهيب الحب المشتعل في قلب زوجي لسميرة. وأعطاني فوق هذا للاحتياط أشرطة تسجيل فيها خطب لدعاة متقين وأحاديثهم، كي يسمعها زوجي ثلاث مرات قبل الطعام مع أخذ كمية كبيرة من الماء معها، وحذرني بأن لا أسمعه معها أشرطة أخرى حتى لا يحدث لديه اختلاط وتسمم سمعي".

قلت لها "الآن بالتأكيد سيكون زوجك قد شُفي تماماً مع هذه الأدوية القوية التأثير..... هل نستطيع الآن تناول الطعام؟".

"لا، اكتشفنا متأخرين بأن زوجي لم يكن مسحوراً، فقد كان معنداً وعنيداً ضد أي سحر بالأصل".

"ولكن يا سهام، أنـت قلـت لي أن عـضوه كـان مرتخيـاً بـشكل دائم؟!".

"نعم كان مرتخياً من كثرة القفز على سميرة، وليس من الـسحر، فقد كان يداوم في شقتها طوال النهار، ينام معها ساعة، ويعتـذر منـها لعشر دقائق، خمس دقـائق للطريـق، وخمـس دقـائق ليبيـع صـفقة، ويعود لعندها من جديد".

"لقد استغلك هذا الشيخ إذاً وسرق أموالك، ولم يجد سحراً".

"لا، لا تقول هذا، الشيخ محمود كان محترماً معـي، ألا يكفـي أنه طلب مني أجرته بنصف ما كان يأخذ من الزبـائن الآخـرين. ولكـن بما أن زوجي كان متعلقاً بسميرة، فهذا يعني أن هناك سحراً".

"ولكنك قلت لي أنه لم يكن مسحوراً".

"نعم لم يكن مسحوراً، بل أنا التي كنت مسحورة".

"أنتِ؟!".

"نعم أنا، ولم ندرِ بذلك إلا متأخراً، ولقـد تعـب الـساحر حـتى كشف ذلك. وبما أنه كلَ سحر مُعَند يرافقه رصد، فهذا معناه أن هناك جني، ولذلك كان لابد من البحث عنه".

"جني؟!".

"نعم فقد تلبسني جني بعد أن عشقني وأصبح يغار علـيَّ بـشدة، فما أن يقترب زوجي الحاج مني حتى يصورني الجـني قبيحـة وكريهـة أمامه، فيشمئز زوجي مني ولا ينتصب عضوه، فيتركني".

"وكيف عشقك الجني حتى أصبح يغار عليك بشدة ؟".

"الشيخ محمود قال لي إن زوجي الحاج عنـدما كـان يمتطـيني لم يكن يستعيذ بالـشيطان، فيـأتي الجـن ويتفرجـون علينـا عرايـا ونحـن نمارس الجنس. وعندما شرحت للشيخ أنني صاحبة خـبرة في الإثـارة والإغراء ومعرفة الوضعيات، فقد قال لي أن الهياج كان يصيب معـشر

الجن وهم يتفرجون علينا، بحيث إن أحدهم عشقني، فأخذ يلاحقني في كل مكان. وأنت تعرف أن الجو حار في هذه الأيام، فقد كنت أتحرك في البيت وأنام بملابس رقيقة وشفافة، فازداد تولهه بي. وذات مرة كنت عارية في الحمام، فاستغل الجني الفرصة وتلبسني، وأصبحت له، وصار يرغب الانفراد بي في اليقظة والمنام. وهو يغار عليَّ الآن كثيراً ولا يسمح حتى لزوجي بالاقتراب مني، فالجن أكثر غيرة من بني الإنسان".

"وماذا كان رأي الشيخ محمود؟".

"قال إن هذا زنا وحرام، لأنه لم يتم عقد نكاح شرعي مع الجني، وأنا لازلت على عصمة رجل آخر، وقرر إخراج الجني من جسدي".

"من جديد أدوية وطلاسم وأشرطة تسجيل!".

"لا، هذا ليس فك سحر، بل طرد جني، وهو شيء مختلف عنه تماماً".

"وماذا فعل الشيخ محمود ليطرد هذا الجني؟".

"قال لي إن بعض الجن يخرجون من جسد محبوبتهن بالإقناع والتفاهم إذا كانوا مؤمنين، فإن تمسكوا بالبدن يكونوا من الكافرين، وعندئذٍ يمكن اللجوء إلى ضربهم لإخراجهم بالقوة، وقد يضطر الشيخ إلى حرقهم".

"حرقهم! وكيف يتم حرق جني؟!".

"قال الشيخ محمود إن قتل الجن غير جائز وحرام، فيؤخذ العهد من الجني عند إخراجه بعدم العودة إلى جسد المسحور، وإذا عاد ولم يفد معه الضرب فإن حرقه جائز، بل وضروري".

"ولكن لم تقولي يا سهام كيف يتم حرق الجني المتلبس بجسد إنسان، هل يتم حرق....".

"يا خوفي، هذا يعني أنه كان من الممكن أن يشعل النار بي ليحرق الجني..... ولكن لحسن الحظ لم نصل إلى هذه المرحلة!".

"وكيف أخرج الجني إذاً؟".

"طلب مني الحضور مساءً حتى يتفرغ لطرده في عملية قد تطول، ولم يكن أمامي إلا القبول، إذ كنت أرغب باسترجاع زوجي. وطلب مني الشيخ خلع كل ملابسي، وارتداء ثوب مطيب بالمسك، فالجن يكرهون الروائح الطيبة وتزعجهم فيهربون منها، كما قال لي، وبما أن الشيخ كان تقياً صالحاً فقد خرج من الغرفة حتى انتهيت من ذلك. وعندما عاد إليها جعلني أتمدد على فراش واسع، ثم دهن بالمسك أحد وثلاثين موضعاً من جسدي، وهي أصابع اليدين والقدمين ما بين الظفر واللحم، وفتحتا الأذن، وفتحتا الأنف، والحاجبان، وحلمتا الثدي، وعضوي الجنسي، وفتحة الدبر، وثقب السرة، ولكنه لم يدهن حول الفم إذ تركه لطرد الجني. وبهذه الطريقة سيتمكن من محاصرة الجني في جسدي حتى لا يتلاعب بنا، ويُصبح مجبراً على الخروج من فمي فقط، وقد أغلقت عليه الفتحات كافةً إذا ما أراد الدخول مجدداً.

ثم أشعل الشيخ بخوراً، فغطت الرائحة الطيبة التي فاحت منه على رائحة لحيته الطويلة الكريهة، واقترب مني ونظر في عيني نظرة جعلتني أرتعش من الخوف، وصرخ بصوت مرتفع طالباً من الجني الخروج من جسدي باللين والحسنى والتفاهم. ولكن بما أن الجني لم يرضخ للطلب، فقد اضطر الشيخ محمود أن يمسد أعضاء جسدي للبحث عنه، وليعرف في أي مكان يختبئ، ومن ثم يطرده بالقوة. وأخيراً أمسك به عند ثديي، فأخذ يفركهما بين اللين والشدة حتى تنحل قوى الجني، فيتعب ويخرج، ويبدو أنني أنا التي شعرت بالانحلال، فتمنيت أن يبقى الجني مقاوماً عند الثديين لبعض من الوقت.

وبينما كنت منساقة وراء هـذه الأفكـار الجنيـة فوجئـت بـصراخ الشيخ وهو يسب الجني، الذي تسلل مـن ثـديي إلى الـسرة، وعنـدما شم رائحة المسك عليها هرب فزعاً إلى ما تحتها، فلحقته يـدا الـشيخ الماهرة إلى الأسفل. وتوقف الجني عند العانـة، ولم يَـرْضَ بـالخروج من الأسفل لأن عضوي كان مدهوناً أيضا بالمسك، وذلك بالرغم مـن صراخ الشيخ المتوتر، وبالرغم من مهارة يده التي أخذت تقسو عليـه. اضطر الشيخ عندئذٍ إلى إدخال أصـبعه في عـضوي ليـدفع الجـني إلى الأعلى نحو الفم، فبلغ بي الانحلال أشـده، وكـأنني شـعرت بـشهوة غريبة لم أختبرها أبداً مع زوجي الحاج، الذي لم يلمسني بمثل هـاتين اليدين الخبيرتين والأصابع الماهرة. وبما أن أصابع الـشيخ نحيلـة، لا تستطيعان الوصول إلى الجني، وليست بقادرة على دفعـه إلى الأعلـى بقوة، فقد اضطر إلى إخراج عـضوه الـذكري المنتـصب، الـذي لم أرَ أجمـل وأكـبر وأكثـر رشـاقة منـه في حيـاتي، وأدخلـه بي بـدلاً مـن أصابعه، وهجم به على الجني، وأخذ يدفع بـه، يخرجـه ليدفعـه مـن جديد، مرة دفعات سريعة خفيفة، ومرة دفعات بطيئة ولكنـها عنيفـة، في صراع طويل. أما بالنسبة لي فقد أخذت أستمتع بما يحدث بطريقـة لم أعرفها مع زوجي الحاج من قبل، فبدأت أنتشي أكثر بالدفع والرهز غارقـة في مـتعتي، في حـين تركـت الـشيخ والجـني يتـصارعان لوحدهما".

سألتها "وماذا حدث بعد ذلك؟".

أجابت "لا شيء، أصبحت أذهـب كـل يـوم لعنـد الـشيخ محمـود مساءً، ويحاول دفع الجني من جديد من الأسفل، مرة من القبـل، ومـرة من الدبر، ونجح أخيراً في زحزحته من مكانه، إلا أنه اسـتقر في حلقـي، مربوطاً دون فاعلية، ولكن كان على الـشيخ تهديـده بـشكل مـستمر مـن الأسفل حتى لا يفكر بالرجوع".

أعود وأسألها "ولكن ماذا حـدث مـع زوجـك في النهايـة، هـل رجع إليك؟".

" لا ، فقد أخذ العلاج وقتاً طويلاً حتى نجح ، ولكن في أثناء ذلك كان الحاج شبقبق قد هجرني ، اشترى شقة جديدة ، كبيرة وجميلة ، تقابلها أبواب أربع شقق ، بدلاً من باب شقة واحدة في بيتنا القديم ، وتزوج فيها سميرة".

" إذاً غشتك الجارة بهيرة ، وخسرت زوجك".

"لا فعلت معي كل الخير ، فقد اختبرت هي قبلي تجربة إخراج الجني من جسدها ، ولم تكن غيورة ، ففتحت لي مجالاً لأجربها أنا أيضاً ، إذ يبدو أن الشيخ محمود كان متخصصاً بمعالجة الحالات الصعبة التي يتلبس فيها الجن أجساد النساء. أما زوجي فإنني غير متأسفة عليه ، فهو غدار".

مر بعض الوقت من الصمت والسكون والهدوء..... يبدو أن الحكاية قد انتهت ، وبالتالي أستطيع الآن القفز إلى المائدة وتناول الطعام ، ولكن السيدة سهام عاودت البكاء من جديد ، إلا أنها هذه المرة سرعان ما توقفت عنه بهدوء وشيئاً فشيئاً ، وكأن حفلة البكاء السابقة كانت مقدمة للحكاية ، وحفلة البكاء الحالية خاتمة للحكاية. من الجيد أن الخاتمة كانت سريعة ببعض الشهقات والتنهدات ، إلا أنني لم أستطع تحديد فيما إذا كانت نهاية الحكاية سعيدة أم حزينة.

عانقتني بعدئذٍ السيدة سهام العارية بحرارة ، وقالت لي "أنا أعشقك ، وأريد أن تكون لي لوحدي ، سأغار عليك أكثر من بني الإنسان ، وأريد الانفراد بك في اليقظة والمنام ، وإذا وافقت فسأجعلك قبيحاً وكريهاً أمام كل النساء ، حتى لا تحبك أية واحدة منهن ، ولكن ستكون في عيني أجمل وأوسم وأرشق رجل في حياتي. وحتى أحصل على موافقتك سأجعلك الليلة تعيش أجمل اللحظات ، التي لم ترها حتى في الأحلام".

يبدو أن السيدة سهام قد تحولت من جديد إلى الجنية سهام ، أو أن الجنية عادت وتلبست جسد سهام ، بحيث لم أعد أعرف من هي السيدة سهام ، ومن هي الجنية سهام.

قفزت الجنية سهام بجسدها العاري إلى أرض الغرفة التي نشفت من الدموع، لترقص. واشتعل فجأة جسدها كله بنار قرمزية مرتجفة، مما أضفى عليها جمالاً ضوئياً عجائبياً متلألئاً، وأخذت كتل اللحم العارية المشتعلة بضياء نيرانها تتراقص تتمدد وتتطاول، حتى ملأت فضاء الغرفة، واشتعلت أفاعي شعرها المجدولة بنار نهدية، وقد وصلت إلى الأرض وانفرشت مثل مروحة يد صينية، وأخذت تتطاير مع كل تمايل وانثناء. وقفز كل ثدي بشعلة حلمته الوردية في اتجاه، في حين ارتجت الغرفة مع كل اهتزاز لمؤخرتها، فتناوب انزياح الظلال والضياء وعودتهما على الجدران. وكلما ازداد إيقاع رقصها تطاولت ألسنة النيران، وتماوج صوت انخطاف لهيبها في هواء الغرفة مع الحركات المهتزة. واتسعت عيناها بشكل واسع حتى كادتا تخرجان من محجريهما، واندفعتا إلى الأمام. ثم أخذت تلهث من فمها، فانبثق منه لهيب نار ضاربة إلى اللون الخمري بتناوب مع اللون الكحلي، وانفتح عضوها الكهف مع انثناءات مؤخرتها وفخذيها، فبان في الداخل جمر مضيء بنار برتقالية وصفراء، وقد تصاعدت منه أبخرة فستقية تضيع في هواء مابين فخذيها. ثم قامت يدها بحركة دائرية سحرية، فاشتعل كل ما هو موجود في الغرفة على شكل لهيبات صغيرة، توزعت فوق الأثاث دون أن يحترق.

أستغربت من أنني لم أشعر بالخوف من كل ما يحدث أمامي، يبدو أن الجنية سهام منحتني السكينة والطمأنينة بنوع من التخاطر، ومع أنني كنت مسحوراً بغرائبية وعجائبية ما يحدث أمامي إلا أنني وجدت ذلك مثل ألعاب السيرك، التي تصبح مملة ومضجرة إذا طالت بالرغم من جذبها الأولي. ولكنني كنت أفضل لو أن السحر فعل فعله في ذوات العيون الرمادية البليدات في "سلومانيا"، وتعلمن رقصة النار هذه، ولكن بالطبع دون النار المرافقة، والأفضل لو تناولت الوليمة الملكية وهن يرقصن أمامي.

يبدو أن الجنية سهام فهمت ما يدور بذهني، وشعرت أنني لن أذوب بعشقها، فقررت أن تستعمل آخر أسلحتها. فهجمت عليَّ وقررت أن تُذقيني شهد جسدها الناري بمتعة لم يختبرها أحد من الإنس، حتى تستلب جسدي وعقلي معاً. قفزت فوقي ومزقت ثيابي بطريقة سريعة، وغمرتني بجسدها، فاشتعلتُ معها بالنيران، ولكن دون أن أحترق أو أتألم. وبما أن عضوي الذكري قد أصبح أصبعاً صغيراً أمام كهفها السحري المشتعل، فقد دخل فيه ودخل معه جسدي بالكامل، وسرعان ما شعرت بحرارة الكهف المشتعل، الذي أخذت جدرانه تذهب وتجيء بي، تقفز وتهتز، ترتج وتتلوى، بحركة بطيئة في البداية، لتتحول شيئاً فشيئاً إلى حركة مجنونة، وأصبح كل ما حولي يدور. وبدأت تنساب من جدرانه سواقي رطوبة لزجة دافئة، غمرتني حتى أنني كدت أختنق فيها.

لم أجد أية متعة في هذه المعمعة النارية الملتهبة، بل خفت أن أضيع في أحد الممرات المنزلقة، أو يتم ابتلاعي إلى الداخل، وانحبس هناك بشكل دائم. فسبحت إلى الخارج نحو بصيص الضوء المهتز، الذي كان يتراءى بشكل شبه منتظم ويختفي، وفجأة وجدت أمامي عموداً علوياً معلق في السقف، مضاء بنار داخلية شديدة الاحمرار، تمسكت به بشدة محاولاً تسلقه هرباً من سيل الرطوبة الناري الذي أخذ ينسال الآن كالمطر، إلا أنني كنت أنزلق عليه فأعاود تسلقه من جديد. يبدو أن انزلاقي وصعودي المستمر وأنا أحاول النجاة بنفسي من السقوط كان يؤدي إلى زيادة الاهتزازات، التي انفلتت في النهاية بشكل مجنون، شبيهة بهزة أرضية تبتلع كل ما هو منتصب. ثم انفجر البرق والرعد وثارت الصواعق حولي، وانتشرت غمامة وردية كثيفة، هطل منها مطر وردي غزير، شكل سيولاً دفعتني بقوة إلى خارج الكهف، ولولاها لاختنقت داخله واختفيت. يبدو أن الجنية سهام قد وصلت إلى نشوة عنيفة، بينما كنت أنا طوال الوقت أحاول أن ألملم حالي، وسرعان ما تنفست

الصعداء عندما بدأ الجمر والنيران والإضاءة تخفت ببطء داخل كهفها وفي جسدها وفي الصالون، وسقطت أنا منهكاً في ظلام دامس، متحسراً على الوليمة الملكية الجنية التي لم أتذوق منها شيئا.

يوقظني ضوء الشمس الحارقة المتسلل من نافذة غرفتي منذ الصباح الباكر بشكل مزعج، لا أقوى على النهوض لإرخاء الستارة، أشعر بصداع شديد في رأسي الثقيل، وآلام في أعضاء جسدي المتيبسة، وقد سقطت غمامة بليدة على عقلي. حاولت أن أتذكر ما حدث معي ليلة البارحة، فتراءت لي صور كابوس مريع، لم أمر بمثله في حياتي كلها..... صور مبهمة عن امرأة تبكي بغزارة دموعاً ذهبية، جنية مشتعلة ترقص بجنون ناري، ووليمة ملكية لم أسمع عنها سوى في حكايات التراث عن الأمراء النهمين، سيول مطر وردي كدت أن أختنق فيها..... من أين تأتيني هذه الكوابيس اللعينة، التي ازدادت في هذه الأيام! ربما بسبب الأجواء الحارة الخانقة التي تلاحقني في الشارع والشقة غير المكيفة، إضافة إلى نومي دون عشاء وإحساس قوي بالجوع طوال الليل.

أنهض بتثاقل وأمضي إلى المرآة، فلا أرى سوى وجهي المُجهد الزابل، أتأمله، فألاحظ عليه بقعاً وردية وكأنها بقايا حروق، تمضي باتجاه عنقي وصدري. أخلع ملابس النوم بتوتر وقلق، أجد جسدي كله ممتلئاً بها، ولكن الغريب أنها لا تؤلمني، هل هذه حساسية جلدية، أم أن جسدي البارحة!..... أبعدت فكرة اشتعاله في الكابوس بسرعة من ذهني، فهذا غير معقول، هو مجرد كابوس، وهذه حساسية جلدية، سأذهب إلى الصيدلية وأشتري مرهماً ملطفاً لهذه البقع.

أذهب إلى علاقة الثياب لأرتدي ملابس الخروج، يطير صوابي، ممزقة بالكامل، وقد أصبحت مهترئة وكأنها اشتعلت وأطفئت على عجل..... لا هذا غير معقول، لقد مزقت الجنية ملابسي في الكابوس، ولكن ما علاقة هذا بالواقع؟! وكأن كل الآثار تشير إلى ليلة حقيقية. يداخلني التوتر والرعب الشديد، أشعر أنني قد وصلت

إلى حافة الجنون..... هناك السيدة سهام في المؤسسة، هي موجـودة، وهي الـتي دعـتني إلى حفـل انتـهاء المحاضـرات في شـقتها، ولـيس أمامي إلا أن أذهب إليها في عملها وأتأكد من كل شيء.

أرتدي ملابس أخرى على عجـل، أقفـز علـى الـدرج بخطـوات طائرة، أركب تاكسي، وأطلـب بـشكل مـستمر مـن الـسائق الإسـراع بأقصى مـا يمكـن بـالرغم مـن الازدحـام الـشديد، حـتى ظـن أن بي تسمماً، وخاصة بعد ما شاهد وجهي المجهد والزابـل، ظـل يـسألني طوال الوقت "إلى أي مستشفى تريد أن أسعفك يا أستاذ قبل أن يـسري السم في جسدك بالكامل؟".

ولكـن الـسائق فـوجئ بطلـبي التوقـف أمـام مؤسـسة الأعـلاف للدواجن، أقفز من التاكسي بسرعة وكـدت أنـسى دفـع الأجـرة لـولا صياح السائق المندهش الذي ظن أنـني مـسموماً "الأجـرة يـا أسـتاذ، عجايب يا زمن، كنت أظنـه سـيموت بـين لحظـة وأخـرى، فـإذا بـه مجنون ذاهب إلى موعـد غرامـي، ومـع مـن؟! مـع موظفـة مهترئـة، وأين؟! في مؤسسة دواجن!".

لا أرد على السائق، مع أنني لم أتساءل كيف عـرف إلى أيـن أنـا ذاهب، فليثرثر كما يريد، المهـم أن أرى الـسيدة سـهام. ألتقـي عنـد مدخل المؤسسة الرجل الذي تبدو عليـه مظـاهر الاحتـرام والهـدوء، وكان مترفعاً عن المـشاركة بالنقـاش العبثـي حـول العطـاس. بـادرني بالتحية، مستغرباً وجـودي في المؤسـسة، قـائلاً "كانـت محاضـراتك مفيدة لو أننا تابعنا العمل بالتوثيق الورقي، ولكننا أخبرنـاك أننـا قررنـا الانتقال إلى التوثيـق الإلكتـروني، ولأجـل هـذا اعتـذرنا عـن العمـل معك".

فوجئت بكل ما يقوله، أي توثيق ورقـي وأي توثيـق إلكتـروني، على كل الأحوال أنا لم أحضر إلى هنا من أجـل هـذا، ولـذلك سـألته متلهفاً "أين السيدة سهام؟".

"أية سيدة؟ لا يوجد لدينا سيدة اسمها سهام!".

"كيف لا يوجد..... رئيسة الديوان!".

"هذه ليست السيدة سهام، هذه المخبولة سهام، مكتبها في نهاية الممر، مسكين أنت يا أستاذ، من يسأل عن هذه المخبولة؟!". وذهب وهو يتمتم شيئاً ساخراً لم أفهمه.

أركض بسرعة في الممر، أجد لوحة معلقة على الحائط قرب أحد الأبواب، "الديوان"، أدخل، في صدر المكتب أشاهد امرأة تجاوزت الأربعين، أقرب إلى القباحة منها إلى الجمال، غاطسة بين أكوام من الملفات والأوراق، ولم يظهر من بينها سوى رأسها المغطى بلفافة قماش غريبة.

أقترب منها وأسألها "السيدة سهام؟".

بدت المفاجأة واضحة على وجهها، مستغربة من لهجة الاحترام الموجهة لها، إذ يبدو أن الجميع يناديها هنا سهام المخبولة. ابتسمتْ وقد أحمر وجهها "أهلاً أستاذ، سمعت أنهم استغنوا عن خدماتك الورقية، قرروا حرق كل الوثائق التي أعمل على ترتيبها في هذه المؤسسة منذ عشرين عاماً".

لا يهمني هذا، أسألها "ألم تحضري المحاضرات التي ألقيتها في المؤسسة عن التوثيق؟".

"أستاذ لا تسخر مني، دخلت إلى القاعة حيث كنتم مجتمعين، وزعت عليكم الأوراق البيضاء والأقلام، وخرجت".

"فقط!".

"نعم فقط، فالمحاضرات كانت موجهة لحاملي الشهادات الجامعية، كنت أرغب أن أسمعك، ولكن لا أحمل سوى الشهادة الابتدائية، فلم يسمحوا لي بالبقاء".

"سهام ألم أجلس معك؟".

"نعم جلست، حضرت أنت إلى الديوان لتشاهد فوضى الوثائق".

"لا، أقصد خارج الديوان، ألم أزرك في بيتك؟".

تنظر إلي مستهجنة "لا تسخر مني يا أستاذ، أنا امرأة مسكينة لا أحد يهتم بي. ثم لماذا تتحدث معي هكذا، فأنا امرأة محترمة، وإن كنت مطلقة، لا أستقبل أحداً في بيتي، أرجوك لا تسئ إلى سمعتي بهذه الحكايات".

"أريد أن أشرب فنجان قهوة عندك في المنزل".

"غريبة كل تصرفاتك معي يا أستاذ..... ولكن تعال بعد انتهاء العمل الساعة الخامسة مساءً".

لن تنحسم الحقيقة إلا بزيارة الشقة، لأعرف إذا كان ذلك كابوساً أم واقعاً. خرجت من عندها مضطرباً وأنا أنتظر المساء بلهفة، وصوت سهام يلاحقني من بعيد "ولكن ألا تريد أن أعطيك عنوان المنزل؟".

أجيب دون أن ألتفت إليها "أعرفه".

الساعة الخامسة، أذهب إلى الشقة التي أعرفها تماماً، إذ يبدو أنني قدمت إليها سابقاً، قرعت الجرس، فتحت الباب امرأة تلبس ثوباً بسيطاً دون غطاء رأس، شعر كستنائي بتسريحة بسيطة. تهاجمني أمواج من رائحة الرطوبة المعششة في الداخل، أسأل "هل هذا منزل سهام؟".

تقول بصوت منخفض حتى حد الهمس "أنا سهام، ادخل بسرعة حتى لا يرانا أحد".

وكدت أن أسألها "أين الصبايا والشباب؟"، ولكنني تماسكت في اللحظة الأخيرة وتراجعت، فأنا الآن أعيش في الواقع، وما حدث لي سابقاً كان كابوساً. تفتح لي باب الصالون، طاولة صغيرة قديمة تتربع في المنتصف، فكرت مباشرة أن الجنية سهام قد انزعجت مني في

المرة السابقة، لأنني لم أتجاوب معها، وهي تعبث معي الآن قليلاً، وستحضر الوليمة الملكية بعد قليل.

نجلس على الأريكة التي أعرفها، أسألها "سهام، أنا جائع، أليس لديك وليمة، عفواً طعاماً للعشاء؟".

يحمر وجهها من الخجل "قلت لي بأنك ترغب بشرب فنجان قهوة، لو عرفت لحضرت لك عشاءً، هل تحب الرز مع اللبن؟ ولكن إذا كنت جائعاً الآن فلدي بقايا بطاطا مسلوقة، وأستطيع أن أقلي لك بيضتين".

"لا، لست جائعاً كنت أعبث معك، أريد فنجان قهوة فقط".

أتأمل جسد سهام وهي تنهض لتغلي القهوة، جسد شبيه بالبطات السمينات اللواتي يتدحرجن في الشارع الذي أسكنه، تلبس ثوباً بسيطاً، ثديان شبه متهدلين تحته، لا تضع أية مساحيق على وجهها. تدخل المطبخ، فأتسلل على رؤوس أصابعي، وأفتح الخزانة التي أعرفها جيداً، أشاهد قمصان نوم، أعدها، ثلاثة فقط، قديمة وغير مغرية، لا مناشف ملونة في الدرج السفلي منها.

يبدو أن لا سيدة سهام ستبكي وتبث أشجانها لي، ولا وليمة ملكية، ولا رقصة نار لجنية عارية. كان كابوساً، مع أن الشك بقي يراودني بأن شيئاً ما حدث معي هنا، إذ كيف عرفت البيت والصالون والخزانة والأريكة!

تأتي سهام بفنجاني قهوة، أسألها عن أحوالها، تزور عينيها طيف دمعتين صغيرتين تكادان لا تغادرا محجريهما، تقول "منذ ست سنوات لم يسأل أحد عني، زوجي هجرني بعد أن عشق جارتي سميرة، التي كانت تسكن في الشقة المقابلة لنا، تزوجها وذهبا لا أدري إلى أين".

"وماذا فعلت أنت؟".

"لا شيء، أذهب كل يوم إلى عملي الممل في الديوان، وفي المساء أنزل إلى جارتي بهيرة التي تسكن تحتي، نتسلى قليلاً، أو أذهب للتسوق في المجمع التجاري قربنا، وعندما أرجع أشاهد التلفزيون..... أريد أن يتركني الناس بحالي، ولكن الموظفين في المؤسسة يسمونني سهام المخبولة، لأنني كما يقولون فقدت زوجي بغبائي، ولم أعرف التصرف من أجل إيجاد زوج جديد لي".

ارتمت سهام على صدري خجلى وقد غالبها حزن شديد، وكأنها تريد الانفجار بالبكاء، ولكنها تتمالك نفسها، وتتابع "هذه أول مرة أجلس فيها مع رجل منذ ست سنوات".

شعرت برغبة شديدة بالهروب، فقد وجدت نفسي في موقف عبثي، أنا أتيت إلى هنا لأجل التحقق من كابوسي، فلم أصل إلى نتيجة، ووجدت نفسي أمام مخبولة، ومع ذلك راودني شعور بالشفقة عليها، هي مرمية على صدري، ويداي معلقتان بالهواء.

كيف أتيت إلى هنا، وكيف سارت معي الأحداث بهذه الطريقة، لا أعرف! أنا رجعت إلى البلد من أجل ذات العيون العسلية، وليس من أجل هذه البطة الغبية.

وفيما قررت النهوض والهروب كانت شفتاها قد أطبقت على فمي بجوع شديد، فسرت الحرارة إليَّ، أنا الذي انقطعت عن الجسد منذ رجوعي، رفعتُ ثوبها، وخلعت سروالها الأبيض العتيق، ودون أن أخلع ملابسي حاولت أن أدخل بها، فشعرت بعضوها جافاً. وفي أثناء محاولتي الدخول بها كنت قد أفرغت سريعاً على جسدها، وقد انتابني شعور بالدوار والقرف، وشيء يدفعني للنهوض بسرعة والهرب.

مَسَحت هي ما سال مني على بطنها وعانتها بطرف ثوبها دون أن تقول شيئاً، ووجهها محمر من الخجل، سألتني إذا كنت أرغب بمشاهدة التلفزيون أو الذهاب للتسوق. كنت صامتاً طوال الوقت، أنهض بسرعة متجهاً إلى الباب، سمعت صوتها يلاحقني "متى سأراك ثانية؟".

* * *

المُذرة

لا أذكر متى كان أول اختبار واحتكاك لي مع عالم ماورائي، فمنذ أن وُلدت في بلدتي الصغيرة الريفية وأنا أعيش في قلب عوالم ماورائية متعددة، ولكن أكثرها تأثيراً في طفولتي كان عالم الجن والعفاريت والغيلان والمُذرات. فما أن يأتي الليل حتى تظلم البلدة الصغيرة ببيوتها المتناثرة بين البساتين والسواقي، ويخيم الظلام عليها، فلا يعود يُلمح إلا بصيص نور هنا وهناك، يصدر عن مصابيح كاز عتيقة، لا يلبث أن يذبل ضوءها ما أن يهجع الناس إلى النوم، لتُخلي فضاءات القرية لعواء الكلاب الشاردة، وموسيقى ذكور صرصار الليل الصادرة من احتكاك أجنحتها ببعضها بعضاً لإغراء إناثها..... ينام الناس، وتستيقظ الكائنات اللامرئية، التي تعيش في حكايات فلاحي بلدتي البسطاء.

كانت الحكايات تشع في ظلمة البلدة، يرويها الفلاحون البسطاء في الأمسيات أمام بيوتهم الطينية، لتبدد عتمة الأزقة والقلوب، أبطالها أشخاص يعيشون بيننا، جمَّلهم الخيال وجعلهم نماذج تُحتذى في الأحلام، شبان وصبايا عشاق يلتقون مساءً قرب النهر، تخفيهم أغصان الصفصاف الكثيفة، وتحنو عليهم بعيداً عن العيون، ورجال أشداء يواجهون الوحوش الضارية التي تتسلل إلى مشارف البلدة في الليالي الباردة. وكان لا بد أن تتزين هذه الحكايات بعبث الكائنات اللامرئية مع الناس، كائنات أنتجها الخيال، ولكنها تتحرك مع الناس وتنشط في لياليهم بألفة كامتداد لحياتهم في النهار، إذ لا يتجاوز الخوف منها أكثر من ذلك القلق الذي يثيره المبهم والمجهول والغامض، كائنات لم تؤذِ أحداً في الواقع، ولكن وجودها كان ضرورياً لملئ حياتهم ببعض المعنى أمام ظلمة ليالي الغِيَض والبساتين

والحقول..... كانت عوالم حكايات البلدة بسيطة وممتعة، وإن أثارت فيها هذه الكائنات الخوف المبهم في القلوب، ولكنها تحولت مع مجيء الشيخ حسني والشيخة حسنية إلى عوالم مخيفة مرعبة، وكائنات تتوعد بعذابات سادية في الحياة وفي الموت، عندها انسحب الخوف القديم الذي نمى مع مطر الحقول والأحلام، ليحل محله الجديد المرعب السادي، القادم مع غبار الصحراء. ينزاح المطر، لتحل مكانه عواصف غبارية وسديمية، تخنق الذاكرة والحنين والأحلام.

كانت الأمطار غزيرة في شتاء بلدتنا قبل أن تأتي عواصف الغبار المدمرة، تنفجر الينابيع في بطون المنحدرات، لتتشكل منها برك ماء صغيرة، ينتصب حولها نبات سياج العليق الذي ينمو عالياً بكثافة شديدة إلى جانب أشجار الحور المتطاولة إلى السماء، وأشجار الصفصاف والزيزفون الكثيفة الأغصان، في حين تتوزع أعشاب متطاولة في كل مكان، أينما وجدت الرطوبة، لتستيقظ فيها الأفاعي والضفادع والسلطعونات مع قدوم الربيع. وأينما كانت تتشعب السواقي في مسيلاتها المتعرجة بين البساتين والحقول، كان سياج العليق والأشجار والأعشاب هذه تلاحقها، لتنمو بكثافة وعالياً، تاركة إلى جانبها دروباً صغيرة مهدتها أقدام الفلاحين ومواشيهم، وهم يروحون ويجيئون عليها.

وعندما يأتي الصيف، تصبح الحقول المتناثرة في السهول عطشى تحت حرارة شمسه، تنادي السواقي بحنين وشوق، لتعيش من نظام حصص لتوزيع المياه، ابتكرها الفلاحون لضمان وصولها إلى أقصى المناطق المزروعة صيفاً. كان لكل قطعة أرض وقتٌ مخصصٌ من ساعات الري، يتناوب دورياً كل ثمانية أيام خاصة بتقسيم المياه. وهذه الساعات تُباع وتُشترى وتُؤجر، سواء مع أرضها أو دونها، ولكن دون تعقيدات رسمية، وإنما باتفاقات شفهية بوجود شهود ضامنين.

وبما إن السواقي تسيل ليل نهار، والحقول العطشى بحاجة مستمرة للمياه صيفاً، فإن نظام توزيع المياه يقتضي السقاية ليلاً إلى جانب النهار، وفي تناوب بينهما للأرض الواحدة، فمن يسقي مرة في النهار يكون دوره في الأسبوع التالي ليلاً. ولذلك فإن البساتين والحقول تبدو وكأنها لا تنام في الليل، تصحو بأجواء مغايرة للنهار، مواويل هنا يتردد صداها بعيداً للتغلب على وحشة العتمة، ونداءات هناك لرجال يتبادلون تحية الليل، يتعاونون معاً للتحكم بمسير المياه إلى المزروعات، البعض يروح ويجيء على الدروب للتأكد من عدم تسربها من المجرى عند فتحات الحقول، والبعض الآخر يجلس ويشرب الشاي في استراحة عابرة أو في انتظار أدوارهم للسقاية. وعند الصباح الباكر يجتمع الرجال الساهرون المتعبون، يتناولون معاً طعام الفطور من "الزوادات "التي أعدتها زوجاتهم مساء البارحة، زيتون وجبنة ولبنة ومكدوس، وقد يأخذ أحدهم غفوة تحت شجرة جوز أو زيتون حتى شروق الشمس.

في هذه الغِيَض والبساتين والحقول، الكثيفة الدغل بسياجها وأشجارها وأعشابها، ولدت حكايات الجن، هؤلاء الذين يغرقون في نومهم نهاراً، ويستيقظون ليلاً بنشاط وحيوية في العتمة، ليرافقوا غناء الفلاحين وهم يسقون حقولهم، يشربون الشاي معهم ويأكلون من زوادة طعامهم، يعبثون معهم طوال الليل، ليجعلوا المياه تتسرب إلى حقول الجيران، أو يهزون شجرة الجوز فتتساقط ثمارها القاسية فوق رؤوسهم، أو يجعلون الرجال ينزلقون فوق في العتمة.

وعلى الرغم من عبث الجن المستمر فإن الفلاحين يشعرون بالحاجة إلى رفقتهم، وخاصة أمام امتداد المساحات الليلية الشاسعة وغموضها، ولكنهم يأخذون حذرهم بشكل خاص من الجنية المُسماة "المُذرة"، الجنية الخبيثة التي تختار الأكثر رجولة من بينهم ووسامة، بعد أن تكمن لهم في الليالي المقمرة قرب سياج السواقي، فتغريهم

بغنائها الشجي، وما أن يقتربوا منها حتى تغتصبهم وتتـركهم مـشلولين أو معتوهين، أو تحولهم إلى تيوس. وبما أن كل واحـد مـن الفلاحـين يعد نفسه الأكثر رجولة في البلدة ووسامة، فكلهم اختـبروا اللقـاء مـع المُذرة في ليالي الـسقاية، وسمعـوا غناءهـا وصـفيرها الـشجي الـذي يختلط مع صوت تدحرج الميـاه علـى الأحجـار في مجـرى الـساقية، ولكنهم نجـوا مـن إغرائهـا في اللحظـات الأخـيرة، نجـوا بقـوة إرادة تجاهلها، فعندما يهملونها طويلاً تشعر بالملل وتمضي منهزمة. ولكـن الغريب في هذه الحكايات أن المُذرة لا تظهر لرجلين في وقـت واحـد كي تختار من بينهم الأكثر رجولة ووسامة، تحاول إغراء رجـل واحـد فقط، ولكن تفاصيل حكاية اللقاء هـي واحـدة عنـد الجميـع، ماعـدا التلاعب بالتفاصيل التي تميز الراوي منهم.

وبعكـس التعامـل مـع الجـن الـذي يناسـب حكايـات الخيـال والاسـترخاء واكتـشاف المجهـول، كانـت الـشجاعة في مواجهـة الوحوش البرية من علامات الرجولة في بلدة صـغيرة، تـصبح مخيفـة في عتمة الليل ومقفرة، عندما يهجع النـاس إلى بيـوتهم لينـاموا بـاكراً جداً، فيتوقف الضجيج والحيويـة اللـذين مـلأا نهارهـا، ليحـل بـدلاً منهما عواء الكـلاب وأصـوات متنـاثرة هنـا وهنـاك لرجـال سـاهرين يسقون الحقول.

أخذت الذئاب والضباع تختفي شـيئاً فـشيئاً مـن حـوالي البلـدة، هربت إلى أعـالي الجبـال مـن ضـجيج العـسكر الـذين أقـاموا مواقـع عسكرية في الـتلال، غـير بعيـدة عـن الأمـاكن المأهولـة، ويتـدربون بإطلاق الذخيرة بشكل مستمر. إلا أن بعضها كان لايـزال يتـسلل بـين حين وآخر إلى مشارف البلدة، وخاصة في أيام الـثلج البـاردة، حيـث يدفعها الجوع الشديد إلى مهاجمة زرائب المواشي المتطرفة. ولايـزال الكبار يروون بشغف حكاية الراعي "أبو حسين "مع الضبع الـذي أقـام وكره في مغارة صغيرة عند مشارف الجبل، وأخذ يـسطو علـى البلـدة

في كل ليلة. ازداد خطر هذا الضبع الذي تحول من السطو على الأغنام والماعز إلى مهاجمة الناس المنفردين، حتى أخذوا يروون كيف التهم ذات ليلة رجلاً عجوزاً بعد أن "ضَبَعَه"، وسحبه إلى وكره.

" أبو حسين "رجل أَلِفَ العيش مع قطعانه في البراري الموحشة، يعود إلى البلدة فقط في المساء لينام، ويغادرها في اليوم التالي باكراً قبل طلوع الضوء، جسد قوي وشجاعة مميزة اكتسبهما من الاحتكاك المستمر مع الطبيعة وضواريها، ولكنه يحمل في ثناياه قلباً طيباً وبسيطاً، يجعله محبوباً من الجميع. خاف "أبو حسين "على قطيعه، وقرر أن يخلص البلدة من الضبع، وخاصة بعد ما التهم الرجلَ العجوز المسكين. كَمَنَ مساءً فوق مغارة الضبع عند سفح الجبل، الذي ما أن شم رائحة إنسان قريب حتى خرج من وكره. وفي هذه اللحظة قفز "أبو حسين" على ظهره بشكل مفاجئ وهو يصرخ صراخاً شديداً، ووجه إليه خنجرين حادين إلى رأسه، واحدٌ من اليمين والثاني من اليسار، وشدَّ عليه بقدميه ووجهه نحو البلدة، قاده نحو مضافة المختار حيث يجتمع الرجال، ودخل به عليهم، فتقافز الجميع خوفاً من انفلاته عليهم.

لا يستطيع أحدٌ أن يؤكد ما حدث في تلك الليلة بالضبط، ومدى اختلاط الوقائع بالخيال في هذه الحكاية، ولكن الجميع يعرف أن "أبو حسين "هو الذي قضى على الضبع، وشاهدوا جثته الكريهة مرمية خارج المضافة. تحول "أبو حسين "منذ تلك الليلة إلى أكثر الرجال شجاعة في التعامل مع الوحوش الضارية وخبرةً، فما أن يشاهده ثلة من الرجال مساءً بعد عودته بالقطيع إلى البلدة حتى يدعونه إلى شرب الشاي تحت شجرة الجوز الكبيرة، ليروي لهم حكايته عن إدخال الضبع إلى المضافة، فيحكيها بسرور مع تعديلات يضيفها الخيال في كل مرة. وبعد ذلك يعود الرجال لروايتها، كل واحد على طريقته في مجالسه الخاصة مع تعديلات جديدة من

خياله، بحيث أتى وقت لم يعد أحد يعرف أصل الحكاية، مثل ما حدث مع كل حكايات البلدة الأخرى.

وإلى أن يأتي وقت ضياع الأصل فإن "أبو حسين "كان يسحر الجميع بحديثه، يصمتون ويستمعون بشغف إلى حكاياته عن الضباع، فقد يصادف أحدهم ضبعاً ذات ليلة، وعليه أن يحسن التصرف، وإلا التهمه مثل الرجل المسكين.

يتحدث "أبو حسين" "عندما يشم الضبع رائحة إنسان وحيد يسير في الليل يقرر أن يضبعه".

يسأله أحد الشباب بلهفة "وماذا يعني يضبعه؟".

يجيب "يضبعه، يعني يصيبه بالرعب ويشل أية حركة لديه، فيتحكم فيه بعد أن يصبح وكأنه منوم".

"وكيف يتم ذلك يا "أبو حسين "؟".

"يقوم الضبع بالركض السريع نحو الرجل، فيصدمه بشكل جانبي وبعنف، ويسمعه صوت طقطقة عظامه كطرق أحجار عنيف ببعضها بعضاً، فيرتعد الرجل ويُصاب برعب شديد. ولكن الضبع لا يترك له المجال ليلتقط أنفاسه، فيعاود الهجوم عليه مراراً بهذه الطريقة، حتى ينهار في النهاية، وخاصة مع الإحساس المخيف بصدمة جسده الخشن وصوت طقطقة عظامه المرعبة".

"وماذا يحدث بعد ذلك؟".

يتلاعب الآن "أبو حسين" بالحكاية ليعطيها طابع الإثارة "وفي أثناء ذلك يكون الضبع قد قام بالتبول على ذيله، وفي كل مرة يجانب فيه الرجل ويصدمه يرشه بقطرات من بوله الكريه الرائحة التي تعلق عليه، فيتحول إلى فريسة له، في حين تترك الرائحة تأثيراً يزيد من الرعب. وهكذا يصبح الرجل مشلولاً من الخوف ومُنوماً ومنقاداً، فيدفعه الضبع إلى وكره ليأكله".

"وماذا علي أن أفعلِ إذا ما صادفت أحدهم حتى لا يضبعني؟" يسأل أحد الشباب متلهفاً.

"إذا لم تكن قوياً بما فيه الكفاية، وليس معك سلاح حاد، فالأفضل عدم مصارعته، ولكن عليك تجنب الاندفاع القوي كلما اقترب منك، والإمساك بحجرين والقرع بهما بشدة مع إصدار صراخ مرتفع مرعب، فهذا يوقفه قليلاً ويرفع من قوتك ومعنوياتك، وفي أثناء ذلك يجب الإسراع إلى أقرب منزل، فالضبع يفضل الفريسة المنفردة".

يُلح الشاب سائلاً من جديد "والرجل المضبوع المُنوم هل يبقى لديه أمل بالنجاة؟".

"أحياناً يكون الوكر على شكل مغارة منخفضة السقف، فيصطدم رأس الرجل المنوم به وهو يدخل إليها، وينزف دماً، يصحو عندئذٍ من شدة الصدمة مع الإحساس بالنزيف، وقد ينجو إذ تمالك نفسه وأحسن التصرف، فالضبع لا يأكل إنساناً حياً".

يسأله شاب آخر "هذا عن الضباع، والأفاعي كيف تقضي عليها يا "أبو حسين" ؟".

وبحكم خبرته الطويلة مع الأفاعي، كان "أبو حسين "له طريقة خاصة في قتلها، يقول "ما أن ترى أفعى وتقرر أن تقضي عليها، لا تفكر كثيراً ولا تتردد، عليك أن تقبض عليها من ذيلها بلمحة خاطفة، وتلوح بها عالياً بسرعة شديدة، فتدوخ، وتلطمها بعدئذٍ بشدة على أرض قاسية أو جدار أو شجرة، فتقتلها. وإذا ما ترددت أو تراخت يدك فإن الأفعى هي التي ستلوح بك وتقضي عليك..... ولكن إياك أن تمسك الأفعى من ذيلها إذا ما دخلت وكرها وتحاول سحبها، فإذا كانت قوية فستستنفذ قوتك في الشد، ولن تعرف متى ستخرج فجأة، وترتد عليك لتلدغك".

أستمع بشغف إلى طريقة "أبو حسين "في القضاء على الأفاعي،

التي كانت جزءاً من ذاكرة البلدة وحكاياتها، فقد كانت تعيش مع الناس في كل مكان من بيوتهم المتناثرة بين البساتين، وتشاركهم في أحيان كثيرة سقوف منازلهم المبنية من الخشب والطين، وتتواجد بكثرة قرب زرائب المواشي وأقنان الدجاج. وقلما سُمِعت حكاية عن أفعى لدغت شخصاً ما، فالناس عادة ما يتركون الأفاعي بحالها مادامت لا تعدي على أحد، والأفاعي تترك الناس بحالهم بطبيعتها مادام لا يوجد تهديد مباشر على حياتها منهم. وكثيراً ما تروي جدتي كيف كانت في صباها تتحدث من وراء جدار البستان مع بنات الجيران على الطرف الآخر، وبينهما يتمدد ثعبان أسود كبير وطويل في ظل شجرة الجوز. يستمر الحديث طويلاً، ويبقى متمدداً يصغي إليهم بمتعة.

ولكن عندما تسطو الثعابين على أقنان الدجاج لتبتلع البيض والصيصان، يلجأ الفلاحون عندئذٍ إلى قتلها، وهو ما يحتاج إلى شجاعة وخبرة ودراية حسب حجمها وطولها إذا ما اضطروا إلى استخدام طريقة "أبو حسين"، أما الأسرع والأضمن فقد كان قطع رأس الأفعى بضربة واحدة من الرفش الحاد ذي العصا الطويلة، الذي يرافقهم أينما تحركوا. والأكثر شجاعة هو من يلتقط الأفعى من خلف رأسها، فيضغط عليه لتنحل قواها ويتحكم بها، يحملها ويدور بها مفتخراً، فإذا لم يمتلك عزيمة قوية ويداً قاسية فإنه بمجرد إرخاء الضغط عليها فإنها تلتف على يده، وإذا ما أفلتت منه فقد تلدغه. وعندما تستعصي أفعى مؤذية على الخروج من وكرها، كان أهل البيت يلجؤون إلى السيد مبروك، وهو نصف معتوه يركض طوال النهار بين الأزقة والحارات بأسماله البالية، ويقول الناس إن له قريناً من الجن ملازماً له. يأتي السيد مبروك إلى وكر الأفعى، يتحدث معها، فتخرج إليه طائعة، يأخذها ويلعب بها دون أن يؤذيها أو تؤذيه، ويذهب بها..... هكذا كان الناس يروون.

تصبح الحكايات أجمل عندما يجتمع في الأمسية تحت شجرة الجوز "أبو حسين "وابن عمه "أبو خالد"، وهو أيضاً رجلٌ شجاع، قوي البنية وشديد البأس، مثل كل أفراد العائلة، يعمل طوال النهار في حقله. ولهذين الاثنين ذكريات كثيرة مشتركة، فهما يعيشان في الحقول والبراري متلازمين منذ طفولتهما، قبل أن يتحول "أبو حسين "إلى الرعي في الجبل، و" أبو خالد "إلى العمل في حقله، ولكنهما يلتقيان غالباً في الأمسيات، ليرووا معاً مغامرتهما المشتركة.

يصب لهما الشباب كأسين كبيرين من الشاي الأسود المغلي، يستثيرون حماسهما "احكوا لنا كيف دخلتم إلى مغارة الأموات".

ومع أننا سمعنا حكاية مغارة الأموات من "أبو خالد "و "أبو حسين "عشرات المرات، فلازلنا نستمتع بها كلما سمعناها من جديد، وكأنهم يروونها للمرة الأولى. وإذا كان الخيال يختلط فيها بالواقع إلى درجة كبيرة، إلا أن هناك من يؤكد الحادثة، فأحدهما يروي، والثاني يبتسم موافقاً، ليتدخل من وقت لآخر في محاولة رفع وتيرة الإثارة.

يروي "أبو خالد" الحكاية هذه المرة, ويبتسم "أبو حسين", "كنا أنا" و"أبو حسين" في مقتبل العمر، لا يتجاوز الواحد منا الثالثة عشرة، وكانت هناك حرب أهلية على الطرف الآخر وراء الجبل، يأتون بجثث كثير من المسيحيين، يعودون بأصولهم إلى بلدتنا، ويضعونها في مغارة مغلقة بباب من السهل فتحه بعد أن أضاع خوري البلدة المفتاح، ولم يهتم أحد بتصنيع بديل له. وذات مرة ماتت بمرض غريب شابة عروس، ابنة أحد الأغنياء القادمين من المهجر، وتم تناقل الأخبار أن والدها دفنها في هذه المغارة بكامل ملابس عرسها ومجوهراتها من شدة حزنه عليها. كان هناك تحدٍ بين الشباب من يستطيع الدخول إلى المغارة ليلاً مع ترك علامة، قبلنا أنا و" أبو حسين "التحدي، وقررنا نحن الاثنين في سرنا الحصول على كنز المجوهرات بطريقنا، لنصبح أغنياء ونسافر إلى المدينة.

كانت ليلة مُقمرة، تسللنا مع حلول العتمة، دخلنا إلى المغارة وسرنا بين أكوام العظام والجماجم على ضوء القمر القادم من كوة باب المغارة وراءنا، دون أن نتبين بوضوح ما حولنا. داهمنا بعض الخوف ونحن نغوص في ركام بقايا الأموات مع سماع صوت خشخشتها وتقصفها تحت أقدامنا، دون أن نجد المجوهرات، فقررنا العودة ملتمسين ضوء الكوة، فيكفي أننا دخلنا ونجحنا في التحدي. ولكن كان على "أبو حسين "أن يترك علامة في المغارة، لنفتخر بها تأكيداً على الشجاعة وعدم الخوف من الأموات. أخرج وتداً من جيب شرواله أحضره خصيصاً، جلس وأمسك بحجر كبير وأخذ يدق به الوتد في الأرض. وبما أن الظلام كان شديداً، وليس أمامنا سوى ضوء القمر المتسلل من الكوة فإن "أبو حسين "لم يدرك أن الوتد دخل في طرف شرواله وهو يدقه، لينفذ منه إلى الأرض. وفي اللحظة التي كاد فيها ينتهي من عمله تحركت أنا خارجاً، فإذا بي أدعس على مشط قدم هيكل عظمي مرمي على الأرض أمامي بشكل عرضي. ويبدو أن الهيكل كان حديثاً ومازال متماسكاً ولم تنحل عظامه، بحيث أن ثقلي على المشط جعله ينشد نحو الأعلى وينتصب واقفاً وكأنه يعترض طريقي، بدا لي أنه يسألني ماذا أفعل هنا، ولماذا أقلق راحة الموتى. اجتاحني رعب شديد وصحت بصوت مخنوق" "أبو حسين" نهض الأموات"، وركضت بسرعة متعثراً بين العظام نحو المخرج".

يتدخل هنا "أبو حسين "في الحكاية وقد أخذ مظهراً جدياً متناسباً مع رعب الموقف ويقول "وفي اللحظة التي انتصب فيها الهيكل وسمعت فيها "أبو خالد "يصرخ كالمجنون معلناً قيام الموتى، نهضت أنا أيضاً مرتعباً أريد الهروب، ولكن الوتد المضروب أرضاً من خلال شروالي منعني من القيام، فصرخت "ألحقني يا "أبو خالد"، أمسكني الأموات ولا يريدون إفلاتي". ولكن "أبو خالد "كان يركض خارجاً مبتعداً كالمجنون دون أن يلتفت إليَّ وهو يصرخ "نهض الأموات، نهض الأموات".

يكمل الآن "أبو خالد" وهو يضحك بصوت عـال بحيـث تغالبـه دموع الانفعال "ولن تحلموا بحياتكم رؤيـة منظـر "أبـو حـسين" الـذي خرج دون شروال، يركض عارياً من الأسفل، وهو يـصرخ "أمـسكني الأموات، لا يريدون إفـلاتي"، وكـأن الأمـوات يريـدون القفـز علـى مؤخرته".

لم يعد "أبو خالد" يتمالك نفسه من الضحك، متـذكراً مـؤخرة "أبـو حسين"، الـذي يكمـل الحكايـة "مرضـنا نحـن الاثـنين، أصـابتنا حمـى شديدة، نغيب عن الوعي، ونقفز في الليل من النوم مـذعورين، نهلـوس بكلام غير مفهـوم عـن الأمـوات، دون أن يـدري أهلنـا مـا حـدث لنـا. أحـضروا لنـا "طاسـة الرعبـة"، الكـوب المنقـوش عليـه آيـات وأدعيـة، وأخذوا يسقونا بها ماءً ليل نهار، فلم تنفع، فلا زالت الحمى والكـوابيس مشتعلة. ثم أحضروا السيد مبروك، الذي أخذ يتنقـل بـين مـنزليْ أهلينـا، وهو يبربر ويدمدم، دون أن يفهم أحد ما به أو مـا بنـا..... ومـضى وقـت طويل حتى أستطعنا أن نتخلص من رعبنـا وكوابيـسنا ومعرفـة مـا حـدث بالضبط".

يعلق "أبو خالد" "ولكن هذه التجربة الصعبة جعلت منا رجالاً".

تتـسع حلقـة الـسهرة المـسائية تحـت شـجرة الجـوز الكـبيرة، يحضرها الصغار والكبار متشوقين لـسماع حكايـات الـبطلين، ويكـبر إبريق الشاي، ثم يصبح إبريقين، لم تعد حكايـات الـضباع والأفـاعي ومغارة الموتى تشبع فضول المستمعين الساهرين. فيسأل أحد الـشباب "الضباع والأفاعي عرفنا كيف تقضون عليهـا، ولكـن هـل ترويـان لنـا كيف شاهدتم المذُرة؟".

يروي الآن "أبو خالـد" بعـد أن أخـذ نفـساً طـويلاً ورمـى نظـرة شاملة على وجوه الـسامعين، وتأكـد مـن تلـهفهم وشـوقهم للحكايـة "تظهر المذُرة الخبيثة عادة في الليالي المقمرة قـرب سـياج الـسواقي، وتختار أوسم الرجال فقـط، وقـد تعرضـت أنـا نفـسي لتجربـة إغـواء

صعبة معها لم يختبرها أحد قبلي، إلا أنني واجهتها بشجاعة وحزم، ولولا ذلك لانتهيت مشلولاً أو تيساً. ففي ذات مرة كنت أسقي حقلي ليلاً، سمعت فجأة في هدأة السكون والصمت حولي صوت غناء شجي قادم من ناحية السياج العالي في جهة الجنوب، عرفت مباشرة أنها المُذرة، فلم ألقِ لها سمعاً. ولكنها غنت طويلاً بلحن حزين حتى يرق قلبي لها، وتناغم صوتها مع موسيقى النسمات التي تلاعبت بأغصان شجر الجوز، ومع إيقاع تدحرج المياه فوق الأحجار، وكادت تبكي بسبب تمنعي. ومع ذلك تجاهلتها وبقيت أتابع إرواء المزروعات، فأنا أعرف أسرار إغوائها، وأن أفضل طريقة لمقاومتها هي التجاهل والرفض. ولكن المُذرة أصرت في هذه المرة على الإيقاع بي، فلقد اختارتني لأنني أوسم رجال البلدة وأكثرهم شجاعة، حتى أكثر من بطلكم هذا "أبو حسين". ضجت الأنوار السحرية الصادرة عنها، وازداد إيقاع الغناء ليشتد تأثير سحرها، وفي اللحظة التي كادت فيها أن تنفجر بالبكاء انهرت وانشددت إليها، وسرت نحوها مذهولاً حزيناً لأجلها، مدفوعاً بقوة سحرية لا تقاوم، امرأة ضخمة وكأنها مشتعلة بالنار فتشع بالأنوار، وشفاه مكتنزة، وخدود ممتلئة، وعينين جاحظتين، وشعر مجدول كالأفاعي، ولازلت أتذكر أن لديها ثديين ممتلئين ومؤخرة سمينة".

يقاطعه أحد الشباب "وهل كانت عارية يا أبو خالد؟".

"وهل بقي بي عقل لأميز إن كانت عارية أم لا! كل ما أذكر أنه عندما أصبحت قريباً منها ابتسمت لي وقالت بصوت كله رقة وعذوبة وحنان وقد مدت يدين طويلتين لتعانقني بهما "أريد أن أكون معشوقتك، لك وحدك يا أبو خالد، وطوال العمر، أحلم بك منذ زمن طويل". وطار صوابي عندما ذكرت اسمي وخفق قلبي من الانفعال".

يسأله الجميع مستغربين "ولكن يا "أبو خالد "أنت معافى، ماذا فعلت حتى نجوت منها؟".

يرد عليهم "لم أعمل شيئاً، تذكرت أم خالد البدينة، قالت لي نفس العبارة قبل أن أتزوجها تحت شجرة الصفصاف بصوتها الناعم الشجي، الذي سرعان ما تحول إلى زعيق مستمر في أذني طوال الوقت كأغنية نهارية بمجرد مرور الأسبوع الأول من العرس، زعيق لا يتوقف إلا عند نومها، قلت في نفسي إنه تكفيني مصيبة غنائية واحدة في النهار، ولا أريد مصيبة غنائية ثانية في الليل، فرجعت إلي صوابي، وهكذا نجوت".

ولكن "أبو حسين" له أيضاً مُذرته الجبلية، التي تعبث معه وتلعب في عتمة ما قبل انبلاج الفجر عندما يقود قطيعه إلى المرعى في الجبل، يأتي الآن دوره ليروي "نعم وأنا أيضاً ظهرت لي المُذرة، أخطأتْ فظنتْ أن "أبو خالد "هو الأكثر وسامة في البلدة، ولكنها لما عرفتني عشقتني من قلبها وتركته، ولم تؤذني أبداً. كانت المُذرة تعبث بي وتمازحني كل يوم، فمنذ الصباح الباكر أركب على حماري وأقود القطيع إلى الجبل، فما أشعر إلا وشيء يشد حماري إلى الوراء، محاولاً إيقاف سيره. أنظر إلى الأسفل فأرى قدمين نحيلتين وطويلتين جداً وقد امتدتا على الأرض تمنعه من السير، ثم تتطاول من فوق كتفي يدان نحيلتان لتسابقه. ألتفت إلى الوراء، فأجد المُذرة قد ركبت الحمار ورائي، تنظر إلي وتبتسم دون أن تتكلم، يظهر فمها وكأنه دون أسنان، إلا أن عينيها أصبحتا عريضتين جداً وجاحظتين، تكادان تخرجان من محجريهما".

" وماذا كنت تفعل يا "أبو حسين "؟".

" المهم أن تكون قوي القلب ولا تخاف، فإذا ما ضعفتَ فإنها تسحرك شر سحر، وهي تفعل ما تفعله لكي تعبث وتتسلى، ولذلك عليك أن تقابل مزاحها باللعب معها، فأدفعها بعصاي دفعة خفيفة لتسقط على الأرض، ولكنها سرعان ما تعود لتركب من جديد على الحمار ورائي وقد أثارها اللعب..... ونمضي الوقت هكذا حتى طلوع الضوء بالكامل، ثم تختفي".

"ولكن يا "أبو حسين "بما أن "أم حسين "قد ماتت منذ زمن طويل، وأنت لازلت رجلاً قوياً، فلماذا لا تقبل عشق المُذرة لك، وتُسر بحياتك معها؟".

يصمت "أبو حسين" ويتذكر زوجته التي أحبها من كل قلبه، ويتذكر كيف نطحها ثور الجيران الهائج وهي تغسل الثياب قرب الناعورة الموجودة فوق البئر القديم، نطحها بوجهها وصدرها ومر من فوقها، أمضت عدة ليالي في الفراش والسيد مبروك يقرأ عليها الأدعية ليشفيها، ولكن لا فائدة. أحست "أم حسين "بدنو أجلها، قالت "لأبو حسين "" لا تتزوج بعدي، لا أريد امرأة أخرى في بيتي".

ماتت "أم حسين"، وبقي "أبو حسين" وحيداً دون امرأة تنفيذاً لوصية زوجته، ولكنه رأى ذات مساء من وراء الجدار المنخفض الجارة خدوجة وهي تنشر الغسيل في البستان المجاور، ابتسمت له فوقعت في قلبه. خدوجة فتاة وحيدة لأهلها، مدللة ولذلك ينادونها باسم التصغير هذا بالرغم من أنها أصبحت امرأة، ولكنها بقيت بكراً فاتها الزواج، تعمل في البستان طوال النهار، وتُنَقِّلُ نظرها هنا وهناك بحثاً عن رجل ما. قفز "أبو حسين" لعندها من فوق الجدار بعد أن نام الجميع، تلقته بكل الحب، عانقها وانتشى معها دون أن يُفقدها بكارتها، وسُرت هي أيضاً مادامت الأمور مستورة مع معرفتها بوصية "أم حسين". وأخذ يقفز لعندها كل يوم بعد أن ينام الجميع، ولكنه ينهض صباحاً إلى المرعى والنعاس يغالبه، ولذلك فما أن ينتهي عبث المُذرة الصباحي معه حتى يأخذ غفوة تحت شجرة زعرور صغيرة، تاركاً أمر القطيع لكلبه الأمين.

كان عمري لا يتجاوز العشر سنوات وأنا أجلس في حلقة الرجال الذين يسمعون "أبو حسين" و"أبو خالد" تحت شجرة الجوز الكبيرة، أستمع إلى حكايات الضباع والأفاعي والمُذرات، فتسحرني, وتوقظ بدايات الرجولة لديَّ. كانت أحاديث الرجال تشعل خيالي الصغير،

تجعلني أركب الضبع وأقوده إلى المضافة، وأمسك أفعى كبيرة من رقبتها خلف رأسها أتجول بها بين الحارات، فيُسر الرجال بشجاعتي، وتبتسم النساء لرجولتي، ثم أفتخر بوسامتي فتعشقني مُذرة، لا تعبث معي وإنما تلبي كل طلباتي بسحرها، وخاصة تلك التي لا أستطيع الحصول عليها في البلدة، وينحصر وجودها في المدينة فقط، مثل مجلات المغامرات.

أما أحاديث النساء فقد كانت تسير في الاتجاه المعاكس، مثبطة بالكامل، فهن لا يستطعن السيطرة على حيويتنا ونشاطنا نحن الأطفال، "عفاريت وشياطين كيفما تحركوا "كانت جدتي تقول دائماً.

الأطفال الذين لا يهدؤون بحيويتهم، يملؤون البيت فوضى وشغباً، يرغبون باللعب دائماً فيحطمون كل ما يصادفهم بطريقهم دون انتباه، لا يساعدون أهلهم ولا يهتمون بنصائحهم. الأطفال الذين لا يرغبون بالنوم باكراً، يبقون بعيون نصف مفتوحة تحت الغطاء، يرون ويسمعون كل ما يدور حولهم، في حين يجلس الأب والأم منتظرين نومهم بصبر شديد، وقد اجتاحتهم الرغبة في قضاء ليلة ماجنة. ولكن الأطفال لا يتعبون ولا ينامون، أما الأهل فهم الذين يتعبون وينامون في النهاية، وتنام معهم رغباتهم الجنسية. وإذا ما استيقظ الأهل باكراً، وتطلب الزوجة من زوجها أن يعانقها قليلاً قبل أن يصحو الأولاد، فما يجدونهم إلا ودخلوا بينهم، يشاركونهم اللعب والمشاغبة.

تلجأ النساء إلى الكائنات اللامرئية للسيطرة علينا نحن الأطفال، فما أن نتلمس العالم بأولى الخطوات إلا ويأتي الخوف معها بسبب النسوة البسيطات..... لا تنظروا إلى البئر فيسحبكم "شيخ البير "معه إلى الأسفل، لا تبتعدوا عن البيت فيخطفكم الجن معهم، لا تدخلوا البيوت المهجورة فالجن يسكنونها ويقيمون أعراسهم بالليل فيها، لا تقصوا الأظافر ليلاً فتأتي الشياطين لتأكلها، لا تتركوا الحذاء مقلوباً

فتعذبكم السماء، لا تـذهبوا إلى الغيـضة فالغولـة تقـيم هنـاك وتلتـهم الأطفال، وإذا لم تهدؤوا فسنرسلكم نحن إليها.

ومع أننا نحن الأطفال لم نكن لنهدأ إلا أننا أصبحنا نخاف الجـن وشيخ البير والمُذرة والغولة، ونخاف الليل الذي يوقظ هذه الكائنـات الشريرة من نومها وسكونها، لا نجرؤ علـى الـذهاب للتبـول لـيلاً في طرف أرض الدار والمثانة تكاد تنفجر، وإذا ما سمعنا في الليل قرقعـة نافذة يلعب بها الهواء، أو قفزة هرٍّ على السطح، كنا نرتعد خوفـاً مـن الجن الذين يرقصون حول البيت، ينتظرون خروجنا حـتى يخطفوننـا، فنختبئ تحت اللحاف وننام مرعوبين.

وحتى ننجو من شر الكائنات اللامرئية كانت جـدتي تـدفعني إلى إشعال شمعة عند قبر الشيخ ياسين في مزاره، أو عنـد قـبر العوسـجي المُغطَّى بسياج العليق، أو عنـد شـجرة الزيتـون المقدسـة في مـدخل البلدة. كنت أفضل الذهاب إلى قبر العوسجي، الواقع في طرف مقـبرة البلدة في مزار بسيط مفتوح على الهـواء الطلـق، حيـث يظللـه سـياج مرتفع يحنو عليه، ويغطي جداراً قديماً شبه متهدم، تتوزع عليـه بقايـا عشرات الشموع. وفي المساء يـأتي أحـدهم ليـشعل شمعـة مـن أجـل تيسير أمـر سيقـضيه، ويـشعل أيـضاً الـشموع المنطفئـة بفعـل الهـواء الشديد، ودائماً هناك أحد ما يشعل الشموع المنطفئـة. ومـا أن أدخـل إلى هناك حتى أشعر أنني دخلت عالماً من الأنوار اللطيفـة الـتي تمـنح السكون والطمأنينة، فأنفصل عـن العـالم الخـارجي، وأطلـب عندئـذٍ أمنيـة لا تتجـاوز النجـاح في صـفي الدراسـي. كانـت هـذه الأجـواء النورانية الغريبة هي التي تدفعني إلى العوسجي، ولم أكن أهـتم كـثيراً بما ترويه جدتي عن رجل مخمور شُلَّ جسده وأصبح أبكمَ لأنـه سـب العوسجي ومزاره عند المرور من أمامه.

أما شجرة الزيتون المقدسة الواقعة في مدخل البلدة فقد أعاقـت افتتاح الشارع العريض، الذي سيصبح فيما بعد طريقاً لنزهـة العـشاق.

تروي عمتي أن الجرافة التي حاولت قلع شجرة الزيتون المقدسة من أجل فتح الشارع انكسرت شفرتها القاسية، دون أن تتزحزح الشجرة من مكانها، لا بل إن الجرافة سقطت في الوادي مساءً عند عودة سائقها من العمل إلى البيت، فاحترقت ومات، لأنه تجرأ على المس بقدسيتها..... لكن لا أحد يعرف تفاصيل الحادثة، ولا اسم السائق، ولا متى حدث هذا، فقط هكذا سمعت عمتي ما يروونه.

إلا أنه بعد حادثتي الشهيرة في مواجهة الجن، لم أستغرب اختفاء مزار العوسجي بعد احتراق سياجه بالكامل، ليحل مكانه سور حديث من الأسمنت لحماية المقبرة من تسلل الكلاب الشاردة، ولم أستغرب قلع عشرات شجر الزيتون عند مدخل البلدة لشق الطريق، وبما فيها الشجرة المقدسة، فيما كانت الجرافات تروح وتجيء. إذ مع تقدمي بالعمر أخذت أفهم الكثير من اختلاط الخيال بالواقع في الحكايات القديمة..... وحدث هذا من خلال صدمات متتالية تركت تأثيرها القوي في حياتي.

كانت صدمة طفولتي الأولى مع الأفعى التي استقرت في غرفة النوم؟! فقد كانت جدتي تحكي دائماً أننا من عائلة مباركة، تعود بجذورها القديمة إلى سلالة الشيخ ياسين، ولذلك فنحن محميون بقداسته ورعايته، وبسبب هذا لا تدخل بيتنا لا الجن ولا الأفاعي والعقارب. وذات مرة شاهدت على سطح بيتنا الأسمنتي أمام قن الدجاج فرخ حية صغير جداً يتلوى فيما تتقافز عليه الدجاجات، دون أن يستطيع الفرار من بين مناقيرها وأرجلها. وكم كان من السهل علي أن أقطع عنقه لصغره، لتكمل عليه الدجاجات ويأكلنه مثل الديدان الصغيرة. ويبدو أن هذا الفرخ الصغير هذا قد تسلل يكتشف العالم من سقف زريبة أغنام جارنا اللحام، السقف القديم المهترئ المبني من عوارض الخشب المغطاة بالطين والذي كان يشكل مأوى مناسباً للأفاعي.

بحثت الأفعى الأم عن فرخها الصغير في اليوم التالي، متجهة بغريزتها إلى سطح بيتنا، ولما لم تجده انزلقت على الدرج الحجري، وتسللت إلى غرفة النوم، وكمنت هناك بين الوسادة العريضة والجدار على أمل أن تلتقي به، في حين كنا ننام أنا وإخوتي على فراش ممدود أرضاً بقربها. كانت الأفعى تصدر فحيحاً طوال الليل، ولكن الصوت اختلط على والدي ووالدتي مع عصف الرياح الشديدة في تلك الليلة، فلم يأبها لذلك كثيراً.

في الصباح وبعد ذهاب والدي إلى الحقل، بدأت والدتي بترتيب الغرفة، وعندما رفعت المخدة وجدت أفعى كبيرة مكومة وراءها، وقد رفعت رأسها بوضع الانقضاض للدفاع عن نفسها بإصدارها فحيحاً شديداً. شاهدتها، فناديت على ابن الجيران الذي كان يكبرني بعدة سنوات، كنت لاأزال صغيراً على مواجهة أفعى كبيرة لوحدي، ومع ذلك حملت رفشاً ثانياً معه استعداداً للمواجهة. كانت الأفعى تتسلل هاربة بين الحصائر والبسط والفراش، التي أخذنا نسحبها ونرميها في أرض الديار، لتجد نفسها فجأة معزولة دون أي ستار تختبئ خلفه، في غرفة مغلقة وعلى أرض أسمنتية، وكيفما تحركت تتزحلق بكامل جسدها دون أن تجد مرتكزاً خشناً تستند إليه. أحست الأفعى بالخطر الشديد أمام رفش ابن الجيران الذي كان يخطؤها بسبب ضيق المكان، فيما كانت تفح فحيحاً مرعباً وقد ارتفع رأسها وانفتح فمها واسعاً وبان ناباها، تتحين الفرصة لتلدغ، ولكن الرفش الطويل كان يفصل بيننا. وأخذت الأفعى ترتمي بجنون متزحلقة من طرف الغرفة إلى طرفها الآخر، شرسة مستميتة في الدفاع عن نفسها، ليتمكن أخيراً ابن الجيران من إصابتها وقطع رأسها بالرفش بعد معركة قاسية وطويلة، وحمل الأفعى المقتولة عليه في حين كان ذيلها لايزال يتلوى، ورماها في البستان المجاور.

ينكشف الغطاء القدسي عن بيتنا، وأتبين أن الأفاعي والعقارب

والجرذان تستطيع الدخول إليه مثل كل البيوت، وكان الحل المؤقت استقدام عدد من القطط وتربيتها، لتحافظ على البيت من الزواحف والحشرات، بدلاً من حماية الشيخ ياسين غير الفعالة. ولكن هذه القطط أخذت بدورها تسطوا على الصيصان في قن الدجاج، تفتح ثقوباً بأظافرها في شريط المنخل المعدني، وتصل إليها مهما حاولنا رتقه. وبقيت زريبة الأغنام بأفاعيها وقتاً طويلاً، حتى نهض مكانها بناء مرتفع من أربعة طوابق مع هجوم الأسمنت المسلح على البلدة، في حين تسللت الأفاعي إلى البساتين، هرباً من ضجيج الناس ومن ضياع أفراخها الصغيرة بين مناقير الدجاج وأقدامها.

كانت هذه المواجهة حقيقية مع الأفعى في طفولتي، أما بقية المواجهات مع الأفاعي فلم تكن تتعدى مرور إحداها قربي وأنا أغفو عصراً في الهواء العليل تحت شجرة الجوز، أصحو فأشاهد آثار مرورها خطاً طويلاً مرتسماً على التراب الناعم والحشائش اليابسة. إلا أنه ذات مرة شاهدت "الحنش "الأسود، الكبير والضخم، الذي يتحدث الجميع عن اختبائه في البيت المهجور قرب حقلنا، دون أن يؤكد أحد رؤيته. لمحته يشرب من مياه الساقية، مستغلاً سكينة غفوة الناس في الظلال هرباً من قيظ الظهيرة. تابعت المسير نحوه كالمنوم، وأنا أشاهده بامتداده طويلاً وعريضاً، كان جميلاً، وقعت بين السحر بجماله والخوف منه. هذا الذي يروي عنه الرجال أنه يعيش مائة عام ويظهر له قرنان صغيران، ولا يحب مواجهة الناس، ولكن إذا ضايقوه فقتله لن يكون سهلاً. عندما شاهدني الحنش ألتف بهدوء شديد وعاد إلى وكره بين الأحجار المتهدمة، مؤكداً فكرة عدم إلفته للناس، ولكن بما أنه طويل جداً فقد احتاج دخوله إلى وقت بمقدار كان قد تجمع فيه الشباب على صوتي. أحضر أحدهم بندقية صيد، أراد أن يبني شهرة رجولته على قتل الحنش الشهير، ولكنه عدل عن إطلاق النار عليه ، إذ لم يعد ظاهراً من ذنبه إلا حوالي المترين، علق أحدهم "اتركوه بحاله، فهو هنا منذ عشرات السنين ولم يؤذ أحداً".

ستختفي الأفاعي من حياتي مع هجمة العمران وتحول البلدة الريفية إلى مدينة، اختفت معها الأسطح الخشبية المغطاة بالطين لتحل مكانها الأسطح الأسمنتية، يبست الأشجار وماتت السواقي، ولن أشاهد الأفاعي بعد ذلك إلا في الأفلام الوثائقية العلمية التي يعرضها التلفزيون.

أما المواجهة التي لم أتوقعها في حياتي فقد كانت مع الضبع، ولم أنتصر عليه برجولتي وفق نصائح "أبو حسين"، وإنما بخوفي وفق توجيهات "أبو أحمد "المقيم في داخلي.

تأخرت المواجهة مع الضبع كثيراً، لم تحدث إلا في السادسة والعشرين من عمري خارج البلدة، في وقت كان من المفترض فيه أن الضباع قد اختفت حول المناطق المأهولة، بسبب الضجيج الذي صنعه الناس مع توسع العمران. كنت قد نسيت كل الحكايات القديمة لرجال البلدة الشجعان عن الضباع، ونسيت نصائح "أبو حسين "عن كيفية التصرف معها إذا ما واجهتُ واحداً منها. حدث هذا في أثناء تأدية الخدمة العسكرية، حيث كنت أمضي دورة التأهيل في أقصى الشمال. وقتها كانت قد انتهت من حياتي كل معاني رجولة البلدة القديمة، وكانت قدسية الشيخ ياسين الذي يحفظ عائلتنا وبيتنا قد انكشفت منذ زمن بعيد، وظهر أنها دون فاعلية، احترقت مع السياج الذي كان يظلل مزار العوسجي، وضاعت جذورها مع شجرة الزيتون المقدسة التي قلعتها الجرافة ومحت وجودها، ولم يعد أحد يعرف مكانها..... وقتها لم أعد رجلاً لا يهاب الظلمة والوحوش الضارية، وإنما تحولت إلى مواطن صغير، مواطن خائف، مزروع بداخله "أبو أحمد"، تروعني خطوات عناصر جهاز حفظ الاستقرار إذا ما مروا بعيداً عني بمئات الأمتار، وحولتني الخدمة العسكرية إلى آلة بليدة، تعد الأيام كي تنتهي، أيام دون معنى..... وحدث اللقاء مع الضبع في معسكر التدريب قبل أن أسافر.

في معسكر التـدريب كنـا مجموعـة مُدجَّنـة مـن الـشباب، تـرك القادمون من الأرياف البعيدة ذكرياتهم وحكايات بلداتهم عن الرجولة خارجه، وانخرطـوا في عـذابات التـدريب اليـومي، حيـث لا يمكـن التمييز بين النظام والإهانة. إلا أن "أبو حمدي "" شيخ الشباب "حـاول أن يبقى بطلاً بشاربيه العريضين، وحكاياتـه عـن الوحـوش الـضارية، وشرواله الذي يلبسه في أثناء النـوم بعـد انتـهاء التـدريب. كـان بطـلاً فلكلورياً في الحقيقة بعد انتهاء التدريب اليومي، يتحدث مثـل "شـيخ الشباب"، أما في أثنائه فقد كان يقبل النظام والإهانات مثل الجميع.

ذات ليلة رجع "أبو حمدي "" شيخ الـشباب "بوجـه شـاحب مـن نوبة حراسته الليلية إلى مهجع النوم في معـسكر التـدريب، وقـال "يـا شباب، شاهدت وحشاً!"، وصمت، إذ سرعان ما سخر الشباب مـن "أبو حمدي "الجلف والقاسي القادم من الأرياف البعيدة، سخروا مـن شنبيه العريضين اللذين يفتخر بهما كرمـز علـى رجولتـه. أمـا أنـا فقـد بقيـت في سـريري العلـوي منفـصلاً عنـهم، أقـرأ "وداعـاً للـسلاح "لأرنست همنغواي.

وبعد ليلتين كانت مناوبـة حراسـتي بعـد منتـصف الليـل، أجـد نفسي واقفاً في أقصى طرف معسكرنا الذي يترامى بعيداً عـن الأمـاكن المأهولة بـين الـتلال، وحيـث تجمعـت مهـاجع النـوم والتـدريب في وسطه على بعد ما يقـارب ثلاثـة كيلـومترات مـني. لا ألمـح منـها إلا أضواء خافتة، تفصلني عنها مساحات ليلية واسـعة وفارغـة، الجميـع نيام ماعدا الحرس الموزع في مناطق متباعدة.

كانت السماء تندف ثلجاً في تلك الليلة القارسة، وثلج الـشمال معروف بكثافته إذا ما تساقط. كان الـثلج يـسقط علـى خـوذة معدنيـة أضعها على رأسي، وعلى بندقيـة في اليـد بوضـعية القتـال، والحربـة مُرَّكبة على رأسها كما تقتضي الأوامر، مع مخزن يتم تبديله من بندقية إلى أخرى دون تغيير الطلقات فيه منذ عدة أشهر. وكـان الـثلج يـسقط

على نظارتي الطبية بحيث مللت من مسح الندف المتساقطة عليها، فلم أعد أرى سوى وابل ثلجي يلتمع تحت ضوء أصفر لمصباح عمود كهربائي بليد مثلي، أقف بجانبه. وكان الثلج يسقط أيضاً على راديو صغير ببطارية، أحمله قرب أذني، وتصدر منه أغنية أم كلثوم البكائية "ألف ليلة وليلة"، عن العشاق وآلام الفراق..... وهكذا كان يقف مني تحت الثلج خوذة وبندقية ونظارة طبية وراديو صغير، وهو الوحيد الذي كان يبدو حياً منهم، أما البقية مني فلا تعرف لماذا تقف هنا، فقد كانت الأيام ثقيلة والأحاسيس تبلدت، أعدها وتمضي ببطء شديد، كانت مميتة لو لم يعطها أرنست همنغواي بعض المعنى.

وجاء..... ظننت أنه كلب، ولكن مظهره كان كبيراً وغريباً على كلب، ممتلئ الجسم وأقدام عريضة ووجه غريب، ليس فيه شيء من كلب ينبح، لترميه بحجر فيهرب، وكأن حجمه حجم نمر كبير، ولكنه ليس بنمر. شاهدني أنا وعمود الكهرباء منتصبين دون حراك، وأحدنا يحمل راديو.

تقدم بتثاقل بطيء نحونا، أنا والعمود، تاركاً آثار قدميه على الثلج، يرفع قدمه بهدوء شديد في أثناء سيره، ويتركها معلقة في الهواء قليلاً، ثم يعود ليرخيها بهدوء مشابه على الأرض، ثم يكرر الحركة مع القدم الثانية، ويتقدم نحونا. توقف على بعد حوالي عشرين متراً منا، أنا والعمود، رفع قدمه اليمنى الأمامية عالياً، ونسيها هناك معلقة في الهواء. وقف بهذه الوضعية جامداً لا يتحرك، وأنا والعمود من الجهة المقابلة لا نتحرك، لا شيء حولنا حي سوى صوت سقوط الثلج وغنائية أم كلثوم البكائية الطويلة..... وقف كالتمثال بقدم منسية في الهواء، ووقفنا عمودين منسيين من الزمن، وأخذ يستمع معنا إلى أغنية أم كلثوم، التي استمرت طويلاً لساعة كاملة، لأيام وليالي، لألف ليلة وليلة، ولا أحد منا يتحرك، لم أكن أفكر بشيء، فقد كان عقلي لا يفكر..... وأخيراً انتهت البكائية، فقرر

الذهاب بنفس الطريقة المتباطئة والمتثاقلة، مـر بقربنـا، أنـا والعمـود عسى أن ينـهار واحـد منـا في اللحظـة الأخـيرة، ألقـى علينـا النظـرة الأخيرة مودعاً مـع فقـدان الأمـل "بـضبع "فريـسة ومـضى، ودون أن يلتفت، إذ إنه ستتجدد خيبة الأمل له مع بدء بكائية جديدة في الراديـو لفريد الأطرش عن الفصول الأربعة فيما لو بقي..... ذهب، تاركاً آثـار قدميه على البساط الأبيض، وبقينا أنـا والعمـود واقفـين تحـت الـثلج وفي البرد القارس حتى انتهاء نوبة حراستي، حيث جاء من يبدلني.

ذهـب الـضبع دون أن أطبـق معـه نـصائح "أبـو حـسين "بطـرق حجرين بشدة ببعضهما، ولكنني نجوت، ما أنقـذني مـن الـضبع هـو أنني كنت في فترتها مواطناً صغيراً خائفـاً، ورجـلاً بليـداً يعـد الأيـام. واكتشف الضبع ذلك من حجمي الصغير المتضائل، ومن بلادتي ممـا يحدث حولي، فمن خلال هذا الانزواء كنـت أنجـو حـتى مـن جهـاز حفظ الاستقرار، الذي لا يهـتم بأمثـالي الخـائفين. ويبـدوا أن الـضبع بحسه الغريزي شعر بشكل خاص ببلادتي المرتبطـة بالأوضـاع العامـة في البلد، فقرر الابتعاد عن السياسة وعلاقة المواطنين بعناصـر جهـاز حفظ الاستقرار، وكيفية قضائهم الخدمة العسكرية، ومضى.

عدت إلى المهجع، مررت بالقرب من سرير "أبو حمدي "" شيخ الشباب"، نظرت إليه، كـان نائمـاً ولا زال شـاحب الوجـه منـذ ليلتـه تلك، التي قال إنه شاهد فيها وحشاً. كان ضبعاً يا "أبـو حمـدي"، يـا شيخ الشباب، وأنا أصدقك..... ورثيت لحاله وكأنما أرثي لحالي.

كانت مواجهتي مع الأفعى قصيرة، وكـذلك مـع الـضبع، لـيس فيهما أية إثارة إذا مـا تحـدثت بتفاصـيلهما لأحـد، وإن تركتـا بعـض التأثير في شخـصيتي وحيـاتي. ولكـن المواجهـة مـع المـُذرة والغولـة وأخواتهما من الجن والعفاريت كانت عنيفة وقاسية، هزمـوني هزيمـة نكراء في البداية، وساعدهما إنس في تكتل قوي ضدي، ثم مـا لبثـت أن انقلبت الهزيمة انتصاراً لمصلحتي، عندما صمدت ومـن ثم عنـدما

حرقتُ المُذرة والغولة وكل الجن والعفاريت، الذين عاشوا في الغيض والبساتين والحقول والبيوت المهجورة، وعلى الأخص تلك التي عاشت في الكوابيس. كانت حرباً شرسة وقاسية، ولكنني خرجت منها منتصراً، أما المُذرة المهزومة فلم أجد رمادها مثل البقية، زحفت بجثتها إلى بوابة لازمنية وخرجت من عالمنا، بعد أن شاهدت مذبحة رفاقها، واختفت..... ربما ستبقى عداوة مستمرة بيننا، إذ قد يأتي يوم تعاود فيه محاولة إغوائي انتقاماً بعد أن تقفز إلى عالمنا من جديد، فالهزيمة التي لحقت بها وطردها من البلدة لن يجعلاها تنسى الإهانة من إنسي صغير.

وأتى وقت استنجدت فيه النسوة بالجن، وعلى رأسهنَّ جدتي وعمتي ووالدتي، من أجل السيطرة على أطفالهن "العفاريت والشياطين"، فوجدت هذه الكائنات اللامرئية فرصتها لاستعمال قدراتها السحرية في إثارة الرعب عند الأطفال، ملبية دعوة النساء تحت إغراء أنوثتهن، متعللة برجاءاتهن الحارة لمساعدتهن على جنون الأطفال وشغبهم. ومع أنني لم أكن أهتم بهؤلاء الجن النائمين نهاراً، إلا أنهم بدؤوا يقلبون ليلي رعباً تحت تهديد النسوة، فأصبحت أهدأ عندما تحل الظلمة، أجلس خائفاً ومترقباً ومتوجساً، فهم يترصدون خطواتي وأفعالي، يختبئون في العتمة في كل زاوية من البيت، ووراء كل سياج وشجرة، أصبحت أخاف الخروج إلى أرض الدار ليلاً، بل وأغمر نفسي عند النوم بلحاف ثقيل حتى ولو كان الجو حاراً خوفاً من تسللهم إلى الفراش..... ومنذ مبادرة النسوة الخاطئة بالاستنجاد بالجن، أصبح هؤلاء يخطفون البشر، وخاصة الأطفال، كي يلتهموهم أو يتركوهم مجانين.

تقول لي والدتي "خذ سطل الحليب إلى خالتك أم بشير، وقل لها إن والدتي اشتهت لك هذا الحليب الطازج، أسرع قبل أن يناموا فالساعة ستتجاوز الثامنة ليلاً بعد قليل".

وبيت خالتي أم بشير يقع على الطرف الثاني من الوادي الصغير، حيث يمر الطريق الترابي الموصل إليه بمحاذاة الغيضة، التي تقيم فيها الغولة بشكل دائم، تنتظر الفرصة لتقتنص في الليل طفلاً تشويه وتأكله. أتمرد على والدتي معلناً عدم رغبتي بالذهاب، لا أجرؤ على البوح بالسبب، مادامت هي قد اتفقت مع الغولة على معاقبتي. تلطمني وتعنفني زاعقة، يملأ صياحها الحارة، فأفضل عندئذٍ المرور من قرب الغولة المخيفة بدلاً من زعيق أمي العالي والمستمر. أحمل سطل الحليب وأذهب مترقباً ومتوجساً، وما إن أصل إلى السياج قرب الغيضة، حتى يخرج منه ظل أسود، كان كامناً يترقب قدومي، يتطاول ليمتد إليَّ يريد أن يلتقطني، أعرفه، إنه الجني الذي يرافق الغولة، ويخطف لها الأطفال. يقف شعر رأسي ويغلي الدم في عروقي، أرتعب وأركض، فأتعثر وأقع، ينقلب سطل الحليب ويسيل ما بداخله على الأرض، ويكاد الجني أن يطبق عليَّ بظله الناري..... وعندما أصل لعند خالتي أعطيها السطل فارغاً.

وفي كل يوم تقول لي والدتي "أوصل صحن اللحم المسلوق لعند خالتك أم بشير"، وفي اليوم التالي "سلة التفاح"، ثم "علبة الجبن الأبيض"، و" كيس الكشك المجروش"، و" تنكة الزيت"، و" وزجاجة عصير التوت الشامي"..... أهرب من زعيقها، وتصل الصحون والسلال والعلب والأكياس والتنكات والزجاجات إلى خالتي دائما فارغة، فقد كان الجني الذي ترسله الغولة ينتظرني عند السياج، يخيفني ويوقعني على الأرض ويأخذ ما بداخلها، فيما أنا أركض خائفاً. وخالتي المسكينة تعيدها لوالدتي مليئة في الأيام التالية بما كانت تشتهيه لها من الطعام المطبوخ، والخضار والفواكه، والحليب، والجبن، والكشك، وعصير التوت الشامي. وعندما تلتقيان تعاتب خالتي والدتي "لو لم نكن أخوات لزعلت منك، لماذا ترسلين كل هذه الأشياء مع الصغير وتتعبين نفسك".

ترد والدتي "هذا واجب عليَّ، أنا أرسل لـك هـدايا مليئـة بقـدر المحبة لك".

تنظر خالتي إلى وجه والدتي باستغراب فيمـا إذا كانـت جـادة أم لا! فهي لا يصلها شيئ، كلـه فـارغ، في حـين أتـسلل أنـا إلى بـستان الجيران، وأختفي فيه ريثما تذهب خالتي.

وهكذا كانت تتنازعني رغبات متضاربة، فحكايـات "أبـو حـسين "و" أبو خالد "عن الضباع والأفاعي والمُذرات تدفعني كي أكون رجـلاً شجاعاً في وقت مبكر، وتهديـدات جـدتي وعمـتي ووالـدتي بعقـاب الجن تجعل مني طفلاً مرتعباً، أختبئ خلف ثوب والدتي. ولكن ما أن تجاوزت العشر سنوات من عمري حتى بدأت كفة الميزان تميـل شـيئاً فشيئاً لصالح الشجاعة أكثر من الخوف، إذ إن والدي أخـذ يـصطحبني معه إلى الحقل، ولاسـيما في عطلـة الـصيف الطويلـة، حيـث كنـت أقضي النهار بطولـه هنـاك بعيـداً عـن البيـت. لم يكـن والـدي ودوداً بالكفاية معـي، فبعـد زوجـتين متتـاليتين، وجـيش مـن الأولاد عليـه إطعامهم، وبعمر تجاوز الستين، أصبح نزقاً وملولاً وقاسياً علـى غـير عادة شبابه، يشغله كسب النقـود لإطعامنـا دون أن يـستطيع الـسيطرة على الولادات المتتالية. في مثل هذه الضغوط لم يعد يتفـاهم معـي إلا بالضرب واللطم والصراخ والزعيق، ومع ذلـك كنـت أُسَـرُ بالـذهاب معه إلى الحقل، فهناك أشعر بحرية التسلق على الأشجار واللعب بماء الساقية والتقاط الحشرات مع أقـراني مـن الـصبيان، وأكتـشف العـالم معهم. أراد والـدي أن يـصنع مـني رجـلاً بـشكل بـاكر، ولكـن علـى طريقته الخالية من التعبير عن الود، فرماني في الحقول.

وذات مـرة كـان دورنـا في الـسقاية لـيلاً، طلبـتُ مـن والـدي مساعدته بدلاً من الاستعانة بأحد الأقربـاء أو الجـيران. سُـرَّ والـدي، وامتعضت والدتي محاولة إبداء الرفض "مازال صغيراً، الـرفش أطـول منه بكثير، وهو بالكاد يستطيع أن يحمله، والوقت ليلٌ في منتصفه".

انتصرَ والدي لي أمام إصراري واندفاعي، شعر برغبتي أن أكون رجلاً، فصمتت والدتي وهي تعرف أن لا رجاء من المعارضة معه.

الساعة الثانية عشرة ليلاً، يمضي والدي إلى حقلنا البعيد ليستلم دورنا في السقاية، فيما كان عليَّ أن أذهب إلى النبع. حضَّرت والدتي الزوادة لنا من أجل فطور الصباح بعد انتهاء السقاية، وضعتها في قطعة قماش كبيرة وربطتها بإحكام، ولم تنسَ طبعاً أن ترفق قطعتي طقم الأسنان الاصطناعي لوالدي مع الزوادة، بعد أن وضعتهما في كيس صغير، مع التوصيات المستمرة والملحة لي بعدم إضاعته. فقد والدي عدداً من أسنانه منذ زمن بعيد، وأكمل على البقية نصف طبيب أسنان، يزور البلدة في الأسبوع مرتين، بعد أن أقنعه بتصنيع طقم علوي وسفلي له. وبما أنه من المزعج إبقائه في فمه طوال الوقت فقد كان والدي يحتفظ بهما باستمرار في كأس من الماء، ليضعهما في فمه قبل تناول وجبة الطعام.

أذهب إلى النبع حاملاً رفشاً طويلاً على كتفي الأيسر وقد علقت عليه الزوادة، وأحمل بيدي اليمنى فانوساً عتيقاً صدئاً، بالكاد تصدر من وراء زجاجته المغبرة شعلة نور صغيرة. أنطلق إلى النبع وأنا مسرور لمسيري الليلي الأول وحدي، ترافقني حكايات "أبو خالد "و "أبو حسين"، ومن هناك أمشي على الدرب الممهدة بالأقدام بجانب الساقية، لمراقبة فتحاتها عند رؤوس البساتين والحقول.

مررت أولاً بالغيضة، كانت حالكة السواد ليلاً، وبدا سياجها وأشجارها أشد كثافة واتساعاً مما هي في النهار، لا صوت فيها سوى تلاعب نسمات الهواء بأوراق الأشجار، التي اندمجت مع موسيقى حشرات صرصار الليل. كانت الغولة هناك مستيقظة، تجلس فوق شجرة تين ذات أغصان واسعة، بجسدها الضخم الممتلئ المغطى بفرو أسود كثيف، الذي تبرز منه أشواك رمادية. كانت جالسة تتحين الفرصة لتنقض على فريسة من الحيوانات، فاجأها مرور أُنسيٌ صغير

بلحمه وعظمه ودمه، حضر إليها وحده، وتساءلت, من هذا الذي تجرأ على الدخول إلى قلب مملكتها ليلاً! ابتسمت وسُرَت لتغيير وجباتها من الحيوانات الصغيرة إلى لحم بشري طازج وشهي. قررت القفز عليَّ مباشرة، نفشت فروها وأشواكها، وجحظت بعينيها اللامعتين، ولكن سرعان ما أوقفها ضوء الفانوس، بينها وبين الضوء عداوة شديدة، حتى ولو كان بصيصاً من نور. قَرَرَتْ التريث مترقبة، ففي أية لحظة يمكن لعصفة هواء قوية أن تطفئه، وتنقض عليَّ، ولذلك أخذت تلاحقني بقفزات صغيرة، تتحين فرصة انطفاء ضوء الفانوس.

أغوص أكثر في البساتين، وكلما سرت عميقاً على الدرب الضيق بجانب الساقية يرتفع سياج العليق الكثيف أكثر، وتطول أشجار الحور الباسقة إلى السماء أكثر، وتنفرش أغصان شجر الصفصاف والزيزفون حتى تكاد تعانقني أكثر. وعند أول منعطف مظلم عميق بعد الجسر الخشبي القديم، تخرج المُذرة من مكمنها، تشتعل بمرأى أنسيٍ، تتساءل عن هذا الشاب الصغير الوسيم الذي لم تراه من قبل. أزعجها ضوء الفانوس، فهي معتادة على ظلال السياج تحت ضوء القمر، ولكن ما أزعجها أكثر وجود منافستها الغولة ورائي، تتحين الفرصة للانقضاض عليَّ.

نظرت كلٌ من الغولة والمُذرة إلى بعضهما شذراً، فالغولة شمت رائحتي قبلها منذ مروري بالغيضة، وهي تنتظر منذ زمن طويل وجبة طفل شهية، والمُذرة رأت أنني قد أصبحت في حرم ديارها قرب سياج الحقول، فهي أولى بالعبث معي، وربما تنجح أخيراً في أن أعشقها مادمت شاباً صغيراً بريئاً لم يختبر بعد عوالم النسوة الإنسية الشهية.

وفيما كانت الغولة تقفز ورائي قفزات صغيرة، ركبت المُذرة على الرفش الذي بدأت أحس به ثقيلاً على كتفي. جاء الجن

والعفاريت مـن كـل مكـان مـستطلعين مـا يحـدث، قفـزوا مـن وراء السياجات الكثيفة، ونزلوا من الأشجار العالية، وخرجوا مـن البيـوت المهجورة، وصعدوا من الآبار القديمة، ومضوا كلـهم خلـف الغولـة والمُذرة اللتين كانتا تلاحقانني..... أصـبحت أشـعر بوجـودهم كلـهم ورائي، أخذ إيقاع حركتهم يتنـاغم مـع اهتـزاز ضـوء الفـانوس الـذي يتأرجح بيدي على وتيرة سيري، تتـراقص ظلالهـم، تتلاعـب أمـامي وخلفي وحولي، تتطاول وتقـصر، تمتـد وتتراجـع. ومـع كـل خطـوة أسيرها أسمع بوضوح دبيب قفزات الغولة ورائي، وأرى يديَّ وقـدميَّ المُذرة تتطاول أمامي وهي تتمايل برأسـها مـن خلـف كتفـي، بحيـث اسـتطعت أن أرى كيفمـا التفـتُّ ابتـسامتها بفـم دون أسـنان وعينيهـا الجاحظتين الخارجتين من محجريهما. ازداد إيقاع التراقص، وصـلتُ إلى مرحلة لم يعد يمكـنني فيهـا تجاهـل مـا يحـدث حـولي، أخـذت حكايات "أبو خالد "و "أبو حسين "تختفي وراء غلالـة سـحرية أثارتهـا هذه الكائنات حولي.

وبدأ الخوف يتسلل إلى داخلي شيئاً فشيئاً، ثم أخذ يكـبر، ومـع إحساسي بازدياد كثافة الظلال تحاصرني، داهمني شعور قـوي بـأنهم في هذه اللحظة سيهاجمونني. وقف شعر رأسي وازداد خفقان قلـبي، تصبب العرق مـني غزيـراً، وشـعرت بـبرودة تـسري في جـسدي. إذ قفزت الغولة أمامي وسدت الطريق، وفي الوقت نفسه أطبقت المُـذرة عليَّ من الخلف، وضاقت دائرة تراقص الجان حولي.

شعرت بحرارة تسري في جسدي، واشـتعلتُ، لم أدر مـن أيـن أتت النار، من داخلي أم من الكائنات! دفعتني المُـذرة مـن الخلـف، تعثرتُ وسقطتُ في الساقية، أنطفئ الفانوس واختفى الضوء، أصابني رعب شديد، وأظلم كل شيء في وجهي، دون أن أتبين أين أنـا. وفي أثناء ذلك اندفعت الغولة نحوي، ولكن مع سقوطي مـرت مـن فـوقي واصـطدمت مباشـرة وبـشدة بالمُـذرة، حـدث شـرر مـضيء مـن

اصطدامهما ببعضهما. تماسكت قليلاً، مستغلاً فرصة التصادم والضوء الناتج عنه، وركضت لا ألوي على شيء، إلا أن يدي بقيت ممسكة بالرفش الذي سحبته من المياه وجررته ورائي بشكل غريزي، فهو آخر أداة أستطيع الدفاع بها عن نفسي. ركضتُ وركضتُ طويلاً، اجتزت الدروب كلها، خرجت من ظلمة البساتين إلى انفتاح الحقول، ولازلت أركض وأجر الرفش ورائي..... ووصلت أخيراً إلى حقلنا مقطوع الأنفاس غائب العقل.

"لماذا تأخرت..... وأين الفانوس؟ "يأتيني صوت والدي في الظلمة بصوت جامد، دون أن يحمل أي تعبير إنساني.

لم أرد. سألني من جديد "ما بك أخرس وأبكم؟".

أجبته "لا شيء".

"إذاً اذهب وراقب المياه أسفل الحقل".

اقترب الصباح، بدأت الخيوط الأولى لضياء الفجر تتسلل من الشرق وتبدد العتمة، انتهت ساعات السقاية الخاصة بنا وارتوى حقلنا كله. شعر والدي المُتعب والمُنهك من السهر والعمل بالرضى، فقد كانت المياه كافية في هذه المرة، أما أنا مازلت تحت تأثير الرعب، أشعر بالذهول، ولا أصدق أنني نجوت. لا يسألني والدي لماذا أنا ممتقع الوجه شارد البال، وما إذا ظهر الجن لي في الطريق وهل أصبت بالرعب منهم! قررت أن أبقى متماسكاً في داخلي ولوحدي، وأصمت، فأنا لست بحاجة له، ولا إلى طاسة الرعبة أو السيد مبروك.

انتهى العمل وشعر والدي بالجوع، طلب الزوادة، من حسن الحظ أنها مازلت معلقة بالرفش وجررتها معه بعد نهوضي المتعثر من الساقية. أُحضرها وقد أصابها بعض البلل، أفتحها وأفردها، أصف أرغفة الخبز، يحوي الأول زيتوناً، والثاني جبناً، والثالث لبنة، والرابع مكدوساً، يقطف والدي بندورة وخياراً من مزروعات الحقل، يغسلها في الساقية.

نجلس إلى الطعام الشهي على أرض جافة تحت شجرة التوت، يتنسم والدي الهواء البارد الصباحي المنعش. يطلب طقم أسنانه ليأكل، لا أجده! يُلح، أبحث ولا أجده! يصيح عالياً متسائلاً فيما إذا نسيته في البيت، لا، فالوالدة وضعته في الزوادة أمامي، ولكنني لا أجده! يثور والدي ثوراناً شديداً بقدر الجوع الذي عضه بنابه، ولا أجد طقم الأسنان، لا يستطيع أن يمضغ أي شيء من كل الطعام الشهي الذي أمامه من دونه! يبدأ الغليان في داخله، وعندما وصل إلى قناعة بعدم وجوده كان غضبه قد وصل إلى درجة الانفجار البركاني، يرمي بالزوادة بعيداً ويبدأ بضربي. نالتني لطمات قاسية أيقظتني من ذهولي وشرودي، طار الرعب من الجن وحل مكانه الرعب من غضب والدي المُرعد. نمضي إلى البيت صامتين، هو يكظم غيظه مؤقتاً، وأنا أترقب وأتوجس من الرجل الغاضب والجائع.

تستقبل والدتي الرجلين المتعبين و تقول لنا "سأغلي لكم الشاي، ولكن ماذا ترغبون اليوم على الغداء؟ دجاج مع البرغل، أم صينية بطاطا بقطع اللحم".

يثور والدي دون أن تفهم والدتي لماذا، تكتشف ضياع طقم الأسنان، فهمت بسرعة ضخامة المصيبة التي حلت بالبيت، تبدأ تحقيقات معي لا تنتهي، فقد وضعته بيدها في الزوادة، ولكن أين يمكن إضاعته؟ لا أعرف، تعثرت ووقعت، ولكنني لا أجرؤ على الحديث عن انقضاض الجن عليَّ، لن يصدقني أحد، فوالدتي هي التي تتعاون معهم، ثم أنني كنت قد قررت أنه ستكون تصفية حساب شخصية بينهم وبيني، دون تدخل أي أنسي. والدي جائع، والغضب مع الجوع أمرٌ منفلت لا يُضبط، ولذلك كان لطمي وشتمي تنفيساً لغضب كبير يتنامى مع ازدياد الجوع لديه، تحول والدي إلى الرجل الجائع والرجل الغاضب معاً.

توافد الجميع إلى بيتنا، أبناء أعمامي، وأبناء عماتي، وأبناء

أخوالي، وأبناء خالاتي، وجاء أولاد الجيران أيضاً، مصيبة كبيرة حلت في البيت، كبير العائلة جائع، ولكنه لا يستطيع أن يأكل، فقط يمكنه شرب الشاي. تراكضت النسوة القريبات والبعيدات، وقفن جانب والدتي يواسينها، اقترحن عليها "اشتروا له كعكاً، وليغمسه في الحليب الساخن، يستطيع بهذا إسكات جوعه وغضبه، ريثما يجدون له طقم الأسنان الضائع".

اضطر والدي ممتعضاً أن يبتلع الكعك المغموس بالحليب الساخن مثل الأطفال الصغار، ابتلعه في الغرفة لوحده بالسر بعد أن أغلق على نفسه الباب، وهو يشعر بإهانة رجولته، فيما كان الشباب مجتمعين في أرض الدار يتناقشون في أفضل الحلول لإيجاد طقم الأسنان. وجد كبير العائلة وزعيمها أن الجميع سينظر إليه ويعدّه عجوزاً، وربما خَرِفاً، وهو من قرر أن يموت رجلاً رافع الرأس، وهو يسقي الأرض ليلاً حتى آخر يوم في عمره. كيف يحدث له هذا وهو الذي أوقف عشرات المهربين على الحدود في شبابه عندما كان دركياً، يستسلمون بسرعة عندما يعرفون بوجوده في الدورية. وهو الذي انضم فيما بعد إلى الجيش ووصل إلى رتبة رقيب، وحرر تلاً من الأعداء في الجبهة مع بضعة جنود أبطال، ويروي كيف أن سلاح "السونوبال "قد حَميَ فلم يعد يطلق الرصاصات لشدة سخونته في منتصف الطريق إلى رأس التل، فبال عليه في قلب المعركة وبرد قليلاً، واستمر في القتال حتى النصر. وهو الذي تزوج امرأتين وأتى منهما بجيش من الأولاد دليلاً على رجولته..... كيف يحدث هذا ؟ كيف يحدث أن ينزوي رأس العائلة، وزعيم القبيلة، والبطل قاهر المهربين، ومحرر التل وساحر النساء، في زاوية غرفة، يأكل بالسر الكعك بالحليب، فيما الشباب مجتمعون في الخارج يروون حكايات تكسير ثمار الجوز القاسية بأسنانه، بل وطحن الحجارة بها.

انتظم الشباب في مجموعات مُسلحة، أخذت تذهب وتجيء

على الـدرب جانـب الـساقية، بـدءاً مـن النبـع، ومـروراً بالغيـضة ثم البساتين، ووصولاً إلى الحقول، وهم ينقبون الطريـق والـساقية شـبراً شبراً بحثاً عن طقم أسنان الرجـل الغاضـب. وأخـذت النـسوة تحلـب بهمـة ونـشاط البقـرات، والغنمـات، والمـاعز، وحـتى الـدجاجات والأرانب، لتأمين الحليب للرجل الجائع، الـذي لا يـستطيع أن يأكـل الكعك بدونه. ترجع الدوريات المسلحة للـشباب، يقـدمون تقريـرهم عن نتائج البحث والمـسح لوالـدتي ولأخـتي الحـسناء الـتي نـضجت وأصبحت في سن الزواج، لم يجدوا سوى بقايا الفانوس المكسور في قعـر الـساقية، فيمـا النـسوة تـدخل وتخـرج حاملـة سـطول الحليـب وطناجره، بل وسافرت مجموعة منـهن في مهمـة رسميـة إلى المدينـة لشراء كميات كبيرة من الكعك، إذ إن الوضع الميداني أصبح سـيئاً لا يُحتمل، وبحاجة إلى معونات خارجية.

أصبح الجميع غاضبين في البلدة مثل الرجـل الغاضـب، لكـن دون أن يكونوا جائعين مثله، ما عداي أنا مسبب الأزمة الكبيرة على مـستوى البلـدة، فلم أكن غاضباً. تحول غضب الجميع نحوي، فلم تعد تنتـهي لا التحقيقـات ولا الإهانات ولا الضرب، بحيث أصبح كـل مـا حـولي جحيمـاً لا يطـاق. ومن أجـل المـشاركة الحميميـة بتحمـل المـصائب مـع عائلتنـا فقـد أصـبح الجميع يأكل الكعك بالحليب مع والدي، مُدت الموائد أمـام بيتنـا، وضـعوا عليها طناجر، وتنكات، وسطول، وأبـاريق، وأواني، وقـدور، وصـحون، وكؤوس، وفناجين، كلـها مليئـة بالحليـب. ولكـن المعُـزين كـانوا خبثـاء، يتناولون الطعام في بيوتهم، ثم يأتون ويتسلون بأكل الكعـك بالحليـب مجانـاً في المضافة أمام البيت، التي رُفعـت عليهـا أعـلام البلـدة الوطنيـة. وبحجـة التخفيف من مصيبة الرجـل الجـائع، اسـتغل المناضـلون الوطنيـون الفرصـة لشتم الاسـتعمار وأسـنانه ـ إذ لم تولـد بعـد الإمبرياليـة وأنيابهـا ـ، واسـتغل الشيوخ المناسبة لإظهار رحمة مـن في الـسماء، فقـد كـان مـن الممكـن أن أُضيع رأس والدي بدلاً من أسنانه.

وصل الشباب إلى قناعة بعد التحقيقات المستمرة ومسح مناطق الغيض والبساتين والحقول أن طقم الأسنان حصلت عليه أفعى كبيرة، واستعاضت به عن نابيها السامين، لبسته وأخذت تأكل به ما لذ وطاب من أطعمة المطابخ الشهية، التي تتسلل إليها في هدأة الليل، إضافة للفواكه التي تقطفها من الأشجار مباشرة. وعندما جاء طبيب الأسنان في زيارة للبلدة، قرر تصنيع طقم أسنان جديد خلال يومين. وكان هذا الحل الأمثل النهائي للرجل الجائع والغاضب، بدلاً من الأزمة التي عاش فيها بيتنا والحارة والبلدة، بل ووصلت أصداؤها إلى المدينة، إضافة إلى التكلفة العالية لإطعام أفواج الغاضبين الكعك بالحليب.

اشتعل الحقد في داخلي ضد الغولة والمُذرة، وبالذات المُذرة فهي التي دفعتني في الساقية، واستلت طقم الأسنان من الزوادة بعد أن شاهدته فيها وهي تركب على الرفش. ربما أرادته لنفسها، فأنا أتذكر في أثناء عبثها معي أنها كانت تضحك باستمرار، وبدا لي فمها دون أسنان..... هكذا أظن. ولكنني سأتأكد فيما بعد أنها لم تحصل عليه، إذ يبدو أنه سقط منها في الساقية أثناء اصطدام الغولة بها، ولأنه خفيف الوزن فقد طفا فوق المياه، التي ساقته في مجراها الطبيعي نحو حقلنا، وهناك سار إلى إحدى مساكب المزروعات، التي كان يتم سقايتها في لحظة وصوله. وعندما انتهى من رحلته المائية الطويلة استقر مع الماء فيها، فبقي مغروزاً بالطين، الذي يبس وتحول إلى تراب ناشف، وبقي هناك بعيداً في منطقة لم تفكر الدوريات المسلحة حتى بالوصول إليها.

تحول والدي من الرجل الغاضب إلى الرجل الصامت بعد انكسار كرامته الفموية، الشخصية التي سيتلبسها حتى نهاية حياته، وقد أخذ حذره من تسليم طقم أسنانه الجديد إلى أي شخص كان، حتى ولو كانت والدتي، فوضعه في جيب داخلي مغلق بسحاب، غير

آبه لإمكانية انكساره في أثناء حركته. وأنا أيضاً تحولت إلى الشاب الصامت بعد كل الضرب والإهانات والسخرية التي نلتها في الأيام السابقة، كان الحقد على الغولة والمُذرة ورفاقهما الجن يغلي في داخلي، ينتظر شرارة للانفجار، وأتحين الفرصة للانقضاض عليهم جميعاً.

بعد عدة أيام من الأزمة العالمية التي أثارها الرجل الغاضب، كنت أعمل في الحقل إلى جانب والدي، الرجل الصامت، نقلب التراب حول مزروعات الخيار والبندورة والكوسا، وإذ بي ألمح شيئاً بنياً مع بروزات بيضاء مُغبرة في التراب، أمد يدي وألتقطه، تصيبني دهشة غريبة، طقم الأسنان القديم في جيبه المهترئ، أتلمسه فإذا به سالماً بقسميه العلوي والسفلي، ماعدا أنه مغبر. لوهلة أولى شعرت بالسرور، فحملته تحت تأثيرها وركضت به نحو الرجل الصامت، وبدلاً من أن يبتسم لي تحول الرجل الصامت إلى الرجل الغاضب من جديد، وتذكر كل المهانة التي سببتها له أمام البلدة كلها، وعاد ليثور ثورته واقترب ليضربني، ولكن هذه المرة كان يحمل المنكوش الذي يعمل به، وإصابته خطيرة قد تؤدي إلى الموت، فهربت من طريقه مسرعاً بعد أن رميت طقم الأسنان.

ذهبت إلى البيت، حَضَّرتُ الرفش الكبير ذي الشفرة الحادة، وعلب كبريت، وقطع قماش مبللة بالكاز والمازوت..... وعندما جاء الليل، توجهت بثقة شديدة إلى الغيضة، دخلت إليها دون أي ارتعاشة خوف، شاهدت الغولة تجلس على شجرة التين، وقبل أن تبتسم فرحةً لعودة فريستها القديمة دون ضوء فانوس، كنت قد عاجلتها بضربة قوية حاسمة من رفشي الحاد، أصابها عند رقبتها، فسقطت أرضاً من شدة الضربة المُفاجأة، وقعت مضرجة بدمائها السوداء. انتظرت مني أن أضربها الضربة الثانية، لتستيقظ وتستعيد قواها، لكنني كنت أعرف أن من لا تقتله الضربة الأولى فلا فائدة من ضربه ثانية. ولكن حتى أنهي قوتها الكامنة

وسحر كوابيسها وعدم تجدد قوتها مرة ثانية أشعلت فيها النار، التهب فروها وأشواكها الكثيفة بسرعة شديدة، صرخت وزأرت وتلوت. استنجدت برفاقها الجن، قفزوا من وراء الأسيجة الكثيفة، ونزلوا من الأشجار العالية، وخرجوا من البيوت المهجورة، وصعدوا من الآبار القديمة، اتخذوا أشكالاً غريبة متنوعة لإخافتي في محاولة لإنقاذ الغولة، كائنات طائرة، أجساد حيوانات ضارية، أجساد نصف بشرية ونصف حيوانية، بشر بوجوه متطاولة وبعين واحدة. كنت محتاطاً بالرفش بيدي ومحمياً بالنار المشتعلة بالغولة ورائي، فما أن اقترب الأول حتى أصبته بضربة شديدة، ودون أن أعيدها حملته برفشي وألقيت به بالنار، فازداد اشتعالها. وبدلاً من انتظار هجوم التالي منهم اندفعت نحوهم، وهاجمتهم، فأذهلتهم المفاجأة، ولم يكن لديهم الوقت لإبداء ردة فعل، فقد كانت المبادرة بيدي. أخذت ألقي بهم واحداً وراء الآخر في النار، ارتفع اللهيب عالياً وأخذ يزحف وراءهم، يبدو أن للنار ثأراً قديماً ضدهم، تدافعوا هاربين، ولكن النار الشديدة كانت قد أحاطت بهم وحاصرتهم في السياجات والأشجار، والتقطتهم واحداً وراء الآخر، ضجت أصوات استغاثاتهم، ولم يعد أمامهم من منفذ إلا الموت والاختفاء نهائياً، لم تترك النار أحداً يهرب.

لمحتُ المُذرة تنظر بعيون مذهولة من بعيد إلى الغولة ورفاقها الجن يشتعلون في النار، يتلوون فيها ويصرخون، وما أن التقت نظراتها بنظراتي حتى لاذت بالفرار، فركضت وراءها. كانت بطيئة بسبب الرعب والمفاجأة اللذين أصابها، وكنت أسرع منها بعزيمة لا تلين للقضاء على جميع فلول الجن بكل أشكالهما، وَصَلَتْ إلى المكان الذي دفعتني فيه، هنا سآخذ ثأري. وفيما كان الرفش يصعد لينهال عليها حاولت محاولتها الأخيرة للهروب، امتدت يداها ورجلاها طويلاً أمامها ليسحبا جسدها سريعاً، ولكن الرفش كان أسرع إلى جسدها، أصابها ولن يمهلها، فلقد ألقى بها إلى نار السياج

المشتعل حولها، بكت أغنية حزينة شجية أخيرة تثير القلوب، ولكنني كنت قد أصبحت أصمّاً. التهبت واختفت، حتى أنني لم أجد رمادها.

خرج الرجال والنساء والأطفال من بيوتهم، يشاهدون النيران مشتعلة في السياجات، والأشجار العالية والمعرشة، وفي البيوت المهجورة، وفي الآبار القديمة، سمعوا صراخات مبهمة واستغاثات غير مفهومة، لم يفهموا ما يحدث..... ولكنهم اكتشفوا في الأيام التالية أنه لم يبق في البلدة لا غولة ولا مُذرة ولا جن. أحست النسوة بخطئهن الكبير بالاستنجاد بالجن للتغلب على حيوية أولادهن، وشعر الأطفال بالأمان، أصبحوا يوصلون سطول الحليب، وصحون الطعام المطبوخ، وسلال التفاح، وتنكات الجبن الأبيض، وأكياس الكشك المجروش، وتنكات الزيت، وزجاجات عصير التوت الشامي، كلها ممتلئة بالكامل إلى خالاتهم دون أن يسقط منها شيء.

ولسوء الحظ بدأت الأمطار تنقطع طويلاً، وأخذت السواقي تجف، إذ إن العواصف الغبارية القادمة من الصحراء أخذت بطريقها الأخضر واليابس. ماتت الحقول، لم يعد هناك سواقٍ لترويها، لم يعد يذهب الفلاحون بالليل ليسقوها، لا ماء هناك، فقط غبار، ولم يعودوا يحتاجون إلى حكايات المُذرة التي احترقت نهائياً. وصلت الكهرباء إلى البلدة وجاء معها التلفزيون، فاختفت معهما المساحات الليلية الواسعة، لم يعد هناك لا جان ولا ضباع ولا أفاعي، وستختفي الحكايات مع اندثارهم، وسيختفي معهم كل الذين كانوا يملكون ذاكرة المغامرات والخيال، وسينسى الناس أنه كانت هناك غيضة وبساتين وحقول، ومن تبقى أضحوا دون ذاكرة وحنين، أو بذاكرة ممسوحة، وسرعان ما حلت مكانها ذاكرة تلفزيونية.

وبدلاً من والدي و" أبو حسين "و" أبو خالد "سيحتل المكان شخصيات جديدة، شيوخ يقفزون من المحطات الفضائية الغبارية، وحرامية مع حراسة مشددة ينزلقون من سيارات شبحية سوداء. سيقفز

الشيخ حسني من محطة أولى، وستقفز الشيخة حسنية من محطة أخرى..... ومنذ ذلك اليوم لن تتوقف عواصف الغبار عن الهبوب الشديد على بلدتي.

* * *

الشيخ حسني - الشيخة حسنية

اختفى الجن والغولة والمُـذرة مـن البلـدة ومـن الكـوابيس بعـد أن احترقوا، فتبلبل الخوف، ونشفت السواقي بعد أن غـاب عـشق الغيـوم، فاختنقت الغيض والبساتين والحقـول مـن العطـش، وبهتـت المـساحات الليلية الواسعة، فلم تعد مبهمة..... وهكـذا انتـهت الحكايـات، وماتـت معها الأحلام والذاكرة والحنين. أخذ التلفزيون يعرض حكاياتـه المقيتـة، حكايـات دون عـشاق يلتقـون قـرب النـهر، فتحنـوا علـيهم أشـجار الصفـصاف والزيزفـون لتـسترهم عـن العيـون، حكايـات دون الرجـال الشجعان، الذين يواجهون الـضباع والأفـاعي والمُـذرات. والتلفزيـون لا يسمح إلا بالصمت، هو فقط يتحدث ونحـن نـصمت، لا يـستطيع أحـد أن يسأل أمامه، كما كنا نقاطع "أبو خالد "و" أبو حسين "بأسـئلة الدهـشة، فيملؤون الحكاية بالإثارة والخيال وفق رغباتنا. الآن، نحـن نجلـس أمـام التلفزيون، ونصمت.

لم تعد الأمطار تهطل في البلدة إلا نـادراً، تهطـل علـى الأغلـب فوق شارع العشاق الذي شقوه مـن مـدخل المدينـة، ليجتازهـا حـتى نهايتها عند التلال. هنـا لازال الـشباب والـصبايا يتحـدون العواصـف الغبارية القادمة بكثافة من الصحراء، يمسكون بأيدي بعضهم بعضاً في النزهات، يتمشون ويعشقون المطر والحنين، ويحلمـون بليـالي حـب صافية بنقاء القلوب.

وفي ذات عاصفة غبارية كثيفة وشـديدة، قفـز إلى بلـدتنا الـشيخ حسني من إحدى المحطات التلفزيونية الفضائية الغبارية، الـتي تعمـل على النفط بدلاً من التيـار الكهربـائي، محطـة تبـث بـالألوان الزاهيـة صور لرجال عابسين ومتجهمي الوجه لا يبتسمون أبداً، بلحى قـصيرة وطويلة، ناعمة وخشنة، كثيفـة ومجدولـة، ممـشطة ومـشعثة. رجـال

لوحتهم الشمس الصحراوية، فاختبأوا في الشاشة تحت غطاء أبيض على الرأس، ينسدل على جانبي الوجه، وينزاح مع كل حركة من أيديهم وهي تهدد، ومن رؤوسهم وهي تصرخ وتشتم، وما يكاد أن يسقط حتى يعيدونه إلى مكانه، لينزاح من جديد. ومن كثرة انزياح الغطاء أخذ المشاهدون يهتمون به أكثر من التهديد والصراخ والشتم، يتتبعون ويترقبون انزياحه، ويمسكون قلوبهم بأيديهم خوفاً من سقوطه. وما يكاد أن ينزاح حتى يصرخوا جميعاً أمام الشاشة "انتبه يا شيخي، يكاد أن يسقط"، فيما الشيخ منفعل وغاضب، يصرخ ويرفع يديه مهدداً متوعداً أحداً ما بزئير عالي، حتى يكاد يحطم الشاشة ويخرج إليه، دون أن يعرف المشاهدون من هو! وعندما لا يعرفون على من يصرخ، يظنون عندئذٍ أنه غاضب جداً لانزياح غطاء رأسه الأبيض باستمرار..... من هذه المحطة التلفزيونية قفز الشيخ حسني، وذهب مباشرة إلى بيت يقع إلى الجنوب الشرقي من مزار الشيخ ياسين، وأقام فيه.

وقفزت الشيخة حسنية أيضاً من محطة تلفزيونية غبارية، ولكنها تبث دون صوت وصورة، فقط مساحة سوداء، حتى لا يستطيع الرجال رؤية صورة الآنسات الداعيات الغباريات العامرات بالإيمان فيها، وسماع أصواتهن المثيرة بألحانها وإيحاءاتها الشجية، مساحة سوداء يمكن التقاطها بنظارات إلكترونية عاتمة خاصة، تعمل بطلاسم تعويذات سحرية، ذات شيفرة شديدة التعقيد، توزع بحذر وسرية على مُريدات تقيات مُلتزمات، وتتعطل إذا ما لبسها الرجال، أي رجال..... من هذه المحطة التلفزيونية قفزت الشيخة حسنية، وذهبت مباشرة إلى بيت يقع إلى الجنوب الغربي من مزار الشيخ ياسين، وأقامت هناك.

حضرت ليلاً سيارات رمادية مغبرة صناعة أمريكية إلى منزل الشيخ حسني، نزل منها رجال بجلابيب بيضاء ولحى طويلة مشعثة،

وحملوا منها إلى الداخل صناديق رمادية خفيفة. وحضرت أيضاً سيارات سوداء نظيفة صناعة ألمانية إلى منزل الشيخة حسنية، نزل منها رجال ببذلات كحلية أنيقة ولحى قصيرة ناعمة، وحملوا منها إلى الداخل صناديق سوداء ثقيلة. هذا ما رواه لي من كان ماراً بالمصادفة بالقرب من هذين المنزلين في تلك الليلة.

تغلغل الشيخ حسني سريعاً بين أهالي البلدة عن طريق مناسبات الفرح والعزاء، تجمع حوله عدد من الشباب الذين يبحثون عن سلطة روحية تصلهم بالسماء، إضافة إلى عدد من العاطلين عن العمل والمتسكعين في الشوارع، المستعدين للانضمام إلى أي شخص يملأ جيوبهم، أو بطونهم، أو فراغهم، أو عقولهم المسطحة، أو أحاسيسهم النزقة. وتحولوا جميعهم إلى مريدين له، لا يمكن تمييز الوصوليين منهم عن الباحثين عن الصفاء الأصولي، فكلهم يلبسون مثله جلباباً أبيضَ قصيراً، ويرخون لحاهم الغضة التي مازالت طرية، وينتعلون صندلاً صحراوياً تبرز منه شقوق أقدامهم. أحد الشباب الناقمين، الذي شعر بالملل والجفاف والعبث من رفقة الشيخ حسني وغادره بعد فترة، روى واحدة من أولى المحادثات التي جرت بينه وبين مريديه:

سألهم الشيخ "لماذا لا يخاف البشر في هذه البلدة من الجن والشياطين؟".

أجابوه وقد علت الدهشة وجوههم "لا يوجد لدينا هنا شياطين، أما الجن فقد قضى عليهم شاب صامت، انتقاماً مما عاناه بسببهم من الرجل الغاضب، ومن ورائه الناس الغاضبون. كان حقده عليهم شديداً، فحرقهم وحرق على رأسهم المُذرة والغولة".

فوجئ الشيخ بحديثهم "من أين أتيتم بالمُذرة والغولة؟! هذه خرافات الجاهلية، يوجد فقط جن وشياطين وتقابلهم ملائكة، لا

تعيدوا ذكر هذه الخرافات أبداً، فهذا كفرٌ. ثم كيف تحرقون الجن! هذا لا يجوز شرعاً إلا بعد أن تستنفذوا معهم فرص الهداية لجعلهم مؤمنين".

من جديد يستغرب المريدون، تساءلوا فيما بينهم "عن ماذا يتحدث الشيخ حسني؟ عن أي جنٍ وأية هداية!".

سأل الشيخ حسني من جديد وقد اكتسى وجهه مسحة من الغضب "كيف تعيش بلدتكم دون جنٍ؟ هذا حرام، ينبغي أن يكون لكل شخص قرين من الجن...... سأحضرهم أنا من الصحراء".

ولكن يا شيخنا لم يعد لدينا غيض وسياج عليق وأشجار باسقة كثيفة، لم يعد لدينا بيوت مهجورة وآبار قديمة، كما إن المساحات الليلية أصبحت مضاءة بالكهرباء، فأين يسكنون؟".

"هذه أول مرة أسمع بهذا! أي غيض وسياج عليق وأشجار تتحدثون عنها، عشائر الجن لا تسكن إلا في المقابر والمزابل، ثم ما علاقة الجن بالليل؟ الجن يتحركون في النهار مثل الليل، يأكلون، ويشربون، وينامون، ويعملون، ويتناكحون، مثلكم. بلدتكم تعيش في الجهل والخرافات، وأنا سأنقذها من هذا الانحطاط الجاهلي".

"ولكن الناس هنا مرتاحون دون جن يخيفهم، يعيشون بشكل طبيعي ويمارسون أعمالهم دون خرافات، فلماذا نُعكر حياتهم بأشياء غريبة؟!".

"لا تكفر يا بني، الجن مخلوقات مثلنا، وإن كانت هي من نار ونحن من طين، فلهم الحق بالحياة الطبيعية، ونحن بحاجة إليهم. ثم من سيحضر إلى هنا هم من الجن المؤمنين فقط، ولن نسمح للجن الآخرين بالدخول إلى البلدة، سواء كانوا من الجن الكفرة، أو من الجن المرتدين والباطنيين، أو جن بلاد الجبال العالية، أو الجن المسيحيين واليهود، أو الجن البوذيين والهندوس، أو من الأسكيمو. سيحضر الجن المؤمنون، ومن الصحراء فقط".

همهم المريدون بكلمات غير مفهومة، وتساءلوا بين أنفسهم ماذا يعني هذا، جن مؤمنون وجن كفرة! ابتسم المريدون الوصوليون في سرهم، وليأتِ أيضاً جن يشربون الخمرة ويثملون، وجن يلعبون القمار، وجن لوطيون، ما يهمنا من هذا! فليخرف شيخنا بقدر ما يريد مادمنا نملئ جيوبنا وبطوننا وفراغنا. أما المريدون الباحثون عن السماء فقد بدء الشك يداخلهم منذ هذه اللحظة، هم جاؤوا من أجل الصفاء الأصولي، وليس من أجل هذه التعقيدات الجنية.

وروى لي الشاب الناقم أيضاً أنه في ذات ليلة عاصفة بالغبار بعد تلك المحادثة بين الشيخ حسني ومريديه، وقبل أن يصبح ناقماً بالكامل، ذهب إليه من أجل الحصول على رُقيَة لمعالجة والدته المريضة وفق نصائحه، ولكنه فوجئ بمنظر غريب في بيته، شاهده من الباب المشقوق لأحد الغرف. كان الشيخ حسني جالساً على كرسي مريح يقلب بين المحطات الفضائية في التلفزيون بجهاز الكونترول، وفجأة توقف عند واحدة منها وضغط على رقم شيفرة سري، فانفتحت الشاشة على كائنات هلامية دبقة خفيفة بأجنحة شفافة، كائنات غير واضحة المعالم بسبب تحول أشكالها بين لحظة وأخرى، طارت منها بكثرة، وكبرت أحجامها في فضاء الغرفة، ومن ثم توجهت إلى النافذة وغادرت المنزل، واختفت دون أي شكل. ثم تحول الشيخ حسني إلى محطة ثانية، وضغط على رقمها السري، فانزلقت منها إلى الغرفة كلاب وقطط سود، وأفاعٍ وعقارب وإخطبوطات وسلاطعين وبراغيث، تضخم حجمها بشكلٍ مرعب، تسلقت النافذة وقفزت منها إلى الخارج. ومن شاشة المحطة الثالثة خرجت كائنات بأجساد نصف بشرية ونصف حيوانية مشوَهة مرعِبة، بأذناب أفاعي وقوائم حمير ورؤوس ذئاب، تخرج الأبخرة من فمها وأنفها، ويدفع مرآها للاشمئزاز والتقيؤ، تضخمت وقفزت من النافذة..... خرجت جميع هذه الكائنات من التلفزيون إلى البلدة واختفت فيها، فيما نهض الشيخ حسني وشَغَّل جهاز التكييف،

للتخلص من الرائحة النتنة والكريهة التي ملأت الغرفة.

يكمل الشاب الناقم حكايته أنه عندما انتهى الشيخ حسني من عمله اختار محطة فضائية، وبدأ فيها برنامج بشاشة واسعة مضيئة وملونة، كُتب عليها "برامج أمريكية مخصصة لأصدقائنا في البلاد الغبارية ضمن مشاريع الإنماء والتطوير لعقولهم". ظهر فيها مجموعة رجال ونساء عراة بالكامل، بدؤوا حفلة قفز جنسية على بعضهم دون تمييز بين ذكر وأنثى، في كتلة متماوجة من اللحم البشري الشهواني المندلق المتداخلة في بعضها، تصدر منها موسيقى تأوهات ولهاث محموم جماعي. انفصل بعض الرجال والنساء عن الكتلة لدقائق وسألوا الشيخ حسني "هل ترغب يا شيخ أن نخرج لعندك، لنتابع حفلتنا في غرفتك؟".

يجيبهم "ليس لدي الليلة مزاج لمشاركتكم اللعب، سأكتفي بالمشاهدة".

وعندما أراد الشاب الناقم الانسحاب بهدوء، تعثر بشيء ما فأصدر صوتاً، التفت الشيخ حسني وشاهده من شق الباب، وتوقف الرجال والنساء في الكتلة المندلقة ونظروا جميعاً إلى القادم الجديد، فنهض إليه بهدوء وثقة وأمسك بيده داعياً إياه للدخول.

سأله الشاب الناقم "رأيت يا شيخ حسني أشياء غريبة ومخيفة تخرج من التلفزيون".

لم يدعه الشيخ يكمل "لا تخف هذه عشائر الجن، ستسكن في المقابر، ولن تؤذي البشر".

"ولكنني شاهدت أفاعي وإخطبوطات وعقارب!".

"إذا سببت الأذية لأحد من الناس فسوف أعطيه رُقيَّة خاصة لمعالجته، أنا مضطر لإحضار العشيرة الجنية بكاملها، المؤمنين والكفار فيها، على أمل أن يهتدي القسم الثاني منها هنا..... وبما أنك حضرت، ادخل وشاركني مشاهدة الحفلة في التلفزيون".

فصرخ المشاركون في الحفلة من شاشة التلفزيون "تعال وادخل لعندنا، يبدو أنك شاب قوي جنسياً، ستشعل المجموعة باللهاث والطعنات القوية".

"لا، والدتي مريضة، وأنا ذاهب لأبحث عن طبيب لها".

وتحولت عندئذٍ إلى شاب ناقم بالكامل.

انتشرت أخبار الجن المؤمنين والشياطين الكفرة في البلدة عن طريق المريدين، وقد استقر أغنياؤهم في المقابر وفقراؤهم في المزابل. أخذوا يتجولون ليل نهار في البلدة، يثيرون المشاكل أينما تحركوا، أثاروا النزاعات بين الأقارب، وأشعلوا الحرائق في البيوت والحقول والبيادر، وخربوا الطرقات، وحطموا واجهة المحلات، وسرقوا النقود المخبأة تحت البلاطات، واغتصبوا فتيات في زوايا الشوارع وأطراف الحقول، ونشروا شرب الخمرة ولعب القمار، وهدموا مئذنة الشيخ ياسين. لم ير أحد من أهالي البلدة الجن والشياطين، إلا أن مريدي الشيخ حسني أشاعوا أن هذه الكائنات هي التي قامت بهذه الأفعال.

ثم أكد المريدون أن الحمير تنهق والكلاب تعوي حين تشاهد الجن بأشكالهم الهوائية الخفية، وهو ما لا يستطيع البشر رؤيته. كانت البلدة مليئة بالحمير، وفي كل بيت منها تقريباً يوجد عددٌ منها لضرورات النقل من الحقول ـ ولا يدخل هنا في الاعتبار أصحاب الرؤوس اليابسة من البشر ـ. لم ينتبه أحدٌ أبداً من قبل لنهيقها المزعج، لا في الليل ولا في النهار. أخذ الفلاحون يغيرون الآن طريقهم إذا ما نهق حمارهم، فهذا يعني أن جنياً قطعه عليهم، ولا ينبغي إزعاجه أو مواجهته، بل إن بعضهم كان يؤجل العمل في الحقل عند انسداد الطرق كلها بالجن وفق نهيق حميرهم، التي أصبحت خبيرة بمعرفة هذه الكائنات اللامرئية التي تسد الطرق، ويضطرون للعودة إلى البيت، مؤجلين العمل لأيام أخرى لا تكون فيها الطرق

مقطوعة. لم يعد الفلاحون يعرفون الآن إذا كانت حميرهم تنهق مغازلة لرؤية أتان هيفاء أو جنية سوداء تتفوق عليها جمالاً، ولكن سرعان ما ارتفعت أسعار هذه الحيوانات الذكية التي لم تقدر قيمتها سابقاً، وأدركوا أن من أطلق عليها صفة الغباء كان مخطئاً خطأ جسيماً، حتى جاء الشيخ حسني وصححه.

ثم أخبر المريدون أن الشيخ حسني لديه رُقى سحرية وخيوط تُعقد، يُخرجها من صناديقه الرمادية التي أحضرها خصيصاً من بقاع بعيدة مقدسة. سألهم الناس "وماذا تفيد هذه الرقى؟".

يجيبونهم "أغبياء أنتم وتعيشون في الجهل، ينبغي أن تعرفوا أن لها قداسة سحرية اكتسبتها بطلاسم خاصة من بلاد الأصول، تُبعد شر هؤلاء الجن والشياطين عن الناس، وبشكل خاص عن الأزواج، فتحل مشاكل الصدود النكاحية التي يسببونها لهم".

توافد العديد من أهالي البلدة إلى الشيخ حسني ليشتروا الرقى السحرية التي تحل المشاكل النكاحية لديهم، وخاصة أولئك الرجال الذين تصدهم جاراتهم عن القفز عليهن في غياب أزواجهن في الحقول، وتلك النسوة اللواتي يحلمن بجيرانهم الرجال عندما يغفوا أزواجهن ليلاً إلى جانبهن متعبين.

وفي إحدى الجلسات تحدث الشيخ حسني لمريديه عن أن الجان الأول خُلِق من نار السموم، ومنه وُلِدت زوجته، كما وُلِدت حواء من آدم. وعندما غشى هذا الجان الأول زوجته باضت له عدة بيضات، فلما فقست تفلق من كل واحدة أحد أنواع الجن. تحدث المريدون عندئذٍ عن القوى السحرية الكامنة في البيض، والتي لا يستطيع أحد أن يوقظها إلا الشيخ حسني بطلاسمه وبركاته. بدأت سلال البيض تحضر إليه باهتة بقوى كامنة، وتخرج من عنده مرصودة، تشع ضياءً نورانياً ذهبياً بمجالات ترددية سحرية، بعد أن يحرضها بطلاسمه.

توزع البيض المرصود بتعليمات الشيخ حسني في أماكن محددة لدى الناس المرغوب التأثير فيهم بإشعاعاته وطلاسمه السحرية، مشترطاً أن يكون البيض الخاص بعلاج القضايا النكاحية مخفياً عن العيون ولا يعلم أحد بوجوده، ولذلك تم إرفاقه بجهاز كاتم للضوء الذي يشع منه، حتى لا يتم اكتشاف مكانه. وقد تطلب توزيع هذا البيض الخاص في الأماكن المحددة الاستعانة بكادر مميز من اللصوص، الذين لديهم خبرة في التسلل إلى البيوت ليلاً، لوضعها في غرف النوم والحمامات، وبشكل خاص في الخزائن بين الملابس، وتحت الأسرة، وعلى الرفوف وراء الصحون، وفي صناديق وأواني المؤونة. وقد بذل اللصوص مجهوداً كبيراً لإيصال البيض إلى مكانه في البيوت، ونالوا أجراً مميزاً بسرقة كل ما استطاعوا حمله.

أما النوع الثاني من البيض غير المزود بأجهزة كاتمة للضوء، والخاص بإبعاد الحسد وشر الشياطين بترددات إشعاعاته السحرية الذهبية، فقد توزع في زوايا الأسطحة، وعلى المداخن، وفي النوافذ والكوى العالية، وعلى رؤوس الأشجار في باحة البيت. وما أن يأتي الليل حتى استغنت البيوت المؤمنة ببركات الشيخ حسني عن أضواء المصابيح الكهربائية، واستبدلتها بالبيض المشع نوراً ذهبياً، ووفرت ثمن فواتير الكهرباء الغالية الثمن، لا بل إن أحدهم استعان بإحدى البيضات الكبيرة القوية الإشعاع لتشغيل جهاز التلفزيون بدلاً من التيار الكهربائي، واكتشف اكتشافاً مذهلاً أن هذا البيض السحري قد عطل المحطات الفضائية كافة, الرسمية والملحدة والإباحية، في حين أن المحطات الغبارية أصبحت قوية، تبث بصورة جميلة ذات أبعاد ثلاثية، بحيث تشعر أن شيوخها يكادون يقفزون إليك، ليجلسوا بقربك على الأريكة بحميمية.

لكن الأفاعي الخبيثة شمت رائحة البيض ورأت نوره الذهبي،

البيض السحري المشع الـذي انتـشر بكثافـة في كـل الأمكنـة، داخـل البيوت وخارجها، فتسللت من أوكارها في البساتين، ودخلت البيوت وأخذت تبتلعه بنهم أينما تجده، فاكتسبت قوته الـسحرية، وأصـبحت غير قابلة للقتل بالرفوش، أو الإمساك بها مـن ذنبـها وضـرب رأسـها بالأرض على طريقة "أبو حسين". تحولت إلى أفاعي شرسة، تلدغ كل من يقف بوجهها في مسيرتها نحو البيض المقدس، لم يعـد بالإمكـان قتلها كما أشاع المريدون إلا بالسيوف العربية القديمة، المحفوظـة في بلاد الغبار البعيدة منذ أيام الفتوحات المجيدة، حيث كـان يقاتـل بهـا مؤمنون أشداء.

ووصلت صفقة السيوف بسرعة شديدة بطلب خاص من الـشيخ حسني، وتم بيعهـا بأسـعار عاليـة بـسبب قيمتـها التاريخيـة المقدسـة المكتسبة من سواعد المؤمنين الذين حملوهـا أيـام الفتوحـات. ولكـن الشيخ حسني نهاهم عن قتل الأفاعي في المنازل، فقد تكون من الجن المؤمنين، وتستمع إلى صوت الهداية بعد منحها ثلاث فرص وتخـرج وحدها، أما الأفاعي الكافرة فتقتل مباشرة.

سأله المريدون "وكيف نعرف الأفاعي الكافرة؟".

أجابهم "الأبتر المقطوع الذنب وذو الطفيـتين الـذي علـى ظهـره خطين، هم من الجن الكفرة، يُسقطون حمل المـرأة ويـذهبون ببـصر الإنسان، فاقتلوهم بسرعة".

وزود الشيخ حسني حاملي الـسيوف بِرُقيَّـات خاصـة ضـد لـدغ الأفـاعي والعقـارب والـصراصير والنمـل والبراغيـث والنـاموس والإخطبوطات، وذلك على سبيل الاحتيـاط في صـراعهم مـع الجـن الكفرة الذين تلبّسوا أجساد هذه الزواحف والهوام.

وأصدر الشيخ حسني مجموعة من الفتاوى الخاصة بالتعامـل مـع الجن والشياطين في الحرب ضدهم، كتبها بمـداد مبـارك علـى أوراق بيضاء طاهرة ووزعها في البلدة:

أحكام التعامل مع الجن وآداب الرقى الشرعية

ـ يستطيع الجن التمثل بعموم الحيوانات، وبعموم الإنس، وبعموم المؤمنين.

ــ الشياطين هم الكفرة من الجن، ولذلك تنشب المعارك الشديدة بين الجن وشياطينهم.

ـ رؤية الحمير والكلاب للجن والشياطين هي في حال كونهم على خلقتهم، لا على هيئة التشكل بالصور البشرية والحيوانية، ولذا نسمع نهيق الحمير ونبح الكلاب ولا نرى جنياً أو شيطاناً.

ــ في حال تشكل الجن بصورة بشرية أو حيوانية يصبحون ضعفاء، ولهذا تمكن رؤيتهم وضربهم وخنقهم وحرقهم.

ـ لا يجوز ربط الجن إلى السارية وأسرهم إذا تشكلوا بصور الإنس والحيوان، فقد اختص بهذا العمل سليمان الحكيم فقط.

ـ يقوم الجن بإحراق البيوت ليُخرجوا أهلها منها ويسكنوها بدلاً منهم، ولتلافي ذلك ينبغي إخراج الصور والكلاب من البيت، وتطهيره من آلات الفساد، كالتلفزيون والفيديو والدش والإنترنيت إضافة إلى آلات الطرب.

ـ يكثر تلبُس الجن والشياطين للنساء بسبب نقص عقولهن ودينهن، وميلهن للَّهوِ والطرب ومشاهدة التلفزيون، وكثرة الحسد بينهن، وخاصة بين الضَرائر.

ـ يمكن للجن إيذاء الأطفال من خارج بدنهم، فيفزعون في النوم، أو يبكون عدة ساعات. وإذا ما أصاب الطفل الإغماء أو السقوط من فوق السرير أو في الحمام، أو كان يحدق طويلاً في السقف أو الجدار، فالجني متلبس به حينئذٍ. ولا يُفرَق طفل الجن عن الإنس من حيث العناد، ويمكن إخراجه بجذبه بالحلوى، أو بشرب الماء المقروء عليه طلاسم سحرية.

ـ لا ينبغي الذهاب إلى الأطباء في حال أمراض المس، وإنما التوجه إلى الراقين بالأدعية الشرعية، فالأدوية الطبية لا تؤثر في الممسوس، ولا العسل ولا الحبة السوداء، ولكن يمكن استخدام زيت الزيتون في العضو الذي يوجد فيه الجني، إلا أن استخدامه لا ينفع إذا كان جالساً في العقل.

ـ يمكن ضرب الجني المتلبس للشخص في الأعضاء التي يوجد فيها، وإذا ما تمنع على الخروج فيتم مواصلة الضرب على القدمين، ويمكن خنقه إذا ظهرت علائمه على الرقبة. وفي حال ضرب الجن المتلبس للنساء لا يبقى معها سوى المحارم، وتُضرب على قدميها بعد تغطيتهما.

ـ لا يجوز حرق الجني المتلبس، لا بالنار ولا الكهرباء، فالجني يختفي بسرعة دون أن يصيبه الإيذاء، بينما يناله الممسوس، ولكن يمكن تهديده بالنار للتخويف، أو استخدام جهاز صغير فيه ذبذبات كهربائية.

ـ إذا مات الجني في الممسوس، فلا إثم على الراقي مادام استخدم معه العقوبات المعتبرة شرعاً، حتى ولو اعترض أهل الجني على ذلك بأنه كان مؤمناً، وذلك بسبب عدم خروجه. وإذا مات المرقيُ عليه بالخنق أو الضرب، فتؤخذ الدية من الراقي إذا لم يكن عالماً بطبه، بعكس العالم فإنه يُحاسب على فعله.

ـ إذا قتل الإنسي جنياً أو زنا بجنية، فليس للجن أن يقيموا عليه الحد.

ـ لا يجوز اللجوء إلى الصوفيين المنحرفين ببدعهم وضلالاتهم وخرافاتهم، وعلى رأسهم الشيخة حسنية، لمعالجة الممسوسين بطرقهم التعويذية.

المؤمن لوجه الخير والإيمان الأصولي الشيخ حسني
القادم من بلاد الغبار الصحراوية

ذهلت الشيخة حسنية من الشعبية التي نالها غريمها الصحراوي في البلدة بهذه السرعة، وأعلنت "كل ما يفعله الشيخ حسني هو خرافات وخزعبلات". وقررت عدم الاكتفاء بالتقارير الروحية التي ترسلها إلى "الآنسة المقدسة المباركة "في المدينة عن أفعاله في البلدة، وبادرت بالتحرك المضاد دون انتظار التعليمات منها، لدرء المخاطر الخرافية القادمة من الموجة الغبارية الصحراوية على مسيرة الإيمان القويم والصحيح، بمنبعها الصافي من المدينة.

بدأت الشيخة حسنية بحملة توزيع معونات على النسوة في البلدة، سكر وشاي ومعكرونة ورز وصابون وشامبو وفوط نسائية. وأرفقت هذه المواد الاستهلاكية بملابس داخلية، سميكة وطويلة رمادية اللون، تستر جسد المرأة العورة كله في أثناء الاستحمام، استحياءً ممن في السماء، كما ذكرت الإرشادات المُرفقة بها. وتضمنت حملة المعونات أيضاً تنورات كحلية وقمصان زرق، مع معاطف سوداء تصل إلى ما تحت الركبتين، وأغطية رأس سوداء يتم وضعها فوق قمطة بيضاء لشد الشعر، من أجل لبسها كلها وهن جالسات أمام التلفزيون، حتى لا يراهن المذيعون والممثلون دون سترة شرعية من خلال شاشته. أما الأقدام فقد كان نصيبها حذاء أسود دون كعب، مع جوارب كحلية سميكة جداً تصل لعند الثديين، منعاً لعبث الأطفال الذين يزحفون بين الأقدام، ويبحثون عن ألوان قوس قزح مابين السيقان.

سُرت النساء بالمواد الغذائية، فهن بحاجة إليها بسبب الفقر، ورمين الملابس الداخلية التي تذكرهم بأسمال المجنون السيد مبارك، الذي يجول بين الحارات ويتحدث مع الأفاعي، ورفضن لبسها حتى لا ينقلب أزواجهن عنهن إلى نساء البلدة المجاورة، حيث يوجد معمل ملابس داخلية مثيرة على الموضة الأمريكية، أما الملابس الخارجية فلم تناسبهم أبداً بسبب الحر الشديد، ولأنها تظهرهن كأنهن يعشن في عزاء دائم.

وعندما حاولت النساء تبديل الملابس كلها بمواد غذائية، رفضت الشيخة وقالت لهن "بالعكس، تستطيعون تبديل المواد الغذائية بملابس".

" ولكن يا شيخة حسنية الجو هنا حار جداً، وهذه الملابس تناسب بلاد الأسكيمو، ونحن لسنا بحاجة إليها، نريد طعاماً، فالحقول يبست، ولم تعد تعطي مردوداً يكفي إعاشتنا".

تجيبهم ساخرة "إذا لم تستطيعوا تحمل هذه الملابس الآن، ففكروا كيف ستتحملون نار الجحيم في الآخرة، بسبب كشف أجسادكن العورة!".

وأعلنت الشيخة حسنية في منشور علقته على الجدار أمام بيتها أن دعوتها تتوجه للنساء حصراً، لأنهن يمتلكن زمام الأسرة والبيت، ويستطعن إذلال الرجل المتوحش برفض تسليم أجسادهن الطاهرة له. وحسب التوجيهات الروحية للآنسة الطاهرة، التي لم تسمح لذكر بتلويث ذيلها بمائه النجس، فالرجل حقير وغدار ولئيم، لا يفكر إلا بعضوه الجنسي كي يدنس به جسد النساء، وأن داعياتها الشيخات حسنيات المنتشرات في كل البلدات يفعلن ما يعجز عنه الرجال بالسير نحو العقيدة القويمة الطاهرة. وعلى النساء التبتل لخدمة الآنسة، والتفاني بحبها من خلال الوسيطة الشيخة، والانتقال بدرجات تنظيمية أعلى تنتهي بالتوحد مع روحها وجسدها. فالآنسة هي قوة روحية موجهة وملهمة، مستمدة من السماء عن طريق كائنات مقدسة أنثوية، يزرنها في موعد أسبوعي ليشربن معها القهوة. والآنسة موجودة دائماً مع الأخوات المريدات في كل مكان وزمان، وطاعتها مقدمة على طاعة الأب والزوج وولي الأمر، وإن كان هذا لا يمنع بعض الداعيات الزواج من متنفذين في السلطة ورجال أعمال أثرياء لمصلحة مجموعة الأخوات، ولكن دون أن يشغلهن ذلك عن آنستهن.

وتمت دعوة كل من تلقت المعونة إلى حضور حلقة الأخوات

الأسـبوعية في مـنزل الـشيخة حـسنية، فتوافـدت النـسوة بكثافـة في البداية، ليفاجأن بانتهاء المعونـات الغذائيـة الماديـة والتحـول إلى مـا يسمى بالمعونات الغذائية الروحيـة، والـتي تـضمنت قواعـد محاربـة الرجال الدنسين وفق تعاليم الآنسة الطـاهرة. وسـرعان مـا الـتم حـول الشيخة حسنية مُريدات، نسوة يبحثن عـن الـصفاء الروحـي للوصـول إلى السماء، ولكن إلى جانبهن ستنضم نسوة حانقـات حاقـدات علـى الرجال، دون أن يعرفن سبب ذلك مباشرة سوى من خـلال ذكريـات مبهمة عن تجارب اعتداءات على طفولتهن، أو عن عنف ليلة الـزواج الأولى، ومنهن تنبثق داعيـات الـصف الأول. وإلى جانبـهن انتظمـت عوانس مسترجلات، وأرامـل حزينـات، ومطلقـات ينـدبن حظهـنَّ، وعجائز فاتهن الزمن، وفتيات صغيرات يُمـضين الوقـت حـتى يجـدن أزواجاً، وسحاقيات يبحثن عن فرص جديـدة، ونـساء ناقمـات علـى أزواجهن دون أن يعرفن السبب.

تدخل النسوة إلى درس الـشيخة حـسنية بملابـس البلـدة الزاهيـة الملونة، ويخرجن من عندها مُريدات بمعاطف وأغطية رأس سـوداء، يكرسن حياتهن للآنسة والشيخة بالكامـل، ولكنـهن في داخلـهن كـن ينتظرن، ريثما تأتيهن فرصة يعوضن فيها حظهن الضائع. ومـن كانـت تجتاز منهن امتحانات الليالي السوداء بمنح جسدها وروحها في غرفـة معتمة على فراش عريض دون أن تعرف لمن، يتغير لون منديلـها مـن الأسود إلى الكحلي، تعبيراً عن ارتفاع مكانتـها الهرميـة في الـدعوة، وتُمنح عندئـذٍ نظـارة معتمـة، تـستطيع مـن خلالهـا متابعـة الـدروس المتقدمة للآنسة بذاتها في المحطة الفضائية الصامتة الـسوداء. وإذا مـا أثبتت المُريدة جدارتها في الثبات على الدعوة بشكل سـري واكتـساب عضوات جديدات، فإنـه يمكنـها الحـج إلى المدينـة، ويكـون لـديها شرف تقبيل يد آنستها وقدمها، الحلم الكبير والنهائي لكل مريدة.

سرعان ما انقلبت النـسوة المتزوجـات علـى الـشيخة حـسنية، فقـد

أصبن بخيبة أمل بعد انقطاع المعونات الغذائية، وازدادت النقمة خاصة بعد محاولة إدخالهن في اختبار الاستسلام الإيماني في امتحانات الليالي السوداء. فضلن أزواجهن العاشقين بقبلاتهم المحمومة، وعناقهم الرجولي، وأعضائهم المنتصبة، ولم تفلح محاولات ثنيهن عن محبة أزواجهن، بالرغم من إغراءات الأعضاء الاصطناعية المثيرة، اليدوية والآلية والإلكترونية، التي وصلت على عجل لمحاربة الارتدادات العقائدية الإيمانية عن خطى الآنسة الطاهرة نحو الرجال الدنسين.

اشتكت المريدات للشيخة حسنية عن انتشار الأفاعي في البيوت، التي تسللت إليها بحثاً عن البيض المسحور الذي زرعه مريدو الشيخ حسني في كل مكان من البلدة، وأنه لم تعد تفلح محاولات قتلها إلا بالسيوف الصحراوية الصارمة، التي يوزعها حصراً على جماعته، مع رُقى خاصة ضد لدغها. صرخت الشيخة حسنية "الشياطين، الشياطين دخلت البلدة، لحقت هذا الكافر الصحراوي المرتد، ولكن انتظرن سأعطيكن الحل الشرعي دون خرافات وخزعبلات الشيخ المنحرف الضال".

إحدى الفتيات الشابات الجميلات ندمت كثيراً على امتثالها لتعليمات الشيخة حسنية، التي طلبت منها أن تكره الرجال وتتبتل لخدمة الشيخة والآنسة. قالت لها الشيخة "حبيبك علماني ملحد، ستذهبين معه إلى الجحيم، وتتعذبين معه بالرغم من إيمانك القوي".

أجابت الفتاة الجميلة "نقلت له قولك هذا، ولكنه شرح لي أن الجحيم موجود في الصحراء والنعيم في قصور الأمراء هناك، وهو لن يذهب إلى تلك البلاد، بل سيأخذني معه إلى الغرب لإكمال دراسته، وسيجعلني أتعلم معه".

وفيما كانت الفتاة الجميلة تحاول أن تقنع الشيخة أن الشاب يحبها من كل قلبه، بل وعرض عليها الزواج رسمياً، وفيما الشيخة حسنية تهددها بالنار المحرقة والمهلكة للجحيم، سافر وتركها.

وجدت نفسها وحيدة، ولم يعجبها عرض الليلة السوداء الـذي قدمتـه لها الشيخة للتعويض عن حزنها، فتحولت إلى الفتـاة الناقمـة، تبكـي وحدتها وفقدان فرصة زواج من حبيب رائع.

روت لي الفتاة الناقمة أنها ذهبـت آخـر مـرة لـيلاً لعنـد الـشيخة حسنية لتـرد لهـا ملابـس العـزاء الخاصـة بالأسـكيمو، إلا أنهـا عنـد وصولها قرب النافذة سمعتها تتصل بالهاتف مع الشيخ حـسني، وقـد أكد لي الشاب الناقم المحادثة نفسها بعد أن سمع في الوقت نفـسه مـا تحدث به الشيخ حسني، متنصتاً له تحت النافذة:

"السلام عليكم يا شيخ حسني".

"لا سلام ولا كلام، صوت المرأة عورة حتى على الهـاتف، مـن الذي يقلق سهرتي علـى التلفزيـون بـالخط الـساخن الأحمـر الـشديد السرية، أرسلوا لي رجلاً يتحدث معي، لا امرأة ناقصة عقل ودين".

"كفى تخريفاً يا شيخ حسني، ذقنك الطويلة المشعثة هي العورة، أنا الشيخة حسنية يا كامل الإلحـاد والـشهوات الـصحراوية، أريـد أن أتحدث معك لأمر ضروري، ولا أحد حولي الآن".

"أهلا بصديقة الأسرار والمشاغبات الشيخة حسنية، ربيبة الآنـسة الطاهرة في المدينة، التي لم تسمح لذكر بتلويث ذيلها بمائه الطـاهر، عفواً النجس كما جاء في منشوركم. ماذا تريدين مني ونحن مختلفـون عقائدياً حتى العظم، سياراتنا رمادية مغبرة قادمة من أمريكا الصديقة، التي تعطينا كل مـا نرغـب مقابـل سـائل وسـخ أسـود لا فائـدة منـه، وسياراتكم نظيفة سوداء قادمة من ألمانيا، حيث تؤوي قيادة تنظـيمكم الرجالي الـسري، صـناديقنا مليئـة بـالرقى الـشرعية والخيـوط القابلـة للـربط والفـك نفثـاً، وصـناديقكم مليئـة..... بالـسُبحات والعـدادات الإلكترونية".

"أيها الحقـير، مـن أيـن تعـرف مـاذا يوجـد في صـناديقي، ولم أفتحها بعد؟".

"أيتها الجاهلة أنت لا تعرفين أن جهاز الاستقرار لدى الجن يعمل لصالحي، ينقل لي كل تحركاتك، أنت مهزومة سلفاً في البلدة أمامي".

"اضحك على غيري بتخريفاتك عن الجن، ولا تحلم بهزيمتنا في البلدة، صحيح أننا نحن تنظيم أخوات لا علاقة له بالسياسة ظاهرياً، ونطلب التيسير علناً لولي الأمور، ولكن لا تنسى أننا واجهة استعراضية تلملم النسوة الغبيات بحجة الترفع عن القضايا السياسية اليومية، ووراءنا تنظيم رجالي حديدي سري وجيش من المؤمنين الأشداء، لا تجدي معهم لا نقود ولا سيوف صحرائكم، ولا تهديدات من هم فوق، وفي الوقت المناسب ستنشب داعيات الصف الأول عن أسنانهن.....".

"دعينا من المهاترات، ولنبق على الود الشخصي الخاص، دائماً أدعوك إلى الحفلات التي تخرج من محطتي التلفزيونية الغبارية إلى غرفتي، وأنت لازلت تتمنعين وتتدللين!".

"أنت تعرف أنني أكره أجساد الرجال وأشمئز منها، أصاب بالهستيريا إذا ما اقترب أحدهم مني ولمسني، بل حتى بمجرد ما أشم رائحة جسده، بينما انتعش بأجساد النساء ذات الملمس الناعم اللدن، ولا أنتشي إلا معهن، ثم إنني أستطيع استحضار حفلاتي النسائية إلى غرفتي من محطتي التلفزيونية الصامتة بشيفرة خاصة بي. كنت أتمنى أن تدعوني للمشاركة في إحدى صفقاتك التجارية الرابحة بدلاً من حفلاتك المجنونة، مثل صفقة سيوف المؤمنين الذين شاركوا في الفتوحات المجيدة، وقد اشتريتها بالسر من أحد تجار المدينة المحتالين مثلك، كانت مرمية في مستودع قديم، ونصلها صالح للقطع في اللبن فقط".

"لن تسربي خفايا الصفقة، أليس كذلك؟ تعرفين المصاريف العالية التي أتكلف بها على المريدين الذين أخذوا يسطون ويسرقون

باسم الجن، إذ لم تعد تكفيني التحويلات الخارجية لإسكاتهم".

"وأنا لم تعد تكفيني التحويلات المدينية أيضاً وبحاجة إلى موارد مالية جديدة، للمريدات اللواتي لا تنتهي طلباتهن للمعونات الغذائية".

"وتأكيداً للمودة بيننا يا شيخة حسنية أسِر لكِ أن خبراءنا الإلكترونيين اقتربوا من اكتشاف سر تشغيل نظاراتكم المعتمة، التي تتعطل بمجرد أن يلبسها الرجال. شيء له علاقة باللاقط الطويل السفلي الذي يمتلكه الرجال، ويشوش على الرؤية في الأعلى، على عكس اللاقط الصغير الذي تمتلكه النساء، الذي ليس له أي تأثير يُذكر".

"لدينا يا شيخ حسني خطوطنا الدفاعية الإضافية التي لا يمكن تجاوزها، عندنا خبراء تشويش إلكتروني متميزين بذكائهم، وأفضل بكثير من قراصنتكم الإلكترونيين المحتالين المتميزين بغبائهم".

"أخبريني الآن يا شيخة حسنية، ما هي القضية المُلحة والخطيرة التي جعلتك تخاطرين بنفسك وتستخدمين الخط الساخن الأحمر لتتصلي بي من أجلها؟".

"الفوضى التي زرعتها في البلدة يا شيخ حسني! صحيح أن سياراتنا وصناديقنا مختلفة عن بعضها بالكامل، إلا أنه توجد اتفاقات شخصية بيني وبينك فيما يتعلق بمناطق النفوذ في البلدة. لقد قبلت منك أن تُحضر ما تسميه عشائر الجن من صحرائكم، ولكن بشرط أن يكونوا من المؤمنين".

"لقد التزمت بالاتفاق، أحضرت الجن المؤمنين فقط، واخترت لهم أفضل الأماكن الراقية، في المقابر وعلى المزابل، وسمحت بقدوم العائلات منهم فقط، مشترطاً عليهم الالتزام بالنكاح فيما بينهم، دون التعدي على الإنس. ولكن الجن لا يهدؤون بطبيعتهم، يتجولون في كل الأمكنة ليلاً نهاراً، ولا يمكن السيطرة عليهم في

مسألة النكاح هذه بالذات. جاؤوا من صحراء منغلقة لا يمكن رؤية خيال امرأة فيها، ووصلوا إلى بلدة تسير فيه النساء وحدهن في الشارع طوال الوقت دون رقيب أو حسيب، فاستغلوا هذا الانفلات الإباحي هنا. ونساؤك اللواتي لا تستطيعين السيطرة عليهن، لا يعرفن الاحتشام أبداً، ينزلن إلى النهر ويشمرن أثوابهن حتى أفخاذهن من أجل اللعب بالماء، يتبولن في الخلاء وراء جدار قديم أو شجرة، فيكشفن ويعرضن مؤخراتهن للهواء، ينمن مع أزواجهن ويصرخن عالياً بانتشائهن معهم، بل ويستحممن أيضاً دون ملابس وهن يغنين بأعذب الأصوات، فيتردد صداها في الحمام..... وبعد كل هذا هل يمكن لجني أن يبقى في عقله رادع ويستقر على إيمانه، فالنساء يكفرن العشير، فكيف مع الجني الذي يتمنعن عليه؟! ولذلك أخذ كل جني يترك جنيته في المقبرة أو على المزبلة، ليترصد النساء في غرف النوم والحمامات وبيوت الخلاء. وهكذا انقلب الجن المؤمنون إلى جن كفرة، وأصبحوا شياطين".

" أنت دائماً عدو النساء يا شيخ حسني، بالرغم من أنك لا تستغني أبداً عن مضاجعتهن، تقف مع الجنيين ضدهم. ولكن هل سيطرت أنتَ على رجالك وهم يدورون شبه عرايا في الشوارع بلباس يقولون إنه شرعي، يتجولون ولا يستر جسدهم إلا جلباب أبيض قصير يشف عن مؤخراتهم، وكيفما يجلسون تبرز منه أعضاؤهم الجنسية المنتصبة دائماً بوضوح. ألستم أنتم الرجال السبب بإغراء الجنيات المسكينات وجعلهن كافرات؟!".

"هذه مشكلتهن، يستطيع الرجال أن يفعلوا ما يريدون، وعلى الجنيات الغض من أبصارهن".

"لقد زرعت الفوضى في البلدة يا شيخ حسني، وها أنت تستغل الرجال بحجة أنهم ممسوسون بعشق الجنيات لهم، والنساء ممسوسات بعشق الجنيين لهن، تبيعهم رُقى سحرية، وتفك عُقد

خيوط بعد أن تنفث عليها متمتماً أدعيتك وطلاسمك الكاذبة بأسعار خيالية".

"ولكنك أنت أيضاً خبيثة يا شيخة حسنية، فلقد عرفتُ أنكِ أفلتِّ كائنات نورانية من محطتك الفضائية الصامتة. أقلقت أهل البلدة بتعاليمك المُخرفة، ينام الرجل والمرأة على الجانب الأيسر، فيوسوس لهم الشيطان طوال الليل ولا يدعهم ينامون، وإذا ما انقلبوا إلى جانبهم الأيمن يأتي الملاك وينصحهم طوال الليل ولا يدعهم أيضاً ينامون. شجعتيهم على الأوضاع الجنسية المنحرفة بحجة دعوة الزوج والزوجة للنوم معاً على الجانب الأيمن فقط".

"ولكن كيف عرفت بقدوم الكائنات النورانية؟".

"وهل هذا صعب! من صياح الديكة يا عزيزتي، وهي توقظُهنَّ صباحاً من النوم من أجل العبادة".

"رجعنا إلى خرافاتك يا شيخ حسني، حمير وديكة الآن، وقبلها أفاعي وكلاب وقطط سوداء وأخطبوطات! ماذا في جعبتك أيضاً من حكايات جديدة عن الحيوانات؟".

"هذا واحد من أهم خلافاتنا العقيدية معكم، تثيرونها دائماً بدلاً من أن تصمتوا عليها، بحيث أخذ العلمانيون الملحدون يستغلون هذه الحكايات، ويقولون إنها تخلف وخرافات وخزعبلات. على كل الأحوال قد استفدت أنا جيداً من بيع الرُقى والخيوط والسيوف، والآن جاء دوركِ كي تستفيدي، افتحي صناديقك وأخرجي منها السُبحات والعدادات".

انتهت المحادثة.....

وجاء وقت الاستفادة، لنبدأ أولاً بالسُبحات، ثم بالعدادات، فكرت الشيخة حسنية بصوت مرتفع. وكان هذا آخر ما روته لي الفتاة الناقمة عن تلك المحادثة.

إحــدى النــساء الخبيثــات روت لي مــا حــدث في الاجتمــاع الاستثنائي الذي دعت إليه الشيخ حسنية في منزلها، بـسبب الأوضـاع الطارئة الخطـيرة المرتبطـة بعبـث الـشياطين الـذين أحـضرهم الـشيخ حسني إلى البلدة:

بدأت الشيخة حسنية الكلام "الشياطين ملأت البلدة، يعبثون فيها بلا رادع، يوسوسون ويحرفون النساء عن السير على خطـى الإيمـان، ولذلك ينبغي مقاومتهم ومحاربتهم بشدة. ومـن أجـل هـذا علـى كـل امرأة أن تشارك في هذه الحرب، عليهـا أن تقـرأ في البدايـة معـوذات بمقدار مئة ألف مرة حتى تتقي شرهم، واللطيفية مئة ألـف مـرة أيـضاً ليتم التلطف بأحوالهـا وإبعـاد الحـسد عنـها، وإذا لم تتـداركوا الأمـر بسرعة فإن الشياطين ستهزمكن شر هزيمة، ويستعبدونكن إلى الأبـد، ويكون مأواكن الجحيم وبئس المصير".

ارتعدت المريدات من الخوف، إلا الجحيم، فلقد قـدمت لهـن الـشيخة حـسنية سـابقاً سلـسلة دروس عـن العـذابات المرعبـة في الجحيم، عن السلق والشوي والقلي هنـاك، فـأجبن مبلـبلات الـذهن "نعم نحن مستعدات لقراءتهن مئة مرة، هذا سهل مقابل أن ننجـو مـن شر الشيطان وجحيمه".

امتعضت الشيخة من غبائهن "لا، ليس مئة مرة يا غبيات، إنمـا مئـة ألف مرة".

تطلعت النسوة المُريدات إلى بعضهن مستغربات، هن لم يعـددن في حياتهن أكثر من عشرة أشياء، وفي أحسن الأحوال عشرين، أجـبن "مع أن هذا صعب، فسنقرؤها ألف مرة!".

تستشيط الـشيخة غاضـبة "الغبـاء مـستحكمٌ في هـذه البلـدة..... مئة..... ألف..... معاً مئة ألف مرة".

هزت النسوة رؤوسهن دون أن يفقهن شيئاً مما تدمدم به الـشيخة حسنية، ولكن إحداهن شعرت بالفخر، وقالت "منـذ خمـس سـنوات

كان معي مئة ليرة، عددتها عشرات المرات، واشتريت بها أشياء كثيرة".

اقتربت المساعدة الرئيسية للشيخة حسنية من أذنها وهمست "وأنا أيضاَ ألف مئة مرة؟".

ردت عليها هامسة "مئة ألف مرة، وليس ألف مئة مرة، على كل الأحوال أنت محصنة ضد الشياطين، يكفيك أربعين ألف مرة".

سألت النسوة "وكيف سنعد يا شيختنا هذا الرقم الكبير، ومعظمنا لا يعرف مسك القلم من أجل تسجيل الحسابات؟".

" لا تخفن سأبيعكن سُبحات جميلة، براقة في النهار ومتلألئة في الليل، كل سبحة تحوي تسع وتسعون حبة. ويمكن وضع علامة انتقال من حبة إلى أخرى بعد انتهاء كل دورة مئة، وعندما ينتهي انتقال العلامة بكامل حبات المسبحة يتم الوصول بالعد إلى العشرة آلاف الأولى".

" هذا صعب يا شيخة حسنية، لم نفهم حساباتك، نحن تركنا المدرسة الابتدائية هرباً من دروس الحساب".

" لا تشغلوا بالكم كثيراً، سأقيم لكم دورة خاصة في العد لمدة ثلاثة أيام".

سألت المرأة الخبيثة "ولكن لا أحد يمكنه مراقبة العد، تستطيع النسوة الكذب".

أجابت الشيخة وقد علا وجهها الاستغراب الشديد بسبب تجرؤ إحداهن على الاعتراض والتشكيك بأوامرها "هل بينكن واحدة يمكنها أن تمتلك هذه الأخلاقية؟".

" هكذا كنا نعمل دائماً في الامتحانات نغش وننجح، هذه شطارة، وأمام هذه الوظيفة الصعبة يحق لنا أن نجد وسيلة.....".

" يا مخادعة، إذا كنت تنجحين بذلك في المدرسة، فلا مجال

للتلاعب مع الآنسة، إذ إن لكل سبحة ملائكتها المرصودات لها، يراقبن العد، ويحسبونه بدقة وراءكم، وسيسمحون للشياطين بأذيتكن إذا ما تلاعبتم بالعد".

" إذا كان لكل سُبحة ملائكتها المرصودين لها، فليقوموا هن بالعد بدلاً من مراقبته، لماذا نعد مرتين! وهكذا يطردون الشياطين ونرتاح منهم، وسندفع لهم أجورهم نقوداً، عفواً أقصد ندفع ثمن السبحة لكِ وأنت تدفعيها للملائكة أجراً لهم، ودعونا نتفرغ لأعمالنا في البيت، أنا لدي زوج وأطفال، أريد أن أطبخ لهم وأنظف البيت، ألا يكفينا الدروس لديك وما يستتبعها من وظائف منزلية".

" أخرجي من هنا يا كافرة، تأخذين القضايا العقيدية الكبيرة دائماً بسخرية، حتى وصلت في النهاية إلى حد التمرد على التعليمات المقدسة للآنسة، ملعونة أنت ليوم الدين".

" سأخرج، أصلاً معظم نساء البلدة ليس لديهن ثمن السُبحة، وقد عشنا طويلاً دون السُبحات ولم يحدث لنا شيء وسارت حياتنا بشكل طبيعي، فمن أين أتى جنكم وشياطينكم أنت والشيخ حسني إلى بلدتنا، ليشعلوا الفوضى فيها".

خرجت الفتاة الخبيثة، ولحقتها سلسلة من الفتيات الناقمات، اللواتي كن ينتظرن اشتعال الفتيل لينفجرن، هربن من الأرقام والوظائف المدرسية الإيمانية.

حاولت الشيخة حسنية التماسك في وجه العاصفة، تتمالك نفسها وتسيطر على أعصابها بصعوبة، وتخاطب البقية من النساء الحائرات بين الأرقام "منذ الآن سنعلن الحرب على الشيطان وسنقارعه بالتسبيح، لا طبخ ولا غسيل ولا تنظيف، اتركن أولادكم يهتمون بأنفسهم، واطردْنَ أزواجكن من الفراش، تفرغْنَ للتسبيح، فقط تسبيح، وعندما تنتهي المائة ألف الأولى سنرى ماذا سنفعل بعدها".

توزعت السُبحات النسائية على المريدات في البلـدة، الـسبُحات البراقة في النهار والمتلألئة في الليـل، والغاليـة الـثمن بـسبب قداسـة رصدها بالملائكة. بدأت حملة التسبيح الجماعيـة المقدسـة، أخـذت الهمهمات والتمتمات النسائية تعلـو في فـضاء البلـدة، نـسوة يعـددن ويعـددن حـتى ضـجت النـهارات والليـالي بالعـد. يغمـضن العيـون ويعددن، يهزون الظهر بحركة رتيبة إلى الأمام والوراء وهـن يعـددن، فإذا ما لمحهن أحداً ما زدن في الاهتزاز، وكأنهن قد تحولن إلى دُمـى آلية تهتز بمسرع كهربائي، يتحكم بوتيرة الحركة الترددية، ولكـن مـن يراقبهن مدة طويلة يـصل إلى قناعـة أنهـن مـصابات بمـرض ارتعـاش نفسي، لا شفاء منه بسبب الاعتياد على الاهتزاز المستمر.

الاهتزاز يعطي مظهر الورع المندمج بعالم الضياع الطلـسمي وراء الكلمات والأعداد، يُوَلِّد تموجـات متتاليـة في فـضاء الغرفـة، فتـهتز الأشياء والخيالات فيهـا لتنـشد حـول بـؤرة المـرأة المهتـزة، فتـشعر بأهميتها المركزية الاهتزازية بعد تكليفها سماوياً بمهمـة العـد. تـصبح جاهزة للاشتراك في معركة مُشرفة ضد الشياطين، الذين تسللوا لينالوا من المكانة الإيمانية لآنستهن. تلـبس المـرأة المهتـزة لبـاس الحـرب، ممتشقة السُبحة المدعومة بجيش من الملائكة المتعلقـة بهـا، وتنطلـق لمقابلة الشيطان بطريقة بسيطة، بالعد فقط . ولكـن لـيس مـن الـسهل هزيمته، فعليهن أن يتكـتلن مـع مئـات مـن النـسوة والعـد معـاً حـتى اللانهاية، وخاصة بعد أن أفلت بدهائه من العقاب الـسماوي، ولكـن معهن لن يفلت بعد أن تخلين عن كل مشاغل الدنيا وتفـرغن لحـصاره بالعد.

انشغلت النسوة بالعد دون أن يفهمن لماذا عليهن أن يعددن هـذا الرقم الخيالي الكبير لجملة تم فهمها من المرة الأولى، ولماذا علـيهن تكرارها بآلية رتيبة، كيف للكلمات والأعداد أن تطرد الشيطان، كـائن خيـالي لا يمكـن رؤيتـه ومواجهتـه، فكيـف ستكتـشفه الكلمـات

والأعداد، من أين أتى فجأة وقد عشن طويلاً بسكينة قبل أن يظهر مع الشيخة حسنية. لماذا قراءة جملة مئة ألف مرة، وليس سبعون ألف مرة، أو ألف مرة فقط! ومادامت للكلمات والأعداد قوى سحرية، فلماذا لا تقرأ من القلب مرة واحدة وتحرق الشيطان إلى الأبد، هذا إذا كان للكلمات والأعداد القدرة على الوقوف بوجهه؟! وبما أن الآنسة مباركة ومقدسة فلماذا لا تقوم هي بطرده، ألا تستطيع السيطرة على الكلمات، وما علاقتهن مادمن يقمن بتطبيق تعليماتها، وتعود الأمور إلى طبيعتها؟!

أصبح هَمُّ المريدات تجميع أكبر رقم معدود بغض النظر عما يرددنه، انشغلن بالأرقام، ،أصبحت حياتهن كلها أرقاماً، والسبحة لا تفارق أيديهن كأنها قيد، يلازمهن في سباقهن مع الزمن، فقد يأتيهن الموت فجأة دون أن يصلن إلى الرقم المطلوب، فيذهبن إلى الجحيم، حيث السلق والشوي والقلي.

أستغرب الرجال الذين يمضون وقتهم مثرثرين في المقاهي ويتزيون بالسُبحة من انتشارها فجأة بين النساء. السبحة للرجال، هي زينة لهم، وبها يمسكون العالم ويسيطرون عليه، يحولون الكلية إلى أجزاء صغيرة، ويعيدون تركيبها بتجميع الحبات في كفي اليد وفركها، فتعود الوحدة إليها. وبما أن الزمن ينساب دون نهاية، فإن الطقطقة تسليهم وتخدرهم حتى ينسونه وهم يجلسون طويلاً في المقهى، فتدفعهم للنوم برتابة موسيقاها الطقطقية وهم جالسون، ويغفون وهم جالسون. هكذا تمضي أيامهم الثقيلة والرتيبة وهم ينتظرون الموت. يتذكرون جميعاً مالك المقهى الذي أصبح فجأة مؤمناً كاشفاً للأسرار، وبدأ الناس يستخيرونه في أعمالهم، كان يختار عشوائياً عدداً من الحبات في سبحته السوداء، ويأخذ بالتمتمة وهو يعدها، فإذا كانت النتيجة عدداً فردياً فهذا توحيد والعمل ميسر، وإذا كانت عدداً زوجياً فهذا تعددية وشرك والعمل معسر. أما هذه المائة

ألف فشيء آخر لم يسمعوا به ولا يفهمونه، ولا يفهمون تعلق النسوة بهذا الجنون.

أخذت الوالدات والزوجات والأخوات ينهين الرجال "لا تهزوا السبحات بشكل عشوائي واهدؤوا قليلاً، الكائنات النورانية متعلقة بها لترصدها، أنتم تزعجونها وتقلقون راحتها بحركاتكم المستمرة، لا تتحدثوا أمامها بكلمات سوقية مبتذلة، فهي تخجل، أبكار يشعرن بالحياء الشديد وأنتم ترددونها".

يجيب الرجال "وكيف سنرقص الدبكة دون التلويح بالمسبحة تعبيراً عن الضياع بالنشوة، وكيف سنرد على الإساءة لكرامتنا دون أن نرميها بوجوه بعضنا تعبيراً عن احتقارنا للآخر، نحن اشتريناها دون ملائكة، وإذا كان من الصحيح قد تعلقوا بها فليربطوا الأحزمة بشكل جيد وليقفلوا آذانهم، وإلا فليغادروها".

لازالت النسوة المريدات يعددن، يتحدثن فيما بينهن من على الشرفات، والأسطح، والنوافذ، وعلى الهاتف، حول نتائج العد الإيماني:

"العد صعب، لم أستطع اليوم أن أنهي سوى ثلاثمائة لطيفية على السُبحة طوال النهار بالرغم من تفرغي الكامل لها، فأنا لم أرتب المنزل ولم أطبخ من أجل العد، وعلى كل الأحوال فهذا غير مهم، إذ ليس لدي زوج وأطفال، ولكن لا أعرف متى سأنتهي من المائة ألف الأولى!".

"وأنا أيضاً عملت مثلك وعددت ثلاثمائة فقط طوال النهار، ولكن زوجي جاء منهكاً من العمل في المساء، ولم يجد عشاءً والأولاد يبكون من الجوع والبيت غير مرتب. ثار وصرخ عالياً، حاولت أن أشرح له أن الشيطان يهدد حياتنا وينبغي أن أقاومه بعَّد حبات السُبحة، فضربني بشدة وقطع خيط السُبحة ورماها من النافذة، وكاد أن يرميني أنا أيضاً وراءها. هذه أول مرة يضربني بها زوجي في حياتي!".

"وأنا مثلك، ولكنني كما تعرفين فأنا قوية، تحديت زوجي الثائر، طلبت منه أن يساعدني بالعد بالسُبحة الثانية بدلاً من الصراخ والتذمر وطلب الطعام، ويخفف من تعبي قليلاً بتعداد بضعة آلاف تعويذة معي. غادر البيت، وقال إننا مجنونات ومخبولات أنا والشيخة حسنية والآنسة، ولم يرجع إليه منذ عشرة أيام، ولا أعرف أين هو! أخاف أن يكون قد تزوج مرة ثانية من امرأة لا تعد".

"كدت أصل إلى حد الشرك وأنا أعد، فلقد كنت أكرر جملة الإله واحد على السُبحة، وأعد كم مرة قلتها، وفجأة نسيت نفسي أمام المسلسل التلفزيوني اليومي الشيق، وأخذت أعد باللاشعور، الإله واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة..... وعندما انتهى المسلسل كنت قد وصلت إلى المئتين، وقالت لي معلمة المدرسة وهي تضحك مستهزئة بي أن هذا عدد الآلهة البابلية والكنعانية والآرامية القديمة في العصر الجاهلي".

" تسللت مرة إلى غرفة ابنتي، كانت جالسة هي وصديقاتها يتبادلن السُبحة، تذكر كل واحدة منهن اسم شاب وتتمتم بشيء ما وهي تعد الحبات، ثم ترميها أرضاً. وعندما اقتربت متنصتة، سمعتهن يرددن مع كل حبة "يحبني، لا يحبني، يحبني، لا يحبني....."، ضحكت، وتذكرت أننا نحن النسوة أيضاً عندما كنا فتيات صغيرات نأتي بوردة ونقطف وريقاتها، ونردد الكلمة نفسها لتَوَقع حب ابن الجيران أو صديقنا في المدرسة لنا. تغيرت الموضة هذه الأيام من الوردة إلى السُبحة".

" أنا ليس لدي سُبحة فثمنها مرتفع جداً، ولكنني بما أنني كنت أحضر المؤونة وأفصص قرون الفول والبازلاء، فقد أخذت أردد التعويذات، مرة مع كل حبة، دون أن أستطيع العد بسبب عدم وجود علامات أعتمد عليها أثناء الفصفصة. ولكن في النهاية كان لدي ثلاثة طناجر فول تعاويذ وطنجرتين بازلاء لطيفية. وبعد الانتهاء من تحضير

المؤونة، ولم يبق هناك لا فول ولا بازلاء، اشتريت بذور دوار القمر، وكل يوم أعـد لطيفيـة أمـام التلفزيـون وأنـا أفـصص البـذر في الليلـة الواحدة، بما يعادل خمس وعشرين ليرة ثمن الأوقية".

" جارتنا الأرملة الخبيثة قرعت بـاب بيتنـا ذات يـوم في الـصباح الباكر، وقالت لي أنها تهدي زوجي المرحـوم ثلاثـين ألـف تعويـذة، اشتغلت عليها لمدة شهر، وذهبت دون أن أمسك شيئاً ملموساً منـها، كنت أتمنى لو أعطتني بعض النقود، ثمن خبز لأطعم الأطفـال. لكـن الخبيثة عادت بعد أسبوع منذ الصباح الباكر أيضاً، وطلبت أن نرد لهـا ثلاثين ألف تعويذة لزوجها المرحوم، الذي رأته في منامها مُطارداً مـن الشيطان. وعندما سألتها لماذا لا تعد هي لزوجهـا، تعللـت أنـه لـيس لديها وقت، وينبغي أن نرد ديوننا".

" أنا اختلطت الأمور بذهني بين تعداد التعويذات وتعداد كلمـات العشق في أغاني أم كلثوم وفريد الأطـرش، والـتي أحـب أن أسمعهـا ليل نهار. فهـم يكـررون العبـارة نفـسها عـشرات المـرات في الأغنيـة الواحـدة، الـتي تـستمر سـاعة كاملـة، فأعـد معهـم..... لا أسـتطيع السيطرة علـى نفـسي، ولا أعـرف مـتى أعـد التعويـذات ومـتى أعـد كلمات العشق والغرام في الأغاني".

" أنا ضعت بالكامل، لم أعد أستطيع التركيز على ما أقول وأفعل معـاً، أعـد التعويـذات، فتنـسكب القهـوة علـى الموقـد، وتحتـرق الطبخة، وأنسى المكواة الحامية على البنطال..... وعنـدما أركـز علـى عملي، يختلط عليَّ العد، فأقول تعويذات ضد الملائكة دون قصد".

" على العكس من الجميع، أنا لا أضيع وقتي أبداً، أعـد بـشكل دائم، في كل مكان وفي كل وقت، أستغل الوقت وأعـد حـتى عنـدما ينام زوجي فوقي، هو يلهث وأنا أعد اللطيفية، ينتشي وأنا لاأزال أعد اللطيفية، ثم يرتمي جانبـاً وهـو يغـرق في النـوم ويـشخر كالـشيطان، فأنقلب عندئذٍ إلى التعويذات وأعدها".

" وأنا عملت مثلك، ولكن زوجي أصبح يرتمي منتشياً بجانب الجارة، وأصبح ينام عندها، قال لي مستهزئاً أنها ليست عدَّادة مثلي، وتتجاوب معه وتنتشي ".

" زوجي يتهرب من النوم معي بحجة تعبه، يقول لي إنه في الأسبوع الماضي قفز عليَّ ثلاثة مرات، فأخرجت له قائمة عددية بعدد المرات التي نام فيها معي منذ ثلاثة أشهر، وأظهرت له كذبه، فأنا أعد كل شيء".

" أنا أحتفظ بزوجي وأولادي وأقوم بواجبي نحوهم بشكل جيد، وفي الوقت نفسه أقوم بالعد بطريقة ممتازة..... أحضرت خادمة سيريلنكية، تقوم بدلاً مني بالأعمال المنزلية، وأحياناً كثيراً بالواجبات الزوجية مع الشبق زوجي، فيما تفرغت أنا للعد. وعلى كل الأحوال لا أعرف ما دينها، وستذهب في النهاية إلى الجحيم، بينما نجوت أنا منه بفضل تعداد التعويذات".

" معلمة الرياضيات قالت لي إن التكرار هو عملية ذهنية اجترارية للأغبياء الذين لا يفهمون ولا يفكرون، فيما الإبداع يتعلق باكتشاف الجديد، ثم أوجدت لي حلاً رياضياً عملياً للتعداد بعيداً عن الغباء، لا تستطيع الملائكة أن تعمل أمامه شيئاً، فهذا علم وليس احتيالاً عليها. أقول اللطيفية مثلاً مرتين مع رفعها رياضياً إلى قوة أو أس عشرة، فيكون الناتج مئتي لطيفية. وهكذا قرأت اللطيفية مرتين فقط، ولكن مرفوعتين إلى أس خمسين ألف، فحصلت على مئة ألف بدقيقة واحدة، وهزمت الشيطان بضربة واحدة وحاسمة. وأنا أتفرغ الآن لزوجي الرائع المحب ولرعاية أطفالي".

أصبحت النسوة المريدات يجلسن أمام المنازل وعلى الشرفات وبقرب النوافذ، وبدلاً من تبادل الأحاديث الودية، أخذن يعددن المارة، والسيارات، والحمير، والكلاب، والعصافير، والنملات، والحصى..... بانتظار المسلسل التلفزيوني اليومي. انتقلن بعد ذلك

لعد التفصيلات الجزئية، فتعد إحداهن الرجال المارين في الشارع ضمن مجموعات محددة، رجال بصلعة، رجال بكرش، رجال ببنطال، بشروال، بجلابية، رجال بأعضاء نائمة، نصف منتصبة، منتصبة بالكامل..... وعندما ينتهي المسلسل اليومي، يذهبن إلى الفراش، ويعددن الأحلام التي لم تتحقق، يعددن المطاعم، والفنادق، والملابس، والمجوهرات، والسيارات، والعشاق..... كل ما حلمن به ولم يتحقق.

باعت الشيخة حسنية كل السُبحات في صناديقها، وأحضرت صناديق جديدة منها حتى أتخمت الأسواق بها. وبعدها أعلنت النفير الإيماني، داعية إلى اجتماع موسع لكل المريدات، وخاطبتهن "السُبحات أصبحت موضة قديمة، غير متناسبة مع التطورات الإلكترونية المتسارعة، وإضافة إلى ذلك فقد كشفتنا أمام أعدائنا، ليس فقط العلمانيين الملحدين، وإنما أيضاً المجموعات الأخرى التي تدعي السير على خطى الإيمان القويم، وخاصة الصحراويين. سننتقل الآن من العمل العلني إلى العمل السري، سنتحول تماماً إلى تنظيم سري، ولأجل هذا سنستبدل السُبحات بالعدادات الإلكترونية التي لا تخطئ. ومع أنها رخيصة الثمن، ولكن يمكن العد بها حتى العشرة ملايين بدقة شديدة، والأهم من ذلك فهي تضمن السرية بالكامل، إذ يمكن وضعها في جيب المعطف والكبس على الزر بصمت وهدوء دون إثارة ريبة أحد، فيصبح التعداد سرياً بالكامل..... التنظيم السري يعني العَّد السري".

تتحدث الآن النسوة من جديد على الشرفات والأسطح والنوافذ وعلى الهاتف حول نتائج العد..... الإلكتروني هذه المرة:

" جلست وأدخلت يدي في جيبي مع العدادة، التي استقرت فوق عانتي تقريباً، أخذت أكبس وأعد اللطيفية بشكل سري لا يلفت الانتباه، ولكن ما أن وصلت إلى الثلاثين حتى شعرت بالإثارة بسبب

رتابـة الموجـات الـتي اجتاحـت قـسمي النـصفي وغمرتـه، لم أعـد أحتمل، فأخذت أعد التعويذات, أريد أي أحد ليخفف من توتري!".

" وأنا حدث معي ذلك ......".

" وأنا أيضاً حدث معي ذلك......".

" لمـاذا لا تـأتين لعنـدي، ونعـد معـاً دون عـدادات، فتغمرنـا الموجات المشتركة المنتظمة معاً، ولننسَ الشيطان ونتركه عند الشيخة حسنية".

* * *

خدوجة البكر

أخذ شباب البلدة يسافرون شرقاً إلى بلاد الصحراء، سمعوا عن رائحة الذهب الأسود، ذهبوا وغرقوا في عطش الرمال. وبعد سنوات طويلة، رجعوا بأموال قليلة تبددت بسرعة، ولحى مشعثة ازداد طولها، وعقول غبارية ضاق أفقها.

وسافرت أنا غرباً إلى سلومانيا من أجل الدراسة، وقد سمعت أن هناك الينابيع الملهمة لنضالات الفقراء في العالم، وبدلاً من ذلك غرقت في صقيع الثلوج والقلوب، وشاهدت كيف يحاصر الاستبداد الأجساد والعقول والأحلام. وبعد سنوات طويلة، رجعت بكتب كثيرة عن العقلانية الباردة، وبصقيع قاسٍ في القلب، بثتها فيه ذوات العيون الرمادية. رجعت هارباً إلى حلمٍ عن العيون العسلية، كي يشتعل دفء القلب من جديد، كما كان في شارع العشاق. واكتشفت أن الينابيع الملهمة التي تلمس الحياة بعمقها هي في القلب المشتعل والمنفتح نحو الجميع، القلب الذي يختبر الحنين والحلم في تفاصيل الحياة اليومية، لا في الأوهام. وعرفت عندئذٍ أن ما يسمى الينابيع الملهمة، سواء كانت في بلاد الصحراء أو في بلاد الثلج، هي أوهام نبنيها نحن بأنفسنا في خيالاتنا ونركض وراءها، فإذا هي سراب. وعلى العكس من ذلك، فإن انفعالاتنا الإنسانية البسيطة وحدسنا العفوي هي البوصلة التي تجعلنا نلتقي مع الآخر دون تعقيدات الكره والتحريم، وعندما نقترب منه بالقلب نكتشف أنفسنا من خلال التعامل معه، فتصبح عندئذٍ الحياة بحد ذاتها نبعاً ملهماً منفتحاً، بدلاً من التقوقع على ذواتنا وسراباتنا.

سافرت إذاً إلى سلومانيا، وتركت في البلدة فتاتي الجميلة التي عرضت عليها الزواج والسفر معي، كانت مشوشة الذهن، حائرة بين

حبي لها وتهديدات الشيخة حسنية بعذاب الجحيم. شرحت لها أن الجحيم الذي تتحدث عنه الشيخة حسنية هو في أوهامها فقط، في حين أن الجحيم الحقيقي موجود في رمال الصحراء، والنعيم مقتصر على قصور الأمراء هناك، بينما نحن سنذهب للدراسة واكتشاف عالم آخر، حيث لا جحيم ولا نعيم، ببساطة سنذهب إلى عالم واقعي..... سافرت وتركتها دون أن تستطيع اتخاذ قرار حاسم في ضياعها، ولكن الفتاة الجميلة تحولت إلى الفتاة الحزينة بعد فقداني، وعندما شعرت بقسوة العلاقة مع الشيخة حسنية وعبثيتها، تحولت الفتاة الجميلة والحزينة إلى الفتاة الناقمة.

وبعد سفري التقى الشاب الناقم على الشيخ حسني مع الفتاة الناقمة على الشيخة حسنية، حدثها عن نقمته الشديدة، وحدثته عن نقمتها الحزينة، وتذكراني بحنين شديد وأمل للمستقبل. كتبا لي رسالة مشتركة طويلة، تلقيتها في سلومانيا، عبرا فيها عن مشاعرهما لافتقادي. لن ينسيا أبداً، هما والكثير من الناقمين والناقمات في البلدة، أن البداية اشتعلت بسببي، عندما أحرقت الغولة والمُذرة ورفاقهما الجن، الذين كانوا يعيشون ويعبثون في الغيضة والبساتين والحقول المحيطة بالبلدة، مع أن الحادثة كانت قضية شخصية خاصة بي بالكامل ضد الرجل الغاضب.

كانت حياتي غريبة ومضطربة ومعقدة في السنوات التي فصلت ما بين حادثة حرق الأوهام والكوابيس الجنية وسفري إلى سلومانيا، غرقت وقتها في عوالم متعددة ومتناقضة بغرابتها. كنت أقرأ بجنون كل ما يقع تحت يدي من مجلات وكتب، منشورات سياسية، وروايات عاطفية، ومغامرات بوليسية، وقصص إباحية، وحكايات خيال علمي، ومقالات عن علوم الفلك، ونصوص فلسفية. وهذا كان يغذي لديَّ بقوة أحلام اليقظة المستمرة التي كانت ترافقني، ليس فقط في السرير، وإنما أيضاً في الحقل وأنا أسقي المزروعات، وفي أثناء

نزهات شارع العشاق المسائية، وفي الطريق إلى المدرسة، ومن ثم في الحافلة التي تقلني يومياً إلى المدينة لمتابعة محاضراتي الجامعية.

وبعد موت والدي المفاجئ، والذي كان غريباً عني بما فيه الكفاية، أصبحت التوترات اليومية الشديدة سمة مميزة في حياتي، مما جعل الحدود الفاصلة بين الحياة اليومية وأحلام اليقظة واهية تماماً، أو بالأحرى ممحية، بحيث كانتا متداخلتين بالكامل. كما إن موت الرجل الغريب هذا، الذي تركنا فجأة أنا وجيشاً من الإخوة الصغار في عالم مرعب من الفقر، قد ارتدَّ عليَّ بكوابيس ليلية قاسية، ثم أصبحت ليلية ونهارية متواصلة. فأصبح حلم اليقظة ينتهي في أحيان كثيرة بكابوس، وبالمقابل أخذ الكابوس يستمر في حلم اليقظة، وكلاهما يحدث في الغرفة، أو في الشارع، أو الحافلة، أو في صفوف المدرسة، ومن ثم في قاعة محاضرات الجامعة. وترافق ذلك مع عشقي للسينما، التي كانت التسلية الوحيدة في البلدة الصغيرة، فأصبحت أعيش الواقع فيلماً سينمائياً، والفيلم السينمائي واقعاً، فأرى الناس الواقعيين حولي أبطال فيلم مستمر دون نهاية، ويأتي بالمقابل نجوم الأفلام ليمارسوا حياتهم السينمائية معي، في حياتي اليومية الواقعية.

وبسبب الضياع المتماوج والمتداخل في حياتي بين الوقائع، وأحلام اليقظة، والكوابيس، والسينما، فقد كنت أعيش في قلب الأحداث تماماً، ولكن دون المشاركة فيها، مراقباً فقط، أو بالعكس كنت أشارك فيها بفعالية، ولكن من بعيد، حتى دون الاقتراب أو ملامسة دوائرها البعيدة جداً عن المركز. وبهذا الانفلات من حصار الوعي الموجه، والضياع بدلاً من ذلك في بلبلة اللاوعي المنفلت، كنت أشعر أن الأحداث وأنا خطان متوازيان لا يلتقيان، إضافة إلى اختراقنا قوانين السببية على الخط الزمني الواحد. وفي أحيان أخرى كانت الأحداث تسبقني، فأصبح بليد التفكير غبياً ومشوشاً، أو أستبق الأحداث، فأصبح صافي البصيرة متنبئاً بها بحدس خارق.

وكانت الصراعات السياسية والاجتماعية بين الأطراف المتنازعة في البلدة باختلاف توجهاتها قد وصلت إلى أوجها في ذلك الوقت، ولم يكن من الممكن لأي كان أن يقف متفرجاً، ومن الطبيعي أن أشارك فيها مع الآخرين، ولكن على طريقتي المعقدة، أشارك فيها بفعالية، ولكن من بعيد دون الانخراط فيها. وهذا ما كان يؤدي بالنتيجة إلى أن أعرف الكثير، ولكن دون أن أتفاعل، والمعرفة هذه تغذي بقوة أحلام اليقظة والكوابيس لدي، في حين أن التفاعل الذي يجعل الاندماج مع الواقع قوياً كان مفقوداً..... وكانت النتيجة هو توالد مستمر وغني للعوالم الداخلية لدي، والتي تتصادم بعنف فيما بينها، إلا أنها تأبى الانسياق إلى مجاري العوالم الماورائية، بسبب تناقضها مع العالم الخارجي الذي كان يفرملها.

وهكذا كان عمري عندما أحرقت الأوهام والكوابيس في حوالي الثالثة عشرة، وبعدها بحوالي عشرة أعوام قفز الشيخ حسني والشيخة حسنية من المحطات التلفزيونية الغبارية، ولكن الأعوام العشرة هذه مرت عليَّ بعام واحد..... كيف؟ لا أدري! وجدت نفسي فجأة في الثالثة والعشرين، وقبلها بعام واحد كنت في الثالثة عشرة، مع أنني أتذكر كيف عشت حوادث الأعوام العشرة هذه بتفاصيلها الدقيقة، وكأنها انضغطت في شريط سينمائي، موجود أنا في داخله وأعيشها، وفي الوقت نفسه موجود أنا خارجه وأراقبها.

كنت أنا الصبي الذي أحرق الغولة والمُذرة ورفاقهما الجن، وسأصبح فجأة الشاب الذي أحب الفتاة الجميلة، وهي التي ستتحول إلى الفتاة الناقمة على الشيخة حسنية بعد سفري إلى سلومانيا. ولكن كنت أنا نفسي أيضاً الشاب الناقم على الشيخ حسني، والذي أستمع إلى مكالمته الهاتفية مع الشيخة حسنية على الخط الأحمر الساخن. وبالأصل كنت ناقماً على نفسي كلما تذكرت أنني أشعلت الشموع عدة مرات للعوسجي في أثناء طفولتي، وناقماً على الشاب الذي ذهب لعند الشيخ حسني للحصول على رقية لشفاء والدته المريضة،

ثم تراجع بعد أن شاهد خروج الكائنات الغريبة من التلفزيون، وقرر البحث عندئذٍ عن طبيب، وكنت أنا من بحث عن طبيب.

وعندما سافرت إلى سلومانيا للدراسة والبحث عن ينابيع نضالات الفقراء في العالم، تلقيت رسائل من الشاب الناقم على الشيخ حسني، والذي كان أنا في البلدة، ليشرح لي الوقائع الغريبة التي تحدُثُ فيها فترة غيابي، وخاصة مع خدوج البكر و" أبو حسين "و" أبو خالد". ثم التقى هذا الشاب الناقم مع الفتاة الناقمة، التي كنت حبيبها الرومانسي وعرضت عليها الزواج والسفر، ومن ثم بدؤوا بكتابة رسائل مشتركة إليَّ.

وعندما رجعت من السفر، وجدت حبيبتي القديمة الناقمة قد تزوجت من الشاب الناقم الذي لم أعد أكونه، وقد أصبح لديهما طفلان، صبية ناعمة وجميلة مثل والدتها في الثامنة من عمرها، وصبي حيوي رشيق مثل والده في الخامسة من عمره. وعندما زرتهما بعد عودتي من السفر، تركني معها زوجها، الشاب الناقم الذي كان أنا، وحدثتني طويلاً عن حبها القديم لي. وعندما رجع زوجها جلسنا ثلاثتنا مع الأطفال للعشاء، وشربنا الكثير من النبيذ، وحاولنا نحن ثلاثتنا ـ أنا الذي سافرت، وأنا الذي كان في البلدة وأصبح هو بعد السفر، وهي التي أحبتنا وتزوجت في النهاية الذي بقي في البلدة ـ إعادة ترتيب الحوادث، منذ حرق الأوهام والكوابيس الجنية إلى حرق منزليَّ الشيخ حسني والشيخة حسنية، ومن ثم التدَّخل المفاجئ السري جداً "لأبو رعد "لمصلحتهما.

كيف حدث لي كل هذا؟ لا أعرف! ألم أقُلْ إن الوقائع في حياتي اختلطت بأحلام اليقظة، وبالكوابيس، وبأفلام السينما! وألم أقُلْ إنني أشارك بالأحداث على طريقتي المعقدة !..... عوالم داخلية تتلاقى مع العالم الخارجي، فتنضغط، وتتقاطع، وتتكسر، وتتفتت، وتتبعثر، وتتركب بأشكال جديدة، ومن ثم تسير زمنياً في اتجاهات مختلفة..... ولكن ما يجمعها هو أنني موجود فيها، وغالباً ما أكون في بؤرتها.

كنت قد تركت شقاوتي الريفية وحب المغامرة في عام واحد، وأصبحت رصيناً وقلقاً في الثالثة والعشرين من عمري، وبالتحديد في بداية أزمنة المحطات الفضائية الغبارية، تحولت فيها من صبي جريء مليء بالتحدي إلى مواطن صغير خائف، أصبح الخوف نوع من التقية للنجاة من أجهزة الاستقرار.

وطوال هذه الفترة كان "أبو حسين "لايزال يقفز من فوق الجدار لعند خدوجة البكر، استمر القفز عشر سنوات ولم يفكر بالزواج بها، فزوجته المرحومة أوصته بعدم إدخال امرأة ثانية إلى البيت، وخدوجة البكر وجدت متعة في أن يمتلك جسدها رجل حقيقي دون أن تفقد بكارتها، فاستمرأت الوضع وقد أصبح تحقيق حلم الزواج بعيداً جداً. تنتظر "أبو حسين "مساءً عندما يرجع بالقطيع، وما أن ينام الجميع حتى تتلقاه في هدأة البستان تحت شجرة حانية، أو في غرفة المؤونة بين أكياس الطحين والسكر والرز وأوعية الزيتون والمكدوس، أو على السطح المسور تحت ضوء القمر. يُمضيان قسطاً من الليل، وينهض هو في الصباح متثاقلاً مع قطيعه إلى المرعى في الجبل..... وكان هناك الكثير من المختنقين المحرومين مثل "أبو حسين "يقفزون في الليالي من فوق الجدران، والكثيرات من المختنقات المحرومات مثل خدوجة البكر ينتظرن عشاقهن تحت الجدران. السنة بعشر سنوات، والعشر سنوات بسنة، والحكاية نفسها تتكرر، ولا علاقة لها بظهور المحطات التلفزيونية الغبارية وانسلال الشيخ حسني والشيخة حسنية منها، فالعشاق موجودون في كل أزمنة الاختناقات الإنسانية وأمكنتها، والقفز من فوق الجدران مستمر..... ولكن في حكاية "أبو حسين "وخدوجة البكر التي عشتها أنا سيحدث شيء غريب غير اعتيادي، شيئ يقلق صفو البلدة ويملؤها بالاضطراب بسبب تدخل الشيخ حسني والشيخة حسنية، ولن تنتهي الحكاية هنا على خير.

تقول خدوجة البكر "لأبو حسين " " خذني بقوة بين ذراعيك،

ودعني أنصهر فيك، قبلني في كل مكـان مـن جـسدي، أفعـل بي مـا تريد، ولكن اتركني بكراً، أخـشى الفـضيحة، سـتكون مجلجلـة بعـد هذا العمر".

يأخذ "أبو حسين "خدوجـة البكـر بـين ذراعيـه القـويتين، يعـري جسدها الأربعيني بالكامل، يحنو بفمه علـى كـل مـساحة فيـه، مهمـا كانت صغيرة ومغرقة في الحميمية، فتصرخ مـن المتعـة الكثيفـة الـتي توقظها شفاهه المتجولة وراء عطر الجسد، ولمساته الناعمة في الثنايـا الرقيقة، وهمساته المليئة بالشوق، وقد تحول الرجـلٍ القـوي القاسـي الذي لا يهاب الضباع والأفاعي إلى أكثر حالاته نقـاءً وصـفاء. تـصرخ وتنتشي، وينتشي لصراخها، فيقذف مـاءه علـى جـسدها أينمـا جـاء. يُسران لمرأى ماء الحياة النافر يهطل على الجسد الناعم، فتغتسل به.

تقول له خدوجـة البكـر "اغـسل جـسدي كلـه، عينـاي، فمـي، ثديي، بطني، عانتي، اغسل روحي، ولكن دعني بكراً".

يغسل "أبو حسين "جسدها كله بماء الحياة، ويغسل عانتها بشكل خاص، وهو ما كانت تطلبه بشوق شديد في ذروة انفجارها، فيغـسلها كلها، إلا أنه يتركها بكراً..... ولكن من كان يدري أن بضعة نقاط مـن ماء الحياة ستتسلل في أحد أيام ذروة شهوتها عبر ثقب صـغير طبيعـي في بكارتها. تنسل منه حيواناته المنوية الـصغيرة الخبيثـة إلى الـداخل، تسبح وهي تتقافز نحـو الأعلـى، تجـذبها رائحـة الـدفء والرطوبـة، وينجح أقواها في الوصول إلى بويضة الحياة، التي تتلقاها بكـل عـشق وحنان. يغمر الجسد بكل دفئـه البويـضة الملقحـة، فهـذه هـي المـرة الأولى التي يختبر نفسه في مسيرة الـزمن الـسرمدي، حيـث سـتتبرعم شجرة الحياة فيه، ولكن خدوجة البكر ستبقى بكراً..... هكذا تـسللت هذه النقاط الخبيثة، دون أن يخترقهـا العـضو الـذي تـصاب بـالجنون لمجرد مرآه.

أحست خدوجـة البكـر بتحـولات غريبـة مفاجئـة في جـسدها،

انقطع دم طمثها، وداهمها الغثيان، وانـتفخ بطنـها، فأصـابها الرعـب وانعزلت في غرفتها، لا تنام، ولا تأكـل، ولا تـشرب، وبطنـها يكـبر ويكبر، دون أن تستطيع أن تفهم ما يحدث في داخلها، ولم يعد يعثـر عليها "أبو حسين "أسفل الجدار. لاحظ الأهل تورم بطنـها وانتفاخـه، لم يعد الوضع قابلاً للاحتمال والسكوت عليه، لابد أنه أصابها مـرض خبيث، لم يفكر أحد ما بإمكانيـة حملـها، فخدوجـة البكـر لا تغـادر البيت، ولا البستان الواقع أمامه، وهي لا تعـرف أحـداً مـن الرجـال. اجتمعت النسوة العجائز ومعهن الداية التي وَلَّدت معظم نساء البلـدة، فحصوها، وكانت المفاجأة الكبيرة، اكتشفوا أنها حامل! ولكن كيـف ذلك وغشاء بكارتها لايزال موجـوداً وسـليماً! خدوجـة البكـر التقيـة والشريفة والطاهرة والصابرة حامل، ولكن دون أن يقترب منها رجـل! هذه ليست فضيحة، هذه معجزة، إشـارة مـن الـسماء علـى الخـراب والفساد الذي يحـدث في البلـدة، وسـيأتي بهـذا الحمـل المنقـذ مـن الضلالات التي سادت بكثرة فيها.

انتشر الخـبر بـسرعة النـار في الهـشيم، خدوجـة البكـر التقيـة، والشريفة، والعفيفة، والصابرة، حامـل، ولكـن دون أن يقتـرب منـها رجل. توافدت النسوة إلى بيـت أهلـها، يُعـدن الفحـص والتأكـد مـن إشارة السماء، حامل وغشاءها سليم! وخدوجة البكر حائرة وصامتة، و" أبو حسين "أيضاً حائر وصامت، ولكنه متوفز ومترقب، لا يفهم مـا يحدث. لم يرتكب معهـا أي خطـأ، فهـو لم يـدخل بهـا أبـداً، إلا إذا كانت قد حملت من فمها! هرب "أبو حسينٍ "مـع قطيعـه إلى الجبـل، وأقام هناك حائراً قلقاً، تمـنى لـو تعـود المـُذرة لتعبـث معـه وتـسليه لتجعله ينسى، ولكن صديقه الصبي الناقم كان قـد حرقهـا منـذ زمـن بعيد.

إشارة من السماء، ضلالات وبدع في البلدة! انتـشرت حكايـات جديدة عن الحمل دون رجـل، كـان النـاس قـد أصـابهم الملـل مـن حكايات البيض المسحور والأفاعي التي تتسلل إليـه، ومـن حكايـات

سيوف مجاهدي الفتوحات المجيدة، وأصابهم الملل أيضاً من حكايات السُبحات والعدادات، التي أثبتت أنها غير عملية، ليس في طرد الشياطين، بل أصلاً في الكشف عما إذا كانوا موجودين أم لا. أما حمل خدوجة البكر فهذه إشارة قوية ومغايرة من السماء لضلالات وبدع انتشرت في البلدة، والأنظار تتجه إلى الشيخ حسني والشيخة حسنية باللغط والاتهامات المبطنة، وقد انحسرت شعبيتهما بشكل كبير بعد انكشاف قداستهما الزائفة.

تأخذ الشيخة حسنية المبادرة لتبعد عنها الهمسات التي أخذت تعلو، أعلنت "نعم إشارة من السماء، خدوجة البكر عفيفة ومباركة، اختارتها السماء معجزة لنا، وسيأتي من رحمها مخلص البلدة من ضلالات الشيخ حسني، هكذا تحدثت رؤية الآنسة المقدسة في المدينة ببصيرتها المباركة من السماء".

يدافع الشيخ حسني عن نفسه معلناً هجوماً شرساً مضاداً "إشارة من السماء، نعم، ولكن خدوجة ممسوسة، عشقها جني كافر يتلبس جسدها، سيأتي ابن الجن من رحمها ليزيد من انتشار بدع الشيخة حسنية".

ترد الشيخة حسنية "كثير من النساء التقيات الطاهرات في تاريخ مسيرة الإيمان القويم حملن في أرحامهن دون أن يقترب منهن رجل، نفخة من روح السماء تأتيهن في أثناء رؤيا مباركة، وتتجسد في مخلص ينمو داخل الأرحام، ويولد على الأرض في مهمة سماوية لينقذ مسيرة الإيمان من الضلالات. هنا تتبدى قوة بصيرة الآنسة عندما تدعو الفتيات إلى التبتل والطهارة، بعيداً عن دنس الرجال الحقيرين، فقد تختار السماء إحداهن وتحمل بمخلص ينقذ العباد من شر انحرافات الصحراء".

يرد الشيخ حسني "ما تدعين إليه هو كفر وشرك، هذه خرافات الجاهلية عن زواج الآلهة من البشر ليلدوا أنصاف آلهة، والعياذ من

الخرافات. هذه أوهام الكافر والمشرك والملحد زرادشت الذي يُحكى أنه ترك حيواناته المنوية في بحيرة يسميها أتباعه مقدسة، لتتلقح بها عذراءهم وهي تسبح، فيولد منها مخلص آخر الزمان، والعياذ من الأوهام".

" خدوجة البكر مباركة وطاهرة الذيل، والدليل على ذلك أن بكارتها لاتزال سليمة، بينما أنت تتحدث عن نساء يتلبسهن الجن لتغطي على ما تفعله بهن أنت ومريدوك، تغتصبوهن بحجة إخراج الجني من أجسادهن، فإذا ما حملن تقولون إن هذا من فعله، وعند الفحص يظهرن دون بكارة بعد أن مزقتها أعضاؤكم القبيحة وعقولكم المريضة".

" تقولين ذلك كي تغطي على ميولك المنحرفة نحو النساء، ولكي تبعديهن عن الرجال وتتلذذي بهن، وتكذبي حقيقة الجن المؤكد وجودهم من السماء، وتختلقين خرافات لا أساس لها".

" أنت تنكر إذاً وجود ستنا وحملها من دون أن يمسسها بشر".

" أنت تدعين لتجسد الإله والشرك والتعددية، حتى الإله لم يسلم منكن أيتها الصوفيات المنحرفات عندما تدَّعين عشقه، والعياذ من خرافاتكن".

أُعلنت الحرب المقدسة بين الشيخ حسني والشيخة حسنية، استنفر المريدون واستنفرت المريدات، وبدأت حملات نشطة من الدعاية والدعاية المضادة. خدوجة البكر مباركة، هذه بدعة، خدوجة ممسوسة، هذه ضلالات. تم تجاوز الخطوط الحمر والخضر والسود والاتفاقات الضمنية بين الطرفين، من يثبت رؤيته سيسيطر على البلدة، وسيجتاحها بالضربة الإيمانية القاضية. جاءت التوجيهات من الصحراء، وجاءت التوجيهات المضادة من المدينة، وكان هناك من يراقب من الجبال البعيدة، فالمخلص من عندهم، ولا يحق لأحد غيرهم التحدث باسمه.

التوجيهات تؤكد "ينبغي التحرك الآن من النشاط الدعوي إلى الفعل لإثبات الإيمان الصحيح والقويم، وخدوجة البكر هي المعيار".

ذهبت الشيخة حسنية مع مريداتها لعند خدوجة البكر، دخلن إليها الواحدة تلو الأخرى، والتففن حولها، تلمسن حملها المبارك بالاختيار السماوي، وتباركن به، فيما هي لا تشعر بما يحدث حولها، ضائعة وغارقة في آلامها الجسدية، وفي رعبها الذي يشتد مع مشاهدة أفواج من النساء يدخلن ويخرجن، يتفحصن عالمها السري الحميمي، الذي لم تكشفه بإرادتها إلا "لأبو حسين "فقط. وهاهم الآن المريدات ينظرن إليها بغرابة، يدرن حولها كالمهووسات، ولا أحد يقف بقربها لينقذها منهن، فأهلها البسطاء صامتون وحائرون، و" أبو حسين "مختفٍ في الجبال. تمنت خدوجة البكر لو تغيب عن هذه الدنيا وتبتلعها الأرض، وغابت عن الدنيا، وارتمت على الأرض مختلجة، ولكن لم تبتلعها.

قالت المريدات وهن ينظرن إلى المختلجة على الأرض "هذه علامات الاتصال الروحي مع السماء، مباركة أنت يا خدوجة، يا طاهرة يا مقدسة، مبارك القادم منك منقذ هذه البلدة".

انتظمت المريدات في ثلاث دوائر حول خدوجة البكر، المتمددة على الأرض والغائبة عن الوعي. تشكلت الدائرة الأولى من أجساد داعيات الصف الأول، الطاهرات اللواتي لم يمسسهن رجل، يدرن متشابكات الأيدي ويصدرن همهمات وتمتمات بأصوات مختنقة. وتوسعت الدائرة الثانية حولهن إلى الفتيات المرهفات الحس حاملات الدفوف، والتي أخذ إيقاع الضرب المنتظم عليها يتداخل ويتناغم مع الأصوات المختنقة، وقد تحركن باتجاه معاكس للدائرة الأولى. ووقفت في الدائرة الثالثة الأكبر النساء المتقدمات في العمر، حاملات مشاعل النار ومحرقات البخور، وأخذن يؤرجحنها يميناً ويساراً، وإلى الأسفل والأعلى، تاركات دفقات أمواج من دخان

المشاعل المختلط بروائح البخور تنطلق في الهواء الذي أصبح سميكاً وكثيفاً، لترتسم بها خيالات أشباح مجنونة تتقافز في فضاء الغرفة وتختفي.

ضج فضاء الغرفة بالأصوات المُهَمهمة، والحركات المتأرجحة، والأنوار الملتهبة، والروائح الخانقة، مُزنرة كلها بأحزمة النار التي أخذت تعصف ضاربة الهواء في تأرجحها بأيدي النسوة. استيقظت خدوجة البكر على الضجيج، فوجئت وذهلت مما شاهدته، وهي التي لم تغادر في حياتها عالمها الصغير المكون من البيت والبستان، مجنونات وشيطانات يتراقصن في الهواء ويقفزن على أحزمة نار، يهمهمن بفحيح الأفاعي، فيما تُقرع الأبواب والنوافذ وكأنها تعلن نهاية العالم، والهواء يدفع إلى الاختناق بدلاً من الانتعاش. غابت عن الوعي من جديد، رعباً هذه المرة، ولكن مع غياب الوعي هذا كانت قد فقدت نصف عقلها مما شاهدته..... وانتصرت مريدات الشيخة حسنية هذه الليلة، اللواتي لم يتركنها إلا وقصصن خصلات من شعرها المبارك، ليتوزعنه شعرة شعرة بينهن، وسيقمن بتغليفها بجيوب بلاستيكية شفافة، تُعلق على الرقبة حرزاً من الشيطان.

استيقظت خدوجة البكر في اليوم التالي نصف ميتة، نصف مجنونة، أصبح شعرها منفوشاً، ووجهها متورماً، ويداها تملؤها القروح، وثيابها مهترئة ممزقة. تضرب نفسها دون أن تستطيع إبعاد المشهد الشيطاني الذي رأته ليلة البارحة من ذاكرتها، تصرخ وتنقلب شرسة إذا ما شاهدت أحداً غريباً، وتنشب أظافرها فيه إذا ما اقترب منها. حار الأهل فيما يفعلون، وهم يرون خدوجة البكر الهادئة والناعمة والصامتة وقد تحولت إلى مجنونة شرسة ببطن منتفخ، يكبر أكثر فأكثر مع كل يوم، وهي تذوي دون أن يستطيعوا فعل شيء لها.

جاء الشيخ حسني ومريدوه، استقبله الأهل صامتين حائرين، عسى هو من يخلص خدوجة البكر من جنونها بعد أن فشلت الشيخة

حسنية. دخلوا إليها في الغرفة، هربت إلى الزاوية، وانكمشت وهي تكشف عن أنيابها وتلوح بأظافرها. زأر الشيخ حسني محدقاً بعينيها مهدداً "إن كنت مؤمناً أيها الجني اخرج بسلام من الجسد وغادرنا، وخذ معك ابن الجن المعشش في الرحم، أعطيك الفرصة لثلاث مرات ولن أكررها بعد ذلك".

تصبح خدوجة البكر لبوة شرسة وتجأر مرعوبة ومُرعِبة، فلازال في نصف عقلها السليم ذكرى ما فعلته المجنونات والشيطانات بها، ولكن الشيخ حسني يرى في صراخها تَمنع الجني عن الخروج من الجسد، فينادي بعنف من جديد "للمرة الأخيرة أهددك، إذا لم تخرج فأنت من الجن الكافر، وسأخرجك بالقوة، سأضربك بالعصا وأحرقك بالنار".

تجأر خديجة أكثر فأكثر، يقترب منها أربع من المريدين، يسيطرون عليها بصعوبة بعد أن أمسكوها من أطرافها الأربعة بقوة، يرفعون ساقيها عالياً فينكشف عريها السفلي، يتناول الشيخ حسني عصا غليظة ويضربها بشدة على قدميها وهو يتمتم طلاسمه السحرية، فتصرخ وتتلوى من الألم. وكلما صرخت وتلوت ترتفع وتيرة غضبه وتزداد قوة ضرباته، ويصرخ "ستخرج يا كافر، لم يُعَند عليَّ أحد من قبل مثلك".

أصبحت الضربات تتالى في كل أنحاء الجسد، فيما أشعل أحد المريدين ناراً أخذ يقربها ويبعدها منها وهو يصرخ "أهددك أيها الجني الكافر بالنار، عليك أن تخرج وإلا أحرقتك بالنار".

أصابت الضربات البطن والرحم، فأخذت خدوجة البكر تنزف وغابت عن الوعي، فهدأت أخيراً، قال الشيخ حسني عندئذٍ "لقد خرج وانتهينا منه".

ولكن خدوجة البكر كانت قد فقدت نصف عقلها الثاني، وتحولت إلى مجنونة بالكامل..... انتصر مريدو الشيخ حسني هذه

الليلة، فلقد أخرجوا الجني وابنه من جسدها، تـراءى لهمـا يخرجـان من خلال الدم النازف من بين فخذيها، ذهبوا وقـد تركوهـا مطروحـة على الأرض شبه ميتة.

حضرت النسوة إلى الجسد المتورم والمضرج بدمائه وقد شـارف على الموت، جاءت الداية لتضمد الجـراح، ولعنـت الـشيخة حـسنية والشيخ حسني والساعة التي دخلا فيها البلدة، أعلنت أن حالتها سـيئة جداً، وحملها قد سـقط ولم يعـد لـديها بكـارة. اسـتيقظت المجنونـة خدوجة التي فقدت الآن عقلها وبكارتها بالكامل، تغير عليهـا المنظـر الآن، القريبات والجارات يجلـسن حولهـا دامعـات الأعـين وينـتحبن بصمت، لم تعد تمتلك لا عقلـها ولا روحهـا ولا جـسدها، ولم يعـد لديها القدرة على إدراك ما حولها، تنظر ساهمة وصامتة طوال الوقـت إلى نقطة ما في السقف، لا تحيد بصرها عنها .

مـرت أيـام وحالـة خدوجـة الـتي لم تعـد بكـراً لا تـتغير، بـل وأصبحت تسوء أكثر، اجتمع العجائز مـن الرجـال والنـسوة وتـداولوا الأوضاع، قالت أكبرهن "طول عمرنا نلجأ إلى الشيخ ياسين، والشيخ العوسجي، وشجرة الزيتون المقدسة، هؤلاء هم الذين يحمون البلـدة ببركتهم منذ الماضي البعيد جـداً، مـن الـذي أحـضر الـشيخ حـسني والشيخة حسنية إلى البلدة؟ هؤلاء المجانين الكفرة، لقد تركوهـا شـبه ميتة بدلاً من أن ينقذوها".

وأردفت عجوز أخرى "كان من الأجـدى لنـا أن نأخـذها إلى بئـر الشيخ ياسين، ونتركها تنام هناك ليلة بعد أن نشعل لها شموعـاً، كمـا هي العادة لدينا منذ زمن بعيد، فتعود صحتها ببركته وتشفى".

قال كبير العجائز "لقد أخطأنا نحن أصلاً عندما سمحنا للـدجالين الشيخ حسني والـشيخة حـسنية بالنيـل مـن كرامـات الـشيخ ياسـين، فلنأخذها إلى البئر".

وبئر الشيخ ياسين مغارة قديمة، ينهض فوقها قـبره علـى مرتفـع

صغير، وقد بنيت حوله غرفة كبيرة، تحولت إلى مزار شعبي. وتقول الحكاية ن هذه المغارة كانت تؤوي الهاربين من الغزاة، فتُعمى عيونهم عن مشاهدة المختبئين فيها بفضل حماية روح الشيخ ياسين التي تستقر فيها. وقد سقط في زمن ما جدار الغرفة الطيني، الواقع فوق المغارة والمتداعي مع الزمن، ليغلقها بركامه، لم تستطع بركة الشيخ ياسين أن تحافظ عليه. ولم يبق من ممر إليها سوى طريق ضيق من الأسفل، يظلله سياج العليق الكثيف، الذي نمى بجانب عين ماء صغيرة تنبع من مدخلها، بالكاد يجري بعض من مائها إلى الخارج. وبعد تجديد المزار، سُميت المغارة بئر الشيخ ياسين بسبب عمقها والعتمة والرطوبة فيها، حيث يسود الصمت، ماعدا صوت خفيض لقطرات ماء النبع المتقافزة على الأحجار الصغيرة، تُذكر بتجوال روحه فيها..... هكذا يروون.

يتداول الناس حكايات كثيرة عن المغارة البئر، مرتبطة بكرامات الشيخ ياسين، والتي استمرت بالحدوث حتى بعد موته، فجدار المزار الطيني من جهة المغارة انهار فوق مجموعة من جند والٍ ظالم مستبد، أرادت تدنيس القبر بحفره وسرقة الذهب الذي قيل إنه مخبأ فيه، لا بل يؤكدون أن جثثهم لاتزال تحت الركام حتى الآن. ومنذ تلك الأزمان يُحضر أهالي البلدة والقرى المجاورة مرضاهم إلى هذا البئر، يدهنون أجسادهم بزيت زيتون مقدس موضوع في كوة قرب البئر، ويشعلون الشموع حولهم، ثم يتركونهم يقضون ليلة فيه كي يشفوا، ويُحضرون بشكل خاص أولئك المجانين المباركين الذين لم تنجح معهم معالجات أعشاب عجائز البلدة وطلاسمهم السحرية. ويتوافد الناس إلى هنا أيضاً لملئ زجاجات من مياه النبع المقدس، يتناولونها بكؤوس صغيرة كدواء للشفاء والوقاية من الأمراض.

وكيف لا يعتقد الناس بقداسة البئر، وكرامات الشيخ ياسين تحفظها ذاكرتهم، ويتم تناقلها من جيل إلى جيل، دون أن تستطيع

خرافات الدجالين الشيخ حسني والشيخة حسنية أن تبعدها من قلوبهم! فالحكايات تروي أن الشيخ ياسين سار فوق الماء، وارتفع بجسده في الهواء، وانتقل من زمان إلى زمان ليتصل بالأولياء الصالحين، وهو الذي كان يحدثه قلبه بما يجري في بلاد ما وراء النهرين، ولازال يتراءى في المنام للمباركين ليكشف لهم خبايا الناس والأحداث والأيام.

أما الراية الخضراء المقدسة المنتصبة فوق القبر، والتي تحتاج إلى عدة رجال لحملها ورفعها، فلها حكايات أسطورية غنية أخرى، مليئة بالحكمة والموعظة. لا تسمح لأحد أن يحملها إلا رؤساء العائلات الثلاث الشريفة النسب في البلدة، والتي ترجع بأصولها إلى الشيخ ياسين، لا تستكين إلا بأيديهم المباركة. وما أن يخرجوا بها من المزار في المناسبات الدينية حتى تكاد أن تطير بهم، فيتراكضون وراءها ويحاولون الإمساك بساريتها. تتجه مباشرة إلى شجرة الزيتون المقدسة، وقبر العوسجي، ومنزل السيد مبروك، تزورهم وتقف عندهم بعض الوقت، وكأن روح الشيخ ياسين فيها تتحدث معهم، ثم تستمر في الطيران، وهم يتراكضون وراءها من جديد. وعندما تصل الراية ساحة البلدة، تقف هناك منتصبة، مرفرفة ومتماوجة، ينفرد قماشها الذي يتطاول وينتشر في كل الاتجاهات فيغطيها كلها، ويتمدد حينئذٍ الناس تحتها أرضاً، لتمر الخيل من فوقهم بما يُسمى "الدوسة"، تدوسهم بكل ثقلها وثقل راكبيها، فلا يتأذى أحد من المتمددين، وكأنها تطير من فوقهم. ثم يأتي التلاميذ ورثة كرامات الشيخ ياسين، يقفون بظلها ويضربون أنفسهم بالشيش، يغرزونه في أجسادهم، في الخاصرة والخدود، دون أن تسيل منهم قطرة دماء، يشعلون النيران في مشاعل صغيرة، يمررونها على الأجساد ويبتلعونها في الفم.

هكذا تروي الحكايات المتناقلة من جيل إلى جيل عن كرامات الشيخ ياسين وتلامذته، عن بئره ورايته.

يسأل الشاب الناقم "لماذا منذ طفولتي لم يشاهد أحدٌ الراية تطير، وتجترح المعجزات في ساحة البلدة؟ لا أسمع سوى حكايات يتناقلها العجائز، ولا يستطيع أحد التأكد منها".

يجيبه العجائز "لأن أفراد العائلات الشريفة النسب في البلدة الموجودين الآن زاغوا عن الإيمان بخطى الشيخ ياسين، أصبح منهم السكيرون، والمقامرون، والداعرون، والسارقون، والمحتكرون، ولذلك لم تعد الراية الخضراء تثق بهم، تبقى في مكانها ساكنة حزينة، تختزن الغضب والنقمة في داخلها، لا أحد يستطيع زحزحتها أو إقناعها بالخروج من المزار. وليس الراية فقط هي من ترفض الخروج، فمنذ موت آخر تلميذ تقي للشيخ ياسين وعباءته البيضاء لاتزال مستقرة فوق القبر دون حراك إلى جانب عمامته، تأبى أن تطير وترتمي على شخص جديد وريث لقداسته، بالرغم من تزلف المريدين الذين يجلسون إلى القبر متصنعين الإيمان، يتمتمون بشفاههم أدعية ورجاءات، عسى أن تختار أحدهم. ولكن العباءة البيضاء، مثلها مثل الراية الخضراء، تعرف ما بداخل القلوب، وهو غير ما يرتسم على الوجوه".

يقول الشاب الناقم لهؤلاء العجائز "لقد قلبت الوثائق القديمة المهترئة، والمرمية في قبو دار البلدية القديم، واكتشفت شيئاً ما عن تعاون الشيخ ياسين مع سلطات الوالي المستبد القادم من الهضبة ضد انتفاضات الفلاحين الفقراء في المنطقة. وعندما مضيت أكثر في تقليبها، لاحظت أن هذه العلاقة القوية بين الولاة المستبدين القادمين من هناك مع العائلات المسماة شريفة النسب قد استمرت مقابل "وَقفْ "أراض واسعة بمحاصيلها وحيواناتها وبيوتها للشيخ وعائلاته الوريثة".

يصمت العجائز وكان شيئاً مبهماً ومض في ذاكرتهم عن أيام مجاعات أجدادهم الفلاحين، لقد استثارهم الشاب الناقم، فيجيبونه

"لقد ولدنا فقراء، ولازلنا فقراء مع أننا نحب الشيخ ياسين، أما أفراد العائلات الشريفة النسب فقد ولدوا أغنياء، ولازالوا أغنياء، وهم لا يقيمون اعتباراً للشيخ ياسين، تحول أفراد كثيرون منهم إلى مريدين ومريدات، يركضون وراء أمثال الشيخ حسني والشيخة حسنية".

وبما أن العجائز يكرهون الشيخ حسني والشيخة حسنية، ولازالوا يثقون بكرامات الشيخ ياسين الذي ترفرف روحه في مغارته البئر، فلم يكن أمامهم من مخرج لإنقاذ خدوجة التي لم تعد بكراً من جنونها سوى الذهاب بها إليه..... إلى البئر، ليتركوها تمضي ليلة به، فتصحوا في اليوم التالي معافاة الجسم سليمة العقل.

كانت خدوجة التي لم تعد بكراً قد أصبحت شبه مشلولة، فقدت الإدراك والحس والقدرة على تمييز الناس من حولها، واستسلمت للنسوة العجائز اللواتي حملنها إلى البئر مساءً. دهنوا جسدها بالزيت المقدس من الكوة، ومددوها على فراش صغير وضعوه إلى جانب الجدار، وأشعلوا شموعاً كثيرة حولها.

رقدت ساكنة طوال الليل، ونامت هادئة، ولكن برد الصباح الباكر أيقظها، فتحت عينيها وقد رجع إليها بعض من عقلها وإدراكها، نظرت حولها فوجدت نفسها في مكان مغلق، وأنوار متطاولة مهتزة مرعبة تحيط بها، وخيالات أشباح مجنونة صامتة تتراقص على جدران المغارة، فظنت نفسها في القبر وشعرت بالاختناق. انتفضت مرعوبة من جديد، نهضت وقفزت على يديها وقدميها تجر أسمالها البالية وراءها، ركضت نحو ضوء الصباح الباكر عند المدخل وقد عاد إليها الجنون بالكامل، تعثرت، سقطت فوق الشموع، سقطت الشموع وانطفأت، ولكن لهيب إحداها التقط طرف ثوبها القديم فاشتعل، وتسلقت النيران الملابس ليشتعل الجسد كله. ضحكت المجنونة، وركضت هاربة من النار التي ظنت أنها تلاعبها، فاشتعل الجسد أكثر مع انسيابه في الهواء. وفي أثناء مرورها التقط

سياجٍ العليق الناشف نار الجسد المشتعل والراكض، فانتقلت إليه أيضاً. وسرعان ما تصاعدت النيران عالياً فيه، زحفت نحو الأعشاب اليابسة والتهمتها، وامتدت باحثة عن المزيد منها، ومضت تلحق خطى أمها المشتعلة في جسد خدوجة التي لم تعد بكراً، دخلت المزار معها، واشتعل كل شيء.

شاهدت الراية الخضراء والعباءة البيضاء الجسد المشتعل، شعرتا بعذاباته فانحنيتا إليه، قررتا أخيراً ترك مكانهما ومغادرته نهائياً، لأنهما لم تعودا تحتملان آلام البسطاء من الناس الذين يتوافدون كل يوم إلى المزار، وهاهو جسد مسكينة يشتعل أمامهما ويتألم، فاشتعلتا معه عسى أن تخففا من بعض آلامه. اشتعل المزار كله، السجاد، والبسط، والستائر، والقماش الأخضر السميك الذي يلف القبر، والعمامة التي تتربع فوقه، والزيت في الكوة وخشب النوافذ والأبواب، اشتعل كل شيء مقدس.

وفي رمقها الأخير ركضت خدوجة التي لم تعد بكراً والمشتعلة خطواتها الأخيرة، مضت نحو الدرب الذي يقود نحو البساتين والحقول العطشى.

وعلى الدرب كان "أبو خالد "الذي أصبح عجوزاً هرماً راجعاً من بقايا حقله، الذي سقاه ليلاً ببقايا الساقية، يمشي بتثاقل، متعباً، ومنهكاً، وحزيناً، يموت شيئاً فشيئاً بعد أن ماتت الحقول والحكايات. لا يزال يتذكر المواجهة الجريئة الأخيرة له مع المُذرة، وكيف انتصر عليها بعد أن كادت تغويه وتوقعه في شركها بالكامل، ولكن الشاب الصغير الذي أحب حكاياته أحرقها منتقماً من الرجل الغاضب. لايزال مستغرباً كيف هربت المُذرة التي أخافت رجال البلدة جميعهم من شاب صغير ناقم، أشعلها ناراً وحولها رماداً. ومن وقتها يذهب "أبو خالد "إلى حقله بملل، دون حنين وذكريات، يذوي الحقل من عطشه للماء، ويذوي "أبو خالد "من عطشه للحكايات

ولمُذرته، وقلما أصبح يجلس مع ابن عمه "أبو حسين "ويشربان الشاي مع الشباب، تحت شجرة الجوز الكبيرة التي يبست أغصانها وأصبحت هرمة.

يسير "أبو خالد "العجوز في هذا الصباح الكئيب على الدرب عائداً إلى البيت، ببطء وتثاقل، والرفش القديم على ظهره كعادته. يلمح من بعيد في عتمة الصباح ضوءاً متراقصاً، ناراً ملتهبة، جسداً تحيط به نيران مقدسة، يتقدم نحوه، يقترب أكثر فأكثر. توقف وتصبب جسده عرقاً، ولكنه شد من قبضته على رفشه. تساءل، هل عادت المُذرة من رمادها؟ هل لازالت مصرة على غوايته حتى اللحظات الأخيرة من عمره؟ هل ستجعله يموت مشلولاً أو تحوله إلى تيس؟ هناك ثأر قديم بينه وبينها، سينهيه هذه المرة ويحسمه نهائياً، سيهاجمها هو، ولن يقف مدافعاً عن نفسه أمام إغوائها. استجمع كل قوته وشجاعته، استعاد ذكريات رجولته القديمة، وحكايات اللقاء مع الضباع والأفاعي، أمسك بالرفش بعزيمة قوية، رفعه عالياً، وأهوى به بقوة على الجسد الذي كان قد سقط في رمقه الأخير قبل أن تصله الضربة، فطاشت في الهواء. سقط الجسد وحده، خمدت نيرانه، ولكن الدخان ورائحة الأنين والحزن لازالا يتصاعدان منه.

جذبت النيران المشتعلة في المزار الناس الذين ينهضون عادةً في الصباح الباكر، تراكضوا وهم يتصايحون، وصلوا متأخرين، لم يعودوا بقادرين على إنقاذ الكثير من النيران. صرخ أحدهم عالياً "أبوخالد هاجمته المُذرة بعد أن أشعلت المزار، ولكنه قضى عليها بضربة واحدة من رفشه".

تراكض الناس من المزار نحو "أبو خالد "على الدرب ليشاهدوا جثة المُذرة، تجمعوا حولهما، رأوا بقايا جثة محترقة، صاح أحدهم مستغرباً "هذه خدوجة المجنونة التي تركناها البارحة في بئر الشيخ ياسين!".

كاد قلب "أبو خالد "يتوقف عن الخفقان، سقط الرفش من يده، وسقط هو على الأرض راكعاً، سقطت دمعتان من عينيه، وبكى بنحيب مسموع، وبكاء الرجال يفجر الصخر الأصم. بكى الناس على خدوجة التي لم تعد بكراً وعلى بكائه، بكت الغيمات الصغيرات العابرة بعد أن توقفت فوق جسد الحزينة المعذبة المحترق، وأمطرت فوقها دموعاً، بكى السياج وبكت الأشجار والحشائش، بكت الساقية والحصى فيها، بكت كل الدروب الموصلة إلى البساتين والحقول، انفتحت النوافذ والأبواب وخرجت منها القلوب تبكي، حضرت أسراب العصافير والحمام وأخذت تحوم حول الجمع مشاركة إياهم الحزن. طارت عصفورتان وحمامتان نحو الجبل، أخبرتا "أبو حسين "أن خدوجة التي ما عادت بكراً ماتت متألمة، ولكنها ارتاحت أخيراً. طار "أبو حسين "على جناحيهما مسرعاً بقلب ينفطر حزناً، ورفشٌ قويٌ في اليد، ووصل إلى حبيبة قلبه التي تمنى الآن من كل قلبه لو تزوجها.

حضر الشاب الناقم، حضرت الفتاة الناقمة، وحضر معهم الناقمون والناقمات، التموا حول "أبو حسين "و" أبو خالد "والجسد الخامد الساكن، علا الصياح والصخب، تحولت أصوات النقمة إلى نداءات للتمرد والفعل، قرروا التحرك وحرق جميع الأوهام والكوابيس الغبارية في البلدة حتى النهاية. كان مزار الشيخ ياسين قد احترق بالكامل، فانقسموا مجموعتين، توجهت الأولى وعلى رأسها "أبو حسين "إلى منزل الشيخ حسني، ومضت الثانية وعلى رأسها "أبو خالد "إلى منزل الشيخة حسنية. كسروا الأبواب والنوافذ، دخلوا وأخذوا يحطمون كل شيء، بدءاً من التلفزيون الغباري. فتحوا صناديق الشيخ حسني وأحرقوا الرقى، رموا سلال البيض على الأرض وداسوها بالأرجل، وكسروا السيوف المجيدة الرقيقة دون أي جهد. وفتحوا صناديق الشيخة حسنية، قطعوا خيوط السُبحات، فتناثرت حباتها في كل مكان، وأحضر أحدهم مطرقة ثقيلة وأخذ

بتحطيم العدادات، فتكسرت وهربت الأرقام من داخلها، بعثروا الملابس السوداء والكحلية ومزقوها..... ثم أشعلوا النار في كلا المنزلين، فالتهمت الأوهام والكوابيس الغبارية.

هرب الشيخ حسني، وهربت الشيخة حسنية، والجميع يلاحقهما، يريدون الإمساك بهما وحرقهما. تخلى المريدون والمريدات عنهما، هربوا خارج البلدة، لا بل إن بعضهم انضم إلى المطارِدين. فوجئ كلاهما بهذا التمرد الصباحي، لا مكان يلجؤون إليه إلاَ هناك..... ولكنهم إذا ذهبوا إلى هناك فسينكشفون، وستكون فضيحة مجلجلة. نظروا إلى المطاردين الهائجين وراءهم وقد كادوا يصلوا إليهما، لينكشفوا بدلاً من الموت حرقاً وتقطيعاً، سيذهبون إذاً إلى هناك...... إلى مركز جهاز حفظ الاستقرار الوطني، نعم إلى هناك! وسيطلبون الحماية ممن يحميهم دائماً بالسر، من "أبو رعد "! ألم يقدموا له تقارير بما فيه الكفاية عن طريق رئيس البلدية، الآن جاء دوره ليرد الجميل لهم.

يدخلون إلى المركز هرباً من المطاردين، تتلاقى في الداخل نظرات الشيخ حسني مع الشيخة حسنية، يفاجئهما اللقاء:

" حتى أنتَ يا شيخ حسني......".

" حتى أنت يا شيخة حسنية.....".

يبتسم الرفيق "أبو رعد".

❋ ❋ ❋

رئيس البلدية

تعميم سري جداً موجه إلى مسؤولي البلديات

"في إطار التوجيهات الإستراتيجية المتعلقة بإشغال الناس بأي شيء يخدرهم ويبعدهم عن السياسة والاشتغال بها، ومن أجل دعم الاستقرار الوطني وإلغاء التفكير بإنشاء أي شكل للتجمعات، سواء تحت اسم أحزاب سياسية أو جمعيات حقوق المواطنة، نطلب إليكم دعم سلطات المراكز الدينية وتقوية, تلك التي ترتبط بمجموعات تختلف فيما بينها بإشكاليات فقهية عبثية لانهائية، مثل زيارة القبور، وتربية اللحى، وطريقة اللباس، والتعامل مع النساء، ووضعيات الجماع، وكيفية التعوذ من الجن والشياطين وطرق طردهم.

تشكل مثل هذه المراكز، إلى جانب مباريات كرة القدم، والمسلسلات الأجنبية المدبلجة، والتسوق في المجمعات التجارية، وتناول المخدرات، أفضل الوسائل لإبعاد الناس عن التفكير بالسياسة، فهي تسلبهم عقولهم وتصيبهم بالشلل الفكري، وهي قادرة على تحويلهم إلى دجاج وأغنام مطيعة مستكينة، يركضون وراء الأوهام، وينسون الواقع الذي يعيشون فيه. ولذلك ينبغي الاهتمام بمثل هذه المراكز ووضعها تحت رعايتنا وحمايتنا، مادامت لا تتجاوز حدود الصراعات الفقهية في إطار توجيهاتنا.

ويمكن الاستفادة في هذا المجال من تجارب الدول الصحراوية في التعامل مع أغنام ودجاجات، عفواً نقصد مع أفراد مجتمعاتها".

مسؤول البلديات في المدينة

وكالات الأنباء العالمية:

"تشير التقارير إلى حدوث حركة تمرد في البلدة الهادئة، التي كانت تعيش بسكينة وسلام تحت سيطرة القبضة الحديدية للبلدية، فقد هزتها ثلاثة تفجيرات شديدة الخطورة منذ الصباح الباكر، استهدفت ثلاث مؤسسات قمعية مرتبطة بسلطة رجال دين يشكلون إحدى أدوات القمع الرمزية بيد رئيس البلدية. وأدت هذه التفجيرات إلى اشتعال حرائق كبيرة فيها، حيث دُمرت الأبنية بالكامل وأتلفت محتوياتها، التي كانت تستخدم في الاستلاب الروحي للناس البسطاء باسم السماء. وتشير التقارير إلى حدوث مطاردات دموية في الشوارع والحارات، للسيطرة على مناطق النفوذ في البلدة وطرد مريدي الشيوخ المسؤولين عن هذه المراكز الثلاث، الذين كانوا يسيطرون على المفاصل الحيوية للبلدة برضى وتعاون وثيق من مسؤول البلدية فيها.

وشاركت في الانتفاضة عناصر تنظيمات ثورية، تعتمد الكفاح المسلح لتحقيق أهدافها، كانت قد أقامت قواعد سرية لها في الجبال المحيطة بالبلدة، ومنها زحفت إليها وانتشرت فيها، وانضم إليهم ناقمون من البلدة، كانوا قد أقاموا تجمعات سرية في الحقول المحيطة بالبلدة، حيث شاركوا بفعالية في ملاحقة فلول المريدين. وحدثت اشتباكات دموية في الشوارع، تم استخدام الأسلحة البيضاء فيها، وبشكل خاص الرفوش الحادة التي تستعمل عادة في قتل الأفاعي، وشوهد إثر ذلك انتشار جثث مرمية على الطرقات.

وتشير آخر الأخبار إلى انسحاب الثائرين إلى قواعدهم دون أية خسائر، وذلك بعد أن حققوا أهدافهم الأساسية المعلنة بطرد الدجالين والعملاء من البلدة، ويسيطر الآن عمال البلدية على الوضع في البلدة، وتقوم الجرافات بإزالة أنقاض المراكز الثلاث التي تم تدميرها بالكامل".

"عاجل جداً

مسؤول البلدية

تداولت وكالات الأنباء العالمية أخباراً تم تسريبها من البلدة بشكل مسيء للسمعة الوطنية، تتحدث عن حدوث شغب وفوضى في البلدة، ترافقت بتفجيرات إرهابية شديدة الخطورة في ثلاث مؤسسات روحية رمزية رفيعة المستوى، أدت إلى اشتعال حرائق كبيرة فيها وتدمير محتوياتها. وتشير التقارير إلى حدوث مطاردات دموية في الشوارع والحارات بين فئات متناحرة على مناطق النفوذ في البلدة، شارك فيها رعاع قادمون من الجبال وآخرون قادمون من الحقول، حيث تم استخدام الأسلحة البيضاء في الاشتباكات، وبشكل خاص الرفوش الحادة التي تستعمل عادة في قتل الأفاعي، وشوهد إثر ذلك انتشار جثث محروقة ومشوهة بشكل غير إنساني، مرمية على الطرقات.

للتحقيق السريع بالحوادث التي يمكن لتداعياتها أن تشكل تهديداً للأمن الوطني، وإبلاغنا بالنتائج الفورية مباشرة.

مسؤول البلديات في المدينة

الناس في بلدة صغيرة يحبون الثرثرة، واستعراض الحكايات التي يعرفونها والتي لا يعرفونها، المهم أنهم يتحدثون أمام الآخرين، محاولين إثبات وجودهم بالغريب، والوهمي، وغير المتداول، فالصمت بالنسبة لهم تعبير عن ضعف في الشخصية وانهزام أمام الآخرين. و رئيس البلدية هو ابن البلدة، يعرف هذه الرغبة الشديدة لدى الناس بالحديث، ويعرف أن ما يتحدثون به لا ينطبق على الواقع تماماً، ولكنه يعبر عن رغبات كامنة في داخلهم، يمكن أن تنفجر في أي لحظة لتصبح حقيقة. ولذلك فعند استلامه منصبه قام ببناء شبكة من أصحاب الآذان التي تلتقط الأحاديث بغريزتها، وصولاً إلى أدنى

الهمسات، وذلك من بين الأفراد العاديين المضموني الولاء، ولكن لا يمكن الاشتباه بتعاملهم معه.

كان المخبرون لدى رئيس البلدية من أصحاب المهن والمراكز الإدارية في البلدة التي تسمح لهم بالاختلاط بالناس، يلتقون بهم، يحرضونهم على الكلام ويثيرون النقاش، ثم يستمعون بإصغاء شديد، ويتدخلون من وقت لآخر لتوجيه الحديث بما يرغبون. وفي المساء ينزوي هؤلاء المخبرون في غرفهم المغلقة والمعتمة، يجلسون إلى طاولاتهم ذات المصباح الصغير، ويسجلون بلغتهم الركيكة ما حدث وما لم يحدث، وما رأوه وما لم يروه، وما سمعوه وما لم يسمعوه. يعملون مقابل مكافآت مالية تُصرف من بند سري متعلق بالحفاظ على الاستقرار في البلدة. هؤلاء هم عيونه فيها، ينقلون إليه كل ما يحدث، وبناء على ذلك يتخذ قراراته في إطار المصلحة الوطنية العليا للبلدة..... ولكننا نحن جيل الشباب الصغار كنا نعرفهم بصفات جسدية خاصة، وهو ما لم يدركه رجال البلدة ببساطتهم، فجميعهم مميزون بآذانهم المشوهة بشكل غير طبيعي، فهي ضخمة، واسعة الصيوان، طويلة بحيث تكاد تلتصق بالكتف، وإضافة إلى ذلك كانت لهم علامة أخرى، فإبهام يدهم اليمنى تشرَّب بأحبار الأقلام السيئة الصنع التي كانوا يكتبون بها باستمرار. أما أنا وبشكل شخصي فقد كنت أشتم رائحة غريبة تصدر منهم، تكاد تدفعني للتقيؤ، نوع من الحدس الشمي الغريب، يجعلهم ينكشفون أمامي بسرعة، فأتحاشاهم بسرعة.

وكان من بين المخبرين بائع الفلافل في شارع العشاق، المشهور بسندويشه الساخن المليء بنكهة البهارات الهندية الحادة وطعم السماق، حيث يقف الشباب والفتيات بالصف طويلاً، ويتحدثون بكل شيء لتمضية الوقت حتى وصول دورهم، وعامل المقهى الشعبي الواقع في ساحة المدينة، الذي يجتمع فيه الرجال

ويتنازعون بعد كل لعبة ورق أو طاولة النرد، فيشتم المهزومون الزوجات، والمختار، وينفلتون أحياناً فيلحقون الحكومة بهما، وحلاق الشارع الرئيسي الذي يحب الثرثرة طويلاً، ويسجل وحده ما ثرثر به بعد أن يتخيل أن أحد الزبائن قد تحدث بذلك، وسائق شاحنة صغيرة تعمل بحركة دؤوبة داخل البلدة وفي أطرافها، ويسجل في تقاريره جميع ما يقوم بنقله، حتى ولو كان طعاماً للحيوانات، وبواب البلدية الذي يمرر الرشاوى إلى الموظفين بعد أن يحصل على حصته، ويرفع تقاريرَ فيها دون ذكر نسبته، وأستاذ المدرسة العين الساهرة على زملائه، الذين يشكلون خطراً كبيراً في حال انتمائهم إلى تنظيمات معادية للأمن الوطني، بسبب لغوهم الفكري المستمر. ويُضاف إلى هؤلاء المخبرين المتناثرين مجموعة أفراد، يشكلون مفاصل الحياة في البلدة، مثل المختار، وإمام الجامع، ورئيس دائرة الزراعة..... وكانت ذروة نجاحات رئيس البلدية إدخال الشيخ حسني والشيخة حسنية في شبكة مخبريه، ولكن في علاقة شديدة السرية بالذات معهم بسبب حساسية مراكزهم الروحية.

والرفيق رئيس البلدية هو من الرعيل الأول من المناضلين، مشهور منذ أكثر من ثلاثين عاماً بخبراته الكفاحية ضد الاستعمار، والإقطاع، والرجعية، فهو مستعد دائماً لإلقاء الخطابات النارية الحماسية المزلزلة في كل المناسبات، حتى أمام ضيوفه الشخصيين في المنزل. يستمع الجميع إليه ممتعضين دون أن يفهموا عن ماذا يتحدث، ثم اكتشفوا أيضاً أنه هو أيضاً لا يفهم عن ماذا يتحدث! فعندما سأله أحدهم عن معنى كلمة "الرجعية "التي يكررها باستمرار، زجرهم وأمرهم بالصمت والاستماع، والالتزام بخططه في إثارة الزعيق والزئير، هاتفين بسقوط الرجعية عند زيارة أحد المسؤولين، الذين كانوا يُسرون كثيراً بموسيقى هذه الكلمة ورنينها، وهي تنبعث بغنائية عالية المستوى من أفواه الجماهير المناضلة.

وقد استطاع رئيس البلدية تطوير قدراته الذاتية والخطابية والتأقلم مع توجيهات القيادة وفق المستجدات الدولية، فقد أصبح يستخدم كلمة الإمبريالية بدلاً من الاستعمار، دون الإشارة إلى أمريكا، وكلمة العملاء في المنطقة بدلاً من الرجعية، دون الإشارة إلى الدول الصحراوية، فالشتائم الخطابية الثورية لا علاقة لها بالعلاقات البروتوكولية مع الدول، ولا علاقة لها بالزيارات الرسمية والشخصية بين المسؤولين، المهم أن يبقى هناك شيء للشتم بما يتناسب مع متطلبات لقاءات المسؤولين مع الجماهير عندما يزورون البلدة. ومع أن رئيس البلدية لم يفهم معنى كلمة "الإمبريالية "طوال عشر سنوات، إلا أنه كان ينجو من شرحها عندما يغفوا المستمعون سريعاً على موسيقاها الجميلة، وخاصة مع رنيم حرف الياء كما في "الرجعية"، وهو ما يذكرهم بالأغنيات الحزينة في الراديو، إذ يوجد في موسيقى حرف الياء شيء شرقي يداعب أسماعهم، ولذلك كان يستخدمها، ويعيدها، ويكررها، عشر مرات في خطاب من سطرين فقط، وهو يشاهد النتائج الإيجابية من خلال التثاؤب والنوم.

وعندما رجعت من السفر، كان رئيس البلدية لايزال ينشد أغانيه الوطنية بشتم الإمبريالية، ولكن فاجأه خطر كبير لم يكن يتوقعه، ولم يستطع مواجهته والسيطرة عليه، عندما زحفت مصطلحات العولمة، والتكنوقراط، والمجتمع المعلوماتي، إلى خطاباته بتوجيهات من القيادة. بدؤوا يسربون إليه همسات أن دوره قد انتهى، وأن خبرة الثلاثين عاماً في الصراع ضد الإمبريالية بالشهادة الابتدائية التي يحملها لم تعد تصلح لإلقاء خطابات ضد العولمة، وخاصة أنها لا تمتلك موسيقى الياء في الإمبريالية التي تدعو إلى الاسترخاء والنوم. وأصبح يخلط بالهجوم مثلاً على العولمة المعلوماتية التي تجتاح العالم وعلى النخبة المعلوماتية الوطنية، مما جعل موقعه السلطوي، وعقاراته، ومزارعه، وسياراته، تحت التهديد المباشر..... ولكل هذا

عندما جاءه أمر التحقيق بحوادث الشغب التي حدثت في البلدة، استنفر قواه وقوى مخبريه العجائز لرفع تقرير مميز عن خطورة الأحداث التي ألمت بالبلدة، وكيف استطاع السيطرة عليها بقدراته الشخصية لصالح الاستقرار الوطني، كانت تلك فرصته الأخيرة.

ارتفع تقرير رئيس البلدية عن أحداث البلدة إلى مسؤول البلديات في المدينة، ومنه إلى" أبو رعد"، وتتالت تقارير أخرى من الخارج عن الموضوع ذاته، تجمعت كلها في الحقيبة الجلدية للمرافق النحيل. وعُقد اجتماع سري مغلق بين المعلم الكبير "أبو أحمد "العملاق و" أبو رعد"، حضره رئيس البلدية، لكن دون أن يسمحوا له بلفظ كلمة واحدة طوال الفترة التي استمرها، وكأنه غير موجود، فهو لم يكن يعرف أن هذه آخر أيامه النضالية. ولغبائه الشديد فقد سرب ما حدث في الاجتماع بالكامل هنا وهناك في البلدة، لا لشيء سوى الافتخار علناً بأحد منجزاته الكتابية الوطنية، ورغبة في تأكيد وجوده، ولهذا فبدلاً من الاكتفاء بالاستغناء عن خدماته النضالية، فقد تم اتخاذ قرار بفتح "دفاتره القديمة "نتيجة لهذا التسريب، للكشف عن صفقاته المشبوهة التي حصل عليها من خلال منصبه.

ومن خلال تسريب ما حدث في الاجتماع عرف الجميع في البلدة ما دار فيه:

يقول "أبو رعد" "يا معلمنا، استغل الناقمون، والمشاغبون، والفوضويون، والملحدون، والمخربون، واللوطيون، والإرهابيون، الصباح الباكر جداً والبلدة لازالت نائمة، وهاجموا أهم ثلاثة مراكز روحية فيها، تشكل رموزاً مقدسة للناس البسطاء. وهذا الأمر خطير جداً، فالهجوم كما يبدو موجه ضدنا مباشرة، إذ إن هناك تسريباً لمعلومات عن سيطرتنا السرية الكاملة على المسؤولين الروحيين لهذه المراكز، واستغلالها لصالح خططنا التنفيذية الوطنية".

"وماذا حدث لعملائنا المزروعين في هذه المراكز التي تم إحراقها؟".

"لحسن الحظ يا معلمنا تم إنقاذ أفضل عميلين لنا في مركزين اثنين، الشيخ حسني والشيخة حسنية، إذ كاد الرعاع الملحدون يقتلوهما حرقاً وتقطيعاً في الشوارع، وهم موجودون الآن في أحد مزارعنا السرية بين التلال بالرعاية والأمان. أما عميلنا في مزار الشيخ ياسين فقد كان مخموراً ونائماً عند الجارة لحظة وقوع التفجير، ولم يدر بما حدث إلا بعد عدة أيام، ولهذا لم ينكشف أمره".

"وما هي نتائج التحقيقات الأولية حتى الآن؟".

ينظر "أبو رعد" إلى حقيبة الرجل النحيل الجلدية، الذي يُسارع إلى فتحها بسرعة، ويُخرج منها مغلفين ثقيلين:

مكتوب على الأول "سري للغاية: عملاؤنا في الخارج".

وعلى الثاني "سري جداً: شبكة المخبرين في البلدة لدى رئيس البلدية".

يتناولها ويشرح "تشير التقارير التي تجمعت لديَّ حتى الآن يا معلمنا وجود عقلين كبيرين مُنظِمين وراء أحداث الشغب في البلدة، ويخططان لها منذ فترة طويلة للسيطرة عليها، فتقارير العملاء في الخارج تؤكد أنهما تلقيا دورات تدريبية سرية مكثفة على أعمال التخريب لدى إحدى الدول المعادية التي تدَّعي صداقتها لنا، وزرعتهم في البلدة لقلب الأوضاع لصالحها. أما تقارير شبكة المخبرين لدى رئيس البلدية، التي يترأسها حالياً بائع الفلافل في شارع العشاق، فقد كشفت نشاطاتهم وتحركاتهم السرية بشكل جيد. ويشير تقرير رئيس البلدية أن لديه المعلومات التفصيلية كافة عنهم وعن خلاياهم المزروعة في البلدة".

يُخرج "أبو رعد" كدسة من الأوراق من أحد المغلفات، يقول وهو يقلبها بتمعن واهتمام "العقل الرئيسي المخطط في التنظيم يختفي نهاراً في الجبال المحيطة بالبلدة، حيث أنشأ مركز قيادة عملياته التخريبية، ومن أجل التمويه فهو يتنقل هناك مع الرعيان وبلباسهم،

ولكنه يتسلل بين قطعانهم إلى البلدة في المساء، ويخرج منها معهم أيضاً في الصباح. وفي البلدة يلتقي ليلاً للتنسيق مع الرجل الثاني الذي يُعد بمثابة العقل التنفيذي للعمليات، المتنقل ما بين عدة منازل سرية لا يخرج منها إلا ليلاً. وتؤكد التقارير أن هذين الرجلين يديران خليتين تخريبيتين أساسيتين، الأولى كانت موجودة قبل حوادث الشغب في منزل عميلة ذكية لديهم، كان العقل الرئيسي يقفز لعندها كل يوم مساء من فوق الجدار، ومن هناك يدير اجتماعاته السرية. أما الخلية الثانية فقد كانت اجتماعاتها تلتئم في الحقول البعيدة عن الأعين، وتماماً في الطرف الجنوبي جانب الساقية، في ظل سياج عليق كثيف وعال. ويقول تقرير رئيس البلدية أنه تم التأكد من هذه المعلومات الدقيقةً بعد إجراء التقاطعات بين تقارير بائع الفلافل، وأستاذ المدرسة الابتدائية، والموظف في دائرة الزراعة، والحلاق في الشارع الرئيسي، وهم من أفضل المخبرين لديه".

"ومن هم هذين العقلان المدبران ومن هذه العميلة الذكية؟".

"العقل الرئيسي يا معلمنا يدعى "أبو حسين"، والعقل التنفيذي يدعى "أبو خالد"، ولهما أسماء حركية مرتبطة بصفات قاهري الضباع والأفاعي والمُذرات، أما العميلة الذكية فلها اسم حركي غريب للتمويه، فهي تدعى خدوجة البكر".

"ومن أين جاء الاسمان الحركيان لهذين العقلين ؟!".

"الأخبار وصلتني هكذا! إذ يبدو يا معلمنا أن هناك خيوط شبكة دولية تعمل في الخفاء ضدنا. فلدى دراستي للموضوع شخصياً من جذوره بناء على هذه التقارير، وإجراء التحقيقات الطويلة المضنية، تبين لي وجود شاب في البلدة معروف منذ صغره بما سماه رفاقنا الباحثون في جامعة المدينة: الهوس المَرَضي بإشعال الحرائق ليلاً في الغيض والبساتين والحقول".

يقلب "أبو رعد" التقارير أمامه ويتابع "وبعد تحويل هذه التقارير

عن هذا الشاب إلى خبرائنا الأكاديميين العاملين في مركز الأبحاث الإستراتيجية جاءت نتائجهم بعد دراسة حالته العقلية أنه مريض نفسي، مختل العقل وغير متوازن اجتماعياً، يظن أنه يحرق الأوهام والكوابيس التي تنتابه وتنتاب البلدة إذا أشعل الحرائق هنا وهناك. هكذا تقول التقارير التي لا أفهمها كثيراً! ولكن يبدو أنه تحت ستار هوسه المرَضي بإشعال الحرائق، فإنه يحمل قدرة تنظيمية فائقة على تجميع الناقمين والناقمات حوله، وإشعال الفوضى أينما حل، وهذا هو المهم لنا. ويؤكد صحة رأينا بعيداً عن تخريفات الأكاديميين أن إحدى الجهات المعادية في البلدة استطاعت لسوء الحظ ضمه إلى صفوفها، وأمنوا له السفر إلى سلومانيا بحجة الدراسة لتطوير قدراته على إشعال الفوضى والحرائق والتفجيرات".

"وماذا حدث له في سلومانيا؟".

يُقلب "أبو رعد" كدسة جديدة من الأوراق، ويقول "تتحدث تقارير العملاء في الخارج أنه تلقى في سلومانيا دورات مكثفة في التحليل النفسي الجمعي، وإشعال الحرائق الذهنية في المراكز الروحية المقدسة.....".

يتوقف "أبو رعد" عن تقليب التقارير وقراءتها، وينظر إلى المعلم مستغرباً "الحقيقة لا أفهم كثيراً ما تقوله تقارير عملائنا في الخارج، التحليل النفسي الجمعي، وإشعال الحرائق الذهنية.....".

يلتفت إلى مرافقه النحيل عسى ينقذه بتقرير يشرح ما تقوله التقارير، ولكنه يجده نائماً، ويبدوا أنه نام منذ بداية الجلسة، فيكمل شبه متلعثم "على كل الأحوال هذا ما تشير إليه التقارير يا معلمنا!".

"ثم ماذا يا "أبو رعد "؟".

"وتضيف هذه التقارير أيضاً يا معلمنا أن الشاب المسافر التقى مع المُخربين "أبو حسين" و"أبو خالد" في أثناء تلقي دوراتهما التخريبية في تلك البلاد، وأستغل مواهبه ومعارفه في علوم الأساطير،

والفلكلور، وعلم النفس الديني، والتحريض الإيديولوجي، واختـراق البنى الاجتماعية..... إلى آخر هذه التخريفات الغريبـة الـتي لم أسمـع بها لا في دورات الإعـداد الـوطني ولا في خارجهـا..... اسـتغلها في تأليف حكايات.....".

"حكايات عن ماذا يا "أبو رعد"؟".

"يبدو أن هناك يا معلمنـا خلـلاً وفجـوات في هـذه التقـارير، لا أعرف لماذا لا يرسلون إلا العملاء الأغبيـاء والفاسـدين إلى الخـارج، يقـضون أوقـاتهم بتجـارة الـسيارات المـستعملة، وتـصريف العملـة الخـضراء، وبـذل أمـوال الـوطن مـن أجـل لملمـة دمـوع الفتيـات الشقراوات هناك، ثم يرسلون تقـارير مـشفرة عاليـة الترميـز لا يمكـن فهمها، مستخدمين شيفرة مصطلحات الأساطير والفلكلور، من أجـل إيهامنا أنهم نشيطون ويتابعون مصالحنا الوطنية".

"ولكن تأليف حكايات عن ماذا؟".

"يا معلمنا حكايات عن الضباع والأفاعي والمُذرات..... لا أفهـم ما العلاقة بين هذا وذاك؟!".

"يـا "أبـو رعـد" تحتـاج إلى كـثير مـن الوقـت لتطـوير معارفـك وخبراتك ومهاراتك من أجـل الحفـاظ علـى الاسـتقرار الـوطني، ألا تعرف بوجود مراكز دراسات وأبحاث معادية في الخـارج، متخصـصة بتأليف الحكايات والدعايات المضللة عـن بلـدنا، مـن أجـل التمويـه على أعمال محددة تريد الدوائر العالمية التي تقـف وراءهـا تمريرهـا، تحقيقاً لمخططاتها المعادية لنا. وهذا الـشاب المختـل الـذي تتحـدث عنه، قد قام على ما يبـدو بتكليـف مـن أحـد هـذه المراكـز المعاديـة بتأليف حكايات عـن الـضباع والأفـاعي والمـُذرات بمـا يتناسـب مـع الأجواء الشعبية للبلدة، وربطها "بأبو حسين" و"أبـو خالـد" مـن أجـل التمويه على أعمالهما التخريبية المـضادة للثـورة، وجعلـهما مقبـولين بين الناس البـسطاء بشخـصيات شـعبية محببـة، مغـايرة لمـا همـا في

الواقع. وعندما يقوم خبراء بث الدعايات المضللة بنشر هذه الحكايات وترويجها، يتحول "أبو حسين "و" أبو خالد "إلى بطلين شعبيين بدلاً من ظهورهما كعميلين مخربين. وقد قام هذا الشاب بالفعل بإقحام فصل كامل في هذه الرواية عن هذا الموضوع للتمويه والتشويش علينا، ألا تفهم ذلك!".

"يا معلمنا أنا أستفيد من خبراتكم دائماً، ولكنني لست غبياً إلى الدرجة التي تظنون، فأولاً أنا أراقب الشاب الذي يكتب هذه الرواية، مثل كل الذين يكتبون روايات، ولكني ألاحق جميع أفكاره هو بالذات بكل تفاصيلها منذ البداية، حتى إنه لديَّ تقارير مسجلة عنها بالكامل، وثانياً قضى عناصري المسلحين على جميع الضباع والذئاب والأفاعي والعقارب في كل البلدات، وتعاون معنا رؤساء البلديات، فقضوا أيضاً على البراغيث والناموس والصراصير، وهكذا انتهت الحكايات، لأنه لم يعد يوجد شيء يمكن تأليف حكايات عنه، وثالثاً.....".

"تمهل يا" أبو رعد "قبل ثالثاً، فأنت قتلت الضباع والأفاعي وما شابهها من وحوش في البراري، ولكنها لازالت حية في الخيال والذاكرة الشعبية، يجب أن تدمر الخيال الشعبي فتموت عندئذٍ هي وحكاياتها إلى الأبد".

"يا معلمنا، عناصري جاهزون للتدخل السريع في أي مكان مهما كان العدو شرساً، فكما نجحنا في التدخل في المدن والجبال والبحار، فسننجح أيضاً في التدخل في مناطق الخيال، الشعبي والجبلي والبحري، ونحن مستعدون في أية لحظة لاقتحام أية محطة في الخيال وتدمير العناصر المسلحة فيها".

"كفى يا "أبو رعد"، يبدو أنك لم تفهم جيداً مضمون التوجيهات الإستراتيجية بشأن المراكز الدينية ومباريات كرة القدم، وعلى كلِّ الأحوال فأنا أيضاً لا أفهم الكثير منها، والخبراء المختصون الغربيون

في مجال الحرب على الإرهاب قالوا لنا في محاضراتهم الأخيرة بأن نترك الأمور تجري مجراها الطبيعي، فالتلفزيون وحده سيقوم بالقضاء على جميع أشكال الخيال! ولا أفهم كيف سيتم ذلك!..... والآن أين هم المخربون الرئيسيون؟".

"تقول التقارير يا معلمنا أن "أبو حسين "و" أبو خالد "هربا واختفيا في الجبال، وهما محاصران هناك، وسيتم إلقاء القبض عليهما في أقرب وقت أحياء والأفضل أمواتاً، أما العميلة الذكية خدوجة البكر فهذه لها حكاية أخرى. يشير تقرير زوجة بائع الفلافل وتقرير الموجهة التربوية في المدرسة الثانوية، المندستين بين مريدات الشيخة حسنية، أن العميلة خدوجة البكر كانت قد تقمصت شخصية صوفية مهووسة، كي تنافس بها الآنسة المقدسة في المدينة، وتقلب المريدات إلى تنظيمها. وقد أقامت حلقة هياج شيطاني في منزلها، استخدمت فيه كل مؤثرات التنويم المغناطيسي ورقصات الهلوسة على إيقاع الدفوف واللعب بالنار، وسيطرت بهما على مريدات الشيخة حسنية، اللواتي انسحرن بها وتحولن إلى إرهابيات مثلها".

"وماذا حدث بعد ذلك؟".

"ثم انتقلت خدوجة البكر إلى مريدي الشيخ حسني حسب التقارير، وأنتم تعرفون يا معلمنا أن هؤلاء من يُسَمين أنفسهن ثوريات ليس لديهن اعتبار لأية قيم أخلاقية، تستطيع كل واحدة منهن أن تنام مع أي رجل دون عقد زواج، وتدَّعي أن ذلك يتم باسم النضال والثورة والتحرر من السيطرة الذكورية، كما تقول منشورات الإعداد الوطني. ولكن حتى تستطيع خدوجة البكر الدخول بين مريدي الشيخ حسني فقد أعلنت أن جنياً قد تلبسها، وطلبت تخليصها منه. ناموا معها، كلهم وبالدور في منزلها وفي ليلة واحدة، من أجل تخليصها من الجني، فأصبحوا ممسوسين بها لا يستطيعون الانفكاك من سحرها "الثوري الجني"، وانفضوا عن شيخهم".

"وماذا فعلت خدوجة البكر بعد ذلك يا "أبو رعد "حسب التقارير التي أمامك؟".

"اقتضت الخطة الجهنمية للمخربين يا معلمنا بتفجير المراكز الروحية الثلاث لإثارة البلبلة والفوضى في البلدة، ومن ثم تحويلها إلى مراكز دعائية لنشر أفكارهم التخريبية، وكان تفجير مزار الشيخ ياسين من مهمة العميلة خدوجة البكر. فقد أدخلت في الليلة السابقة للعملية كمية كبيرة من الديناميت إلى المغارة الموجودة تحت المزار، ويبدو أنه بسبب ضخامة الكمية أو سوء توقيت المُفجر فإن العميلة قد تطايرت هي والمزار كله، وتفتت جثتها بالانفجار الكبير، إذ لم نجدها بعد ذلك لا حية ولا ميتة".

" والجثة الموجودة على الدرب الذي يقود إلى البساتين أمام المزار، لمن تعود؟".

من جديد يقلب "أبو رعد "أحد التقارير "لا أستطيع أن أفهم مضمون التقرير الذي كتبه المخبر الشيخ حسني، ووافق عليه رئيس البلدية!".

"وماذا يقول هذا التقرير؟".

"يقول هذا التقرير إن هذه جثة الجنية المذرة يا معلمنا، استغل المخرب "أبو خالد "تحولها إلى شكل إنساني، فضربها برفشه الحاد ضربة قاضية أردتها قتيلة، ثم أشعل فيها النار، ولذلك كانت مشوهة بالكامل..... لا أستطيع فهم حكايات المجانين هؤلاء".

"ولماذا قتلها المخرب "أبو خالد "بهذا الشكل المشوه؟".

"لا أعرف يا معلمنا، يقول التقرير إنه قتلها انتقاماً من خيانتها، وعلى كل الأحوال هذا هو تقرير المخبر المجنون الشيخ حسني".

تقرير الشيخ حسني إلى رئيس البلدية ـ سري جداً

أفادتني تقارير المخبرين الجن الذين يعملون لصالحي أنه تم اكتشاف علاقة عشق بين الجنية المُذرة والمخرب "أبو خالد"، وعلى هذا الأساس دخلت إلى تنظيمه دون اقتناع، ولكن فقط من أجل عيني عشيقها، وقد أصبحت قريبة من قلبه بحيث ائتمنها على أسراره الشخصية والتنظيمية كلها.

واستطعت من خلال خبرتي في التعامل مع الجن معرفة فجوة في هذه العلاقة، فقد تبين أن المُذرة تغار غيرة شديدة من العميلة خدوجة البكر، لقدراتها التنظيمية السياسية العالية وسيطرتها على أعضاء التنظيم، بينما لا تفهم المُذرة إلا بالعشق والغناء والبكاء. وتأكدت أيضاً أن هناك ميلاً خفياً لدى المخرب "أبو خالد "نحو العميلة خدوجة البكر، بالرغم من أنها رفيقة فراش رئيسه المخرب "أبو حسين".

وبسبب قدرات المُذرة على الاختفاء عن الأعين وإمكانيات التشكل لديها بأجسام إنسانية وحيوانية مختلفة، فقد تتبعت خطوات عشيقها ووضعته تحت المراقبة دون أن يدري، واكتشفت أنه يقفز من فوق الجدار لعند العميلة خدوجة البكر نهاراً في أثناء غياب رئيسه المخرب "أبو حسين "في الجبال، فقررت انتظار الفرصة المناسبة للانتقام من خيانته بعد أن منحته عشقها له وحده من بين كل الجن والإنس، وانتظمت ضمن شبكة مخبري الجن الذين يرفعون تقاريرهم إليَّ مباشرة، وهو ما قادني إلى اكتشاف تنظيم جني خطير جداً معادٍ رديف لتنظيم المخرب "أبو حسين".

ففي أثناء تجول بعض الناقمين الخفي من الجن في شوارع البلدة شاهدوا العميلة خدوجة البكر تسير ليلاً وحدها في الشارع، أثارهم منظرها ببنطال الجينز ومسدسها المخفي تحت سترتها الجلدية، فوقعوا تحت إغرائها وسطوة سلاحها. لاحقوها على أمل

الانفـراد بهـا عاريـة في أثنـاء دخولهـا الحمـام، مـن أجـل اغتـصابها والاستيلاء على مسدسها، وقفـزوا وراءهـا مـن فـوق الجـدار دون أن يـراهم أحـد بأشـكالهم المخفيـة، فوجـدوا أنفـسهم في الاجتمـاع الأسبوعي لخلية المخرب الرئيسي "أبو حـسين". حـضروا التوجيهـات التخريبية التي انسجمت مع توجهـاتهم الفوضـوية المخلـة بـالأمن في البلدة، وأعجبوا بشخصية "أبو حسين "الفوضوية الذي كان يثرثر باسم الفقراء ضد الأغنياء الرأسمـاليين، وضـرورة القـضاء علـيهم بـالعنف المسلح. أعجبهم هذا الحديث، وبخاصة أن معظمهـم ينتمـي بأصـوله الفقيرة إلى جن المزبلة، ولديه حقد قديم ضد قاطني المقبرة من الجن الأغنياء. انضموا إلى الخليـة، ثم أخـذوا ينـشطون بـين رفـاقهم الجـن بتوجيهات من المخـرب "أبـو حـسين "وإشـراف مباشـر مـن العميلـة خدوجة البكر".

"هل انتهى تقرير الشيخ حسني المجنون؟".

"نعم انتهى يا معلمنا، ولكن توجد في أسفله ملاحظة بخط يد رئيس البلدية:

تم القبض على التنظيم الجني الرديف لمجموعة المخـرب "أبـو حسين"، وذلك في لحظة اتخاذهم أشكال بشرية حيث يضعفون بهـا، حسب خبرة الشيخ حـسني، وهـم الآن في الـسجن. وقـد أنكـروا في البداية، قالوا إنهم شباب من البلـدة، والمقـبرة هـي المكـان الوحيـد الملائم لهم والبعيد عـن الأعـين لتـدخين الحشيـشة ولعـب القمـار، ولكن الجميع يعترف في القبو بالحقيقة".

"تقارير مكتوبة بيد مخبرين من الجـن! جـن لـدينا في القبـو..... لازال لديَّ بعض الوقت لأتسلى بحكايتكم! "أبو رعد "لننسَ حكايات الشيخ حـسني والـشيخة حـسنية الـتي تناسـب جلـسات المختـار مـع الرجال البسطاء، وانسىَ بطولات "أبو حسين "و" أبو خالد "التي مالت إلى الغياب بعد أن سقطت الأسوار، وأصبح الغرب واحد ضدنا.

انتبه الآن إلى المريدين الذين بدؤوا يأخذون حديث الإيمان الأصولي القادم من الصحراء بجدية، راقبهم جيداً، فمادامت أعمالهم لا تتجاوز تكسير شواهد القبور وتفريق الجنازات من أجل عدم ترديد لحن الأموات فهم لا يشكلون خطراً. ولكن عندما تندمج أصوليتهم بمصادر عنف قادمة من بلاد النهر الكبير، التي تدعو إلى الهجرة والتكفير، فعندها يصبحون إرهابيين. سيعلنون عندئذ أنهم يريدون محو الصليبيين الكفرة، والعلمانيين الملحدين، والباطنيين الضالين أصحاب البدع، والسلطان الذي لا يسمح لهم تطبيق الشريعة بأيديهم، وسيلجؤون إلى العنف، والقتل بالسلاح الأبيض، والتفجير بالأحزمة الناسفة..... هنا الخطر القادم والكامن. وإلى جانب هذه المجموعة انتبه إلى أولئك الذين يستغلون الضغوط الغربية الإمبريالية الخارجية، وضغوط الإرهابيين الداخلية، ليعلنوا أنهم يريدون تطبيق دولة الدستور والقانون، وحقوق المواطن، والتعددية، والديمقراطية، والتداول السلمي للسلطة..... هنا أيضاً الخطر الكامن بشكل أكبر، فالغرب سيستغل سذاجتهم ويتسلل من بينهم إلينا".

* * *

إياد – عادل

أتذكر كيف التقيت في المرة الأخيرة أيمن، الشيوعي المـزمن في سجلات جهاز حفظ الاستقرار، التي لا يغيرها الـزمن ولا العواصـف الغبارية، فتبدو بقدرة صـمودها وكأنهـا مكتوبـة في الأمـس، تختـرق الأزمنة والأمكنة بفاعليتها السرمدية، حتى ولو مات بطلها، فإنها تطاله وكأنه يعيش، بل وقد تلحق أولاده بتأثيراتها. أيمن كان بطلاً شيوعياً في شبابه لعام واحد، إلا أنه بالرغم من انقضاء أكثر من عشرين عاماً على بطولته العابرة، فهو لايزال شيوعياً مُخرِباً في السجلات، بغض النظـر عن سباته الفكري والعملـي، هـو وشـيوعيته. وعنـدما شـاهدته أمـام المسجد، كان مشلولاً روحياً إلى جانب سباته، وأظن أنه لازال يلتجئ إلى برودتـه في الـصيف، وإلى دفئـه في الـشتاء..... أيمـن لا يعـرف الإسلاميين، ولن يعرفهم بعد الآن، بالرغم من تسلله إلى المسجد أيام الجمع بتأثير اختناقاته اليومية، فهو محـسوب علـى دائـرة المناضـلين الثوريين العجائز، الذين يلوكون أحلامهم المنـسية، إمـا علـى سـجاد المساجد، أو على أرصفة المقاهي، وينتظرون موتهم البطيء.

يقول أبو أحمد العملاق ""أبو رعـد"، اتـرك النـاس يـذهبون إلى مزارات الأولياء، يتلهون بالتضرع إليهم ويبكون طويلاً أمام قبـورهم، واشـغلهم بـنزاع فيمـا بينـهم حـول الـشيخ الأكثـر قداسـة وصـاحب المعجـزات الأكثـر عجائبيـة. وعنـدما يـشعرون بالملـل مـن الـدوران حولها، وقراءة التعويذات اللانهائية فيهـا، ليتـسلى الرجـال بمـشاهدة مباريات كرة القدم، ولتمضِ النسوة للتسوق في المجمعـات التجاريـة الجديدة، حيث لا فرق بينهما والمزارات، فكلها مخدرات تتسلل إلى العقول، تشل انسياب الأفكار، وتسلب الأحـلام بـالتغيير، وتقـودهم بالنتيجة إلى نسيان الواقـع. اجعـل نظـرتهم دائمـاً ذليلـة، ولا تـدعهم

يجرؤون حتى على التفكير برفعها ولـو قلـيلاً إلى ولي نعمتـهم فـوق، الذي يمثل الحق والقوة والنموذج الصالح، لا تسمح لأحد أن يقتـرب من الاشتغال بالسياسة، كمـا في الماضـي، فيمتلـئ رأسـه بـالخيلاء، ويظن في لحظة انتشاء أنه قد أصبح بطلاً".

"ولكــن يــا معلمنــا، الجميــع أصــبح يرتــاد الآن المــساجد، الشيوعيون الخـائبون، المرتـدون إلى طـوائفهم وقبائلـهم، والبعثيـون المهمشون الضجرون، المستبعدون من الـسلطة، والناصـريون الـذين فقدوا بوصلتهم دون معبود الجماهير، فتناثروا من اليمين إلى اليـسار، والناس المتسكعون العـاطلون عـن العمـل، أو الـذين شـعروا بانتـهاء موضة المقاهي الشعبية، فـذهبوا وراء موضـة المـساجد.... جمـيعهم يريدون الآن أن يظهروا مؤمنين أتقياء خاشعين، فماذا نفعل بهم؟".

"لا شيء "أبو رعد"، هم يذهبون إلى المسجد يوم الجمعة فقـط، يذهبون لأنه ليس لديهم مزارعهم الخاصة ليقضوا عطلتـهم الأسـبوعية فيها، يوم الجمعة هـو يـوم فلكلـوري في حيـاتهم، يقتلـون بـه رتابـة الأسبوع بعمل مغاير ليمضي بسرعة، كمـا تمـضي أيـامهم كلـها دون معنى..... هؤلاء لا خـوف منـهم، هـم يائـسون، يبحثـون عـن دفء روحي، يلملمون به أيامهم المنكسرة في أول مكان يتعثرون به".

"والمؤمنون الذين يرتادون المساجد يا معلمنا بشكل شبه منتظم، ويمارسون الطقوس الدينية باقتناع؟".

"لا تفكر بهم كثيراً "أبو رعـد"، هـم قليلـون، تكفلـت مـصاعب الحياة بتحطيم إيمانهم وبعثرة أحلامهم بعودة الخلافة، ونحـن أكملنـا على ما تبقى في رؤوسهم داخل الأقبية لدينا. أما الذين أفلتـوا وهـاموا في الجبـال، مهـاجرين إلى سـيوفهم وفؤوسـهم وأحزمتـهم الناسـفة، فنحن لا نتـرك مـستقراً لهـم. وهـم إذا كـانوا شـديدين معنـا، فـنحن عنيفون ودمويون معهم، الدم بالدم، والعينان بالعين، والأسنان كلـها بسن واحدة، والعشرة منهم أو المائة مقابل واحد منا عنـدما يلمـسونه

فقط، لن نسمح لهم بالتنفس حتى ولو استعنا بالشيطان، إما نحن أو نحن، لا مجال لهم..... وأنت يا "أبو رعد "ابحث عن الذي يمكن أن يتسرب إليهم من المساجد، واقضِ عليه بتشفٍ قبل أن يصل إلى الجبال، دون أوامر مباشرة منا".

"وهؤلاء الفلكلوريون في مساجد أيام الجمع يا معلمنا".

"ستتكفل بهم يا "أبو رعد "جمعيات الإرشاد الديني الإصلاحية الموجهة مباشرة من قبلنا، وتقوم بتطويعهم باسم الإيمان، سيطلبون منهم التوجه إلى من في السماء، والدعاء أمام كاميرات التلفزيون".

إياد كان شيوعياً حقيقياً، وأصبح إسلامياً فلكلورياً، وضاع في أوهامه الجديدة.

وعادل كان إسلامياً متعصباً، تحول إلى عقلاني عبثي، ولكنه عرف كيف يستغل الفرص جيداً.

إياد وعادل أعرفهما جيداً، فهما من أبناء بلدتي.

إياد كان صديقي، وانقلب عليَّ، ولم يعد يرغب برؤيتي، فأنا ملحد!

وعادل لم يكن صديقي، إلا أنه أصبح ودوداً معي، يحب أن يحدثني، فأنا عقلاني!

هكذا هي دورة الحياة العبثية في بلدة لا تعرف أين يمضي بها الخراب المنظم والموجه للعقول والقلوب، من قوى لامرئية تتلاعب بنا، تقيم في داخلنا، ونتصرف تحت رقابتها، لننفذ أوامرها وتعليماتها بدقة، أبو أحمد، والشيخ حسني، والمنقذ الأمريكي العالمي الذكي.

على عكس أيمن، كان إياد مناضلاً شيوعياً ملتزماً وصلباً في بلدتنا، طالباً في قسم الفيزياء بالجامعة، وبسبب التشنج العقائدي وروح المواجهة لديه تدرج في مناصبه الحزبية بسرعة، حتى أصبح

مسؤولاً قيادياً عن إدارة عدة خلايا سرية في البلدة. ناضل إياد طويلاً داعياً إلى التغيير بالتحرك الجماهيري المنظم بقيادة الطبقة العاملة، في بلدة ليس فيها إلا الفلاحون، ولذلك لم يتواجد في خلاياه السرية سوى طلاب مدارس، يحلمون مثله بالتغيير، ولكن على أن يصبحوا في المستقبل أطباء، ومهندسين، ومحامين، ومدرسين..... لا عمالاً.

طال انتظار إياد بالتغيير، في حين كان أفراد الخلايا يتسربون في بعثات رفاقية، يتم تهريبها سراً إلى بلاد الثلوج، دعماً للنضال والتغيير المستقبلي في البلدة. وما أن يصلون إلى هناك حتى يشعروا بصقيع الثلوج، فينتقلوا من النضال العقائدي البارد في الخلايا السرية إلى النضال الجسدي الدافئ في أحضان الشقراوات، وينسون الحزب والطبقة العاملة وبلدتنا، ويتذكرون طاقاتهم الحيوية المختزنة في الأجساد.

يعيد إياد ترميم خلاياه في البلدة باستمرار بعناصر شبابية جديدة، ليتسرب أفرادها دائماً في الطريق ذاته. يناضل وحده دون السماح له بالتسرب. "الوطن يحتاج إلى المناضلين الصلبين أمثالك، وأولئك الذين ذهبوا سيرجعون ليقفوا إلى جانبك بعد أن يتزودوا بالمرجعية العقائدية الصلبة ضد الرجعيين والقوميين والمنحرفين في الحزب"، هذا ما كان القياديون يقولونه له.

ولم يرجع من المناضلين إلا من داهمه القرف هناك، وشده حنين مفاجئ إلى البلدة، مثل صديقنا المشترك أيمن، أقصد المشترك في مرحلة مراهقتنا عندما لم يكن في حياتنا تنظيمات سياسية. بدأ الملل الثوري والتذمر يتسرب إلى قلب المناضل الصلب إياد، تصله دائماً الأخبار عن الليالي الماجنة، المليئة بالحرارة والدفء، التي تبثها الشقراوات والفودكا في أفئدة الرفاق المناضلين الذين بردوا هناك، فيما تحاصره هنا القبضة الفولاذية لعناصر جهاز الاستقرار الوطني، بحيث أخذوا يحصون أنفاسه، ودقات قلبه، ورفات

جفونه، ويحولون حياته اليومية إلى جحيم. بقي صامداً، ولكنه أخذ يشعر شيئاً فشيئاً بعبثية نضاله، منتظراً التغيير الذي لا تلوح في الأفق أية بوادر له، فيما الرفاق هنا يتساقطون في الأقبية.

اقترب إياد مني بعد سفر أيمن الذي طال، وخاصة بعد الشعور بفقدانه، لم يفكر أن ينقل لي عدوى نضاله، فقد كنت برأيه شاباً مجنوناً مهووساً بالأوهام والكوابيس، التي أقوم بإشعالها بحرائق لا تنتهي، كان يقول عني" مهووس بالخرافات التي أثبتت الحقائق العلمية أنها غير موجودة، ولكن دعوه فهو شاب صافي القلب مليء بالحماس للقراءة".

وبدلاً من أن يحاول إياد التأثير بي سقط هو في لحظات تراخيه النضالي تحت ثقل عالمي السينمائي، انجذب إلى العلاقة الغريبة التي تربطني بالسينما، وجد أنني أهرب إليها لأعيش أفلامها واقعاً، في حين أعيش الواقع أفلاماً سينمائية. أعجبته الفكرة، وشعر أنه تخفف من وطأة الضغوط والمسؤوليات النضالية لديه، وتجعله ينسى العبثية فيما حوله.

ولكن بما أن إياد كان لايزال ملتزماً بالمبادئ الثورية النضالية، فإنه لم يكن يرافقني إلا إلى أفلام الدول الاشتراكية، وأفلام دول أمريكا اللاتينية المناضلة، حيث الينابيع العقائدية الملهمة موجودة فيها. أما الأفلام الفرنسية والإيطالية، فهي أفلام بورجوازية، تجعلنا ننسى الواقع ونهرب إلى الأحلام الوردية والأوهام المخملية، والأفلام الأمريكية كلها دون استثناء إمبريالية، عدوانية، بشعة، تمجد البطل السوبرمان الحقير الذي لا يقهر، تجعلنا ننسى آلام الشعوب المقهورة التي يمتص الغرب خيراتها في أثناء مشاهدة أفلامه. ولذلك لم يكن إياد يرافقني إلى الأفلام الفرنسية والإيطالية والأمريكية بقرار قطعي وحاسم، مهما تحدثت له عن أفلام الموجة الجديدة في فرنسا مع غودار وتروفو، وأفلام الواقعية الإيطالية مع فلليني وبازوليني،

والأفلام الأمريكية المناهضة للحرب في فيتنام مع أمثال كوبولا. قبلت ذلك منه، على الأقل وجدت نصف مهووس بالسينما يحضر نصف الأفلام معي.

توفي والد إياد بمرض السرطان الخبيث، الذي أخذ ينتشر فجأة في البلدة، هو والسرطانات الفكرية الأخرى، شعر بالمرارة والألم لأنه لم يستطع أن يفعل له شيئاً، لم تكن لديه التكاليف العالية للعلاج الكيماوي والإشعاعي، وحتى ينسى أحزانه فقد قرر حضور الأفلام الفرنسية معي. ثم توفيت والدته بأزمة قلبية حادة، نتيجة إصابتها بالسكري وارتفاع ضغط الدم، لم يستطع تأمين تكاليف مستشفى خاص بعد أن قالوا إن هناك أملاً بنجاتها فيه، شعر بتأنيب الضمير بعد أن أصر على تركها في مستشفى عام، وأصبح يحضر الأفلام الإيطالية معي. وبما أنه كان الأخ الأكبر في الأسرة، فقد وجد نفسه فجأة مسؤولاً عن إعالة إخوته الصغار بعد وفاة الأب، إضافة إلى مسؤولياته النضالية كأب روحي لأفراد خلاياه الذين يتسربون ولا يرجعون، في حين أنه لازال في السنة الأخيرة من الجامعة.

ولما كان إياد ملتزماً بحياة الكادحين فلم يجد غضاضة بالعمل نادلاً في مطعم صغير مخصص للطلاب ريثما ينتهي من دراسته، لا بل وجد أن هذا يقربه من حياة الفقراء والشعور بمعاناتهم. ولكن أخته الصغيرة رجعت إلى البيت ذات يوم مع طفلين صغيرين، باكية ونادبة حظها بعد أن طلقها زوجها، فكبرت المسؤوليات ولم يعد عقله يحتمل، فقرر عندئذٍ أن يتابع الأفلام الهندية بالكامل، والتي لم أكن أحبها، فأخذ يحضرها وحده.

انتهى إياد أخيراً من دراسته الجامعية في قسم الفيزياء، وعندما بحث عن عمل وجد أن جميع الأبواب موصدة في وجهه، فالتقارير الأمنية تسبقه أينما يذهب "شيوعي مزمن جداً، وخطير، في مواقع تخريبية قيادية عليا"، أما أجره الصغير من المطعم فلم يكن يسد الرمق.

وأصبح بحاجة للجسد، فلم تعد تكفيه القبلات التي تمنحه إياها بعض الرفيقات بشكل عابر، مشترطات الاستمرار والذهاب إلى ممارسة أعمق عن طريق الزواج فقط، فلم يصلن بعد إلى مجتمع شيوعي ليعشن حريتهن الجنسية بشكل كامل مثل الرجال، كما تشرح الكتيبات الحزبية.

شعر بقساوة الحياة وحصار مصائبها، فتوقف عن النضال الذي بدا له دون جدوى ولا تقود إلى التغيير، ولكن من يصدق أنه قد توقف، فدمه وأحلامه أصبحت شيوعية، كما تقول التقارير الأمنية. وأمام خيبات الأمل المتتالية، تحول إلى الإقامة شبه الدائمة في صالات السينما، وأخذ يحضر جميع الأفلام دون استثناء، وإن كانت الأفضلية بدأت تتنامى في داخله نحو الأفلام الأمريكية، التي قرر أن يشاهدها كتزجية للوقت فقط، فهو لايزال يعد نفسه مناضلاً في داخله، وله موقف واضح من الإمبريالية وعملائها في المنطقة.

وجاءته فرصة ذهبية ذات مرة، فرصة لا تتكرر بسهولة، فقد قرأ بالصدفة إعلاناً في إحدى الجرائد الرسمية عن وظيفة مُعَلِّم بمدرسة ابتدائية في إحدى الدول الصحراوية، وتحددت المؤهلات المطلوبة بشهادة جامعية على الأقل مع معدل نجاح عال، وتم قبوله لتحقيقه الشروط المطلوبة، بما فيها أن اسمه لم يكن يبدأ لا بجورج ولا علي. لم يتردد بقبول هذه الوظيفة، وسافر دون أن يعرف أحد بهويته الحزبية، بعد أن تخلى عنها في البلدة هي وشهادة الفيزياء. حبسوه هناك في سكن داخلي ملحق بمدرسة في منطقة نائية، يعلم تلامذتها مادة التعبير والقراءة، أطفال لا يفهمون ما يشرحه، وهو لا يفهم ما يقولونه، ولكنه صمت مقابل الراتب الذي لم يكن يحلم به في البلد.

وضجت الشهوة في جسد إياد الفائر لرؤية فتاة، على الأقل فتاة تسير في الشارع، في مدن ليس فيها اجتماعات مع رفيقات مناضلات، يشرح لهن كراسات التحرر الجنسي في المجتمع البطريركي، وليس فيها صالات عرض سينمائية يشاهد فيها لقطات

سريعة لقبلات محمومة، ما أن تبدأ حتى تذهب الكاميرا إلى سرب حمام يطير في السماء. ازداد اختناقاً، ولم يعد يتنفس بشكل طبيعي إلا في إجازاته الصيفية القصيرة عندما يعود إلى البلدة.

شاهدت إياد في إجازة الصيف الأولى له، قال لي وقتها "سأجمع ثمن سيارة صغيرة فولكس فاكن، وأسافر بها إلى بلاد الثلوج لعند أيمن، دعاني إلى سهرات ماجنة عامرة بالفتيات الشقراوات والفودكا، ما رأيك أن تذهب معي؟". ثم أردف وقد فوجئت بالكامل بما يقوله "لقد بدأت بتأسيس مكتبة شخصية في البلدة، تضم أجمل الأفلام الإيروتيكية والبورنوغرافية في العالم، وحصلت على نسخ من أفلام عربية نادرة منها، لا يخطر في الذهن أن هناك ممثلات عربيات محترمات يمثلن أفلاماً إباحية! أشاهد هذه الأفلام في الإجازات الصيفية عندما أحضر إلى البلدة..... فقد مللت من أفلامك لهيتشكوك وتروفو وفلليني وكوبولا وسبيلبيرغ ويوسف شاهين، البعيدة بالكامل عن الواقع".

وسافرت إلى سلومانيا، ولم أشاهد إياد بعد ذلك، ولكن بعد عودتي من السفر التقيت أخاه الأصغر، الذي لم ينخرط في النضال الثوري، ولم يُصَب بخيبات الأمل مثله، فعاش متوازناً ومنسجماً مع ذاته. سألته متلهفاً "ماذا حدث مع إياد؟ هل مازال يحضر في إجازاته الصيفية؟ وهل مازال يوسع مكتبته السينمائية الشخصية، ويتابع أحدث الأفلام الإباحية في العالم؟".

يجيبني بلهجة مستغربة، ولكنها مليئة بالمرارة "أين أنت وأين إياد! ألا تدري ما حدث معه؟".

" لا، لم أشاهده منذ سنين طويلة، انقطعنا عن بعضنا بسبب السفر وافتراق طرقنا السينمائية".

" لا أنا ولا أنت سنعرف أخي إذا ما شاهدناه الآن، لقد تغيرت أفكاره وتغير معها مظهره بالكامل. ربما كان لمادة التعبير والقراءة،

المقررة رسمياً في الدولة الصحراوية والتي يدرسَّها هناك بعض التـأثير على شخصيته، وهيأته للانقلاب القادم في حياته".

" هل هناك حدث خطير أثر على حياته؟! ماذا حدث معه؟".

يجلس الأخ باسترخاء، إذ يبدو أن الحكايـة طويلـة ومـثيرة، ولا يمكن روايتها بكلمات قليلـة، يقـول "في إحـدى الإجـازات الـصيفية تعـرَّفَ إيـاد علـى إحـدى الفتيـات مـن حلقـات الآنـسة المقدسـة في المدينة. تم ذلك عن طريق أختنا المطلقة، الـتي كانـت تواظـب علـى حضور الدروس الإيمانية بعـد ضـياع زوجهـا منـها، ودخـول اليـأس والملل إلى قلبها وفقدان الأمل بعودته. أُعجبـت الفتـاة المؤمنـة بقامـة إياد الممشوقة، وبنظراته الساهمة الحزينة، فـرَّقَ قلبـها لـه، وحدثتـها حاستها الإيمانية أنه هذا هو الفتى الذي انتظرته طـويلاً، وشـاهدته في الرؤى وصلوات الاستخارة، هذا هو الذي بعثته الـسماء لهـا. فقـررت أن تمنحه جسدها، وروحهـا، وقلبـها، وشـقتها الفـاخرة الواقعـة في أرقى أحياء المدينة مع خادمتـها الـسريلانكية، وسـيارتها المرسـيدس الحديثـة بـسائقها البـادي غـارد، ومزرعتـها في الـضواحي بحارسـها وبوابها من البلدة القريبة".

" هذا يعني أنه تزوجها؟!".

" نعم لقد تزوجها، ولكنها لم تقبـل بـه إلا بعـد أن طلبـت مهـراً عالياً جداً".

أسأله بلهفة "وكم كان مقدار المهر؟".

" سنة كاملة مـع المجاهـدين في أفغانـستان..... الآن لا تـستطيع معرفة الرفيق إياد إذا ما صـادفته في الطريـق، لقـد أصـبح الأخ إيـاد! جلباب أبيض قصير، ولحيـة مـشعثة، وصـندل أو خـف في القـدمين حسب الفصول. لقد تغير إياد بالكامل، حتى أنـه لم يعـد يقـابلني أنـا أخوه الصغير، الذي كنت أعتبره بمثابـة والـدي، وسـهرت معـه ليـالٍ طويلة، ألهب فيها خيالي بالقادة الثوار العظماء في العالم. يقـول عـني

الآن كافر مرتد، بعـد أن تزوجـت رفيقـة، كانـت في حلقتـه الحزبيـة القديمة".

أجيبه بسخرية "على كل الأحوال ربح زوجة تقية من عنـد الآنـسة المقدسـة، ملتزمـة بـسبحاتها وعـداداتها، ربحهـا هـي وجـسدها، وأموالها، وممتلكاتها، وارتاح من الفقر المدقعٍ".

يعتـرض الأخ بـسخرية أكـبر، ولكنـها مليئـة بـالمرارة "لا، لقـد انفـصلا، أو بـالأحرى طردتـه مـن البيـت وحرمتـه مـن كـل أموالهـا وممتلكاتها، وفرضت عليه الطلاق".

" لماذا؟ ماذا حدث حتى وصلا إلى هذه الدرجة من القطيعة؟".

" أختي المطلقة التي لازال لديها بقية من عقل شعرت بالملل من التعويذات واللطيفيات التي لم تردّ لها زوجها، أختي هذه ألمحت إلى ما حدث بينهما، وإن بشكل غـير مباشـر، فالموضـوع حـساس جـداً وحميمي، لا يمكن التحدث به صراحة".

تستبد بي الآن رغبة شديدة لمعرفة مـا حـدث "أرجـوك، أشـرح بالتفصيل، يهمني أمر إياد، ربما يكون قد عاد إلى توازنه الطبيعي بعـد كل هذا الاضطراب في حياته".

" أبداً لم يعد..... عندما يمـارس الجـنس مـع زوجتـه، وهـو مـا يحدث كل ليلة تقريباً، كان يفترشها بلغته الفقهية، وكـان متفقـاً معهـا على هذه الوضعية المناسبة للمعايير الإيمانية الـسرمدية. وفي الحقيقـة لم يكن هو الذي كان يفترشها، بل هي التي كانـت تفترشـه، فإيـاد لم يمتلك شيئاً من كل ما حوله، حتى روح زوجته كانت مكرسة للآنـسة. فكانت هي التي تعلوه عملياً، حتى برغباتها التعويذية المجنونة".

أسأله بدهشة "وكيف كانت تعلوه برغباتها هذه؟".

" حسب المعلومات المتجمعة لدي مـن أحاديـث أخـتي، ومـن مراقبتي لأخي في المرات النادرة الأخيرة التي رأيتـه فيهـا، عرفـت أن

زوجته كانت عدادة ممتازة للتعويذات واللطيفيات، تستفيد من أية فرصة لعد أكبر عدد منها في سباق مجنون مع بقية أخواتها، لمحاربة الشيطان الذي خيم على المدينة، كما قلن. وبالرغم من أنه شرح لها بعض القوانين الرياضية للتغلب على تكرار العد، فهو كما تعرف أنهى دراسته الجامعية في قسم الفيزياء، إلا أنها لم تقبل العد إلا على الطريقة التقليدية الغبارية. ولكن من كثرة الانشغال بالأمور العلوية السماوية، فقد كانت زوجته تنسى ماذا تعد، فبدلاً من التعويذات واللطيفيات أخذت تعد الأموال التي لديها، والأرقام التي تحلم بزيادتها منها أكثر فأكثر. وكان أكثر ما يثير إياد هذه الفوقية المالية التعدادية، وخاصة في أثناء افتراشه لها، فيشعر عندئذٍ أنها هي التي تعلوه، وليس العكس".

أسأله مقاطعاً بلهفة شديدة "ولكن كيف حدثت القطيعة بينهما؟".

يجيب ضاحكاً "كانت ردة فعله غريبة، فلقد أصيب بالإحباط الجنسي، وأخذ عضوه يرتخي كلما اقترب من زوجته. ولم تنجح المائة ألف تعويذة، ومثلها من اللطيفية التي كرستها زوجته لشد عضوه المرتخي. قالت له إن الشيطان تسرب إلى دمه، وانسل في كل أنحاء جسده، حتى وصل إلى إحليله. وذات مرة وبينما هو يناضل فوقها، وهي تساعده بقراءة التعويذات، تذكر أيام بطولته عندما كان يوزع المنشورات الشيوعية هو والرفاق ليلاً، يلصقها على الجدران أو يمررها من تحت الأبواب، وقد "دوَّخ "دوريات جهاز الاستقرار دون أن تستطيع إلقاء القبض عليه. كان يمتطي زوجته في العتمة حتى لا يرى وجهها العداد الساخر، فذكرته العتمة بالذات بليالي البطولة هذه، فصرخ بصوت عالي يستثير الحماس دون أن يدرك ما يقول، هيا يا رفاق، لأجل الطبقة العمالية الكادحة والفقراء في العالم، من أجل ماركس، وأنجلز، ولينين، وستالين، وخروتشوف، من أجل تروتسكي، وبليخانوف، وماوتسي تونغ، وروزا لوكسمبورغ، وتشي

غيفارا، لننفذ مهمتنا النضالية هذه. وانتصب عضوه أخيراً، وانتشى إياد بمتعة لم يختبرها منذ فترة طويلة".

" وماذا فعلت هي عندما سمعت هذا؟".

" عندما سمعته يذكر هؤلاء الشياطين، كانت كمن أصابتها الصاعقة، فاستنجدت بالأتقياء الصالحين ابن حنبل، وابن قيم الجوزية، وابن تيمية، والشوكاني، وحسن البنا، وسيد قطب، والنبهاني، والمودودي، وابن لادن.... ودفعت عنها زوجها المتصبب عرقاً، ولكن المبتسم. اكتشفت أن التعويذات واللطيفيات لم تفدها بطرد الشيطان، فقررت أن تطرده بنفسها. وهكذا طردت زوجها من البيت".

" وماذا حدث للأخ إياد؟".

" طبعاً ندم كثيراً على ما قاله، فقد طارت الشقة والمزرعة والسيارة، ومعها الخادمة والسائق والبواب، وبالرغم من سلبية زوجته الجنسية إلا إنها كانت جسداً خسره أيضاً، ولذلك حاول أن يستعطفها، وأرسل أختنا المطلقة لتتوسط له".

" وماذا حدث؟ هل وافقت على عودته؟".

" فكرت كثيراً، ولكنها طلبت منه "كفارة "عن ذنوبه".

" وكم كانت الكفارة؟".

" خمس سنوات مع المجاهدين في أفغانستان، مع الحذر من الوقوع بأيدي الأعداء الأمريكيين ودخول معسكر غوانتانامو، ليس فقط خوفاً عليه، وإنما لمعرفتها العميقة بميوله المتقلبة. فهي تعرف أنه في مرحلة انتقالية من حياته كان يعشق الأفلام الأمريكية، فقد يعاوده الحنين وينتقل إلى معسكر الشياطين الفاسدين المنحلين بسهولة، وخاصة مع وجود إمكانيات واسعة لديهم لتقديم شقق وسيارات ومزارع أفضل منها".

" وأين هو الآن؟".

" وصلت أخبار إلى أختنا المطلقة أنه يقيم في قبو صغير قرب مسجد في طرف المدينة، قالت إنه يفكر طويلاً إلى أين سيذهب لينفذ كفارته بشكل يفاجئ بها زوجته، ويستعيد ثقتها بشكل أكبر، هل سيذهب إلى أفغانستان، أم باكستان، أم كشمير، أم العراق، أم الصومال، أم اليمن، أم الشيشان، أم إلى الخلايا النائمة في الغرب؟..... وفي أثناء التفكير بذلك، أخذ يشاهد الأفلام الوثائقية التي تبثها القاعدة والتنظيمات الإسلامية المشابهة عن طريق الإنترنيت وبعض المحطات الفضائية التلفزيونية، وبدأ يؤسس مكتبة أفلام وثائقية عن الخطابات والمقابلات والتدريبات والعمليات التي تنفذها هذه المجموعات. ويبدو أنه في النهاية أدمن مشاهدة هذه الأفلام، يجلس معها وحيداً في العتمة ويشاهدها، كما كان يفعل في الأيام الخوالي في صالات العرض السينمائية. وآخر الأخبار أنه أقلع عن السفر إلى أي من مناطق صدام الإيمان مع الكفر في العالم، بل وأقلع عن التفكير بالعودة إلى زوجته..... فقد أصبح يعيش الأفلام واقعاً حقيقياً".

إياد كان شيوعياً حقيقياً، وأصبح إسلامياً فلكلورياً، وضاع في أوهامه الجديدة.

وعادل كان إسلامياً متعصباً، تحول إلى عقلاني عبثي، ولكنه عرف كيف يستغل الفرص جيداً.

إياد وعادل أعرفهما جيداً، فهما من أبناء بلدتي.

إياد كان صديقي، وانقلب عليَّ، ولم يعد يرغب برؤيتي، فأنا ملحد!

وعادل لم يكن صديقي، إلا أنه أصبح ودوداً معي، يحب أن يحدثني، فأنا عقلاني!

يتناول عادل كأساً كبيراً من الشاي الأسود الثقيل، ونحن نجلس في المقهى الشعبي بساحة البلدة، يأخذ منه رشفات كبيرة متتالية، يمتصها في فمه بهدوء قبل أن يبتلعها، وكأن به رغبة شديدة أن يتسلل الطعم الحاد واللاذع إلى رأسه بدلاً من جوفه. يجلس حولنا رجال ساهمون، لا يتحدثون، ينظرون إلى لاشيء، إلى لا هنا ولا هناك، وكأن الأيام الثقيلة المُرة خدرت عقولهم وأحاسيسهم، ينسون كأس الشاي على الطاولة بعد أن أخذوا الرشفة الأولى منه، بالرغم من أنهم مازالوا ممسكين به، ويذهبون بعيداً في صمتهم وأحلامهم المبعثرة، ثم يغفون على الكراسي وهم جالسون. نسوا أيام شبابهم، عندما كان المقهى يضج بضحكاتهم ونزاعاتهم الانفعالية، وقد تراهنوا على الكنافة النابلسية أو الهريسة بالسمن البلدي، يدفع ثمنها المهزوم بلعبة طاولة النرد أو أوراق اللعب. لم يعد شباب الجيل الجديد يأتي إلى المقهى، يجلسون الآن أمام التلفزيون، ويشاهدون الأفلام الأمريكية ومباريات كرة القدم، ويشربون الكوكا كولا بدلاً من الشاي.

يقول لي عادل بحسرة "أنا لا أعرف، لا أعرف شيئاً! في العمر الذي كان يجب البدء فيه بالمعرفة الشاملة والعميقة ضموني إلى التنظيم، أو بالأحرى وجدت نفسي فجأة في التنظيم، أغلقوا عليَّ الأبواب والنوافذ، وتركوا لي كوة صغيرة في جدار الأوهام، وقالوا لي سنعمل معاً على إعادة بناء الخلافة الرشيدة، ونجدد الأمجاد القديمة، المباركة بروح التوحيد وسيوف المجاهدين المؤمنين، ونعيد فتح الأصقاع والأقاليم من بلاد السند والهند إلى بلاد الأندلس وما وراء جبال البيرنيه، لترفرف راية الإيمان من جديد..... ومنذ أن قالوا لي ذلك، وأنا لا أعرف!".

أسأله مستغرباً "ما هو الذي لا تعرفه؟ لماذا تكرر ذلك باستمرار؟".

يجيبني عادل "لا أعرف كل ما تتحدث عنه، فأمتلئ بالاضطراب

والقلق، أشعر أنني أضعت أعواماً طويلة من عمري دون أن أتعلم وأعرف.....

لا أعرف شيئاً عن الملاحم الأسطورية القديمة، التي تقول إنها مثلت أولى خطوات الإنسان القديم الجريئة نحو اكتشاف المجهول والمبهم والغامض، لا أعرف حكايات الطوطم والشامان، ولا أساطير التكوين والطوفان الرافدية، ولا الأناشيد التموزية السومرية، ولا ملحمة جلجامش ورفيقه أنكيدو، ولا التراتيل الكنعانية، ولا الإلياذة والأوديسة الإغريقيتين، ولا الإنيادة الرومانية! قالوا لي في التنظيم إن أزمان ما قبل الإيمان هي عصور جاهلية، ليس فيها إلا الكفر والشرك والإلحاد، والناس تعيش في غياهب الجهل والظلام، والتاريخ فيها ليس سوى حكايات أقوام مرتدين عن الإيمان، وأنبياء يهدون ويهددون، فترسل السماء طوفاناتها المدمرة، وصواعقها المحرقة، وخسوفاتها للأرض لتبتلع مدنها وأقوامها.

لا أعرف شيئاً عن الطوطمية، والأخناتونية، والزرادشتية، والمانوية، والغنوصية، والأفلاطونية، والهندوسية، والبوذية، والكونفوشية، وهي تشكل كما تقول لبنات تراكمية في بناء الفكر الديني والروحي والأسطوري للإنسانية كلها! قالوا لي إن كل الأديان والتيارات الفلسفية قبل الإيمان هي مشركة وإلحادية، قضى عليها الهدي التوحيدي بنوره إلى الأبد وبشكل حاسم، وهي وإن استمرت بعضها في أصقاع من العالم، فسيأتي يوم وننتصر عليها، واستثنوا من ذلك اليهودية والمسيحية التي قالوا إنه تم تحريفهما بالكامل، وأتباعهما لا يعرفون دينهم، نحن الذين نعرفه، وسنعلمهم العبادة الصحيحة .

فوجئت عندما سمعت لأول مرة بعلم الباراسيكولوجيا، وما يرتبط بها من فهم إمكانيات وقدرات إنسانية كامنة في لا وعي الإنسان، كالحدس، والتخاطر، والاستبصار، والتنبؤ، وتحريك الأشياء عن بعد،

والارتفاع في الهواء، والخروج من الجسد! كانوا قد حذروني أن الخوض في هذه القضايا هو تدخل في المعجزات الإلهية، ورؤى الاتصال مع السماء، الممنوحة فقط لأناس مقدسين مختارين، وكل هذا إعجاز إلهي لا تدركه العقول البسيطة، وليس علماً.

لم أتفهم في حياتي كلها معنى الفنون التشكيلية والنحت، وتياراتهما ومدارسهما، الكلاسيكية، والرومانسية، والواقعية، والانطباعية، والتجريدية، والوحشية، والدادائية، ودورهما في تهذيب النفس الإنسانية، وقدرتهما على تلمس جماليات الحياة حولنا وعكس رؤيتنا الداخلية لها، وإعطائها معنى إنسانياً! قالوا لي إن الرسم والنحت حرام، فيهما تقليد لفعل من في السماء، وتجرؤ وإدعاء على قدراته بنفخ الروح في الأجساد. والرسوم والصور والتماثيل والمنحوتات، الإنسانية والحيوانية، هي أشكال دون روح، لا يمكن أن يعطيها الحياة إلا من في السماء.

لم أقرأ في حياتي روايات، ولا قصصاً أو قصائد شعر، وبالكاد أتذكر من الكتب المدرسية أسماء بعض الروائيين والشعراء، دون أن أعرف أياً من عناوين كتبهم، ولا أعرف أن هناك جوائز عالمية يتنافس عليها الأدباء، مثل نوبل وسيزار والبوكر، ولا أن هناك شيئاً اسمه الأدب الملتزم، والأدب الطليعي، والواقعية الشعرية، والواقعية السحرية! فالكتاب الذي ألزمونا القراءة فيه هو كتاب السماء المقدس، الوحيد والأوحد، حامل الحقيقة المطلقة والنهائية، ولكنهم سمحوا إلى جانبه بسلسلة طويلة من التفاسير له، المتشابهة دون جديد فيها، وأكداس من الكتب الفقهية التي تكرر المعلومات التفصيلية جداً جداً نفسها منذ مئات السنين، عن تصرفات وسلوكيات عبثية لا أفهم ما الهدف منها، ولا هم يفهمون.

لم أحضر في حياتي كلها أفلاماً في صالات عرض سينمائية، وأكاد لا أعرف سوى بعض أسماء المُهرجين الذين يظهرون في

التلفزيـون المحلـي، ويحـدثني الأطفـال عنـهم، ولم أعـرف أن وراء الممثلين في الفيلم هناك كتّـاب سـيناريو، ومخرجـون، ومـصورون، وفنيو مونتاج، ومنتجون، ولا أعرف ما هي بالضبط جـوائز الأوسـكار ومهرجان كان، وقد كنت أظنهما أسماء مشروبات كحوليـة! قـالوا لي إن التمثيل حرام، فكيف يمكن أن يتزوجوا في الفيلم ناطقين الإعـلان عن الزواج، ثم يتخلون عنه في الواقع. وعلى كل الأحـوال فقـد كنـت أقضي معظم أوقاتي في المسجد، منـذ الفجـر وحـتى العـشاء، أتربـع على السجاد، مسحوراً بالعلماء الشيوخ الذين يعرفون كل شيء ماعدا التسامح الـديني، مـن فنـون الطـبخ إلى علـوم الـذرة، مـع تخـصص سرمدي في قضايا النكاح بجوانبه التفصيلية التقنية والفنية كافةً.

وقد فوجئت بوجود مسرح رسمي في المدينـة تتبنـاه الدولـة، لا يعرض راقصات داعرات ولا يقدم خمراً، كما كنت أظن، فقـد كنـت أخلط بين المسرح وبين البـارات والملاهـي وبيـوت الـدعارة، فكلـها تفتح أبوابها ليلاً..... أصلاً لم أكن أعرف من الـرقص سـوى الإباحيـة والمجـون الـتي ارتبطـت بعـصور الانحطـاط في قـصور الملـوك، والأمراء، والوزراء، وما يرافقهما من شذوذ جنسي، لواطـة وسـحاق ونوم مع غلمان. وعرفت أيضاً أن هناك رقصاً شـعبياً، ورقـص باليـه، ورقصاً إيمائياً، وشيء اسمه لغة التعبير بالجـسد. وبـالترافق مـع ذلـك سمعت عن وجود موسيقى شعبية، وموسـيقى كلاسـيكية، وموسـيقى الجاز، وحتى الغجر لهم موسيقاهم أيضاً. وأنا لم أعرف سوى بوجـود فنانة راقصة اسمها فيروز، تُسمع أغانيها في الـصباح مـن كـل النوافـذ المفتوحة، والمحلات التجارية، والسيارات العابرة، وعندما لا يوجد راديو، يترنم الصغار والكبار بأغانيها وحدهم. قالوا لي إنها تستطيع أن تفتن بلداً بكامله، وتُلهي أناساً عن العبادات، أما المسموح شـرعاً لنـا فقد كان نقر الدف بين النساء عند إعلان النكاح.

والـذي أذهلـني كـثيراً وجـود علمـاء فلـك وفيزيـاء وكيميـاء

وبيولوجيا، يفهمون الظواهر الطبيعية والكونية أكثر من شيوخنا العارفين بكل شيء. قالوا لي إن هؤلاء العلماء يضيعون الجهود والعقول والأموال والوقت في محاولة اكتشاف هذه الظواهر، بينما كل شيء مذكور صراحة في كتابنا المقدس، وبدلاً من ذلك كان عليهم تعلم العربية ودراستها بعمق وتأنٍ لاكتشاف الحقائق العلمية المبثوثة فيه، والتفكر بالعِبر الموجودة ما بين السطور. ولم أدر أن محاكم التفتيش الأوروبية حاكمت أمثالهم، وحرقت كتبهم، بل وحرقت بعضهم أحياء بتهمة السحر والشعوذة، وأننا نحن أيضاً صادرنا الكتب بفتاوى من رجال الدين وحرقناها، والذين لازال منهم من يقول إن الأرض لا تدور، وهي مسطحة وليست كروية، وأن هناك سبع سموات وسبع أرضين، ولو استطعنا لحرقنا هؤلاء العلماء، الذين يخرفون بحكايات لم تخبرنا بها الكتب المقدسة..... وفجأة تداخلت في عقلي نظريات علمية، لا تنتهي عن الجاذبية الأرضية لنيوتن، والنسبية لأينشتاين، والكوانتية لهايزنبرغ، تتحدث عن انفجار كوني، وكون نواسي، وأكوان متوازية، وأكوان بأبعاد متعددة، وثقوب كونية، ومادة مظلمة، ومادة مضادة، والعدم، بحيث لم يعد في الكون كله من فسحة أمتار قليلة للعوالم الماورائية، بجيوشها الجرارة من الملائكة والشياطين.

ولذلك لم أكن أعرف عن كل ما تتحدث عنه، فأمتلئ بالاضطراب والقلق، وأشعر أنني أضعت أعواماً طويلة من عمري دون أن أتعلم وأعرف.....".

أسأل عادل باستغراب "وما الذي كنت تظن أنك تعرفه حتى هذا العمر ؟".

يتناول عادل كأساً من مغلي الزنجبيل والقرفة واليانسون، ويأخذ منه جرعات كبيرة، وكأنه يريد أن يملأ بها رأسه، ويخلق به صدمة تنقذه من بلادة تفكير حطت عليه منذ زمن بعيد. نجلس في مقهى حديث قرب

دار البلدية، يرتاده موظفـون، ومحـامون، ومعقبـو معـاملات، ومـالكو مكاتـب عقاريـة، يثرثـرون قلـيلاً ويتنـاولون مـشروباتهم سـريعاً، أنـاس عمليـون، يـأتون ويـذهبون بعـد أن يوقعـوا لبعـضهم أوراقـاً رسميـة، ويتبادلون لفائف نقود ورقية صغيرة. حضر عادل هذه المـرة ومعـه حقيبـة جلدية صغيرة، يبدو من انتفاخها أنها لا تحوي الكثير من الأوراق.

يجيبني عادل عن سؤالي "كنت أعـرف حفنـة رمـل صـغيرة فقـط، حفنة رمل صغيرة من صحراء شاسعة بامتداد الأمكنة والأزمنة التي عرفهـا الجنس البشري، أعـرف عنـها كـل شـيء بـأدق التفاصـيل، وخارجهـا، للأسف، لم أكن أعرف شيئاً!".

" لا أفهم ما تعنيه! أصبحت تتحدث بالرموز الفلسفية علـى غـير عادات تاريخك الإيماني".

" حفنة الرمل هذه هي بضع عشرات من أعوام محدودة في تاريخ إنساني طويل لصحراء غبارية، هي معرفة الحياة المقدسة لعـصر بكـل التفاصيل الدقيقة جداً..... عاشت هذه التفاصـيل في بيئـة صـغيرة مـن حياة الصحراء، بلهيب حرارتهـا، وجفافهـا، ويباسـها، وخـشونتها، وعنفها، وقوانين قبائلها البدوية، وعطشها للماء والخضرة والأحلام، تفاصيل تأطرت كلها برؤى روحية، تصل الأرض بالسماء. وارتـسمت بالمقابل صـورة نعـيم معاكـسة تمامـاً، لكـل مـا هـو مفتقـد في هـذه الصحراء، وتقدست عالياً في عوالم ماورائية. وأخذت القبائـل تجتـاح كل ما حولها من الأصقاع بحد السيف، للحصول علـى نعـيم الأرض من الغنائم والسبايا ونعيم الـسماء مـن الحوريـات..... وسميـت هـذه الحفنة من الرمال بالأصول المقدسة.

وعلموني أنه يجب إقناع الجميع بهذه الأصول، وتقليد تفاصيلها الصحراوية المقدسة، إقناع الجميع أينما وجدوا، سواء كانوا يعيـشون في الجبال الثلجية، أو الـسهول الخـضراء، أو جـزر الميـاه البعيـدة، وصولاً إلى بلاد الأسكيمو، وإذا لم يقتنعوا بالحسنى فبحد السيف. لم

أستطع أن أفهم كيف سأقنع سكان بلاد الثلوج بحياة الصحراء ورؤاها، التي انتظمت في تاريخ قديم محدود؟

أخذت الأسئلة القلقة في داخلي تتنامى، تؤرقني وتعذبني، ولكن لم يكن من المسموح البوح بها، فالحقائق كلها موجودة في كتاب مقدس، وشيوخنا يفهمونه حرفياً، ويعرفون تطبيقاته في الواقع، وخارج ذلك ممنوع علينا من التفكير، حتى لا تتخلخل كل المنظومة الروحية والتحريمية التي تمت محاصرتنا بها، وهذا ما جعلني أعيش غريباً بانفصام كامل عما حولي".

أسأل عادل "ولكن الأسئلة القلقة بداخلك ستتكثف بشدة، ولابد أنها تفجرت في لحظة ما؟".

يمسك عادل علبة بيرة دون كحول، مستنداً إلى حقيبته التي تضخمت بأوراق شخصية ورسمية، يشرب علبة ثانية، مذاقها مر، ولكن بخارها لا يصعد إلى الرأس، تذهب إلى الجوف مباشرة، وهذا ما يجعله يطلب العلبة تلو الأخرى، ولكن دون نتيجة. نجلس في مقهى خاص بتجار، ومقاولين، وصناعيين، يقع قرب المسجد، ينهون صلاة الجمعة، ويحضرون إلى هنا لتناول مشروباتهم وعقد صفقاتهم. تعلو أصواتهم وهم يتجادلون ويحلفون بأغلظ الأيمان، يحسبون تكلفة المواد الأولية في مصنوعاتهم، أو تكاليف الشحن، أو سعر المتر المربع الواحد في بناء عقاراتهم السكنية. ويعلنون كم كانوا مضطرين إلى تقديم هبات وهدايا إلى موظفي البلدية، ودائرة الشؤون العقارية، ومديرية الاستيراد والتصدير، حتى يتم تسهيل أعمالهم، والتي لولاها سيجدون الطرق مغلقة أينما تحركوا. يتبادلون أوراق رسمية، ويوقعون إيصالات من دفاتر الشيكات بدلاً من النقود الورقية التي لم تعد تتناسب مع قيمة الصفقات المالية العالية.

يجيبني عادل على سؤالي "نعم تفجرت كلها بعنف ودفعة واحدة في السجن".

" في السجن؟!".

" نعم في السجن، هناك خرجت من قوقعتي السياسية والدينية للمرة الأولى، وتعاطفت مع أناس غرباء لا أعرفهم أبداً، تعاطفت معهم لمجرد أنهم يعانون من التعذيب مثلي ومن السجان نفسه، يصرخون مثلي تحت السياط، ويتألمون من جراحهم العميقة المثخنة، فشعرت أننا في جبهة واحدة، جبهة المعذبين في مواجهة ظلمه. وبما أنني كنت نصف طبيب، إذ وصلت إلى السنة الثالثة في كلية الطب قبل اعتقالي، فقد كان الجميع يطلب المساعدة مني بأدواتي البدائية. ولكن مداواتي اقتصرت على الجراح الجسدية، فقد اكتشفت أن هناك جراحاً نفسية وروحية عميقة لديهم لم ينفع معها أي دواء. إذ إن بعضهم أصبح تحت التعذيب جسداً يتنفس دون حياة، وبعضهم الآخر يبكي طوال الوقت مثل الأطفال، وهو يتذكر عائلته التي تركها في الخارج دون معيل، وبعضهم وصل إلى حافة الجنون..... لا أذكر من تماسك من الإخوة في تنظيمي، ماعدا أخاً واحداً كان مصاب بانفصام الشخصية، يتنقل بين شخصيتين مريضتين، صمد لأنه كان يظن أن الآخر فيه هو الذي يتلقى التعذيب لا هو نفسه، ولصموده فقد نصب الإخوة هذا الشخص المريض المختل عقلياً أميراً علينا، فأذاقنا الويل بنزواته المتطرفة، إذ شعر بعد فترة أنه ليس أميراً، وإنما خليفة في زمن حفنة الصحراء، وأخذ يعلمنا كل شيء، حتى ماذا نفعل حسب الأصول إذا عطسنا أو تبولنا..... ولكن ما تأكدت منه أن الجميع سقطوا تحت رحمة صداقة "أبو رعد"، حتى بعد أن قيض لهم الخروج من السجن، وذلك اتقاء لخيره وشره".

أسأله "هكذا ببساطة كنت تتعاطف مع الجميع في السجن؟!".

يشرب عادل كأساً من البيرة بالكحول هذه المرة، يستمتع بطعمها اللاذع ومذاقها المر، يترك الرشفة طويلاً في فمه، يشعر

بالبخار الثقيل يصعد إلى رأسه، فينتشي. نجلس هذه المرة في كافيتريا فاخرة للعشاق في المدينة، بطاولات وكراسي حمراء، تنعكس عليها مصابيح ملونة خافتة، وتنساب من الزوايا موسيقى فرنسية ناعمة حالمة، مليئة بالتأوهات الجنسية.

تجلس إلى جوارنا ثلاث فتيات في العشرينات من أعمارهن، يشتعلن ببنطلونات الجينز، والبلوزات الخمرية والسماوية والفستقية، التي تكاد النهود الصغيرة المتراقصة مع حركاتهن تقفز منها، يتبادلن الهمسات الحميمة، ثم يضحكن بصوت كمواء القطط. ترفع إحداهن شعرها الكستنائي المنسدل على وجهها بين الفينة والأخرى بحركة مثيرة من اهتزاز الرأس، فيها خليط من العفوية والإغراء، تلتقي إحدى نظراتها مع عادل، فتتحول الابتسامات إليه، ثم أخذت النظرات تتنقل بينه وبين صديقتيها، لتستقر بجرأة عنده، وما لبثت أن أخذت القلوب تتحدث بلغتها السرية.

يجيبني عادل "نعم، كنت أظن في البداية أن الجميع في السجن هم من التنظيم الأصولي الصحراوي الذي أنتمي إليه، فقد قالوا لي وقتها إننا الوحيدون الساعون إلى الحق والإيمان والتوحيد، وطريقنا فقط هو القويم. ولكن سرعان ما أدركت أنه يوجد في السجن انتماءات لعشرات التنظيمات السياسية المختلفة الأخرى، من الشيوعيين الملحدين، ومروراً بالقوميين المنحرفين عن الإيمان، وصولاً إلى الإسلاميين الضالين من خارج تنظيمي، والجميع يناصبون خط إيماننا عداءً صريحاً. لم أفهم في البداية كيف يمكن للكفار والملحدين والكتابيين، أعداء الإيمان، أن ينالهم التعذيب مثلي ومن السجان نفسه! قال لي أحد الإخوة إن على السجان تعذيب هؤلاء مرتين، مرة مثلنا لأنهم سياسيون، ومرة ثانية لأنهم خارجون عن الإيمان. ولكن السجان كان يعذبنا كلنا، ليس مرتين، بل عشرات المرات، فقد كنا جميعاً برأيه ضالين سياسياً، وهو يقوم بواجبه لهدايتنا إلى طريق السلطة القويم".

نخرج أنا وعادل من الكافيتريا، وهو يحمل الآن حقيبة السمسونايت بدلاً من حقيبته الجلدية، ولا ينسى أن يدفع الحساب عن الفتيات في الطاولة الجانبية، بعد أن طلب رقم الفتاة ذات الشعر الكستنائي المنسدل على وجهها.

أعود وأسأله "إذاً كنتم تكرهون السجان، وتتعاطفون مع بعضكم؟".

يمسك عادل الآن كأس النبيذ طويلاً في يده، يأخذ رشفات صغيرة جداً في فمه، أصبح رومانسياً يستمتع بكل قطرة منه، النبيذ لا يدخل جوفه، بل يتسرب إلى عروقه، فيسري إلى رأسه الذي يمتلئ بأحاسيس انتشاء، تنعكس على أسارير وجهه بالغبطة وانشراح الصدر. نجلس مساءً في أحد مطاعم المدينة الراقية، وصلنا إليه بسيارة عادل، اختاره بعد أن وعدني بوجبة غربية مميزة ونبيذ فرنسي، فهو يعرف هذا المطعم جيداً بعد أن أصبح يتردد عليه بشكل دائم. تتزين الطاولة بأطباق من الوجبات الغربية، أتناول أنا الكوردون بلو، وعادل تشيكن هاوس، مع سلطات طعمها غريب، فرنسية، وإيطالية، ويونانية، وروسية.

يجلس عدد من الرجال والنساء والأطفال على طاول أمامية، يتناولون وجبتهم بصخب ومرح، عادل يستطيع رؤية الجميع بسهولة مواجهة أمامه، أما أنا فقد كان عليَّ الالتفات كلما علا الضجيج والضحك، لأدرك مدى الحبور المسيطر على المجموعة. ومع كل التفاتة ألمح سيدة صامتة، على وجهها مسحة من حزن وتململ، وكأنها منفصلة عن صخب ومرح المجموعة، إذ إنها تجلس ساهمة النظرات، ومَنْ يبدو زوجها لا يهتم بها، هو منفعل ومندمج مع المجموعة بالكامل. ومع هذه الالتفاتات تراءى لي أنها سيدة أربعينية، جميلة المحيا، بتسريحة أنيقة، وماكياج على الوجه وضعته يد خبيرة، يبدو أنها قادمة من أحد صالونات التجميل الراقية إلى المطعم مباشرة، وقد

ارتدت ثوب سهرة، أسود أنيق، يكشف عن ثلاثة أرباع صدرها، بثديين ناعمين تزين منبت الأيمن منهما شامة بنية تثير الشهوة لمرآها. اندمجتُ في الطعام والحديث مع عادل ونسيت أمرها، ولكنني لمحت فجأة صورتها منعكسة في ألق حدقتي عادل، بوجهه المنتشي بالنبيذ، نظرت بتركيز في عينيه، فتراءى لي انعكاس طيف ابتسامتها، ويبدو أن عادل لم يضيع الفرصة فرد عليها بابتسامة أوسع. وطوال الحديث على العشاء، استطعت مراقبة صورتها في حدقتي عادل، ذهبت مسحة الحزن عن وجهها، وأخذت تشارك ببعض مرح المجموعة، ولكن دون ضجيج، وبمشاركة أنيقة، ولكن نظراتها وابتساماتها لم تكن مع زوجها، بل كانت هنا مع عادل، متسللة إلى قلبه.

يجيبني عادل "نعم كان الجميع يكره السجان، ولكننا مقابل ذلك كنا قد نقلنا عقدنا التنظيمية معنا إلى السجن، بل حتى إن نزعاتنا الفردية طغت على جماعية التنظيم الواحد. اكتشفت مع الزمن علاقات معقدة تسود بيننا في السجن، فكنت أجد بين الشيوعيين الملحدين والقوميين المنحرفين عن السلطة والإيمان مفكرين مبدعين، دمثي الأخلاق والمعشر، لطيفي الحديث، يحترمون رأيي، ويناقشونني به دون تشنج، على عكس التعصب الشديد في تنظيمنا، حيث أعلنا امتلاكنا نحن فقط الحقيقة النهائية والمطلقة، المؤكدة من السماء. استعرت من عندهم كتباً، وأخذت أقرؤها، مستغرباً مما تحويه من رؤى مغايرة لما آمنت به طويلاً، رؤى ليست هي الخطأ بالضرورة. ومع الزمن عرفت أن الحقائق الفكرية هي نسبية وليست مطلقة، قابلة للنقاش والتفسير المتعدد، والتعديل حسب الظروف. وقد زاد في تحولي هذا، الاصطدام المستمر مع الإخوة في التنظيمات الإسلامية الأخرى، إذ كان لكل مجموعة منها فهمها الخاص لحفنة الرمل، تربطه بالحقائق المطلقة الخاصة بها، وتؤيده بمرجعية من السماء، تريد أن تفرضه بالقوة على الجميع إلى حد الوصول لتكفيرنا لعدم مجاراتهم، وهو ما كنا نفعله بالمقابل نحن أيضاً. والغريب أن

لايزال منهم من يريد فيما لو سنحت له الفرصة حتى في السجن نفسه أن يُقَوِّم بحد السيف ليس الملحدين فقط، وإنما الإخوة الضالين أيضاً، إخوة الإيمان المنحرفين".

في المطعم تنهض المرأة الأنيقة كما يبدو إلى المغاسل، ينسدل كامل الثوب الأسود الأنيق طويلاً، بحيث بدت ملكة المكان، يأخذ عادل قصاصة ورقية صغيرة، يسجل عليها رقم هاتفه، وينهض أيضاً إلى المغاسل بحثاً عن الملكة.

أيمن وإياد الشيوعيان لم يدخلا السجن أبداً، أيمن هرب من الحزب والبلد، ولكنه عاش عمره كله في سجن ذاته، وهذا ما كان أقسى من سجن السلطة. وإياد كان أذكى من أن يقع بسهولة بين أيدي عناصر جهاز الاستقرار بقدراته التنظيمية العالية، فقد كان يتحرك في الظل والعتمة دون أن يترك أثراً يدل عليه. وعندما أصبح إسلامياً فلكلورياً كان جهاز الاستقرار أذكى من أن يهتم به، تركوه يعيش في أحلامه السينمائية، حتى ولو كانت إسلامية، وذهب في سبات عميق. أما مع عادل فالأمر مختلف تماماً، فكل ما يفعله كان سيقوده سريعاً إلى السجن.

أتذكر أنه جاء وقت سافر فيه الكثير من شباب البلدة إلى بلاد الثلوج أو بلاد الصحراء، وشعر البقية الباقين من الشيوعيين والبعثيين والناصريين والقوميين السوريين، بتلاوينهم المختلفة، بالملل يتسرب إلى قلوبهم، فهناك من تسلق إلى السلطة وتنعم بها، وهناك من ذهب إلى السجن وغاب فيه، فتخلخلت الساحة السياسية، وحدثت فيها فراغات، وفقد الناس الثقة بما حولهم. ثم جاء دور الإسلاميين، أخذوا يملؤون فراغ الفجوات ويتوسعون منها، وصعد نجمهم، توجه جيل جديد من شباب البلدة إليهم، بعد أن فقدت التنظيمات المناضلة القديمة الكثير من بريقها وألقها.

أسأل عادل "يبدو أنك ذكي ومنفتح بما فيه الكفاية، وأنت من عائلة

قروية بسيطة في البلدة، لم يظهر على أحد من أفرادها ميول دينية متعصبة، وطوال عمرنا أنت ونحن نعيش في البلدة بانسجام ووئام، لا يتحدث أحد عن الإيمان، أو دين مغاير، أو طائفة أخرى..... كيف تورطت ودخلت إلى تنظيم ديني قائم على التمييز بين الناس حسب المعتقدات التي نبشها من الأعماق، فأقلق سكينة البلدة؟".

يتناول عادل كأس الويسكي، يهزه بيده فتتحرك قطع الثلج بداخله، يستمتع بصوت طرقاتها على زجاجه، يأخذ رشفة، يستمتع بطعمها اللاذع القوي، يعبر عن درجة انتشائه بإغماض العينين وأَخذْ نفسٍ عميقٍ، تعقبهما اهتزازة خفيفة من الرأس نحو اليمين واليسار. يقولٌ لي "مًع الويسكي تكتشف الحياة والعالم من حولك، ومعه تعرف أن الناس ينقسمون إلى فئتين، الأولى تشرب الويسكي، وهي صاحبة السلطة والنفوذ والمال والشرف، وهي التي اكتشفت سر الاستمتاع بالحياة، والثانية لا تشرب الويسكي، وهي الفقيرة المستضعفة التي تتراكضٍ عند أقدام الأولى وتستجدي رضاها، يمضي نهارها دون متعة، وأصلاً هي ليس لديها لا المال ولا الذكاء لتعرف الاستمتاع بالحياة".

أجلس مع عادل مساءً في مكتبه الكبير، الذي يدير منه أعمال مقاولات البناء وبيع وشراء العقارات، يعمل بدوامين، صباحي ومسائي، أصبح لديه سكرتيرة جميلة جامعية من كلية الإدارة، تتقن العمل على الحاسوب والإنترنيت والمراسلات بالإنكليزية، ومهندسون تنفيذيون باختصاصات متنوعة، ومستخدم أنيق المظهر، وسائق يجلس دائماً في السيارة ينتظر الأوامر. تتالى الاتصالات، فأسأل عادل "إذا لم يكن لديك وقت الآن، نلتقي في يوم آخر".

" لا ، سأنهي حكايتي أولاً، ثم سأتركك حراً، ولن أزعجك بعد ذلك".

يطلب من السكرتيرة عدم تحويل الاتصالات إليه مهما كانت،

يصب كأساً جديداً من الويسكي، ويجيبني على تساؤلي "كانت الحكاية كلها عبثية، قضيت عدة سنوات من عمري في السجن، ضاعت مني دون معنى، تورطت، ولا أعرف كيف سارت بي الأمور في هذا المنحى. فعندما جاء دور الإسلاميين، كانت الأجواء دينية شعبوية في مواجهة السلطة لدى بعض أطراف المجتمع، وكانت قرعتي أو نصيبي مع تنظيم إسلامي نخبوي، يريد الوصول إلى الخلافة الإسلامية عن طريق حزب سري. يبدو أن المصادفة هي التي جعلتني لا أقع في أيدي تنظيمات إسلامية أخرى، مثل تلك التي تقول إن الإسلام مصحف وسيف، أو تلك التي تتبنى أفكار التكفير والتغيير بالعنف وحد السيف".

" وتنظيمك ألم يؤمن بالتغيير عن طريق العنف، مادمتم ترغبون بإعادة الخلافة الإسلامية بالقوة؟".

" المسألة بسيطة ومعقدة في الوقت نفسه، كانت عقائد حزبنا ملتصقة تماماً بحفنة الرمل، بالأصول الصحراوية، وعلينا تقليدها حرفياً مهتدين بالنص المقدس. فقد بدأت الدعوة إلى الإيمان قديماً بشكل سري، وفي مرحلة متقدمة تم طلب النصرة من القبائل حتى تحقق النصر. وبناء على الفهم الخاص للقيادة لتلك المرحلة التاريخية، شرعنا كنخبة بنشر الدعوة إلى الخلافة، مستغلين المنازل والمساجد وأي تجمع يمكن التفاعل به مع الناس، بانتظار الفرصة المناسبة لطلب النصرة من إحدى القوى الفاعلة في الأمة، وهو ما يعني القوى المسلحة والقادرة على السيطرة بالقوة على السلطة..... وهكذا فقد كانت الدعوة لاعنفية في بدايتها مع النخبة، إلا أنها ستنقلب إلى عنفية في اللحظة المناسبة للاستيلاء على السلطة وبناء الخلافة".

" وكيف جعلوك تنضم إلى التنظيم؟".

" ذات يوم فاجأني الحاج خالد بدعوتي إلى منزله، قائلاً إنه يريد

رؤيتي لأمر هام يتعلق بمستقبلي! والحاج خالد رجل محترم في بلدتنا، سافر كثيراً إلى البلدان المجاورة، وأحضر من أسفاره كتباً دينية كثيرة، ويُقال إنه يعمل في السياسة. كنت أنا وقتها في عمر المراهقة، العمر الذي يتمرد فيه الشاب على كل ما حوله، لا أحب ما يفعله بالذات أبي المسكين، الموظف البسيط الذي يهرب يومياً من هموم الحياة إلى المقهى، أنقده لمجرد النقد، وأعمل عكس ما يرغب به دائماً، وأمضي معظم وقتي بعد المدرسة في الخارج، أستنفد طاقتي في الرياضة، وخاصة في الركض. لم يكن بقربي صديق كبير أو أب روحي يأخذ بيدي في هذا العمر القلق..... وفجأة برز الحاج خالد في حياتي، أستغربت دعوة رجل كبير محترم لصبي شاب مثلي إلى منزله، واهتمامه بأمر يتعلق بمستقبلي. استقبلني في منزله، مردداً ومكرراً الترحيب بالأخ عادل، وهو شيء جديد عليَّ، ليس الترحيب والاحترام فقط، وإنما أيضاً مناداتي بالأخ. ولذلك فمنذ أن وطأت قدمي منزله ورأسي يكبر بالخيلاء، ومع كل كلمة يقولها بحقي كان إحساس انفعالي بالعظمة ينمو في داخلي، وخاصة أن من يتحدث معي هو الحاج خالد المحترم، محدثاً نفسي أن هناك من عرف قيمتي أخيراً، بعكس والدي النزق الذي لا يتعامل معي إلا بالتأنيب والصراخ".

أسأل من جديد "وماذا قال لك حتى تنامى في داخلك هذا الشعور؟".

" قال لي، الأخ عادل نحن نتابع حياتك منذ زمن طويل، عرفنا أنك شاب بقلب عامر بالإيمان، وأخلاقك حسنة، وعقلك ذكي، وجسدك قوي، ونعرف أنك تمارس الرياضة باستمرار. نحن نحتاج شاب مثلك، بإيمانك وأخلاقك وذكائك وقوتك، لنقف معاً بوجه الفسق والفجور والفساد في بلدتنا، وبوجه الحكام الظالمين الكافرين. سنعيد معاً بناء خلافتنا الرشيدة لنعيد لأمتنا أمجادها القديمة، وبمثلك من الشباب المؤمنين سنتحرك بين الناس وندعو لها، ثم سنطلب

النصرة للاستيلاء على السلطة في البلد، ونختار خليفتنا، وعندها سنتمدد إلى كل بلاد العالم الإسلامي، حيث لا حدود بينها، كما حدث في فتوحات تاريخنا المجيد..... امتلأ رأسي بالحماسة، مادمت أنا مهماً لبناء الخلافة من الهند إلى الأندلس فسأنضم مباشرة إلى التنظيم، وتخيلت نفسي مباشرة أمتطي حصاني رافعاً سيفي على رأس سرية من المجاهدين الذين لا هدف لهم سوى إعلاء كلمة من في السماء على الأرض. وهكذا دخلت لعند الحاج خالد وأنا "عادل الضائع "الذي لا يعرف ماذا يريد، وخرجت من عنده "الأخ عادل "مع اسم حركي "أبو محمد"، الذي يعرف أنه يريد إعادة الخلافة، وأقسمت على الالتزام بمبادئ التنظيم السرية".

" وماذا حدث بعد ذلك ؟".

" علمونا مباشرة أن الإسلاميين الآخرين عاجزون عن إدراك روح الفكرة الإسلامية وهدف الخلافة، وهم منحرفون عن الطريق القويم، بل إن بعضهم تأثر بالأفكار الغربية الفاسدة. أما نحن سيحمينا من في السماء مادامت عزيمتنا شديدة وإيماننا قوي، وسيجزينا في الآخرة بالنعيم وحورياته، وفي الدنيا بسبايا الحرب من النساء الجميلات..... هكذا كان يقول لي مسؤول التنظيم في بلدتنا. لا أدري لماذا يقول ذلك! لكي يشجعني على الثبات في التنظيم، أم لأنه كان يريد زوجة ثانية ولا أحد يقبل به، فقد انتهت عادات الزواج بأكثر من امرأة في بلدتنا منذ زمن غابر. وبغض النظر عن هذا، فعندما أفكر بأقواله الآن أشعر بأنه كان يخاطب مجموعة من البدو المنطلقين من الصحراء للغزو في فترة حفنة الرمال".

" ولكنكم كنت تفكرون بالتغيير بقوة السلاح، أليس كذلك؟".

يؤكد عادل "نعم، ولكنهم قالوا لي إننا سنرفع السلاح كدولة، وليس كعصابات مثل الإسلاميين الآخرين".

" ألم تفكر وقتها بكل ما قالوه لك ؟".

" في البداية أعجبتني طريقة التفكير، الخالق في السماء والنص المقدس على الأرض، وما بينهما رجل الأصول، ونحن لسنا بحاجة لأولياء صالحين كوسطاء، لدينا النص وفقط. أتذكر تلك الفترة تماماً كيف تمت قولبتي بالكامل، فالأسئلة كانت شبه ممنوعة، وتنفيذ التعليمات حتمي لا يقبل النقاش، وكانت هنا نقطة غباء التنظيم التي تم تطبيقها حتى في السجن. أرادوا مني أن أكون ضيق الفكر متعصباً، ولكن هذا بالضبط ما خلق لدي الرغبة بالانفلات منه بعد مرور فترة قصيرة، وكأنها ردة فعل معاكسة، فأنا اعتدت الحرية والانطلاق والتمرد منذ صغري، كما أنني أصبحت أشعر بالانفصام بين تعاليم العودة إلى الأصول وبين الحياة الطبيعية حولي، ومن وقتها أنا لا أعرف!".

" وهل تقبلكم الناس حولكم في البلدة؟".

يجيب عادل هنا بحسرة وامتعاض "كانت قيادتنا غبية جداً، فقد ظنت أنها ستحيي الخلافة بين ليلة وضحاها، وأن الناس ستركض وراءنا هاتفة بشعارات الإيمان. ولكن انفصال القيادة عن الواقع والعيش بأوهام الماضي، أنساهم عدم تقبل أهل البلدة لنا، فكانوا ينظرون إلينا وكأننا نعيش في حفنة الرمال، ولا علاقة لنا بحاضرهم. بل وألزمتنا القيادة بغبائها بعدم الانتماء إلى أية نقابة أو جمعية، حتى ولو كانت دينية، قالوا لنا إن هذا يصب في مصلحة السلطة..... كنا نعيش بنوع من الاستعلاء الإيماني عن الناس الذين حولنا، فنحن فقط الذين كنا نمتلك الحقيقة النهائية والمطلقة بأصول ثابتة لا تقبل المرونة أو النقاش، ولذلك كنا لوحدنا بضع عشرات، والناس بالآلاف هناك على الطرف الآخر".

" وكيف وقعتم كلكم في السجن وبليلة واحدة؟".

" ألم أقل كنا أغبياء، فأجهزة الاستقرار كانت تعرف كل خطواتنا بالتفصيل، تركتنا قليلاً حتى تكدست لديها المعلومات عن كل

العناصر في بلدتنا، وأماكن اجتماعاتنا وأوقاتها. وخلال ساعتين من ليلة ظلماء، داهموا أماكن سكننا، والتقطونا مثل العصافير التي وقعت في الفخاخ، واعتقلونا واحداً واحداً. وما أن أتى الصباح، حتى كانوا خرجوا بنا من البلدة إلى الأقبية، والناس غير مصدقين بوجودنا الذي كان، وباعتقالنا السريع الذي صار".

أسأله وماذا حدث لكم في السجن؟".

يدعوني عادل إلى شرب كوكتيل خاص يصنعه بنفسه، يأتي بوعاء كبير، يسكب فيه شاياً ثقيلاً أسودَ من البلدة، ويضيف فوقه مغلي الزنجبيل والقرفة واليانسون من الهند، يتبعه ببيرة دون كحول من بلاد الصحراء، ثم بيرة بكحول من ألمانيا، ويصب فوقهما نبيذاً فرنسياً، وأخيراً يلقي فوقها كلها بمحتوى زجاجة ويسكي أمريكية، ولم ينسَ بالطبع قطع الثلج من روسيا. يضع المزيج كله في خلاط كهربائي ياباني، ليحصل على سائل حليبي عولمي، مزيج غريب تتصاعد منه أبخرة لاذعة تقود إلى عوالم ماورائية جديدة لم تعرفها الديانات القديمة. يصب كأساً ويشرب منه، ومع كل رشفة ينقلب رأسه إلى الوراء، ويذهب في عالم النشوة، يغيب عن الوعي لدقيقة، ثم يصحو بصفاء عجيب في نظرته، ويفرد يديه قليلاً فيُخيل إلي أنه ارتفع في الهواء قليلاً.

نجلس الآن على شرفة واسعة لبناء يقع في مزرعة مسورة بجدران عالية مكهربة، تنتصب على امتدادها أشجار سرو عالية، تخفي ما يحدث في الداخل عن عيون المتطفلين والمتلصصين على نعَم الآخرين. ويمتد أمامنا حوض سباحة أنيق جداً بزرقة مياهه الصافية، تزينه رسومات حيوانات بحرية ببلاطات البورسلان الملونة فيه، التي يُخيل إليَّ أنها تتحرك مع التموجات المائية الصغيرة فيه، وتنتشر حوله مساحات عشبية خضراء تزينها شجيرات الورود، وترتمي هنا وهناك كراسٍ ومساند وطاولات، تبرز ألوانها الحمراء

اللامعة بتضادها مع خضرة المساحات الخضراء الرطبة. رجال ونساء يسبحون، أو يجلسون على الطاولات، أو يتراكضون ويعبثون بمرح وصخب، رجال شبه عراة إلا من سراويل سباحة صغيرة، تختنق فيها أعضاؤهم الذكرية، وتكاد أن تمزقها منتصبة إلى الأعلى بحثاً عن إطلالة على مفارق رطبة بين فخذين أنثويين، ونساء تركن بلمسات جمالية شيئاً مغلقاً من أجسادهن وراء بقايا مايوه بكيني زيادة في الإغراء، بحيث يمكن مشاهدة نهود، متدلية، ومنتصبة، ومكورة، وناهضة، لا تختفي منها إلا الحلمات، وعانات محلوقة بعناية، في حين تكور تحتها ما بقي من أعضائهن الجنسية وراء قطعة قماشية صغيرة، كأجاصات ناضجة يكاد عصيرها ينفجر ويسيل.

يقول لي عادل "جئنا إلى الطبيعة عراة، في الأصل لم يكن هناك ملابس، ولا تعقيدات التحريم والمنع، كان الجسد يتنفس بكامل عريه في خضرة الطبيعة ويستحم بزرقة السماء، ونحن الآن نعود إلى الأصول، كما كنا، دون تعقيدات الحياة المعاصرة الفاسدة التي تخفي حقيقة ارتباطنا بالمنبع..... لكن الناس في الغرب أصبحوا إباحيين، فهموا العودة إلى الطبيعة بشكل خاطئ، خلعوا كل شيء، وأفسحوا إلى جانب البحر شاطئاً خاصاً للعراة، عراة بالكامل، أما نحن فلازال لدينا شيء من أخلاق الطبيعة وشاعرية العري، لم نكشف كل شيء، فلا زال لدينا بعض الحياء والاحتشام، يشعل القلوب بالأمنيات والشهوات".

تنتشر كؤوس مشروب الكوكتيل بين أيدي الجالسين على الطاولات، أتأكد أنه نفس المشروب الذي يتناوله عادل من طريقة شربهم، فكل من يأخذ رشفة ينقلب رأسه إلى الوراء، ويغيب عن الوعي لدقيقة، ليصحو بصفاء عجيب، حيث يُخيل إليَّ أنه يرتفع في الهواء قليلاً.

أفاجأ بمعرفة ثلاثة وجوه بين النسوة، فتاة الكافيتريا ذات الشعر

المنسدل على الوجه، جسد يضج بالحيوية كيفما تحرك في مايوه بكيني أحمر، تقلص إلى أصغر حجم ممكن، بحيث لم يعد من مبرر للبسه. أما الوجه الثاني فهي امرأة المطعم الفاخر، لازالت أنيقة، حتى بلباس المايوه الأسود المتصل الذي يخفي كامل بطنها، الإخفاء يفعل فعله هنا، يستدعي شاعرية كشف الباطن السري، ولكنني لازلت ألمح من بعيد الشامة البنية التي تزين منبت ثديها الأيمن، والتي يثير مرآها الشهوة. من وقت لآخر ترفع كلٌّ من الفتاة والمرأة يديهما ملوحتين لعادل، يبتسم ولا يرد عليهما. أما الفتاة الثالثة فهي السكرتيرة الحسناء التي تجلس وتعمل على الحاسوب في زاوية منعزلة قرب المسبح، وهي الوحيدة العارية كاملة، تحررت من كل شيء، لا خوف من كشف أجزائها الحميمية مادام ممنوع عليها النهوض في أثناء دوامها الرسمي.

يتناول عادل جرعة من مشروبه المزيج، وعندما يصحو يقول لي "وهكذا في ليلة ظلماء، اعتقلونا كلنا، ولم ينج منا أحدُ، سوى اثنين استطاعا التسلل والهرب عبر الحدود، بعد حدوث خطأ في مداهمة منزليهما. الأول بسبب اختلاط الطوابق على المداهمين، بين الطابق الثاني والطابق ثاني فني، فاعتقلوا بدلاً منه رجلاً مسيحياً يبيع المشروبات الكحولية، والثاني بسبب خطأ في تقرير المخبر، واعتقلوا بدلاً منه رجلاً يعمل في كَشْ الحمام، حيمماتي بسيط لا علاقة له بالسياسة ولا بكل ما يحدث على الأرض، فعقله دائماً في السماء وراء أسراب حمامه. وطالني الاعتقال أنا أيضاً، بالرغم من مغادرتي التنظيم وقتها منذ أكثر من عام ونصف، وخاصة بعد أن أصبح الإخوة يتحاشونني بسبب الاضطراب والبلبلة التي كانت تثيرها نقاشاتي.

وأدخلونا إلى قبو معتم وقذر، تفوح منه رائحة الرطوبة والدم والجنون، وتتعالى منه صرخات يائسة وعويل منتحب، أجساد يقطر منها العرق والماء والدماء، ملأت الجو عفونة، اختلطت بروائح بقايا

البول والإقياء. ولم تطل حفلة التعذيب، إذ سرعان ما انهارت النخبة المخملية من الطلاب، والمدرسين، والأطباء، والمهندسين، والمحامين، عناصر ناعمة لا تعرف العراك والاشتباك، والتسلل تحت جنح الظلام لتوزيع المنشورات، والفرار من عناصر الأجهزة، عناصر لم تتعلم الرماية والسباحة وركوب السيارات. كانوا مرشدين دعويين صالحين للخطب الدينية في تجمعات صغيرة في المنازل، وحتى خبرتهم الدعوية لم تكن تتجاوز أفكار إحياء الخلافة على طريق الأصول.

لم تتفهم قيادة التنظيم أنها أمام سلطة ذكية وشرسة في الوقت ذاته، تؤيدها قطاعات واسعة من المجتمع، وخبيرة في التعامل مع التنظيمات السرية الصغيرة بأشكالها وتلاوينها كافةً، التي تظن أنه بوصول عدد أعضائها إلى بضع عشرات حتى يصبح الحكم في متناول يدها. إنهار الإخوة بسرعة، واعترفوا بكل شيء مع أول لطمة، ولكن بالرغم من ذلك فقد كان علينا جميعاً أن نمر باحتفال الجسد، ليتراقص تحت قبلات السجان، كجواز مرور إلى زمن الخلاص السلطوي. كان يُسمع الصراخ والعويل والبكاء، نستنجد بمن في السماء وبمن في الأرض، ولكن لا مجيب ولا منقذ لنا، فالاحتفال مستمر. قياديونا قالوا لنا إنه في إحدى المعارك الغبارية زمن الأصول جاءت الكائنات النورانية وشاركت في القتال، فلماذا لا تأتي الآن ونحن نستنجد بها، مادمنا على حق! اعترفنا بما فعلناه وبما لم نفعله، والاحتفال مستمر، أغمي علينا، ونزفت الجراح، وتنازعنا على كسرة خبز عفنة، طارت الآمال من الأفئدة، وبدلاً من نعيم الحوريات أخذنا نحلم بنعيم فيه خبز وزيتون وشربة ماء".

" ولكن ماذا حدث للمسيحي معكم؟".

" لسوء الحظ كان مختوناً على عادة بعض المسيحيين في بلدتنا، بسبب ارتباط هذه العملية في الذهن بزيادة المتعة الجنسية وتأخير

القذف، وهو ما ظهر منذ زمن قديم بالعيش المشترك في بلدتنا بين المسلمين والمسيحيين. قال للمحققين، إنه مسيحي، لم يصدقه أحداً، فلا دلالة جسدية لديه على ما يقوله، بل ظنوا أن هذا الإدعاء ما هو إلا تمويه على موقع قيادي عالٍ في التنظيم. وبالرغم من توسلاته فقد ناله الكثير من التعذيب لإنكاره المتتالي، ثم اعترف بما يرغبون وأعلن انتمائه للتنظيم، وعندما سألوه عن مسؤوله المباشر، أجابهم أنه الخوري بولس، ففتح بذلك خيطاً جديداً للتحقيق. ثم طلبوا منه التعاون وإخبارهم بما يحدث بين الإخوة في السجن، وافق بكل سرور، ولكن بشرط إعطائه "بطحة عرق "مقابل كل تقرير يقدمه. وعندما حاول أميرنا في السجن أن يهديه إلى الإسلام بعد انتهاء حفلة التعذيب، وافق بكل سرور، ولكن على أن يصبح بوذياً، وقرر أن يهرب عند خروجه من السجن من العالمين الإسلامي والمسيحي إلى مجاهل الإنسان البدائي في أفريقيا، ولا أعرف لماذا اختار زيمبابوي!".

" والحميماتي، ماذا حدث له؟".

" كان مخبولاً بالأصل، أعترف منذ اللطمة الأولى أنه هو وسرب الحمام انضموا إلى التنظيم، على أمل إنشاء خلافة لكل الحمام في البلدة، مادام يجمعها الإيمان بغض النظر عن ألوانها وأصولها الحمامية، البغدادي، والريحاني، والمكاوي، والبربريسي، والشخشرلي، والمسود، والأبلق، والهزاز. وأعترف بأنه كان يريد إعلان نفسه خليفة عليها، يجلس على عرش على أعلى سطح في البلدة، ويكش أسراب الحمام المؤمنة بعصاه الطويلة، التي سيربط على رأسها قطعة قماش خضراء، للتلويح بها وإثارتها على الطيران، وستجتاح أسراب الحمامات الكافرة، وترجع بسبايا منهم. وسيكشها خمس مرات في النهار، من الصباح إلى المساء، حتى تعلوا راية حمامه المؤمن. وعندما طلب منه أميرنا الوقوف بالصف للصلاة،

رفض أن يقيمها مع الأخوة، وإنما فقط مع الحمام، وعندما سألوه عن سبب ابتسامه الدائم بالرغم من كل التعذيب الذي ناله، كان يصمت وينظر إلى السماء من كوة في أعلى الجدار، فحماماته المؤمنات لم يتم اعتقالهن، واختفين بمعجزة سماوية بين الغيوم، ريثما يخرج ويعيد أمجادها القديمة".

في اللقاء التالي..... لم يكن هناك لقاء تالٍ مع عادل! اتصلت به لتحديد موعد، فقد كان لديَّ رغبة شديدة لمعرفة ما حدث معه في السجن، وكيف خرج منه، ردت السكرتيرة، فطلبت الانتظار قليلاً، ثم أجابتني بعد دقائق أن السيد عادل غير موجود الآن، وأغلقت السماعة. اتصلت في اليوم التالي، أجابتني السكرتيرة هذه المرة ومباشرة أن السيد عادل مشغول، وسيتصل بي عندما يكون لديه وقت! وقبل أن تغلق التلفون سألتني "أستاذ هل ترغب بشراء شقة جيدة من شققنا، بسعر مناسب لذوي الدخل المحدود، وعلى أقساط شهرية صغيرة لمدى طويل؟".

خرج عادل الإسلامي من السجن، وقبله خرج إبراهيم البعثي القديم من الرعيل الأول، وعبد المعين الناصري، وإلياس الشيوعي..... خرج الأبطال بعد أن عاشوا آلام السجن، بين الخمسة والعشرة أعوام، صمدوا وتحملوا القهر والظلم والعذاب من أجل الآخرين، من أجل أن يغيروا لهم حياتهم نحو الأفضل. خرجوا، ولكنهم لم يجدوا أمام منازلهم سوى سيارات عناصر جهاز الاستقرار، ترابط لمدة أربعاً وعشرين ساعة في النهار ولما يقارب الشهر. توقعوا أن تنتظرهم جموع هاتفة بحياتهم، ونضالهم، وصمودهم، يحملونهم على الأكتاف، ويدورون بهم الحارات مع الطبل والزمر والأهازيج الوطنية، ولكنهم لم يجدوا من يسندهم على عتبة المنزل إلا زوجات يبست عواطفهن وأجسادهن من البُعد والعوز والشقاء في غياب أزواجهن الطويل في السجن.

حضر الأقارب في المساء متسللين بصمت ليهنئوهم على الخروج بسلامة، يقولون لهم "من الجيد أنكم خرجتم سالمين، وليس لديكم سوى قدم معطوبة، وارتفاع ضغط الدم، ومرض السكري، والشقيقة، وثلاث بحصات في الكلية، وعسر بالتبول، وارتعاش في اليد. حظكم ممتاز أنكم خرجتم برأسكم سالمين، وهذا أفضل ممن خرج سالماً بالكامل ولكن دون رأس".

وذهبوا من عندهم متسللين، فعناصر السيارة أمام البيت تحصي الداخلين والخارجين، وكم أمضوا من الوقت، وإذا ما كانوا مبتسمين أو ممتعضين، وهل تركوا بعضاً من ملابسهم معونة للخارجين عن القانون.

جلس الأبطال في غرفة الصالون، متربعين على الأرائك بوقار، انتظروا المهنئين من أهل البلدة طويلاً بعد حضور الأقارب، حضَّروا الكلمات الحماسية التي سيلقونها، الكلمات المليئة بالإيمان والتغيير والدعوة لمقاومة القهر والفساد، وسينتظرون التصفيق بين جملة وأخرى، ثم سيحدثونهم عن الصمود الأسطوري في السجن..... لم يحضر أحد! حتى الأقارب لم يكرروا الزيارة، ينتظرون العيد من أجل الزيارة القادمة.

سأل الأبطال زوجاتهن "أين الجماهير والرفاق والإخوة، لماذا لا يحضرن لرؤية البطل؟!".

تتذمر الزوجات "اتركنا ننهي الطبخة ونشر الغسيل وتنظيف الغبار، ملأت البيت ضجيجاً وفوضى منذ قدومك، متى سيرجع هدوء أيام غيابكم..... قم واتصل بهم، وبانتظارهم خذ كرسياً صغيراً واجلس أمام البيت في الحارة، وتأمل المارين والكلاب والقطط!".

ينتظر الأبطال أياماً وأياماً، لا يحضر أحد، يقررون التنازل قليلاً عن استعلائهم النضالي والاتصال بالأصدقاء، يرفعون السماعة، يأتيهم الجواب:

" نعتذر عن زيارتكم اليوم، نحن نشاهد مباريات الربع النهائي لكرة القدم، بين أبطال الأندية الأوروبية، افتحوا على الفضائية الغبارية وشاهدوا نقلها مباشرة. زوجتي تفضل الفرنسي بلاتيني صانع الألعاب، مصيبة تفضل كل شيء فرنسي حتى في الفراش، منذ زمن كنت أفضل لاعب خط الهجوم بيليه البرازيلي، راقص السامبا في الملعب، الآن انتهى مجده، وبرز مكانه الأرجنتيني مارادونا ساحر التانغو، ولكن يتهمونه بتعاطي المخدرات..... لا تعرفهم، لماذا؟ ألم تحضروا مباريات كرة القدم في السجن ما بين حفلات التعذيب!".

" آسفون، العائلة مجتمعة كلها أمام التلفزيون لمشاهدة المسلسل المدبلج، الأبطال يشهقون ويبكون بالعربية.البطلة الناعسة دوَخَت حبيبها الأشقر، لم تمنحه قبلة صغيرة إلا في الحلقة الخامسة والستين، وأعتقد أنها ستسمح له بمداعبتها من تحت الثوب في الحلقة الثلاثين بعد المائة، ولذلك نحن ننتظر كل الحلقات ونتابعها..... زوجتي! لا تستطيع الحديث معكم الآن فهي تبكي الآن متعاطفة مع البطلة الفقيرة..... متى سنزوركم! لا أعرف بالضبط، فنحن نتابع ثلاث مسلسلات يومياً مع الإعادة مرتين، لا أعرف كيف سأحضر إليكم ونحن ليس لدينا وقت لنطبخ، أصبحنا نأكل البيتزا بالصحن الكرتوني ونشرب الكوكا كولا من الزجاجة مباشرة، مثل الأبطال على الواقف قرب النافذة. طبعاً سيكون لدينا بعض الوقت لمحادثتكم، ولكن بعد منتصف الليل بعد انتهاء الإعادة، وأنتم تعرفون أن هذا الوقت غير مناسب..... أتمنى أن تتابعوا بعض هذه المسلسلات، ستنسون معها آلام السجن".

" لا، طبعاً نستطيع محادثتكم، نحن لا نشاهد المسلسلات المدبلجة، هذه حكايات سخيفة للنساء اللواتي فقدن العطف والحب في حياتهن، ويبحثن عن تعويض في أحلام اليقظة التلفزيونية. بالعكس نحن لا نشاهد إلا الأفلام الأمريكية، خمسُ محطات فضائية تلفزيونية تبث أفلاماً أمريكية على مدى أربع وعشرين ساعة دون

توقف، عدا عشرات المحطات العربية التي تملأ فجوات برامجها بهذه الأفلام..... لا، هذه الأفلام ذات مستوى فكري وإنساني ممتاز، تجمع الناس من كل دول العالم حول هموم مشتركة. انتهى زمن الدعاية الشيوعية عن الأفلام الإمبريالية، والدعاية الإسلامية عن الأفلام الفاسقة، الآن نشاهد أفلاماً رائعة، عن مصاصي الدماء، والمهووسين باغتصاب الفتيات، وعبدة الشيطان، اختطاف الأشباح للأطفال، آكلي لحوم البشر، والأبطال هنا نماذج رائعة تشد الانتباه، سكيرون، شاذون، مهووسون، مصابون بانفصام الشخصية..... هؤلاء هم الأشخاص الحقيقيون الذين تشاهدهم في الواقع، وليس مثل أبطالكم الثوريين، الذين يدعون للعدالة والمساواة وما إلى ذلك من هذه التخريفات، والموجودون فقط في الخيال، أضعتم حياتكم في السجن من أجل هذه الأفكار الغريبة، علكم تعودون إلى رشدكم الآن".

" ليتك اتصلت قبل الآن، بدأ برنامج المسابقات في التلفزيون، المتسابقون يربحون بسرعة النقود الكثيرة بأسئلة سخيفة، بعد أن يضعوا أمامهم احتمالات الأجوبة مع وسائل مساعدة. نستمتع بالمشاهدة وكأننا نحن الذين نربح، تملؤنا نشوة امتلاك النقود، ننام وكأنها أصبحت في جيوبنا. أنت خرجت من السجن فقيراً معدماً وليس لديك مال، ننصحكم بمشاهدة هذه البرامج، سيكون لديك مبالغ طائلة لتعوض فيها عن قهر السجن، ولا فرق إن كان ذلك وهماً أم حقيقة، فلم يعد هناك من فرق بينهما في حياتنا اليومية".

" لا وقت لديَّ للحديث معك طويلاً، بدأ البرنامج الفكاهي الذي يجعلنا نضحك من القلب، أصبحوا جريئين جداً في هذه المحطات التلفزيونية، يلقون فكاهات إباحية بلغة الشارع كنا نقولها في صغرنا، ونحن نخجل من الحديث بها الآن. وصلت الجرأة إلى أن النساء يلقون أكثرها، لا يخجلن من فضح الحميمية النسائية لديهن، وهذا ما يجعل للنكتة مذاقاً خاصاً، وكأن المرأة تخلع ثيابها أمامك،

والجميع يضحك. هل سمعت آخر طرفة: أبو العبد شيخ الشباب تبارى مع الشباب من يستطيع أن يمارس الجنس بأكبر عدد من المرات مع امرأة شبقة، جميعهم سقطوا بعد المرة الثالثة أو الرابعة، أبو العبد شيخ الشباب اختلف مع الشوشو إلى أين وصلوا بالعد، هل هي المرة السابعة أم الثامنة، أبو العبد البطل قال لها بسيطة نعيد من جديد. مضحكة أليس كذلك؟ حتى ابنتي الصغيرة ضحكت من قلبها، ولكنها سألتني عن ماذا يعدون، جدتها طردتها من البيت بعد أن سمعت هذه الطرفة منها..... فكاهات دينية أو سياسية! لا هذه ممنوعة تشكل خطراً على الأمن الوطني، النكات البذيئة ليست خطرة، تجعل الناس يتخففون من التوتر ويبتعدون عن السياسة، فلا يذهبوا إلى السجن مثلكم".

" أنا الخادمة السريلانكية، العائلة غير موجودة في البيت، أخذوا التلفزيون وذهبوا إلى المزرعة".

"لا زوجي ليس في البيت، ولا أعرف متى سيحضر، يعمل الآن بدوامين، العمل الأول لدى الدولة ينام فيه، والثاني في معمل للقطاع الخاص يمتصون دمه من أجل القليل من النقود، وهو يبحث الآن عن عمل ثالث ما بين الساعة الثانية عشرة ليلاً والسادسة صباحاً، حرس ليلي في إحدى البنايات. نعم الحياة صعبة والمعيشة قاسية، نريد توفير بعض النقود من أجل شراء تلفزيون ملون مع لاقط فضائي، سمعت أنهم يعرضون برامج رائعة في المحطات الفضائية، مباريات كرة قدم، ومسلسلات مدبلجة، وأفلام أمريكية، وبرامج مسابقات، وبرامج نكات بذيئة، كما سمعت أنه يعرضون أفلاماً تعليمية خاصة صالحة للتطبيق فقط في المزارع".

محمد وجورج، أصدقاء الطفولة، أذكياء وعمليون جداً منذ صغرهم، استشرفا المستقبل بحدة البصيرة التجارية لديهم، فلم ينضما إلى أي حزب ولم يشتغلا بالسياسة.

محمد افتتح المطعم الشهير والوحيد في البلدة لتقـديم الوجبـات السريعة على الطريقة الأمريكية.

جورج أنشأ معمل طباعـة علـى القمـصان، لا يطبـع إلا كلمـات أمريكية عليها بغض النظر عن معناها.

فالعصر الآن هو العصر الأمريكي بامتياز.

* * *

بهلول

"اليوم سنذهب إلى مقهى منسي في إحدى الحارات القديمة، لنكون بعيدين عن العيون، الروائي نبيل طلب موافاتنا إلى هناك، ويريد أن يطلعك على أمر هام، وبالمناسبة سنشرب نبيذاً معتقاً هناك". فاجأني صديقي بهذا الموعد ونحن نتمشى في نزهتنا المسائية تحت المطر.

"ولماذا أنا؟".

"لا أعرف، طلبك أنت بالذات؟".

أعرف أن الروائي نبيل أصبح مشهوراً برواياته عن فضائح رجالات دورات الإعداد الوطني وفسادهم، وقد أسَّر لي صديقي ذات مرة "هناك أحد ما غامض مجهول في قمة السلطة يُسرب لنبيل سراً معلومات دقيقة وخطيرة عن أشخاص مهمين وذوي نفوذ في البلد، أصبح يتم النظر إليهم على أنهم خرجوا عن الخطوط الحمراء المرسومة لهم، وتجاوزوها".

سألت صديقي وقتها "ماذا تعني الخطوط الحمراء؟".

يجيب هامساً "الخطوط الحمراء تعني محاولات هؤلاء الأشخاص التطاول والقفز إلى الأعلى، ومن ثم ضمان نفوذهم في المستقبل فيما لو تغيرت الأحوال، من خلال فتح قنوات اتصال سرية مع جهات داخلية أو خارجية معارضة للسلطة".

أسأله من جديد "إذا كان هؤلاء الأشخاص أقوياء وذوي نفوذ فكيف يتم التسريب عنهم؟".

"إنها لعبة، ألا تفهم ذلك، هناك من يتقن إدارتها والتحكم بها من وراء الستار، يبدأ التسريب بحكايات الصفقات والعمولات المالية المشبوهة، توزيع لحوم غير صالحة للاستهلاك البشري في الأسواق،

وشراء سيارات من النوعية السيئة لمؤسسات الدولة مقابل عمولات شخصية سرية، عقارات ومصانع وهمية تُباع وتُشترى، مواد كيماوية تُلقى سراً في الصحراء، غسيل أموال، وصولاً إلى إشهار أخبار مصورة عن حفلات المجون الجماعي وعلاقات الشذوذ الجنسي".

أتساءل "إلى هذه الدرجة؟! ولكن هم جزء من السلطة نفسها؟".

يجيب ساخراً "لا، من السهل إشاعة أنهم استغلوا مواقعهم في السلطة بنية سيئة مخفية".

" ولكن الأحداث في روايات نبيل يُشار فيها إلى أن مجرياتها تدور في بلاد بعيدة أو على كواكب أخرى".

يؤكد صديقي "ألم أقل لك إنها لعبة، تُمنع هذه الروايات رسمياً، إلا أنه يتم ضمان توزيعها على مستوى واسع من تحت الطاولة، يتخاطفها الرأي العام الغاضب والناقم أصلاً على الفساد".

أبدأ بفهم اللعبة أكثر فأكثر فأتابع "وتتشوه عندئذٍ سمعة هذه الشخصيات، ويُسَّهل هذا استئصالهم برضى شعبي".

كان المطر خفيفاً وناعماً في هذا المساء، لا ينبئ عن شيء غريب أو خطير، ولذلك سرت أنا وصديقي مشياً على الأقدام في شارع مرصوف بأحجار قديمة حتى المقهى، نمني أنفسنا بنبيذ معتق دون أن نفكر بما يخبئه لنا الروائي نبيل.

أسأل صديقي "متى سنسافر إلى بلدتك في أعالي الجبال ونتناول مشروبك السحري من الجرن المقدس؟".

يجيب "فور الانتهاء من قضيتنا مع الروائي نبيل ومن تداعياتها، فما من قضية معه إلا ولها تداعيات، ومع أن الأمطار الآن خفيفة وناعمة إلا أن الأرصاد الجوية الأمنية تنبئ بعاصفة قريبة تأخذ الأخضر واليابس معها، يبدو أن هناك شيئاً ما في الأفق يُعَد له".

" يبدو أن أحداً يسرب هذه المعلومات لك يا صديقي، هل لديك غامض مجهول أيضاً؟".

" أنت تعرف أن الشعراء المهووسين مثلي غير جديرين بالثقة في مثل هذه الحكايات، كل ما هنالك أن نبيل المطلع على خفايا الأمور ألمح إلى عاصفة شديدة قادمة من جديد".

ما أن ندخل المقهى حتى تهاجمنا غلالة كثيفة من دخان السجائر وأنفاس رواده، يتراءى لنا الجالسون فيه كالأشباح، لا نميز أحداً منهم، وبصعوبة نجد الروائي نبيل منزوياً في الغمام إلى طاولة جانبية وقد انتصبت أمامه كأس كبيرة من البيرة، بدت من بعيد أكبر من حجم جسده النحيل، نجلس، يبادره صديقي مداعباً "هل هناك من فضيحة جديدة تُحَضَّر لها، تُورط فيها شخصيات معروفة وتنجو منها أنت كالعادة؟".

يبتسم نبيل بود، لا يجيب، من صفاته الملازمة له الحذر، لا تفلت منه كلمة خارج السياق الذي يحدده لنفسه، يشعر وكأن أحداً يراقبه بشكل دائم.

وبينما يطلب صديقي النبيذ أجد الفرصة لأسأل نبيل "لماذا لا تشرب إلا البيرة؟".

يضحك، تتغير قسمات وجهه الباردة والقاسية إلى ودودة، يحدث هذا فقط عندما يضحك "على المرء مثلي أن يبقى صاحياً كي يراقب، يندفع دخان من هنا وهناك، ولا دخان من دون نار".

أسأله بخبث "المقهى مليء الآن بالدخان، فهل من نار هنا؟".

" من يدري! ربما هنا نار تحت الرماد".

يعلق صديقي ساخراً "أو ربما هناك نار كبيرة في الخارج، يتسرب دخانها إلى المقهى، نار تبسط راحتيها ولا يعلم سرها إلا الرماد".

أعود فأسأله "ألهذا إذاً تشرب البيرة، كي تبقى صاحياً وتعرف مصدر الدخان والنار؟".

يجيب بهدوء "البيرة تعني الصحو والحذر، أما النبيذ فيعني السير على حافة الجنون، هـذا إذا لم تـسقط في الهاويـة، وكـل مـن يـرتبط بعلاقـة قويـة مـع صـديقك ويـشرب نبيـذاً معـه سيـصبح بالتأكيـد مجنوناً..... انظر مثلاً إلى هذا المجنون على الباب".

نلتفت إلى الباب فنرى الصديق القديم شاهر واقفاً وقد رفع يديـه إلى الأعلى بطريقة مسرحية يصرخ بأعلى صوته "أيها الخونـة، عمـلاء الإمبريالية والشيوعية والأصـولية والقـافزين مـن العـوالم الماورائيـة، كيف تشربون نبيذاً في مقهى عتيق من وراء ظهري، ولا تخبرونني؟".

وتجلجل ضحكته الرنانة في فضاء المقهـى غـير آبـه لأحـد مـن الجالسين.

شاهر مجنون رائع آخر مثل صديقي، لا أعـرف مـتى يكـون في السماء، ولا متى يهبط علينا.

ينهض صديقي لملاقاته قـافزاً فـوق الطـاولات والكراسـي وهـو يصرخ بالطريقة المـسرحية نفـسها "أيهـا المـلاك المتـشرد القـادم مـن العوالم المجنونة، ألم تحضر معك نبيـذاً مقدسـاً مـن عنـد آلهتـك في السماء! أعرف أنـك مـسافر في الخـارج في أحـضان يابانيـة مهووسـة بفحولتك الجسدية وجنونك الشاعري، فماذا أتى بـك مـن الجنـة إلى جهنم هنا؟".

يتعانقان بود مجنون، يعانقنا شـاهر أيـضاً، فلـم نـره منـذ سـتة أشـهر، لكننـا لا نـستطيع مجاراتـه هـو وصـديقي في الـرقص. تتنـاثر الكلمات من فم شاهر بين النظرات المتألقة، والأنفاس المتقطعـة بـين الضحكات، وكأن نشوة النبيذ لعبت برأسه قبل أن يشربه "أنا قادم مـن المطار إلى المقهى مباشرة، كنت قد اتصلت بلميس من هنـاك فقالـت لي إنكم تشربون نبيذاً في مقهى عتيق، فطار صـوابي، وطـرت إلـيكم لأقطع شباك خيانتكم".

يسأله صديقي "أين أمتعتك؟".

يجيبه "نسيت أين هي، ضاعت، ربما في المطار، سيجدونها ويرسلونها إلى العنوان المكتوب عليها".

يسأله نبيل ضاحكاً "وإذا ضاعت تماماً ولم يجدها أحد؟".

يضحك شاهر مقهقهاً وقد ارتشف أول كأس نبيذ وجده أمامه "تضيع! ما من مشكلة، معظمها كتب، نشتري غيرها".

علق نبيل موجهاً كلامه إليَّ "هل فهمت لماذا أشرب البيرة، إذا بقيت تشرب نبيذاً مع هؤلاء المجانين فستصبح مثلهم أخيراً، ولن تفقد أمتعتك وكتبك فقط، بل وعقلك أيضاً".

أظنني أصبحت مجنوناً منذ عودتي إلى البلد بحثاً عن عيون عسلية، ومع ذلك فأنا أفضل جنون صديقي وشاهر على البرودة التي يتلبسها نبيل في شكله وتصرفاته وحديثه، فلولا مواهبه الأدبية التي لا يمكن اكتشافها إلا في رواياته، لكان كل شيء فيه يدل على مظهر عميل سري وطريقة تفكيره، يعمل في أحد الأجهزة الدولية للتجسس.

صديقي وشاهر يتبادلان الأنخاب والأشعار والبكاء والضحكات، تجلجل أصواتهم في المقهى وكأنهم في عقر ديارهم. يلتفت نبيل إلي ويسألني "ما الأخبار في المؤسسات الثقافية؟".

أجيبه ممتعضاً "لا شيء، ركود مستمر تحركه فضائح مع كل مسؤول جديد يستلم منصباً فيها".

" أتقصد الرفيق بهلول؟".

" أقصد كل الرفاق البهاليل، لا أفهم كيف يتم الاختيار، كيف يصعدون، ويكدسون الثروات، ثم يذهبون، ويأتي غيرهم ليكمل المسيرة النضالية في جمع الثروة وتخريب البلد!".

يضحك مقهقهاً "مسكين أنت، لا تعرف شيئاً، لا تعرف ما يجري في الكواليس حتى في مكان عملك. لا تخف، كل شيء يسير

في البلد بطريقة منضبطة، وهو مراقب بدقة شديدة، وإذا ما حاد أحدهم عن الطريق فهناك له حفرة بالمرصاد".

أسخر من حديثه "أحياناً كثيرة يطول الأمر حتى يكتشفوا من أصبح خارج الطريق، بعد أن يكون قد حول إلى دمار وخراب كل ما تطوله يده. وهذا لا يهمني، ولا مصلحة لي بذلك، أشعر بالندم على الارتباط بأعمال إدارية في مؤسسات بيروقراطية ينخرها الفساد، وهذا ما يعيق الكتابة لديَّ. وأنا الآن بصدد مشروعي الخاص عن العوالم الداخلية، صديقي يقول إنني سأصل أخيراً فيه إلى العوالم الماورائية، بل وسأصبح بداخلها، وعلى كل الأحوال أنا لا أهتم كثيراً بما يحدث في هذا العالم الأرضي من خراب فاهتمامي منصب على العوالم الداخلية فقط".

يعلق نبيل بحدة "سيقودك صديقك إلى الانهيار إذا بقيت وراءه، غريبون أنتم وعوالمكم الداخلية وعوالمكم الماورائية المجنونة. أعرف أنك لا تهتم كثيراً بما حولك، ولكنك أنت في قلب الحدث دون أن تدري، وأنت مضطر لأن تعيش الأوضاع المعقدة والمتأزمة، وتتلاءم معها".

" وكأن على لسانك حديثاً خاصاً، ألهذا طلبت رؤيتي؟".

" نعم، لدي فصل من روايتي الجديدة غير قابل للنشر الآن، أريدك أن تقرأه الليلة، ويهمني رأيك لأن له علاقة بما يحدث حولك في مؤسساتكم الثقافية".

ويعطيني ملفاً أسود يقارب ثلاثين صفحة، أحاول أن أقلبه، يمسك يدي "لا تفتحه الآن، اقرأه في البيت، وأرجو أن لا يطلع عليه أحد".

وفجأة ينبثق من ضباب الدخان والبخار الرجل الأشقر، السيد لؤي بنظرته وابتسامته الماكرة، ما الذي أتى به! هذا مكان للسكيرين والمعربدين، وللمثقفين المتسكعين الذين لا عمل لهم، عن أية

معلومات يبحث هنا، ولماذا يكون في كل الأمكنة التي ألتقي فيها مع أحدهم.

يقترب السيد لؤي مني هامساً "تحيات المعلم لك، اقرأ الفصل الروائي جيداً وبانتباه، نحن نتابع معك".

أستغرب مما يدور حولي الآن، صوت السيد لؤي الهامس يطغى على كل الضجيج حولنا، حتى على ضحكات صديقي وشاهر المجلجلة. ما علاقة المعلم والسيد لؤي بالفصل الروائي، بل وما علاقة الروائي نبيل بهم. فوجئت بالانسجام المتبادل بين الروائي نبيل والسيد لؤي، الذي تتحول ابتسامته من ماكرة إلى ودودة عندما تتلاقى نظراتهما، إذاً هذا هو السر، السيد لؤي هو مصدر المعلومات والملاك الحارس.

وقبل أن يذهب السيد لؤي ألاحظ أنه يحمل بيده كأساً فيه مشروبٌ ذو لون أصفر ذهبي، أمازحه "هل تشرب الويسكي منذ زمن بعيد؟".

يرفع كأسه قليلاً إلى الأعلى، ينظر إليه بإعجاب ثم يلتفت إلي بنظرته وابتسامته الماكرة "أنا لا أشرب إلا مغلي الزهورات، في كل الأزمنة والأمكنة".

يتبادل التحية مع الروائي نبيل، ويختفي في ضباب المقهى، كمن يتبعثر في المجهول.

أعود إلى البيت وقد بدأت السماء تتلبد بغيوم كثيفة داكنة سوداء، ربما هذه هي بداية العاصفة التي ذكرها لي صديقي، وأكدتها الأرصاد الجوية الأمنية. أدخل، ينقطع التيار الكهربائي فجأة مع دخولي، يبدأ عصف الريح يدوي ويصفر في الخارج، يشتد، فيهتز زجاج النافذة حتى يكاد أن يتحطم. ينتابني القلق والتوتر الذي يعاودني مع مثل هذه العواصف التي تأتي دون مطر، بل بالغبار والاختناق. أين هي ورد؟ لماذا لم تحضر هذه الليلة؟ تقول لي إنها

تحضر من كل الأمكنة على الأغلب من النافذة مع المطر. أنظر عبر النافذة، رياح شديدة تشكل زوابع غبارية، ترتفع بأوراق الجرائد القديمة إلى السماء وتطير بها، وتكاد أن تقتلع الأشجار وأعمدة المصابيح الكهربائية، لكن لا مطر، غبار فقط. وهذا يعني أن ورد لن تحضر في هذه الرياح العاصفة.

مع أن وجود ورد يجعلني أشعر بالراحة، إلا أنه من الأفضل الآن أن أجلس الآن وأقرأ بهدوء الفصل الذي أعطاني إياه الروائي نبيل، فلو كانت موجودة؛ فإنها ستتململ في الفراش بانتظاري، وتوترني دون أن أستطيع إنهاءه بتركيز. في مثل هذه الحالات التي أقرأ أو أكتب فيها ستناديني من وقت إلى آخر، تتمارض، تشعر بالضجر، ولن تهدأ إلا إذا تمددت إلى جانبها. وقد اقترحت عليها مرة أن أشتري لها جهاز تلفزيون، سخرت مني طويلاً، إذ لم تفهم ماذا يعني جهاز تلفزيون، قالت "في عالمي لا وجود لمثلِ هذه الأجهزة الغريبة التي تسبب الهستيريا والإدمان".

أسألها مستغرباً "الإدمان على ماذا؟".

تجيب ببساطة "الإدمان على الهروب".

وابتسمت لخاطر غريب مر بذهني، ربما السيد لؤي ومعلمه منعا ورد من الحضور بطريقة ما، حتى لا تطَّلع على الفصل الروائي السري جداً، ربما! فكل شيء أصبح ممكناً في الفوضى والجنون حولي. من الجيد أنه لديَّ شموع قديمة وأعواد ثقاب منذ زمن بعيد، عندما كان التيار الكهربائي ينقطع باستمرار، وقتها كانت العواصف العنيفة التي تسبب ذلك كثيرة وتتكرر باستمرار.

أجلس إلى مكتبي متلهفاً لقراءة الفصل الروائي، أنسى تحضير كأس الشاي بشرائح الليمون وأوراق النعناع الأخضر، الكأس هذا هو جزء من طقوس البدء بالكتابة، الآن هو أمر آخر. أقرأ الفصل الروائي:

" الرفيـق بهلـول أحـد خريجـي دورات الإعـداد الـوطني مـن مجموعة الرفيق "أبـو رعـد"، اسـتلم أخـيراً إدارة إحـدى المؤسـسات الثقافية الإستراتيجية بعد انتظار طويل دام أكثر من عشر سنوات، قبع خلالها في الظل وعلى الهامش، على عكس زميلـه "أبـو رعـد "الـذي حلق عالياً في المسؤوليات بـسبب ذكائـه وتجاربـه وخبراتـه النـضالية الوطنية. وعلى الرغم من أن خريجي هذه الدورات الموثوق بهم وطنياً قد تم تأهيلهم لاستلام المناصـب الإداريـة وأجهـزة الاسـتقرار الهامـة والحـساسة، إلا أن الرفيـق بهلـول بقـي الـرقم التاسـع أو العاشـر في التسلسل والأهمية في معادلات لعبة المناصب، حـتى جاءتـه الفرصـة غير المتوقعة في مؤسسته الثقافية، فأصبح ترتيبه الرقم واحد.

من المعروف أن الرفيق بهلول كان ترتيبه الأخير في دورته، ربمـا بسبب ضعف قدراته الخطابية الوطنية، وعدم امتلاكه صفات الجـذب المطلوب توافرها لدى القياديين، الذين يجعلـون الآخـرين يخـافون، فيصمتون ويطيعون، أي بغياب ما يسمى بالكاريزما. فـشكله غريـب، يثير لدى مرآه شعوراً بعدم الارتياح، طويل ونحيل، ولكن مـع كـرش مدور لا يتناسب مع بنيته المتطاولة، قدمان مفلطحتـان وكبيرتـان مثـل خف الجمل، وله عينان صـغيرتان تختبئـان وراء نظـارتين سميكـتين، تعلوهما صلعة مبكرة، ويزين وجهـه شـاربان ضـخمان مـشعثان دون تشذيب، يرى فيهما رمز الرجولة.

وإذا تكلم بهلول تلعثم، ليس لآفة لديه، بل لأنه غالباً لا يعـرف عما يتحدث، وإذا أجاب على سؤال كان كلامه لا يتجـاوز "نعـم، أو لا أدري، أو سـنرى"، إذ لا شـيء عنـده ليـضيفه أو يعلـق عليـه. ويستعيض عن كل تلك التشوهات الجسدية والنفسية بلـبس بذلـة مـع ربطة عنق ملونة بشكل دائم، والـركض بهـا وبحيويـة وراء رئيـسه ذي الجسد القصير الممتلئ، وتكرار ما يسمعه منه بشكل ببغـائي للإيحـاء بفهم ما قيل أمامه.

وسيتميز بهلول بالإخلاص الأعمى في تنفيذ تعليمات رئيسه، وبخاصة ما يسمى "بالمهمات القذرة"، التي لا ينبغي أن يتلوث بها اسم مديره حفاظاً على هيبة المركز الإداري والمظاهر الأخلاقية، فإذا ما انكشفت وانفضحت فتلقى مسؤوليتها على معاونه بهلول الذي نفذها دون علم رئيسه، ولكن هذا لم يحدث طيلة العشر سنوات التي عملا فيها معاً بتنسيق ذكي بينهما. ومن هنا امتلك بهلول صفات نادرة لا يمتلكها غيره بسهولة، وهي التفاني في الإخلاص لرئيسه، مادام هو رئيسه المباشر ومصلحته معه، والصفة الثانية وهي الأهم الصبر. وهذه الميزة الأخيرة هي التي كانت تعطيه القدرة على الصمت والانتظار، وبالتالي الأمل بتغير الأوضاع لصالحه في النهاية، مادام خريج دورات الإعداد الوطني، والدور يجب أن يطاله أخيراً.

وفي جميع الانتخابات التي كانت تجري في المؤسسة الثقافية التي يعمل بها، أو التي كان لها علاقة بها، من حزبية وعمالية وتعاونية سكنية وتموينية، ومروراً بالمناقصات والوساطات، ووصولاً إلى اختيار أبطال الإنتاج وملكات جمال الإبداع الثقافي والراقصات في الفرق الفلكلورية، كان بهلول يكلف بإدارة المهام الخفية من خلف الكواليس لإنجاح المجموعات التي يختارها المدير بعناية لضمان المصالح الثقافية الوطنية. ولذلك كان لديه كادرٌ متخصصٌ من المساعدين السريين المضمونين من أصحاب العضلات المفتولة والعقول المحلولة، ممن يعملون في المؤسسة أو خارجها. كانوا جاهزين لكل المناسبات التي يُكلف بها من وراء الستار، يقومون بتوزيع الملابس، والأغطية الصوفية، وعلب السمنة والزيت، والشاي، والقهوة، وكراتين البيض، لدعم اختيار الأشخاص المناسبين في الانتخابات.

وإذا ما استشعر بهلول بحاسته السادسة الأمنية انقلاب الموازين ضد الخطط والإستراتيجيات الثقافية الوطنية في أحد الاجتماعات، أوعز بإشارة سرية إلى مفتولي العضلات للقيام بإعادة الأمور إلى

نصابها، فيقومون بتحطيم زجاج النوافذ وقلب الطاولات والكراسي ونزع اللافتات والصور وتكسير الكؤوس، يمزجون الشاي والقهوة بعصائر الفواكه ويسكبونها فوق الأطعمة، وبرفسة قدم تتطاير الصحون في فضاء صالة الاجتماع، ثم يخلطون الأوراق ويبعثرونها، يمزقون بعضها ويختفي بعضها الآخر في جيوبهم، وقد ينال بعض الأشخاص لكمة هنا أو هناك لتطاوله على المسيرة الثقافية الوطنية. وفي النهاية ينسحبون كخفافيش الظلام، ويختفون دون أن يعرفهم أحد. وعندما يتم التحقيق في الحادثة، فغالباً ما يكلف الرفيق بهلول رسمياً بالإشراف عليه بوصفه المسؤول الأمني في المؤسسة، وبعد أخذ ورد يطول شكلياً تُسجل القضية في النهاية "ضد مجهول".

تفانى بهلول في خدمة مديره في مؤسسته الثقافية، ولكنه تفانى أكثر وبإخلاص أكبر في خدمة رؤسائه السريين في أجهزة الاستقرار، وكان مرناً في لعبة التوازن بين إرضاء رئيسه المباشر وبين المتطلبات الأمنية للأجهزة. أما رئيسه صاحب العلاقات القوية مع رفاق دربه من دورات الإعداد الوطني فقد كان من الذكاء بحيث إنه استغله ـ أو استغل غباءه ـ في تمرير ما يرغب إلى الأجهزة عن طريقه إلى جانب الاستفادة من خدماته الخاصة له، والتي كان يوثقها احتياطاً من أجل الأيام الصعبة. أما المهام الإدارية والثقافية فهو يعرف أن بهلول غير مؤهل لها بالكامل، ولذلك كان يكلف بها أشخاصاً آخرين.

وكانت المتطلبات الأمنية للأجهزة خارج المؤسسة لا تنتهي، فقد تمت دعوة الرفيق بهلول إلى مكتب "أبو رعد "بشكل سري في جلسة مسائية على فنجان قهوة، من أجل تجديد الصداقة القديمة التي كانت قائمة في دورة الإعداد الوطني. وطلب منه كتابة تقرير شهري عن سير الأعمال في مؤسسته الثقافية لدعم المسيرة الوطنية، واتخاذ الاحتياطات اللازمة للحفاظ على أمن الوطن، فوافق بكل رحابة صدر. ثم أصبح التقرير أسبوعياً تفصيلياً، وأخيراً تبرع الرفيق بهلول بكتابته يومياً، بل وأخذ يوقظ "أبو رعد "في منتصف الليل؛ لينقل له

أخباراً تبدأ بهدر الموظفين للمياه في التواليت، وصولاً إلى لون المحارم الورقية التي استخدمها المدير بعد ممارسة الجنس مع سكرتيرته في مكتبه مساءً بعد انصراف الجميع من العمل.

وقد شجع "أبو رعد "بهلول على الاهتمام بكتابة تقارير عن تصرفات مديره الشخصية، وذلك بهدف اتخاذ الاحتياطات اللازمة لحمايته من تسرب مثل هذه المعلومات إلى أعداء الوطن، بوصفها من الأسرار الإستراتيجية الأمنية للشخصيات النافذة. وفهم بهلول الموضوع بشكل جيد على طريقته، فتابع كتابة سلسلة من التقارير عن عشيقات المدير من السكرتيرات، دون ذكر العشيقات من خارج المؤسسة التزاماً منه بأصول العمل المهني، من حيث مسؤوليته عما يحدث في إطارها فقط، ولكنه لضرورة العمل اتْبَع ذلك بتقارير خاصة عن أزواج السكرتيرات وأخواتهن وأقربائهن، وصولاً إلى الدرجة الثالثة من القرابة، دون أن ينسى ذكر الوظائف التي يشغلونها في الدولة أو خارجها، والانتماءات السياسية والفكرية والروحية والاهتمامات الثقافية، والحالات الصحية النفسية الخاصة بأحوال الشذوذ الجنسي لديهم.

ولإظهار حماسته الوطنية، سواء أمام المدير أو المسؤولين الآخرين من خارج المؤسسة، فقد اهتم بضبط المشاركات الجماهيرية لموظفي مؤسسته في الاحتفالات الوطنية والمسيرات الشعبية، وعندما حاول تسجيل أسماء الهاربين والمتسربين منها كمسؤول أمني وجد أن العملية شاقة ومستحيلة، لانسلالهم منها دفعة واحدة بالمئات بطريقة جماعية قبل بدئها، ضاربين عرض الحائط بصراخ المنظمين المساكين، الذين سرعان ما يذهبون أيضاً في أول فرصة علناً عندما لا يجدون أحداً كي يوجهوه على طريق النضال. ولذلك وجد بهلول طريقة أذكى لرصد الخونة والعملاء في المؤسسة، فقام بتسجيل الحضور المتبقين الذين لا يتجاوزون عدد الأصابع في اليدين،

مناضلون قدماء، ونقابيون، ومستخدمون يحملون لافتات لا يعرفون أين يرمونها ليفروا. وبالرجوع إلى سجلات المؤسسة استطاع أن يحصر هؤلاء المتخاذلين والمنفلتين من الالتزامات الوطنية، وعندما وجد أن الأعداد مخجلة، تتضمن معظم الموظفين وفيهم المدراء ورؤساء الأقسام ومخبروه الأمنيون، فيضطر إلى تزوير التقارير المرفوعة إلى القيادات العليا، ليؤكد حجم المشاركة الجماهيرية الضخمة لأبناء مؤسسته وتأييدهم لسياسات القيادة.

وعلى عكس جميع العاملين في مؤسسته فقد أثبت وجوده بحماس شديد في مقدمة الصفوف المتبقية من كبار المسؤولين في المسيرات الوطنية، الذين كانوا يعبرون بمشاركتهم والتزامهم بالسير طويلاً تحت أشعة الشمس أو في الرياح الشديدة عن عمق مشاعرهم الوطنية. فإذا كانت المسيرة أو الاحتفالية من نمط "يعيش، يعيش"، فقد كان يشارك برقص الدبكة ويقفز بحيوية أمام النساء المناضلات، العجائز منهن والعوانس. ومع أن هذه القفزات العشوائية لا علاقة لها سوى برقص القرود مما يثير الضحك والسخرية، فلم يكن يهمه ذلك مادام يؤدي واجباً وطنياً. وإذا كانت المناسبة من نمط "يسقط، يسقط"، فإنه يشتعل غضباً، يصرخ ويزأر بسقوط الهجمة الإمبريالية الشرسة بحيث تنهار دوائرها رعباً من صوته، ثم يطالب بعد ذلك بدحر عملائها الرجعيين في الداخل والخارج، وعلى سطح القمر وكوكب المريخ، أينما وجدوا.

وبحكم ثقة رئيسه به فيما يتعلق بالمهام غير الرسمية والشخصية والقذرة؛ فإن بهلول كان من المفترض أنه لا يسمع ولا يرى ولا يتكلم، بل كان يعرف الحدود التي كان متفاهماً عليها بشكل ضمني مع مديره، فتقاريره الأمنية إلى "أبو رعد "هي مهنية بالكامل، أي إنها مرتبطة بما يحدث في المؤسسة فقط، وإن تجاوزت الحدود المتفق عليها أحياناً، ولكنها تبقى في إطار المؤسسة. أما خارجها فقد كان

يدرك أن الأمور معقدة بشكل كبير وخطير بحيث لا يجرؤ حتى على التفكير بها، فالقضية لا تمس شخص المدير فقط، بل سلسلة من الرفاق المسؤولين الآخرين، الذين لا يمكنه أن يذكر أسماءهم إلا ويرتجف من الخوف، ومن بينهم شخصيات نافذة من مستوى "أبو أحمد "العملاق.

وبحكم ضرورة المهام الخاصة التي يكلفه بها المدير؛ فقد كان لدى بهلول مفاتيح إحدى مزارعه، الواقعة في الريف، من أجل تحضير السهرات الخاصة. وعلى الرغم مما كان يحصل عليه من مكافآت مجزية وهدايا قيمة، فإنه كان يرى ويصمت، كان يرى ويعرف ليس فقط ما يحدث فيها، بل وما يحدث في كثير من الفيلات الرسمية الأخرى أيضاً. يرى الأوراق النقدية الخضراء تتكدس، والفيلات والمزارع والعقارات الهابطة من السماء تتوسع، وأسطول السيارات السوداء ينمو، ويرى رحلات الصيد في الصحراء، وأمسيات الترويح عن النفس في يخوت بحرية، وجولات على الخيول العربية الأصيلة في البراري الجبلية. ويرى الوفود تسافر في مهام رسمية خارج البلاد حيث يصطحب بعض الأعضاء فيها الزوجة وبعض صديقاتها والخادمة، والأفضلية للعشيقة إذا كانت المهمة سرية، ولا ينسون الأولاد وأصدقاءهم وبعض الأقارب والمعارف، فهذه فرصة لرد الجميل إليهم في شوارع باريس ولندن وروما وفيينا، حيث لا توجد أية إشكالية مادامت المصاريف على حساب الدولة.

وما كان يثيره أكثر من كل هذا سواقي الويسكي التي لا تنقطع، لتُصَب على مراهقات وسيدات أعمال محترمات وبنات الليل، واللواتي اشتهرن منهن خاصةً القادمات من الدول التي كانت مسماة "اشتراكية". ولذلك فعندما كانت تسنح له الفرصة بغياب الجميع عن الفيلا، فقد كان يتسلل إلى غرفة الصالون العامرة بالمطبوعات وأشرطة الفيديو البورنوغرافية، ليقضي بعض الوقت بالقدر الذي لا

يثير فيه الشك، فيصب كأساً كبيرة من الويسكي ويشاهد ويحلم، ويحلم بالوقت الذي سيقفز فيه هو إلى الأعلى أخيراً، ويحصل على مراهقات وسيدات أعمال محترمات وبنات ليل. ولهذا كله كان يرى ويصمت، يرى ويختزن في داخله ويصمت، ويحلم ويصمت، فقد كان مقتنعاً أن ميزات الصمت والصبر هي التي ستعطي نتيجة في النهاية، فاستمر عنيداً في صمته وصبره.

كان الرفيق بهلول مقتنعاً في داخله بأنه لكي تدار القضايا الوطنية وتحل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية بشكل جيد ينبغي للمسؤول أن يكون مرتاح البال وصافي الذهن، وأن يُرَوح عن نفسه بعد الظهر، وفي المساء، والليل، وفي عطل نهاية الأسبوع، والعطل الرسمية، الوطنية والدينية، ولابأس بإيقاف الأعمال الرسمية عدة أيام أيضاً من وقت لآخر، وعندئذ ستكون القرارات صائبة وحكيمة. وبما أن الأزمات الاقتصادية والاجتماعية كبيرة وخطيرة، وأي قرار خاطئ يمكن أن ينعكس سلباً على عشرات الآلاف من المواطنين المخلصين الشرفاء، لذلك يجب أن يرتاح بعض المسؤولين بشكل استثنائي، ليتخففوا من الضغوط النفسية، والتوترات التي تتركها الأزمات الدولية. وأفضل طريقة اكتشفها بهلول واقترحها على مديره للتخلص من الضغوط والتوترات التي يسببها العمل المرهق والالتزامات الوطنية هو السباحة في بركة المزرعة المستورة عن العيون، حيث تتكفل مدلكات متخصصات بإرخاء بعض العضلات وانتصاب بعضها الآخر، ثم تنحل الأمور بشكل نهائي معهن على سرير واسع مع مشاهدة بعض الأفلام التعليمية التي تحرض الرغبة الجنسية بشكل علمي وصحي، وتذهب بالملل والسأم الجنسي من خلال تنويعات الأوضاع، وإن كان فيها بعض الممارسات المغايرة للمألوف.

وبالرغم من كل الاقتراحات المثيرة والتحضيرات الدقيقة التي كان يقوم فيها بهلول لحفلات الترويح عن النفس، إلا أنه كان يُستبعد

عندما تبدأ الحفلة الحقيقية بالرغم من أنه ثقة، وهذا ما كان يُشعره بالحزن، ولذلك كان يخرج من الفيلا ويصمت ويصبر، والحفلة تسير بدونه.

وأخيراً جاءت الفرصة بشكل غير متوقع للرفيق بهلول، فقد انتقل رئيسه نتيجة لإنجازاته الثقافية الوطنية المميزة إلى منصب أعلى. وبما أنه كان له رأي فكري يستند إلى المركزية اللاديمقراطية فلم يكن يسمح لأحد بالمشاركة في إدارة مؤسسته العملاقة، لا من داخلها ولا من خارجها، وبهذا لم يهيئ بديلاً ثقة وفي الوقت نفسه ذا خبرة علمية. فبرزت أولى المشاكل: البديل.

كثر المهنئون بالمنصب الجديد، من داخل المؤسسة ومن خارجها، وعينهم على المنصب الشاغر، فالمدير له رأيه بالقادم الجديد وراءه. هذا ما كان يبدو ظاهرياً، أما في السر فقد اجتمعت الدائرة الضيقة من رفاق المدير، وفكروا كثيراً بالبديل، وتسألوا من يستطيع أن يترك الأمور تستمر في مجاريها ويواظب على توقيع الأوراق والمعاملات نفسها، دون أن تنقطع المياه التي سقت المزارع العديدة من خيرات المؤسسة. وتسألوا أيضاً من يستطيع أن لا يدقق ببعض الخروقات الصغيرة للقانون التي حدثت سابقاً، والتي جعلت من المدير يوفر بعضاً من راتبه الشهري الصغير، ويحصل من هذا الوفر على سلسلة من المزارع والفيلات والشركات والصفقات التجارية، التي دعمت موقعه وموقع مؤسسته في المجتمع بعرق جبينه، وإن كان لا خوف عليه من أي تدقيق رسمي، فالملكيات مسجلة بأسماء زوجته وأولاده وأزواج بناته، وصفحته بالتالي ناصعة البياض.

فكروا كثيراً، وسأل "أبو أحمد "أبو رعد "العملاق "عن رأيه بهذا الموضوع الوطني، فالمدير الصاعد ينتظره مستقبل كبير، والرفاق من حوله سيستفيدون وتقوى شوكتهم بصعود أي عضو منهم وتتوسع مصالحهم، وخاصة مع الصفحات البيضاء له. وبما أن "أبو

رعد "على علاقة جيدة مع الرفيق بهلول؛ فلم يجد من هو جدير بهذا المنصب أكثر منه، فهو حسب رأيه مطلع على كل تفاصيل الأعمال بشكل جيد، ولديه الدليل على ذلك من خلال التقرير اليومي التفصيلي الذي يكتبه عن أحوال المؤسسة، إضافة إلى تعاونه الوثيق معه، وهو ما سيستمر بالتأكيد لاحقاً. ولهذه الأسباب سيقتنع "أبو أحمد "العملاق أن الرفيق بهلول هو الأجدر بإدارة مثل هذه المؤسسة الثقافية الإستراتيجية.

وتم طرح اسم الرفيق بهلول في الحلقة الضيقة من رفاق المدير، وتعالت الأصوات وزاد الهرج:

" بهلول؟!".

" ألا يوجد رفيقٌ غيره ؟!".

" لا يفقه شيئاً لا بالأمور الإدارية ولا غير الإدارية".

" المؤسسة تحتاج إلى شخصية اعتبارية تمتلك وهج السيطرة".

" المؤسسة تحتاج إلى وجه ثقافي".

" توجد علاقات مميزة للمؤسسة مع الفعاليات السياسية والثقافية ومع ممثلي السلك الدبلوماسي، فمن سيغطيها؟".

" وماذا به الرفيق بهلول؟".

" شكله كله غريب، وهو غير مؤهل حتى لإلقاء الكلمات الحماسية الوطنية".

" يعرف فقط كتابة التقارير الأمنية بشكل جيد".

" رفيقنا المدير بدأ مثله سابقاً، ولم يكن يمتلك كل هذه المؤهلات، وحصل عليها فيما بعد بالخبرة".

" ولكن الظروف كانت وقتها مرتبطة بالنهوض الوطني وتحقيق المشاريع الثورية، والرفاق استلموا المناصب بغض النظر عن مؤهلاتهم في سياق اقتلاع العملاء والخونة من المراكز الحساسة في الدولة".

" لا زال النهوض الوطني مستمراً يا رفيق، ولازالت المشاريع الثورية تسير إلى الأمام، ونحن نحتاج إلى رفاق مثل بهلول".

" رفيق أين تعيش، أين النهوض الوطني والمشاريع الثورية، هل تصدق كلام الصحف، أصلاً نحن من نكتبه، نحن الآن ـ يا صديقي ـ في زمن النهوض الرأسمالي الشخصي، نحتاج إلى وجوه جديدة".

" وأين الوجوه الجديدة التي تستطيع ضمان مصالحنا؟".

يسود الصخب ويعلو الصراخ وتزداد حدة النقاش، تتقاطع الأصوات الغاضبة بين المعترض بشدة والمؤيد بتحفظ بسبب الضرورة الملحة حالياً وغياب البديل. وفجأة يدخل المعلم الكبير في المجموعة، فيصمت الجميع بسرعة وينهضون احتراماً وبعضهم خوفاً، وينظرون إليه "هل وجدتم أحداً غير الرفيق بهلول يضمن مصالحنا؟".

يجيبون بصوت واحد مليء بالاحترام وفي الوقت نفسه بالخجل "حتى الآن لا".

" إذاً سنختار الرفيق بهلول".

القرار حاسم ونهائي من قبل المعلم الكبير. ساد صمت ثقيل على الجميع.

" ولكن الرفيق بهلول لديه شهادة الثانوية العامة فقط، وهناك في المؤسسة من يحمل شهادات الدكتوراه، ولهم أبحاث علمية مميزة في مجالاتهم التخصصية بعملها!".

" صحيح، ولكنهم غير مضموني الولاء أبداً، ومن غير الممكن معرفة ردود أفعالهم إذا ما فتحوا الدفاتر القديمة".

" وهل من الضروري أن يعرف وزير البحرية السباحة؟!".

يجيب المعلم الكبير بينهم بهدوء "هذه بسيطة، نشتري له شهادة دكتوراه من إحدى الجامعات الخاصة التي أخذت تظهر بكثرة الآن،

أما الأبحاث العلمية فغير ضرورية، وقته مستنزف بالأعمال الإدارية، هل من استفسارات أخرى؟".

" كيف نضمن السكوت على ما حدث في الماضي وعلى ما سيحدث في المستقبل؟".

" سيوقع أوراقاً يتحمل فيها مسؤولية كل الخروقات القانونية السابقة على عهد المدير السابق". تأتي هذه الكلمات من حنكة المعلم المجربة، خبر فيها متاهات السلطة.

" وعلى ماذا سيحصل من كل ذلك؟".

" سنترك له حرية الاستفادة من خيرات المؤسسة من الآن وصاعداً".

انتهى النقاش وبدأ الجمع ينفض، أما المدير السابق فقد نهض متثاقلاً وقد أصابه الوجوم، ولم تبد منه سوى همسات "بهلول؟! ألم نستطع إيجاد غيره".

مضى ببطء وهو يتذكر إحدى الجلسات المرحة الماجنة مع رفاقه عندما فاجؤوه بألوان المحارم الورقية التي استخدمها مع سكرتيرته.

انتهت الجلسة، الرفيق بهلول أصبح المدير بهلول".

أنقطعُ عن قراءة الفصل الروائي فجأة، إذ أسمع صوت زئير الرياح وعويلها يشتد بطريقة مرعبة، أنظر عبر زجاج النافذة، لا مطر، وإنما ألمح زوبعة مخروطية من الغبار كالتي أشاهدها فقط في أفلام التلفزيون الوثائقية، والتي لا تضرب إلا البلدان الفقيرة المضطربة أصلاً، قادمة من مناطق الصحراء. تقترب الزوبعة من النافذة وكأنها تتجه نحوها، أو بالأحرى نحوي، وأشعر بها تضرب النافذة بعنف وتحطم زجاجها الذي يتطاير في أنحاء الغرفة، يتناثر في فضائها ويهطل فيها مطراً من زجاج لا ينتهي. تنطفئ الشموع بقوة الرياح ولا أشعر سوى بالعتمة الداكنة وهطول الزجاج، ومن ثم بدخول الغبار

إلى الغرفة الذي اختلط بالزجاج، وبدأ يتراكم فوق الأرضية والسرير وكل الأشياء في الغرفة، على شكل طبقة متربة زجاجية.

أشعر بالخوف من الغضب المرافق للرياح وقد تسرب الغبار الزجاجي إلى حلقي وبدأ يملأ رئتي، وأكاد أختنق وأنا أتوه كالمجنون في ظلام دامس. أتلمس طريقي بالعتمة حتى أصل إلى السرير، أجده ممتلئ بطبقة سميكة من التراب وكسرات الزجاج، أدفعها بيدي، فأشعر بنزيف صغير فيها دون أن أراه في العتمة. أرفع اللحاف وأدخل تحته، أبقى جالساً وأنا أرتعد من البرد والخوف، لاشيء سوى عويل الرياح الذي دخل الغرفة، والغبار الزجاجي الذي لا ينثني عن التساقط فيها. أنظر عبر النافذة والعاصفة تشتد في الخارج، وأنتظر قدوم الصباح دون أن أجرؤ على النوم، وأشعر أن الصباح لا يأتي..... أين أنت يا ورد؟

* * *

بهلول المدير

يأتي الصباح وكأنه لا صباح، لم أنم طوال الليل، لا أذكر سوى أنني كنت جالساً في السرير ملتفاً باللحاف وأنا أرتعد من البرد والخوف، ولكن ضوء الصباح الكئيب بدد بعض العتمة فاستطعت أن أرى ما حولي أخيراً. كان جو الغرفة مغبراً زجاجياً، وكأن ذراتها استقرت معلقة بالهواء، أنظر حولي فلا أرى سوى الحطام بعد العاصفة، أنهض إلى النافذة، أنظر إلى شجرة السرو وقد تحطمت أغصانها واكتست لوناً مغبراً، ملامح البيوت القديمة والشارع اختفت تحت طبقة كثيفة من الغبار.

أول ما تبادر إلى ذهني أنني قضيت ليلتي وحيداً دون ورد، فهي لا تأتي إلا مع المطر، وترافق استيقاظها مع هديل الحمام وزقزقة العصافير، أما مع هذا الجو المغبر الخانق الصامت فحتى العاهرات لا تأتي. أذهب إلى الباب الخارجي، أتفاجأ، لا أستطيع فتحه بسبب تراكم الأتربة والحطام وراءه، يبدو وكأن هناك منعاً للتجول بسبب الأحوال السيئة بعد العاصفة. يفاجئني أيضاً تعطل الهاتف إلى جانب الكهرباء، كان من الممكن الاتصال بصديقي ومعرفة شيء مما يجري حولي، فهو الذي أخبرني بتوقعات الأرصاد الجوية الأمنية.

أقرر البقاء في البيت، فلاشيء أستطيع أن أفعله، أقترب من الطاولة أرى الفصل الروائي الذي أعطاني إياه الروائي نبيل مازال موجوداً، قرأت البارحة ما يقارب النصف، مسحت الغبار الزجاجي المتراكم على الطاولة، وبما أنني لا أستطيع الخروج من البيت ولا شيء يمكن أن أفعله، فسأتابع القراءة. ولكن قبل أن أجلس نظرت إلى لوحة شيماء عن العيون العسلية، أذهب إليها، أمسح عنها الغبار، تعود نظيفة وجميلة، الشيء الوحيد والنظيف في هذه الغرفة، أعود إلى الطاولة، أجلس أتابع قراءة الفصل الروائي:

"الرفيق بهلول، المدير الجديد...... أخيراً. دعاه "أبو رعد "يوم الجمعة مساءً إلى اجتماع مغلق في مكتبه، ووقع على كومة من الأوراق دون أن يقرأها، أو حتى يعرف محتواها، وزيادة في الثقة وقع على كدسة من الأوراق البيضاء الفارغة تعبيراً عن الولاء، وأعطاها إلى "أبو رعد "ليسلمها إلى المسؤولين الذين منحوه المنصب، وليكتبوا عليها ما يريدون، فالثقة يجب أن تكون متبادلة.

وأخيراً أصبح مسؤولاً كبيراً..... أخطأ في التفكير، يقصد أنه أصبح مديراً، وإن كان صغيراً إلا أنه مهمٌ. وسيبدأ خلق العالم، عالمه الكبير الجديد.

انتهى من توقيع الأوراق بعجلة أمام "أبو رعد"، الذي كان يبتسم لإحدى فتوحاته الوطنية الجديدة باختيار مناضلين جدد مخلصين للقيادة، أما المدير بهلول فلم يستطع الانتظار حتى الصباح، إذ قرر الاستمتاع بمنصبه الجديد مباشرة. ومع أن الساعة كانت قد قاربت الحادية عشرة ليلاً فقد توجه فوراً إلى المؤسسة، فتح له الحارس الليلي الباب الخارجي، وانسل إلى الداخل. يعرف كل دهاليز المؤسسة، بل يستطيع تلمس طريقه في العتمة دون أي ضوء، وبما أنه المسؤول الأمني عن المؤسسة، أي كان المسؤول الأمني، فلديه نسخة من كل المفاتيح.

ذهب مباشرة إلى مكتب المدير السابق، أي إلى مكتبه الجديد، من هنا سيقود مزرعته..... أخطأ بالفكرة، يقصد مملكته، فالمملكة ستضم عدة مزارع. أشعل إضاءة خفيفة، شغل جهاز التكييف، فتح التلفزيون على محطة فضائية عربية غنائية. تلمس طاولة المكتب الواسعة التي اعتاد الوقوف أمامها مطأطئ الرأس ذليلاً، دار حولها، وصل إلى المقعد الوثير، جلس عليه فضاع فيه بجسده النحيل، ولكنه عوَّض عن السقوط فيه بطوله غير الطبيعي وشاربيه العريضين، فشعر بالتوازن. تأمل السجادة الفاخرة على الأرض، وما حولها من الأرائك، والمقاعد، والطاولات الصغيرة، وأصص الورد، جال

بنظره على الجدران، نظر باحترام إلى الصور الرسمية المعلقة، وببلاهة إلى اللوحات الفنية التشكيلية، "خربشات دجاج"، هكذا يسميها دائماً، أول عمل سيقوم به غداً في الصباح هو نزع هذه اللوحات الفنية، وسيضع بدلاً منها صوراً رسمية تعبيراً عن الولاء وعمق الالتزام الوطني.

نهض من وراء مكتبه، مشى على السجادة الوثيرة التي تغطي أرضية المكتب، لطالما أثارته هذه السجادة الفاخرة وتمنى امتلاك واحدة مثلها في البيت. خلع حذاءه وسار عليها ليشعر بملمس وبرها الناعم، ورأى أنه من الأفضل خلع الجرابات أيضاً، فالشعور سيكون عندئذٍ ممتعاً أكثر، شعور شبيه بدغدغة جنسية. جلس على السجادة مسنداً ظهره إلى أريكة، تحرر من ربطة العنق التي أصبحت تخنقه، ثم من السترة التي شعر بها تضيق عليه، وبما أنه لا يوجد أحد فقد نزع بقية الملابس التي أصبحت ثقيلة عليه، ثم ملابسه الداخلية، فأصبح عارياً بالكامل. تقلب على السجادة، دغدغت نعومتها كامل جسده، تقلب على الأريكة، على طاولة المكتب الكبير، تناوبت الأحاسيس على جسده العاري، نعومة وبر السجادة، طراوة جلد الأريكة، رطوبة طاولة المكتب.

بقي على طاولة المكتب، إذ أخذت الرطوبة تسري في جسده، استرخى، بدأت الغفوة تغالبه على صوت أغاني الفيديو كليب في التلفزيون. يغفو، يغفو وهو يحلم بالأوراق النقدية الخضراء، والفيلات، والمزارع، والعقارات، والشركات، وأسطول السيارات، ورحلات الصيد، والأمسيات البحرية..... أخطا ترتيب الأحلام، يجب أن يبدأ من العكس، من سواقي الويسكي مع المراهقات، والسيدات المحترمات، وبنات الليل الروسيات.

يبعد بالقوة صورة زوجته العجوز البشعة، واليابسة، والمريضة، والوسخة، لا يدري كيف تزوجها منذ زمن بعيد

بالرغم من إحساسه الداخلي أنه سيكون رجلاً عظيماً ولن تناسبه في المستقبل، كان خطأً كبيراً. ينام الآن بين الأحضان البيض والسمر، ولما لا والزنجية أيضاً، فهي تمتلك إثارة خاصة اختبرها في أثناء مشاهدة إحدى الأفلام التعليمية الجنسية. يغطس في بركة السباحة في مزرعة مديره، يخطئ من جديد في مزرعته، تأتي المدلكات، فتسترخي أعضاء وتنتصب أخرى، لينتهي في سرير كبير بعد أن أخذ يطبق القواعد العلمية الصحية التي شاهدها في الأفلام الجنسية التعليمية.

يمضي وقتاً ممتعاً، العتمة تحيط به، لكن الأحلام كانت ملونة، يستيقظ بانزعاج على صراخ امرأة تولول، ينظر إلى النافذة، الصباح قد أقبل، ينظر إلى الساعة الجدارية، الثامنة صباحاً من يوم السبت، اليوم الأول من خلق عالمه الجديد. فوجئ بعاملة التنظيف أمامه، فقد دخلت لتنظف المكتب كما هي العادة في كل صباح، شلها الرعب والذهول دون أن تستطيع إبعاد نظرها عن العضو الذكري المنتصب بشكل غير طبيعي لرجل عار متمدد على طاولة المكتب، لا تتوقف عن الصراخ وقد تشنجت قدماها فلم تعد قادرة على التحرك أو الهروب. حضرت السكرتيرة على الصراخ غير الطبيعي، وبما أنها اعتادت على رؤية الأعضاء المنتصبة في المكتب وخارج المكتب، فقد ظلت متماسكة ورابطة الجأش، وسحبت عاملة التنظيف من يدها، أخرجتها من المكتب، أغلقت الباب بهدوء، وأعطتها كأس ماء ليذهب الرعب عنها.

نهض المدير بهلول بثقة في يومه الأول وأخذ يرتدي ثيابه، سره أن يبدأ يومه الأول بهذا المشهد، سيسميه الفتح العظيم، سيشيع الخبر في المؤسسة بسرعة أن له عضواً ذكرياً قاسياً وقوياً، منتصب دائماً منذ الصباح، وسيسهل له هذا بدء العمل في يومه الأول.

الساعة التاسعة صباحاً استدعى الشخص الموثوق به جداً من

مجموعـة العـضلات المفتولـة والعقـول المحلولـة إلى مكتبـه، عينـه مساعداً شخصياً له، وكلفه بالمهام التي كان يقوم بها هـو شخـصياً في السابق.

الساعة الثانية عشرة ظهراً وصـلت لوحـة بإطـار مـذهب تحـوي شهادة دكتوراه أصلية من إحدى الجامعات المحترمـة، تم تعليقهـا في صدر المكتب.

الـساعة الواحـدة بعـد الظهـر قـام المـدير الـسابق بـسحب السكرتيرات الرئيسيات، والتحقن معه في عملـه الجديـد، ممـا أثلـج قلب المدير بهلول بانزياح الغم عن قلبه بذهابهن، فهؤلاء لن يكنَّ من المؤتمنات وسينقلن إليـه كـل شـيء، ولـن يقـبلن بـسهولة اسـتخدام المحارم الورقية الملونة معـه في المكتـب بعـد الظهـر، فالقلـب عنـد الحبيب الأول .

الساعة الخامسة بعد الظهر، تم استدعاء الرجل الموثوق به جـداً دون علم مديره بهلول وبشكل سري وعاجل إلى مكتـب "أبـو رعـد"، وكلف مباشرة بكتابة تقرير يومي تفـصيلي عمـا يحـدث في المؤسـسة بسبب تطور الأوضاع المتلاحقة وتسارع الحـوادث فيهـا، وتم الطلـب إليه تسليم التقرير السري جداً إلى "أبو رعد "باليد شخصياً حفاظاً على المصلحة العامة.

في اليوم الثاني، يوم الأحد، قرر ترتيب عالمه الجديـد، أصـدر أمراً بإيقاف التسلسلات الإداريـة القائمـة في المؤسـسة بانتظـار أوامـر وتعليمات جديدة منه مرتبطـة بإعـادة الهيكلـة الإداريـة فيهـا، وبهـذه المـسوغات تم إيقـاف المـدراء والخـبراء عـن العمـل. لم يفهـم أحـد السبب، لم يفهم أحد أن المدير بهلول كان لديه شعور دائم في داخلـه بالدونية العلمية والإدارية أمام هذه المجموعة، وبهـذه الطريقـة تمـت إزاحتهم، ولن يضطر إلى استشارتهم فترتفع رؤوسهم خيلاء كالـديوك وهم ينصحونه بما يجب أن يفعله، فلتسر الأمور كلها خطأ بخطـأ بمـا

أن أحـداً لـن يحاسـبه في مملكتـه، ولكنـه لـن يجعلـهم يختـالون في الممرات ويقولون "المدير غبي، لا يفقه شـيئاً، ولا يـستطيع أن يفعـل شيئاً دون الرجوع إلينـا". وبـدلاً مـن ذلـك كلـف رؤسـاء أقـسام مـن المؤتمنين السابقين بتـسيير الأمـور ريثمـا تظهـر الأوامـر والتعليمـات الجديدة، التي لن تظهر أبداً.

ولم يأتِ اليوم الثاني إلا وكان المدير بهلول منـهكاً بالكامـل مـن الاتـصالات الداخليـة والخارجيـة، ومـن توقيـع الأوراق الرسميـة والبريد، وإقرار التعيينـات الجديـدة، والاجتماعـات المتتاليـة، ومـن ضرورة تسيير الأعمال الروتينية اليوميـة..... لا لـيس هـذا هـو العمـل الذي كان يحلم ويخطط له، هذه مصائب واسـتنزاف للطاقـة والوقـت والأعصاب، هو لم يصمت ويصبر طويلاً لكـي يعمـل كالحمـار منـذ الصباح وحتى المساء.

ذهب الجميع من المؤسسة، جلس وفكـر طـويلاً كيـف سـيحل مشكلة ضغط الأعمال وتراكمهـا، وجـد الحـل، سـيكلف المعـاونين المؤتمنين بتسيير الأمور بدلاً منه، وفي الوقت نفـسه سيـضع مخـبرين بينهم ليطلعوه على ما يفعلون بعيداً عن ناظريه، بينما يتفرغ هـو لإدارة مزرعته. صعقته الفكرة، فهو لا مزرعة لديـه الآن، المزرعـة والفـيلات والسيارات تحتاج إلى زمن طويل من أجـل الحـصول عليهـا، إضـافة إلى ضرورة وجود شـبكة علاقـات وروابـط قويـة مـع أطـراف نافـذة خـارج المؤسـسة، لكنـه الآن هـو في أوج قوتـه وعنفوانـه، فـإلى مـتى سيـسعه الانتظار! ووجد حـلاً مؤقتـاً مـن جديـد لهـذه المـشكلة، سـيجعل مـن المؤسسة مزرعته المؤقتة، ريثما يحـصل علـى مزرعتـه الخاصـة، فليبـدأ العمل إذاً منذ الغد في هذه التوجهات.

اليوم الثالث، الاثنين، بدأ العمل في مخلوقاته، الساعة العاشـرة صباحاً خرجت إحدى السكرتيرات الجديدات من مكتبه ممزقة الثياب العلوية، مشعثة الشعر، إذ لم يكد يمد يـده إلى ملابـسها إلا وأخـذت

تصرخ بصوت عالٍ وتنتحب, فلجأ إلى العنف بناء على صورة مسبقة لديه أن المرأة تستمتع بأن تُأخذ بالعنف، فقاومت وشعرت أنها ستصل إلى حافة الجنون أمام قوته الجسدية، فهي لم تمارس بعد الجنس في حياتها كلها، فكيف بالاغتصاب. أستغرب المدير بهلول كيف رفضته، بل وقاومته بحيث كادت أن تخدش وجهه وصلعته، يبدو أن خبر جمالية عضوه المنتصب والقاسي لم تنتشر بالكفاية في المؤسسة. الرجل الموثوق به جداً هددها بالأعظم إذا تحدثت بشيء عما حدث، وطلب منها الصمت والجلوس في مكتبها وإغلاق الباب.

اليوم الرابع، الثلاثاء، السكرتيرة الثانية قفزت مرعوبة من النافذة، انتهت مشلولة غير قادرة على النطق، حدث هذا نتيجة التكتيك الجديد الذي استعمله، فقد طلبها إلى المكتب، دخلت فوجدت رجلاً عارياً متمدداً على الأريكة، كان قد بذل مجهوداً كبيراً لينتصب عضوه، ارتعبت الصبية الصغيرة بشكل غير طبيعي مما تشاهده، كان آخر عضو ذكري قد شاهدته في حياتها هو عضو أخيها الصغير عندما كان عمرها ثماني سنوات، ولكنها هنا شاهدت ديناصوراً حقيقياً، غير الذي كانت تراه في أفلام الرسوم المتحركة، هربت، وعندما وقف بينها وبين الباب لم تجد إلا النافذة فقفزت منها، وحدث ما حدث.

اليوم الخامس، الأربعاء، السكرتيرة الثالثة كانت قوية وشرسة بطريقة غير معقولة، ما إن اقترب منها المدير بهلول حتى انهالت عليه بالصفعات بكل قوتها، وخرمشت وجهه بأظافرها الطويلة، وأوقعت نظارته على الأرض فانكسرت، وذلك قبل أن تصل يده إلى قميصها. فتحت الأبواب والنوافذ وصرخت بأعلى ما لديها من صوت وعويل "سأفضحك أمام جميع الموظفين، ستصل حكايتك الحقيرة إلى كل المسؤولين، من أنت حتى تجرؤ على لمسي، ألا تعرف من أنا، عمي سيحاسبك".

لم تنجح هنا لفلفة الموضوع رغم إرهاب الموثوق به جداً، إذ لحقه التهديد الجدي أيضا بعد ما عرفت أنهم دسوا لها سريعاً منشورات إباحية في مكتبها، بل وأدخلوا صوراً إباحية إلى حاسوبها الشخصي. حاولت مجموعة العضلات المفتولة والعقول المحلولة أن تنشر خبراً بأنها هي من حاولت التحرش بالمدير، وعندما رفضها حاولت أن تعمل فضيحة. لم تخف، وصلت ولولتها إلى عمها مباشرة على جهاز الهاتف، عمها ليس مسؤولاً كبيراً في جهاز الاستقرار فقط، بل إن عائلتها من العائلات القليلة التي يُحسب حسابها في البلد، أصبحت كرامة العائلة في الميزان، وتحولت المسألة إلى قضية وطنية، تمس الأمن الوطني والشرف الوطني. العائلة لا تسمح لأحد أن يلمس بناتها إلا إذا كان مثلهم، ابن عائلة وطنية محترمة، عدا أنه يجب أن يكون مسؤولاً كبيراً، لا مديراً صغيراً تسلق بالخطأ.

اليوم السادس، الخميس، انتشرت الفضائح التي بدأت تشوه وجه المؤسسة والوطن، بل بدأت التساؤلات والشكوك تتجه نحو من يقف وراء اختيار الرفيق ـ المدير بهلول. مساءً، التمت عصبة الرفاق الضيقة في اجتماعها الأسبوعي، وتداولت الأوضاع الأمنية الخاصة بها، وعلى رأسها فضائح الرفيق ـ المدير بهلول:

" هذا خطؤنا، اخترنا الرجل غير المناسب، كانت لدي شكوك منذ البداية".

" لا، ليس خطأ اختيارنا، هذا أفضل الموجود لدينا، من كان يستطيع أن يضمن مصالحنا مثله؟".

" الرفيق مضمون، وقع لنا كدسة من الأوراق، بما فيها أوراق بيضاء، من أين سنجد غبياً مثله".

" لا تسخروا منه، كثيرون منا بدؤوا مثله، وتصرفوا بفضائح أكبر، الرفيق سقط وعلينا أن ننتشله من محنته".

" ننتشله؟! ولكن لم يجرؤ أحدٌ منا على الاقتراب من العائلات الكريمة الوطنية!".

" يبدو أنه مستعجلٌ بشكل كبير، ففقد صوابه ولم يعد يميز بين ما هو وطني وما هو غير وطني، لقد أشارت التقارير سابقاً إلى أنه كان الأخير في دورته مع ضعف في عمليات الإدراك والاستيعاب بما يتعلق بالقضايا الوطنية، وبخاصة ما يمس الشرف الوطني".

"كان عليه الانتظار قليلاً، هذا الرفيق لم يعرف في حياته ميزة الصبر، كان عليه أن يصمت ويصبر وستأتيه الخيرات من كل صوب".

يدخل المعلم الكبير في المجموعة في اللحظة الحاسمة، دائماً لديه الحل، قال "أرسلوا له هالة".

انتهى الاجتماع.

تولى "أبو رعد "موضوع هالة باعتباره مشرفاً أمنياً على كل المؤسسات الثقافية، هالة من أفضل المدربات لديه على أعمال السكرتارية، وما يستتبع ذلك من مهام وطنية.

اليوم السابع، الجمعة، طلب "أبو رعد "من المدير بهلول أخذ يوم استجمام وراحة في إحدى المنتجعات الجبلية الخاصة بجهاز الاستقرار. "غداً ستسير الأمور كما ينبغي وبطريقة جيدة "أخبره.

على الرغم من السيارة الحديثة السوداء التي أصبحت تحت تصرفه الدائم، وعلى الرغم من الغرف الفاخرة المحجوزة للرفاق المدراء في هذه المنتجعات، فقد قرر المدير بهلول أن يقضي يوم الاستجمام والراحة في المؤسسة. هنا مملكته، وإن لم يمتلك زمام الأمور فيها بشكل جيد حتى الآن. ستنتظم الأمور اعتباراً من الغد في أسبوع جديد، فقد وعده "أبو رعد "بذلك. شعر المدير بهلول وكمن لديه رغبة بأن يدمر كل ما حدث في الأسبوع الماضي، ويبدأ من جديد، رغب بطوفان كبير، حريق هائل، زلزال، يجتاح كل العالم القديم الذي خلقه، ليمحي الإخفاقات التي مرت عليه فيه، وسيعيد تشكيل مزرعته، يقصد مملكته، من جديد.

يوم السبت، أول أيام الأسبوع الثاني، حضرت هالة وأصبحت السكرتيرة الأولى والرئيسية، انتظم سير الأعمال، إذ أخذت تسيطر عليها بشكل جيد وتديرها بمهارة ورشاقة وإتقان.

مر يوم العمل الأول بسرعة، بعد الظهر ذهب الموظفون وأصبحت المؤسسة فارغة. دخلت هالة إلى مكتب المدير بهلول بثقة، قالت له مباشرة "اليوم الوضع الأول، سنمارسه وجهاً لوجه، ولكن بشرط، ستوظف أختي في المؤسسة". مارسا الوضع الأول، طار صوابه من المتعة، ذاق الطعم أخيراً بطريقة مختلفة، يبدو أن الأمور في المؤسسة ستسير بشكل طبيعي وستنجح أسطورة عضوه الكبير. أبعد من ذاكرته زوجته العجوز البشعة، واليابسة، والمريضة، والوسخة، لتذهب مع الطوفان أو الحريق أو الزلزال إلى الأبد.

يوم الأحد، ثاني أيام الأسبوع الثاني، حضرت الأخت إلى المؤسسة مع صندوقين من التفاح الأحمر الفاخر هدية شخصية للمدير، واستلمت الشؤون الإدارية فيها. بعد الظهر قالت هالة للمدير بهلول "اليوم سنغير الوضع سنمارسه جانبياً وستعانقني من الخلف، ولكن بشرط! ستوظف أخي في المؤسسة". امتلأ رأسه بالأحاسيس الجديدة من الوضع الجديد، دائماً يحب المؤخرات، ليس فقط ملامستها والاحتكاك بها، بل وأيضاً تأملها، فهي تعطيه إيحاءات شاعرية. سيطلب منها في الغد إعادة هذا الوضع.

يوم الاثنين، ثالث أيام الأسبوع الثاني، حضر الأخ إلى المؤسسة مع صندوقين من البرتقال الممتاز، واستلم إدارة الشؤون المالية. بعد الظهر قالت هالة للمدير بهلول "عرفت البارحة أنك تستمتع بالاحتكاك بالمؤخرة، ولكن سنجري اليوم تنويعاً على الوضع لزيادة المتعة، ستأخذني على الركّب، ولكن بشرط أن توظف في المؤسسة ابن عمتي وابن خالتي". المدير بهلول يحب دائماً هذا الوضع، لكن زوجته ترفضه دائماً، تخاف أن يخطئ مكان الدخول، وتقول له أيضاً

إنها بهذا الوضع تشعر بنفسها مثل الحيوانات، وخاصة الكلاب. وعلى العكس منها فإن السكرتيرة هالة تفهمت رغباته العميقة في اكتشاف آفاق وفتوحات جديدة، فهي صاحبة خيال واسع.

يوم الثلاثاء، رابع أيام الأسبوع الثاني، حضر ابن العمة وابن الخالة مع أربعة عناقيد من الموز الصومالي الكبير الحجم، واستلموا إدارة التخطيط. بعد الظهر قالت هالة للمدير بهلول "بدأت أشعر بالود نحوك، أريد أن أجلس اليوم في حضنك وأنظر في عينيك، وبعدها تنقلب على ظهرك، فعدا أن هذا الوضع مليء بالإثارة فسأقوم أنا بقيادة العملية وسأجعلك ترتاح اليوم، ولكن بشرط أن توظف ابن الجيران وابنة الجيران في المؤسسة، مساكين سيتزوجون حديثاً وهم يبنون حياتهم من الصفر". جاءته النشوة وهو متمدد ومرتاح، أثاره جمال الجسد العاري الساقط عليه، ورأى في عينيها كل أولاد الجيران، وود لو يوظفهم كلهم في مزرعته كرمى لهاتين العينين.

يوم الأربعاء، خامس أيام الأسبوع الثاني، جاء أولاد الجيران مع أربعة صناديق فستق حلبي، أصبحت هالة تفكر بالمقويات والمنشطات، واستلموا إدارة الشؤون التجارية. بعد الظهر قالت للمدير بهلول "أرى أنك بدأت تشعر بالملل من هذه الأوضاع.....". قاطعها بسرعة وقد ظن أن اليوم لا ممارسة جنسية وإنما غزل شاعري "لا لا أنا مسرور جداً، لا أشعر أبداً بالملل، لنعد الأوضاع من جديد". ضحكت السكرتيرة هالة بدلال وقالت "لا أقصد ذلك، كل يوم سيكون مليء بالجنس، ولكن اليوم سيكون استثنائياً، سنمتص الرحيق من بعضنا على الطريقة الفرنسية وبالوضع المشهور 69، ولكن بشرط أن توظف بعض أصدقاء الطفولة من المدرسة في المؤسسة". طار صوابه لا يعرف هذا الوضع إلا في الأفلام التعليمية الجنسية من أجل التنويع وزيادة الرغبة، لو ذكر ذلك مجرد ذكر أمام زوجته لطردته من البيت مباشرة. اليوم تنوعت الأحاسيس وتعمقت.

يوم الخميس، سادس أيام الأسبوع الثاني، جاء أصدقاء الطفولة مع ثماني صناديق من الفريز ليتذكر طعم الامتصاص، واستلموا إدارة الشؤون الفنية. بعد الظهر فكر الرفيق بهلول بأن جميع الأوضاع المناسبة للمكتب قد انتهت، ولن يكون لديها شيء جديد، ولكنها السكرتيرة هالة فاجأته اليوم "اليوم سنمارس شيئاً غير طبيعي، من الخلف، وهو مناسب جداً لإطفاء الشهوة دون الخوف من حدوث حمل، ولكن بشرط أن توظف خالتي وعمتي في المؤسسة". فوجئ بالوضع غير الطبيعي، تذكر أنه ذات مرة ما أن ألمح إلى شيء من هذا أمام زوجته، مجرد تلميح دون أن يجرؤ بالتمادي، حتى كادت أن تتقيأ، وذكرته بكل تحريمات الشيوخ وفتاويهم حول ذلك الموضع القذر. هالة ستجعله يكتشف معها المجهول، مارس هذا الوضع وشعر بقدرته على إهانة زوجته والفتيات الثلاثة اللواتي عملن فضيحة مجلجلة في المؤسسة وكدن يودين بمنصبه، بل وإهانة كل النساء اللواتي اشتهاهن ولم يستطع الوصول إليهن.

يوم الجمعة، سابع أيام الأسبوع الثاني، اليوم عطلة، الخالة والعمة سيحضرن غداً ويستلمن إدارة المعلوماتية، ومع أنهن متقدمات في العمر قليلاً سيجلسن هادئتين، ولن يزعجن أحداً وسيتركن الموظفين يمارسون أعمالهم وحدهم بشكل طبيعي، لكن بالرغم من أن هذا اليوم عطلة فقد وصلت عدة علب من العسل الجبلي المغذي والمنشط. اليوم المؤسسة فارغة، فكر بأن الأوضاع وكل أشكال المجون انتهت لدى هالة، سيشعر بالأسف أن يوم الجمعة هو يوم عطلة وراحة. دائماً هو رجل نشيط وحيوي ويكره أيام العطل، كان دائماً يتفرغ في مثل هذا اليوم لصياغة تقرير أمني متكامل عن كل أيام الأسبوع السابق، فهو يحب العمل. ولكن هناك مفاجأة جميلة من عيار ثقيل تنتظره في هذا اليوم، فقد شاهد هالة قد دخلت مع..... "صديقة طفولتي الحميمة، ستشاركنا اليوم الحفلة من أجل التنويع، ولكن بشرط، فجدي وجدتي يشعران بالملل في البيت،

سنجد لهما مكاناً مناسباً في المؤسسة، أليس كذلك؟". نظر إلى صديقتها الحميمة وقال "نعم، سنجد لهم بالتأكيد مكاناً في المؤسسة، فبالنسبة إلى عمرهما وعدم قدرتهما على الحركة، فسنعطيهم مديرية جانبية هامشية لن تتعبهم أبداً، سنسلمهم مديرية المتابعات الثقافية". ما أمتع صديقتها الحميمة، في الجماعة اتحاد وقوة، أخذ يتقلب من واحدة إلى أخرى دون شعور بالتعب أو الملل، وأجرين له امتحاناً بأوضاع الأسبوع كافةً، نجح، نجح بخلق عالمه الجديد، وسيصبح أسطورة نبيلة في عبقرية الجنس والعمل.

يوم السبت، بدأت الحياة تدب في المؤسسة، حضرت عائلة السكرتيرة هالة وأقاربها ومعارفها، ومعهم صناديق ويسكي مهرب. انتظمت أخيراً أمور العمل، بدأ المدير بهلول يسيطر على الأمور، وستشهد الأيام القادمة نجاحاته داخل المؤسسة وخارجها. السكرتيرة هالة مهمة وأساسية، فتحت طريق النجاح أمامه، وسيعرف هو كيف يستمر ولكن دون أن يتخلى عنها.

ومن أجل التغطية على نجاحاته وفتوحاته الاجتماعية والوطنية داخل المؤسسة وخارجها، والتي يمكن أن يفسرها بعض سيئي النية تفسيراً خاطئاً، قرر أن يبني لنفسه صورة أخلاقية مميزة، وبما أن المد الديني الشعبي هو السائد الآن في الشارع فلتكن له صورة أخلاقية لرجل متدين يمارس الطقوس في المسجد. وبهذا المظهر سيضرب عصفورين بحجر واحد، سيقنع أولاً جهاز الاستقرار أنه سيكون عيناً على المتدينين الذين سيقبلونه احتراماً لمنصبه، وهو ما سر "أبو رعد "مشترطاً عليه كتابة تقرير أسبوعي عن ملاحظاته في هذا الانخراط الديني، وسيضمن هو ثانيةً مستقبله في حال تغيرت الأوضاع باتجاه هذا المد بمظاهر الالتزام الديني وتمتين علاقات مؤسسته مع ما يُسمون بالمتدينين المعتدلين، الذين سيلعبون دوراً مهماً في المستقبل القريب إذا صحت توقعاته.

قرر المواظبة على حضور الاحتفالات والمناسبات الدينية في المسجد الرئيسي في المدينة، مع التركيز على نهار الجمعة، سيجلس في الصف الرابع أو الخامس بين المصلين، في المكان المناسب لموقعه في إدارة الدولة، وسيحاول أن يجلس وراء أحد المسؤولين المهمين بحيث تظهر صورته معه أمام كاميرات التلفزيون، التي أصبحت تبث فضائياً وبشكل مباشر إلى جميع أنحاء العالم. وما أن يشعر بالكاميرة تتوجه إليه، يقصد إليه هو والمسؤول، فإنه سيطرق برأسه إلى الأرض بخشوع، وستأخذه حالة من الذهول والانشداه الإيماني، وسيتمتم بشفاهه شيئاً ما وكأن قلبه عامر بالإيمان.

ومن الأفضل عند وجود خطبة طويلة ويشعر بالملل منها أن يمسك بيديه سُبحة، يَعدُ من خلال حباتها عدد المرات التي نام فيها مع السكرتيرة هالة، أو عدد الفتيات في المؤسسة اللواتي يرغب بمضاجعتهن ـ وأعجبته كلمة مضاجعة، فهي إحدى المرادفات الدينية المناسبة لكلمة النكاح في الأجواء الدينية ـ. وفي أثناء ذلك سيغمض عينيه ويحلم بليلة ماجنة بمزرعة فيها بركة سباحة، وبذلك ستمر الخطبة الطويلة المملة التي سيلقيها أحد الجهلة، غير المهيئين في دورات الإعداد الوطني. ولكن المشكلة التي لن يستطيع التغلب عليها هي في السير على السجاد بدون حذاء، إذ سيذكره ذلك بالسجادة الفاخرة ذات الوبر الناعم في مكتبه التي تثير لديه إيحاءات مميزة بدغدغاتها، وخاصة بعد ما سره تغيير الأوضاع مع هالة من الأريكة إلى السجادة.

ومن أجل تطوير العلاقات الثقافية الخارجية وتمتينها بين مؤسسته والمؤسسات المماثلة في الدول الأخرى عليه أن يسافر، ولكن السفر باتجاه الغرب يتطلب منه معرفة لغة أجنبية، وهو لا يتذكر أية كلمة من هذه الطلاسم منذ أيام المدرسة، فقد كانت علاماته دائماً متدنية في اللغة الأجنبية أكثر من المواد الأخرى. ومع ذلك فقد نجح بكل المواد بسهولة، فقد كان ذكياً وبارعاً في كتابة القصاصات الورقية

التي يخفيها بمهارة بين ملابسه للاستفادة منها في الامتحانات، وإذا ما تم كشفه متلبساً بها فقد كان ببساطة يبتلعها، فلا يبقى أي دليل عليه.

المهم نجح وحصل على شهادة الثانوية العامة بشطارته، ولكن علاماته لم تؤهله للدخول إلى الجامعة، فاستعاض عن ذلك بدورات الإعداد الوطني، التي لم تغطِّ لديه فجوة اللغة الأجنبية. إذاً لن يتجه إلى الغرب، ليس فقط بسبب عدم معرفة لغة أجنبية، بل وبسبب الإحراج أيضاَ إذا ما طُلب منه إلقاء محاضرة عن الوضع الثقافي في بلده، وهو فخ شرحه له ذات مرة "أبو رعد "بأنه لا ثقافة ولا هم يحزنون، فما يطلبونه هو محاضرة عن الوضع الأمني في البلد. على كل الأحوال هو غير مهيأ لمثل هذه التفاهات، فالمحاضرات الثقافية هي من عمل الخبراء ذوي الدرجة العاشرة في التسلسل الإداري، بينما هو متخصص بالإدارة الإستراتيجية، وبما فيها إدارة هؤلاء الخبراء، مع تميز خاص بالإدارة الإستراتيجية الأمنية. ولكن في الغرب لهم معايير مغايرة، لا يفهم لماذا مطلوب من المدير الذي يزور الغرب أن يتحدث عن الأمور الثقافية في بلاده، في حين عندما يزور الغربيون بلادنا لا يتحدث منهم إلا العسكري أو رجل المخابرات، وعن كل شيء.

قرر المدير بهلول أن يتجه إلى بلاد الصحراء بدلاً من الغرب، فقد سمع أن العلاقات الثقافية تتمتن هناك على مناسف الرز واللحم، وهي أطعمة لا تحتاج إلى تعقيدات وبروتوكولات، فهم يأكلونها برؤوس الأصابع بدلاً من أتيكيت السكينة والشوكة. والعلاقات الثقافية لا تحتاج هناك إلى أكثر من تبويس اللحى والشوارب، وهي أمور لا تحتاج إلى خبرة وكثير من المعرفة والتدريب، بل وسمع أنهم لايزالون يوزعون هناك الدنانير على طريقة الخلفاء والأمراء الموثقة في كتب نوادر العرب الشهيرة.

وفكر بالمدراء الأغبياء الذين يأخذون زوجاتهم معهم إلى بلاد

الصحراء، مجانين، يأخذون مصائبهم معهم، لكن البعض أسر له أنهم يأخذوهُنَّ معهم لأجل تسهيل الأمور وتمتين العلاقات الشخصية العائلية. أما هو فستخجله زوجته ببشاعتها وتصرفاتها الفاقدة للأنوثة، وسيأخذ بدلاً منها السكرتيرة هالة. ستُرَوح عنه هناك بعض الوقت، وقد تروح عن بعض المضيفين له إذا دعت الضرورة، فهي تمتلك من مؤهلات الأنوثة وفنون إغرائها مما يجعلها قادرة على تمتين العلاقات الشخصية بينه وبينهم. ومن المهم تمتينها معهم بشكل جيد، فمن يعرف ماذا سيحدث في المستقبل، وخاصة مع هذا الاتجاه الأهوج في سياسة البلد نحو بلدان أخرى ليس لديها لا ذهب أسود ولا ذهب أصفر، وإنما تجلب المصائب معها في محاولتها مجابهة قوى عظمى.

وبما أن الأمور استقرت في المؤسسة منذ بداية الأسبوع الثالث، فقد قرر أخيراً استقبال الوفود المهنئة بشكل رسمي، فهناك بروتوكولات يجب احترامها وعدم التهرب منها، ثم ستكون هذه فرصة استعراضية لإظهار عظمته حيث سيتسابق الجميع إلى ما يشبه تقبيل يده، هكذا فكَر.

طلب السكرتيرة الثانية، السمينة والعجوز والمفروضة عليه من أصدقاء يهمه استمرار العلاقة معهم، وكلفها بتنظيم المواعيد، وهو لا يريد منها أكثر من هذا. يقولون في المؤسسة إن لديها خبرة جيدة في العمل الإداري، قال لنفسه، لنكلفها وسنرى النتائج، مادامت السكرتيرة هالة تحل كل الأمور التقنية.

شرحت السكرتيرة الثانية للمدير بهلول أن الوفود التي تريد تهنئته تمثل الفعاليات الثقافية في البلد، وهي ترغب في الوقت نفسه بعرض المشاكل التي يعاني منها الأعضاء في التعامل مع المؤسسات الثقافية، ومنها مؤسسته. وعندما سألها عن الوفود بدأت بذكر قائمة طويلة، اتحاد الأدباء، رابطة الفنانين التشكيليين، اتحاد المصورين الفوتوغرافيين، تجمع الفلاسفة، نادي السينمائيين الطليعيين، اتحاد

الفرق الموسيقية، جمعية الفنون والحرف الفلكلورية، اتحاد غرف التجارة والصناعة، وفد الإرشاد الديني..... صرخ بها بنزق أن تتوقف.

توقفت السكرتيرة الثانية منزعجة مستغربة، فهي لم تعتد على مثل هذه المعاملة، الجميع يحترمها لخبرتها بغض النظر عن غياب الأنوثة لديها، تشجعت وأجابت "هذه الفعاليات الثقافية لها علاقات وطيدة بتوجهات المؤسسة، ومن وظائف المدير مقابلتهم والاستماع إليهم".

رد حاسماً الموقف "إذاً وزعيهم على ثلاثة أيام".

أجابت بسرعة "حتى الآن يوجد تسعة وفود، وقليل عليهم ثلاثة أيام، أقترح أن تقابل كل يوم وفداً لمدة ساعة، حتى تعطيهم انطباعاً إيجابياً عن مقدار الاهتمام بمشاكلهم".

ثارت ثائرته وهو يفكر باستنزاف وقته في مقابلات هامشية وجانبية "لا تقدمي نصائح سخيفة في المرة الثانية"، ثم أردف قائلاً بعد دقيقة صمت "ورغم ذلك سأطبق نصيحتك جزئياً، ضعي في اليوم الثاني موعد استقبال اتحاد غرف التجارة والصناعة، لنا مصالح مهمة مع بعض أعضائها، وسأقابل في اليوم الثالث وفد الإرشاد الديني، فهم خطرون جداً، لهم تواجد في السلطة والشارع، وبهذه الطريقة نستطيع أن نجمع بقية الوفود غير المهمة في اليوم الأول وننتهي منها بسرعة".

لم تعد السكرتيرة الثانية تجرؤ على الاعتراض وإبداء الرأي، ولكنها تمتمت "سبع وفود في يوم واحد!".

سمعها، فأكد "نعم في يوم واحد، وكلهم في ساعة واحدة".

انسحبت السكرتيرة الثانية، قررت الخروج، لكنها ترددت قليلاً، أرادت قول شيء ولكنها لم تجرؤ، شعر بأن لديها شيئاً مهماً يمكن أن يستفيد منه، فسألها "هل هناك شيء آخر؟".

تشجعت وقالت "الرفوف في المكتب هنا فارغة، طاولة المكتب هي أيضاً فارغة، لا يوجد أي كتاب يعطي الانطباع أنك متابع للأمور الثقافية حسب توجهات المؤسسة التي تديرونها، أو على الأقل أنك متابع لمنشورات دورات الإعداد الوطني".

فكر بأن ما تقوله صحيح، لا يتذكر آخر كتاب قرأه، ربما كان من كتب الشهادة الثانوية العامة قبل تقديم الفحوص الرسمية منذ خمسة وعشرين عاماً على الأقل، أما منشورات دورات الإعداد الوطني فهي كتيبات لم يكن يفهم شيئاً من مصطلحاتها السياسية المعقدة ولغتها الفارغة، ولم يكن ليجرؤ على نقدها. والمنشورات الجنسية التي كان يقلبها في فيلا مديره السابق ليست كتباً، هي مجرد صور ملونة تثير الخيال والرغبات الجنسية المقموعة في الداخل. سألها "ماذا تقترحين؟".

سُرت أنه اضطر أن يأخذ برأيها أخيراً، أجابت "نشتري مجموعة من الكتب، ونضعها على الطاولة من أجل المظاهر".

رد موافقاً "اطلبي من المحاسبة مبلغاً للمصاريف النثرية، اشتريها أنت بنفسك".

سألته من جديد "هل ترغب أن نشتري كتباً بمواضيع محددة؟".

فاجأه السؤال، أجاب "نعم، اختاري كتباً مختلفة ومتنوعة، مثلاً عن المسابح وتربية الأسماك، التدليك وتخفيف الوزن، الأزياء والطبخ، كتب فكاهية..... قرري أنت واختاري. ولا تنسي أن تختاري مجموعة روايات بوليسية مترجمة عن اللغة الأمريكية، فالعصر الآن عصر القوة والغطرسة الأمريكية، وهو ما يعني السيطرة".

وقبل أن تصل السكرتيرة الثانية إلى الباب، استدرك متذكراً "ومجموعة من الكتب الدينية التي تحض على مكارم الأخلاق".

خرجت بسرعة وهي تغالب ضحكتها، مكارم الأخلاق! لا تدري أين سمعت هذه العبارة آخر مرة.

مساءً كان المدير بهلول في نهاية جلسة حميمية مع السكرتيرة هالة، قرعت السكرتيرة الثانية الباب وأدخلت الكتب، نهض وجلس خلف المكتب حافي القدمين بقميص مفكوك الأزرار، في حين بقيت السكرتيرة هالة متمددة على الأريكة بنصف ملابسها. شرعت السكرتيرة الثانية بترتيب الكتب بحماس على الطاولة، توزعت عليها حسب الأشكال والأحجام والألوان، أعجبه منظرها وقد تكومت في مجموعات متناسقة من الأكبر إلى الأصغر وبألوان متناسقة، أعجبه ذوق السكرتيرة الثانية باختياراتها لأشكال الكتب وطريقة ترتيبها على الطاولة.

فتح أحد الكتب الضخمة "عالم الأسماك الغريب"، صفحات مصقولة، ألوان جذابة، أشكال غريبة من أسماك الزينة، ستشتري المؤسسة عدة أحواض منها، واحد خاص لمكتبه، سيعطيه جواً شاعرياً.

فتح كتاباً آخر "عالم المأكولات الشرقية للشيف أيمن"، صور المأكولات الملونة أجمل مما هي في الواقع، تثير الشهية للطعام، لماذا لا يضعون فصلاً خاصاً للأطعمة المثيرة للشهوة الجنسية؟

اختار كتاباً ثالثاً "عالم الأزياء الحالمة"، لم يعجبه كثيراً، ولكن من الجيد أن هذه السكرتيرة قد اختارت كتاباً محتشماً، ففيه قسم لأزياء النساء المحجبات، سيعطي هذا عنه انطباعاً أخلاقياً جيداً، قال هذا لنفسه ونظر إلى السكرتيرة هالة المتمددة نصف عارية على الأريكة، وهي تراقب المشهد أمامها بملل واضح.

نظر إلى مجموعة من الكتب بأغلفة عتيقة دون أية جمالية لا في الأشكال ولا في الألوان، أجابت السكرتيرة بسرعة "كتب دينية، لا تقلبها ليس فيها صور".

رد بسرعة "لنتركها مؤقتاً ريثما ننتهي من لقاء وفد الإرشاد الديني، ثم أعطيها للبواب ذي اللحية".

" هذا الشاب ليس متديناً، لديه لحية على الموضة".

" إذاً ارميها في سلة المهملات عندما ننتهي منها".

ثم نظر إلى مجموعة من الكتب ذات الحجم المتوسط والورق الأصفر، أزعجه منظرها "وما هذه؟".

" لا أعرف، قلت لبائع المكتبة وأنا أشتري الكتب أنني أرغب بروايات أمريكية..... بناء على طلبكم".

" خذيها مني وضعيها جانباً، سترضي وفود المثقفين، ثم سترفعينها بعد مقابلتهم".

تناولت مجموعة الكتب الأخيرة من يده، سقط منها كتاب على الأرض بين قدميه، انفتح علىٍ الصفحة 184، تلمح عيناه مصادفة كلمات غريبة، يتمعن بها قليلاً، كلمات إباحية يرددها الزعران في الشوارع وهم يتنازعون، كما يتلذذ كثير من الرجال بلفظها في غرف النوم عندما يمارسون الجنس مع غير زوجاتهم. ينحني كالمذهول، يرفع الكتاب، ينهض وعيناه لا تفارق الصفحة، ما هذه النصوص المثيرة والجريئة، يقرأ، يقلب الصفحات، نصوص أخرى في الصفحات 193، 219، تزداد الإثارة أكثر اعتباراً من الصفحة 259.

الكلمات الإباحية في هذه النصوص تثيره، انتصابات متتالية، سوائل رطبة بين الفخذين، مداعبات فموية، أصابع تقتحم الفروج الواسعة. وتتنوع فيها الممارسات، مع أستاذة الموسيقى في العراء على العشب قرب سكة القطار، السباحة مع فتاتين عاريتين في النهر كالدلافين، تعقبها ممارسة في النهر، أين؟ من الخلف وهم متعلقتين بالقارب، تناوبْ ممارسة الجنس مع من؟ أختين، وفي السرير نفسه، جنس مع مراهقات، وسيدات منازل، وعاهرات. يشعر المدير بهلول بانتصاب شديد يداهمه، لم يحدث له هذا عندما كان يشاهد المنشورات الجنسية، هنا يشتعل الخيال، تثيره الكلمات الإباحية والمواقف الحية المفعمة بالحيوية.

يشير للسكرتيرة الثانية بالخروج من المكتب بطرف إصبعه دون أن يرفع نظره عن الكتاب وسط ذهول السكرتيرة هالة، يتابع القراءة وهو يتجه نحوها، مداعبات وممارسات جنسية في كابينة الهاتف، في زوايا الشارع، في عتمة الشرفات بين الأصدقاء، على أبواب المنازل، على الواقف وفي الأحضان، بالملابس ودون ملابس، في السر والعلن، عالم مهووس بالجنس، نساء ورجال لا يملون ولا يتعبون. يصبح قرب السكرتيرة هالة، ولا يرفع نظره عن الكتاب، ينبطح فوقها ويخترقها بعنف يفاجئها، ولا يرفع نظره عن الكتاب، تستغرب وقد شعرت بانتصاب عضوه عميقاً فيها. أبدت تجاوباً اصطناعياً، فهي معتادة على الممارسة الآلية مع قدرة قوية على التظاهر بالاستمتاع، ولكنها تساءلت عن هذا الكتاب الذي أثاره إلى هذه الدرجة، وكيف ستستفيد منه. واستطاعت في ذروة جنونه وانتشائه أن تقرأ العنوان المهتز بين يديه "مدار الجدي "لهنري ميللر، إذاً هذا هو الأدب الأمريكي الذي يبحث عنه.

سر السكرتيرة هالة أن كتاباً قد جدد النشاط الجنسي للمدير بهلول، وهذا معناه أنها ستطلب منه توظيف أهالي بلدتها الصغيرة كلهم في المؤسسة، وإذا وجدت كتاباً آخر فستؤمن وظائف لأهل البلدة المجاورة أيضاً. ولذلك ما أن انتهى منتشياً وقد أبدت جنوناً اصطناعياً مناسباً لهياجه، ومن ثم ارتمى منهكاً على الأريكة في إغفاءة طويلة، حتى نهضت وأخذت الكتاب، بحثت عن النصوص الإباحية المثيرة فيه، وكلما وجدت صفحة مثيرة تثني رأسها من الأعلى كعلامة لتجعلها في متناول يده، وهكذا ستسهل إثارته، وبالتالي إيجاد وظائف جديدة لأبناء منطقتها.

ثم نظرت بين مجموعة الكتب المهترئة، ربما هناك روايات أخرى لهنري ميللر! وجدتها، "ربيع أسود"، "مدار السرطان"، "عملاق ماروسي". أخذت تثني أطراف الصفحات المثيرة من الأعلى، لتجعلها كلها في متناول يده مساءً، رتبت الكتب الأربعة

لهنري ميللر في أعلى المجموعة، سيجدد نشاطه بها دائماً، وهي ستنصف بها أهل منطقتها المرميين في السهول الجرداء والمحرومين من العمل في مثل هذه المؤسسات الراقية، بعد أن كانت المراكز فيها محصورة بأبناء العاصمة حيث ينتمي المدير السابق. ولن يبخل عليها أبناء منطقتها بصناديق التفاح، والبرتقال، والموز، والفريز، والفستق الحلبي، والعسل، والويسكي المهرب.

ترتبت الكتب على طاولة المكتب بشكل استعراضي لاستقبال الوفود، أتى اليوم الأول، جاءت وفود المثقفين المهنئة، دخلوا كلهم دفعة واحدة حسب الموعد، فامتلأت بهم الكراسي والأرائك والطاولات، احتلوا زوايا المكتب وأطرافه، جلسوا على السجادة الفاخرة، لم يعد هناك مكان، تدافعوا حتى كادوا يركبوا أكتاف بعضهم. بدأ الحديث وتعالت الأصوات، أنصت، سمع، لم يفهم ما كانوا يقولونه على الرغم من أن الكلام كان موجهاً كله بالكامل إليه، مصطلحات جديدة، غريبة ومعقدة، لم يذكرها له أحد في دورات الإعداد الوطني:

الكلاسيكية، الرومانسية، الانطباعية، السريالية، التعبيرية، التكعيبية، الوحشية، الدادائية، الإنسانوية، الواقعية، الوضعية، البنيوية، التكوينية، الكرنفالية، السيميائية، التاريخانية، البطريركية، الشيزوفرينيا، الذرائعية، الزمكانية، الغنوصية، الوجودية، الباطنية، الميتافيزيقية، الميكانيكية، السوفسطائية، الأيقونية، الأوليغرشية، السيكوباتية، النوراستينيا، الإنثروبولوجيا، المستقبلية.

ترادفت الكلمات، وانتظمت في صفوف، ثم بدأت هجومها وانتشرت في فضاء المكتب، بدأت تدور في الهواء وكأنها تتماوج مع رقصة المولوية وموسيقاها، دارت فوق الرؤوس ورقصت، لتتجه كلها إلى هدفها المدير بهلول، حاصرته، دخلت إلى رأسه من أذنيه وأنفه وفمه، تسللت إلى جيوب بذلته، تسربت إلى ما تحت ملابسه الداخلية، وتشربها جسده عبر مسامات الجلد. شعر بأن دماغه

سينفجر، وأن شرايينه ستتقطع، وأن الدم سينفر من كل فتحات جسده، العلوية والسفلية. ومازال يأتيه المزيد من الكلمات، وتتدافع لتنصب عليه، ليس له إلا أن يهرب، نهض، نهضت معه الكلمات وحاصرته أكثر، تلاحقه أينما يتحرك، إلى أين سيهرب ولا يوجد حتى ممر صغير إلى الباب من شدة الزحام، اتجه إلى النافذة وقفز منها، فطارت وراءه، هرب إلى سيارته فتسللت إليها قبل أن يغلق النوافذ والأبواب. طار إلى البيت، خلع ملابسه، وجد أن قسماً كبيراً من الكلمات يعشش في شعر جسده، ولكن الأخطر تلك المجموعة التي تغلي في دمه. خافت زوجته من حركاته الهستيرية وهو يحاول أن ينزع الكلمات عن جسده، فهربت من الغرفة، ذهب إلى الحمام، وقف تحت الدوش طويلاً، لم تتحسن حالته إذ إنه لم يتخلص منها، أعطته زوجته بعض المسكنات الدوائية، لم تنفع، اتصلت بإخوته، حضروا بسرعة، قرروا نقله إلى المستشفى.

استنفرت المستشفى، فالمدير بهلول أصبح من الأشخاص المهمين في إدارات الدولة، تم إجراء الفحوصات السريعة، تبين أن شيئاً غريباً قد تسرب إلى دمه، وهو يجول في كل أنحاء جسده، وهذا ما يسبب الحركات الهستيرية. النتيجة تسمم في الدم نتيجة دخول أجسام غريبة لا تتناسب مع طبيعة جسده وتركيبته البيولوجية وتطور وعيه النفسي، قرر الأطباء بسرعة تغيير دمه. وبمقدار ما كان يتم تغيير الدم ويتخلص من الكلمات التي تجري فيه، أي من الأجسام الغريبة، كانت الحركات الهستيرية تختفي شيئاً فشيئاً.

في الصباح استيقظ معافى، نهض وقرر الذهاب إلى المؤسسة على الرغم من أن الأطباء طلبوا منه البقاء تحت المراقبة عدة أيام، رفض، فهو الوحيد الذي يعرف سبب حركاته الهستيرية. وبمجرد تذكر لقاء البارحة مع المثقفين كاد صداع يهاجمه، أقسم بأغلظ الأيمان بأنه لن يقابل بعد الآن مثقفاً، أو فناناً، أو أي شخص يحب قراءة الكتب، بل وسيحاربهم، ولو استطاع لأزالهم من الوجود،

ولجعل الأجيال القادمة دون مثقفين ـ ماعدا مسؤولي دورات الإعداد الوطني ـ، ولحرق أيضاً كل الكتب الفكرية والأدبية وكل كتب الشعر والمسرحيات والروايات ـ ماعدا روايات هنري ميللر، وبالطبع كتب الأسماك والأزياء والطبخ والتدليك ـ.

وصل إلى المكتب، استقبلته السكرتيرة هالة وقد انتابها خوف شديد على حالته الجسدية والنفسية، فأهالي منطقتها يتفاءلون بالخير لوساطتها، وينتظرون انفتاح الأبواب على يدها، والجميع يعد العدة للانتقال إلى العاصمة. سألته عن أحواله، أخبرها أن أموره بخير وهو على استعداد لاستقبال وفد اتحاد غرف التجارة والصناعة، ولم ينس أن يغمز لها بإحدى عينيه ويخبرها بأن حالته الجسدية جيدة أيضاً من أجل متابعة أعمال ما بعد الظهر.

وصل وفد اتحاد غرف التجارة والصناعة، فقط ثلاثة أشخاص ببذلات أنيقة جداً، دخلوا المكتب، توجهوا إلى طاولة المدير، حيث كان يجلس مسترخياً، وعندما شاهد مظهرهم وطريقة دخولهم بسلطة ظاهرة اعتدل في جلسته، وفكر بأنه ينبغي النهوض لاستقبالهم، وفيما هو يفكر بالنهوض خاطبه أكبرهم "المدير السابق كان يحصل على عمولة 30 % من أرباح الإعلانات وحملات الترويج للبضائع المحلية والمستوردة التي يتم عرضها في المناسبات الوطنية الثقافية المرتبطة بمؤسستكم، سنرفع لكم النسبة إلى 40 %، وسنزيد أيضاً 10 % على عمولة تسهيل التعهدات والمناقصات الخاصة بأعمال المؤسسة. وستصلكم العمولات نقداً في نهاية كل شهر. وبالمناسبة ستتابع أعمال إعادة ترميم البناء، والأجهزة، والمعدات، والأثاث، والآليات، وإعادة تأهيل العاملين في المؤسسة، وفق العقد السابق وبالعمولة ذاتها، هذا عمل دوري شكلي نقوم به في كل عام، تحياتنا".

سمع المدير بهلول هذه المعلومات وبدا مذهولاً بها، وفكر بأنه

لا يجب فقط النهوض لاستقبالهم وإنما أيضاً الركض وراءهم، لم يكن يعرف أن مديره السابق يتقاضى مثل هذه العمولات، ولم يتوقع ذلك بالرغم من ارتباطه الشديد به. هل تستوجب هذه الصفقات مثل هذه الدرجة من السرية حتى كان يتم تمريرها من دون علمه؟

دار من وراء طاولته ليصافحهم، فوجئ باستدارتهم وتوجههم إلى الباب، بقيت يده معلقة بالهواء دون أن يتمكن من مصافحة أحد، فقد خرجوا بسرعة كما دخلوا، بلغوه ما يريدون وذهبوا، حتى إنهم لم يجلسوا. دخلت المستخدمة من باب جانبي وهي تحمل صينية بفناجين قهوة، فلم تجد سوى المدير واقفاً في وسط الغرفة، ماداً يده في الهواء وهو يهزها مبتسماً، خافت أن تكون قد عادت إليه حالته المرضية الهستيرية، فهربت مسرعة من الغرفة. استعاد وعيه وقال لنفسه بصوت واضح وهو يبتسم "أناس عمليون جداً، يعرفون قيمة الوقت، ويعرفون قيمتي في تسهيل الأعمال، تعجبني النسب المئوية، ولكنهم كيف عرفوا بموافقتي على الاتفاق؟".

في اليوم التالي حضر وفد من جماعات الإرشاد الديني، لحى طويلة ولحى قصيرة، ومعظمها معتنى بها ومشذبة، لفائف وعمائم على الرؤوس، ملابس من القرون الوسطى تم ارتداؤها فوق ملابس حديثة، وجوه مليئة بالابتسامات المداهنة. هذه المرة نهض مباشرة لاستقبالهم بكل ترحاب، فبنتيجة استقراءاته الخاصة للأوضاع قرر تمتين العلاقات الروحية معهم، كما كان قد اتخذ قراراً سابقاً بتمتين العلاقات الثقافية مع نخب من رجالات الصحراء، فمن يعرف ماذا سيحدث في المستقبل، يجب أن يجد ضمانات لنفسه خوفاً من التقلبات العامة في البلد، وهو لا يعرف إلى أين سينتهي المد الديني بنتائجه في السلطة وفي الشارع.

" نشاهدك على شاشات التلفزيون أيام صلاة الجمعة في المسجد، ونتمنى أن نشاهدك في كل المناسبات الدينية"، قال أحدهم.

ابتسم وتمتم بشيء ما مقلداً الشيوخ وكأنه يقرأ عبارة دينية، إلا أنه حتى لا يكون بموقف ضعيف أمامهم قرر أن يهاجمهم أيضاً "كما نتمنى أن نشاهدكم في كل المناسبات الوطنية".

قال ثاني "يجب أن تتكامل المناسبات الدينية والمناسبات الوطنية".

قال ثالث "التعاون مطلوب للقضاء على الفساد الذي استشرى في البلد، رضينا ببعض النساء دون حجاب بسبب انتماءات دينية وروحية مغايرة، لكن ذلك أخذ ينعكس على بناتنا، فالتنانير أخذت تقصر لديهن من الأعلى ومن الأسفل، ثم استبدلن ذلك بالبنطال مثل الرجال، بحيث أخذن يظهرن عورتهن الخلفية مرتسمة بكل تفاصيلها من تحته، وأصبحن يثرن رغبات الشذوذ الجنسي لدى رؤيتهن، والبنطال الآن يكاد يسقط على الأرض لأنه قصير من الأعلى ودون حزام".

قال رابع "أصبحت الفتيات تتباهى بإظهار سرة بطونهنَّ، تستطيع أن ترى الآن بيسر ألوان ملابسهن الداخلية وهن يسرن في الشارع، بل وتستطيع أن تعرف من منهن لا ترتدي ملابس داخلية".

قال خامس" يمشين كاسيات عاريات، هذا من علامات الساعة الصغرى".

فكر المدير بهلول بدقة الملاحظة لديهم، وقدرتهم على استشفاف الباطن بألوانه المختلفة، إذ لا يخفى عليهم شيء في الشارع، وكأنهم ينزلون إليه خصيصاً لرصد أية حركات تبدر فيه من النساء، سواء مشين، أو انحنين، أو قفزن.

قال سادس وقد شاهد مجموعة الكتب الدينية على طاولة المكتب "أنظروا المدير بهلول يتابع كتب التراث الديني، أحمد بن حنبل، ابن قيم الجوزية، ابن تيمية، الغزالي، السيوطي، وانظروا أيضاً كتب من فتاوى أئمة الصحراء في قضايا معاصرة، الدنيا بخير

أيها الإخوة مـادام علـى رأس المؤسـسة مثـل هـذا الـشخص المـؤمن المخلص لدينه".

ابتسم المدير بهلول في سره، لا يـدري مـن اختـار هـذه الكتـب المناسبة لمثل هذا اللقاء، السكرتيرة الثانية أم صاحب المكتبـة، ومـع أنه لم يسمع بأسماء هؤلاء الـشيوخ الأفاضـل، ولم يـرهم شخـصياً أو حتى شاهدهم على شاشـة التلفزيـون، فـسوف يبحـث لاحقـاً في أيـة مـساجد يؤمـون فيهـا المـصلين، وسيـصلي أيـام الجمـع وراءهـم بالتناوب، ماداموا على هذه الأهمية لدى مجموعات الإرشاد الـديني. سيصرف مكافأة خاصة للسكرتيرة الثانية علـى حـسن اختيارهـا، كمـا قرر بأنه لـن يـتخلص مـن هـذه الكتـب مـادام لهـا تـأثيراً كـبيراً علـى المؤمنين، وخاصة مجموعات الإرشاد الديني.

أما السابع الذي كان الأقرب إلى طاولة المكتب فقد تناول بشكل عفوي أحد الكتب الصغيرة ذات الأوراق الـصفراء، وجـد ثنيـة علـى رأس الصفحات المهمة، قـرأ الـصفحة الأولى، تمعـن، وقـف شـعر رأسه، ارتفع عن مقعده بنصف نهوض دون أن تغادر عيناه النص وهو لا يصدق عينيه. نظر إلى صفحة العنوان "مـدار الجـدي "لكاتـب كـافر اسمه هنري ميللـر، مـرر الكتـاب إلى زميلـه، الـصفحات الـتي ثنتـها السكرتيرة سهلت الوصول إلى النـصوص الإباحيـة الأساسـية. تنـاول الأخ السابع الكتاب التالي "ربيع أسود"، أيـضاً صـفحات مثنيـة، مـرر الكتـاب الجديـد لإخوتـه، مـرر أيـضاً "مـدار الـسرطان "و "عمـلاق ماروسي". انتشرت الكتب بسرعة بين أيدي الإخـوة، أخـذوا يقـرؤون النصوص، وبعضهم قرأ بـتمعن وأطـال، ثم خجـل مـن إخوتـه. عـلا اللغط والتعاويذ والاستغفارات:

" لا يجوز الجمع بين أختين، تصوروا وفي فراش واحد!".

" عراة في النهر وعلى العشب، سيشاركهم الشيطان الجماع!".

" يمارسون المحرمات والموبقات، وخاصة من الخلف!".

" كل هذه الممارسات دون عقد نكاح!".

توجهوا الآن كلهم إلى المدير بهلول الذي لم يدر كيف فلت زمام الأمور من يده:

" ما هذا يا مدير بهلول؟".

"ماذا يحدث في هذه المؤسسة؟".

" كيف تتجاور الكتب الدينية مع كتب الحرام الإباحية؟".

" هل هذه الكتب الإباحية موجودة بعلم المدير بهلول؟".

" هل توجد كتب أخرى مثلها في المؤسسة ؟ "

" من أين يتم الحصول عليها، من داخل البلد أم يتم تهريبها من خارج الحدود؟".

حدث هذا في ثوان، على المدير بهلول أن يتصرف بسرعة، ستدمر كل مشاريعه الدينية إذا لم يجد منفذاً سريعاً، ستذهب صورة المؤمن الخاشع على التلفزيون هباء، ستضيع الأوقات الثمينة التي قضاها في المسجد واضطراره إلى الاستماع لخطباء يقرؤون أوراقاً، حصلت على الموافقة من أجهزة الاستقرار، ستذهب خططه للصلاة وراء الأئمة الأفاضل أدراج الرياح، والأخطر أنه سيفقد إحدى ضمانات المستقبل إذا انقلبت الأوضاع في البلد.

وجد الفكرة الذهبية، قال "رفاقنا في جهاز الاستقرار كانوا يقومون بحملة ضد مروجي المخدرات في الأسواق بعد أن زادت نسب توزيعها، وكثر عدد المدمنين الذين يُجلبون بالقوة إلى عيادات معالجة الإدمان، على الأغلب سمعتم بذلك. وبحسهم الأمني كان لديهم شك في أن صاحب إحدى مكتبات البيع التي يرتادها الشباب يروج لمخدرات خاصة، تخدر عقول الشباب بكتب عن الشيوعية والأصولية وحب أمريكا. وعندما فتشوا المكتبة بعد أن وضعوها تحت المراقبة المستمرة أربعاً وعشرين ساعة في اليوم، وجدوا هذه الكتب لميللر. وبنتيجة التحقيقات، عرفوا أنها كتب تنشرها أمريكا الكافرة،

حسب قولكم، عن طريق بعض عملائها من الناشـرين المحلـيين، ثم يقوم بائعو المخدرات بترويجها علـى مـستوى البلـد كلـه عـن طريـق شبكة واسعة من مكتبات البيع....."،

وصمت قليلاً، وعندما لم يجد إشباعاً لفضولهم عن وصول هذه الكتب لمؤسسته، وإلى مكتبه بالذات، ودون أن ينسى حاجتـه اليوميـة إليها مع السكرتيرة هالة، اضطر للقـول "وقـد حولوهـا لنـا لدراسـتها واتخاذ الإجراءات المناسبة. وبما أنها كتب خطـيرة جـداً فقـد قـررت دراستها بنفسي، وأنتم ترون الآن نتـائج هـذه الدراسـة في الـصفحات المثنية رؤوسها".

سأل أحد أعضاء الوفد بخبث "وماذا تعني هذه النتائج؟".

أجاب المدير بهلول متهرباً "تعني أنها كتب خطيرة".

فسأل ثاني "أي ما هي الإجراءات المناسـبة لهـذه الكتـب الخطيرة ؟".

أحرجوه بالأسئلة المزعجة، فهو لم يعتـد سـابقاً إلا علـى تنفيـذ الأوامر، ومطلوب منه الآن أن يتخذ قرارات وعلى مسؤوليته، فاضطر للقول "سأقترح على جهاز الاستقرار مصادرتها من الأسواق".

أستغرب أحد أعضاء الوفد "ستقترح يا مدير بهلول ؟".

تدارك المدير بهلول القول مستدركاً بسرعة "أقصد سأطلب منهم مصادرتها من الأسواق".

ألح آخر "وإذا كانت هناك كتب أخرى؟".

" سأطلب مصادرة كل كتب هنري ميللر من الأسواق".

سأل آخر معترضاً "فقط هنري ميللر؟".

" لا، وكل كاتب ينتهي اسمه بميللر، وسأقوم بمبـادرة خاصـة مـن قبلي، سنتابع كل الكتب التي يبدأ اسم مؤلفها بحـرف المـيم، أمـريكيين وغير أمريكيين، ندرسها ونقرر مصادرتها أو إبقائها في الأسواق".

"ولكتاب عرب أيضاً؟".

" وعرب أيضاً فهم الأخطر، فكل واحد يبدأ اسمه بحرف الميم يمكن أن يروج لمخدرات إباحية من مثل هذه الكتب".

" وكيف ستترجم هذه المبادرة على أرض الواقع ؟".

لماذا يتم إحراجه إلى هذه الدرجة، تمنى لو لم يزوروه، حاصروه منذ البداية بابتساماتهم المداهنة، واكتشف أنه ليس من السهل فتح قنوات معهم والتلاعب معهم، فطلباتهم لا تنتهي، وربما سيعرضون عليه في النهاية أن يضع عمامة على رأسه، وأن يدخل في السر إحدى حلقات التدريس الديني وتقديم تقرير عما يحدث في داخل دورات الإعداد الوطني.

ضحك في سره وتخيل موقف السكرتيرة هالة وهو يمارس الجنس معها عارياً بالكامل إلا من عمامة على رأسه، بالتأكيد سيزيد من شبقها، ستتخيل أحد هؤلاء الإخوة وقد تخلى عن تحريماته وأنه سيمارس معها دون نهاية، مفجراً كل الكبت بداخله.

ذهب بعيداً بتهويماته، أيقظه صوت أحدهم وهو يعيد السؤال "كيف ستترجم هذه المبادرة على أرض الواقع يا مدير بهلول؟".

أجاب "سنؤلف لجاناً ونبدأ بدراسة الكتب التي يبدأ اسم مؤلفها بحرف الميم، ثم سنتوسع إلى الأحرف الأخرى حسب الأخطر..... وسنبلغكم النتائج، كما سنعلم الجهات المعنية باتخاذ الإجراءات الضرورية المناسبة".

ولكن أعضاء الوفد السبعة ردوا بصوت واحد "لا يا مدير بهلول، سنشارك في هذه اللجان، وسنتخذ القرارات بالإجماع".

أخيراً انتهيت من قراءة الفصل الروائي مصدوماً به، أرخى الليل سدوله ولازال التيار الكهربائي مقطوعاً وخط الهاتف معطلاً، ربما لم يستطيعوا إصلاح الكثير في هذا النهار في ظل منع التجول بعد العاصفة الغبارية المدمرة، وأنا أيضاً أخذتني قراءة الفصل الروائي،

فلم أنظف المكان، ولم يكن بالإمكان إبدال زجاج النافذة المحطم. لا شيء أستطيع فعله سوى انتظار الصباح وحيداً، دون ورد ودون هديل الحمام وزقزقة العصافير، أتمدد وأحاول النوم، وقد تناوبتني الأحلام بين ورد والعيون العسلية.

* * *

رجل الرقابة

الصباح الثاني من العاصفة الغبارية، صباح كئيب مُغبر يجعلني أشعر بالاختناق، صباح ثقيل يتسرب من النافذة التي تحطم زجاجها، ويجثم على القلب. قرع شديد على الباب ينتشلني من أعماق ليلتي الكابوسية، يندفع فجأة أربعة رجال بوجوه حجرية إلى داخل المنزل بعد أن حطموا الباب المسدود بأتربة العاصفة، أعرفهم من ملابسهم ولهجتهم، عناصر جهاز حفظ الاستقرار، يخاطبني من يبدو رئيسهم "رفيق أنت مطلوب بأقصى سرعة في المركز الثقافي، معنا تعليمات مشددة باصطحابك حالاً، السيارة تنتظرنا أمام المدخل".

ودون أي توضيح تنطلق بنا السيارة باتجاه المركز، هالني حطام ما بعد العاصفة المنتشر في الشوارع، زجاج واجهات محلات تجارية متناثر، وأغصان أشجار متكسرة أطاحت بها الرياح بعيداً، وأعمدة كهرباء معدنية ملتوية تقطعت أسلاكها، حطام مغطى بالأتربة، أينما أدرت وجهي لا أرى إلا الحطام والأتربة، حتى في الأحياء الراقية حول المركز. السيارات العابرة قليلة، معظمها لعناصر جهاز الاستقرار، تجد طريقها بصعوبة بين الحطام، المارة قليلون، يبدو أن منع التجول الذي توقعته لا يزال سارياً، حتى لا يستغل الفقراء الأوضاع الترابية بعد العاصفة، وينهبوا محلات السوبر ماركت والمجمعات التجارية الضخمة في الأحياء الراقية. وجوه المرافقين الحجرية لا تنبئ بأي شيء، لا تعطي أي إيحاء، لا تسمح حتى بالحديث معها، حجرية فقط.

أصل المركز، أرى في مدخله ازدحام سيارات شاحنة مغلقة، بحراسة عناصر جهاز حفظ الاستقرار، عمال يفرغون منها صناديق كرتونية، أنظر في واحدة منها، أجدها مكدسة بالكتب بشكل عشوائيٍ.

أدخل المركز فأجده نظيفاً مرتباً، لا أثر لمرور عاصفة غبارية في الداخل، مستخدمون منشغلون بأعمالهم اليومية، ينظفون الأرضيات والجدران الزجاجية والأدراج، المصابيح الكهربائية مضاءة تبدد عتمة الصباح المغبر، موظفة الاستقبال في المدخل ترد على الهاتف، ولكن نباتات الحديقة في الخارج تنوء بحمل أكداس من أتربة العاصفة، وكأن الحديقة اختفت. شيء ما غير طبيعي يحدث هنا في الداخل، وجوه غريبة تروح وتجيء، تتدافع وتتعارض مع حركة العمال الذين ينزلون صناديق الكتب من السيارات.

تطلب مني موظفة الاستقبال في المدخل التوجه مباشرة إلى مكتب المدير، تبدو السكرتيرة مضطربة ومنشغلة بأوراق تقرأ ما فيها وترتبها بشكل عشوائي، تدخل بها إلى المدير وتخرج مسرعة لتنظم غيرها، لم تمنحني نظرتها المريبة وابتسامتها الخفية الملغزة هذه المرة. أدخل مكتب المدير، يفاجئني وجود "أبو رعد "عنده، أراهم منشغلين أيضاً وضائعين بين الأوراق، أفهم أنهم يتحدثون عن لجان، لجان مراقبة أو شيء من هذا القبيل. ألاحظ أن مدير المركز يجلس بثقة إلى جانب زميله "أبو رعد"، وليس ذليلاً كما رأيته أمام "أبو أحمد "العملاق، إنه ندٌ له مادامًا خريجيْ دورة الإعداد الوطني نفسها.

يطلب المدير مني الجلوس، يتوجه إلي بالكلام فيما "أبو رعد "ينصت "أنت رجل وطني.......".

يصمت قليلاً وكأنه يريد أن يجد مدخلاً لإبلاغي بمعلومات محددة دون أن يفصح عن خلفياتها السرية، وأثناء ذلك تساءلت من أين جاءتني سمة وطني، فجميع هؤلاء "المناضلين "يتوجهون بها إلي عندما يريدون مخاطبتي بشيء مهم، فأنا لم أعمل شيئاً بمعاييرهم الوطنية، هم لا يعرفون أن وطني الصغير يرتسم حيث أجد العيون العسلية.

يستمر مدير المركز بالحديث، إذ يبدو أنه وجد المدخل "أنت

رجل وطني وتتفهم ما يحدث في بلدنا وفي منطقتنا بالإجمال، نحن دائماً محاصرون بالمؤامرات والدسائس بسبب مواقفنا الوطنية الصلبة، ولكن منذ يومين بدأنا نتعرض في الخفاء لهجمة إمبريالية شرسة جديدة، وبالتزامن معها أخذ العملاء في الداخل يحضرون الأجواء الملائمة لتنفيذ مخطط غربي رهيب، لا يمكن لأحد أن يتوقع إلى أين سيصل. ولكن حكمة الرفاق في جهاز حفظ الاستقرار والمدراء في المؤسسات الثقافية وتوقعاتهم، وعلى رأسهم المعلم "أبو أحمد "العملاق والمدير بهلول، سهلت كشف المخطط منذ بدايته، واستطاعوا فضح دوائره الداخلية من العملاء، وهم الآن يتخذون الإجراءات اللازمة لمحاصرته وتدميره، ولنا الشرف أن مركزنا قد أصبح أحد المواقع القيادية لصد هذه الهجمة الشرسة".

لم أفهم الألغاز اللغوية التي يتحدث بها، هجمة إمبريالية، كشف مخطط، دوائر عملاء، موقع قيادي! كل هذا طلاسم، ولكن اسم المدير بهلول أعادني إلى الفصل الذي كتبه الروائي نبيل وقرأته في اليومين الماضيين، فكرت أنه ربما هناك رابط بينه وما يجري الآن من حولي، ولكن من دون أن أستطيع فهم شبكة العلاقات الخفية السرية التي تحاك خلف هذه الحوادث الغبارية.

يتدخل "أبو رعد "بصوته الأجش "رفيقنا سأعتبر ما حدث بيننا حول الأعداء الأجانب شوبان وموزارت والثالث ذو الاسم المعقد، وحول العملاء المحليين ابن عربي والجلاح والسهران ورد، هو مجرد سوء تفاهم ....".

لا أتدخل هذه المرة بتصحيح الأسماء، سينساها من جديد دون مرافقه النحيل.

يستمر"..... وبالرغم من أن النتائج كانت كارثية على الوطن من جراء ذلك، إلا أنني متأكد أنك تصرفت بنية حسنة، اليوم نحتاجك ونحتاج وطنيتك في هذه الهجمة التي يتعرض لها وطننا.......".

يتوقف قليلاً وهو ينظر إليَّ بتركيز معتبراً صمتي نوعاً من الموافقة لما قاله، يكمل حديثه من جديد "أنت تعرف السلاح الجديد الذي صنعه الغرب الآن والذي اسمه ...."، ويلتفت إلى مدير المركز، فيجيبه "العولمة، العولمة الثقافية".

أتساءل في هذه اللحظة عن سبب غياب المرافق النحيل الذي يحمل الحقيبة الجلدية القديمة السحرية، والتي يُخرج منها كل الأسماء والمصطلحات الصعبة.

يرد "أبو رعد "" عولمة، لعومة، من أين يأتون بهذه الأسلحة الجديدة وبهذه الأسماء، لا أعرف!".

يكمل مدير المركز "وقد طور أعداؤنا الأمريكان هذه العولمة إلى سلاح جديد أكثر ذكاءً وفاعلية اسمه الأمركة، وأخذوا يجتاحون به العالم، محطمين الحدود بين دوله".

تدخل المستخدمة في هذه اللحظة وهي تحمل صينية عليها طعام الفطور للرفيقين، سندويش هامبرغر ملفوف بأوراق أنيقة ملونة، وعلب كوكا كولا تلمع بقطرات ماء عليها إثر خروجها من الثلاجة مباشرة، وإلى جانبهما ارتمت علبتا سجائر مارلبورو بغلافهما اللامع، تضعهما على الطاولة أمامهما، فيما يستمر مدير المركز بالحديث "يريدون بهذه الأمركة المنحطة الفاسدة تغيير أنماط حياتنا المحلية الوطنية، وطريقة تفكيرنا الحر المناضل، بطريقة تشبه غسيل العقول......".

يتدخل "أبو رعد "" عفواً رفيق، غسيل الوجوه وليس غسيل العقول، حتى لا يسيء رفيقنا المثقف فهمنا، فهو دقيق باستخدام المصطلحات النضالية".

يتدارك مدير المركز الخطأ"..... وعندما يغسلون وجوهنا، نصبح مهيئين لاستقبالهم بود ومحبة، سواء حضروا كخبراء شركات أو على ظهر دبابة، وفي كلتا الحالتين سيأتون ليمتصوا خيراتنا".

يتناول الرفيقان سندويش الهامبرغر بسرعة حتى لا يبرد، وعلب الكوكا كولا حتى لا تسخن، ويكملان معاً بصوت واحد "ولذلك يجب أن نقاوم معاً هجمة الأمركة هذه".

يدعوني مدير المركز إلى مشاركتهما الطعام، فأجيبهما بعفوية "شكراً، أنا لست مؤمرك"، لا أعرف كيف أفلتت مني هذه العبارة، ولكن ينبغي أن يكونوا قد فهموها بأحد معنيين، إما أنني لست جائعاً، أو أنني أوافقهما على سياساتهما ضد الأمركة، وعلى الأغلب فهموا المعنى الثاني، إذ رأيت الابتسامة تزور وجهيهما الجديين أخيراً منذ دخولي، وكأنهم اعتبروا تلك العبارة شكلاً من الموافقة على خططهم.

بادر "أبو رعد "عندئذٍ بفتح أوراقه السرية الخاصة "منذ فترة ونحن نقوم بمراقبة دقيقة لمروجي المخدرات في الوطن، وبفضل توجيهات المدير بهلول ودقة معرفته بالأوضاع الداخلية والعالمية اكتشفنا شبكة من مكتبات بيع الكتب تقوم بتوزيع مخدرات من نوع خاص، وبشكل كثيف جداً على مستوى الوطن كله، كتب إباحية من صنع العملاء في الداخل مترجمة من اللغة الأمريكية. وهذه الكتب الإباحية تخدر العقول، فتجعل المواطنين الشرفاء يتلهون بنصفهم السفلي، وينسون مواجهة الهجمة الإمبريالية الشرسة التي أصبحت على الأبواب بنصفهم العلوي. وقد تركز القلق الشديد لدى القيادة بما قد يحدث فيما لو دخل الخبراء الغربيون إلى البلد لتنفيذ مخططهم، في حين يكون المواطنون الشرفاء منشغلين بممارسة الجنس بشكل مهووس، ليل نهار دون توقف، تحت تأثير هذه الكتب المخدرة. فهم لا يعرفون ماذا تخبئ من سموم بسبب درجة الإثارة الإباحية العالية التي تخفيها وراء سطورها، فينهارون أمام إغراءاتها، فيما الخبراء الغربيون يتجولون مع عملائهم المحليين في الشوارع، ولا يوجد من يواجههم".

ينظر الاثنان إلى تعابير وجهي في محاولة التقاط رد فعل على ما يقولان، في حين كنت أعود أنا بذاكرتي إلى بعض تفاصيل فصل الروائي نبيل لربطها مع الحديث الجاري.

يستمر "أبو رعد "" ولذلك قامت عناصر جهاز الاستقرار الوطني بجمع الكتب الموجودة في الأسواق، مع التركيز بشكل خاص على الكتب التي يبدأ اسم مؤلفها بحرف الميم بسبب خطورتها الشديدة".

يكمل مدير المركز "وقد تم جمع هذه الكتب من أجل دراستها ومعرفة درجة إباحيتها، وهو ما سيحدد مدى اندماجها في مخطط غسيل الوجوه الوطنية، وتهيئتها لقبول قدوم الخبراء الغربيين، ولذلك تم اتخاذ قرار بتشكيل لجان خاصة استثنائية لمراقبتها وقطع الطريق على العملاء الذين يروجونها".

يتناوبان الحديث هو و" أبو رعد "بانسجام كلي الذي أردف مباشرة "وقد تم اتخاذ هذا القرار بتوجيهات المعلم "أبو أحمد "العملاق والمدير بهلول، وشاركت فيه بفعالية رئاسة جمعيات الإرشاد الديني".

أتنقل بنظري بين الاثنين، وكأنني بدأت أفهم بعض أجزاء الفصل الذي قرأته، ومع ذلك لم أفكر حتى الآن بدور الروائي نبيل والسيد لؤي بما يحدث، كنت صامتاً طوال الوقت أحاول معرفة إلى أين سيصلان، ولكن في لحظة ما شعرت بضرورة تدخلي في الحديث، فقد أخذوا يسترسلون دون أن أعرف غايتهم، فسألت "وما علاقتي أنا بكل هذا؟".

يجيب الاثنان معاً "أنت وطني ومثقف ......"، وكأن هناك اتفاقاً مسبقاً على ما سيقولانه باستخدام هذه الصفات.

أعجبتني الصفة الجديدة التي رافقت الصفة القديمة وطني، مثقف! ولكنني تذكرت أن معلم السيد لؤي هو الوحيد الذي خاطبني مباشرة بهاتين الصفتين معاً سابقاً، وأنه ذكر شيئاً عن ما وراء السطور

في كتابي، ولذلك فكرت أين هو الآن بذكائه وتحليلاته في ظل هذه المعمعة من الفوضى، هل تصل إليه معلومات عن كل ما يحدث الآن؟

يقرر مدير المركز أن يشرح "أنت مثقف، تقرأ كثيراً، تعرف وتفهم ما تحوي الكتب بشكل جيد، ولكن مشكلتك أنك لا تستطيع أن ترى ماذا يوجد خلف السطور، وما الذي يمكن أن يسيء منها للوطن والمواطنين الشرفاء فيه، أعمتك إقامتك الطويلة في الخارج وانجرارك وراء الحياة الغربية الفاسدة، بحيث لم تعد تستطيع التمييز بين الوطني والإمبريالي الفاسد، لا تمتلك بصيرة اكتشاف المؤامرات المدسوسة فيها. وبالرغم من ثقافتك فقد أصبحت أنت الوجه الآخر للمواطنين البسطاء الذين يحتاجون إلى من يقودهم في المسيرة النضالية الوطنية، ويمسك بيدهم حتى لا يقعوا في حبائل الهجمة الخارجية الضارية".

وبالرغم من أنني مثقف كما يقول فإنني لم أفهم شيئاً مما ذكره، حتى ظننت أنه يخاطب أحداً غيري في الغرفة، يبدوا أن ثقافتي لا تؤهلني لفهم هذه المستويات النضالية العالية.

يتدخل "أبو رعد "من جديد "ولذلك شكلنا لجاناً خاصة لدراسة الكتب الإباحية التي تغسل الوجوه وتخدر العقول، ولنتخذ قراراً إما بمصادرتها أو تركها في الأسواق. وتألفت هذه اللجان من رفاق مؤهلين من دورات الإعداد الوطني، وعناصر متميزة من أجهزة الاستقرار الوطني، وإخوة من جمعيات الإرشاد الديني".

أسأل مباشرة "إذا كانت هذه اللجان موجودة، وهي التي ستقرر، فما علاقتي بكل هذه القضية؟".

يجيب مدير المركز بثقة "الكثير، ستكون أنت المشرف الإداري والمقرر الذي سيصوغ النتائج، ومن ثم سنرفعها نحن إلى الجهات العليا".

أسأل من جديد "ولماذا لا تصوغ هذه اللجان النتائج وترفعها عن طريقكم إلى الجهات العليا مباشرة؟".

يجيب مدير المركز "هناك أمور سرية سنطلعك عليها بشكل شخصي، ينبغي أن تعرف بوجود حساسية شديدة بين رفاق دورات الإعداد الوطني، الذين يعتقدون أنهم يمتلكون السلطة ولكن وجودهم في الشارع ضعيف، وبين إخوة الإرشاد الديني الذين يرون أن الشارع ملكهم ولكن لا مكان لهم في السلطة".

يضيف "أبو رعد "" يجب أن تعرف أن وراء القبلات المتبادلة بينهما أمام كاميرات التلفزيون رغبات عميقة بأن يزيح كل منهما الآخر عن مواقعه، منتظراً الفرصة المناسبة للإيقاع بخصمه وإنهائه".

أتشجع وأسأل ببعض الخبث "وماذا يفعل عناصر جهاز الاستقرار؟".

" نحن ظاهرياً في الوسط، نعمل على تهدئة الأوضاع، ولكننا نبث عملاءنا بين جمعيات الإرشاد الديني، فهم خطيرون جداً، يريدون كل شيء لهم، عدا أنه لم تعد تخفى على أحد ارتباط مجموعات منهم ببلاد الصحراء ومجموعات أخرى ببلاد الجبال، وبشكل مريب جداً".

يعلق في النهاية مدير المركز "ولذلك فنحن نحتاج إلى طرف حيادي، مثقف مثلك".

يبدو أن حفلة التوجيهات الوطنية وفضح الأسرار اللاوطنية قد انتهت، نهضت لأذهب، لكن صوت مدير المركز استوقفني عند الباب "نسيت أن أخبرك، يوجد ضمن اللجان خبير بمكارم الأخلاق، مدعو من بلاد الصحراء، سيشارك بتقييم الكتب من وجهة نظر أصولية صافية على أساس أنه قادم من مناطق الضبط الديني الخضراء، وقد قبلناه ضمن علاقات المودة التي نشأت وتطورت تاريخياً بين بلدينا على مناسف الرز واللحم".

يعلق "أبو رعد "" انتبه لهذا الضيف، هو بالأصل يلقى عناية خاصة من جمعيات الإرشاد الديني الخضراء التي تعود بمرجعيتها إلى بلاد الصحراء، ولا أخفيك سراً أنه لا يلقى قبولاً لدى مجموعات الإرشاد الديني السوداء التي تعود بمرجعيتها إلى بلاد الجبال البعيدة، بل وأبدوا عدة مرات انزعاجهم العلني من تردده المتزايد إلينا".

أخيراً أخرج من مكتب مدير المركز، السكرتيرة لازالت تنقب في الأوراق، وعلى غير العادة لم يعنيها أبداً دخولي وخروجي. أتوجه إلى مكتبي، أشاهد أرتال صناديق الكتب المرمية بفوضى على طول الممر، لا أجد السكرتيرة الخاصة بمكتبي ولا مساعدي، ألمح فقط المستخدم يحمل صينية بثماني أكواب كبيرة من الشاي متوجهاً بها إلى مكتبي، أناديه فيتجاهلني.

أدخل، أشاهد شخصاً أربعيني العمر أشيب الشعر بوجه صارم قد احتل طاولتي، أعرفه من ملابسه، إنه من عناصر جهاز الاستقرار الوطني. جلس منتصب الظهر بسلطة واضحة على المقعد الجلدي المريح وقد تناثرت أمامه أوراق مختلفة يقلب فيها، أفاجأ بوجود الرجل النحيل المرافق الدائم "لأبو رعد "إلى جانبه، وقد تربعت أمامه على الطاولة حقيبته الجلدية العتيقة السحرية دون أن تفارقها يده. واحتل أمامه رجلان وامرأة ثلاثة كراسي من الجهة اليسرى، توقعت أنهم رفاق من دورات الإعداد الوطني، إذ جلس مقابلهم اثنان من الإخوة بلحيتين مشذبتين وعمامتين مائلتين، وإلى جانبها رجل الصحراء بردائه الأبيض الطويل، وتوسط فيما بينهم صفان من الطاولات، تكدست عليها تلال من الكتب بفوضى واضحة.

لم يهتم أحد منهم لدخولي رغم أنهم رأوني جميعاً، انسللت من قربهم إلى كرسي منزو قرب الجدار الزجاجي، يسرني أن أراقب الحفلة دون أن أتدخل، بل إن ما جعلني أشعر بالراحة أكثر أن لا أحد يهتم بوجودي. أنظر إلى الحديقة التي أصبحت كئيبة بعد العاصفة،

مغطاة بطبقة كثيفة من الأتربة، أغمض عيني، أتذكر الليلتين الماضيتين الكابوسيتين، أكثر ما أزعجني فيهما هو غياب المطر الذي حرمني من وجود ورد. لو كانت ورد معي وقتها لخففت بوجودها من الآثار السيئة للعاصفة الترابية علي.

لا زلت أحس بطعم الغبار في حلقي، وخاصة كلما نظرت إلى الحديقة المتربة أمامي، أشعر بالسأم والضجر والاختناق في هذه الأجواء، الغبار في الخارج واللجان في الداخل. سأتصل بصديقي في أول فرصة لاستعلم عن الأوضاع لديه، تمنيت لو أنني استطعت اللقاء به منذ الصباح لأسمع أشعاره وأشرب نبيذاً معه، فأحلم بذات العيون العسلية، وستمطر عندئذٍ السماء وتغسل المدينة من ترابها المتراكم على وجهها، على منازلها وشوارعها وحدائقها، وتغسل التراب والحزن المتراكم على القلب ..... أحلم وأذهب بعيداً في الحلم، أشعر برغبة لا تقاوم بالنوم بعد سهر الليلتين السابقتين، يأخذني الحلم بعيداً، أشعر بجسدي يصبح خفيفاً يطفو في فضاء الغرفة، أنا غير موجود معهم، لكنني أستطيع أن أسمع وأرى كل شيء حولي.

يتعالى صوت أجش، صوت عنصر جهاز الاستقرار الوطني رئيس اللجان، يعلن بدء جلسة العمل "الرفاق والإخوة والصديق القادم من الصحراء، كلفتنا القيادة وبتوجيهات من المعلم "أبو أحمد "العملاق والمدير بهلول ورئاسة جمعيات الإرشاد الديني بدراسة الكتب المتداولة في الأسواق، وتحديد الإباحية منها التي تدخل ضمن مخططات استخدام سلاح ......"،

وبسرعة يمرر الرجل النحيل قصاصة ورق أخرجها من حقيبته إلى رئيس الجلسة، الذي يستمر بالحديث مسترقاً النظر إليها "مخطط استخدام أحدث أسلحة العولمة الثقافية، أي الأمركة، وهو ما تريد أن تضربنا به أمريكا الإمبريالية عبر الفضاء والبحار".

يعلق أحد الأخوين من جمعيات الإرشاد الديني بابتسامته

المداهنة "ما ترسله لنا أمريكا الكافرة المنحلة أخلاقياً، هكذا ينبغي التعبير عنها".

يستمر عنصر الجهاز بالحديث متجاهلاً مقاطعة الأخ "والأمركة سلاح حديث بميزات تعبوية عالية، ورفاقنا الخبراء العسكريون يقومون بمحاولة الحصول على نسخة منه من أجل تفكيكه وإيجاد نقاط الضعف فيه".

يصمت قليلاً، لا أحد يستطيع مقاطعته بقضايا تقنية عسكرية، يتابع "ومع هذا السلاح وضع الأعداء خطة خطيرة لتضليل المواطنين الشرفاء......"، ينظر إلى قصاصة الورق من جديد"...... وغسل العقول أو الوجوه من خلال مخدرات خاصة مبثوثة في كتب إباحية، يقوم عملاء في الداخل بترويجها. ولو نجحوا بذلك لأمكن للخبراء العسكريين الغربيين استخدام سلاح الأمركة التدميري بفعالية ضد وطننا. وقد اجتمعنا اليوم لوضع خطة مضادة لمنع تسرب الكتب الإباحية، خطة وطنية تصون كرامة وطننا وحريته".

يعلق الأخ من جديد "خطة دينية تصون الأخلاق في بلدنا".

يتجاوب الأخ الثاني ذو اللحية الأطول، ويجد فرصة ليقدم مقاطع من خطبة حفظها لإلقائها في المآتم وحفلات عقد الزواج "المشكلة ليست في أمريكا، بل فينا نحن الذين ابتعدنا عن ديننا الفضيل، والمشكلة تحديداً في نسائنا اللواتي يرمين بلاءهن على الرجال، فيفتنونهم عن دينهم، ألا تعرفون أن أكثر أهل جهنم من النساء...... انظروا الآن مثلاً تجلس بيننا امرأة سافرة الرأس، عارية الساقين حتى الركبتين تحت الطاولة، بحيث ألمح من بينهما لون ملابسها الداخلية الحمراء المثيرة، تفتننا وتجعلنا نتشوش في عملنا".

يستدرك الأخ الأول بسرعة "الإباحية ليست في الكتب بل هي في النساء".

تنتفض المرأة في لجنة الإعداد الوطني غاضبة، تنهض واقفة،

انكشف جمالها الذي أثار الأخوين، إذ إن عمرها بدأ يقترب من الخمسين بشعر أخذ يغطيه الشيب، وجه مجعد وشعيرات متفرقة طويلة نبتت فوق الفم؛ فبدت كأنها شارب خفيف يُلمح من بعيد، أما جسدها فقد كان سميناً ممتلئاً بكتل لحمية تفيض عن ملابسها، وقد حُشر القسم السفلي منه في تنورة ضيقة بحيث تكاد تتمزق، في حين شف من تحت قميصها ثديان متهدلان يكادان يسقطان بالكامل إلى الأسفل.

تزأر المرأة "الإباحية في رأسك يا مختل العقل، لو فتحناه لما وجدنا فيه إلا عضو امرأة تحلم به ليل نهار، أنت مخرف لا تشبعه امرأة واحدة، فتلجأ للزواج من ثانية وثالثة ورابعة، وتشتهي معهن مراهقات من بيت الجيران، ولو استطعت لاشتريت معهن جواري للنوم معهن، ستكتشف أن خللاً هرمونياً في جسدك واضطراباً عقلياً في رأسك، لا تنفع معه كل النساء، ولكن الثورات التحررية العظمى على مر التاريخ ألغت أسواق النخاسة، إلا أنها بقيت في عقولكم القاصرة والمتخلفة والرجعية".

ينهض الأخ الأول منفعلاً يحاول أن يرد وقد تلعثم أمام هذا الهجوم الكاسح "لا يحق لك أن تتحدثي في مجلس الرجال، بل لا يحق لك أن تتواجدي فيه، النساء بنصف عقل ونصف دين وضعيفات تصور وإدراك، هذا لو كنَّ مؤمنات، فكيف بالكافرة مثلك! الرجال قوامون على النساء، وبهذا فالمرأة مفعول بها يركبها الرجل ويذلها، وتتلقى ماءه ..... المرأة مخلوق قاصر من ضلع الرجل، هي فراشٌ له، يفترشها متى يرغب.......".

يتحرك الآن الرفيق الأول "أين كنت يا ذا اللحية يا متخلفُ في عصر الأمومة، عندما كانت المرأة تقود المشاعية البدائية والرجل هائماً في الغابات وراء فرائسه، كانت المرأة هي الأصل، والأطفال ينتسبون لأمهم دون معرفة أبائهم".

يرد الأخ الثاني "يعني أولاد حرام يا شيوعي يا ملحد، مثل الغرب الكافر الآن، لم يفلح قوم ولوّا أمرهم امرأة، سيأتي طوفان جديد ويجتاح هذه الأمة لفسقها وذنوبها".

ينهض الآن الرفيق الثاني محتداً "قبل أن يأتي طوفانكم سنكون قد اعتقلناكم ورميناكم في مستشفى المجانين".

" لن تستطيعوا بعد الآن أن تعتقلوا أحداً منا، الشارع لنا، بصوت واحد سيخرج المئات من المساجد يوم الجمعة ويجتاحونكم".

" أنت مغفل، لا تعرف أن نصف صفوفك في المساجد هم من المخبرين الذين أرسلناهم يترصدون حركاتكم وأنفاسكم، أتظنون أننا بغفلة عما تتناقلونه في الحلقات المسماة تدريس ديني عن إعادة خلافتكم العتيقة".

" وأنت مغفل أكثر، لا تدري أن نصف مسؤوليك في السلطة أصبحوا مؤمنين ويمارسون الطقوس الدينية في السر".

يقفز الأخ والرفيق كديكين على بعضهما من فوق الطاولات ويتشابكان بالأيدي، يقرر الأخ الأول مساعدة أخيه الذي وقعت عمامته عن رأسه وهو يحاول القفز من فوق الطاولة، ولكنه يتعثر بجلبابه الطويل غير المناسب للعراك. تستغل المرأة وقوع الأخ الثاني على الأرض وتشارك في المعمعة، تنحني لتلتقط حذائها النسائي من أجل أن تضربه على رأسه، وفي انحنائها المفاجئ تتمزق التنورة الضيقة، فتظهر ملابسها الداخلية بشكل واضح، يتوقف الجميع عن العراك مذهولين وينظرون إليها، لونها أزرق وليس أحمر!

ينزعج الأخ الأول، يتوجه بلكمة قوية إلى أخيه الثاني "كيف تخبرني أن لونها أحمر بينما تنكشف الآن أزرقَ، كاد الجنب يأتيني على رؤية كاذبة".

يمسك الأخ الثاني بخناق أخيه ويصرخ به "لماذا تضربني، هذا ما تراءى لي، نظرت عميقاً فخيل لي أنها حمراء، وعلى كل الأحوال المعركة الآن محتدمة، معركة مصيرية بين الكفر والإيمان، وسنحل هذه المشكلة فيما بعد".

" لا يهمني ذلك الآن، لن أتوقف عن ضربك مالم تحلف بأغلظ الإيمان أنك لن تخطئ الألوان مرة أخرى".

وفيما كان الأخوان مشتبكين، يستغل الرفيق الثاني الفرصة، يشمر عن ساعديه ويقفز قفزة كاراتيه مع إصدار صوت مرعد، تعلمهما في دورة إعداد عسكرية من أجل الدفاع عن المكتسبات الوطنية، ويضرب ضربته القوية الصاعقة، ولكنها تطيش وتصيب عنصر جهاز الاستقرار الذي كان يراقب الاشتباك دون أن يستطيع فضه، أصابت اللكمة القوية الخاطئة فمه الذي أخذ ينزف، فيناوله الرجل النحيل محارم ورقية ليمسح الدماء، لكن عنصر الاستقرار يرميها بوجهه ويصرخ "لم يضربني أحد في حياتي، وأكسر اليد التي ترتفع أمامي، أنا الذي أضرب دائماً، انظر إلى كل المشوهين والمشلولين ممن يعارض".

يحاول الرفيق الاعتذار "عفواً، كنت أقصد الأخ باللكمة من أجل الدفاع عن قضيتنا الوطنية، لكن الضربة طاشت، على كل الأحوال نحن في صف واحد في هذه المعركة المصيرية، أليس كذلك؟".

" لا، المسألة أصبحت شخصية، وسأكسر يدك حتى يعرف الجميع على من تجرأت".

وهجم عليه العنصر هجوماً عنيفاً، تطايرت معه الكتب من على الطاولات.

أفاجأ برجل الصحراء منزوياً إلى جانبي منذ بداية المعركة، أبعد رأسه في إحدى اللحظات متفادياً كتاباً تراثياً ضخماً مجلداً بتجليد ثقيل كاد أن يشج رأسه، إذ بدأت الأطراف بالرمي العشوائي للكتب فيما بينهم غير مميزين الرفيق من الأخ، في حين تمترست المرأة

خلف إحدى الطاولات التي قلبتها، وأخذت تصد الكتب الثقيلة بنجاح، أما الكتب الصغيرة فقد كانت تتطاير وتبقى معلقة في الهواء فترة طويلة قبل أن تسقط. وبالرغم من أنني كنت نائماً، فقد كان لدى رجل الصحراء إحساس أنني أتابع بطريقة ما الجلسة وما تلاها من عراك، ولذلك نظر إلي مبتسماً وقال "سنجعلهم يفرغون توترهم، ثم سأحل المشكلة على طريقتي، سترى ذلك".

نهض بعد أن تحولت المعركة الرئيسية إلى عدة معارك صغيرة، واحدة منها بين الأخوين وأخرى بين العنصر والرفيق، ونادى بصوت عال وبثقة بالنفس "يا أولاد العم، هدوء، أكبر مشكلة وتحلها الدنانير، ما هو المبلغ الذي تريدونه كي تفضوا به هذا النزاع؟".

ورفع بيده عالياً كيساً أبيضَ منتفخاً، توقف الجميع عن العراك، ونظروا إلى الكيس الذي ارتفع عالياً ثم هبط على إحدى الطاولات، فتحه عندما هدؤوا وأخرج منه أكداساً من الدنانير الذهبية.

علق الأخ الأول "ابن عمنا كريم، وله الشكر، ولكن يجب أن نستغل المبلغ في الصالح الأخلاقي العام، برأيي سنبني به مدارس دينية، وسنشرف بأنفسنا على الأمور المالية لإنشائها".

فرد الرفيق الأول "تقولون مدارس دينية، ثم تسرقون المال للموالد والولائم، ويتم تهريب القسم الأكبر منه للتنظيمات السرية عندكم، المصلحة الوطنية العليا تقتضي أن نبني مدارس دورات إعداد وطني".

فيرد الأخ الأول بسرعة "أنتم مساكين، النوادي الليلية التي خرجت أجيالاً فاسدة من الراقصات وبنات الليل أصبحت أكثر من المدارس الحكومية التي تختفي أموالها في تحسين المزارع الخاصة".

وكادت المعمعة تشتد ثانية، فتدخل رجل الصحراء "الحل عندي، نبني بها مدارس حكومية مخصصة لأولاد الرفاق وعناصر الجهاز ورجال الإرشاد الديني".

علـق الأخ الأول موافقـاً "مـدارس حكوميـة مـشتركة بـشرط أن تدرس فيها مادة التربية الأخلاقية الدينية".

فرد الرفيق الثاني مبتسماً "وتدرس فيها أيضاً مادة التربية العقائدية الوطنية إلى جانبها".

قال رجل الصحراء "مادامت القلوب قد تصافت، فلنـولم وليمـة كبيرة بمناسف الرز واللحم على حسابي تعبيراً عن المحبة والوئام".

وقال عنصر الاستقرار "وعلينـا الحلويـات المحليـة الـتي نـشتهر بها".

وقال الأخ "وعلينا الفواكه من مزارعنا الخاصة".

وبسرعة تُزاح الطاولات جانباً، يتوقف تـساقط الكتـب الـصغيرة التي كانت معلقة في الهواء، وتقذف الأقـدام الكتـب المتراكمـة علـى الأرض إلى زوايا الغرفة، تُمد سـجادة فـاخرة علـى الأرض، وخـلال دقائق تحضر مناسف الرز مترعة باللحم، وأطباق الحلويـات المحليـة الشهيرة، وصواني الفواكه. يفترش الجميع الأرض، يتنـاولون الطعـام برؤوس الأصابع وهم يبتسمون، تتناثر الكلمات بين اللقيمات المبتلعة بسرعة،

" فليحيا التضامن الديني والعقائدي".

" بفضل هذا التضامن سنتجاوز محن الحصار الإمبريالي الكافر".

" بفـضل هـذه المـدارس سـتتخرج أجيـال مـن الإخـوة الرفـاق المتحابين".

أما أنا فأغرق في كابوسي أكثر فـأكثر، لا يهـتم أحـد بي وكـأنني غير موجود في الغرفة، رجل الصحراء رغم حديثه السابق معي لم يأبه لي، بالرغم من أن موقع الحدث هـو مكـتبي، ربمـا لعـدم مـشاركتي بالمعركة ومن ثم بالصلح. أما هذا المستخدم اللعين الذي كـان يـدخل باستمرار إلى مكتبي ويسألني إذا كنت أرغب بكأس شاي، فهو يجلس

الآن إلى جانب الرجل النحيل، ويتناول الطعام بقبضته بدلاً من رؤوس أصابعه.

يقطع أصوات المضغ والتجشؤ نحيب متقطع، ألتفت الجميع باتجاه صوت البكاء فإذا بالمرأة تقف ممتعضة جانباً دون أن تجلس للطعام، ظن البعض بأنها لم تجلس بسبب خجلها من عري فخذيها، وانكشاف اللون الأزرق لملابسها الداخلية بعد تمزق تنورتها، وظن البعض الآخر أن مؤخرتها العريضة لا تسمح لها بالجلوس على السجادة بشكل مريح، ولذلك أسرع هؤلاء بإحضار عدة كتب عاطفية طرية لتجلس عليها. نظر إليها الجميع نظرة مواساة، ولكنها علقت "لماذا تنظرون إلي هكذا؟ كل المشكلة أن لا زوج عندي ليشتري لي تنورة جديدة".

فعلق أحد الإخوة بخبث "لمن إذاً تلبسين ملابس داخلية زرقاء مادام ليس لديك زوج؟".

تتجاهله المرأة وتستمر منتحبة "ونهاية الشهر بعيدة حتى أحصل على راتبي، وليس لدي الآن ثمن تنورة فهل أبقى هكذا بردانة؟".

ألتفت الجميع التفاتة واحدة نحو رجل الصحراء الذي جاءته النخوة من جديد، فنهض وأمسك بيدها وأجلسها إلى جانبه، ابتسمت وجلست بثقة دون أن تهتم بما يبدو من أزرق أو أحمر. أراد أحد الإخوة التعليق لو رقصت قليلاً قبل أن تجلس، لطاب الطعام ولذت الجلسة، إلا أنه تذكر أن سبب نشوب المعركة كلها هي وسوسة الشيطان الذي أوقعه تحت فتنة هذه المرأة، فقرر التراجع عن هذه الفكرة.

أخرج رجل الصحراء كيساً جديداً ووضع أمامها كدسة محترمة من الدنانير وقال لها "تستطيعين يابنة العم شراء تنورة واسعة مع سحاب خاص تتحكمين بواسطته بمقدار الفتحة التي ترغبين من خلالها الكشف عن الأحمر أو الأزرق، ويمكنك الذهاب إلى خيمتي

مساء وتختارين فيها ما تشائين من ملابس داخلية حمراء، وصفراء، وسوداء، ونهدية، وتنامين فيها إذا ما رغبت ..... فأنا موجود هناك كل يوم مساءً ريثما تنتهي هذه اللجنة من أعمالها".

بدا الامتعاض على وجوه الآخرين، فعلق أحدهم "وأنا أرغب بشراء تنورة لزوجتي والحصول لها على ملابس داخلية زهرية، ولكنني أنتظر الحصول على الراتب في نهاية الشهر البعيد جداً".

تتالت الأصوات "وأنا أفضلها فستقية"، "وأنا رمانية"، "وأنا خمرية"، "وأنا جَزرية"، "وأنا زمردية"،" وأنا حشيشية"، وانتهت الأصوات عند المستخدم "وأنا مخطط، موفي وفوشي". إلا أن الأصوات جميعها رددت معاً "ولكن لن تذهب زوجاتنا إلى الخيمة لتختارها، سنشتريها نحن بأنفسنا".

توزعت الدنانير الذهبية على أولاد العم، فرحت النفوس، وتصافت القلوب، وتلاقت النظرات الودودة، وتناجت الأفئدة، وطفرت دموع المحبة، وعلت رايات النخوة، تبادلوا أنخاب البيرة دون كحول، ورنت أصوات القبلات على الخدود الممتلئة، فيما نهض المستخدم ورقص رقصة صحراوية حاملاً بيده سيفاً يتمايل به، حيث تتالت الصفقات بالأيدي وتناوبت بالانسجام معها.

يمحي المال الحدود بين البلدان، ويجعل العالم كله قوس قزح واحد بألوان زهرية، وفستقية، ورمانية، وخمرية، وجذرية، وزمردية، وحشيشية، وموفية فوشية، لكن دون تنانير، فما فائدتها إذا ما تم الاستعاضة عنها بمشروبات ساخنة لتدفئة الجسم. انتصب قوس قزح بهذه الألوان منحنياً في فضاء الغرفة، واشتعلت الألعاب النارية في الوقت نفسه حوله مما أضفى جواً بهيجاً. أما في الخارج فقد تجددت العاصفة الغبارية بقوة أكبر، بحيث أصبح كلٍ ما هو خارج البناء معتماً من كثافة الغبار، وكأن البناء أصبح مستقلاً بذاته، وتمركز العالم هنا فقط في الداخل المتوحد تحت راية المتضامنين، في حين انمحى الخارج.

ابتسم رجل الصحراء لي وقال "هل رأيت يا وطني يا مثقف كيف يتم حل الأمور".

شعرت بالاختناق الكامل، وغرقت في كابوس عميق، رمتني الرياح في بحر ظلمات غبارية، أصرخ بكل صوتي فيها "ورد، شيماء"، ولكن لا أحد يسمعني، إذ يتناثر الصوت بين ذرات الغبار، ويتلاشى.

❊ ❊ ❊

رجل الصحراء

أغرق في كابوس من الظلمات الغبارية، لا أدري أين أنا، أعرف أنني في مكتبي بالمركز، ولكنني أسير في الوقت نفسه مراهقاً صغيراً في الليل عبر أزقة بلدتي، متلمساً طريقي بصعوبة في الظلمة، حيث تَمَّ منع التجول وقطع الكهرباء فيها، أرتعد رعباً من صوت مفاجئ "قف مكانك، لا تتحرك، ارفع يديك، أدر وجهك نحو الحائط".

أتصبب عرقاً وأرتجف كخرقة بالية، أكاد أسقط على الأرض، يقترب مني خمسة شباب مسلحون، أعرفهم من ملابسهم المبرقعة، شباب اللجان الثورية المناضلة ضد الرجعية، يفتشني أحدهم فيما توجهت إلي ثلاثة بنادق وقاذفة مضادة للدبابات وصاروخ مضاد للطائرات، والأصابع كلها على الزناد، يختنق صوتي وكأنني ولدت أبكم.

يقول من يجس جسدي "لا شيء معه، لا حزام ناسف، لا سيف، لا ساطور، لا فأس، لا قوس نشاب".

يسأل من يبدو قائدهم "ابحث جيداً يا رفيق وتأكد، ربما معه خنجر، سكين، شفرة؟".

يقترب مني القائد، شاب صغير في العشرين من عمره، يحمل بندقية في يده، والمسدس في حزامه، وتتدلى رمانتان يدويتان من نطاقه، وبعينين تلتمعان في ظلمة الليل يرفع يده إلى وجهي ويتلمس الشعيرات الناعمة الطرية التي تغطي ذقني، التي لم أحلقها منذ شهر كي أشعر بأنني قد أصبحت رجلاً، ويسألني بصوته الصبياني "أين هويتك الشخصية يا أخ؟".

أجيبه متلعثماً "لا زلت تحت سن الثامنة عشرة، ليست لدي هوية، وأنا لست أخاً".

"ما اسمك؟".

نسيت اسمي من الرعب، فقلت بتأتأة شديدة "اسمي جورج محمد، أقصد محمد جورج".

"من أين لك هذا الاسم؟".

"في حارتنا عندي خالتان، واحدة اسمها أم خالد والثانية أم أنطون".

"ماذا تفعل في هذه الساعة المتأخرة من الليل بالرغم من منع التجول؟".

"كنت في الصيدلية، فتحها جارنا خصيصاً لي لدقائق، واشتريت ضماداً ودواء مسكناً للألم، جرحت يدي وأنا أفتح علبة سردين فشعرت بصداع شديد في رأسي".

تفوح من جيبي رائحة زجاجة السبيرتو، فيعلق الذي فتشني "لا تخف، إذا كنت تشرب كحولاً عند الأصدقاء، فهذا شيء جيد، لولا مهمتنا النضالية لشاركناكم".

يعود القائد ويسألني "لماذا لم تصبح رفيقاً ؟".

"لم يقبلوني، قالوا إنني أقرأ كثيراً وأسأل أكثر، وقلت لهم أن الكتب أهم من البنادق، والكلمات أشد من الرصاص".

قال من فتشني "يبدو أن هذا الشخص مخبول ! لكن لنجرِ له الاختبار الوطني حتى نتأكد منه تماماً".

سألني القائد "كم امرأة ستتزوج عندما تكبر؟".

أجيب بسرعة "واحدة، واحدة فقط يا رفيق".

"وإذا سنحت لك زوجة ثانية وثالثة ورابعة، فهل تقبل؟".

"لا، والدي يقول أنه تكفيه مصيبة واحدة بعد ما تزوج أمي، ولكنه قبل طلوع الضوء يقفز من السطح لعند الجارة ونحن نائمون، إذ إن زوجها لحام يذهب باكراً كل يوم إلى المسلخ ليذبح خاروفاً، ووالدي يستغل الفرصة ويذهب ليشرب القهوة معها".

"وأنت، هل تريد أن تصبح مثله؟".

"لا أنا سأجد رفيقة وأعيش معها دون عقد زواج، ستجمعنا راية النضال ضد الرجعية والإمبريالية معاً".

"وهل تسمح لها أن تعلوك عندما تمارس الجنس معها؟".

"لا أفهم ما المشكلة في هذا الوضع! إنه ممتع، مع أنني لم أمارس الجنس إلا في أحلام اليقظة بعد أن قرأت كتاب الزواج المثالي عن أوضاع اللقاء، وقد اشتريته منذ فترة من قارعة الطريق حيث يبيعون كتباً قديمة".

" هل تسمح لأختك أن تنضم إلى دوراتنا القتالية".

ومع أنني ليس عندي أخت قلت "ولتركب الدبابة وتقفز بالمظلة، أين المشكلة! وإذا وجدت شاباً وسيماً لتنم معه في المعسكر وهي بكامل سلاحها، وإن لم يعجبها بعد قضاء ليلتها معه تستطيع أن تبدله بشاب أكثر وسامة دون أن تبدل سلاحها".

" اتركوه هو من مؤيدينا، لكنه لازال دون خبرة نضالية".

ثم وجه كلامه إليَّ "ولكن عليك يا رفيق أن تحلق لحيتك الناعمة حتى لا تثير الشبهات".

يتركونني، أتنفس الصعداء، شعرت بالهواء بارداً وهو يلفح جسدي تحت ملابسي المبتلة بعرق الخوف. ألعن الساعة التي خرجت فيها لشراء الدواء المُسكن للصداع، سأصل إلى البيت في الزقاق التالي، وأختبئ في الفراش تحت اللحاف، وأحلم ببنت الجيران التي اسمها أنطوانيت منيرة، وسأسمح لها بأن تعتليني ليلاً ونهاراً لتمارس الجنس معي دون عقد زواج، المهم أنهم تركوني بسلام.

أسير مسرعاً وقد استعدت بعضاً من أنفاسي، إلا أنه عند منعطف الزقاق يفاجئني ثلاثة ملثمين، سرعان ما ينقض أحدهم عليَّ من الخلف بسرعة خاطفة، فلم أشعر إلا ونصل خنجر حاد يلامس

عنقـي ويكـاد أن يجـرحني، فـسقطت هـذه المـرة مرعوبـاً بالكامـل، فتلقاني من يحمل الخنجر على صدره وتلمـس وجهـي بالـصدفة بيـده الثانية، فوجد شعيرات لحية خفيفة تغطـي ذقـني، فـسأل "أخ أنـت أم رفيق؟".

قلت بتلعثم شديد من الخوف "أخ، أخ أيها الإخوة".

تراخى الخنجر عن عنقي" ولماذا لا تشذب لحيتك؟".

أجبت على أمل النجاة "عودة للأصول يا أخ".

لمعت عينان أمامي من تحـت اللثـام، سمعـت صـوتاً مـن تحتـه "يبدو أنه من مجموعات أبي عمار، لن نفتح صراعاً معها الآن، تكفينا الآن المواجهة مع الرفاق الكافرين، ولكن لنترك في وجهـه رسـالة دم لنثبت له أننا نحن موجودون؟".

" عفـواً يـا إخـوة، مجموعـات أبي عمـار متواجـدة في الـشمال بعيداً، أنا لا علاقة لي بأية مجموعة".

يسألني الرجل الذي يحمل الخنجر وقد أبعده عـني بالكامـل "مـا اسمك؟".

تذكرت أنني نسيت اسمي من الخوف، فقلت بدون تردد "اسمـي محمد خالد عبد الهادي أحمد عثمان، ولكن ليس معي تذكرة هويـة، بعد عام سأحصل عليها".

" أين تتجول في الليل؟".

" كنت في الصيدلية، أشتري معقماً وضمادات، ربمـا يحتـاجني أحد من الإخوة في حالة طارئة؟".

تفوح رائحة السبيرتو من جيبي، فيسألني قائدهم بتودد "لماذا لم تصبح أخاً معنا؟".

" جسمي ضعيف، لا يحتمل الاشتباكات الليليـة وعنـدي خـوف غريزي من الأسلحة البيضاء..... ولكن إيماني قوي".

" مادام إيمانك قوياً، فأنت تنفع لتكون قنبلة ناسفة".

" لا، أفضل قراءة الكتب الفقهية حتى أكون ملتزماً دينياً بكل حركة أقوم بها أو قول يصدر عني".

يتبادل الإخوة الحديث فيما بينهم "هذا الأخ مخبول، ولكن مادام له لحية وإن كانت غير مشذبة، ومادام لا يلبس بذلة مبرقعة، فهو من إخوتنا، وإن لم يصل بعد إلى درجة النضج الإيماني، ولكن حتى نتأكد منه لنجري له الاختبار الشرعي".

" كم واحدة ستنكح عندما تكبر قليلاً؟".

أجيب بسرعة "زوجة واحدة بعقد نكاح شرعي أمام شيخ الحي، ودون تسجيله في محكمة الدولة التي لا أعترف بها".

" كم واحدة وطأ والدك شرعاً؟".

" واحدة، لأنه لم يكن ليستطيع أن يعدل مالياً مع أكثر من واحدة، ولكنه قبل طلوع الضوء كان يقفز من على السطح.....".

" إلى أين؟".

" يدعي أنه يذهب مع جارنا اللحام إلى المسلخ لذبح خروف، في حين أنه كان يذهب إلى المسجد البعيد سراً، فنحن نسكن في حي كل قاطنيه من الرفاق".

" وهل ستصبح أنت مثل والدك؟".

" لا، إن استطعت العدل فسأعقد نكاحات مثنى وثلاث ورباع، وعندما يرجع سوق الإماء والجواري فسأنكح ما ملكت إيماني أيضاً".

" وهل ستسمح لزوجتك أن تعلو فوقك عندما تطأها".

" لا، مستحيل، الرجال قوامون على النساء، سأفترشها، ولن أجمع أختين في فراش واحد، ولكن لا أعرف إذا كان يمكن ذلك في فراشين منفصلين".

" هل تسمح لأختك أن تذهب مع الإخوة إلى الجبال؟".

من السهل قول كل شيء مادام ليست عندي أخت "فلتذهب، كي تضمد جراحهم، وليُعقد عليها قران شرعي هناك من قبل أمير الجماعة، بدلاً من أن يأخذوا بالقوة نساء الآخرين أسيرات أو سبايا حرب".

" اتركوه، هو من إخوتنا، لكن عليه أن يشذب لحيته حتى لا يخطئ الإخوة بالمجموعة التي ينتمي إليها".

أركض هذه المرة إلى البيت مسرعاً، لن أخرج منه أبداً، سأنام في السرير وأختبئ تحت اللحاف، وعندما أنتهي من حلم اليقظة مع أنطوانيت منيرة التي ستعلوني عندما تمارس الجنس، سأبدل الحلم وافترش أربع نساء معاً، وأنكحهن جميعاً في وقت واحد مادمت قادراً على العدل بينهن بالنكاح، على أن لا أجمع أختين في فراش واحد، وبعد ذلك سأنتقل إلى مجموعة من الجواري البيض والسمر والسود، اللواتي سأشتريهن من سوق الإماء، بعد أن أقوم بتوفير ما أستطيع من مصروفي الشهري الذي أحصل عليه من والدي، وسأظل أنكحهما شرعاً ليل نهار مادمن ملك يميني. وسيتناوب الحلمان حسب المجموعة التي تتسلل تحت نافذتي لتراقب ما أحلم به.

في تلك الأيام أتت عاصفة غبارية قوية، اقتلعت الأخضر واليابس، جعلت أهل الحي يختبئون في منازلهم ليل نهار، ولا يخرجون إلا لماماً، فقط في أثناء فترة رفع منع التجول عند الظهيرة لتأمين الحاجيات الضرورية، دخل الغبار إلى المنازل العتيقة الآيلة للانهيار، في حين نجت قصور المترفين التي حمتها من الغبار دوريات اللجان الثورية المناضلة ضد الرجعية والإمبريالية، حيث بقيت النساء تعتلي الرجال فيها عند ممارسة الجنس دون أية مشاكل على الصعيد الوطني. ومن وقتها أصبت بالحساسية الغبارية السياسية، إذ أخذ الزكام والعطاس الشديد يرافقني مع كل أزمة خطيرة تمر بها المنطقة، وخاصة مع العواصف الغبارية القادمة من الصحراء، بل حتى لمرأى القصور الوطنية والمزارع الدفاعية المحيطة بها.

أستيقظ من نومي الكابوسي على صوت أجش، يُعيدني إلى مكتبي في المركز، أصحو محموماً والعرق يتصبب من جسدي، أشعر أنني مريض ولا أقوى على النهوض. أتمنى لو أن هذا المستخدم اللعين قدم لي كأساً من الشاي، أي كأس من الشاي، حتى ولو كان أسودَ مغلياً طوال الليل، ودون شرائح ليمون وأوراق نعناع أخضر.

لا أعرف الوقت في الخارج إن كان هذا صباحاً أم مساء، فالعتمة الغبارية لازالت مستمرة في الخارج وغرفة المكتب منارة بمصابيح الكهرباء، عمال ينظفون بقايا سهرة الأمس، يرفعون السجادة ويعيدون ترتيب الطاولات والكراسي. يعود أعضاء اللجان إلى الاجتماع ويستقرون في أماكنهم، أما المرأة الرفيقة فقد رجعت بتنورة واسعة مع جهاز تحكم آلي لتوسيع الفتحة بقدر ما تريد، ذهب الشيب من رأسها، وشع وجهها بألوان الماكياج. يُحضر المستخدم ثمانية كؤوس من الشاي، من جديد يتجاهلني، من جديد لا أحد يهتم بوجودي، تهاجمني نوبة جديدة من الحمى، أغرق في كابوس جديد، لكنني لا زلت أسمع وأرى وأدرك ما يدور حولي.

يرتفع صوت عنصر جهاز الاستقرار رئيس الجلسة "نستطيع الآن أن نبدأ العمل، فالرفاق والأخوة في القيادة العليا ينتظرون منا النتائج، وعلى رأسهم" أبو أحمد " العملاق والمدير بهلول، الوضع الخطير في المنطقة لا يحتمل الانتظار، يمكن أن ينفجر في أية لحظة، ولكن أريد أن ألفت انتباهكم بأنه يجب ترك رغباتنا الشخصية في غرف نومنا، أما هنا فنحن نقرر السياسة العقائدية لكل المواطنين الشرفاء على المستوى الوطني".

يقاطعه الأخ "نقرر السياسة العقائدية والأخلاقية لكل المواطنين والأخوة الشرفاء".

وافق رئيس الجلسة بابتسامة ودودة، فبدا الانسجام التكتيكي واضحاً الآن بين الفريقين في سبيل المصلحة الوطنية.

يستمر رئيس الجلسة "سأقول لكم منذ البداية إن هناك ميلاً لدى هؤلاء القياديين بتأكيد وجود الإباحية في إطار المخطط الإمبريالي الكافر، وهذا الميل تشكل نتيجة إحساس خاص عندهم، شبيه بالحاسة السادسة الأمنية التي تستشعر الخطر قبل وقوعه. ولذلك سنبحث جيداً وبدقة في الكتب، وسنجد فيها بالتأكيد ما يفكرون به".

طلب رجل الصحراء الكلام "أرجو أن تأخذوا بعين الاعتبار أن جميع الكتب التي تنتشر في بلدكم وفيها حديث عن نكاح النشوة هي حرام وإباحية وفاسدة بشكل خطير".

يرد عليه الرفيق الثاني الذي بدا متخصصاً بالشؤون الدينية الأخلاقية "للأسف يابن العم في بلدكم فرقة ناجية وحيدة تستطيعون فرض النكاح الذي ترغبونه عليها، ولكن في بلدنا توجد أربع وأربعون فرقة، ولكل منها نكاحها الخاص، عدا أنها كلها ممثلة في برلمان الأمة، فلن نستطيع أن نفرض نكاحاً خاصاً عليها ونعتبر الأشكال الأخرى السائدة من النكاحات إباحية".

يرد رجل الصحراء منفعلاً وقد ظن أن كل اقتراحاته ستكون مقبولة بعد ما قدمه البارحة "ولكنني أتحدث عن الأصول والصفاء والعودة إلى تراث الآباء الأوائل والسلف الصالح، لن نسمح أن يقول أهالي الجبال البعيدة أن نكاحهم هو صحيح أيضاً إلى جانب نكاحنا، فتصبح لدينا تعددية نكاحات ونحن أهل توحيد".

يتدخل الأخ الأول لصالح رجل الصحراء "يجب وأد الفتنة لدينا وقطع دابرها قبل أن نواجه الغرب الكافر، كيف سنقف بوجه فساده وإباحيته بنكاحات مختلفة!".

يتدخل رئيس الجلسة "لنترك كلاً على نكاحه، هذه القضايا الشائكة حسمتها المحكمة العليا لدينا".

يقول الرفيق الثاني "أؤيد رأي رئيس الجلسة، لنرى الكتب الإباحية التي يصدرها الغرب لنا وتفسد عقول المواطنين والأخوة الشرفاء".

يقول رئيس الجلسة "تتمثل المشكلة بشكل رئيسي في مجموعة الكتب الإباحية، التي تصدر تحت عنوان كتب علمية وتُعرف عن نفسها أنها تهدف إلى نشر التوعية الصحية والنفسية. وحتى تغطي على إباحيتها فهي تفرد فصولاً خاصة عن الأمراض التناسلية، بما فيها مرض الإيدز الذي أنتجت فيروساته المختبرات الإمبريالية الأمريكية، وقامت بتجربته في بلدان أفريقيا الفقيرة، حيث لا يمتلك الناس هناك ممانعة صحية ثورية، ولم تترك الحركات التحررية النضالية أثراً يذكر في مقاومة الهجمة الإمبريالية".

تنطع الأخ الثاني ليدلي برأيه "الحقيقة أنا متخصص بهذه الإشكاليات الأخلاقية من وجهة نظر شرعية، فقد قرأت جميع الكتب في هذا المجال التي تمت ترجمتها من اللغة الأمريكية الكافرة أو قام عملاء أمريكا الفاسدة بكتابتها مباشرة بلغتنا العربية المقدسة، ولقوة تأثيرها فقد كدت أن أقع أنا نفسي تحت فتنتها، بل وكدت أشرع بتطبيق قواعدها، واكتشفت أن وسوسة الشيطان الرجيم كانت وراء ذلك بالرغم من أنه لدي إيمان قوي لا يتزعزع. هذا ما حدث معي أنا المؤمن القوي، فما بالكم بما يحدث مع الإخوة البسطاء عندما يقرؤونها وينهارون تحت تأثيرها، هذا صراع بين الإيمان والفساد، بين الحق والباطل، بين الأخلاق الحميدة والإباحية".

تطلع الأخ الثاني بوجوه الحضور بعض الوقت ليشاهد مدى تأثير خطبته العصماء، ولكن الرفيق الثاني شدد" يا أخ كنت أرغب بدلاً من هذا الخطاب الديني المناسب للمساجد، أن أسمع الرأي الشرعي لندعم به قراراتنا الوطنية حول الكتب الإباحية".

يكمل الأخ الثاني حديثه متجاهلاً المقاطعة "تأتي الخطورة في هذه الكتب من مجموعة الوضعيات الغربية التي تؤخذ فيها المرأة من الخلف، فهي تجعل الرجل يخطئ ويمارس فعل قوم لوط، كما إنها تعيد الإنسان إلى بهيميته مذكرة بالأوضاع التي تمارسها الحيوانات، وخاصة الكلاب والحمير".

بدت المرأة الرفيقة مكشرة، وقد أصابها الاشمئزاز من مقارنة هذه الأوضاع مع الحيوانات، ولماذا الكلاب والحمير بالذات! أما فعل قوم لوط فلم تفهم ما المقصود به، خجلت أن تسأل عنه، ليس لأنه وضع يرتبط بإشكالية جنسية، أبداً، بل حتى لا تبدو جاهلة بمواضيع رقابية في الكتب الإباحية، فهي تُعد في دورات الإعداد الوطني متخصصة في قضايا المرأة من وجهة نظر ثورية، ومحاربة شرسة ضد الأفكار الرجعية التي تمسها.

همست المرأة في أذن رفيقها "أنا آسفة يا رفيق، لم أفهم ما المقصود بفعل قوم لوط؟ أكاد أتوه فكرياً في هذا النقاش الفلسفي المعقد، ولا أريد أن تفلت مني الأمور التي تتناول المرأة بالذات في كتب جمعيات الإرشاد الديني، كي أستطيع الرد عليهم".

ابتسم الرفيق ورد هامساً أيضاً "إذا كان لديك وقت غداً، سأشرح لك هذا الفعل وسأشرحه لك وأطبقه معك بشكل عملي في منزلي أثناء غياب زوجتي التي لا تتفهم هذه الأمور الفكرية، ما رأيك؟".

سُرت الرفيقة وهزت رأسها إلى الأسفل عدة مرات تعبيراً عن الموافقة، ستحل أخيراً هذه الإشكالية الفكرية المعقدة، التي تشغل مناقشات إخوة جمعيات الإرشاد الديني وكتبهم أينما جلسوا، وتجعلهم يختلفون ويتنازعون فيما بينهم بشدة إلى حد الاشتباك والمقاطعة، وسيكون لها موقف واضح ومحدد لصالح استمتاع المرأة وأنوثتها .

تنقطع سلسلة أفكار المرأة بصوت الأخ الأول وهو يهاجم الأخ الثاني "أنت تعارض بهذا فتاوى كبار علمائنا الأجلاء، وخاصة الموجودين منهم في بلاد الصحراء، والذين سمحوا بالاستمتاع بجسد المرأة بكل الوجوه، متهرباً من مواجهة الواقع بحجة الخطأ إن آراءك تجعلنا نبدو متشددين ومتطرفين".

يرد الأخ الثاني بعنف "ومع ذلك ما قد يقود إلى فعل لوط هو حرام وخطأ، ففي تلك اللحظات التي يفقد فيها الإنسان عقله في هياجه النكاحي لا يعود يعرف الأمام من الوراء، ولا اليمين من اليسار، ولا المؤمنة من الكتابية أو الكافرة. كما إن الدراسات العلمية الحديثة قد أثبت بشكل قاطع وأكيد آراء سلفنا الصالح أنه إذا أخذت المرأة بشكل طبيعي في الأوضاع الخلفية فإن الولد يأتي أحول".

يرتعد الأخ الأول وينهض محتداً "أنت مخطئ، فالدراسات العلمية الحديثة أثبتت أن الولد يأتي أحول عندما تعتلي المرأة الرجل، اذهب وصحح معلوماتك، أنت تثير فتنة بتخطئة علمائنا الأفاضل، أنت يا أخ تمثل تياراً منحرفاً في الإفتاء، وتجعل تجربتك الصعبة مع رئيس جمعية الإرشاد الديني في حيكم عندما استغلك جنسياً لإشباع شهوته المنحرفة تنعكس على نظرتك للآخرين".

ينهض الأخ الثاني ويصرخ "تفضحني وتفضح شيخنا الجليل الذي أفتى في حالات الضرورة القصوى التمتع بالغلمان، وبسند شرعي! أنت عميل للشيوعيين والأمريكان الكفرة الذين ينامون مع أمهاتهم وأخواتهم وعماتهم وخالاتهم".

يرد الأخ الأول "من أنت لتنعتني بهؤلاء الفاسدين الكفرة، أنت منحرف وشاذ، تقترب من أطروحات الإرهابيين في القاعدة :.

يتدخل رئيس الجلسة حتى لا يتحول الوضع إلى معمعة كما حدث في البارحة، ويطلب منهما الهدوء، ويقنعهما بأن رجل الصحراء سيحسم الخلاف بينهما بصفاء مبادئه الأصولية. يسأله "كيف تنعكس الرؤى الشرعية في مثل هذه الإشكاليات التي يفتي بها علماؤكم في الواقع"،

يجيب رجل الصحراء بهدوء "القضية كلها هي أمر نسبي، فالفتاوى تؤكد أن جميع الأوضاع والإمكانيات والأشكال والرؤى والتخيلات والتطبيقات في المجال الجنسي هي مسموحة شرعاً في

القصور الأميرية، لقدرة ساكنيها الأذكياء على التمييز بين الحلال والحرام، بينما هي ممنوعة في بيوت الناس العاديين لغبائهم المستحكم، وأعتقد أن هذا ينطبق على الوضع عندكم أيضاً، ولكن مع تغيير المصطلحات".

في هذه اللحظة ينقطع النقاش، إذ يدخل المستخدم مع ثماني كؤوس من الشاي، أنظر إليها من بعيد، ألمح شيئاً لونه أصفر يطفو على وجه الكؤوس، وعندما يقترب من الطاولات أعرفها، شرائح الليمون التي أحبها مع الشاي، ومع أنها دون أوراق نعناع، إلا أنها شرائح ليمون حقيقية. كم مرة طلبت من هذا المستخدم اللعين مثل هذه الكأس، ولكنه لا يُحضر لي إلا الشاي الأسود. قدم الكؤوس السبعة إلى الرفاق والأخوة، وعندما وصل إلى الرجل النحيل ذي الحقيبة الجلدية القديمة وجده نائماً، أو بالأحرى هو نائم منذ بداية الجلسة، إذ لم يطلب أحد منه مصطلحات صعبة ومعقدة حتى الآن، يبدو أنه رجل آلي، يعمل عندما يضغط أحدهم على زر التشغيل في وقت الحاجة إلى حقيبته الجلدية السحرية. توقعت أن يأتيني المستخدم بكأس الشاي، فقد كان حلقي جافاً بالكامل، وقواي قد تلاشت بتأثير الحمى، لكن توقعي كان خاطئاً، فقد أبقى كأس الشاي أمام الرجل النحيل النائم، وبقيت أنا في كابوسي.

نظرت المرأة إلى رفيقها بابتسامة ودودة، وهمست "غداً الساعة التاسعة مساءً، مناسب؟".

تجد الآن الفرصة مناسبة لإنهاء النقاش لصالحها بضربة عقائدية حاسمة "لقد ألغت الثورات التحررية أسواق النخاسة، جورج لنكولن كان أقوى عزيمة منكم، قال لا لأسواق النخاسة، وأشعل حرباً شعواء من أجل تنفيذ كلمته، وألغى هذه الأسواق بالقوة. بينما أنتم أيها الإخوة طوال تاريخكم كنتم تشجعون على إلغائها ظاهرياً، ولكنكم كنتم مستمتعين ببقائها وغير مستعدين

للتخلي عنها، وتعللون بـأنكم ترغبـون بتركهـا تـدريجياً، وحـسب الظروف، وغير ذلك من التبريرات السخيفة، بينما كنـتم حـاسمين في الغـزوات دون أي نقـاش، ولـذلك اسـتمرت النخاسـة طـوال تـاريخكم المجيـد، حـتى جـاء قـادة التحـرر النـضالي الإنـساني وألغوهـا بـالقوة، وأعـادوا للإنـسان إنـسانيته. العـالم الآن بـدون أسواق نخاسة،لم تعد هناك إماء تباع وتشترى إلا في عقولكم".

ينفجر رجل الصحراء بالضحك عالياً ومستهزئاً "أسواق النخاسـة انتهت في عقائدكم أيها الثوريون الذين أصبحتم رجعيين متخلفين عـن تطـور المجتمعـات الحديثـةً المعولمـة، فهـي لازالـت موجـودة في الواقع، ليس لدينا فقط في الصحراء، اذهبوا إلى أسواق جنوب شرقي آسيا وشاهدوا أسواق النخاسة الحقيقية المزدهرة، هناك يمكـن شـراء نساء من أعمار الخامسة وحتى الخمسين، نشتريهم شرعاً كخادمـات، ثم نستخدمهم سراً إماء وجاريات إلى جانب أعمالهن المنزلية".

يؤكد الأخ الأول "ومن قـال لـك إن هـذه العـدوى لم تنتقـل إلى بلادنا، فنحن أصبحنا نستوردهم أيضاً، وستعود أوضاع النخاسة كمـا كانت سابقاً، وهذا من بشائر عودة الأخلاق الأصـولية الحميـدة الـتي كانت منتشرة في تاريخنا المجيد".

تصرخ المرأة الرفيقة مستنكرة بشدة "هذا ليس صـحيحاً، ليـست المرأة بقرة تبيعها وتشتريها، تذبحها عندما تريد وتوزع لحمها قطعـاً، السادية المختبئة في داخلكم بدأت تُظهركم على حقيقـتكم، وهـو مـا يقود إلى العنـف والـدم، واسـتخدام الـسكاكين والخنـاجر والـسيوف والفؤوس في قتل من يعارضكم".

يسأل رئيس الجلسة "ما هي السادية يا رفيقة؟".

تتلعـثم ولا تعـرف بمـاذا تجيـب "الـسادية هـي الـسادية! هكـذا نستعملها في أوقات الضرورة في المناقشات الفكرية".

تدخل الرفيق الثاني لينقذ رفيقته "السادية هي عكس المازوشية".

ولكن رئيس الجلسة لم يصل إلى قناعة، فعاد وسأل "والمازوشية ما هي؟".

يعود الرفيق الثاني ليجيب "المازوشية هي عكس السادية".

ألتفت الجميع عندئذٍ إلى الأخوين، علهم يحصلون على تعريف شرعي لهذين المصطلحين، فأجاب أحدهم "هذه مصطلحات معاصرة من الغرب الكافر، لم نستخدمها في تراثنا الأصيل، ولذلك ليس لدينا تفسير شرعي لها".

ينظر رئيس الجلسة إلى الرجل النحيل صاحب الحقيبة الجلدية العتيقة السحرية، يوقظه بعنف، فهو لم يحضر إلى هنا فقط ليناوله محارم ورقية عندما ينزف دماً، يسأله "ما هي السادية وما هي المازوشية؟".

لازال الرجل النحيل شبه نائم، ولكنه أجاب "أنا لا أتناول وجبات في المطاعم الغربية، ممنوع الدخول إليها لعناصر الجهاز إلا بمهمة رسمية".

صفعه رئيس الجلسة على رأسه وتركه يرجع للنوم، يتلفت حوله ويسأل "أرسلوا لنا مثقفاً ليحل بعض الإشكاليات التقنية من مثل هذه المصطلحات فيما لو صادفتنا، وكأني لمحته البارحة يدخل إلى المكتب في بداية الجلسة! ها هو في الزاوية، للأسف يغط في نوم عميق، المثقفون لا ينفعون لا في صحوهم ولا في نومهم".

في الحقيقة كنت نائماً بعمق، غارقاً في كابوس سوداوي بدرجة لا معقولة والحمى انهكتني، كنت أرى وأسمع كل شيء حولي، إلا أنه من الصعب التمييز بين ما يحدث في الكابوس وما يجري في الواقع. كانت الحوادث تجري أمامي وكأنها شريط سينمائي بالصوت والصورة. كان هناك تراكب في وجودي على مستويين، فأنا في المكتب ولست به، وأنا في مكان يُعرض فيه شريط سينمائي مجسم أشاهده مثل كابوس، أشعر أنني مشارك به، موجود في قلب أحداثه،

لكـــنني دون أيـــة فعاليـــة بعيـــد عنـــها، وكـــأن الحمـــى والأشـــخاص الموجودين تآمروا على استبعادي من المشاركة فيها، بـل إنهـم حـتى حرموني من كأس شاي، دون الحديث عن الوليمة العامرة التي أقامها رجل الصحراء. وأثناء ذلك كله كنت أخترق العتمة الغبارية الداكنة السواد بحلم عن مطر ربيعي دافئ، تختلط أصوات قرع حباته على النافذة بهديل الحمام وزقزقة العصافير، حيث ورد تغفو بين ذراعي، وألمح في البعيد العيون العسلية قادمة تحت المطر.

تستمر الأحداث حولي في هذه الأجواء الكابوسية، وأشاهد رئيس الجلسة يتحدث متوجهاً إلى الجميع "لا أعرف لماذا يرسلون إلينا المثقفين في هذه الأوقات العصيبة الحرجة من تاريخ أمتنا المناضلة، فالمثقفون لديهم مسٌّ عقلي شاذ، هم متخلفون عقائدياً، وبحاجة دائمة إلى موجهين من دورات الإعداد الوطني، ليدلوهم على التفكير الصحيح في مواجهة الإمبريالية. المشكلة ليست فقط في أنهم لا يفهمون أهمية اللحظات التاريخية العظمى الوطنية التي تحدث حولهم، بل ويقعون أيضاً في أحابيل الدوائر الغربية، فينقلبون على تراثهم الوطني الثوري، ويتحولون بسرعة إلى عملاء. ولذلك فالأفضل أن يناموا بدلاً من يتحولوا إلى عملاء".

يعلق رجل الصحراء "نحن مرتاحون من هذه المشكلة، فعلماء الدين الإجلاء يحلون محل المثقفين".

يتابع رئيس الجلسة رجل الجهاز "عندما نجري تحقيقاً أمنياً مع بعض المثقفين، ينهارون مع أول لطمة على وجوههم، يعترفون بكل شيء نريده قبل إنزالهم إلى القبو، لا نجد أي معنى لتعذيبهم، إذ يصبحون مطواعين مباشرة، فيما يتحرق السجان إلى تمريغ وجوههم النظيفة وياقاتهم البيضاء بالمياه الآسنة والوحل. الرجل الوطني مع ثقافة يصبح لاوطنياً، بل ويصبح أحياناً خطراً على الوطنية".

يُعلق الرفيق الثاني "كان من الممكن أن يصبحوا وطنيين لو مروا بدورات الإعداد الوطني!".

يلمح رئيس الجلسة كتاباً ضخماً على الرف، غير الكتب المرمية على الطاولة أو على الأرض، يقرأ بصعوبة على حرفه "قاموس المصطلحات الصعبة"، يطلبه، وبصعوبة يجد فيه رأس موضوع السادية. يقرأ "السادية تعبير عن طبيعة وتصرف شخص، رجل أو امرأة، يتلذذ بتعذيب الطرف الآخر عند ممارسة الجنس معه، مستخدماً بشكل خاص القيود والسياط والجنازير وحبال الخنق وما شابه، ولا يستطيع الوصول إلى ذروة الانتشاء إلا بمشاهدة الطرف الآخر على حافة الألم الشديد، بل وعلى عتبة الموت ..... وينطبق مصطلح السادية في المجال السياسي وبالارتباط مع معناه الأصلي على شخصية الحاكم المستبد حيث يمارس ساديته على شعوبه، ويظهر هذا تاريخياً بشكل خاص في الممالك الشرقية ولدى ورثتهم من العسكر.....".

يغلق رئيس الجلسة الكتاب وهو يشتم "ما هذا التخريف، ما علاقة العسكر بالجنس! هم يدافعون عن الوطن، يعيشون على خط النار في مواجهة العدو الغاصب، وليس لديهم أدنى وقت لممارسة الجنس، وما علاقة القيود والسياط والجنازير التي نستخدمها في القبو بالجنس والسادية!".

يطلب رجل الصحراء "انظر من فضلك، ربما هناك تعريف أفضل للمازوشية".

يفتح رئيس الجلسة القاموس مضطراً، ويقرأ "المازوشية هي عكس السادية، وتعني أن شخصاً، رجلاً أو امرأة، لا يصل إلى ذروة الانتشاء الجنسي إذا لم يعذبه الطرف الآخر الذي يمارس معه الجنس بطريقة سادية..... ومعظم الشعوب المشرقية هي مازوشية، اعتادت على سادية حكامها وتستسلم بمتعة للتعذيب.....".

يرمي رئيس الجلسة الكتاب ويطوح به عالياً في سماء الغرفة، ويصرخ بنزق "لا رجاء ولا أمل من الكتب، هذا كتاب مدسوس وضعه عملاء مأجورون، يجب حرقه مباشرة".

يلتقط المستخدم الكتاب، يشعل عود ثقاب ويحرقه بتلذذ في وعاء معدني كبير مخصص لجمع أعقاب السجائر، يحرقه وهو ينظر إلي بتشفٍ، فيما أنا نائم بعمق. في تلك اللحظة، أصبحت الحرارة حولي عالية جداً وشعرت باللهيب يقترب مني، فاحترق حلم المطر وورد والعيون العسلية.

يعلق رجل الصحراء "إن سلسلة الأخطاء تتراكم لديكم بدءاً من الكتب التعليمية، ومنذ الصف الأول الابتدائي، وهو ما يقودكم إلى نتائج خطيرة مرتبطة بالإباحية في الصفوف العليا من المدرسة. فعلى سبيل المثال وجدت في كتاب القراءة للصف الأول الابتدائي عندكم العبارة التالية:

ـ ذهب خالد ورباب إلى المدرسة ـ

لا أعرف كيف تسمحون لهما بالاختلاط منذ الصغر، ومن ثم الذهاب معاً إلى المدرسة، وحدهما دون وجود مُحرم مع الطفلة، فقد أفتى أحد العلماء لدينا أن المرأة تصبح عورة منذ السادسة من عمرها".

فسأله رئيس الجلسة "وكيف ينبغي أن تكون هذه العبارة؟".

" ينبغي أن يوجد كتابان، الأول للصبيان، يُكتب فيه:

ـ ذهب خالد إلى المدرسة ـ

والثاني للبنات، يُكتب فيه:

ـ ذهبت رباب إلى المدرسة مع مُحرم ـ

والأفضل وجود كتاب واحد للصبيان فقط، وفيه العبارتان التاليتان:

ـ يذهب خالد إلى المدرسة، ليتعلم ويصبح رجلاً عظيماً في المستقبل ـ.

ـ تجلس رباب في المنزل، لتتعلم الطبخ وتحضير الفراش والأخلاق الحميدة، وتصبح زوجة صالحة في المستقبل ـ.

وبالصدفة قرأت أيضاً في الكتاب نفسه عبارة أخرى، أحب أن أذكر الخلل فيها بالرغم من أنها لا تمس موضوعنا مباشرة، تقول العبارة:

ـ يذهب عمر وجورج إلى المدرسة ـ

ويجب كتابتها بعبارتين على الشكل التالي:

ـ يذهب عمر إلى المدرسة، ليتعلم ويصبح رجلاً عظيماً في المستقبل ـ

ـ لا يذهب جورج إلى المدرسة، فيتعلم مهنة، يخدم بها الرجل العظيم في المستقبل، ويستثنى جورج من هذا التوجه إذا حول اسمه إلى عمر.

يبتسم الأخوان موافقين على طرح رجل الصحراء، في حين يصمت الرفاق مستنكرين، لا تعني الدنانير التي استلموها التخلي عن نضال الشعوب وكفاحها للوصول إلى حرية الإنسان، وعلى الأخص حرية المرأة، وإلغاء الحواجز التحريمية بين الجنسين.

يتجاهل رئيس الجلسة ما قاله رجل الصحراء، ويعلن "لقد أضعنا الكثير من الوقت في مناقشة قضايا فقهية وعقائدية دون فائدة، لننتقل الآن إلى ما اجتمعنا لأجله بالضبط، وهي الروايات. أنتم تعرفون أن هناك تعميماً من المدير بهلول بمنع روايات ميللر كافةً، وكل الروايات المترجمة من اللغة الأمريكية، كما أصدر توجيهاً بدراسة روايات عملاء أمريكا المحليين المكتوبة باللغة العربية مباشرة، على أن نتحرك من أسماء المؤلفين التي تبدأ بحرف الميم. رفيقتنا من دورة الإعداد الوطني درست عدة روايات نموذجية، وستقدم لنا الآن النتائج، لنتخذ قراراً جماعياً من خلالها بشأن منع كل الروايات ومصادرتها على الأغلب".

انبسطت أسارير وجه الرفيقة أخيراً، فطوال هذين اليومين كانت مهمشة، والإخوة يأكلون في لحمها، والآن جاء دورها لتبرز قدراتها

الرقابية "في الحقيقة من الصعب إيجاد السمات الإباحية في روايات العملاء المحليين لأمريكا والمكتوبة مباشرة باللغة العربية. كنت مضطرة لقراءة الرواية بأكملها والبحث خلف السطور والكلمات لاكتشاف الإيحاءات الجنسية التي تعطل مسيرتنا الوطنية، وبالرغم من خبرتي الطويلة كنت أجد بصعوبة شيئاً ما بعد بذل الوقت والجهد وتعب الأعصاب. إذ إنه بعكس الطريقة الأمريكية المباشرة في عرض الصور والمقاطع الإباحية فإن العملاء المحليين يستعملون الترميز والتورية والكناية والاستعارة والإخفاء لتقديم الصور الإباحية، ومما يزيد الصعوبة في اكتشافها هي محاولتهم تغليف العبارة بمسحة شاعرية، فتجعلها معقدة أكثر. وسأقدم لكم نماذج من عملي، وأرغب بسماع آرائكم. الرواية الأولى لكاتب يبدأ اسمه بحرف م، لم أجد فيها سوى هذه العبارة:

ـ غرقنا معاً في عناق عفوي ساخن ـ

فما رأيكم ؟".

" العبارة فيها خلل لغوي وهي ركيكة، يمكن للإنسان أن يغرق في البحر أو النهر، لا في عناق!".

" مع غرابة عبارة العناق العفوي، فهي تعني الرغبة العميقة بممارسة الجنس مع إبراز العملية وكأنها غير مقصودة".

" الساخن هو السائل المنوي عند الرجل أثناء القذف".

النتيجة، الرواية إباحية مرفوضة.

تمسك الرفيقة رواية ثانية، وتقرأ منها العبارة التالية:

ــ دخلت غرفتها، وجدت نفسها وحيدة، فخلعت كامل ملابسها بخفة متناهية ـ

" هل تظن هذه المرأة أنها وحدها، يجب أن تعرف أن الشيطان يراقبها، فلا يجب أن تخلع ملابسها أمامه".

" بخفة متناهية، تعني أنها تخلع ملابسها بعملية إغراء، وبالتأكيد لإغراء الشيطان".

النتيجة، الرواية إباحية وضد التعاليم الدينية، مرفوضة.

تأخذ الرفيقة الرواية التالية، وتقرأ:

ـ ونظر في عينيها فذاب شوقاً إليها، وتنسم رائحة جسدها فاشتعل بالرغبة ـ

"هذه إثارة حسية مباشرة، كمقدمة للعملية الجنسية، إباحية مرفوضة".

تقرأ الرفيقة في رواية تالية:

ـ سأشرب دمك ....وسأسكر به يا حبيبي ـ

" هذه سادية تماماً، جنس يقود إلى العنف السادي".

" يبدو أنه رجعنا إلى السادية!".

" عفواً، نستعملها بشكل عفوي دون إسقاطات سياسية".

ـ وبكيت طوال الليل، وقالت أحب أن تعذبني كما ترغب، ولكن لا تغادرني دون قبلة وداع ـ

" على العكس، هذه مازوشية، عكس السادية..... ودون إسقاطات سياسية".

النتيجة، الرواية مليئة بالشذوذ الجنسي، مرفوضة.

تفتح الرفيقة رواية أخرى، وتقرأ:

ـ وفي أثناء تجوال خالد في الشوارع، توقف أمام واجهة محل تجاري للملابس الداخلية النسائية، وأخذ يتأمل فيه السراويل وحمالات الثدي والتفريعات، من كل الأشكال والألوان..... ـ

" هذه ميول فيتيشية، مرفوضة".

يتدخل رجل الصحراء "ما هي الفيتيشية يا أولاد العم؟".

يجيب رئيس الجلسة "للأسف أحرقنا قاموس المصطلحات الصعبة، على كل الأحوال الشروحات فيه لا تقدم ولا تؤخر، الرواية ذروة الشذوذ الجنسي مادامت مرتبطة بكلمة صعبة في المجال الجنسي".

" تم القبض على جارنا وهو يقفز إلى أحد الأسطح، متلبساً بسرقة الملابس الداخلية المستخدمة من على حبل الغسيل، ويختار الملابس الداخلية فقط، وعندما عرضوه على طبيب نفسي، قال إن هذا هوس مرضي فيتيشي، وطلب تركه لأن كل رجل لديه بعض من هذا الميل".

" النتيجة، مرفوضة".

تتناول رواية أخرى، تقرأ:

ـ أخذ ثدييها بفمه، امتصهما بعطش شديد إلى الحنان وشوق كبير إلى جسد يحضنه ـ

" برأيي هذه الرواية ليست إباحية شرعاً، هناك فتوى حديثة تقول أن من يرضع من ثدي امرأة رضعة مشبعة تصبح مثل أمه من المحرمات عليه، ويستطيع الدخول والخروج إليها من دون أن تلبس الحجاب أمامه".

" أي أنها تصبح مثل والدته، ويُحرم عليه نكاحها".

" وماذا يا أخ لو رضع رجل ثدي فتاة صغيرة بعمر أولاده، فكيف تصبح بمثابة أمه ؟".

" لا تسخر يا رفيق من الفتاوى التي بذل العلماء الأجلاء جهداً لوضعها حسب الظروف المعاصرة المستجدة، والتي تم إيجادها لحل مشاكل الاختلاط التي فرضتموها بالقوة، نعم تصبح هذه الفتاة مثل أمه، ويحرم عليه نكاحها، ولكنه يستطيع أن يرضع من ثدييها عندما يرغب".

" وإذا يا أخ رضعت المرأة من الرجل؟".

" كيف سترضع أيها الأخ الرفيق من ثديه، إنه رجل".

" لا يا أخ، إذا رضعت من مكان آخر وكانت رضعة مشبعة".

يتدخل رئيس الجلسة "لننتهِ من هذه المنازعات الفقهية التي هي دون طائل، برأيي إن كل الروايات هي إباحية مادام يوجد بين شخصياتها رجال ونساء".

" وإذا لم يكن بين شخصياتها رجال ونساء، أقصد إن كانت كل شخصياتها ذكورية، أو بالعكس كلها نسائية، فكيف يمكن الحكم عليها؟".

يجيب رئيس الجلسة "بسيطة، ليست هناك مشكلة، في الحالة الأولى الرواية هي إباحية لوطية، وفي الحالة الثانية إباحية سحاقية".

ينهي رئيس الجلسة النقاش حول الروايات "يبدو أنه ليست الروايات المترجمة من اللغة الأمريكية فقط هي الإباحية، بل جميع الروايات المكتوبة باللغة العربية ومهما كان شكلها هي إباحية أيضاً، وبالتالي فجميعها مرفوضة وينبغي أن تتم مصادرتها من الأسواق، وبذلك نتكامل مع حدس المدير بهلول، هل أنتم موافقون؟".

يجيب جميع أعضاء اللجان بصوت واحد منسجم ومتناغم "نعم موافقون، جميع الروايات مرفوضة لأنها إباحية".

يستمر رئيس الجلسة "مادمنا متفقين، رفاقاً وإخوة، بمحبة وود، وحماس وطني وأخلاقي، على هذه الرؤى تجاه الروايات، فدعونا ننته من تقييم بقية الكتب بشكل جماعي وبسرعة، سأطرح موضوع الكتاب وتجيبوني بصوت جهوري واحد".

ينهض رئيس الجلسة، يعتلي إحدى الطاولات، ينتصب بصدره عالياً، تختفي الابتسامة من وجهه، ويأخذ وجهه تعبيراً جدياً صارماً. ينتظم الجميع أمامه بصفين متوازيين، بمن فيهم الرجل النحيل الذي يستيقظ الآن، والمستخدم الذي كان يُحضر الشاي. ينزع الجميع

ملابسهم عن صدورهم، المرأة ورجل الصحراء أيضاً، فتبدو أجسادهم مليئة بالحيوية والعنفوان والقوة، ويتجهون بوجوههم نحو النور المشع بالعزم والإيمان من وجه رئيس الجلسة الواقف عالياً فوقهم، وقد مد يده وهو يباركهم.

يصرخ بصوت جهوري "باسم الوطن والإيمان، هل أنتم موافقون؟".

يهتف الجميع بصوت واحد مرعد وقد رفعوا قبضاتهم عالياً "نقسم بالوطن والإيمان نحن موافقون".

أستيقظ مذعوراً على هتافهم العالي الذي اهتزت الغرفة له، كنت نائماً في حصار كابوس عميق، فإذا بي أستيقظ على كابوس جديد يضغط على الصدر، وكأنني أنتقل من كابوس إلى آخر، أنا نائم ولست بنائم، وكأنني من جديد في إحدى المسيرات الشعبية! مسؤول من الدرجة الثالثة يلقي الكلمة الرسمية، يصرخ ويرعد ويزأر وينوح ويمزق ثيابه، لا هو يفهم ما يقرأه من ورقته المكتوبة على عجل من قبل أحد الرفاق من المستوى العاشر في المرتبة النضالية، ولا أحد من الجماهير الثائرة يستمع له، يتركون أنفسهم يقفزون على الأرض ويتشقلبون. بعضهم يصعد على الأكتاف، ويركض فوقها لا يدري إلى أين، وبعضهم يتعانقون ويحتكون فيما بينهم باهتزازات جنسية مريبة. لا يجرؤ أحد على الوقوف دون حراك أو صامتاً، فالكاميرات تصورهم، حيث تُراقب الصور في جميع مراكز الإعداد الوطني وأجهزة الاستقرار. يخرج أحد الرفاق بمكبر صوت، يصرخ به ويهدد شيئاً مجهولاً غير مرئي، فيندفع الجميع من حوله برقصة إنسان الغابة وقد حملوا رماحهم الصوانية، يطعنون بها أشباحاً ترتمي على قارعة الطريق نازفة ضوءاً رمادياً مغبراً، تتراكم جثث الأشباح وتتكدس، فيما يمضي الجميع إلى الأمام من فوقها، لا يدرون إلى أين، ولكنهم يحطمون كل شيء في طريقهم، يصلون إلى المكتبات العامة ومكتبات

البيـع، تنـدفع مجموعـة غوغـاء منـهم لتُخـرج الكتـب وتكدسـها في الساحات، يحضر المسؤول الذي ألقى الكلمة، يقف فوق أكداسـها، يصمت الجميع بانتظار قراره".

ينقلني رئيس الجلسة المنتصب فوق الطاولة إلى كابوسه، أسمعـه يصرخ، والجميع في الغرفة يرددون وراءه:

" كتب الصوفيين "ـ "إباحية، دعوة للاتحاد الجنسي مع الكائنـات العلوية، إلحاد وإباحية تحط من شأن المقدس".

" كتب الأساطير "ـ "إباحية، ممارسات جنسية بين الآلهة، وبـين الآلهة والبشر، شرك وإباحية تدعي المقدس".

" كتب الأحلام "ـ "إباحية، يتحـرر فيهـا الإنـسان مـن القيـود الفيزيائيـة والأخلاقية كافةً، فيطير إلى السماء السابعة وينكح محارمه فيها، إباحيـة وتعدّي على المقدس".

" كتب الطبخ "ـ "إباحية، مهيجة للجنس، تجعل الإنـسان يتلـهى عن العوالم العلوية ويغرق في الملذات الجـسدية الأرضـية، والطعـام يستتبعه الجنس، إباحية مع رمي المقدس وراء الظهر".

" كتب البحار "ـ "إباحية، يخلع النـاس ملابـسهم أمـام الـشيطان على شطآنها، وتتحول إلى شـواطئ عـراة، إباحيـة بتعامـل وثيـق مـع اللامقدس"،

" كتب الفنون التشكيلية "ـ "تعدي على مهنـة الآلهـة في الخلـق، والألـوان فيها تحرض الرغبات الفيتيشية المرتبطة بـالملابس الداخليـة، شـذوذ إبـاحي مـع خرق للمقدس".

" كتـب الـسيارات والـدراجات "ـــ "إباحيـة، الاهتـزازات المتـواترة والمنتظمـة تـثير الرغبـة الجنـسية، وقـد توصـل إلى الانتشاء، كما تـشجع علـى نـشر النظريـات العلميـة المـستندة إلى فكرة التموجات، إباحية مع تعدٍ على أساطير الخلق".

" كتب التكاثر عند الحشرات "ـ "إباحية، التكاثر يعـني النكـاح والـوطء والافتراش".

" كتب الاتحاد بين العناصـر الكيميائيـة "ــ "إباحيـة مـادام هنـاك اتحاد بين عنصرين، وإذا ما تجـاوز الاتحـاد أكثـر مـن عنـصرين فهـو شذوذ جماعي".

" كتب الانفجارات الكونية "ـ "إباحية، الانفجار يعـني الهيـاج الجنـسي الذي يذهب بالعقول، ويجعل المؤمن لا يفرق بين المقدمة والمؤخرة، وبـين المؤمنة والكافرة".

" جميع الكتب التي ظهـرت علـى مـر العـصور، ماعـدا الكتـب المقدسة "ـ "إباحية، إباحية، إباحية".

" فلنصادر جميع الكتب من الأسواق".

" لنلغ التعليم بالمدارس والجامعات عن طريـق الكتـب، ولنعـد إلى تراث أجدادنا التلقيني الشفوي".

" لنحرق الكتب، لنحرق الكتب".

" سـنرفع توصـية إلى القيـادات العليـا ونوقـع عليهـا بالأحبـار الممزوجة بدمائنا "لتُحرق كل الكتب".

لم أعد أعرف أين تبدأ الكوابيس وأيـن تنتـهي، أتبعثـر في فـضاء الغرفة، ويصبح جسدي هباءً منثوراً، ذرات تضيع بين هتافـات حـرق الكتب. أصبح المركـز مـضاءً بالمـصابيح الملونـة والألعـاب الناريـة، أخذت الأنوار الملونة تتماوج بفـرح مـع هتافـات حـرق الكتـب، في حـين اشـتدت العتمـة في الخـارج نتيجـة عواصـف الغبـار الكثيـف المتصاعدة بعنف.

ومع أنني كنت هباءً منثـوراً في فـضاء الغرفـة، إلا أنـني شـعرت بطعم الغبار في فمي وأنفي، يتسلل إلى صدري، ويسد مسام جلـدي. أفقد الوعي تدريجياً داخل الكابوس، وآخر ما سمعتـه صـوت رئـيس الجلسة يردد بصدى واضـح "لنبـدأ بحـرق الكتـب المُجمعـة الآن في

المركز كمبادرة فردية منا". وآخر ما رأيته هو صورة باهتة للمستخدم يحمل عود ثقاب ويشعل أكوام الكتب، ومن ثم صور باهتة لتسعة أشباح وفيهم إمرأة ورجل من الصحراء يرقصون عراة حول النار المشتعلة بالكتب، يدورون حولها ويقفزون بهياج شديد، وقد علت الوحشية وجوههم، ويهتفون بشيء لا أسمعه، شفاه تتحرك، همسات، ضاجة مجنونة، رائحة حريق، دخان ولهيب يقترب مني، أشتعل، وأذهب في الهاوية.

* * *

البدوي العنيف

في ضياعي بين الصحوة والكابوس أجد نفسي فجأة في سيارة أعرفها، سيارة عناصر جهاز الاستقرار، تنطلق بي مسرعة من جديد مابين الركام والحطام في الشوارع. العاصفة الغبارية بلغت أوجها وذروة هياجها واشتعالها، إذ لا أشاهد خارج السيارة سوى عتمة غبارية كثيفة حالكة، تعوي وتصفر في الخارج، ولاشيء غيرها، وكأن الأبنية والأشجار والسيارات قد اختفت، فتحولت المدينة إلى جحيم صحراوي سفلي التهم أناسها، وتركها مأوى للأشباح الغبارية. ومع ذلك كانت السيارة السريعة تشق طريقها بيسر وسهولة، وكأن السائق يعرف الشوارع بمنعطفاتها وتفرعاتها وهو مغمض العينين، بل ويستطيع تحاشي الركام والحطام بثقة، فتراءى لي أنه متآمر مع العاصفة التي تفسح له الطريق وتمنحه الحماية.

في لحظة صحو أعي وجود خمسة رجال حولي في السيارة، أعرفهم، عناصر جهاز الاستقرار الخمسة ذوي الوجوه الحجرية، الذين اصطحبوني قبل يومين إلى المركز حيث أعمل. لازالت وجوههم قاسية حجرية، لا تنبئ، لا توحي، لا تعبر عن أي شيء، ولا تسمح حتى بسؤالها عما يحدث حولنا، حجرية فقط كما كانت قبل يومين. أسمع حديثهم همساً، ولكنه همس ضاج ذي صدى معدني يرن في فضاء الكابوس، أرتعش من الخوف، ويخطر في ذهني تساؤل مرعب، هل أنا في أحد العوالم الماورائية الغبارية، وقد تحولت إلى شبح غباري هامس بعد أن وصل إليَّ لهيب الكتب المحترقة. ينقذني من هذا الرعب شعوري بسماع حديث الرجال الخمسة، بل وقدرتي على فهمه، رغم أنني لا أستطيع المشاركة فيه، فأنا لازلت غارقاً في أعماق الكابوس.

" لا أعرف لماذا يهتم "أبو رعد "بهذا المخبول، نصف النائم نصف الميت؟".

" يبدو أن هناك تعليمات مشددة خاصة به من قبل المعلم "أبو أحمد "العملاق، وحسب معلوماتي أن "أبو رعد "يكرهه بشدة، وكان يرغب بتصفيته منذ زمن، ولكنها تعليمات المعلم".

" سمعت أنه عميل ذكي، دائماً كان يزود "أبو رعد "بأخبار مضللة عن أعداء الوطن وعملائهم في الداخل، ولكن "أبو رعد "بحاسته الأمنية العبقرية اكتشف أنه يتعاون مع شخصيات معادية في الخارج، ويتستر على شخصيات معارضة عميلة في الداخل، وكل ذلك تحت غطاء مثقف، وسمعت أيضاً أن لا أحد لديه دليل حاسم على عمالته، فهو يخفي كل الآثار وراءه بمهارة".

" أظن أن "أبو رعد "تركه خارج الأقبية حراً بشكل مقصود، حتى تسهل مراقبة تحركاته واتصالاته، ففي النهاية سيرتكب خطأ ما ويقع، وتنكشف عمالته، وبالتأكيد لدى "أبو رعد "خطة عبقرية للإيقاع به وبشبكته الداخلية".

" هل لأجل هذا نحضره إلى المركز، ونعود به إلى البيت؟ لولا الأوامر المشددة لرميته عند أول منعطف، وجعلت السيارة تمر من فوقه، فيبدو موته حادثاً عارضاً، ويتخلص الوطن من عميل حقير يتحرك تحت غطاء مثقف".

" يبدو أن القيادة، ومن اختارتهم من أشخاص مثل المدير بهلول، تعرف أن معظم المثقفين، هم عملاء ومخربون للمسيرة النضالية الوطنية، ولها خططها للتخلص منهم".

ارتعدت كثيراً من فكرة مرور السيارة من فوقي، سأموت وليس أمامي سوى هذا العالم الماورائي الغباري، فأتحول إلى شبح غباري لن يعرف شيئاً من المتع الحسية للعوالم الماورائية الأخرى. ولذلك حاولت الهروب من حديثهما الذي يحمل رائحة الخطر والموت بين

ثناياه، والتلهي بالنظر إلى العتمة الغبارية عبر نافذة السيارة. وفجأة ألمح خيال أشباح ثلاثة يتحركون بحيوية في العتمة، يحملون مصابيح يضيئون بها ما حولهم، وللحظة أشاهد وجوههم بوضوح، وجوه ملتحية شبه ملثمة، ذكرتني بوجوه الإخوة الثلاثة الذين أوقفوني ذات ليلة منذ أكثر من عشرين عاماً بحد السكين على الرقبة. أتساءل عما يفعلونه في هذه الظلمة الغبارية، أدقق، أستغرب، هل لازال أحدٌ ما يجرؤ على إلصاق منشورات على الجدران في هذا الزمن. يتكرر هذا المشهد عدة مرات أثناء مرورنا في الشوارع، يلصقون منشورات بكثافة، يشاهد ذلك عناصر الجهاز الخمسة في السيارة، لا يلتفتون إليهم، وكأن الموضوع لا يعنيهم، أو إن هذه المجموعات الثلاثية تمارس عملها بموافقة رسمية منهم.

نصل إلى أمام منزلي، ينفتح باب السيارة، ينزل أحدهم منها، يدفعني الثاني بقدمه فأرتمي على أرض الشارع، يتجدد همسهم الضاج:

" لماذا لا نصعده إلى الشقة؟".

" الأمر واضح ومحدد، إيصاله إلى منزله فقط، لم يقولوا لنا كيف وماذا يجب أن نفعل".

" على الأغلب سيموت في الشارع وهو على هذه الحالة".

" سيظهر التحقيق بأنه كان يقرأ كتباً مخدرة، ثم سقط من النافذة تحت تأثيرها، ومات كما مات غيره بهذه الطريقة، انتهت القضية وليست بحاجة إلى تفكير".

وبمجرد ابتعاد السيارة ومن فيها بوجوههم الحجرية الخمسة أتنفس الصعداء، فأشعر أنني حي، إذ إنها لم تمر من فوقي. وعلى عكس توقعاتهم تتجدد قواي مع ابتعادهم عني، وكأن بعضاً من الكابوس والحمى قد زالا عني باختفائهم. أنهض بتثاقل، وأصعد الدرج إلى المنزل، ولكن عند المدخل أشاهد كدسة من الأوراق

تتلاعب بها عاصفة الغبار، يدفعني الفضول إلى أن ألتقط بضع وريقات منها، أجدها شبيهة بتلك التي كان يلصقها الملتحون الملثمون في الشوارع. الباب شبه محطم كما تركته عندما اصطحبتني الوجوه الحجرية، أدخل، عاصفة الغبار الزجاجية التي تركتها منذ يومين إثر تحطم زجاج النافذة وتناثره لازالت تتماوج في فضاء الغرفة، والذرات المعلقة بها تدور ببطء حول نفسها. لازال التيار الكهربائي وخط الهاتف مقطوعين، أجد علبة الثقاب وبقايا الشمعتين على الطاولة، أشعلهما، الساعة الثانية عشرة ليلاً تشير ساعة الحائط.

أشعر بجوع شديد ورغبة لا تقاوم بكأس شاي، أي شاي، تزداد الرغبة بالطعام والشاي وأنا أتذكر وليمة رجل الصحراء ليلة البارحة. أدخل إلى المطبخ، لا طعام، ولا غاز في الموقد، لا أجرؤ على التفكير بالخروج إلى السوق لأشتري طعاماً، من سيجد بقالية مفتوحة في منع التجول الغباري الليلي هذا. أخرج إلى أبواب الجيران الذين لا أعرف أحداً منهم، أقرعها، لا أحد يفتح، وكأن المدينة خلت من الناس. أعود إلى المنزل، أجد كيساً من كسرات بقايا الخبز الذي أحتفظ به للحمام والعصافير التي تزور نافذتي أيام المطر، أنفض عنهما الغبار والعفن، وأخرج ما أجده في الأكياس والعلب من بقايا معكرونة وأرز وبرغل وسكر وشاي وملح، أخلطهما معاً، وأسحقهما في وعاء معدني، أصب فوقهما بقايا من زيت. أجلس بهدوء وأتناول طعامي هذا على الطاولة بمتعة شديدة. أنظر إلى المصباح المعطل في سقف الغرفة، أتسأل، لو يشاهد من يجلس على الطرف الآخر من الشبكة مأساة الناس في شقق المصابيح المعطلة!

ألمح كدسة الأوراق التي التقطتها من الشارع مرمية على الطاولة، أقرر قراءتها بانتظار الصباح، إذ ربما سينجلي بعض من العتمة وتتضح الأمور قليلاً.

أرتب الأوراق حسب ترقيمها، أستبعد المكرر منها، أقرأ على رأس الصفحة الأولى: "بيان رقم 1".

إذاً هذا ما كـان يلـصقه الرجـال الملتحـون نـصف الملـثمين في الشوارع، وبرضى عناصر الجهاز. دفعني الفضول لأقرأ كل شيء:

"بيان رقم 1"

بما أن المرأة عورة، فهي مـأمورة بالاحتجـاب والـستر، ومنهيـة عن التبرج، وبمـا أنهـا أخـذت تتـشبه بالنـساء الكـافرات مـن خـلال العادات القادمة من بلاد الفرنجة والأعاجم، وحفاظاً عليها من ذئـاب بني الإنـسان، فإنـه عليهـا وتحـت طائلـة الـروادع الـشرعية أن تطبـق الأحكام الأخلاقية التالية:

ـ يُحظر لـبس الثـوب الـضيق الـذي يبـدي تقـاطيع بـدنها، مـن عضدين وثديين وخصر وعجيـزة ونحـو ذلـك، حـتى ولـو أمـام الأخ والأب.

ـ يُسمح بلبس الثوب الذي يكون كثيفاً وغـير رقيـق ولا شـفافاً، بحيث لا يظهر من خلفه شيء من بشرتها.

ـ لا ينبغي للثـوب أن يكـون قـصيراً إلى الكعـبين فقـط، وإنمـا سابغاً إلى أخمص القدمين، ملامساً للأرض على أقل تقـدير، وزيـادة في الحيطة تُلبس الجوارب على الرجلين تحته من النوع الذي لا يُظهـر لون البشرة، حتى لا تنكشف الساق أو القـدم أثنـاء المـشي أو صـعود الدرج أو ركوب السيارة.

ـ يُمنع من شد وسطها بما يشبه الزنار أو غيره، لأنه يـبين حجـم عجيزتها.

ـ لا تضم ثيابها حال قيامها، لأنه تظهر تقاطيع بدنها.

ـ يُمنع لبس حمالة الثديين، إذ إنها تبرز مفاتن صدرها.

ـ يُحظر لـبس شـيء يـشف عـن عنقهـا، أو يكـون مـشقوقاً مـن الأسفل، فإذا ما كان تحته ساترَ فلابأس، إلا أن يكون على شـكل مـا يلبسه الرجال.

ـ تُمنع من لبس البنطال والملابس الرياضية، لأنها تصف حجم رجليها وفخذيها وبطنها وخصرها وثدييها، ولا يُقبل بها حتى ولو كانت واسعة لأن فيها تشبهاً بالرجال.

ـ على العباءة أن تكون ضافية ساترة، بلا تلوين أو تزيين، تكسو المرأة من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها، غير مبدية لأي جزء من جسمها أو تقاطيعه، ولا تشف فتظهر ما تحتها من ثياب.

ـ لبس الحذاء ذي الكعب المرتفع من الدلالات الواضحة على سفور المرأة، فإذا مشت أثارت فتنة وكأنما تمشي على أطباق من بيض، وحين تضرب برجلها فكأنما تقول للرجال انظروا وشاهدوا. والضرب بالأرجل يكون سبباً لسماع الرجال صوت الخلخال، فيثير ذلك دواعي الشهوة إليهن".

أتوقف قليلاً عن القراءة، إذ أشعر بأن دوامة الغبار في الغرفة تشتد، بحيث أخذت ذراتها تدخل في عينيَّ، فتؤلماني. أنهض إلى صنبور الماء لأغسلهما، الماء يجري! جيد أنه لازال يوجد ماء في هذه الفوضى الغبارية، أغسل وجهي، أحس براحة مفاجئة تنتابني مع الماء، أتذكر المطر؛ فأقرر أن أضع رأسي كله تحت الصنبور، يأتيني انتعاش ممتع، أملأُ وعاءً بالماء وأسكبه على جسدي وأنا بكامل ملابسي عدة مرات، فتتغلغل الرطوبة فيه. أغسل بعضاً من المرارة في داخلي، فأشعر بشيء من الثقة بعد الانكسار الغباري الذي داهمني.

أعود إلى الطاولة، أتأمل ما قرأته من البيان حتى الآن على ما تبقىّ من الشمعتين، أعرف أن هذه فتاوى رجال الصحراء، ستتناقض مع فتاوى إخوة الإرشاد الديني لدينا، وخاصة لدى أولئك الذين لا يحصلون على معونات مالية من بلاد الصحراء، ويكتفون برواتب إدارة جمعيات الإرشاد ومنحها. يبدو أن الرجال في بلاد الصحراء الغنية بالذهب الأسود يأكلون كثيراً من اللحوم المغذية على المناسف، ويضيفون إليها بهارات منشطة سحرية من بلاد التوابل

الشرقية، وفق وصفات تركيبية سرية من شركات الكوكاكولا الأمريكية، فتنتابهم طاقات حيوية عالية المستوى، وتتحرض لديهم الرغبات والشهوات الجنسية في صحوهم ومنامهم. فإذا ما سمعوا صوت امرأة أو شموا رائحتها من بعد انتصبت أعضاؤهم الجنسية أكثر، فكيف إذا ما شاهدوها وحيدة في الشارع دون حراسة مشددة ولديهم كل هذه الطاقة الشبقة.

أسخر من نفسي، لا أعرف من أين تأتيني مثل هذه الأفكار العبثية واللامنطقية، بالتأكيد هي آراء شاذة لا تستند إلى وقائع، فأنا لم أسافر إلى بلاد الصحراء ولم أقرأ إلا القليل عنها. والدليل على التخريف الذي ينتابني هو أن النساء هناك يأكلن أيضاً من مناسف اللحوم ذاتها، ورغم ذلك ليس لديهن طاقات جنسية حيوية زائدة، وإلا لظهرت فتاوى أخرى معاكسة تحذِّر الرجال من التمادي في اللباس والحركات، حتى لا تفترسهن النساء الشبقات الشرسات في البيوت والشوارع، ويقعوا ضحية اغتصاب نسائي يفقدون معه ذكوريتهم، ويتم تمزيقهم بالأظافر الطويلة، والأسنان الحادة، والعيون الشريرة..... أو ربما هذه الفتاوى خاصة بالرجال العجائز الذين يأكلون النساء بعيونهم، فإذا ما تنشطت طاقاتهم الجنسية توقفت قلوبهم الضعيفة عن الخفقان، فتؤدي بهم إلى الموت..... ها أنا أعود من جديد إلى التخريف!

على كل الأحوال هذه الفتاوى غير صالحة لبلادنا، فالمسؤولون عن دورات الإعداد الوطني هم فقط الذين يأكلون اللحوم المغذية ليل نهار، أما الفقراء فيتمتعون طوال الأسبوع بمنظر اللحوم في الواجهات التجارية المبردة، ويكتفون نهار الجمعة بتناول قطع صغيرة ناعمة يخلطونها مع كميات كبيرة من البرغل، يأكلونها بعد أن تحصل مذابح بين أفراد العائلة الواحدة، ليحصلوا على لقيمات منها، ولهذا السبب أسمع أصوات سيارات الإسعاف في الشوارع بشكل محموم يوم الجمعة بالذات.

وبسبب عدم تناول اللحوم لدينا، يبدو الرجال والنساء فاقدين النشاط والحيوية، يمشون في الشوارع كئيبين منهارين، يسيرون كخيالات بعد أن أصبحت أجسادهم هزيلة ومنحنية فاقدة الحماس، وهو ما ينطبق بشكل خاص على أعضاء الرجال الجنسية. أما ما يخص أعضاء النساء الجنسية فقد أصبحت جافة ويابسة فاغرة الأفواه، تبدو معها المرأة وكأنها تشيخ في الثلاثين من عمرها. ولهذا فإنه في بلادنا لا يغتصب الرجال النساء ولا تمزق النساء الرجال، لا في الشارع ولا في غير الشارع.

وبالنسبة لمسؤولي دورات الإعداد الوطني فهم أصلاً لا يمشون في الشوارع، معروفون بالصحة والحيوية والنشاط، هم وأعضائهم الجنسية المنتصبة دائماً، إذ إن هذا ما يؤدي إلى التعرف عليهم بسهولة شديدة، ويشكل بالتالي خطراً حقيقياً على حياتهم من قبل الهزيلين الذين قد يلتهمونهم في الشارع. أما لماذا لا يشكلون خطراً شبقاً على النساء، فإنما يعود هذا إلى المقاطعة الوطنية الرسمية للبضائع الأمريكية، بما فيها الوصفات السحرية المنشطة للكوكاكولا، فأينما سرت في الشوارع تجد بقايا عبارات قديمة مخطوطة بحروف كبيرة شبه ممحية "قاطعوا البضائع الأمريكية"، على الجدران والأرصفة والأشجار وبقايا أكياس الرمل. ولذلك تتناسب حيوية مسؤولي دورات الإعداد الوطني مع كدسة عشيقات من السكرتيرات، وسيدات الأعمال، وتنويعات من فتيات بقايا الدول الاشتراكية سابقاً، ولا خوف كبير على بقية النساء.

أشعر بالجوع، أتناول بقايا ما سحقته في الوعاء، وطبعاً دون لحم، ربما لهذا أصبحت ضعيفاً وخاملاً منذ أن رجعت من سلومانيا.

" ..... ـ لا يجوز تخفيف شعر الحاجب بالنتف، فهذا العمل كبيرة من الكبائر لأن فيه تغيير بالخلق، ويمكن تخفيفه بالقص وإن كان ذلك مكروهاً، ويُسمح به فقط في حال كان كثيراً بحيث ينزل على العين ويؤثر على النظر.

ـ يُحرَّم لبس الباروكة، إلا إذا كانت المرأة قرعاء فيمكن لبسها.

ـ يُمنع التشبه بنساء الكافرين والملحدين من خلال ما يلي:

* قص الشعر فوق الجبهة وجعل خصلات تتدلى عليها.

* فرق شعر الرأس من جانب، أو جمعه من ناحية القفا، أو جعله فوق الرأس.

ويجوز فرق الشعر في الوسط من الناصية، وهي مقدم الرأس إلى أعلى الرأس.

إن تكبير الرأس بواسطة التسريحة فيه تغيير في الخلق.

ـ ينبغي ترك المناكير لأنها تمنع وصول الماء إلى الظفر أثناء الوضوء.

ـ إذا استعطرت المرأة فمرت على قوم ليجدوا ريحها، هيجت شهوة الرجال بعطرها، وحملتهم على النظر إليها، ومن نظر إليها فقد زنى، فتكون سبب الزنا.

ـ التستر والتقنع هو من حق الحرائر والإماء.

ـ المتبرجة قنبلة موقوتة إن ركبت في سيارة أو سارت في شارع، تسبب تعريض نفسها للمعاكسة أو الخطف أو الاغتصاب، وربما القتل.

ـ التبرج مهلكة، وهو من صفات أهل النار، وعلى المرأة التزين والتجمل والتأنق للزوج فقط.

ـ إذا رافق الزوج زوجته المتبرجة عند الخروج من البيت، فيحظى برؤية زينتها بطريقة (اشتراكية) بينه وبين الرجال الآخرين.

ـ لا تُعفى العجائز اللواتي لا يرجون نكاحاً من عدم وضع الحجاب، ولا يحق لهنَّ التبرج لأنه يفضي إلى الفتنة، فكل ساقطة لها لاقطة.

ـ تصبح الطفلة عورة إذا ما بلغت سبع سنين".

ابتسم، هل من الممكن أن تحاول هذه المجموعة صاحبة البيان أن تسيطر على الشارع لدينا بمثل هذه الأفكار الغريبة! تذكرت رجل الصحراء في اجتماع لجان الرقابة، وهو يشير إلى أن جميع الأشكال، والوضعيات، والإمكانيات، والتخيلات، والتطبيقات، المتعلقة بالجنس هي مسموحة شرعاً في القصور الأميرية لديهم. وهذا يعني أن هذه الفتاوى مكرسة للفقراء وللمارة في الشوارع بالتحديد، ولكن بما أنه لا يوجد في بلاد الصحراء فقراء ـ على الأقل مثل فقرائنا ـ، والشارع مقتصر على السيارات المكيفة التي تجتازه مسرعة، حيث لا وجود للمارة بسبب الحر الشديد، فبالنتيجة لا مجال كبير لديهم لتطبيقها، إذا لمن يضعون هذه الفتاوى!

من جديد أجد نفسي أفكر بطريقة غريبة شاذة، أعتمد فيها على معلومات قديمة غير موثوقة، فلقد سمعت أخيراً أن هناك مجمعات تجارية ضخمة، مصممة وفق أحدث الطرق الأمريكية الاستهلاكية، تشجع الجميع رجالاً ونساءً على الشراء معاً، بل إن الباعة فيها رجال يبيعون النساء مباشرة، فيسمعون أصواتهن ويشمون رائحتهن, وتحتك أيديهم مع بعضها في أثناء دفع النقود وتناول المشتريات...... ربما لأجلهم تم وضع هذه الفتاوى!

أتذكر بلدتي في ستينيات القرن العشرين، بلدتي الهادئة التي كانت تعيش بألفة وحميمية مع نفسها دون النظر إلى طرق الإيمان لدى مختلف الناس. كانت النساء الفلاحات في منطقتنا الريفية يرتدين ملابسهن الشعبية التقليدية البسيطة، المتميزة برسومها التزيينية النباتية، والتي تميل ألوانها إلى الهدوء كلما تقدمن في العمر، وكن يضعن غطاء رقيقاً أبيض اللون ينساب إلى الصدر، حيث يُخفيَن قطع النقود القليلة في صداراتهن الداخلية . تتناسب هذه الملابس مع البيئة الخضراء ومع طبيعة أعمالهن في البساتين والحقول وهن يعملن إلى جانب الرجال، وهكذا لبست عماتي وخالاتي. وفي أحيان كثيرة

تأتيني صورة الناس العائدين من الحقول مساءً في الممرات الضيقة بين الأشجار والسياج، التي تنمو قرب السواقي الصغيرة، لتذكرني بالحياة الهادئة والبسيطة.

وما كان يسحرني أكثر هو لباس تلك النسوة اللواتي لا يعملن في الحقول، سيدات منازل، معلمات ومدرسات، موظفات على قلتهن، فتيات في مقتبل العمر. تنانير أنيقة لعند الركبة، على الأغلب ذات لون أسود، وقمصان ناعمة شبه شفافة بألوان شاعرية، وردية، سماوية، فستقية. وكان الأجمل فيهن هو طقوس الجلوس إلى المرآة بعض الوقت، حيث ينتهين بزينة خفيفة على الوجه، وتسريحة شعر جميلة، كانت الأشهر بينهن رفع الشعر إلى الأعلى ونحو الوراء، فتعطيهن مظهر الجمال والعظمة معاً. وكانت معظم هؤلاء النسوة يسرن دون غطاء على الرأس، وبعضهن يضعن غطاءً شفافاً من لون قمصانهن كمظهر جمالي، فإذا ما تراخى عن الرأس وسقط إلى الخلف تركنه، وتحول إلى ما يشبه ربطة عنق نسائية.

كانت الفتيات يسحرنَ الشباب الذين كانوا يخرجون دائماً إلى نزهة المساء بذقون حليقة، مع شوارب تزين وجوههم، يتخايلون بها، طويلة وقصيرة، كثيفة ورقيقة، بنهايات تنمو نحو الأعلى أو تميل نحو الأسفل، ويرفعون رؤوسهم عالياً وينفخون صدورهم التي تبرز من تحت قمصانهم المفكوكة بزر أو زرين من الأعلى، وقد برزت سواعدهم المفتولة من قمصانهم ذات الأكمام القصيرة . وكانت قصص حب جميلة وشاعرية، ولم يسمع أحد بقصص اغتصاب إلا في القصص البوليسية الرخيصة التي تجري حوادثها في بلاد الغرب.

" ..... ـ الاختلاط هو اجتماع الرجال والنساء في مكان واحد من غير ساتر أو حاجز يفصل بينهما.

ـ على المرأة التستر الكامل عن كل أجنبي، بمن فيهم شقيق

الـزوج، أو زوج الأخـت، أو أولاد العـم أو الخالـة، سـواء بحـضرة محرم أو لا، ويجوز لها إبداء الكف لحاجة التنـاول والأخـذ والعطـاء أمام محارمها إذا أمنت عدم التحديق فيه من قبلهم.

ـ مصافحة المرأة للرجال من المحارم هو من وسائل الفتنة.

ـ يُمنع ركوب المرأة في السيارة منفردة مع أجنبي، حتى ولو كان أخ الزوج، دون محرم يرافقها. والرجل الـذي يرضـى ذلـك لمحارمـه ضعيف الدين، ناقص الرجولة، قليل الغيرة.

ـ يُحرم على الأجنبي مس امرأة في السوق أو وسائل المواصـلات، لأن مس البدن أبلغ في اللذة وأقوى في إثارة الغريـزة وإيقـاظ الـشهوة من النظر بالعين.

ـ يدخل في محارم المرأة العبيد الذين تملكهم.

ـ إذا أقبلت المـرأة جلـس الـشيطان علـى رأسـها، فزينـها لمـن ينظر، وإذا أدبرت جلس على عجيزتها، فزينها لمن ينظر.

ـ عندما يجتمـع رجـل وامـرأة لوحـدهما فـإن الـشيطان سـيكون بالتأكيد ثالثهما....."".

أتعب، أتوقف، أهرب من جديد إلى ذكريات بلـدتي الجميلـة، الذكريات الشاعرية قبل أن تتغير الأحوال..... إذ جاء بعد فتـرة الحـب والوئام زمن غدار، تنافس فيه إخوة جمعيات الإرشاد الديني، وإخـوة من بلاد الصحراء، مع دخول على الخـط لإخـوة مـن عمـائم الجبـال البعيدة السوداء. تنافسوا بحكايات عن رؤى جاءتهم في لحظات وَجْـد سماوية، وأعلنوا عن صعود الشياطين في نهايـة القـرن العـشرين مـن باطن الأرض، ودخولهم إلى أجـساد النـساء. تحولـت النـساء جميعـاً وبشكل مفاجئ أذهل العالم إلى كائنات وحشية جهنمية، بلبلت عقـول الرجال وأفئدتهم، وجعلتهم أقرب إلى المجانين الممـسوسين. فمـا إن تنفرد امرأة برجل حـتى يهجـم الـشيطان الموجـود في داخلـها عليـه، يمتص رجولته ودمه وعقله، ويجعله مريضاً لا يفكر إلا بعضوه الـشبق

ليل نهار. ولم يعد أحد يدري أين استقرت الشياطين في النهاية، في أجساد النساء أم في أجساد الرجال. ولكن الإخوان ذوي الإيمان الشديد، الذين استطاعوا الصمود أمام إغراءات تلبس للنساء، قرروا سد المنافذ التي يستطيع الشياطين النفاذ منها إلى أجساد النساء.

رأى بعض الإخوان المعتدلين أن الشياطين تعشش بداية في شعر المرأة، ثم تدخل إلى الأجساد عن طريق الأذنين، فأفتوا بستر الرأس بغطاء سميك على الرأس والأذنين، مع التأكيد على الثني بشدة عند الصدغين مباشرة، حتى لا تتسلل من هذه الفتحات الرقيقة. أما الأصوليون فقد رأوا العكس، فالشياطين تستطيع الدخول إلى جسد المرأة من كل الفتحات، من الأذنين والأنف والعينين، وعلى الأخص من فتحة المؤخرة والممر الرطب المريح للعضو الجنسي. ولذلك أفتوا بشدة بستر المرأة بالكامل بطبقات متتالية وكتيمة وسميكة من الملابس، وجعلوا لونها أسودَ حالكاً حتى يضل الشيطان طريقه. أما المتشددون جداً فقد رأوا أن الشيطان بقدراته الجهنمية يستطيع أن يتماهى مع جسد المرأة بمجرد رؤيته لها، ولذلك حددوا إقامة المرأة ببقائها في بيت أهلها بشكل دائم، لا تخرج منه أبداً، وهي أصلاً ليس لها أي شيء تفعله في الخارج. ولكنهم بعد طول تفكير سمحوا لها بالخروج منه مرتين فقط وبحراسة مشددة جداً من أشجع الشجعان، مرة إلى بيت زوجها، ومرة إلى قبرها..... أشعر بالانزعاج من نفسي، فأنا لا أسير بالقراءة قليلاً إلا وتهاجمني الأفكار الغريبة والسخيفة، ما علاقتي أنا بهؤلاء العلماء، فأنا لا أفقه شيئاً من علومهم.

"..... ـ تلزم النساء البيوت لأن خروجهن من أسباب الفتنة، وإذا اضطرت إلى الخروج لأسباب قاهرة فعليها:

* لزوم جانب الطريق والابتعاد عن الأماكن المزدحمة.
* أن تكون غضيضة الصوت، فالصوت عورة يثير الفتنة.
* تجنب الضحك وعدم الالتفات كثيراً.

*الامتناع عن إلقاء السلام على الرجال، حتى ولو قابلها أحد محارمها، ولها أن تلقي السلام على النساء بصوت منخفض.

* تجنب تقبيل الأخوات في الشارع، فقد يثير ذلك فتنة أو يحرك شهوة لسائر أو مشاهد.

ـ يمكن للمرأة النظر إلى ما ليس بعورة من الرجل ـ أي ما فوق السرة وتحت الركبة ـ، فهو مباح ما لم تصحبه شهوة أو تخف منه فتنة، ويعني هذا الابتعاد عن التكرار أو التحديق الذي يصاحبه التلذذ.....".

أتذكر ما حدث في بلدتي عندما سمعت فتياتها ونساؤها بأخبار قدوم الشياطين من باطن الأرض. انتشرت حكايات قام بترويجها بعض المرشحين الجدد لجمعيات الإرشاد الديني، أن المرأة التي يجدون في جسدها شيطاناً سيتم حرقها في ساحة البلدة مثل ساحرات القرون الوسطى في أوروبا. تراكضت الفتيات بسرعة ولبسن الغطاء على الرأس، ولكنهن ترددن في ستر بقية أجسادهن على الطريقة الصحراوية، كان هذا يعني لهن فقدان التواصل الإنساني وحكايات العشق الحلوة التي اعتدن عليها مع شبان البلدة، وهو ما دخل في دمائهن وأصبح جزءاً من أحاسيسهن ومشاعرهن. ثم إنهن شعرن بالغيرة الشديدة من الشباب، وتساءلن في أنفسهن، لماذا يدخل الشيطان إلى أجساد النساء فقط، ولا يدخل إلى أجساد الرجال. فليدخل إلى أجساد الرجال وليذهبوا ليتستروا ويخفوا صدورهم وسواعدهم وأعضاءهم المنتصبة دائماً من تحت البنطال.

انتاب القلق الشديد النساء من أخبار وصول الشياطين القريب جداً إلى البلدة، فقد سَمِعنَ أنهم أصبحوا على حدود الدولة مع جوازات السفر النظامية، فلا شيء غير قانوني أو غير شرعي سيمنع دخولهم. وجاءهم الحل السحري غير المتوقع، فقد سمعن أن ملابس الجينز الأمريكية المتينة، والمصنوعة خصيصاً لرعاة البقر الأمريكيين

الجلفين، تستطيع أن تحميهن بالتكامل مع غطاء الرأس، وهي بسماكتها لا تسمح بتسلل الشياطين إلى أجسادهن على الإطلاق، وعلى كل الأحوال فهي مضمونة عالمياً بماركات أمريكية شهيرة. وبالرغم من الشعار المعلن عن مقاطعة البضائع الأمريكية، فإن ملابس الجينز الأمريكية كانت تملأ الأسواق بكثافة عالية بسبب عمليات التهريب من إحدى الدول المجاورة. وإن تم تفسير تواجدها الكثيف في الأسواق رسمياً بسبب طول الحدود التي لا يمكن مراقبتها بالكامل وإلا لكانت هناك حاجة إلى جيش كامل لقمع التهريب، إلا أن بعض المراقبين ذوي النية السيئة علق بأن دخولها إلى البلد يتم بموافقة ضمنية من أحد رفاق دورات الإعداد الوطني النافذين مقابل نسبة عالية من الأرباح.

أحد الخبثاء من جمعيات الإرشاد الديني استقرأ الأوضاع المستقبلية، وفكر بما أن موضة التستر من الشياطين قادمة لا محالة، فلماذا لا يستغل الأوضاع لمصلحته تجارياً، ولماذا لا يصبح قوياً ذا نفوذ اقتصادي مثل رفاق دورات الإعداد الوطني. بدأ العمل مباشرة مع أخبار وصول الشياطين، ففتح مصنعاً لغطاءات الرأس بأفكار عصرية جديدة لم تعرفها المنطقة، إذ استقدم مصممي أزياء إيطاليين شهيرين، وقام بتصنيع غطاءات رأس جميلة ومميزة من جميع الأشكال والألوان، عالية، ومدورة، ومستطيلة، وبطبقات، وربطات شريطية تزينية، ثم قام بإنشاء محلات تجارية خاصة بالأغطية الشرعية. وأعلن التاجر الجديد أن الشيطان سيقف أمام جمال هذه الأغطية الشرعية مرتبكاً، وسينسى الدخول إلى جسد المرأة.

ولكن كيف يستغل أحد إخوة الإرشاد الديني الوضع ويحوله لصالحه، ويقف رفاق دورات الإعداد الوطني ساكنين؟ هذا غير مقبول حتى على المستوى الاقتصادي. ولذلك سافر أحد الرفاق ذو الميول الأمريكو ـ رأسمالية إلى أمريكا مباشرة، وحصل دفعة واحدة على وكالة رسمية بإنشاء معمل جينز أمريكي. وكان لنا الشرف في

البلدة إقامة أول معمل جينز بالقرب منها، فنزلت الأسعار بشكل قياسي مما أدى إلى ضرب سوق التهريب، والتنازع مع الرفيق الضامن لعمليات التهريب. إلا أن النزاع انتهى بينهما ودياً بسب الانفتاح القادم نحو التوجهات الأمريكية المعتدلة المسالمة.

وفجأة اختفى سحر النساء والفتيات من شوارع بلدتي، تحولن إلى رؤوس ومؤخرات، رؤوس بأغطية مزركشة صنع وطني، ومؤخرات محشورة ببناطيل جينز، كتب عليها بالأمريكية "صنع في أمريكا". وبما أن الرؤوس وما فيها من أفكار لم تعد تلفت الانتباه، فقد توجهت الأنظار إلى المؤخرات الأمريكية، فأصبح الشباب يتأملون المؤخرات بتنوعاتها الجمالية، وما يمكن أن تثير لديهم من أحاسيس متنوعة. مؤخرات عريضة، وصغيرة، ومدورة، وضخمة، ونحيفة، ومكتنزة، وممحوة، وهابطة. وبدلاً من التغزل بعيني الفتاة الساحرتين أو ابتسامتها الناعمة، تحول الغزل إلى المؤخرات، بطيخية، إجاصية، موزية، برتقالية، فجلية.

وبالرغم من كل هذه الاحتياطات بستر المرأة، إلا أن الشياطين لم يمروا من البلدة أبداً، بل إن أحد الملاحدة أخذ يعلق في كل مكان، أن حكاية الشياطين هي كذب بكذب، وتلفيق بتلفيق، وما هي إلا محاولة لتثبيت مواقع إخوة جمعيات الإرشاد الديني وسلطتهم. وبالرغم من أن الكثيرين مثله اكتشفوا الكذبة، إلا أنه لسوء الحظ تحولت المرأة في عيون الرجال إلى رأس فارغ ومؤخرة ممتلئة، وأصبح من الصعب إعادة دورة الحياة إلى الوراء.

أقرأ من جديد:

" .... ـ لا يجوز نكاح الزانية، ولا المشركة، ولا الشيوعية، ولا اللادينية، ولا غير المسلمة، ويستثنى من ذلك أهل الكتاب.....".

أتوقف عن القراءة هنا، لقد نسوا المرأة "الاشتراكية "في هذه الفتوى الأخيرة، أم تناسوه بقصد؟ وإذا كان الاحتمال الثاني

صحيحاً، فهذا معناه أن مجموعة منشقة من رفاق الإعداد الوطني تتعامل معهم، ولذلك تم إسقاط "امرأة الفتنة هذه".

من المعروف أن قيادات من دورات الإعداد الوطني تتقابل منذ زمن طويل مع إخوة من بلاد الصحراء، في جلسات رسمية ظاهرياً ولكنها حميمية في الواقع، ويتخللها رحلات صيد في الصحراء مع مناسف عربية مميزة، وهم يحصلون بالنتيجة على مبالغ طائلة جداً للدفاع عن "حمى الأمة كلها "ضد "الهجمات الإمبريالية وخناجرها في المنطقة". ولكن جميع الهزيلين في بلادنا لاحظوا ظهور فكرة المزارع الترويحية على أطراف المدن لأول مرة، ومن ثم توسعها وتكاثرها، وذلك منذ ورود هذه المساعدات الصحراوية بكثافة ضد "المخططات الإمبريالية". والذي زاد من شك الهزيلين بهذه المواقع الزراعية هو منعهم من الدخول إليها، واقتصار امتلاكها والتمتع بها على المميزين من دورات الإعداد الوطني. ولذلك كثر اللغط حولها وتوسع، حتى كاد أولاد العم في الصحراء يفقدون الثقة بالأهداف التي يدفعون من أجلها المبالغ الطائلة، لولا تسلل أحد الهزيلين الذي ظن نفسه من الأذكياء إلى إحدى تلك المزارع، واكتشافه فيها مخابئ سرية لدبابات وصواريخ وطائرات عامودية، تستخدم ضد "المخططات الإمبريالية". ومع أنه تم إعدام هذا الهزيل لإفشائه أسراراً وطنية، إلا أنه تم اقتناع كل الهزيلين في البلد من وقتها أن تلك المناطق الزراعية هي مناطق وطنية حساسة "يُمنع الاقتراب منها والتصوير"، وأصبحت أمراً طبيعياً في حياتهم اليومية، واعتادوا ليس فقط على عدم الدخول إليها، بل وعدم التفكير بها.

على كل الأحوال هذه الحكايات لا تعتمد على مصادر موثوقة وإنما هي مجرد أقاويل، تشبه حكايات الجدات القديمة التي كنا نسمعها قبل ظهور التلفزيون، ومن الأفضل أن أنهي قراءة البيان بالكامل لأرى إلى أين ستصل هذه الفتاوى:

" ..... ـ المرأة تسير وراء شيطانها إذا رفضت تعدد الزوجات، تعدد الزوجات من أهم أسباب تكريم المرأة.

ـ كلما علت الدرجة العلمية للمرأة ضاقت فرصة الزواج بها، فالرجل ينظر عادة إلى الزواج ممن هن أدنى منه.

ـ من خاف ألا يعدل اكتفى بزوجة واحدة مع ما ملكت يمينه من السراري مهما كثر عددهن، فالعدل هنا ليس واجباً، إذ ليس لهن من الحقوق ما للزوجات، ونكاحهن بطريق الملك لا بطريق العقد.

ـ على المرأة أن تلبي زوجها كلما أراد منها الفراش، حتى وإن لم يكن لديها ميل إلى ذلك، إلا لعذر مانع، ولا يُعد الخبز على التنور عذراً مانعاً، كما أن الحيض ليس بعذر عن الامتناع، لأن لزوجها حقاً في الاستمتاع بها فوق الإزار.

ـ عندما لا تلبي المرأة رغبة زوجها تلعنها الملائكة حتى تزول المعصية بطلوع الفجر والاستغناء عنها، أو بتوبتها ورجوعها إلى الفراش.

ـ إذا تمادت المرأة في النشوز فيمكن لزوجها أن يهجرها في المضجع. وإذا استمرت فيمكن أن يضربها، بشرط ألا يكون ضرباً مبرحاً يترك أثراً أو عاهة أو يكسر عظماً، ولا يوالى بالضرب على موضع واحد من بدنها، وليتقِ الوجه لأنه مجمع المحاسن، ولا يبلغ بالضرب عشرة أسواط، وقيل ينبغي الضرب باليد لا بالسوط أو بالعصا. والزوجة تشعر إعجاباً بزوجها كلما ضربها وقسا عليها، إذ إنها تشعر برجولته وقوته، فيمكن أن تتلذذ بالضرب.

ـ يجوز أن ينام الرجل وزوجته متجردين، متغطين بغطاء واحد.

ـ يجوز للزوج أن يتجرد من كل ملابسه لزوجته ولأمته إثناء الجماع، ويمكنه النظر إلى عورتهما، ولكن ينبغي أن يكون عليهما ما يسترهما.

ـ يجوز للرجل أن يجامع زوجته أكثر من مـرة، ولكنـه ينبغـي أن يتوضأ قبـل أن يعـاود الجمـاع، والوضـوء مـشروع هنـا للرجـل دون المرأة.

ـ يجوز للرجل أن يجامع زوجته من ورائهـا إذا كـان الجمـاع في قبلها لا في دبرها، ويحرم عليه أن يجامعها في دبرها على أي حال.

ــ يجـوز للرجـل أن يمـص ثـدي زوجتـه، ولا تُحـرم عليـه ولا التفريق بينهما إذا وصل اللبن إلى المعدة.

يتم التأكيد على هذه الأحكـام وبخاصـة أن النـساء قـد تجـاوزن الحدود الخطيرة "كاسـيات عاريـات"، ليـصبحن علـى مـستوى أكثـر انحطاطاً، فهن اليوم عاريات ساقطات، يتبذلن ويكشفن عـن الـشعور والنحور والصدور والأفخاذ، مما تشمئز لـه النفـوس الطيبـة والفطـرة السليمة، وذلـك في مجتمعـات حديثـة أصـبح مـن سماتهـا المميـزة اللــواط، والــسحاق، والممارســات الجماعيــة للجــنس، والــزواج التجـريبي، ونـوادي الـشذوذ، ونـوادي العـراة، والـصور الخليعـة، والمجلات الماجنة، والأفلام الجنسية الفاضحة.

من فتاوى علماء الصحراء الأجلاء.

قيادة تجمع العودة إلى الأصول في بلاد الصحراء ـ مجموعة أبي عمار.

قيادة تجمع العودة إلى الأخلاق الوطنيـة الحميـدة ـ مجموعـة المدير بهلول.

إخوة جمعيات الإرشاد الـديني ـ القيـادة المؤقتـة للمجموعـة المنشقة.

أجد ورقة أخيرة، أقرأ ما فيها:

"ملحق للبيان رقم 1 "

حفاظاً على الأخلاق الحميدة مـن أخطـار الإباحيـة تُمنـع قـراءة

الكتب ـ ماعدا الكتب المقدسة ـ منعاً باتاً تحت طائلة المسؤولية، وعلى من لديه أي كتاب أن يبادر بتسليمه إلى لجان دورات الإعداد الوطني، أو جمعيات الإرشاد الديني في الحي الذي يقيم فيه، حيث سيتم تجميعها وفق محاضر ضبط نظامية، ومن ثم حرقها رسمياً في اجتماع شعبي حاشد في الملعب الرياضي الكبير في المدينة.

وكل من تتواجد لديه كتب في منزله بعد نشر هذا التعميم، يتم إحراقها مع المنزل الموجودة فيه لمخالفة أحكام هذا التعميم.

قيادة تجمع العودة إلى الأصول ـ مجموعة المدير بهلول.

أنتهي من قراءة البيان، أنظر في العتمة الغبارية الحالكة عبر النافذة، فلا أشاهد سوى السواد، أصبحت الرياح تعوي مثل الذئاب وتصفر مثل شياطين الجن، كما كنا نسمعها في حكايات الجدات القديمة. ذابت الشمعتان وانطفأ نورهما، فكرت، هل سينجلي الصباح عن شيء ما يوقف هذه الأشباح الغبارية، أم سينتهي كل شيء إلى الدمار الشامل.

أذهب إلى السرير، لايزال ممتلئاً بطبقة من الأتربة والزجاج المحطم، أنزلق تحت الغطاء، أنظر أمامي، لا أشاهد إلا العتمة الحالكة. لا يأتيني النوم، أشعر بصحو غريب، بعكس النعاس الشديد الذي داهمني بقوة في المكتب أثناء اجتماع اللجان.

ترتسم فجأة في العتمة خيالات، تلتمع كإضاءات خطية في السواد، تهتز بتواتر شديد وتجأر بعواءات وحشية. تصلني في البداية على شكل همسات ضاجة، ولكنها ليست شبيهة بهمسات الوجوه الحجرية المهدِدة والتي سمعتها في السيارة، همسات تحمل هنا عنفاً بدائياً غريزياً. تتضح الخيالات فإذا هي أشباح رجال بلحى رمادية كثيفة ومشعثة، طويلة جداً بحيث تلامس الأرض، وعيون جاحظة يتطاير منها الشرر، يرتدون عباءات وبرية سميكة بنية اللون. يُضاء مشهد بانورامي مجسم في فضاء الغرفة أمامي، تتضح تفاصيل الصورة

بتفاصيلها وألوانها، وتُسمع الأصوات بشكل طبيعي، فيما أبقى أنـا في الظلام، أشاهد ما يحدث أمامي دون أن أقوى على الحراك، هـل هـو كابوس جديد؟ وهل ستعود إلي الحمى مرة أخرى؟

تـضج أصـوات الرجـال الملـتحين وهـم يـصرخون ويهـدرون ويزأرون، أراهم يركضون فِي الشوارع، يطاردون نساء، نـساء يهـربن منهم وهن يتضاحكن، يثرْنَ غضبهم بغناء سـاخر مـن لحـاهم، نـساء يلبسن بنطلونات وتنانير، دون أغطية على الرأس، نساء تظهـر تقـاطيع أجسادهن من تحت الملابس، ينتعلن أحذية بأكعـاب عاليـة ويتمـايلن بإغواء، منتوفات شعر الحاجب بحيث تغـيرت خلقتـهن، بتـسريحات فـوق الجـبين جعلتـهن شـبيهات بنـساء الغـرب، يُقـبلن بعـضهن في الطرقات فيثرن الفتنة والإغراء لمن يشاهدهن. يطاردون نساء ملعونات لا يلبين رغبات أزواجهن عندما يدعوهن إلى الفـراش، نـساء يجلـس الشيطان على رؤوسهن وهن مقبلات، وعلى أردافهن وهـن مـدبرات. يطاردون عجائز متبرجات، منحنيات الظهـر لا يقـوين علـى الوقـوف لولا عكازاتهن، يطـاردون طفـلات صـغيرات تجـاوزن سـن الـسابعة فأصبحن عوراتٍ، ولم يلتزمن بالغطاء الكامـل لأجـسادهن، والـسابغ لما تحت الكعاب.

تقترب الصورة أكثـر مـن الرجـال الملـتحين وهـم يتراكـضون، تتضح تفاصيلهم أكثر، ها هم يحملون عـصي غليظـة وسـياط طويلـة للتأديب، سلال ثقيلة مليئة بأحجـار للـرجم، زجاجـات أسـيد كـبيرة لحرق الوجوه، والنحـور، والـصدور، والـسواعد، والأرجـل، الـتي تظهر أو تشف من تحت ملابسهن، حتى لا تغوي الرجال وتفتنهم.

يستمر المشهد البانورامي المجسم بلقطة جديـدة، صـور النـساء تحتـل الـشوارع والـساحات مرتفعـات الـرأس بخـيلاء، يتحـدين التحريمات الصحراوية، لم تفلح معهن لا التهديـدات ولا العقوبـات. لازلن يلبسن ولا يلبسن، يسخرن من رجال اللحـى الـذين يـصرخون

بهن "يا كاسيات عاريات"، لازلن يفتحن النوافذ وينظرن منها إلى السماء والعصافير والمارة، يجلسن على الشرفات يشربن القهوة، يصعدن إلى الأسطح لرؤية الحمام، يخرجن إلى الشوارع ليتنزهن أمام محلات الأزياء، يأكلن الهمبرغر والبيتزا ويشربن الكوكاكولا، يقفزن، ويضحكن، ويتراقصن، ويقبلن بعضهن في الطرقات، يركبن دراجات هوائية ويقدن سيارات. نساء لم تفلح معهن لا التهديدات، ولا التحريمات، ولا العقوبات.

ينتقل المشهد البانورامي المجسم إلى اجتماع لرجال اللحى الطويلة، يتناقشون ويتجادلون بلغط غاضب وصاخب، لا يستطيعون السيطرة على الشوارع، يقررون توسيع حملات المطاردة للنساء، فلينقلوها من الشوارع إلى داخل البيوت. من هنا تبدأ الفتنة، هنا يعشش الشيطان، ينسل من الحمامات وبيوت الخلاء، ويثير نزوات النساء القاصرات عقلاً وديناً، والمخلوقات من ضلع أعوج ويكفرن العشير.

طلبوا من النساء الاستتار في البيوت بالكامل أينما تحركوا، وصولاً إلى حد الاستحمام بملابسهن، حتى لا يستغل الشيطان عريهن، فيغويهن، ويغتصبهن مع رفاقه من الجن الأشرار، فتلدن عفاريت كافرة. وإذا ما أرادوا النوم فعليهن أن ينزلقن في فراشهن بملابسهن السميكة تحت عدة أغطية، خوفاً من أن ينسل الشيطان من أية فتحة إلى دفئهن المغري، وتقع الواقعة التي لا رادَّ لها. وعليهم أن يغلقوا على مناماتهن بحجابات سحرية مكتوبة من قبل شيوخ مجربين، فالشيطان يستطيع أن يتحكم بعالم النوم حيث لا راد له، ويجعله حقيقة واقعية، وكم من النساء ولدن أطفالاً دون نكاح مع رجال، فإذا هو نكاح مع الشيطان وأعوانه في أحد المنامات.

يعلق أحد رجال اللحى الطويلة "هناك أبكار لم يمسسهن بشر، يستيقظن ذات صباح ببطون منفوخة، ومع أن النوافذ والأبواب مقفولة

بإحكام، فالشيطان استطاع أن ينسل إليهن من المنام. استغل نومهن وعدم لباسهن لباساً شرعياً محتشماً في الفراش، فحدث الحمل، ولذلك نجد كثير من الأولاد الآن شياطين".

ينتقل المشهد إلى مجموعات من الرجال العابثين، يركضون في الشوارع، لا يرتدون إلا قمصاناً تغطي نصفهم العلوي، فيما بقي نصفهم السفلي عارياً، يحملون في اليد اليمنى خناجرهم التي تقطر دماً، في حين يمسكون أعضاءهم الجنسية الضخمة المنتصبة باليد اليسرى، يركضون باحثين عن أسراب نساء وحيدات دون حراسة مشددة. يلمحون مجموعة من البعيد، يعرفون بوجود نساء من رائحتهن المنتشرة في الهواء. يسرعون إليهن باندفاع شديد، عدد الآباء والإخوة والأزواج الذين يقومون بالحراسة قليل، يهاجمونهم بسرعة خاطفة، يطعنون الرجال بعنف، ثم ينقضون على النساء، يقفزون عليهن كالديوك بشبق شديد، ويتناوبون بالقفز عليهن حتى تنهك الدجاجات ويصلن إلى حافة الهلاك. تنتهي المعركة، يخرج الديوك منتصرين، في حين تتمدد الدجاجات بحشرجاتها المتألمة على الأرض، لا تقوى على الحراك، تعود الديوك للركض من جديد للبحث عن أسراب دجاجات جديدة.

مشهد جديد للرجال الملتحين مجتمعين، يقررون إلزام الرجال بوضع عصابات قماشية سوداء على العيون، وهم يسيرون في الشوارع. ولكن كيف سيتعرف الرجال على طريقهم؟ يجيب أكبرهم سناً "من كان إيمانه قوياً سيعرف طريقه بهدي قلبه، ولن يحتاج للنظر بعينيه".

مشهد آخر لرجال معصوبي الأعين بأقمشة سوداء يملؤون شارعاً، جميعهم يبتسمون ساخرين من الرجال الملتحين. فهذا عصابته شفافة بالرغم من لونها الأسود، وقد أصبح يرى بها النساء أجمل، فالأسود الشفاف له إيحاءات جنسية مثيرة. وآخر وضع عصابته على عين واحدة، بحجة وجود ألم في الثانية بعد أن لون

الجلد حولها بصباغ أحمر. وثالـث يتحايـل بـسقوط العـصابة وحـدها كلما شدها إلى عينيه، معللاً سقوطها بـسبب نوعيـة القمـاش الـسيئة. ورابع يقنع الآخرين بأنه يرتدي عصابته، ولكنها ليـست مرئيـة بـسبب شفافيتها الساترة.

يقرر كبير الرجـال الملـتحين عندئـذ إلـزام الرجـال بلـبس قنـاع إلكتروني موحد، يتم التحكم به من غرفـة عمليـات مركزيـة شـرعية، يشوش على نظر الرجال عند مرور نساء، ولو من بعد مئـات الأمتـار. ومع أن القراصنة الإلكترونيين استطاعوا التسلل إلى الشبكة والتلاعـب بهـا، إلا أن الجهـاز لم يحـل مـشاكل رائحـة النـساء، أو أصـوات ضحكاتهن، أو أصـوات الخلاخيـل وكعـاب الأحذيـة، ورغـم ذلـك فالخبراء الإلكترونيون الشرعيون يحاولون حل هذه المشاكل.

مشهد جديد لاجتماع كبار الرجال الملتحين، يتداولون الأوضاع المستجدة في الشوارع والبيوت، يستعرضون التقارير السرية التي نقلتها لهم العيون البشرية والإلكترونية المبثوثة في كـل الزوايـا. يقـدم مقـرر الجلـسة استعراضـاً للأوضـاع "الأزواج لا يكتفـون بزوجـة واحـدة، ولكنهم لا يرغبـون في الوقـت نفـسه بمـصيبة ثانيـة أو ثالثـة أو رابعـة ترافقهم طوال العمر، يفضلن الدجاجات الحرة المتجولة في الشوارع. أما الزوجات، فمشكلتهن أكبر، فهن لم يعدن يرضـين بتلبيـة رغبـات أزواجهن ونزواتهم فقط، بل وأخذن يطالبن أيضاً بتعدد الديوك، ودون عقود شرعية، ديوك أينما تسنح لهن الفرصة في أي زمان وأي مكان".

ماذا سيفعل الرجال الملتحون أمام هذه المشاكل الكبيرة والصعبة التي تهدد الوحدة الأخلاقية الـشرعية للعبـاد، لمعـت فكـرة ذكيـة في رأس كبيرهم، لاحظوها من خلال انفراج أساريره وابتـسامته العريـضة التي وصلت إلى أذنيه، استبشروا خيراً، استمعوا إليـه "سـنعيد افتتـاح أسواق النخاسة كإحدى ذكريات ماضينا المجيـد، البـاذخ والجميـل، والبعيد عن تعقيدات القوانين الوضعية التي سـنها أنـاس مخبولـون في العصور الحديثة باسم حقوق الإنسان".

تهللت وجوه الرجال الملتحين بالرضى والفرح، وتنادوا بحكمة كبيرهم، فهم منذ زمن بعيد ينتظرون مثل هذا القرار الجريء، الذي سيطالهم أيضاً مثل كل الرجال، أو ليسوا هم أيضاً رجالٌ بأعضاء جنسية، قوية ومنتصبة دائماً. علقوا على قرار حكيمهم الكبير:

" ولكن هذه الأسواق ستكون مقتصرة على الجواري فقط، أليس كذلك؟ لا نريد بيع رجال عبيد، حتى لا تستغل بعض النساء المحتالات من بعض العائلات القوية ثرواتهن في شرائهم".

" ستشجع هذه الفكرة الرجال على العمل المنتج للحصول على نقود أكثر كي ينفقوها على شراء الجواري".

" ستدور عجلة الاقتصاد والتبادل التجاري في البلد، وسيزيد عدد الميسورين من وراء هذه التجارة".

" ستنبعث مهن قديمة من جديد لحل مشكلة البطالة: صيادي الجواري، تجار الرقيق، الخصيان، مدربات الجواري .....".

" سيستطيع الرجال نكاح الجواري بأعداد تتجاوز الأربعة دون مخالفة الشرع، والرقم مفتوح بقدر الثروة التي يمتلكونها".

" إن عدد الزوجات المحدد شرعاً بأربعة يرافقه الكثير من التعقيدات الشرعية، وخاصة من ناحية العدل بينهن، وإضافة إلى ذلك فإذا ما رغب أحدهم بزوجة خامسة، فعليه أن يطلق واحدة من الأربعة، وقد يكون يحبهن جميعاً، فما العمل عندئذ؟ أما مع الجواري فلا يوجد أي تعقيدات، لا في البيع، ولا في الشراء، ولا في الأعداد الممتلكة، ولا في العدل بينهن".

" ولا يستطيع أحد من مدعي حقوق الإنسان مهاجمتنا، فنحن لدينا رزمة واسعة من الاجتهادات الفقهية التاريخية التي تضمن حقوق الجارية، من ناحية نكاحها، وعدم تسهيل بيع أطفالها، وشروط المتاجرة والانتفاع بها، وكيفية توريثها بعد موت مالكها، فأصولنا الفقهية مرنة تحفظ الحقوق الإنسانية دون تهاون".

" سيكون هذا درساً قاسياً وحقيقياً للزوجات الناشزات الفاجرات، اللواتي لا يطعن أزواجهن في الفراش".

" ليس هنا من ضرورة العدل بالنكاح، فربما يكون المالك من العجائز اللذين لا يقوون على فعل النكاح، ولكنه يستمتع بالتلذذ بالنظر والمداعبة".

" سيمارس الرجال ما يرغبون من الوطء وفنونه دون أي اعتراض من المملوكات، ألسن هن مملوكات".

" قوانينا لا تسمح بالتعدي على الملكية الفردية من خلال الجواري، وبذلك سنساهم في تدمير جميع أشكال الاشتراكية الكافرة".

" ولكن كيف سنحصل على الجواري بعد ما ألغت دول العالم رسمياً أسواق النخاسة وتجارة الرقيق؟".

" سنعلن الجهاد لنشر أخلاقنا الحميدة في بلاد الكافرين، وهي واسعة وكثيرة، كما سنقوم بغزوات على المرتدين في بلادنا، ومن خلال هذه الفتوحات سنحصل على سبايا حرب تغذي أسواق النخاسة، وسيكون ريعها لصالح بيت المال العام".

" هل من الممكن بيع غلمان وشراؤهم أيضاً في هذه الأسواق؟".

مشهد جديد واسع وعميق بالمؤثرات الصوتية والبصرية كافةً لغبار ينجلي عن نهاية معركة صحراوية دموية، مقاتلون شرسون متوحشون من قبيلة غازية كانوا قد اجتاحوا على حين غرة قبيلة صغيرة آمنة نصبت خيامها على أطراف أحد المراعي. الحرائق والدمار والجثث تنبئ بحدوث صراع دموي عنيف، إذ يبدو أن قتلى القبيلة الصغيرة المهزومة قد استبسلوا بالدفاع عن حماهم، ولذلك تم التشنيع بجثثهم التي أصبحت مبعثرة بين المضارب التي مازالت تحترق، جثث مبقورة بالرماح، رؤوس مفصولة عن أجسادها، أيدٍ وأقدام مبتورة مرمية هنا وهناك، لم يعد من الممكن معرفة هذا الرأس

أو تلك اليد أو القدم إلى أي جسد تعود. وإذا ما تنفس أحد ممن لديه بقية رمق حياة، عاجلته الطعنات من كل الجهات...... دماء وحريق في كل مكان.

رجال القبيلة المنتصرة يصرخون بعواء ذئاب ضارية بعد أن زرعوا الرمل والأفق رعباً، وبقايا نساء القبيلة المهزومة تجمعن حول بعضهن في كتلة واحدة متشابكة، يملأن الجو نحيباً وصراخاً من الرعب. رجال القبيلة المنتصرة يجمعون الغنائم، إبلاً وأغناماً، أمتعة، ونساء، يقتلون العجائز ويمسكون الصغيرات والشابات، ورجال القبيلة المهزومة..... لا رجال، فقد ماتوا على حين غفلة، ولا أحد يدافع من الديار.

رجل بدوي تقطر الدماء من فمه بعد التهام وليمة بشرية، والشرر يتطاير من عينيه، يدخل خيمة تحترق بحثاً عن سبايا أو متاع يجمعه. يشاهد فتاة صغيرة بعمر الورد، ترتجف من الرعب أكثر لمرآه، يضحك الذئب، تتكور الفتاة على نفسها وتنكمش، يتقدم نحوها الذئب، تصطدم قدماه بجثث والدها وزوجها. طفل صغير في السادسة من عمره يهاجمه بسكين، ويطعنه طعنة طفولية فينكسر نصلها على جسده الخشن القاسي، يركله بشدة فيطير الصبي عالياً في الفضاء. يقترب الذئب من الفتاة ويمزق ثوبها الوحيد من الصدر إلى الساقين، ينفتح الجسد الذي أصبح بين الموت والحياة عارياً أمامه. لم يعد هناك سوى رعب مرتسم على الوجه، وقد تشنجت الصرخات والنحيب، توقفت في الحلق، لا تصعد ولا ترجع. يرفع الذئب ثوبه ويُخرج عضوه المنتصب، يستند على سيفه الذي يقطر دماً، ينظر إلى النار حوله مشتعلة، يتأمل الجثث حوله والدماء تغطيها، فيزداد شبقه، ويشعر بالانتصاب أكثر. يدخل الفتاة بعنف شديد، فإذا هي بكر لم يمسسها بدوي من قبل، فيمتلأ رأسه بالنشوة. تتمزق الأحشاء، فتصرخ الظبية، يشاهد الذئب الألم المختلط بالرعب مرتسماً على الوجه، ينتشي الذئب. تصرخ الظبية، فتصل صرختها إلى

أعالي السماء، تهتز الأرض وتسقط الزرقة من السماء. يعوي الذئب منتشياً، يشعر بذئبيته، ينهض رجلٌ ولا كل الرجال، يشعر بفحولته وقدرته على الخرق ويرتسم وجهه بالحبور، يصبح بطل الزمان وأشجع الشجعان وفارس الفرسان، يستطيع أن يحارب قبيلة كاملة لوحده. ينهض الذئب عن الظبية التي لفظت حشرجتها الأخيرة.

ومن وقتها قرر "الرجل "أن لا يغزو قبيلة إلا فيها أبكار صغيرات.

يعتم المشهد الصحراوي بغبار عاصفة صحراوية شديدة، لم ترً الديار مثلها منذ زمن بعيد.

تُضاء فجأة كلمات في فضاء الغرفة باللون الأحمر "المشهد الأخير". سوق نخاسة في العراء، فتيات من أعمار السابعة وحتى الأربعين، شبه عراة، يجلسن على منصات عالية، يدور حولهن رجال شبقون، يتفحصونهن بدقة، تختبر أيديهم البضاعة، وتتلمس أصابعهم تقاطيع الأجساد وطراوتها، وصولاً إلى الأماكن الحساسة، يحاولون معرفة رد فعلهن الجسدي ودرجة حيائهن.

ينادي تاجر رقيق بملابس صحراوية من على إحدى المنصات المزينة بالأقواس والمنمنمات الشرقية "جوارٍ من كل البلدان، بكارى ومجربات ذات خبرة، عربيات، وروميات، وتتريات، وشركسيات، وكرديات، وبربريات، وحبشيات، وقبطيات، وعجميات. جوارٍ يمتعن القلب والجسد، تحمل كل منها خبرات بلدها وقومها، وخاصة في غرف النوم والحمامات. البيع قطعي، لا نعيد البضاعة بعد تجربتها ولا نبدلها، لكنها مكفولة من قبلنا".

على الجانب الآخر تاجر رقيق بملابس عصرية مع ربطة عنق على شكل فراشة، يقف على منصة ثانية مليئة بالجواري، ومضاءة بمصابيح كهربائية ملونة، وتتوسطها شاشة إلكترونية تعرض البضاعة عن قرب، بحيث يمكن بوضوح مشاهدة الجارية المعروضة بتفاصيل

جسدها الحميمية، ينادي "جـواري مـا بعـد الحداثـة، جـواري نخبـة أولى، فرنسيات يتقن فنون التنويع في الوضـعيات والإثـارة الجنـسية، قادمات من بلاد النبيـذ والجـبن والتـذوق الجنـسي، وكلـها ماركـات عالمية محمية بتـسجيل قـانوني لـدى الاتحـاد الـدولي لتجـار المتعـة المشروعة. وإذا لم تكن مـن الأثريـاء ولـيس لـديك نقـود كافيـة فإننـا نقترح عليك جوارٍ بيضاوات قادمات مـن بـلاد الـثلج، الـتي سـقطت أنظمتها الشيوعيةً فنزلت الأسعار فيها إلى الحضيض، ومع أن بضاعتنا من هذه الدول متوسطة القيمة إلا أنها مضمونة ومكفولـة. أمـا للفقـراء فنقترح عليهم جواري من العـرق الأصـفر، تايلنـديات وسـيريلنكيات وتايوانيات وبأسعار رخيصة جـداً، يمكـن اسـتخدامهن لغـرف النـوم والمطبخ. ليس لدينا بـضاعة تالفـة أو مـزورة، فقـد رددنـا حمـولات بواخر أمريكية كاملة بعد ما تبين أن الجواري الأمريكيات هُنَّ عميلات لأجهزة المخابرات في بلادهن، نحن لا نتعامل بهـن، وقـد اسـتبعدنا هذه البضاعة الفاسدة".

ينتهي المشهد، تنطفئ الشاشة المجـسمة، لا يبقـى منـها سـوى دوامات الغبار والزجاج المحطم، أحاول النوم، الدوامات في الغرفـة تشتد، تطوح بي وتأخذني إلى..... .

* * *

الحاج خليل

ينتهي المشهد البانورامي المجسم في فضاء الغرفة، ذلك المشهد المأساوي الذي أثارته قراءة البيان رقم "1"، لا يبقى فيها سوى دوامات الغبار والزجاج المحطم إلى كسرات صغيرة. أشعر بالتعب الشديد وأحاول النوم. الدوامات تشتد في الغرفة، تزداد سرعة دورانها، تلتف حولي وتدور بي، تزداد سرعة الدوران أكثر فأكثر لتصل إلى سرعة الضوء، ثم تطوح بي نحو الوراء، أجتاز حواجز الزمن، لكن باتجاه الماضي. لازلت في الغرفة، ولكنني أصبحت في الوقت نفسه في الماضي.

أجد نفسي في بلدتي.

بلدتي في ستينيات القرن العشرين، صغيرة، ببيوتها وسكانها، مرمية في نهاية سفح جبل، يغطيه الثلج طوال أيام السنة، وتحيط بها حقول دائمة الخضرة، تتخللها بكثرة السواقي التي تنمو على أطرافها أشجار الحور والصفصاف وسياج العليق، فقد كانت تمطر عندنا على مدار الفصول تقريباً، تمطر على الحقول وفي القلوب، مما أعطاها مسحة شاعرية انعكست على نفوس أناسها، ولهذا كانت تكثر فيها حكايات العشاق وأحلام البسطاء الكبيرة.

ولصغر البلدة، كان يكفيها رجل واحد يؤم المصلين في مسجدها القديم الوحيد، وهو يشغل في الوقت نفسه عمل المؤذن، فقد كان الشيخ محمد يملك صوتاً رخيماً شجياً، وأجمله ما كان يصدح به مع انبلاج الفجر في هدأة السكينة الصباحية، فتصحو العصافير معه، وينهض الفلاحون إلى حقولهم. وكان يعقد القران الشرعي، ويحضر الموالد والمآتم، ويعظ الناس، ينصحهم بزيارة قبور الأموات من الأهل والأصدقاء والدعاء لهم، ويطلب منهم

إشعال شمعة عند قبر الشيخ ياسين، الواقع في طرف البلدة، على نية طلب شفاعته والتيسير في قضاء حوائجهم.

كان معظم سكان البلدة من الفلاحين البسطاء، الذين يعملون طوال النهار في حقولهم البعيدة للحصول على قوتهم اليومي، وينامون طوال الليل من شدة تعبهم. لم يكن لديهم لا الوقت ولا الرغبة بالذهاب إلى المسجد خمس مرات في اليوم، فكان يكتفي بعضهم بحضور صلاة الجمعة وخطبتها، إذ كان هذا اليوم مخصصاً للراحة والاسترخاء والزيارات. ولهذا لم يكن يتحلق حول إمام المسجد بقية أيام الأسبوع سوى مجموعة من الرجال العجائز الذين سقطت أسنانهم، وتقطعت أوصال ركبهم، يسعون بعكاكيزهم بين البيت والمسجد، فلا شيء آخر لديهم يفعلونه.

كانت المتعة الوحيدة لدى الناس البسطاء المتعبين هي الأمسيات التي يقضونها في فسحة أمام البيت على الشارع مباشرة، يجلسون على مصطبة ترابية أو كراسي قش قديمة، فيجتمع الأقارب والجيران، ويشاركهم أيضاً من يمر في الطريق من أهل البلدة.

" مساء الخير "يحيي أحد المارة.

" مساء الخيرات "أبو إسماعيل"، تفضل لشرب الشاي معنا، أين هي "أم إسماعيل" لماذا لم تحضرها معك؟ "يرد عليه الجالسون.

يأتي "أبو إسماعيل" ببساطة، يجلس معهم ويشربون الشاي، ويتناولون أحياناً بعض الفواكه، يتحدثون عن أخبار الحقول، ويتسامرون بحكايات العشق والجن.

أما الشباب وعائلات الموظفين فقد كانت التسلية الأساسية لهم هي الذهاب إلى دار قديمة للسينما، تعرض أفلام حب مصرية، وبكاء هندية، ومغامرات كاوبوي أمريكية. وبما أن دار السينما هذه تقع على تلة صغيرة في طرف البلدة قرب البساتين، فقد كان صدى أغاني أم كلثوم التي يبثها مكبر صوت مزروع على سطحها ينساب في الوادي

الصغير مساءً، ليصل إلى بيوت البلدة، فيتسلل بين أزقتها ويقرع النوافذ داعياً لحضور الفيلم. يذهب الناس جماعات إلى دار العرض، شبان وفتيات يجدون المتعة في الرفقة، وعائلات ترتدي أجمل ما لديها من ملابس لقضاء أمسية مميزة، فتتأبط الزوجات أذرع أزواجهن، في حين يتراكض الأطفال حولهم في الشارع فرحين بذهابهم لحضور الفيلم.

كان الذهاب إلى السينما متعة لا توصف بالنسبة إليَّ، إذ كنت من خلالها أخرج من البلدة الصغيرة وأكتشف عالماً أكبر، أنا وشاهر وجورج اللذان يمران من تحت نافذة غرفتي، يناديني جورج بلحن أغنية يبتكرها "فيلم مغامرات فرنسي، التذاكر على حسابي هذه المرة، والحلويات على حساب شاهر، ودورك أن تذكرنا بأحداث الفيلم حتى عرض الفيلم التالي".

ما أن يبدأ الفيلم حتى تهدأ الحركة مباشرة في الشارع، ويسود الهدوء والصمت فجأة في الوادي الصغير، لا يُسمع عندئذٍ إلا صوت انصباب ماء الساقية تحت الجسر القديم. يمر بعض الوقت من بدء عرض الفيلم، ثم يمتلئ الطريق بأصوات الرعاة المرحة، وموسيقى ثغاء الأغنام، ورنين الأجراس المعلقة في رقاب الكباش، وهي عائدة من مراعي الجبل الشمالي، تغللها غيمة غبارية كيفما تحركت. تمرُّ قرب السينما، وتجتاز الوادي، ومن هناك تتجه كل مجموعة من القطيع وحدها إلى زرائبها، فهي تعرف طريقها بغريزتها.

يسود الصمت والهدوء من جديد على الطريق طوال عرض الفيلم، ويخيم الليل بسدوله. وفجأة يعود الضجيج، إذ تبدأ أصوات الضحكات والصرخات تطغى على صوت انصباب ماء الساقية، فقد خرج المشاهدون من العرض، يقفز الشباب بحركات بهلوانية مليئة بالحماس، يقلدون فيها أبطال الفيلم، وهم يقهقهون عالياً، مستذكرين المقاطع المثيرة منه، التي سيبقون يروونها حتى حضور

الفيلم التالي. وترتسم البهجة على وجوه الأزواج والزوجات، يعودون إلى بيوتهم ويمنون أنفسهم بليلة حب جميلة، وقد استثارتهم صورة البطل وهو يقبل شفاه البطلة بشوق في نهاية الفيلم بعد أن ينقذها من الشرير. يجتاز الجميع الوادي، ثم تذهب كل مجموعة إلى بيوتها، فهي تعرف طريقها وحدها في الليل.

من وقتها ولم يتجاوز عمري الثانية عشرة عشقت السينما، وحفظت أسماء الممثلين والممثلات كاملة، وأصبحت أشتري مجلة "الكواكب "لأتابع أخبارهم. كنت أفضل من العرب البطل القوي فريد شوقي، والوسيم ساحر النساء رشدي أباظة، والرجل القلق دائماً عمر الشريف، ومن الفرنسيين كان يسحرني آلان ديلون بأناقته وثقته بنفسه، وجان بول بلموندو المغامر ورجل الأكشن، ومن الأمريكيين العجوز الرائع أنطوني كوين، وذو الوجه القاسي ولكن المحبب تشارلز برونسون، وراعي البقر كلينت إيستود. ثم قصصت صور البطلات الفاتنات من المجلة، وعلقتها على جدران غرفتي الترابية، فنمن معي في أحلامي. كنت أحب بطلة آخر فيلم شاهدته، ولكنني عشقت اللعوبة سعاد حسني، والحزينة الخجولة نادية لطفي، وذات الوجه الطفولي ميرفت أمين، ومن الفرنسيات الحسناء الساحرة بريجيت باردو، ومن الإيطاليات الأنيقة صوفيا لورين، والمحبوبة كلوديا كاردينالي، ومن الأمريكيات الملكة إليزابيت تايلور، وفتاة الإغراء ميريل ستريب، والمناضلة جين فوندا. وسيمر وقت طويل قبل أن أفك الشيفرة السينمائية، وأعرف أن المخرج هو الذي يقف وراء كل شيء، لأنتقل بعد ذلك إلى الهوس بالمخرجين.

كان الجميع يذهب إلى السينما لقضاء أمسية جميلة ولطيفة ومحترمة، إذ إن أجهزة التلفزيون الموجودة في البلدة كانت محدودة العدد، وليس لها أية شعبية، تبث فقط من الساعة السادسة وحتى الثانية عشرة ليلاً، مقتصرة على برامج المحطة الرسمية الوحيدة للدولة بالأسود

والأبيض، وكانت تقدم بشكل أساسي أخبار النضال الوطني، وأغاني حماسية عن أمجاد الانتصارات الوهمية. وكان البعض يحاول التقاط المحطات التلفزيونية للدول المجاورة، بواسطة لاقط طويل وقوي، يتم شراؤه عن طريق "التهريب عبر الحدود"، للتغلب على تشويش الرقابة الرسمية، فقد كانت السلطة تخاف بشدة من وصول أخبار الهزائم الحقيقية بدلاً من الانتصارات التي تعلنها دائماً. ولكن محاولات الالتقاط لم تكن لتنجح كثيراً بسبب وجود الغيوم وسلاسل الجبال العالية التي تحجب الإشارات اللاسلكية، التي كانت متآمرة مع السلطة، ويبدو أنه ذات مرة نام المسؤول التقني عن التشويش، فانفتحت عدة محطات "معادية "دفعة واحدة، ومن وقتها يقف الناس على الأسطحة بصبر طويل في انتظار نومه مرة ثانية، لتوجيه اللاقط في الاتجاه المناسب.

كنت أشاهد من نافذة غرفتي الطينية ماهر ابن الجيران يتسلق سطح منزل عائلته قبل الساعة الثامنة مساءً، موعد بث نشرات الأخبار "المعادية"، ليدير اللاقط يميناً ويساراً حسب توجيهات والده الواقف في الأسفل أمام الجهاز، في محاولة الوصول للاتجاه المناسب والتقاط الصورة. كان أبو ماهر من المناضلين القدامى الذين تخلوا عن "المسيرة الثورية "بسبب من يسميهم "الانتهازيين الجدد"، وهو يحاول كل يوم التقاط أخبار الرفاق القدامى الذين فروا عبر الحدود بواسطة أخبار المحطات التلفزيونية "المعادية". كنت أجلس مساءً في غرفتي أقرأ كتباً سياسية ممنوعة تصلني عبر الحدود، وفي أثناء ذلك أسمع صراخ أبي ماهر عالياً "أدر اللاقط إلى اليسار قليلاً يا ماهر..... لا يا مجنون، تطرفت كثيراً إلى اليسار، ستصبح مع الشيوعيين الأنذال..... ارجع قليلاً إلى الوسط..... لا، لا تذهب كثيراً يا حمار، سنصل إلى اليمين الرجعي المتخلف المرتبط بالاستعمار، ونتجاوز الانتهازيين الحقيرين..... حاول أن تبقى على الوسط مع انحراف بسيط نحو اليسار كما كانت بداية مسيرتنا الثورية المظفرة".

وبما أنه كان من النادر الثبات على اتجاه محدد للاقط بسبب الرياح الشديدة القادمة من "الغرب "مما يدعم التشويش الرسمي القوي، فقد كان أبو ماهر ينهال دائماً بالشتائم على ابنه ماهر الأهبل، وأجهزة التلفزيون العتيقة، وعلى اليساريين، واليمينيين، والانتهازيين، والرجعيين، والاستعمار، ويلحقها بمسبات على أم ماهر الكسلانة التي تتأخر بتحضير الشاي، وعلى جارنا البقال الكلب الذي رفض أن يبيعه بالدين ما لم يرد الديون القديمة. وذات يوم حمل أبو ماهر جهاز التلفزيون في ذروة غضبه وضربه بعرض الحائط، فتحطم إلى قطع صغيرة متناثرة ولم يعد قابلاً للإصلاح، فلم يأسف أحد من العائلة أو من الجيران على ذلك. ولهذا فبسبب برامج المحطة الواحدة المملة فقد اقتصر مشاهدو التلفزيون على عجائز يغفون أمامه على صوت الموسيقى الحماسية وأخبار الانتصارات، وهم يحلمون بمنازل إسمنتية تصمد أمام هدير "الطائرات المعادية "بدلاً من زرائبهم الطينية.

ولكن إلى جانب متعة العروض السينمائية كان الشبان والفتيات يحبون التنزه مساءً في شارع العشاق، الذي يخترق البلدة من مدخلها وحتى نهايتها عند التلال الجرداء، حيث كانت السماء تهطل مطراً ناعماً على امتداده بشكل دائم. هناك يلتقون، يتغامزون ويضحكون ويتواعدون، يتمشون معاً في رطوبة المساء وتحت نفنفة المطر، وهم يأكلون سندويش الفلافل، إذ إنه لم تكن بعد قد وصلت موجات الهمبرغر والكوكاكولا الأمريكية إلى البلدة.

كان شارع العشاق ساحة هدنة للجميع، يعودون فيه إلى عفويتهم القروية الأصيلة بعد تعب النضال النهاري في المسيرات والاشتباكات الحزبية اليومية. هناك يرمون وراءهم انتماءاتهم العقائدية، يتحادثون ويتسامرون، ويدعون بعضهم إلى سندويش الفلافل بشهامة وكرم أهل القرية، وتشتعل هنا قصص الحب التي تتجاوز الحواجز الدينية والحزبية والعقائدية، أليس هذا شارع العشاق!

ودق ناقوس الخطر لدى القيادات الحزبية المختلفة في البلدة من هذا الاندماج المسائي اللانضالي للقواعد الشبابية، فهي لا تريد أن تفقد قواعدها بهذا الاندماج المنفلت غير المحسوب في القواميس النضالية، ولا هي بقادرة على الانتصار على إغراءات شارع العشاق العميقة التأثير على قواعدها من الشباب. فكانت المبادرة الهجومية الأولى من القيادة البعثية في البلدة، إذ قامت بتوزيع بنطلونات سوداء وقمصان سماوية أنيقة على الرفاق البعثيين، وطلبت منهم بتعميم حزبي سري جداً لبسها وتناول سندويش الفلافل في أثناء النزهة بشارع العشاق. كان منظرهم جميلاً فاتناً، وهم يسيرون صفوفاً صفوفاً ويحملون بيدهم السندويش ويمضغون الطعام بأناقة، حسب التعليمات الحزبية. خلب منظر أناقتهم وانتظامهم عقل الفتيات الشيوعيات والناصريات، فتسابقن على التواعد معهم في قصص حب جديدة. كان هجوماً صاعقاً، بحيث انقلبت القاعدة النسائية الشيوعية والناصرية بليلة واحدة إلى بعثية.

ولما كشفت مساءً القيادة الشيوعية والقيادة الناصرية في البلدة الخطة الجهنمية المعادية، لجؤوا إلى خطط نضالية ثورية مضادة، وطبقوها في اليوم التالي. فقد وزعت القيادة الشيوعية في البلدة على قواعدها من شباب شارع العشاق بنطلونات سوداء، ولكن مع قمصان وردية، وأمرتهم بتسريح شعرهم إلى الوراء، كما قامت القيادة الناصرية بتوزيع بنطلونات سوداء، ولكن مع قمصان فستقية اللون، وأمرتهم بعدم حلق الشوارب. وزيادة على ذلك فقد قامت القيادتان بدفع نفقات سندويش الفلافل على حساب اللجنة المنطقية ضمن المصروفات النضالية السرية الملحة لتأمين سلامة الحزب.

وسرعان ما سقطت في اليوم التالي الفتيات البعثيات في شرك أناقة الشبان الشيوعيين والشبان الناصريين وانتظامهم، فتتدافعن إلى التواعد معهم وبدأن بنسج قصص حب جديدة.

وفي اليـوم الثالـث تماوجـت الـصفوف الـسماوية، والورديـة، والفستقية، في شارع العشاق، فاختلط الحابـل بالنابـل، فالـشيوعيات أحببن الناصريين، والناصريات أحببن الشيوعيين، وقسم من البعثيـات انقلبن من حب الشيوعيين إلى الناصريين، وقسم آخر انقلب بـالعكس مـن حـب الناصـريين إلى الـشيوعيين. وأخـذت تقلبـات الحـب بـين الأطراف ترتبط بنوعية الملابس التي كان يرتديها كـل طـرف، بحيـث أن التعميمات الحزبية والتعميمات المضادة فقدت الكـثير مـن تأثيرهـا ومعناهـا. وكانـت كلـها تقلبـات عاطفيـة عفويـة، تتـسم بالتـسامح والمحبة، إذ لم تدخل في ذلك الوقـت ملابـس الجـينز الأمريكيـة إلى سوق المزايدات الحزبية، ولا الجلابيات الوهابية إلى سوق المزايدات التحريميـة. وبـدلاً مـن حكايـات النـضال الثـوري انتـشرت حكايـات العشاق التي اخترقت كل أشـكال الحـدود والتحريمـات، وأصـبحت زوايا الأزقة والحارات وأطراف البساتين تخبئ قـصص حـب تنجـذب فيها القلوب إلى القلوب ببساطة وعفويـة، بعـضها طفوليـة والأخـرى ماجنـة. ووقتـها لم يعـد المطـر الربيعـي النـاعم يقتـصر علـى شـارع العشاق، بل غطى البلدة كلها وبساتينها وحقولها البعيدة. وكان نصيبي أنا في تلك الأيام حكايات الحب المطريـة الأولى مـع إلهـام البعثيـة، وهنـد الـشيوعية، وسـهير المذبذبـة بـين الناصـرية والإسـلامية، وجورجيت المسيحية.

ومع أن جميع الشبان والفتيات كانوا يحاولون الظهور كمناضـلين أرستقراطيين نخبويين، إلا أن معظمهم لم يتخـلَ عـن أصـوله القرويـة وأفراح طفولته في الحقول، ماعدا أولئك الذين سينضمون إلى أجهـزة الاستقرار، فقد تم تحويلهم إلى أشباه وحوش بـشرية، تفتـرس أهلـها إذا سنحت لها الفرصة.

كانت أكثر الأيام بهجة في حياة أهالي البلدة هي أيـام الأعـراس، حيث يحـضر الأهـل والجـيران دون دعـوة، فـالجميع هـم أصـحاب الدعوة، وسيرقـصون كلـهم في الـساحة أمـام بيـت العـريس. كانـت

الساحات أمام البيوت آنذاك واسعة، إذ لم تدخل بعد موضة البنايات المرتفعة التي تحتل الفسحات الأرضية بالسنتيمترات، وتُغلق على الفسحات السماوية والقلوب والأحلام، وتحول المنازل إلى علب كبريت. هناك في الساحة وتحت نجوم الليل يأخذ الجميع بالرقص مدة ثلاثة ليال، من المساء وحتى منتصف الليل.

كانت حلقة الرقص تتسع لكل الشباب والفتيات الساهرين، يمسك كل شاب بيد معشوقته بيمناه وبيد معشوقة صديقه بيسراه، فتكتمل زينة العقد بتلاوين العشاق والعاشقات، ليضج بالغناء العفوي على صوت المزمار. وفجأة ينفصل الشبان من العقد المتلألئ بألوان العشق، يقفزون عالياً إلى السماء، وقد بلغت النشوة بهم ذروتها، يقطفون نجمة مضيئة لمعشوقاتهن، ويعودون بها إلى أمهم الأرض الغافية، يوقظونها بطرقات أقدامهم القوية من سباتها، لتنهض مع العرس أشجاراً خضراء وأحلاماً زرقاء. تلتقط المعشوقات النجمات المضيئة، يزرعنها لؤلؤة تلتمع في ليل شعرهن الطويل، ويتمايلن راقصات بدلال، ويتماوجن مع نسيمات الهواء الليلية، ويشعلن قلوب عشاقهن. وسرعان ما تتشابك يدا صبية وشاب برقصة عفوية وقد ملأت السعادة قلبيهما فيضج الجميع حولهم بالغناء "ها هما العروسان المقبلان"، ويرش الأهل عليهم الرز والسكاكر تيمناً بالسعادة لهما، فتمطر السماء أمطاراً ووروداً وعصافير، تنعش القلوب والأحلام، وتتحقق النبوءة.

وفي آخر عرس حضرته قبل أن أسافر إلى "سلومانيا "للدراسة، تشابكت يدا ابن حارتنا خليل مع يدي ابنة عمتي الصغيرة الحسناء ليلى بحماس شديد يضج حولهما، غمزتني ليلى بطرف عينها، فهمت، فصحت بأعلى صوتي مشعلاً الشبان والصبايا بالغناء والتصفيق "هاهما العريس والعروس المقبلان، خليل وليلى عروسان قادمان"، ورقصا معاً بفرح طوال الأمسية، حيث لم تفارق الأعين بعضهما. وستتحقق نبوءة زواج خليل وليلى، مثل كل النبوءات في

الأعـراس، ولكـن هـذه المـرة لـيس كمـا كانـت تـشتهي الحقـول والعصافير، وإنما كما كان يرغب..... الزمن الغدار.

وجاء زمن غدار، أخذت تهب فيه عواصف غبارية، لم يدر أحـد في البداية مـن أيـن مـصدرها، تـأتي وتـشتد، ومـا أن تتوقـف حـتى تتجدد، وبدأ يتراجع معها هطول الأمطار الناعمة المنعـشة، وأخـذت الأرض تصبح عطشى لمن يوقظهـا مـن سـباتها. ثم جـاءت أخبـار أن مصدر هذه العواصف الغبارية على الأغلب هي بلاد الصحراء، حيـث تفجر هناك ذهب أسود لم يـسمع بـه أحـد مـن قبـل، فالنـاس هنـا لا تعرف سوى الـذهب الأصـفر، لا الأسـود. وأخـذ الـشباب يتنـسمون أخبار الذهب الأسود، لتبدأ المجموعات الأولى ممن سـحقهم الفقـر بهجرة شبه جماعية إلى هناك.

وسافر معهم خليل الذي لم يعرف أهلـه سـوى الفقـر والـركض وراء الرغيف منذ غابر الأزمـان، سـافر خليـل الـذي كـان يتنقـل بـين البعثيين والناصريين بعد أن رمى انتماءاتـه العقائديـة وراء ظهـره بحثـاً عن مستقبل أفضل. فقد اكتشف مثل كثيرين غيره أن النضالات سـتقود في النهاية إما إلى خيبـات أمـل متتاليـة أو إلى الـسجن مباشـرة، عـدا بعض المتسلقين الذين سوف ينجحون بقيادة "المسيرات الثوريـة "مـن فيلاتهم ومزارعهم الضخمة. سافر خليل مع الجميع، تركـوا حقـولهم الخضراء، والمطـر المـنعش للقلـوب، والـسينما وأغـاني أم كلثـوم، وشارع العشاق وسندويش الفلافل، والـرقص في الأعـراس، وذهبـوا بعيداً وعميقاً في الصحراء، حيث لا شـيء هنـاك سـوى الرمـال الـتي تخنق الأيـام والأحـلام. أخـذوا نـساءهم معهـم وحبـسوهن في شـقق كبريتيـة، لا تنفـتح نوافـذها أبـداً لا علـى الـشارع ولا نحـو الـسماء، وعاشوا هناك عشرة أعوام، خمسة عـشر عامـاً، عـشرون عامـاً، دون خضرة حقـول ومطـر أحـلام، نـسوا زرقـة الـسماء وغرقـوا في رمـل الصحراء وعطش القلوب.

وكان على نبوءة زواج خليل وليلى أن تتحقق، ولكن متأخرة قليلاً، فبعد عام ونصف من سفر خليل إلى بلاد الصحراء، طلب بالمراسلة ليلى زوجة له، فأرسلوها له دون عرس يقفز فيه الشباب إلى السماء ليقطفوا نجمة، تزرعها معشوقاتهم لؤلؤة في ليل شعرهن الطويل. أرسلوها بناء على طلبه معلبة مع حقائبها وسلال كثيرة من مؤونة البلدة، فلا شيء هناك يؤكل سوى مناسف الرز واللحم التقليدية، أما بقية الطعام فهو "مؤمرك "يتم شراؤه من المجمعات التجارية الضخمة، ويحتاج المرء إلى وقت لاستساغته والاعتياد عليه، وقد تتسمم العروس البريئة إذا تناولته مباشرة.

ومضى زمن، وجاء زمن آخر بعد سنوات طويلة، وبدأ المهاجرون يعودون إلى البلدة مجموعات مجموعات بعد أن امتلأت أكياسهم ببعض الدنانير. عادوا بلحى طويلة وشوارب محفوفة وجلابيب بيضاء قصيرة، و "السلام عليكم "بدلاً من "صباح الخير "و "مساء الخير"، وعادت نساؤهم دون لحى طويلة وشوارب محفوفة، ولكن مع جلابيب سوداء طويلة، سابغة من الرأس إلى أسفل الكعب، ودون "صباح الخير أو حتى "السلام عليكم"، نسوا هناك كل التحيات في سجونهن الكبريتية. ومن ثم سمح لهن أزواجهن في ظروف البلدة الطبيعية بفتح حفرتين في نقاب الوجه للعينين.

لم يعتد أهل البلدة على رؤية كتل متلوية مثل الفقمة تنزلق من السيارات الشخصية، زاحفة بسرعة إلى أبواب بيوتهن بحراسة الأزواج الغيورين. كان رجال ونساء البلدة يجلسون على المصاطب الترابية أو على كراسي قش صغيرة أمام البيوت، يشاهدون حيوانات الفقمة تظهر فجأة، وتزحف متموجة، ثم تختفي من جديد فجأة كما ظهرت. كانت مثل شخصيات أفلام الرسوم المتحركة، كتل وخطوط سوداء على فراغ أبيض. وما أن تمر كتلة فقمة سوداء أمامهم حتى تفغر النساء أفواههن من الدهشة، وقد وضعن أيديهن عليها تعجباً، يتهامسن:

" يا حرام كيف تتنفس؟!".

" كيف تستطيع تحمل كل هذا الحر تحت الغطاء الأسود السميك، يا قلبي عليها من يُلبسها هكذا؟!".

" لماذا يلبس زوجها ثوباً أبيضَ مريحاً تظهر منه شعيرات ساقيه المثيرة للاشمئزاز، وهي تلبس غطاءً أسودَ معتماً على القلب؟ كيف تسير به دون أن تقع؟".

" أليس معها نقوداً لتشتري ملابس ملونة؟".

" أليست هذه خديجة، يا خديجة أنت نسيتينا، لماذا لا تحيينا؟ ألا تذكرين كيف قضيت طفولتك في بيتنا؟ تعالي وأسألي عن عمك "أبو إسماعيل" المريض منذ سنة".

ومع ازدياد العائدين من بلاد الصحراء، انتشر الحديث عن الدنانير التي يضطرون إلى تصريفها آسفين إلى العملة الوطنية في السوق السوداء. أصبحت مناسف الرز واللحم والقهوة العربية المرة وماء زمزم جزءاً من حياتهم وأحاديثهم اليومية. وفي كل جلساتهم يروون حكايات لا تنتهي عن بلاد الصحراء، عن المجمعات التجارية الضخمة على الطريقة الأمريكية، التي يستطيع المرء أن يشتري فيها كل شيء، حتى الطعام المعلب الخاص للكلاب، عن الأتوسترادات العريضة جداً التي تشق الصحراء بمئات الكيلومترات، ويمكن السير عليها بسرعة 150 كم في الساعة، عن السيارات الشخصية الحديثة جداً والمكيفة، التي تنزل في سنة إنتاجها إلى الأسواق الأمريكية وأسواق بلاد الصحراء معاً، عن الخبراء الأمريكيين المحترمين جداً الذين يعيشون في تجمعاتهم الخاصة وفق قوانينهم الوطنية، والعمال الآسيويين غير المحترمين جداً الذين يقبلون بأقل الأجور، عن آلاف ذبائح الأضاحي المرمية على أطراف الشوارع، وليس هناك من يأكل، ثم قرروا توزيعها على الفقراء في مختلف أنحاء العالم.

أصبحت المجمعات التجارية، والأتوسترادات، والسيارات

الشخصية، والخبرات الأمريكية، والذبائح، رموزاً دينية مقدسة، يتداولون الحديث عنها بكل الخشوع والتبجيل، وحلت مكان الرموز الوطنية التي لا تسد رمقاً ولا تنقذ من فقر.

هنا الفوضى والفقر والبؤس في كل مكان، بقاليات صغيرة من القرون الماضية، لا يوجد فيها طعام معلب حتى للإنسان، طرق ضيقة تملؤها الحفر والأخاديد والمطبات، بحيث إنَّ سائقي السيارات يفضلون مغادرة الطريق والسير على جوانبه الوعرة غير المعبدة، سيارات نقل عام يُحشر فيها الركاب مثل الأغنام دون رحمة، تنحصر المرأة فيها بشدة بين كبشين شبقين على الواقف. والناس هنا بخلاء جداً، لا يشترون لحماً إلا بالوقية، ومرتين فقط بالشهر، ويخفونه عن الضيوف، لا يعرفون تقديم مناسف الرز حتى دون اللحم على أصولها، ولا يتقنون تناولها برؤوس الأصابع. الفقراء هنا يتكاثرون ويسدون الأفق بمساكنهم الفوضوية، فهم لا يعرفون بناء الفيلات، وإنما يسكنون منازل غير مكتملة البناء ومشوهة المنظر وكأنها مهجورة، إذ إن بعضها يبقى بلا سقف، وبعضها الآخر مفتوح للريح من جهاته الأربعة.

القادمون من بلاد الصحراء لم يتأففوا فقط من أقربائهم الفقراء، بل وأخذوا يسخرون أيضاً من ماضيهم وأحلامهم، فهم قد رجعوا بأخلاق أصولية حميدة، واكتشفوا جهل أهل بلدتهم بالأصول، حرموا السينما، وشارع العشاق، والأمسيات العائلية أمام البيوت، والأعراس القروية ورقصاتها، وحرموا أيضاً سندويش الفلافل بسبب ظهوره في التعميمات الحزبية، ولكنهم حللوا الهمبرغر والكوكاكولا القادمة من أمريكا، التي عرفوها كرموز مقدسة في أثناء إقامتهم ببلاد الصحراء، وتم الإفتاء هناك بشرعيتها. تأففوا أكثر من إمام المسجد الشيخ محمد الذي أصبح عجوزاً خَرِفاً، لا يعرف الحلال من الحرام، وأعلنوا أن آذان الدعوة إلى الصلاة بتلحين شجي وإضافات مبتدعة هو حرام، وزيارة القبور والأولياء بدعة كافرة، وإقامة الموالد وأعياد الميلاد والأعياد الوطنية وعزف الموسيقى

والرقص عليها من الكبائر، وسمحوا بالدف فقط وبقرع خفيف لإعلان النكاح.

لكن إمام المسجد العجوز الشيخ محمد كان قد أصبح له مريدون كثر، فخلال فترة العشرين عاماً التي انصرمت تم بناء عدة مساجد بعد أن توسعت البلدة وازداد عدد سكانها، وأصبح لديها الشيخ خالد، والشيخ سليمان، والشيخ أكرم، وكلهم يطلبون من المصلين إشعال شمعة عند قبر الشيخ ياسين، تُقدم لهم الصفوف الأولى في الولائم والمآتم والاحتفالات الدينية. وأصبحت هناك فرق دينية متخصصة بالإنشاد الديني، بل وبرقصة "الميلوية"، تتنقل من بلدة إلى أخرى وتكسب مالاً وفيراً. وبعد انقطاع المطر الناعم التدريجي عن البلدة، وحتى عن شارع العشاق الذي بدأ يختفي منه شيئاً فشيئاَ أصحاب القمصان السماوية والوردية والفستقية، شعر الناس بفراغ روحي كبير، فازدادت الشموع المشتعلة عند قبر الشيخ ياسين، وتعلقوا بأرواح أمواتهم في محاولة لتناسي واقعهم الصعب، وأخذوا يلجؤون بكثرة إلى الشيخ خالد، والشيخ ماهر، والشيخ أكرم، الذين وجدوها فرصة ليصبحوا من وجوه البلدة بحكاياتهم الخرافية التي اخترعوها، وتنافسوا فيما بينهم على ملئها بكل عجيب وغريب..... وفكر عندئذ أهل البلدة من أين جاءنا هؤلاء الصحراويون، يريدون أن يقلبوا حياتنا بتحريماتهم وفتاويهم الغريبة، وإن كان لديهم مالٌ وفيرٌ، فليعودوا بأموالهم وليصرفوها على فقراء بلاد الصحراء، الفقراء روحاً وعقلاً، وليتركونا بديننا وأحلامنا مسرورين. واستنفر الشيوخ الأكارم أمام الغزو الجديد.

وعاد خليل، الذي أصبح الحاج خليل، مع العائدين بعد عشرين عاماً من الإقامة في بلاد الصحراء، عاد بلحية طويلة وجلباب قصير أبيض وكرش كبير، أما ليلى فلم تعد ابنة عمتي، فلقد أصبحتُ بالنسبة لها "أجنبياً"، قد يقتنص أول فرصة ينفرد فيها معها، ولن يدري أحد ماذا سيحدث عندئذٍ. ومع أنني أزور عمتي من وقت

لآخر، إلا أنني لم أستطع رؤية ليلى ولا مرة، كنت أرغب بالاطمئنان على أحوالها مع خليل بعد هذا الانقطاع الطويل، ألست أنا عراب زواجهما! أم أنها تخاف ذكريات الغمزة بطرف عينها لي في ذلك العرس القديم، التي ضمنت بها خليل زوجاً لها؟ خليل لم يعد يعرفني، يقول إنني أصبحت ملحداً بعد أن سافرت إلى "سلومانيا "بدلاً من التوجه نحو الديار المقدسة، وافترقت طريقانا اللتان جمعتهما الأعراس في زمن ماض غابر.

رجع الحاج خليل بأموال كثيرة، وفتاوى صحراوية لا تنتهي، نسي رائحة الحقول ونسي أحلام والدته في كل عام بموسم وفير وهي تعمل في الحقل إلى جانب "أبو خليل"، ولازالت بالرغم من تجاوز عمرها الستين.

"خذي يا والدتي نقوداً واجلسي في البيت مستورة بعيداً عن أعين الرجال، فالشيطان يتجول في البلدة".

كان يلح عليها كل يوم متأففاً من غضب السماء العظيم. ولكن والدته كانت ذات شخصية قوية مثل كل نساء القرية الذين تنشقوا رائحة الحقول، ولازالت تعامله كشاب صغير، ولازالت تُحضر له سلال المؤونة، كما لو كان في بلاد الصحراء، مثله مثل إخوته الذين لم يسافروا وبقوا فقراء.

يقول لها "يا أمي، لا أريد منك شيئاً، أستطيع أن أشتري كل ما أريد هنا، ولكن اجلسي في البيت، وتستري عن أعين الرجال".

يغضب أبو خليل، الذي أصبح عجوزاً متهالكاً، ويكاد يطرده من البيت بعد أن يرفض نقوده، فالحقل مازال يطعمهم "منذ ثمانين عاماً ونحن نعيش هنا بسلام دون شيطانك، فلماذا أحضرته معك؟ ارجع إلى هناك وأرجعه معك".

وحدث الصدام الكبير بين الحاج خليل من جهة ووالدته وإخوته وأخواته من جهة أخرى يوم مات والده، أعلن الحاج خليل "جنازة

صامتة، لن نوزع طعاماً على روح الوالد، لا شاهدة على قبره". سخر الجميع منه وطردوه، وكاد يحدث نزاع وجثة الوالد لم تُدفن بعد. خرج الحاج خليل صارخاً "بعد الذي كل دفعته من نقود لأنقذكم من الفقر، لا يطيع أحد أوامري!".

قرر الحاج خليل أن يتخلى عن نشر فتاويه مؤقتاً بسبب هذا الرفض الاجتماعي الذي فاجأه بالرغم مما صرفه من نقود، كان من الأفضل أن يترك أهله فقراء مثل هؤلاء المخبولين حوله حتى يشعروا بقيمته. وقرر أن يتجه بنشاطاته نحو تنمية ثروته الحلال، وستكون باكورة مشاريعه سوبر ماركت على الطريقة الصحراوية، يبيع فيه كل شيء حلالاً شرعياً، ولكن معلباً على الطريقة الأمريكية.

ووجد بقالية واسعة مع مستودع خلفي في ساحة البلدة الرئيسية، من الممكن تحويلهما إلى سوبر ماركت بعد التخلص من البضاعة القديمة فيهما، وإجراء تغيرات جذرية في البناء وتنفيذ أعمال ديكور جذابة ومغرية، كما شاهد ذلك هناك في بلاد الصحراء. إلا أنه برزت مشكلة عويصة، فصاحبها "كِتابي "ـ كما أصبح الحاج خليل يسمي جيرانه المسيحيين بعد عودته من بلاد الصحراء ـ، وهو ليس على استعداد للحديث والتفاهم مع شخص يأكل لحم الخنزير. لا يستطيع أن يفهم كيف يمكن لهؤلاء "الكتابيين "أن يسيطروا على المواقع المميزة تجارياً في البلدة، متحسراً على أيام دفعهم الجزية، ونسي أنه قضى نصف طفولته عند خالته أم أنطون، إذ أكل وشرب ونام ولعب مع أولاد الخالة. على كل الأحوال لابأس من التعامل معهم اضطرارياً، ولكن عن طريق وسيط.

عرف مالك البقالية برغبة الحاج خليل الشديدة بالحصول على محله فرفع السعر، واشترط أيضاً بيع البضاعة الموجودة فيه معه، فالدنيا تجارة، ربح وشطارة، وهو تاجر مثل بقية المؤمنين الذين لا يرغبون بالتحدث معه مباشرة. رضخ الحاج خليل للشروط وعينه على الموقع المميز في الساحة، وتمت الصفقة حتى دون معاينة البضاعة

الموجودة في المحل، والتي سيبيعها مباشرة فيما بعد بأي سعر، وسيعوض كل هذه الخسائر لاحقاً.

أصبح المحل ملكاً له بين ليلة وضحاها، أحضر مقعداً جلدياً أسودَ ودواراً فخماً، وجلس عند مدخله، وضع رجلاً فوق رجل وأمسك بخرطوم نارجيلة عالية يدخنها، مستعرضاً نفسه بسرور أمام المارة الذين سيصبحون زبائنه عما قريب. فكر بالصفقة الرابحة التي عقدها، سيحول كل هذه الخردة إلى محل عصري برفوف معدنية، وإضاءة ملونة، وعربات خدمة ذاتية. تأمل البضاعة القديمة، نظر إليها باشمئزاز، فهي دون تعليب ودون تغليف ملون، ليس فيها أية جاذبية للمستهلك، سيتخلص منها ويبيعها بأي سعر.

خطط لكل شيئ مع خالد، زوج ابنته الأولى، الذي يرافقه دائماً منذ أن كانا معاً في بلاد الصحراء، خالد كان قد ضَمِن مستقبله بالزواج من ابنة الحاج خليل، وهو يقلده بكل حركاته وأفكاره كدليل على إظهار مدى الانسجام معه.

وبينما كان الحاج خليل يخطط لمشاريعه المستقبلية على الكرسي الدوار الأسود، ذهب خالد يستطلع البضاعة الموجودة في المحل، ودخل إلى المستودع الخلفي، هناك فوجئ بما شاهد، لم يصدق عينيه وكأنه في حلم شيطاني، المستودع مليء بزجاجات الخمر. طاش صوابه واكفهر وجهه وعقدت المفاجأة لسانه، تراجع إلى الخلف، عاد ووقف فوق رأس الحاج خليل بعد ما أصابته المفاجأة بالشلل.

" ماذا هناك يا خالد، وكأن الشيطان ظهر لك!".

" نعم ظهر لي الشيطان يا عمي الحاج".

ابتسم الحاج ساخراً "وأين ظهر لك؟".

" في المستودع يا عمي الحاج، لقد ارتكبنا معصية كبيرة لا تغتفر بسهولة، معظم البضاعة المخزنة في المستودع هي من الخمور".

نهض الحاج خليل مرتعباً مرتعداً، وقد اكفهر وجهه أيضاً، وتوقفت الكلمات على لسانه، كيف لم ينتبه لمعاينة البضاعة قبل شراء المحل. أخذ يضرب رأسه بالجدار ويلطم خدوده، كاد يجن لارتكابه كبرى الكبائر، خمر في مستودعه؟ سيكون ملعوناً مثل شاربها وبائعها وناقلها، بل ودفع نقوداً حلالاً لشراء بضاعة حرام. بعد كل هذه الإقامة الطويلة في الديار المقدسة ترتكب هذه المعصية يا حاج خليل، ثم كيف سيبيعها ليسترجع ثمن ما دفعه، فهل يخسر مرتين؟

انتشر الخبر بسرعة في البلدة "الحاج خليل اشترى صفقة كبيرة من زجاجات الخمر، كان سيتاجر بها سراً ليربح بها نقوداً أكثر، ولكن أمره انكشف".

تراكض العابثون، والشامتون، والساخرون، والهازئون، والعاطلون عن العمل، والمتسكعون، والفضوليون، والملحدون، والحزبيون القدامى المتقاعدون، الذين احتقرهم الحاج خليل بنقوده الجديدة، وعيرهم أنهم لم يزوروا الديار المقدسة ليتباركوا بالإقامة فيها مثله. تجمهروا على الرصيف الواسع المقابل لمحله، وساد الهرج واللغط، فيما كانت تتعالى التعليقات والضحكات الساخرة هنا وهناك. وما زاد في غضب الحاج خليل حضور كثير من النسوة "السافرات "ليشمتن به، "هذا ما كان ينقصك يا حاج خليل، أصبحت مسخرة أمام المركوبات الكافرات "قال في نفسه.

أصبح إيمان الحاج خليل وسمعته ومستقبله التجاري على الميزان، لا بد من فعل جريء ينقذ فيها كرامته، فكر أنه لن يبيع زجاجات الخمر بالذات مع البضاعة في المستودع، بل سيتلفها، وسيقوم بذلك بنفسه أمام مرأى الجميع. ومع أنه سيخسر مرتين، مرة أولى عندما اشترى البضاعة الحرام، ومرة ثانية عند إتلافها، إلا أنه سيعوض خسائره فيما بعد، فالتجارة شطارة، والمهم الآن سمعته التجارية.

بدأت الحفلة، أخرج الصهر خالد الصندوق الأول من المستودع ووضعه على الرصيف، تناول الحاج خليل زجاجة منه بعد أن أمسك عنقها بقطعة قماشية حتى لا تتلوث يده بزجاج "المُنكَر"، رفع الزجاجة عالياً إلى ما فوق رأسه بطريقة استعراضية، نظر حوله وتأكد أن الجميع يشاهده، ثم هبط بها بجسمه كله وبما فيه كرشه المهتز على حرف الرصيف ليحطمها بكل قوته. تحطم الزجاج وتناثر وسال الخمر على طرف الطريق، صفق الحضور من الطرف الثاني وتعالت زغرودة من فم إحدى النساء لقوة عضلاته وحركته البهلوانية البارعة في كسر زجاجة خمر بماركة أمريكية.

المشهد المسرحي أصبح الآن واقعياً جداً ويتفاعل معه الجمهور دون حواجز بين الواقع وخشبة المسرح، ستكون المسرحية اليوم أجمل من كل أفلام السينما التي شاهدوها سابقاً في دار العرض القديمة والآيلة للانهيار الآن، سيتذكرون كيف يحمل أبطال الكاوبوي زجاجات الخمر في الحانة ويضربون بها رؤوس منافسيهم بعد اكتشاف تلاعبهم بأوراق لعب البوكر، فيما تستمر الراقصات بالقفز ورفع سيقانهن عالياً، حيث لا يظهر للأسف سوى سروال طويل لعند الركبتين. الآن العرض مباشر وسيكون بالتأكيد أمتع، ولنرى ماذا سيفعل البطل.

استمرت مسرحية تكسير الزجاجات، كل مرة بحركة بهلوانية مبتكرة ومختلفة، ليتناثر الزجاج وتسيل المشروبات، وبما أن المسرحية على ما يبدو ستطول فقد استغل أحد الأذكياء الوضع لتنفيذ فكرة تجارية مناسبة. أحضر سيارة شاحنة مليئة بالكراسي، أنزلها وأخذ يرتبها بثلاثة صفوف على الرصيف المقابل، وقام بتأجير الكرسي الواحد في الصف الأول بمائة ليرة، وفي الصف الثاني بخمسين ليرة، وفي الثالث بخمس وعشرين ليرة، ومنح حسماً لمن يجلس هو وبنت الجيران، ومن لم يملك نقوداً افترش الأرض، أما أنا

فقد منحوني كرسياً شرفياً بالمجان في الصف الأول، لأنني قادم من سفر بعيد لا علاقة له بالديار المقدسة، ونكاية بالحاج خليل.

توالت مشاهد التكسير، وسالت مشروبات الويسكي، والعرق، والبيرة، والنبيذ، والبراندي، والفودكا، والشمبانيا، سواقي على الرصيف وفي الطريق، بحيث يمكن للأقدام أن تغوص فيها. شربت منها شجيرات الرصيف، فانتعشت وتمايلت سكرى، ونَمَت بنصف ساعة بمقدار ما كان يمكنها أن تنمو في ثلاثة أعوام، فعرشت أوراقها على القلوب وفردت ظلالها على الذكريات والحنين.

كان التصفيق والصفير والزعيق فوضوياً يعلو مع كسر كل زجاجة، ومن ثم انتظمت هذه الضجة الفوضوية بموسيقى بشرية منسجمة مع إيقاع المعركة البطولية، فما أن ترتفع الزجاجة عالياً حتى يصرخ الجمهور معاً "هيلا، هيلا، هوب"، وترتفع زغاريد النساء، وتسقط الزجاجة على الرصيف وتتحطم. وأصبح كل شخص من الحضور يرافق الحركات البهلوانية بفعل مماثل في خياله، ويقوم بتكسير الزجاجات على رؤوس الأشخاص الذين يكرههم، واحد على رأس حماته التي حولت حياته إلى جحيم، وثانٍ على رأس الرجل الذي لم يزوجه ابنته لأنه فقير، وثالث على رأس من لم يرد له ديونه ويتهرب منه دائماً، ورابع على رأس من سرق له الدجاجات في الليل، وخامس على من يتلصص على امرأته كلما صعدت على السطح لتنشر الغسيل. أما النساء فقد كانت لهن أحلاماً معاكسة، فالمتزوجات حطمن الزجاجات على رؤوس أزواجهن، وبشكل عام فإن النساء كلهن حطمن الزجاجات على رؤوس الرجال الذين لا يتلصصن عليهن.

أما أعلى نسبة تحطيم الزجاجات، وخاصة الكبيرة منها، فقد تكسرت بقسوة شديدة على رؤوس عناصر جهاز الاستقرار، وأصحاب المزارع الجديدة، الذين سقطت أجسادهم المضرجة بالدماء على طول الطريق، وتمرغت بالوحل المجبول بسواقي المشروبات الروحية.

وخلال العرض الذي استمر أكثر من ساعتين حطم الحاج خليل ببطولة أكثر من مائة زجاجة خمر، وعندما شاهد الإقبال الشديد على العرض وشعر بارتفاع أسهم سمعته التجارية، طلب من الصهر خالد إحضار كل المشروبات الموجودة في زجاجات لتحطيمها.

يجيبه الصهر خالد "ولكن لم يبق إلا زجاجات الحليب واللبن والعصائر الطبيعية والملونة".

رد عليه الحاج وهو يرغب باستثمار هذه الفرصة الذهبية التي لن تتكرر "مادام قد أمسكها هذا الكتابي فهي نجسة، ثم إنها كانت تجاور زجاجات الخمور ولامستها، وهذا مبرر ثانٍ لتحطيمها، أحضرها بسرعة".

وانكسر أيضاً ضعف العدد من زجاجات الحليب واللبن والعصائر، ولم تنجُ من المجزرة سوى زجاجات الكوكاكولا بسبب حماية علامتها التجارية الأمريكية الواضحة والمكفولة، وللمعرفة المسبقة بالضمانات الشرعية التي تم الإفتاء بها في بلاد الصحراء بخلوها من المسكرات.

ولكن الجمهور لم يعد يتحمس كثيراً لكسر الزجاجات غير "الخمرية"، فهي صناعة وطنية، كما أنها متوفرة في كل البقاليات بالبلدة، ولا تؤدي للنشوة الروحية، فكان على الكومبارس أن يتولى مهمة تكسيرها، لا البطل الرئيسي في المسرحية. ولذلك خف الحماس وأقلعوا عن تكسيرها على رؤوس الأشخاص الذين يكرهونهم، فزجاجة اللبن لن تحطم الرأس اليابس لعناصر جهاز الاستقرار على سبيل المثال.

ومع أن الجمهور كان متفاعلاً بحماس مع العرض المسرحي في الساعتين الأوليين، إلا أنه كان يتحسر على ما تم سكبه من مشروبات روحية على الطريق، فقد كانت أرواحهم ظمأى للانتشاء بها، يشاهدون ويتحسرون ويلحسون شفاههم اليابسة من العطش. وفكروا

أنه ألم يكن من الأفضل توزيعها على الفقراء، الـذين يقـدمون الغـالي والرخيص لشرائها، رغبة منهم في أن يدوخوا حـتى الثمالـة، وينـسوا الواقع المر والقاسي الذي يعيشون فيـه. وبـدأ الفقـراء يحـسبون سـعر الزجاجة من كل مشروب، ويجرون عمليات الضرب الحسابية بأعـداد الزجاجات، ليحصلوا علـى سـعر زجاجـات كـل مـشروب لوحـده، وبالتالي معرفة الخسائر المادية والروحية والنفسية التي يتكبـدونها مـن جراء ذلك.

فالبيرة رخيصة تروي العطـش القـديم، وهـي مناسـبة لوجبـات الغذاء العامرة باللحوم لأصحاب المزارع قرب المسبح، وإلى جانبـهم فتيات جميلات بالمايوه البكيني، والأفضل بدونه. وهناك مـن يتحايـل الآن على صنع بيرة دون كحول، شراباً شبيه بالبيرة، ينتشي من يـشربه لمنظره، المهم أن يشربها كل من يأكل في المزارع، بغض النظـر عـن انتماءاته الروحية، من أجل الترويج للمايوه البكيني.

ومـشروب العـرق رخـيص أيـضاً، منـسجم مـع أكـل البرغـل بالعدس، ولكن مفعوله قوي عند الفقـراء، يجعلـهم يبكـون وينـسون جوعهم وآلامهـم وحيـاتهم القاسـية، كمـا يجعلـهم يـرون زوجـاتهم القبيحات جميلات وزرائبهم التي يعيشون فيها قصوراً، وهـو مناسـب جداً بشكل خاص لشتم عناصر جهـاز الاسـتقرار وأصـحاب المـزارع الجدد، فيبدع هؤلاء الفقراء من مخـزون لغـوي إبـاحي غـير موجـود حتى في كتب التراث القديم، مع أنهم يُحاسبون قانوناً على كل كلمـة يقولونها دون اعتبار لما شربوه.

والنبيــذ ذو أســعار متوســطة، مناســب للأمــسيات الــشاعرية المخملية الممتدة حتى الصباح مع العشيقة فقط، وإذا مـا زادت كميـة الشرب منه فسينسجم مع البكاء على صدرها وندب الحظ الـسيئ مـع الزوجـة الـتي لا تفهـم المتطلبـات الـشاعرية والجنـسية لزوجهـا كمـا تتفهمها هذه العشيقة بالذات. ولذلك فهـو ينتـشر في الـشقق الخاصـة

بالعشيقات، في حين لا يتناسب مع منازل الزوجات، وإلا لشربنه مع العشيق في غياب الزوج الذي يطول مع العشيقة.

والويسكي غالٍ جداً، ولكن مجرد حمل كأس منه يعني التعبير عن الانتماء إلى دائرةٍ السلطة القوية، وعندما يشربه الشخص يُحس بنفسه عملاقاً وباقي الناس حوله حشرات يمكن أن يهرسها بقدمه، ولذلك لا يُحاسب المسؤول عن الجرائم المرتكبة بحق الحشرات إذا كان تحت تأثير الويسكي، وهو يناسب اجتماعات كبار المسؤولين مع ممثلي الشركات الاحتكارية الغربية، ليبدو كرجال أعمال مستعدين للتعاون معها أكثر من اهتمامهم بمناصبهم الرسمية الوطنية.

أما الفودكا فهي رخيصة جداً، وإن كانت شعبيتها شبه معدومة لدينا، فهي المشروب الشعبي لأنظمة انهارت بعد أن ضحكت علينا بكذبة الاشتراكية، في حين كانوا يتوجهون هم نحو الرأسمالية المنتجة المبدعة، والأسوأ أنهم تركوا لنا الاشتراكية المنهارة ندافع عنها وحدنا. ولذلك تخلى كل المسؤولين السابقين الباقين في السلطة حتى الآن عن تناول الفودكا نهائياً، بعد شعورهم بالإهانة الموجهة إليهم شخصياً، وخاصة أنه تم خداعهم طويلاً بها، وشربوا مئات الليترات منها. وعلى كل الأحوال فهذا المشروب مناسب جداً لبلدان أوروبا الشرقية, إذ تهبط درجات الحرارة بشكل كبير تحت الصفر، فيشعر الأوروبي الشرقي بالدفء عند شربها، وإذا ما تناولها رجل فقير لدينا بالخطأ دون أخذ الاحتياطات التي كان يأخذها المسؤولون سابقاً فإنه يشتعل، وتتمثل الاحتياطات بوجود خمسِ رفيقات مناضلات شبقات معاً لإطفاء الحريق داخل شاربها.

والشمبانيا هي مشروب الانتصارات والمناسبات الرسمية في الغرب، والذي يريد أن يقلده عليه فتح زجاجة شمبانيا في المناسبات المهمة، وترك نصفها يسيل على الأرض بكرم، تعبيراً عن كرم صحراوي برمي آلاف من الدولارات للمظاهر

الاستعراضية. ولهذا فالشمبانيا مناسبة جداً لفرح الانتصارات السرية جداً لدينا، مثل النجاح في تمرير صفقة لحوم فاسدة كبيرة في الأسواق، أو دفن حمولة نفايات كيماوية في آبار مياه الشرب مقابل عمولة عالية.

تحسر الفقراء على كل ما فاتهم من فوائد المشروبات التي حطم زجاجاتها الحاج خليل، وحطم معها الكثير من أحلامهم. ولكنهم أخذوا يلتقطون بأنوفهم الحساسة جداً روائح المشروبات التي شكلت غمامة كبيرة فوق الشارع، بحيث أخذ كل شخص يحلم بالانتشاء حسب نوع المشروب الذي التقط أنفه رائحته. ولكن مع وصول المسرحية إلى درجة العبثية بتحطيم المكتسبات الوطنية من زجاجات الحليب واللبن والعصائر، هبت عاصفة غبارية قوية، ملأ غبارها عيوننا، فلم نعد نستطيع أن نحلم تحت حاجز من الغبار الكثيف المعتم، وجعلتنا نترك الكراسي ونتراكض نحو المنازل للاحتماء بها، إلا أن أحد الشطار استغل الوضع الغباري وقام بسرقة الكراسي، واختفى المسرح في الهواء الطلق.

في اليوم التالي ذهبت السكرة وجاءت الفكرة، فقد وجد الحاج خليل أن المبلغ الذي دفعه مرتين ثمناً للخمور، وفق حسابات السكارى من جمهور المشاهدين، هو مرتفع جداً.

"لقد فعلها معي الخنزير الذي لا يؤمن له "قال في نفسه.

وقرر أن يسترجع ثمنها من السكارى الذين سخروا منه وأجبروه على تحطيمها، ولكن بطريقته الخاصة. فالتجارة شطارة، وهو لن يبيع إلا البضائع المحللة شرعاً، أما كيف، فهذه ليست مشكلة. رفع أسعار بعض المواد "غير الأساسية "حفاظاً على قوت الناس، بعد أن احتكرها لفترة وسيطر على السوق، أما الميزان فقد كان فيه خللاً منذ أن اشتراه، ولم يتسنَ له الوقت لتبديله، تعامل مع المهربين لتأمين حاجة الناس من البضائع المفقودة، وباعها

بأسعار عالية، فالمهربون يعرضون حياتهم للخطر بشكل يومي من أجل إيصالها، ولم يهتم بانتهاء صلاحية مادة غذائية. وقد أمن الغطاء الرسمي لأعماله من خلال علاقات طيبة مع دوريات المراقبة التموينية، التي كان عناصرها يحصلون على مشترياتهم اليومية من عنده مجاناً، وهي خسارة كبيرة كان يتحملها ممتعضاً.

ومنذ أكثر من عشر سنين لا يزال الحاج خليل لا يتعامل إلا مع البضائع الحلال شرعاً، ولكنه يعمل بالطريقة نفسها من أجل استرجاع خسارته، التي دفعها مرتين ثمناً للخمر الذي سال سواقي في الشارع. وحتى الآن لم يسترجع إلا القليل، فالعملة تفقد قيمتها مع الزمن بفعل التضخم، وهو يقيسها بأسعار الدولار والذهب، ولازال العمر أمامه لينتقم من هؤلاء السكارى الذين فضحوه، فلم يعد يجرؤ على رد البضاعة التي اشتراها بالخطأ.

وذات مرة استقبل الحاج خليل أحد رجال الأعمال من أهالي العاصمة في زيارة تعارف من أجل إقامة مشاريع تجارية عصرية في البلدة، فدعاه الحاج إلى الغداء في مزرعته، وقدم له كل احتياجاته الضرورية وغير الضرورية. وبما أن الرجل يحمل كل الصفات التي يحترمها الحاج خليل، "مؤمن، وأخلاقي، وثري، ومن عائلة مدينية محترمة"، فقد رأى أن الفرصة الجيدة التي تأتي فجأة لا تتكرر، قرر اغتنامها واستغلالها بذكاء. فعرض عليه تزويج ابنته التي كبرت كثيراً لابنه المحترم سمير، رغبة منه في تقوية أواصر النسب والأعمال المستقبلية المشتركة.

وتمت الصفقة، وأبرم عقد الزواج لدى شيخ الحي بورقة "كتاب براني "مؤقت، لأن المحكمة لا تقبل بتزويج قاصر، فابنته لم يتجاوز عمرها السابعة عشرة، لكن الحاج خليل كان يرى أن جسد ابنته قد نما بسرعة، وسوف لن تهدأ إلا بزوج يعقلها ويكون قواماً عليها. وتناقلت العجائز أن زوجته ليلى كانت معترضة على هذا الزواج،

فالعريس سمير ذو السادسة والعشرين من عمره قد طلق زوجته الأولى بعد سنة من زواجه، ولا أحد يعرف لماذا؟ وإن تناقل البعض بأنه مريض نفسياً، في حين قال آخرون بأنه تتم معالجته عند أحد الشيوخ لأن جنياً ركبه. ولكن الحاج خليل واساها "هذا الوريث الوحيد لوالده، ألا تريدين ضمان مستقبل البنت بعد موتنا، أم تريدين زوجاً مثل الصهر خالد الذي تورطنا به ويعتمد علينا بكل شيء، ثم لا تنسي فوالده "أبو سمير" سيصبح شريكاً بأعمالي التجارية في البلدة، وهذه أفضل ضمانة".

وكاد الخلاف يدبُّ في أثناء التحضير لحفل "النكاح"، فالحاج خليل لن يتراجع عن تطبيق فتاوى بلاد الصحراء هذه المرة كما تراجع أمام أهله، وفي الوقت نفسه لا يريد أن يخسر الصفقة. فهؤلاء في العاصمة يُحضرون فرق إنشاد دينية، ويغنون طوال الليل في بدعة غير مقبولة شرعاً وفي الأصول. إلا أنه تم التوصل إلى حل وسط، إذ اقترح الحاج خليل "سنعلن النكاح في البلدة على طريقتنا، وستعلنون النكاح في المدينة على طريقتكم"، وافق الجميع.

وقرر الحاج خليل إعلان "النكاح "ببذخ استعراضي لإثبات كرمه وحضوره القوي في البلدة، ولكن دون الخروج على الأصول الصحراوية، فطبع بطاقات دعوة مذهبة، كلفة كل منها تعادل ثمن وجبة غداء لفقير جائع لم يأكل منذ يومين. ووزعها فقط على المحبين المؤمنين، وتم دعوة مسؤولي البلدية والشخصيات المهمة في البلدة استثناءً، مهما كانت عقائدهم السياسية وانتماءاتهم الحزبية، حتى ولو كانوا من "الكفرة الملحدين "للضرورات العملية، وكان لي الشرف أخيراً أن أكون من المدعوين الاستثنائيين.

اجتمع الرجال المدعوون عصراً في صالة للأفراح، ودخلوا ببطاقات الدعوة حتى لا يتسرب أحد "الفضوليين. جلسوا أمام الطاولات وهم صامتون، يستمعون إلى تسجيل لقراءة القرآن،

أحضره معه الحاج خليل من بلاد الصحراء خصيصاً لمثل هذه المناسبات. جلسوا وانتظروا الطعام صامتين، والذي كاد يتأخر وصوله من أفخر مطاعم العاصمة. امتلأت الطاولات بصحون الرز واللحم المغطاة بوفرة بالفستق والصنوبر، وتوسطتها صحاف عريضة مليئة بتلال من الحلويات الفاخرة الغنية بالمكسرات، وانتشرت ما بينها صحون اللبن، وزجاجات العصير الطبيعي والكوكاكولا. تم توزيع الطعام على الطاولات من قبل متخصصين محترفين بتنظيم الولائم الرسمية حضروا من المطعم الذائع الصيت.

التهم المدعوون بدقائق بعض ما كان موجوداً أمامهم حتى كادت بطونهم تنفجر من وفرة الطعام وهم صامتون، انتهوا من الطعام وتجشؤوا وهم صامتون. نظروا إلى الطعام الوفير من جديد، وقرروا أن يأكلوا مرة ثانية بعد استراحة قصيرة استردوا بها أنفاسهم، فمثل هذه الفرص لا تتكرر إلا نادراً، لم يبق أي مكان في جوانب معدهم وزواياها لِلقيمات صغيرة إضافية. فكروا بحسرة شديدة بأنه سيتم رمي بقايا الرز واللحوم والحلويات في النفايات أو يطعمونه للحيوانات، ونحن أفضل منهم. ترصدوا الفرصة، فما أن نهض الناس للخروج، حتى تشاغلوا بشد أحزمتهم، ثم ملؤوا جيوب البنطال، واحداً بالرز واللحم والثاني بالحلويات، وسكبوا اللبن في جيوب الجاكيت، وأدخلوا زجاجات عصير داخل القميص، تسللوا من باب جانبي وخرجوا دون أن يودعوا الحاج خليل وصهريه حتى لا ينكشف أمرهم. أستغرب الحاج خليل وسأل صهره خالد "لقد اختلطت علي الأمور، دخل أربعمائة شخص إلى الدعوة، ولم يخرج مودعاً إلا مائة شخص، فماذا يفعلون في الداخل؟".

وهكذا تم إعلان النكاح في البلدة، حضر الناس وهم صامتون، وذهبوا وهم صامتون، دون أن يدري الناظر إلى وجوههم فيما إذا خرجوا من فرح أو عزاء.

بعد ساعة جاء دور النساء، وصلت سيارات خاصة، أنزلت حمولتها من الكتل المخفية من الأجساد البشرية أمام الصالة، بحراسة مشددة من فرسان يركبون على الخيول، ويحملون السيوف بأيديهم استعداداً لأي طارئ. وحدث ما حدث داخل الصالة، وعرف البعض ما حدث داخل الصالة من شريط فيديو قامت بتصويره فتاة مؤمنة تعمل في مركز تصوير موثوق به، متخصص بتصوير حفلات النساء مع ضمان السرية. ولكن الشريط تسرب، ادّعت الفتاة بأنها عرضت الشريط فقط على أخيها، لأنه يريد أن يختار عروساً من البلدة، لكنه طلب رؤيته لوحده عدة مرات ليختار بعناية وهدوء فاستجابت له، إلا أنه ودون علمها دعا جميع أصدقائه الشباب الذين يرغبون بالبحث عن عروس لمشاهدته، وهكذا انتشر الشريط.

وحكى من شاهد الشريط أنه ما إن دخلت كتل الأجساد البشرية إلى الصالة حتى سقطت المعاطف، والعباءات، والجلابيب، والخِمارات السوداء الكاتمة للصوت والصورة، سقطت على الأرض ومرت فوقها النسوة بأقدامهن دون أن تعني لهن شيئاً. بدت النساء بأجمل ملابسهن على الموضة الباريسية والإيطالية، والتي حصلت عليها خياطاتهن من أحدث مجلات الأزياء العالمية. وقد تزينت أعناقهن وصدورهن وسواعدهن بأغلى المجوهرات، وطليت وجوههن بطبقات سميكة من مواد الزينة، بعد أن نتفن حواجبهن وارتفعت تسريحاتهن عالياً وخلفاً وجانباً، فتغيرت خلقتهن، ولم يعد الناظر يعرف من هي "أم خالد "من "أم أحمد "من "أم حسين "!

كانت فرصة للنساء ليستعرضن ما تكدس على أجسادهن من ملابس فاضحة، ومجوهرات ثمينة، وزينة غالية، وليتبارزن بفتنتهن بمقدار ما تبرز من أجزاء مكشوفة من أجسادهن، بحيث تحولت الفتيات إلى دمى مزينة مثل قطع الكاتو، والمتقدمات في العمر إلى قطع أثرية جاهزة للعرض في المتاحف..... ومع كل هذا كن حزينات، أُعلن العرس بالدف وبقين حزينات، صفقوا بأيديهن

الناعمة وبقين حزينات، أكلن بأناقة مصطنعة قطعاً صغيرة جداً من الحلويات، ولامست قطرات من العصير شفاههن وبقين حزينات، فهن لا يعرفن لمن لبسن وتزين وتعطرن.

لازالت المتقدمات بالعمر من النساء لديهن ذكريات من أعراس الطفولة، حيث الفتيات كن يرقصن بملابس الحقول دون أي زينة، ومع ذلك يلفتن انتباه الشباب من بعد مئات الأمتار، ويخلبن عقولهم. أما هن فعلى الرغم من كل هذه الزينة والعري الفاضح فلا أحد يتأملهن، والرقص حرام، والتمايل والانحناء حرام، والذهاب إلى الحلم حرام، فقد تصف إحدى الخبيثات لزوجها كيف يتمايلن أو ينحنين، فيأتي إليهن في الحلم ويغتصبهن.

ولذلك كن حزينات، دخلن إلى الصالة حزينات، وخرجن منها حزينات، دون أن يدرين من ينظر إلى وجوههن بأنهن قد خرجن من فرح أو عزاء. ولكن الحزن القديم كان مرتسماً على الوجوه.

انتشر خبر تسرب شريط الفيديو في البلدة، "ما هكذا كان أملنا فيك يا حاج خليل، أرسلنا زوجاتنا وأخواتنا وبناتنا إلى دعوة العرس على أساس أنك من المتقين والحافظين لشرف نسائنا وتخاف على كرامتنا، فكيف حدث كل هذا بإهمالك؟"، حاججه الكثيرون وهم غاضبون، وقد تبلبلت البلدة وسادها الاضطراب لانكشاف الأسرار الحميمية للمتقين فيها.

وجد الحاج خليل أن الفضيحة التي تمسه كبيرة جداً، ويجب أن ينتقم لشرفه وشرف من ائتمنه على نسائه. قام صهره خالد في اليوم التالي بتوجيه منه بجمع بعض الأقارب والأصدقاء، الذين خدمهم الحاج خليل قديماً في بلاد الصحراء، استثار نخوتهم وطلب منهم رد الاعتبار لكرامته المهدورة. اجتمع حول الحاج ما يقارب خمسة عشر شخصاً، دون حساب الصبيان الصغار، حملوا العصي والسكاكين والجنازير والفؤوس، وأحضر أحدهم قوس نشاب وجعبة مليئة

بالسهام، لم يدر أحد من أين حصل عليها، ذهبوا جميعاً إلى مركز التصوير بضجيج وجعجعة قوية، غاضبين ومهددين. شاهدهم من جديد العابثون، والشامتون، والساخرون، والهازئون، والعاطلون عن العمل، والمتسكعون، والفضوليون، والملحدون، والحزبيون القدامى، وتسألوا "هل ستبدأ مسرحية جديدة؟ وهل هي جديرة بالمشاهدة؟".

تجمهروا على الرصيف المقابل للمركز، وانتظروا ليشاهدوا بدايتها، فإما أن يستمروا أو يمضون في طريقهم.

صاح الغاضبون وهم في ذروة هياجهم، وطلبوا رؤية مالك مركز التصوير، والفتاة المصورة وأخيها، ليقتصوا منهم. لم يجرؤ أحد على الخروج، تسلل الجميع من باب خلفي وهربوا، يعرفون أنه لا يمكن مناقشة رجل غاضب يحمل بيده عصاً أو فأساً. لاحظ المشاهدون على الطرف الثاني أن الأمور جدية من خلال الصرخات المتتالية والتهديدات الحقيقية، فاقتنعوا أن المسرحية جديرة بالمشاهدة. ومن جديد أحضر أحد الأذكياء سيارة مليئة بالكراسي، ووضعها بثلاثة صفوف على الرصيف المقابل ليؤجرها، ولكنه في هذه المرة ربطها بسلسلة واحدة من الجنازير، خوفاً من سرقتها إذا ما ثارت عاصفة غبارية مفاجئة بنتيجة الأحداث، ومنح حسماً كالعادة لكل من أحضر بنت الجيران معه، وبالطبع أعطوني مكاناً مميزاً في منتصف الصف الأول للاعتبارات نفسها في مسرحية كسر زجاجات الخمور.

دخل الغاضبون إلى المركز، وبدؤوا بتحطيم كل ما يقع في طريقهم، كسروا الأبواب، قلبوا الطاولات والكراسي، صفق الجمهور على الرصيف المقابل للتمثيل الحي والمقنع. أشعل أحد المهاجمين ناراً في الصور الفوتوغرافية المكدسة في كل مكان، امتدت النيران إلى الأثاث والجدران الخشبية، وبدأ المركز بالاحتراق.

قال المشاهدون على الطرف الآخر "هذه ليست مسرحية، إذ ليس من المعقول أن يشعل المخرج ناراً في كل مرة يقدم فيها العرض، سيتكبد المنتج خسائر كبيرة، هذا فيلم، ولكنه مليء بالإثارة وشبيه بأفلام الواقعية الإيطالية".

اشتعلت النيران بشدة، وارتفع اللهيب والدخان الكثيف عالياً، وأخذ الحريق يمتد إلى المباني المجاورة. لم يتحرك المشاهدون على الطرف الآخر، فهم يشاهدون فيلماً مثيراً، بدأت التعليقات:

" هذا الفيلم أجمل بكثير من مسرحية كسر زجاجات الخمور".

" الإخراج قوي جداً، يقنعك أن الأحداث وكأنها تحدث حقيقة أمامك".

" التصوير جيد والمؤثرات الصوتية قوية، أحرقوا بناءً حقيقياً بدلاً من استخدام خدع سينمائية من خلال المجسمات".

" هذا الفيلم شبيه بأفلام الكاوبوي الأمريكية، تهجم العصابة على مصرف لتسرقه، فيقتلون كل من يقف بوجههم، ثم يحرقون كل شيء وراءهم لإخفاء الآثار قبل أن يمتطوا أحصنتهم ويهربوا بالغنائم".

" سيأتي البطل الآن ويقضي عليهم، فيقتل رجال العصابة الخمسة عشر، بمسدس يحوي خمس رصاصات فقط".

" أي بطل سيأتي؟ كنت أظن أن هؤلاء هم الأبطال!".

" لا يا حبيبي، هؤلاء ليسوا أبطالاً، هؤلاء قسم من العصابة الكبيرة التي عكرت صفو البلدة، ولم يستطع أحد إيقافهم عند حدهم، ولكن البطل سيأتي حتماً، فقد كان في ولاية ثانية يقضي على عصابة أخرى".

التهمت النيران كل شيء، وهرب الغاضبون عندما شاهدوا ألسنة النيران تنتشر بسرعة وتزحف من بناء إلى آخر، لم يتوقعوا تطور الأمور إلى هذه الدرجة، ولذلك هربوا. لم يبقَ من الأبنية سوى الجدران الآيلة للسقوط والرماد والدخان، عندئذٍ جاءت سيارة

الإطفـاء الوحيـدة في البلـدة، شـبه المعطلـة دائمـاً والمركونـة أمـام البلدية، والتي لا يعمل فيها بشكل جيد سوى زمور الخطر. وهـو يـثير السخرية، فعندما يسمع الناس صوت اقترابـه يعرفـون أن الحريـق قـد دمر كل شيء، ولم يعد هناك من معنى لقدوم سيارة الإطفاء.

وعلى كل الأحوال وصلت سيارة الإطفـاء، تعطلـت علـى بعـد مئة متر من الـدخان المتـصاعد مـن بقايـا الحريـق، قفـز منـها رجـال الإطفاء الأشاوس بحمـاس وشـجاعة، ولكنـهم اكتـشفوا أنهـم نـسوا خرطوم المياه الذي طلبوا استبداله منذ شهر بسبب الثقـوب فيـه، ولم يحصلوا على بـديل. ففتحـوا صـنبور الخـزان واضـطروا لنقـل الميـاه بكفوف الأيدي، وأخذوا ينثرون قطرات المياه على الرماد.

حضر اثنان من رجـال الـشرطة علـى دراجتيهمـا الهـوائيتين، أنـزلا كرشيهما عنها أولاً ثم نزلا بتثاقل ثانيـاً، والعـرق يتـصبب مـن جبـهتيهما والأنفاس شبه مقطوعة.

"يبدو أنه كان هنا حريق "قالا لبعضهما.

فقررا فتح تحقيق لمعرفة سبب اشتعال الـنيران، هـل هـو مـاس كهربائي، أم صاعقة نزلت من السماء. استبعدا بذكاء الـسبب الثـاني، فالوقت الآن صيف ولا توجد لا عواصف ولا صواعق. ولكن من أيـن أتـى المـاس الكهربـائي، والكهربـاء دائمـاً شـبه مقطوعـة؟ لم يجـدا حولهما أحداً ليسألاه.

قال الشرطي الأول "لنسأل الشباب والفتيات الجالسين هناك على الكراسي في الطرف الثاني، فربما شاهدوا ما حدث".

سخر الشرطي الثاني منه مستنكراً "وما علاقتهم بما يحدث هنـا، فهم يجلسون في الطرف الثاني".

" لنسألهم لن نخسر شيئاً، ربما نظر بعضهم إلى جهتنـا مـن بـاب الفضول".

تقدم الشرطيان نحونا، وتوجها إلينا بالسؤال "ماذا تفعلون هنا على الكراسي؟ وماذا تنتظرون؟".

رد الحضور "نحن نشاهد فيلماً عن السطو المسلح على المصرف أمامنا، وننتظر البطل ليأتي ويقضي على العصابة".

سأل الشرطي مجدداً "ومن الذي سيأتي بالضبط؟".

أجاب الحضور من جديد "من العرب إما فريد شوقي أو رشدي أباظة، ومن الفرنسيين إما آلان ديلون أو جان بول بلموندو، ومن الأمريكيين إما تشارلز برونسون أو أنطوني كوين".

" صرخ الشرطيان متأففين "ومن أجل ماذا سيأتون؟".

أجاب أحدهم "لإنقاذ البطلة، سعاد حسني من العرب، وبريجيت باردو من الفرنسيات، وصوفيا لورين من الأمريكيات".

رد آخر "لا يا غبي، صوفيا لورين من البريطانيات، أنت لا تفهم بالممثلات".

رد ثالث "أنتما الاثنان تخرفان، لا أحد يتابع المجلات السينمائية منكما، فقط تحضران أفلاماً ولا تملكون أية ثقافة سينمائية، صوفيا لورين هي من أصل ايطالي ولكنها تعمل الآن في هوليود".

أجاب الأول "بريطانية أو إيطالية ، كله يسير على طريق الأمركة".

شعر الشرطيان بخطورة الموقف عندما سمعا أسماء جنسيات فرنسية، وإيطالية، وبريطانية، وأمريكية. فتح الشرطي الأول جهاز الإرسال واتصل بمركز جهاز الاستقرار في البلدة "احترامي سيدي "أبو رعد"، الوضع لدينا خارج السيطرة، هناك تحضير لتدخل متعدد الجنسيات، فرنسي ـ إيطالي ـ بريطاني ـ أمريكي وبغطاء عربي، وهو ما ينذر بعدوان حربي جديد على المنطقة".

وخلال ثلاث دقائق حضرت ثلاث سيارات لاندروفر، في كل

واحدة منها خمسة عناصر بأسلحتهم الرشاشة ومسدساتهم وقنابلهم، إضافة إلى قاذف مضاد للدبابات.

نزل من السيارة الأولى فريد شوقي بعضلاته المفتولة وجسده الممتلئ، صفق له المشاهدون من الطرف الثاني بحماس شديد، وزغردت له إحدى النساء.

"جاء البطل العربي ليقضي على العصابة "صاح أحد الحضور.

تقدم الشرطيان منه وقدما له تحية قوية "احترامي سيدي "أبو رعد "".

ونزل من السيارة الثانية آلان ديلون بوجهه الوسيم وملابسه الأنيقة، صفق له المشاهدون من الطرف الثاني بنعومة، وتأوهت إحدى النساء بصوت كله إغراء "يا حبيبي، لو أقضي ليلة معك في الفراش".

علق أحد الحضور "جاء البطل الأنيق لوضع خطة ذكية للإمساك بالعصابة".

تقدم الشرطيان منه وقدما له تحية مهذبة "احترامي سيدي "أبو رعد "".

ونزل من السيارة الثالثة تشارلز برونسون الساحر بابتسامته برغم قساوة تقاطيع وجهه، صفق المشاهدون من الطرف الثاني مع صفير وتهليل قوي، وصرخت إحدى النساء "يا وحش يا رائع، لو أقضي ساعة واحدة معك في الفراش!".

علق أحد الحضور "جاء رجل المهمات الصعبة، بطل الكاوبوي والكوماندوس وقاهر الجواسيس، هو من سينشر العدالة والديمقراطية في العالم".

تقدم منه الشرطيان وقدما له تحية، وهما يقفزان في الهواء ويهزان الأرض بقدميهما "احترامي سيدي "أبو رعد "".

وخلال عشر دقائق ألقى رجال عناصر جهاز الاستقرار القبض على الرجال الخمسة عشر الذين هاجموا المركز وأحرقوه، بما فيهم الحاج خليل والصهر خالد، أحضروهم أمام مركز التصوير مكبلين بالقيود. اتصل "أبو رعد "الثلاثة بالمركز القيادي "معلمنا "أبو أحمد "العملاق، نُفذت المهمة وتم القبض على العملاء، قبل أن يصلهم الدعم والمساعدة من القوات المتعددة الجنسيات، تحت غطاء بقرارات من مجلس الأمن، ونحن بانتظار الأوامر الجديدة".

بعد قليل حضرت سيارة شبح سوداء مصفحة ضد الرصاص، ومعها ثلاث سيارات مرافقة، ودبابتان، وحوامتان تحلقان بوضع منخفض. شكلت عناصر المرافقة ثلاثة أطواق أمنية حول موقع المعركة، ترجل "أبو أحمد "العملاق من سيارته وحوله خمسة مرافقين مسلحين، تتحرك عيونهم مثل الرادار في الاتجاهات كافةً، فقد يهبط بأية لحظة رجال الكوماندوس الفرنسيون والإيطاليون والبريطانيون والأمريكيون في محاولة أخيرة لإنقاذ العملاء.

تراكض "أبو رعد "الثلاثة وأدوا التحية للمعلم "أبو أحمد "العملاق، وقالوا "معلمنا، قضينا على العملاء قبل إنشاء قاعدة ثابتة لاستقبال القوات المتعددة الجنسيات".

سأل "أبو أحمد "العملاق "كم عدد المشاركين في العملية، أعطوني تقريراً مفصلاً؟".

أجابوا "خمسة عشر، بينهم ثلاثة مجهزون بأحزمة ناسفة، وزعيمهم الحاج خليل، الذي كان من المتعصبين لفتاوى شيوخ بلاد الصحراء في أثناء إقامته هناك، ثم اندمج مع الفكر الإرهابي في أفغانستان عندما قاتل السوفييت إلى جانب الأمريكيين، وأصبح من "القاعدة". وبرغم انقلاب "القاعدة "على الأمريكيين، إلا أنه حسب تحرياتنا الدولية فقد بقي عميلاً مزدوجاً لفترة طويلة. وآخر التقارير تشير إلى أنه أصيب بانفصام بالشخصية، فمرة يقاتل مع الأمريكيين

لنشر الديمقراطية في بلادنا من خلال علاقات مع مجموعة رجال أعمال مدينيين، يرأسهم صهره الرجل غريب الأطوار سمير، ومرة أخرى يقاتل ضد "الصليبيين "من خلال علاقات مع مجموعات مقيمة في باكستان، حيث يُعد الصهر الثاني خالد رجل الاتصال بينهما".

سُر "أبو أحمد "العملاق بالأخبار "عمل ممتاز يا شباب، نستطيع أن نساوم عليهم الآن القوات المتعددة الجنسيات، ولكن من هم الجالسون هناك على الكراسي في الطرف الثاني؟".

ردوا "أناس عاديون يا معلم، يتفرجون كالعادة لدينا كلما شاهدوا تجمعاً، دون أن يشاركوا بعمل شيء، فهم يجلسون على الطرف الآخر، ولذلك لم نقترب منهم".

أعطى "أبو أحمد "العملاق أوامره "اعتقلوا عشرة منهم، لدينا كثير من العمليات التخريبية الإرهابية التي لم نستطع إيجاد منفذين لها، يمكن أن نغطيها بمجموعة من المتآمرين هؤلاء".

رد "أبو رعد "الثلاثة "بالتأكيد يا معلمنا، منذ البداية وحدسنا الأمني يشير إلى إمكانية وجود جواسيس وعملاء مندسين بينهم".

مشى فريد شوقي، وآلان ديلون، وتشارلز برونسون، ضيوف الشرف الثلاثة مع المرافقة البروتوكولية لهم، نحو الجمهور في الطرف الثاني، الذين نهضوا لملاقاتهم وصفقوا لهم. وتعالت صيحات التهليل والفرح، وزغردت النساء طويلاً، فالأبطال قادمون لتحيتنا كما يحدث في سينما العاصمة. ولكنهم فوجئوا باختيار عشرة منهم وقد كبلوهم بالقيود، وعندما وصلوا إليَّ وبدأ أحد العناصر بتكبيلي صاح به "أبو رعد "الثلاثة "اتركه، هذا رفيقنا المسؤول الجديد عن المتابعات الثقافية في أهم مركز ثقافي في العاصمة، يبدو أنه هنا في مهمة رسمية ثقافية ـ أمنية، تحياتنا يا رفيق".

أخذوا الرجال العشرة الذين سروا كثيراً بالانتقال من موقع المشاهدين إلى موقع المشاركين في أحداث الفيلم، فما دام الأبطال

قد اختاروهم فهذا معناه أنهم يعتمدون عليهم كرأس حربة بين المتآمرين، وهم ينتظرون كلمة السر لإشعال المعركة. ثم جاءت سيارات شاحنة عسكرية مغلقة، دفعوهم فيها بعنف مع الخمسة عشر الذين حطموا المركز وأشعلوه، ابتسموا لهذا العنف، أليس الفيلم واقعياً. لوَّح واحد من العشرة بيديه المكبلتين إلى الحضور في الجانب الثاني قبل أن يدفعوه داخل السيارة وقال "أمانة يا شباب، ذكروا الأبطال بسعاد حسني، وبريجيت باردو، وصوفيا لورين، ونحن جاهزون للمساعدة في إنقاذهن".

اختفى الرجال الخمسة والعشرون في قبو مركز جهاز الاستقرار، ولمدة شهر كان يُسمع في البلدة صراخ ليل نهار من شدة التعذيب، حتى وصل إلى السماء دون أن يجرؤ أحد على زيارتهم أو السؤال عنهم. وذات ليلة اختفت الأصوات نهائياً، وفي الصباح التالي، استيقظ الناس في البلدة وقد وجدوا لوائح اعتراف بأعمال تخريبية، ملصقة على جدران منازل البلدة، وعليها توقيعُ خمسةٍ وعشرين رجلاً. وتضمنت اللائحة الاعتراف بالأعمال التخريبية التالية:

1ـ على المستوى الداخلي:

ـ سرقة مصرف المدينة، الذي يمد الفلاحين الفقراء بالقروض.

ـ سرقة دجاجات الناس الفقراء الوطنيين المتعاونين مع أجهزة الاستقرار.

ـ تكسير شواهد القبور في المقبرة.

ـ إحراق البناء الذي يضم رفات الشيخ ياسين، الذي يتبارك فيه كل المؤمنين البسطاء.

ـ تحطيم محتويات خمارة أبو كارو.

ـ تهديد "الكتابيين "بضرورة دفع الجزية، وإلا تم طردهم من البلدة.

ـ الهجوم على احتفالات الموالد النبوية والأعراس القروية.

ـ مهاجمة سينما البلدة، ومنع أغاني أم كلثوم من مكبراتها الصوتية.

ـ الهجوم على بعض المزارع الوطنية ذات الأهمية الإستراتيجية، وكشف ما فيها من أسلحة للدفاع عن الوطن.

2 ـ على المستوى الخارجي:

التخطيط والمشاركة بالهجوم على المراكز الدولية:

ـ خمارة في كينيا.

ـ ملهى قمار ومرقص في ألمانيا.

ـ مصرف في نيوجرسي بأمريكا.

ـ غواصات وبوارج مجهولة الهوية في أعالي البحار.

ـ قطارات في إسبانيا، تسير على الفحم الحجري بدواليب مطاطية.

* * *

المعلم "أبو حسان"

أستيقظ..... يبدو لي الوقت صباحاً، يتسلل بصيص ضوء مُغبر شاحب عبر النافذة، يذكرني أنني موجود في غرفتي. أشعر بالبرد في فراشي! لماذا؟ أين ورد؟ ورد هي التي تمنحني دفئاً صباحياً مغرياً، يجعلني لا أفكر بالنهوض، فما أن تتمطى بجسدها العاري قربي مغمغمة بمواء قطة حتى أتساهل بالتأخر ساعة عن عملي في المركز، بل وكثيراً ما أصبحت في الفترة الأخيرة أقرر عدم الذهاب، أتصل بالهاتف متعللاً بالمرض. أمد يدي باحثاً عن ورد ودفئها، تفاجئني برودة الفراش، تصطدم يدي بقطع زجاجية، فأصحو مرتعداً، قطع الزجاج التي جرحت إحداها يدي، البارحة، أو ما قبل البارحة، لا أدري! أستيقظ بالكامل على ملمسها حذراً من جرح جديد. أنهض متثاقلاً، يعيدني فضاء الغرفة الذي يهطل غباراً وزجاجاً إلى..... الواقع، أم إلى الكوابيس! لا، فهذه غرفتي، وإن كنت لاأزال أشعر بنفسي مجهداً من آثار الكوابيس.

أشعر بصحو غريب ينتابني الآن، ينتشلني من الكوابيس المتلاحقة التي أصابتني منذ بدء العاصفة الغبارية، المتوقعة بدقة من قبل الأرصاد الجوية الأمنية حسب معلومات صديقي. أتذكر الوجوه الحجرية الخمسة التي كانت تتنقل بي بين البيت والمركز، وقد حدثت اجتماعات في المركز تُوج الأخير منها باحتفالية حرق الكتب، وعندما عادوا بي..... أرتعد الآن لذكرى ما انتاب أحدهم من رغبة بدهسي بالسيارة! ثم جاءتني بانوراما البدوي الدموي العنيف، لتُوقفها ذكريات من بلدتي. هل كان كل هذا كوابيس؟ أم كوابيس اختلطت بالواقع؟ فلم أعد أميز الحدود بينهما.

مع الصحو الغريب وعودة الوعي أخذت أتماسك شيئاً فشيئاً،

وأستعيد قدرتي على الإدراك والتفكير وتمييز ما حولي، أعود إلى زمني الحالي الخاضع لقانون السببية في سير خطه من الماضي نحو المستقبل، فربما سيساعدني هذا على التمييز بين الواقع والكوابيس التي حاصرتني في الأيام السابقة، والفصل بين العوالم المتعددة بتقاطعاتها المريبة وأنا أتبعثر فيما بينها..... تراءى لي أنني صحوت! ولكن لا أدري إلى متى سأبقى صاحياً في زمني هذا؟

أنظر إلى فضاء الغرفة، ألاحظ أن ذرات الغبار والزجاج لم تعد تتلاعب وتتقافز وتتراقص فيه، كما في الأيام الماضية، توقفت معلّقة فقط، ساكنة بطريقة مريبة، وكأنها تتآمر مع الصمت حولي، ولكن الصمت والسكون يحملان معاً تهديداً بانفجار قادم، إلا أن شيئاً ما يوقفهما! وهذا بالضبط ما يدع القلق يتسلل إلى داخلي من جديد، وهو ما سيقودني حتماً إلى الانهيار جراء الريبة المهددة الكامنة حولي. فلقد أصبحت في الفترة الأخيرة أستشعر أي اضطراب أو انكسار حولي في الزمان والمكان، مع أي حدث غير طبيعي، غير مألوف، غير متوقع، إذ سرعان ما ينتقل تأثير تموجاته إليّ بدفقات سالبة، فتتداخل مع القلق الكامن في داخلي، تحرضه وتدفعه إلى السطح، مما يجعلني أفقد التوازن والانسجام مع ما حولي.

يلتمع فجأة في فضاء الغرفة ألق غريب يستمر بضعة ثوانٍ، ألق ذهبي صافٍ يضيء القلب، يترك شعوراً محبباً ومريحاً فيه، بل ويترافق مع همس ناعم ودود، وكأن أحداً يريد أن يبلغني رسالة حميمية! هذه ليست ورد! ورد لا تأتي إلا مع المطر، وهذا ليس أسلوبها. يتكرر الألق والهمس ثانية، تتناهى الكلمات المتراقصة في فضاء الغرفة إلى سمعي بوضوح هذه المرة:

"أنا تالة، إلى متى ستبحث عني وأنا بقربك؟ انتظرتك طويلاً، فلا تتأخر أكثر!".

أقفز من السرير بشعور امتزج فيه القلق والخوف بالدهشة

والترقب، الألق والهمس أتيا من هناك، من النافـذة؟ لا لم يكـن ألقـاً طبيعياً ولا صوتاً ضاجاً من الخارج، بل شيئاً سحرياً هنا في الـداخل، انبثق من ظلال زاوية في الغرفة.

تالة! إذاً ليـست هـي ورد، وأنـا أبحـث عنـها، وهـي تنتظـرني طويلاً! ولكن لا أحد هنا في الغرفة!

اختفى الألق والهمس، غابا، أصغت السمع طويلاً فقد يتكـررا، لا شيء، يبدو أن فترة صحوتي لن تستمر طـويلاً، فهـا هـي الأوهـام تهاجمني من جديد، وستلحقها الكوابيس بالتأكيد، ولـو بحـثُ بهـذا أمـام لمـيس لوجـدت مـادة متجـددة للـسخرية واتهامـات بالانفـصام والجنون تلاحقني بها.

هذا وهم، أجلس على الكرسي وأنا غير راغب بالانهيار في هـذا الجو الغباري. وهم! يجول نظري على الجدار مـن حيـث أتـى الألـق والهمس، الساعة الجداريـة تعلـن الـسابعة، علـى الأغلـب صـباحاً، لوحة شيماء عن العيون العسلية..... تستوقفني اللوحـة، متألقـة دائمـاً على عكس كل ما هو باهت حولي، ربمـا نوعيـة الألـوان المـستخدمة وطريقة مزجها ومن ثم طريقة وضعها علـى اللوحـة القماشـية هـو مـا يجعلها متألقة، وتصمد طويلاً أمام الزمن. وإذا لم يكـن هـذا صـحيحاً فربما أنا الذي أرى هـذه اللوحـة متألقـة بـشعور منـدفع مـن داخلـي، لأنني أحبها، أو لأنني بالأحرى أحب فيهـا الوجـوه الخمـسة الحزينـة ذوات العيون العسلية، اللواتي يحملن في نظراتهن تـراكم قهـر الأيـام الحاقدة على المرأة في مجتمعاتنا الـشرقية. الوجـوه الخمـسة الحزينـة المجتمعة معاً، هكذا أتذكرهم دائمـاً، كـل يـوم أنظـر إليهـا عـشرات المرات، خمسة وجوه مجتمعة. ولكن لمـاذا هـي اليـوم أربعـة وجـوه حزينة مجتمعة، ووجه جانبي منفصل عنهم، وعلى شـفتيه هـو وحـده طيف ابتسامة؟ وجه بعينين عسليتين واضحتين متألقتين، علـى عكـس العيون العسلية شبه الغافية من القهر والحزن للوجوه الأربعة الأخـيرة!

لم يغير أحد شيئاً ما في اللوحة، ولا هـي تـتغير لوحـدها، هـل كنـت سابقاً أنظر إليهـا وأتـوهم مـا أريـد رؤيتـه، إذ لـيس مـن المعقـول أن ينفصل هذا الوجه الخـامس منفـرداً فجـأة..... ولكـن لمـاذا تلاحقـني نظراته الناعمة أينما تحركت في الغرفة؟ هذا لم يحدث مـن قبـل! بـل ويتراءى أن طيف الابتسامة موجّه إليَّ. لا أعرف لمـاذا يـرتعش القلـب هذه المرة، وتندفع دمعتان إلى المآقي؟ أتماسك، وأتـساءل سـاخراً، هل هذه هي تالة، التي تألقت عيناهـا العـسليتان، وهمـست لي بتلـك الكلمات مبتسمة!

الساعة الجدارية تـشير إلى الثامنـة صـباحاً، ومـع ذلـك فالعتمـة مازالت مخيمة في الغرفة، أقترب من النافذة بزجاجها المحطم لأتأمـل ما حدث في الخارج، متوقعاً أن تلفحني موجة غباريـة حـارة. أشـاهد جواً مغبراً، لازالت تتخله زوابـع غباريـة صـاعدة إلى الـسماء، لكـن كأنها توقفت في لحظة، ونسيها الزمن معلقة هناك في فـضاء المكـان، ساكنة بصمت يثير الريبة، تكاد تنفجر في أية لحظـة، ولكـن شـيئاً مـا يوقفها.

طبقات الأتربة مازالت تتكدس على أسطح البيوت القديمة الـتي اختفت ملامحها، وعلى الشوارع التي لم تعد تظهر أرصـفتها، وعلـى الأشجار التي امّحت ألوانها، ليس هناك إلا الغبـار الـبني الـذي يولـد شعوراً بالاختناق. الأغصان المتكسرة لشجرة السرو الـتي أحبـها أمـام نافذتي بقيت معلقة في الفراغ، لا هي تتصل بجذع الـشجرة، ولا هـي تسقط أرضاً، هكذا معلقة، وساكنة أيـضاً، وكأنهـا جـزء مـن مـؤامرة الصمت المريب، كما كل شيء حولها.

ألم تتوقع الأرصاد الجوية الأمنية نهايـة هـذه العاصـفة الغباريـة؟ هذا إذا كان لها نهاية!

أتوجس قلقاً من سيطرة العتمة في الخارج، أمد رأسي قليلاً عـبر النافذة، أكتشف السبب، ويفاجئني، يأتيني كـصدمة، فأنـا لم أشـاهد

مثل هذا المنظر في حياتي كلها، السماء ملبدة بغيوم كثيفة جداً، بألوان رمادية وزرقاء داكنة تكاد تميل إلى السواد الكامل، غيوم لا تترك فتحة أو فجوة في السماء، تمتد فوق المدينة كلها وتصل إلى الأفق وتغلقه، تكاد تلتهمه، غيوم ثقيلة يمكن أن تنفجر في أي لحظة بهطول، ليس بالمطر وإنما بحبات البَرَد الثقيلة المدمرة، مهددة بقصف الأرض وما عليها دون رحمة. وتحت كثافة هذه الغيوم توقفت الزوابع الغبارية، معلقة في الفراغ، تنظر مذهولة إلى الخطر المهدد المدمر، القادم من السماء، وكأن مواجهة ستحدث بين العاصفة الغبارية التي أخذت تلملم قواها مترقبة، والعاصفة الرعدية التي حضرت بكثافة شديدة، مهددة باكتساح كل ما يقف بوجهها.

هل توقعت الأرصاد الجوية الأمنية قدوم هذه العاصفة الرعدية المهددة أيضاً؟ وهل توقعت الصدام الدموي بين عاصفتين مختلفتين بالعقائد والرؤى؟ من سيتحرك في البداية، وكيف للطرف الثاني أن يستوعب الصدمة، وبالتالي من سيحسم الموقف لصالحه؟ الترقبِ هو سيد الموقف! وهذه معركة شرسة دامية بين الغيوم المكتنزة عماءً من البَرَد والقادمة من الجبال، وزوابع الغبار الخانقة بتحريماتها القادمة من الصحراء.

أعود وأجلس إلى الطاولة، ألمح أوراق رواية نبيل، والمنشورات التي كانت تُعلَّق في الشوارع، أمسك أوراق الرواية وأفكر مستغرباً، لماذا توقف الفصل هنا! هل كان نبيل يكتب عن حدث لم ينتهِ، وينتظر ما سيليه من أحداث جديدة؟ ولماذا دفع بهذا الفصل لي؟ يعرف نبيل أنني سأكون غارقاً في الحدث، ولكن ما لا يعرفه أنني سأكون غارقاً على طريقتي، فاعلاً قوياً في المعرفة، وهامشياً جداً في المشاركة. فعوالمي الداخلية تشغلني وتسيطر عليَّ دون إرادتي، وكل ما أستطيع فعله إزائها ألا أدعها تتحول إلى عوالم ماورائية، ولكن العالم الخارجي يقرع بابي، يقتحمني، يضعني في قلب الحدث، ثم يرميني بسهامه، وأنا لا أستطيع ردها.

وبينما أنا غارق في هذه الأفكار أسمع قرعاً واضحاً على الباب المحطم! أخيراً أحد ما في هذا العالم المضطرب معي، حتى ولو كان غريباً جداً عني، فالمهم أن لا أبقى وحيداً في جنون العواصف حولي، فأصبح مجنوناً مثلها. أذهب إلى الباب، ألمح ظلاً يبتعد وأسمع صوت قفزات سريعة على الدرج بعد أن تأكد أنني أتيت، أرى مغلفاً كبيراً مرمياً على الأرض، ألتقطه وأقرأ عليه "سري جداً"، أجد فيه عدة أوراق، معنونة "ملحق فصل الرواية ـ الروائي نبيل".

أخيراً سأجد تفسيراً لما يحدث حولي، ويقول لي إذا ما تجاوز أحدٌ ما الخطوط الحمر. بالتأكيد تجاوزها وحطمها أيضاً، وإلا فما معنى هذا التجمع المكون من متطرفين، مثل مجموعة أبو عمار، ومتملقين انتهازيين للفرص، مثل مجموعة المدير بهلول، وصامتين يخفون ما بداخلهم منتظرين الفرصة للتكشير عن أنيابهم، مثل المنشقين عن جمعيات الإرشاد الديني.

ملحق فصل الرواية التي بلغت فيها الأحداث الذروة

"والتمت عصبة الرفاق الضيقة في اجتماع استثنائي، وتداولت مجمل الأوضاع التي حدثت منذ انفجار العاصفة الغبارية:

" ماذا حدث يا رفاق، كيف يفلت زمام الأمور من بين أيدينا، ولا نستطيع التحكم بالأحداث حولنا؟".

" هذا سوء تخطيط منا وعدم إدراك لتوازن القوى الفعلية على الساحة".

" لا هذا ليس سوء تخطيط، كان من المفروض أن تسير الأمور بشكل جيد، ولكن يبدو أن هناك رائحة خيانة بيننا".

" لا أيها الرفاق، لم تصل الأمور إلى حد الخيانة، لا ينبغي إلقاء التهم دون سند، فإذا كانت هناك خلافات بيننا، فهي ناتجة من تضارب مصالح اقتصادية لا أكثر".

" كنتم تسخرون مني عندما أقول إن اجتماعنا هو اجتماع مصالح، وأن لا ثقة بيننا، وها نحن نتقلب في مواقفنا حسب مصالحنا، إلى حد وصول بعضنا إلى الانقلاب على المجموعة كلها".

" لا أفهم كيف يحدث هذا، المفترض أننا مجموعة ترتبط برؤى علمانية تتأطر بها كل مواقفنا ومواقعنا، سواء في السلطة أو خارجها، وإذ بنا نصل إلى حد السماح لمجموعات دينية التحكم بقراراتنا، لا بل إن البعض منا فتح خطوطاً مع متطرفين منهم".

" هل تصدق أننا علمانيون؟! اِنْسَ حكايات الاجتماعات الحزبية الرسمية، نحن مثل الجميع في هذا المجتمع، لازالت القبيلة والطائفة والعائلة تختبئ تحت جلودنا، نحن كنا علمانيين حسب الموضة والظروف الدولية التي سادت مع اكتساح الثورات الشعبية اليسارية العالم كله، انتهت الآن هذه الموضة، وبرزت بدلاً منها ظاهرة التفتت المتعصب تحت غطاء التعددية الديمقراطية، وكل منا يعود إلى قوقعته الدافئة في البنى ما قبل الثورية، نذهب إلى حيث نجد الدفء والحماية، وسننقلب ذات يوم على بعضنا نحن الثوريين باسم القبيلة والطائفة والعائلة".

" لا يا رفيق لا تتحدث هكذا، لازالت الثقة موجودة بيننا، نحن فوق هذه البنى القديمة، بل نحن فوق الهويات الوطنية والقومية والدينية، نحن عابرون للحدود، أصبحنا معولمين دون حدود، المصالح تجمعنا، ولدى بعضنا ارتباطات اقتصادية قوية مع الخارج".

" إذاً نحن لسنا رفاق، بل لسنا حتى أصدقاء أو زملاء، نحن أصحاب مصالح تتجاوز القيود والتحديدات وعلى هذا نلتقي، وعند اختلاف المصالح نمارس الكذب والدجل على بعضنا. يحدث هذا منذ زمن طويل، فمعظمنا لم يكن مقتنعاً بما يدعى بالتحولات الثورية التي تحدث باسمنا، نحن مع التيار الرسمي المُسيطر، لكن في داخلنا هناك من هو رجعي، وقَبَلي، وطائفي، متعصب لبنيته القديمة في السر، وهو غير ما يظهره في العلن، متلون حسب الظروف".

" هذا ليس صحيحاً".

" بلى صحيح، وإلا فما معنى التحولات والميول الصحراوية الغبارية التي وصلت إلى حد إقامة علاقات شخصية حميمية مع رجعيي الأمس، هذا ليس تبدل في المصالح، هذا خوف على المصالح وعلى الوجود شخصياً، وهذا يعني خيانة مبادئ جماعتنا والانتقال إلى الطرف الآخر المعادي لنا تماماً".

" لن تصل الأمور إلى هذا الحد يا صديقي، فمازلنا نعمل معاً".

" بلى وصلت، هناك مجموعة بيننا تعمل في الخفاء، دفعت بعض رموز الصفوف الخلفية إلى الواجهة لاختبار الأوضاع، ومن ثم وضعت خططها الشخصية بناءً على النتائج، قولوا لي من كان وراء اختيار وصعود البهاليل؟".

" كلنا، كان هذا قرار جماعي، اتخذناه وفق متطلبات مصلحتنا".

" لا، أنا لم أوافق على اختيار كل البهاليل".

" ونحن أبدينا أيضاً اعتراضاتنا".

" بدأ الجميع يتهرب الآن من المسؤولية!".

" لا، ليس تهرباً من المسؤولية، ولكن تحديداً للمسؤولية، الذي تحرك من وراءنا وتصرف باسمنا عن طريق بهلول هو الذي سبب الوضع الحرج الذي نحن فيه الآن، وهو يتحمل المسؤولية".

" هذا اتهام بالخيانة!".

" نعم هذا اتهام بالخيانة، هناك جهة ما بيننا جرتنا دون موافقتنا الجماعية إلى مواقف متعارضة مع من في الأعلى، دون فهم ميزان القوى السياسية والفاعلة، بحيث أصبحنا نتلمس رؤوسنا، بل بلغ بها الوهم بالتفكير أن تكون هي فوق".

" ولماذا لا، هذا ليس بوهم، نستطيع والشارع كله معنا".

" كشفت أوراقك وقصر نظرك، أنت إذاً من دفع الأمور بهذا

الاتجاه، وجعلتنا نتورط معك، ثم عن أي شارع تتحدث، الشارع الرسمي الذي لا يعرف سوى التصفيق والهتاف، ونحن نعرفه جيداً لأننا صنعناه بيدنا، وهو رسمي مع كل من يستلم الدفة، أما الشارع الشعبي فهو غرائزي، ترضيه بوعود وهمية وتسكته بالمخدرات الاجتماعية، مثل الذهاب إلى المجمعات التجارية أو المسجد أو الجلوس أمام التلفزيون. الناس أغنام تشبعت بالخوف واعتادت الانصياع، والجميع يرغب بالخلاص الفردي من أي جهة أتى، شعروا بالملل من الشعارات الثورية، ويركضون الآن وراء الشعارات الشعبوية الإسلاموية..... فعلى من تعتمد إذاً؟".

" هذا صحيح، لقد ورطتنا، وأنت لا تعرف من يمتلك القوة الحقيقية على الأرض، لا ينبغي أن يظن أحدٌ ما منا أنه سيصبح قوياً بالعمالة مع الخارج، بحيث يصبح أعداء الأمس أصدقاء اليوم، وربما ينضم إلى أعداءنا التاريخيين الذين لا مهادنة معهم أبداً".

" أنت تقف بوجه التغيير والتطور والانفتاح على الجميع في العالم، ستبقون متقوقعين وراء عقلياتكم الثورية المتخلفة التي انتهت أيامها مع سقوط الأسوار".

" وأنت تقف مع التغيير الرجعي وامتداد الأمركة باسم العولمة، سيأتي يوم ونجعلك تقتل نفسك قبل أن تفكر بهذا التغيير والامتداد، أو ستهرب وترتمي عند أقدام الصحراويين والغباريين، تتمسح بها مستنجداً".

" هذا إذا نجونا من ورطة الحوادث التي وقعنا فيها الآن، فلقد فقدنا السيطرة على الأمور على ما يبدو، ولا ندري كيف ستنتهي المواجهة".

يدخل المعلم الكبير في المجموعة، لازال لدخوله وقع الاحترام الممزوج بالخوف والوجل، فهو حتى الآن من يتخذ القرارات النهائية بحسم شديد، وما يقوله يُنفذ فوراً، بل وأحياناً يتم تنفيذه قبل أن يقوله.

"لا، لم نفقد السيطرة على الأمور تماماً؟ "دوَّى صوت المعلم الكبير في المجموعة.

صمت مفاجئ يخيم على الاجتماع، وترقب متوفز يسود المجموعة، الجميع ينتظر المفتاح السحري، وإن لم يعد هناك مفتاح سحري مع تأزم الأوضاع في الشارع، ربما هناك مفتاح فقط.

يتجرأ أحدهم ويقول "بدأ تطور الأحداث من عندنا يا معلمنا، وأصبح بهلول في الواجهة، وبسوء تصرف مجموع البهاليل وتحالفاتهم الغبارية والصحراوية أصبح الصدام قائماً لا محالة مع القوى الفاعلة والممسكة بكل شيء، وخاصة مع تأكيد جديد للأرصاد الجوية الأمنية بالصدام، فالعاصفة الرعدية ستجتاح لا محالة العاصفة الغبارية ومن يتمسح بها، وستدمر كل من يقف بوجهها".

يتلفظ المعلم الكبير في المجموعة كلماته بهدوء وثقة "وما علاقتنا نحن بذلك، هذه مشكلة بهلول وعمالته، وفي أي مكان يوجد تطاول أو صدام فهذه مشكلة البهاليل".

" ولكن كل بهلول منا، ونحن اخترناه!".

يجيب المعلم الكبير في المجموعة، مسترسلاً على غير عادته "بهلول لم يكن منا أبداً، والظروف اختارته، تسلل من الفجوات التي أحدثتها هذه الظروف، وحاول التطاول والصعود بعمالته، ولا علاقة له بنا".

" ولكنه موجود يا معلمنا، ويعرف الكثير، وإذا تحدث يمكن أن يقلب الطاولة علينا".

" انتهى بهلول، هو غير موجود منذ هذه اللحظة، هناك من سيتكفل به، وبالأحرى هو من سيتكفل بنفسه..... انتهينا من عميل. هل من استفسارات أخرى؟".

" ومن سنجد مكانه بشكل سريع يا معلمنا، فتطور الأحداث لن يسمح بترك موقعه شاغراً في هذه الظروف الحرجة والدقيقة".

" اتركوا خريجي دورات الإعداد الوطني منذ الآن وصاعداً، فالظروف الدولية وحالة الشارع لم تعد تتقبلهما، واختاروا مثقفاً، أو بالأحرى شخصاً ممن يسمون بالتكنوقراط الجديد، شخصاً يحمل شهادات عليا ويتقن لغات أجنبية، ولكن ليس له علاقة بالسياسة لا من قريب ولا من بعيد. اختاروه من بين الأشخاص الذين يحبون الظهور الاستعراضي، والتحدث بقضايا العولمة والمعلوماتية بلغة ركيكة، نصف كلماتها بالعربية والنصف الآخر بالإنكليزية، دون أن يفهم عن ماذا يتحدث. فكل هذا سيكون تأكيداً لصفة الغباء لديه، وتعبيراً عن ضعف بالشخصية، وهو ما يعني إمكانية توجيهه من وراء الستار حسب ما نرغب".

" وكيف سنجد يا معلمنا من بين المجموعة الجديدة شخصاً مثل بهلول يوقع أوراقاً بيضاء، ويتحمل تجاوزات الماضي؟".

" لسنا بحاجة إلى ذلك، لن تكون هناك أوراق بيضاء هذه المرة، وإنما وثائق جاهزة وموقعة سلفاً بخط يده قبل أن يستلم منصبه".

" وإذا رفض يا معلمنا؟".

" سيكون مجنوناً من يرفض عرضنا، وسنرمي به عندئذ في مستشفى الأمراض العقلية، أقصد سنجعل الأمر وكأنه هو ذهب إليها وحده، حيث سيتولى أمره كادرنا الطبي هناك، ولكن لا أحسب أحداً يرفض من هؤلاء أصحاب الشهادات العليا الجائعين، الذين يتراكضون وراء سيارات الأجرة طوال النهار، ويستدينون ثمن الخبز في منتصف الشهر، من سيرفض منصباً إدارياً عالياً مع فيلا، ومزرعة، وعدة سيارات، هذا كبداية، ولتشجيعه أضيفوا له يختاً في البحر مع تسجيل شركة عقارية باسمه..... ودعوا السكرتيرة هالة تتولى الموضوع وتتابعه".

وقبل أن يذهب المعلم الكبير يلتفت قائلاً بتهديد واضح والشرر يتطاير من عينيه "الذين تسببوا بتوريطنا سأتكفل بهم شخصياً إذا لم تنههم العاصفة الرعدية".

وبعد توقف صغير يكمل بلهجة آمرة حازمة "وعلى الباقين لملمة الصفوف، لأن المجموعات المنافسة التي عقدت صفقتها مع الشيطان قررت أن تشتري وتمتلك كل شيء، ولا تترك لنا أي شيء. فبعد شراء الأراضي وما فوقها من بيوت وشجر وأناس وحيوانات، انتقلوا الآن إلى شراء الهواء الذي سيتم بيعه للناس تحت اسم ضرائب تأمين على الحياة، وستضطر الغيوم التي تمر في السماء أن تنال حصتها أيضاً من دفع الضرائب، ولا أعرف ماذا يخططون بعد للبحار وما تحت الأرض".

يخرج المعلم الكبير في المجموعة بتمهل هذه المرة، وكأن شيئاً ما يضغط عل صدره، يريد البوح به ولا يريد".

أنتهي من قراءة ملحق الفصل الروائي.

أصبحت الآن أفهم الكثير مما يدور حولي، الروائي نبيل يتلقى معلومات مُسربة من السيد لؤي، والسيد لؤي يعمل بتوجيهات المعلم الوسيم والأنيق والذكي بكيفية التسريب، وهذا المعلم الذكي والمعلم الأذكى فوقه يتلقون معلومات دقيقة وتفصيلية عن كل ما يحدث في البلد من شبكة رهيبة ومعقدة من المصابيح المزروعة في الأسقف، التي تبدو لغير العين الخبيرة معطلة. وتنتشر شبكة المصابيح المعطلة ليس في منازل الأفراد فقط، بل وفي كل أماكن الاجتماعات السرية لعُصب تتحكم بمصائر الناس والأحداث.

إذاً صحيح ما سمعه صديقي من الروائي نبيل، أن من يتجاوز الخطوط الحمراء فهناك من له بالمرصاد، لكن لا أعرف كيف سيكون هذا الغامض له بالمرصاد! والذي لا أفهمه أيضاً لماذا يرسل لي الروائي نبيل فصول روايته بالتتالي، وقد قلت له مراراً أنني لا أهتم بكل ما يحدث حولي، فيما هو يصر أنني في قلب الحدث، بل كيف سأشرح له أسباب عودتي إلى البلد من أجل العيون العسلية، وأنني لا أهتم كثيراً ببقية القضايا والأحداث حولي! فهذه أمور شخصية ترتبط

بعوالمي الداخلية، ولم أُسر بها لأحد، حتى لصديقي، وإن كان حدسه بدأ يستشعر شيئاً ما في هذا الاتجاه.

ومع ذلك أفهم من ملحق الفصل الروائي أن العصبة التي اختارت بهلول، ومن ثم تخلصت منه، تبحث عن غبي بمواصفات معينة، مع إغراءات مميزة لا يمكن الفكاك منها للوقوع في الفخ. وحسب توقعاتي وتعاملي في المركز مع المثقفين والتكنوقراط الجدد، فإنه يوجد مئات بهذه المواصفات المطلوبة، والذين يقبلون بمثل هذه المناصب حتى دون أية إغراءات.

ينتشلني من الأفكار التي ذهبت بي بعيداً طرقٌ ناعم خفيف على الباب، أستغرب، من هذا الزائر المهذب في هذه العاصفة الغبارية؟! هل هو أحد الجيران الوحيدين مثلي قد قرر الاستنجاد بأحد ما في هذا الجنون العاصف. وعلى كل الأحوال الباب مخلوع، ومن يريد الدخول يستطيع دفعه بسهولة. يتكرر القرع المهذب على الباب، أنهض..... من جديد الوجوه الحجرية الخمسة! ماذا يريدون أيضاً؟ ولماذا يقرعون الباب بتهذيب هذه المرة؟ عادة يدخلون وينفذون ما يريدونه، ثم يقرعون الباب وهم خارجون مستأذنين بالدخول.

مقابل الدهشة التي تعلو وجهي تحاول الوجوه الخمسة، التي كادت أن تدهسني بالسيارة، أن ترسم ابتسامات على شفاهها الحجرية. أفكر بسرعة، كيف للحجر أن يبتسم! ينبغي أن نرسم على أحد وجوهه خطاً منحنياً من الطرفين نحو الأعلى، للإيحاء أنه يبتسم، ولكن رغم ذلك يبقى الحجر عابساً! وفي محاولة لجعله يبتسم نضربه بمطرقة قاسية قوية حتى ينفرج الخط عن ابتسامة ما، عن طيف لها على الأقل، يتلوى الخط ويتقطع إلى كسرات متشظية، شبه متناثرة على امتداده. لا يبقى الحجر عابساً عندئذٍ، وإنما يصبح غاضباً، مرعباً، مكشراً عن أسنان حجرية حادة. على هذه الطريقة كانت الوجوه الحجرية تبتسم لي، أو ربما خُيل أنها تبتسم لي هكذا،

وما جعلني أظن أنها تبتسم هي طرقها المهذب على الباب، واستئذان من يبدو رئيسهم بالدخول إلى المنزل.

تدخل الوجوه الحجرية الخمسة بابتساماتها المتكسرة، وأيدي اثنان منها محملة بأكياس ورقية ملفوفة، تتصاعد منها رائحة طعام ساخن. يسارع أحدهم إلى تنظيف الطاولة بكم قميصه، فيدفع بضربة واحدة على الأرض المصباح الكهربائي، وبقايا الشمعتين، وأوراق الروائي نبيل، ومنشورات الملتحين، وقطع الزجاج، ثم ينفخ نفخة قوية كي يتطاير الغبار عنها، فتمتلئ بدلاً من ذلك برذاذ بصاقه. تصطف على الطاولة صحون كرتونية، فيها ثلاثة فراريج مشوية ساخنة ملفوفة بخبز فاخر رقيق، ومقبلات متنوعة، مع زجاجات كوكاكولا ومياه معدنية، وإلى جانبها كؤوس بلاستيكية وعلبة محارم ورقية. ثم أحاط الخمسة بالطاولة لحماية الطعام من أي هجوم مسلح لاختطافه، فقد يقتحم أحد ما الغرفة أو يتسلق الجدار ويقفز من النافذة بمجرد أن يشم رائحته، هكذا شعرت، إذ يبدو من تصرفاتهم أن مسألة الحصول على الطعام في الخارج قد ساءت بسبب العاصفة الغبارية.

سرعان ما تساءلت عن المكان الذي حصلوا منه على هذه المأكولات الساخنة الشهية في قلب العاصفة الغبارية، وهل هم جائعون إلى هذه الدرجة بحيث لم يجدوا مكاناً يتناولون فيه وجبتهم إلا في بيتي. ولكن المفاجآت الصغيرة تتالى، فمن يبدو رئيسهم يطلب مني بكل احترام الجلوس وتناول الطعام الساخن وحدي، فهو يعرف صعوبة تأمين الحاجيات الأساسية للحياة في هذه الأجواء العاصفة، كما قال لي.

لا أستطيع التفكير بالطعام، فالاضطراب يجتاحني، والقلق يتنامى في داخلي، مع كل تصرف غير مألوف يقوم به الرجال الخمسة، وخاصة هذه التحولات الجذرية الوطنية المهذبة في التعامل معي، وما قد تخبئ وراءها. كما أن معدتي مازالت ممتلئة بالخليط

المسحوق الذي تناولته البارحة، فلم يكن لديَّ رغبة بالطعام، والأهم من هذا كله أنني لازلت ممتعضاً بشدة من ذكريات فروج الحفلة الموسيقية، الذي شكل معياراً وطنياً لتحديد مدى التزامي بقضايا البلد. ولكن ما إن لفظت "لست جائعاً "حتى انقض الجميع على الطعام، وكأنهم ينتظرون هذه العبارة بفارغ الصبر، وبلمحة بصر اختفى كل شيء من على الطاولة، الطعام وصحونه الكرتونية وزجاجاته وكؤوسه البلاستيكية، تم ابتلاع كل شيء.

بعد الانتهاء من الطعام قام الشخص الذي مسح الطاولة بإعادة المصباح الكهربائي الذي تحطم في أثناء سقوطه، وبقايا الشمعتين، ولملم الأوراق المبعثرة على الأرض، وأعاد ترتيبها بشكل عشوائي، فتداخلت صفحات الرواية مع منشورات المُلتحين المُلثمين، صفحة من هذا وصفحة من ذاك، هكذا تراءى لي، ثم أعاد قطع الزجاج وبعثرها على الطاولة بحذر حتى لا تُجرح يده.

عندما شعر الرجال الخمسة أنهم أدوا الأوامر الصادرة إليهم بشأني، أخبرني من يبدو رئيسهم أننا سنذهب لمقابلة شخصية كبيرة جداً ذات مستوى رفيع. وبسبب الاحترام والاهتمام الزائد الذي أبدوه نحوي توقعت أن هذه الشخصية أكبر من "أبو رعد "ومدير المركز، وبالنظر إلى عدد الفراريج فسوف تكون بالتأكيد أكبر من "أبو أحمد "العملاق بثلاثة أضعاف، وربما أكثر.

ركبنا السيارة، صعدت هذه المرة مُكرماً إلى جانب السائق وتوزع الباقي في المقاعد الخلفية. يقود السائق هذه المرة بعصبية واضحة، لا يستطيع تمييز الشوارع بسهولة، بتفرعاتها ومنعطفاتها والمطبات التي تتوزع فيها، بعكس المرات السابقة عندما كان يجتازها مغمض العينين. ومع أنه كان يسير متمهلاً إلا أنه كان يصطدم بالركام هنا وهناك، فيعاود السير بعد مناورة غبية.

لاحظت أن عتمة الغيوم السوداء ترخي ظلالاً قاسية على الجو

المغبر، فتمحي تخوم الأمكنة وملامح الأشياء في الشوارع، في حين كان الرجال الخمسة ينظرون إلى هذه الغيوم المهددة بترقب وحذر شديد، وكأنها ستنقض عليهم في أية لحظة. ومع أن الوجوه الحجرية لا تنبئ عادة بأية مشاعر أو انفعالات، إلا أنني لاحظت التوتر والقلق على الخطوط الحادة لملامحها، التي كانت تتكسر شظايا كلما نظروا إلى الغيوم. ولاحظت أيضاً اختفاء كل ما كان يتحرك في الشوارع من سيارات نادرة أو عابرين مسرعين، وخاصة اختفاء أولئك الملتحين الملثمين، وكأن هناك منع تجول غباري ومطري معاً. وفجأة هاجم السيارة قصف شديد من حبات بَرَد كبيرة، حبات وكأنها ترغب بثقب سطح السيارة وزجاجها، مما جعل السائق يُزيد سرعته بتوتر زائد واضح، مع زيادة مناوراته هرباً من هجوم جديد.

وصلنا إلى بناء ضخم جداً، أعلى من كل المجمعات التجارية وأوسع, وهي التي أخذت تنتشر حالياً في كل مكان من البلد. بناء معتم، شاحب، عابس، غاضب، دون نوافذ أو أية إضاءة حوله أو على جدرانه، بناء لا شيء يوحي فيه بالحياة من الخارج. وبالرغم من العتمة الغبارية والمطرية المسيطرة على الأجواء، فقد تعرفت على البناء، فهذا الإستاد الدولي الذي تقام فيه عادة مباريات كرة القدم والمهرجانات الرياضية، لكن جدرانه أصبحت عالية جداً تسد الأفق والسماء كلها، واختفت من حوله الأعلام ومظاهر البهجة التي ترافق المناسبات الرياضية والوطنية. تركني من يبدو رئيسهم أمام البوابة بعد أن أمرني بالدخول لمقابلة الشخصية الكبيرة.

أقتربُ بوجل وحذر من البوابة السوداء المعتمة المغلقة، المتشابكة مع عبوس الجدار، سد حجري صلب في قلبه، وكأنه لا منفذ فيه. ومع اقترابي منها ينفتح باب صغير، تنبعث منه إضاءة قوية، يُشيعني من يبدو رئيسهم مشجعاً على الدخول، ولا تغادرني نظراته إلا بعد أن يطمئن إلى دخولي. وما أن أضع قدمي داخل البوابة حتى

تهاجمني إضاءة شديدة، تنير المكان كله بكثافة كونية غريبة، ذكـرتني بما كنت أقرأه عن الثواني الأولى للانفجار الأعظمي الذي تـشكل منـه الكون. أعمى الانتقال من العتمة الشاحبة إلى الإضاءة الـشديدة البـصر والبصيرة لديَّ، وفقدت إحساسي بالزمان والمكان، فلـم أعـد أعـرف أين أنا، لا أشاهد أحداً حولي، ولا أميز ملامح الأشياء.

احتجت لدقائق طويلة كي أسـتعيد بعـضاً مـن تـوازني الجـسدي والنفسي وأنا أدخل هذا العالم الجديد، لأتذكر أنـني أصـبحت داخـل ما كـان إسـتاداً رياضـياً. أسـير في الإضـاءة الـشديدة، وأتـساءل أيـن المسؤول الكبير الذي أحضروني لمقابلته. أسير، أصل إلى مـا يقـارب منتصف ما أعتقده ملعباً، فيبرز فجأة شيء أسود ضخم أمـامي، يلمـع بأناقة، شيء على شكل حذاء على الأغلـب، بـل هـو حقيقـة حـذاء، ولكنه بحجـم حافلـة كـبيرة، ورباطاتـه هـي حبـال سـوداء ضـخمة، مجدولة بشكل جميل. أدور حول الحذاء الأسود متأملاً بهـاءه في هـذا الضياء المنير، أتـساءل منـذ مـتى أخـذوا يـصنعون مُجـسمات نحتيـة للأحذية، هل هو زحف الثقافـة الاسـتهلاكية المؤمركـة الـتي جعلتنـا نعبد كل ما نشتريه؟

أبتـسم لفكـرة تـزيين الـساحات العامـة بمُجـسمات المـشتريات المعبـودة، بـدلاً مـن مـشاهدتها بلقطـات سـريعة في التلفزيـون. المُجسمات تـشجعنا أكثـر علـى الـذهاب إلى المجمعـات التجاريـة، لتأمل قداسة البضائع وشراء نسخ منها، بعضها للاستهلاك، والـبعض الآخـر لننـصبه أيقونـات في المنـازل ونـصلي لهـا، أطعمـة معلبـة، مـشروبات غازيـة، علـب شـوكولا وعلكـة، مستحـضرات تجميـل وعطورات، أواني مطبخ، ملابس داخلية، مصابيح طـاولات ملونـة، مرايا، أمشاط وفراشي، لوحـات جداريـة تزينيـة، عـصارات فواكـه، محمصة خبز، نظـارات شمـسية، أغطيـة للجـسد والـرأس والوجـه، عدادات للتعاويذ واللطيفيات..... مُجسمات بألوان قوس قزح، جذابة

ومتألقة، ليست شبيهة بالتماثيل الحجرية لرجال باهتين عابسين، يحرسون الساحات ومفارق الطرق ومداخل المؤسسات الرسمية، ويتم نسيان تنظيفها أو ترميمها منذ مئات السنين، بعد أن تصبح نقاط مراقبة دائمة للعصافير والحمام وهي تنظم حركة السير. وبعكس التماثيل الباهتة فإن مجسمات البضائع تجعل الجميع يقع تحت سحرها، فيصبح عندئذٍ لطقوس عبادتها معنى إيمانياً وجمالياً في الوقت نفسه.

أنظر من جديد إلى أناقة مجسم الحذاء وبهائه وعظمته وقداسته، أتلمسه فإذا هو ليس بحجر، وإنما جلد حقيقي، وإن كان قاسياً بالنسبة لملمس يدي، بالتأكيد يحمل ماركة عالمية، على الأغلب إيطالية، فهي الأشهر. أرفع بصري إلى الأعلى قليلاً، وكأنني ألمح ساقاً ضخمة مغطاة بما يشبه جرابات تصعد منه. أدقق النظر بالساق، فينتابني شعور مخيف أن عروقها تنبض بالحياة، أتساءل، هل وصلت الأمور إلى إعطاء المجسمات إيحاءات الحياة، حتى تمتلك جاذبية أكبر في عبادتها؟

أذهب ببصري عالياً، فإذا بالساق تدخل في ما يشبه فتحة بنطال، أتسلقها ببصري، فينفتح المشهد أمامي واسعاً عن تمثال عملاق، يجلس على عرش، ورأسه يصل إلى..... لا توجد سماء، وإنما ما يشبه سقف من الضياء دون نهاية ودون حواف.

لا أعرف كيف تتوزع التماثيل المعبودة على عروشها في السماوات الأسطورية، فأنا لم أشاهد، أو أسمع، أو أقرأ، عن تمثال شبيه لدى مريدي الديانات، أما هنا ففي الأعالي رأس ضخمة بعينين جاحظتين تحملقان بي، وكأنها تطلب مني السجود! يسعل الرأس، فتهتز الأرض وترتجُّ حولي، وكأن هزة أرضية حدثت، فأصاب برعب شديد، هذا ليس بتمثال، وإنما رجل حي!

أفهم الآن قول من يبدو رئيس مجموعة الوجوه الحجرية أنني

سأقابل مسؤولاً كبيراً، كبيراً بالحجم مما لم يخطر في ذهني وقتها، يبدو أن هذا مسؤول كبير جداً بالمقارنة مع حجم جسده، بل وعملاق، وبالتالي فإن سلطاته أكثر من كبيرة، عملاقة. مسؤول عملاق بحيث بدوت أنا بجسدي وسلطاتي في عملي بالمركز ضئيلاً جداً أمامه، شبيهاً بصرصار صغير. ماذا لو أخطأت بكلمة غير مقصودة نحوه وأثرت غضبه، فسيسحقني بهذا الحذاء الأنيق دون أن يحاسبه أحدٌ ما، وستكون نتيجة التحقيق "مسؤول كبير يشرب كأس ويسكي، أزعجه صرصار بمنظره وتحركه اللجوج المستمر، مهدداً الاستقرار الوطني بين القدمين، فسحقه".

" أنا المعلم "أبو حسان "" يهدر الصوت قاصفاً مثل الرعد في أرجاء المكان، أليس هو مسؤولاً!

تقرقع أوراق ضخمة بين يديه، أظن أنه يقلبها ويقرأ فيها شيئاً ما، ثم يخاطبني بصوته الجهوري "سيرة حياتك الوطنية غريبة، ففي فترة شبابك كانت بلدتك تعيش صراعات عقائدية وحزبية بين عدة أطراف متناحرة، وقرأت أنت منشورات التنظيمات جميعها، وتعرفت على عقائدها ومبادئها جميعاً، وبرغم ذلك بقيت على الهامش، منعزلاً وحيداً، وكأنك أرستقراطي الفكر لا تريد أن تغرق في ابتذالات الصراعات اليومية الحاقدة بينهم. ومع أن هذا غريب فمن الجيد أنك نأيت بنفسك عن هذه الممارسات الطفولية في حياة الأحزاب".

يتوقف قليلاً، يقرأ وكأنه يستغرب ما يوجد في التقارير "ثم سافرت إلى سلومانيا، أحد بلاد الثلوج، بالخطأ دون أن تكون من خريجي دورات الإعداد الوطني!".

يعلق على ذلك "وعلى كل الأحوال من الجيد أنك ذهبت أنت، فأولئك لم يرجعوا وتخلوا عن وطنهم برغم الجهود التي بذلناها معهم في الدورات، بينما أنت على عكسهم كان لديك شعور وطني متميز،

نابع من ذاتك، رجعت بإرادتك محتقراً إغراءات الغرب لاستنزاف العقول الوطنية، ولذلك فإن سجلك الوطني نظيف لدينا".

ويتابع الآن متحدثاً "ولازلت حتى الآن لا تتدخل في السياسة وألاعيبها، تمثل رجل التكنوقراط الجديد الذي يريد لمجتمعه التقدم والازدهار، ونحن نعرف شعورك الداخلي ورغبتك العميقة لاستلام منصب هام، تُظهر فيه ثقافتك وقدراتك على النقاش وهزيمة الآخرين من خلال المعرفة التي تمتلكها، مع أن الفرصة تأخرت قليلاً. ونعرف أنك تركض طوال النهار وراء سيارات الأجرة، وتستدين ثمن الخبز في منتصف الشهر..... ونحن تقديراً لشهادتك وخبراتك وسعة أفقك المعرفية سنقدم لك منصباً وطنياً لإدارة إحدى أهم مؤسساتنا الثقافية الإستراتيجية، وستستفيد من كل الميزات التشريفية الخاصة به. فعدا الفيلا، والمزرعة، والسيارات، كامتيازات اعتيادية، فستُمنح يختاً في البحر، وستُسجل باسمك شركة عقارية وأخرى للتصدير والاستيراد، لهما أسهم رابحة في البورصة..... انتهت المقابلة. وكأن لديك شيئاً ترغب أن تقوله لي! أعرف أنك تريد أن تشكرني، لا أريد الشكر، هنا لا مجال للعواطف والانفعالات، أنت أصبحت معنا، وخاصة مع الوثائق التي وقعتها لنا، ستكون بالتأكيد واحداً منا إذا لم تتجاوز الخطوط الحمر".

أصرخ عالياً ومقاطعاً باحتجاج قوي حتى يسمعني من هو فوق "هيه، هناك خطأ في تقاريرك، لست أنا الشخص الذي تتحدث عنه، ولا علاقة لي بها كلها، ولم أوقع أية وثائق، أنا لست مع أحد".

يطأطئ رأس المعلم "أبو حسان "فوق نحو الأسفل، بحيث شاهدت ملامحه العملاقة جداً وهي تعبر عن الدهشة الشديدة، مستغرباً على ما يبدو من جرأة الحديث الصادر من رجل صغير جداً، أصغر من حذائه بكثير ويقف عنده تماماً، حديث يشكك بأوراقه وقراراته وعملقته.

وقبل أن يبدر قول راعد منه يطيح بي بعيداً، أو حركة عنيفة كأن يسحقني بحذائه مثلاً، أستمرُ بالحديث بقوة مدفوعاً بالقهر الشديد الذي عشته هنا، وخاصة في الأيام القليلة الماضية، وقد قررت التحول إلى المواجهة أخيراً وعدم الصمت "تقاريرك هذه ليست عني، فأنا كنت أعيش الصراعات العقائدية في البلدة، وأعرف عنها كل شيء. كنت أشعر بالشفقة على المناضلين الشباب المدفوعين للصدام، والذين نالهم منها السجن أو التشريد أو إيذاء الآخرين، فيما كانت القيادات تعيش في قصورها، وتنشئ مشاريعها الاقتصادية الخاصة بها، وتشتري المزارع والعقارات باسمهم. ولهذا كنت أقف مراقباً، متعاطفاً مع البسطاء وناقماً على الفاسدين. وفي سلومانيا شاهدتُ انهيار الأوهام التي كنتم تستندون إليها في التنظير والدعاية الإيديولوجية، في حين تبين أن فعلكم الحقيقي هو التأقلم مع متطلبات شاربي الفودكا، والاستفادة منهم لتقوية المواقع والنفوذ، وهؤلاء تخلوا عنكم واختفوا، وتركوكم لوحدكم تتحملون آثار الفودكا".

وفجأة شعرت أن المعلم "أبو حسان "قد تضاءل حجمه بعض الشيء، لا أدري كيف حدث ذلك، فقد أصبح حذاؤه بحجم سيارة صغيرة بدلاً من حافلة كبيرة، رفعت رأسي قليلاً إلى الأعلى فتبينت بوضوح أبعاد العرش الذي يجلس عليه، وبعضاً من تعابير وجهه الممتعضة. وبالرغم من ذلك بقيت مندفعاً بالهجوم "وهؤلاء المختارون من دورات الإعداد الوطني للدراسة في بلاد الثلوج لم يتركوا لنا شيئاً، أكلوا الأخضر واليابس، مستفيدين من الامتيازات الوطنية التي تنعموا بها حتى هناك، وإذا ما أتيت بحركة ما كانت عشرات التقارير تصلكم عن الخيانة للوطن. ثم من قال لك إنني رجعت لشعور وطني متميز، أنا رجعت لأسبابي الخاصة التي أعتقد أنها موجودة في هذا البلد، ولو وجدتها في مكان آخر لذهبت إليه دون تردد، وهذه أمور شخصية لا تستطيع تقاريركم سبرها".

أصبح الحذاء الآن بحجم دراجة، فظهرت شخصية المعلم "أبو حسان "واضحة، وبحجم أكبر مني بقليل، يجلس على كرسي كبير بدلاً من العرش السماوي، أُفَاجَأُ بالوجه، أعرفه، فأنا أشاهده دائماً على شاشة التلفزيون، متخصص بإلقاء الخطابات في المناسبات الوطنية، الرسمية وغير الرسمية، يتأتئ وهو يقرأ كلمات لا يفهم معناها من ورقة كتبت له على عجل، فينقذه الهتاف والتصفيق ومدائح الشعر من مآزق الورقة الرسمية، إذاً هذا هو المعلم "أبو حسان "!

وأتابع بعنف وغضب "ثم من قال لك إنني من التكنوقراط الجديد، أصلاً أنا لا علاقة لي بكل الثقافة والتقدم والازدهار الذي تتحدث عنه، أنام دائماً في المحاضرات والمناسبات الوطنية التي أكون مجبراً على حضورها بسبب طبيعة عملي، أنام من الضجر والملل، وأنا أسمع الكلمات العشر في اللغة، تصاغ منها آلاف الجمل غير المفيدة، أو المفيدة للتسبب بأزمة قلبية. تعلمت النوم وعيناي مفتوحتان، فيظن من يشاهدني أنني أتابع بجدية ما يحدث أمامي من ثرثرات وطنية. ولم يكتشف أحد نومي في هذه الوضعية إلا في إحدى المناسبات الوطنية المنقولة في بث مباشر على التلفزيون، حيث كان على الجميع التصفيق باستمرار عند ذكر عبارات وطنية، وكنت أنا لا أصفق، نائماً بعيون مفتوحة".

أصبح حذاء المعلم "أبو حسان "الآن بحجم حذائي، مع أنه بقي أكثر أناقة ولمعاناً، فحذائي قديم وشبه مهترئ، أنسى دائماً تلميعه. تعادلنا بالأحجام، لا بل شعرت أن حجمي أكبر منه، بالمقارنة مع وقوفي منتصباً فيما هو جالس وقد هدته المفاجأة، وبدليل الثقة التي تظهر على أسارير وجهي، والامتعاض على أسارير وجهه. ثم وبضربة حاسمة تابعت "لا أريد منصباً ولا امتيازاته، وأنا لا أعرف قيادة دراجة هوائية، فكيف بقيادة يخت بحجم مؤسسة ثقافية في بحر من الفساد".

تحول الحذاء عندئذٍ إلى صندل طفل صغير، ترتعش أوردة

الساق فيه بشكل واضح من التوتر والاضطراب، وما إن قلت بشكل حاسم ونهائي "أرفض كل ما تقوله وتعرضه عليَّ "حتى أخذ "أبو حسان "الذي لم يعد معلماً يتضاءل بسرعة، ليصل إلى حجم نملة، ما لبث أن ضاعت في الأرضية، فتراجعت بضع خطوات إلى الوراء حتى لا أدهسها بحذائي القديم. وفي أثناء ذلك أخذت الأنوار الكثيفة تخفت شيئاً فشيئاً، والجدران تتداعى إلى بعضها، مقتربة بحيث تحول الإستاد الرياضي إلى غرفة صغيرة معتمة.

استدرت وتوجهت إلى الباب الذي أصبح يبعد عني ثلاث خطوات فقط، فتحته، لا يوجد أحد في الخارج، حتى ولا الوجوه الحجرية الخمسة. خرجت وسرت قليلاً، وعندما ألتفت إلى الوراء، عرفت أن هذا ليس الإستاد الرياضي، وإنما بناء صغير عادي مثل كل الأبنية حوله، بل إن شكله يعطي انطباعاً أنه مهجور منذ زمن.

خرجت فلطمتني رياح شديدة باردة، تحمل معها مطراً غزيراً جعلني أغتسل بالكامل، فاستعدت بعضاً من وعيي بصدمتها، ولكن موجات المطر الغزير المتتالية، التي امتزجت بقذائف من البَرَد، جعلتني أركض كأرنب مذعور، باحثاً عن ملجأ تحت شرفة أحد المنازل. بدا أن العاصفة الشديدة ترسل موجاتها من المطر والبَرَد لتقصف كل تجمعات الغبار المبعثرة في الجو أو المتراكمة على الأرض، وقد ترافق ذلك مع رعد غاضب شديد، جعل الأرض وما عليها ترتج بقوة، وبرق يخطف الأبصار، تتقافز صواعقه المحرقة هنا وهناك، فتضيء الأمكنة بلمحات ضياء ناري مشتعل، وكأن غضباً حل على التجمعات الغبارية في المدينة، لا راد لعنفوانه وجبروته. واكتسحت السيول الغزيرة شوارع المدينة، فأخذت معها الأتربة والركام، والمنشورات المعلقة على الجدران، وكل الفوضى الغبارية التي ملأتها منذ عدة أيام، حملتها وذهبت بها بعيداً لتلقي بها في إحدى الحفر العملاقة، ولتسجنها هناك.

مر وقت طويل على الهجوم العاصف وأنا ملتجئ تحت الشرفة بانتظار انجلاء الوضع، ثم أصبح الجو صافياً دون عتمة غبارية، ولكن المطر العاصف كان لايزال يتساقط بشدة على المدينة، وكأنه يريد أن يمسح كل الأفكار الغبارية عن وجهها، يقرع الأبواب والنوافذ، يريد من خلالها أن يدخل إلى البيوت، ويمسح من الرؤوس الغبار التاريخي المعشش في الذاكرة وفي الحنين إلى الأمجاد القديمة، التي تحنطت في صفحات كتب مقدسة. ولكن القرع كان عنيفاً ومهدداً، يثير الخوف من مجهول قادم، وكأن البيوت تقول "أعطونا مجداً بديلاً، مجداً حقيقياً بدل أوهامنا التي نرتاح لها، أعطونا خبزاً، وحرية، وكرامة، وعندها فقط لن تهب أية عاصفة غبارية".

سارت السيارات على الطرقات، ومشى الناس على الأرصفة، وفتحت المحلات أبوابها، وأنارت المقاهي صالاتها، وكأنه لم تكن هناك عاصفة غبارية، الناس يشترون الحاجيات، يتنزهون، يتسكعون مثرثرين. أما أنا فقد كنت مبتلاً بالكامل، وبسبب ذلك ازداد شعوري بالبرد، قررت العودة بسيارة أجرة إلى البيت مادامت الحركة في المدينة قد عادت إلى طبيعتها، فربما تأتي ورد مع المطر، وتساعدني على إعادة ترتيب المنزل الذي ضربته الفوضى الغبارية.

تقف فجأة سيارة أمامي، سيارة سوداء أنيقة بنوافذ عاتمة، لا تسمح برؤية من بداخلها، ينفتح الباب الخلفي، يفاجئني بروز رأس أشقر أعرفه، السيد لؤي بابتسامته الماكرة، يقول "تحياتي وتحيات المعلم لك، تفضل اِرْكب معنا، المعلم ينتظرك، يدعوك إلى فنجان قهوة".

* * *

المعلم الذكي

منحتني المواجهة مع المعلم "أبو حسان "وما نتج عنها ثقة كبيرة بالنفس، فقد قررتُ وأنا خارج من المبنى الشاحب أن أتفرغ منذ الآن للبحث عن صاحبة الصوت الذي كان يناديني، وأهمل كل المشاغل حولي التي لا تعني لي شيئاً سوى التشويش على حلمي. فهذا الصوت هو من سينتشلني حتماً من الضياع، من كل الآلام والفوضى التي تضرب بي، هو صوت ذات العيون العسلية، وبالتأكيد صوت تالة!

كان الكتاب الجديد الذي بدأت العمل عليه عن العوالم الداخلية هو الخطوة الأولى للذهاب إلى ذات العيون العسلية، رحلة في مجاهل القلب ومسارب الذاكرة نحو المستقبل، رحلة تشكل بنتائجها بوصلة لاكتشاف معنى للحياة، بلقاء الحلم الذي انتظرته طويلاً، وكان عليَّ أن أجتاز الاختبار والمعاناة باستمرار، كي لا أسقط خلال بحثي في عوالم ماورائية تدمرني بأوهامها. ولذلك كان توجهي منشداً بقوة وباستمرار إلى الخارج، فهناك سأجد ذات العيون العسلية، في الواقع المُعاش، حقيقية، منتعشة، مليئة بالحياة، تعطي المعنى للمكان والزمان، وللأشياء والكلمات، وسأعيش معها هنا على الأرض، لا أن أعبدها مؤلهة في السماء..... أعرف أن الأوهام تختلط دائماً بالوقائع في رأسي، ولكن حدسي أنها قريبة جداً، وشعوري قوي أنها هي التي نادتني، وستعيد السكينة إلى القلب.

ما أن وطئت قدمي الشارع خارج المبنى الشاحب قررت التركيز فقط على رحلتي، وكان عليَّ أن أتخلى عن كل شيء من أجلها، ولم يبق أمامي إلا أن أنهي علاقتي مع السيد لؤي ومعلمه، وأتخلص من اختناقات حصارهما الناعم، أنهيها وبالتأكيد ليس بالمواجهة التي حدثت مع "أبو حسان"، وإنما بطريقة ودودة ولطيفة، فهما لم يتعاملا معي إلا بكل احترام.

هنـاك فـرق بالتأكيـد في المـشاعر تجـاه "أبـو رعـد "ذي الوجـه القاسي، والصوت الأجـش، والمعلومـات الفوضـوية العبثيـة، علـى نقيض الـسيد لـؤي ذي الوجـه النـاعم، وخـصلات الـشعر الـشقراء، والمعلومات الدقيقة الموجهة. فبالرغم من مشاعر البلبلة والاضـطراب والترقب التي تُرافق عادةً ظهور السيد لؤي فإنني لم أكن أنـزعج منـه، ربما لتهذيبه الحضاري، وربما لمعرفته الغريبة بخفايا الأمـور، وربمـا لوجود المعلم الذكي والوسيم وراءه، وعلـى الأغلـب لاجتمـاع هـذه الأسباب الثلاثة كلـها معـاً. علـى الأقـل هكـذا كـان شـعوري لحظـة مشاهدة رأس السيد لؤي يـبرز مـن الـسيارة! وبـالرغم مـن كـل هـذا فالطرق مختلفة، فللمعلم مسؤولياته وهمومه الوطنية الكبيرة، أمـا أنـا فدون مسؤوليات تذكر، وعلى جميـع الأصـعدة، وهمـومي شخـصية وفردية جداً، وبالتأكيـد فـإن كـل هـذا لا يتعـارض مـع أي خطـط أو أهداف وطنية، ولذلك كـان مـن الـصعب الالتقـاء معـه علـى طريـق واحد. ومع ذلك عندما تلقيت الدعوة من السيد لؤي قبلتـها مباشـرة، بالرغم من المجهول المختبـئ وراءهـا، وهكـذا قـررت الـذهاب إلى النهاية، حتى أعرف نهاية هذه اللعبة!

أركب في الجهة الخلفيـة إلى جانـب الـسيد لـؤي، تمـضي بنـا السيارة بهدوء، إلى أحياء تمطر فيها الـسماء دون أثـر لمـرور عاصـفة رعدية قوية. أرى وجه السائق في المرآة المتوضعة أمامـه وهـو يقـود، وجه ودود مبتسم، مـا إن التقـت نظـراتي بـه حـتى اتـسعت ابتـسامته الودودة، وحياني بإيماءة صغيرة من رأسه. أما السيد لؤي وبالرغم مـن كل تهذيبه فإن ابتسامته الماكرة التي تنفـذ إلى الأفكـار لم تفارقـه وهـو ينظر إليَّ باستمرار طوال الطريق، يقـرأ التـشويش والاضـطراب علـى وجهي بعد مرور هذه الأيام الغبارية الغريبة، ويقول "لا تقلق، انتـهت الأيام الغريبة الصعبة، وأنت مـدعوٌّ لزيـارة وديـة لعنـد المعلـم، فهـو يحترمك ويقدرك كثيراً، وربما يحتاجك لأمر هام".

لا شيء يضيفه، فاضطر إلى الصمت، لكن بوادر القلق والترقب تطفو على السطح من جديد، فما الذي يريده مني المعلم أيضاً، ولماذا يدعوني لعنده، وفي هذا الوقت بالذات بعد انتهاء العاصفة الغبارية؟

تقف السيارة، وأنزل أمام بناء تتوضع حوله حديقة خضراء مُرتبة، مُزنرٌ سورها بالياسمين المغتسل بماء المطر، وقد فاحت رائحة زهوره البيضاء المتفتحة وعبقت في كل الشارع، أنتعشُ بعبير الياسمين المتماوج مع رائحة رطوبة العشب بعد المطر. يقودني السيد لؤي باحترام إلى الداخل، ترافقني مشاعر ممتعة أثارها عبير الياسمين، وكأنها خدرت مشاعري بأحاسيس ناعمة جعلتني أرى كل ما حولي جميلاً. أطرد من رأسي فكرة وجود جهاز تقني في الحديقة، يحرض مشاعر متنوعة تحت عبير الزهور، مشاعر حسب الضيف الزائر وحسب ضرورة تهيئته لطلبات محددة! يحدث هذا فقط في أفلام الخيال العلمي، ولا علاقة لهذا بالعالم الواقعي، ومع ذلك تسيطر عليَّ مشاعر صافية غريبة، تجعلني أتقبل كل ما حولي!

نجتاز ممراً طويلاً، يحيني كل من أقابله، وبوجوه بشوشة، وكأن الجميع يعرفني، كيف؟ لا أدري!

يستقبلني المعلم بكل أناقته، ورشاقته، ووسامته، ولطفه، يصطحبني ممسكاً بيدي تعبيراً عن الود الذي يبديه نحوي، على الأقل هذا ما أشعر به! نسير ويتبعنا السيد لؤي، يقرأ المعلم التساؤلات التي ترتسم على وجهي، فيقول "لم تصدق أنني أحب الحدائق الجميلة وأعشق عطر الياسمين، لون الطبيعة الأخضر يمنح السكينة، فينتشلني من الضغوط اليومية، ورائحة الياسمين تثير لديَّ شخصياً الحنين إلى أيام الطفولة والشباب، حيث لم تكن هناك مسؤوليات وهموم وطنية كبيرة".

هل هناك تخاطر بالأفكار حتى إنه يستعمل كلماتي نفسها! على

كل الأحوال لم أعد أستغرب أي شيء يتحدث به أمامي، فقد تذكرت ما قاله سابقاً في مكتبي عن الحدائق والياسمين، وأصبحت أعرف طريقة تفكيره.

نمرُّ بقاعة كبيرة، يدهشني فيها منظر خمس صفوف طويلة من الشاشات الضخمة، متتالية فوق بعضها، تملأ بالكامل جداراً عالياً وواسعاً، شاشات تضج بالصور الملونة الواضحة، يتابعها شبان في مقتبل العمر، وسيمو المظهر وأنيقو اللباس، وهم يجلسون أمام طاولات مليئة بالمفاتيح والأزرار التي تتنقل بينها أيديهم برشاقة ومهارة. تتوضع تحت الشاشات أسماء الدول التي تتوزع كما يبدو حسب التحالفات الدولية، ألمح في طرف منها مجموعة دول الثلج، وتحت إحدى الشاشات كلمة "سلومانيا". لا أستغرب شيئاً من جديد، فكل شيئ أصبح ممكناً لدى هذا المعلم.

يقرأ المعلم التساؤلات على وجهي، فيشرح "لدينا قمر اصطناعي وطني للاتصالات الفضائية، ينقل لنا أخباراً ومعلوماتٍ من كل دول العالم، حيث توجد لنا سفارات وملحقون معلوماتيون. وهؤلاء الشباب الذين تراهم هنا يحملون كلهم شهادات عليا تخصصية في المعلوماتية والتحليل المعلوماتي، ويتقن كل منهم لغة أجنبية على الأقل، يجب أن نتأقلم مع التطورات المتسارعة في العالم".

يصمت قليلاً ويتأمل وجهي الذي يُعبر عن تساؤلات متتالية، فيتابع "أفهم بماذا تفكر، بشبكة المصابيح المعلوماتية، المصابيح التي تبدو معطلة في المنازل، فمن النادر أن يكتشفها أحد، ولكنك تعرفت عليها بقدراتك الحدسية على المراقبة ومعرفة الأشياء حولك، وهذا ما أكد دقة اختيارنا لك. وهذه ليست شبكة دولية، وإنما شبكة محلية صممها خبراؤنا الوطنيون، وأنت تتفهم أنها مخصصة لضرورات وطنية داخلية خاصة".

لا يعلق هنا أكثر، ولا يدعني أسأل أو أناقش، فمن الصعب شرح القلق الذي يثيره كل ما هو غريب حولي، وهو بالضبط ما جعلني أكتشف عيناً تراقب وراء كل مصباح معطل! ولكن المعلم يقرأ الأسئلة على وجهي، يلتقطها بقدرة غريبة، ولكنه لا يجيب إلا على ما يريد، وبقدر ما يريد، وكيف ما يريد.

يتابع "أنت تعرف الكثير من خلال ما سربناه إلى الروائي نبيل، الذي يقول لك إنك دائماً في قلب الحدث رغم هروبك منه، وهذا صحيح، ونحن نعرف كل ما كان يُحاك ضدك في دوائر العصبة، ولكننا تركناك لنعرف ردة فعلك، ونتأكد من تصرفاتك في الأوقات الحرجة..... وأنت لم تخيب توقعاتي التي بنيتها على معلومات دقيقة عن تصرفاتك وأفكارك، كنت أعرف أنك لن تنهار، وخاصة أمام إغراءات "أبو حسان"، صمدت ونجوت منهم، وأنت معنا الآن على الطريق الصحيح".

ترددت بالذهاب وراء فكرة أنني لا أحب أن أكون مع أحد، وأنني أفضل أن أكون وحدي من أجل الوصول إلى حلمي الشخصي، وأنه لا طريق صحيح بالنسبة لي إلا طريقي، ولا يزعجني أن يمضي كلٌ في طريقه، فما زال باكراً الإعلان عن ذلك. ولكن قبل أن يكتشف هذا الشعور على وجهي غيرت اتجاه تفكيري بسرعة قبل أن يقرأه، على الأقل حتى أعرف بالضبط ماذا يريد مني.

يستمر مجيباً على تساؤلاتي المرتسمة على وجهي "نعم سأسمح لك استثنائياً بمشاهدة شقتك من خلال الشاشات لدينا، بما أنك أصبحت معنا، أعرف أنه لديك رغبة كبيرة بمعرفة كيف تتم متابعة الأحداث حولك، ولكن يجب التأكد من أنه لا يتم استغلال أي شيء شخصي، بعكس ما يحدث في الغرب. فالناس هناك مراقبون بشكل مستمر، الكاميرات السرية التي تتابع حركة الناس مبثوثة في كل مكان، في الشوارع، وأماكن العمل في المؤسسات والشركات،

والجامعـــات، والمطـــارات، والمجمعـــات التجاريـــة، أصـــبحت الكاميرات موجودة داخل الأفراد أنفسهم حـسب نظريـات الفيلـسوف الفرنسي ميشيل فوكو، تجعلهم ينفذون الأعمال مع شعورهم بالمراقبة الخفية المستمرة. حتى لو توقفت المراقبة لسبب مـا بعـض الأوقـات، فإنهم ينفذون أعمالهم مع شعورهم بالمراقبة المستمرة. نحن بـالعكس خلقنا بدلاً من هذه الرقابة شيئاً اسمه الإحساس بالمـسؤولية الوطنيـة، زرعناه داخل كل مواطن، وهو ما يدفعه لتنفيذ أعماله لمصلحة الوطن دون مراقبـة، وحـده دون أي ضـغط أو إكـراه منـا. ولكنـك تـتفهم الظروف المحلية والدولية، فقد نحتاج أحياناً إلى المراقبـة المعلوماتيـة "المصابحية" لبعض الأشخاص ومن حين لآخر، أليس كذلك؟".

لا أتفهم كثيراً متطلباته الوطنية، ولكنني شخـصياً ناضـلت كـثيراً حتى تخلصت من "أبو أحمـد "ومـن الـشيخ عثمـان في داخلـي، ولا أعرف إذا كان يتفهم صراعي المستمر مـع المنقـذ الأمريكـي العـالمي الـذكي الـذي يحـاول التـسلل باسـتمرار إلى داخلـي! أطـرده ويعـود بأشكال جديدة. لكنني لا أفهم لماذا تم زرع مصباح مراقبة في شقتي، وخاصة أنني متفهم جداً للظروف المحلية والدولية، ولا أتـدخل فيهـا أبداً، ثم وكأنني سمعته يردد مرتين أنني أصبحت معهم! أنا جئـت إلى هنا لأنتهي من اللعبة، وليس من أجل أن تبدأ لعبة جديدة.

يتابع "نحن مثلاً لا يهمنا معرفة الكـثير عـن عـشيقتك ورد، هـل هي طالبة في الجامعة، أم موظفة في شركة؟ ولا معرفـة أيـن تـسكن، وأين تقضي وقتها في غيابك، وفيما إذا كان لها عـشاق آخـرون! كمـا لا يهمنا تفاصيل علاقتك بها، وهل قررت الزواج بهـا، أم إنـك تريـد أن تعيش معها حيـاة حـرة خـارج مؤسـسة الـزواج، كمـا عـشت مـع عشيقاتك في سلومانيا..... كل هذا لا يهمنا، ما يهمنا هـو شـيء آخـر ستعرفه في نهاية لقائنا الودي على فنجان القهوة".

يـسرني أن كـل أجهزتـه التقنيـة الحديثـة لم تـسبر حقيقـة ورد،

وطبيعة علاقتي مع ورد، ولكنني لا أجرؤ على الابتسام لئلا ينفضح حنيني.

يستمر "ولكن سأدعك الآن تشاهد شقتك، ستظهر كما هي في هذه اللحظة، مضاءة بحيث تظهر الصورة واضحة، فشبكتي الكهرباء والهاتف عادتا إلى العمل بشكل طبيعي بعد انتهاء العاصفة الغبارية، وإن لم يكن لها أي تأثير على شبكة المصابيح المعلوماتية".

ندخل إلى غرفة جانبية، يضغط على أزرار طاولة، فتنفتح شاشة متوضعة في جدار، تظهر شقتي من خلال المصباح المعطل في السقف، يدلني على مفتاح صغير أتحكم بواسطته بالحركة عن بعد، مع إمكانية التقريب لرؤية التفاصيل، ويتركني وحيداً بعضَ الوقت. تزعجني فكرة انكشاف حياتي الحميمية إلى هذا القرب، أفكر أنه في المرات القادمة سأمارس الجنس مع ورد على رأس شجرة عالية باسقة إلى السماء، أو في قن الحمام!

ومع تحريك المصباح أفاجَأُ برؤية غرفتي نظيفة ومرتبة، لا أثر للفوضى الغبارية فيها، زجاج النافذة غير محطم، ولا أثر لقطع الزجاج والأتربة على السرير، أو على أرضية الغرفة، الطاولة نظيفة ينتصب عليها مصباح كهربائي غير مكسور، جو الغرفة مضاء وصافٍ، لا أثر لذرات الغبار أو الزجاج فيه.

هل كان ما عشته في الأيام السابقة كابوساً أو سلسلة كوابيس؟! أكاد أعتقد ذلك لولا أنني ألمح فصل الروائي نبيل وملحقه على الطاولة، وإلى جانبه كدسة منشورات الرجال الملتحين، أوراقهما غير متداخلة الآن، كل منها مرتب في مجموعته. هل هي ورد قد جاءت في غيابي وتركت لمستها أخيراً؟! لا أظن، فورد لا تأتي إلا مع المطر وفقط في أثناء وجودي في البيت، ثم إنها لا تتقن أي عمل في المنزل، حتى إنني لا أتذكر أنها حضَّرت أي كأس شاي أو فنجان قهوة، ورد لا تفعل شيئاً سوى النوم معي في السرير، وهو الشيء الوحيد الذي تتقنه بكل الأنوثة والإغراء والمتعة.

أتابع تحريك المصباح نحو الجدار، تظهر الساعة الجدارية، لوحة شيماء، أتوقف عندها قليلاً، أُقرب الصورة قليلاً لرؤية التفاصيل، أربعة وجوه حزينة بعيون عسلية، وإلى جانبهما وجه خامس منفصل، مبتسم بعيون عسلية متألقة! تالة!

تقطع أفكاري دعوة المعلم لشرب فنجان قهوة في مكتبه، أدخل، كل شيء مرتب ومنظم في مكانه، وثائق عمل في ملفاتها على الطاولة الكبيرة، كتب متنوعة على رفوف جدارية، أتأملها فأجد بينها مراجع في التاريخ والسياسة والاقتصاد وعلم النفس، يفاجئني وجود كتب روايات وشعر حديث ـ وإن لم يكن هناك مجال لأعرف بوجود روايات لهنري ميللر بينها ـ، وفي جانب المكتب تلفزيون يلتقط إحدى المحطات الفضائية الإخبارية، وأمامه حاسوب يعمل..... لو كان لديَّ مثل هذا المكتب العملي المنظم، بأثاثه وتجهيزاته وكتبه!

أشاهد لوحة على الجدار، يلفت انتباهي أنها تنتمي إلى المدرسة السريالية في الفن، لفناننا المحلي المشهور، الذي لا يمكن فهم لوحاته بسهولة إلا لمتمكن من الفن وعالم الأحلام، وبسرعة يقرأ المعلم التساؤلات على وجهي فيجيبني "أعرف أنك تستغرب وجود لوحة بهذا التعقيد والغموض في مكتبي، بل وأدرك أنك تتساءل عن مدى فهمي لمضمونها. بالتأكيد تعرف أن السريالية واحدة من أهم المدارس الفنية في العالم، فهي أسلوب لرؤية الحياة فنياً، تعتمد في بناء تشكيلاتها على تصورات الخيال وسيطرة الأحلام بعيداً عن سلطة العقل والإدراك، وهو ما يمكن فهمه من خلال نظريات التحليل النفسي لفرويد. الجميع يتحدث عندنا عن فرويد كاسم فقط، دون معرفة تأثيره على مقاربة كثير من الظواهر في حياة الأفراد والمجتمعات، والتي يجد أصولها في الدافع الجنسي وسلطة الأحلام. وبالنسبة لي فالسريالية وبالرغم من تعبيراتها المعقدة هي واحدة من أشكال التمرد والاحتجاج على الحروب ونتائجها، وعلى رأسها

الحربين العالميتين بدمارهما الشامل. بعدها وقفت السريالية بوجه استبداد النظام الرأسمالي الذي يشوه حياة الأفراد والحضارات..... أحب في السريالية قدرتها على إطلاق الأفكار المكبوتة، وإن كانت تعبيراتها عندنا تنحو إلى الأحلام والهروب من مواجهة الواقع".

أستمع، وأصمت! أقصد يختفي التساؤل عن وجهي، فأنا بالأصل صامت طوال الوقت، لا مجال ولا إمكانية للكلام، فمعلوماتي تبدو متخلفة ومشوهة أمام ما أسمعه من دقة التحليلات، ثم إنني لا أرغب بالانفلات بكلمة ما لا أعرف ما تجر من عواقب، ولاسيما أن ما أقوله يمكن فهمه كهلوسة، هذا إذا ما تمت مقاربته بحسن نية. وأنا هنا أمام بنك معلومات موظفة بطريقة تحليلية ونقدية، وإن كنت لا أفهم حتى الآن ما علاقتي بالسريالية! في المرات السابقة كان الحديث عن الموسيقى الكلاسيكية، ثم عن الصوفية الإسلامية، والآن عن الفن، في أقصى أشكال تعقيداته التعبيرية، ولا أدري ما هي المفاجآت القادمة!

لم تتأخر المفاجأة الجديدة، ولكنها هذه المرة ستكون كالصدمة، ستنسجم مع الأحداث السابقة لكل ما حدث حولي، إذ يخاطبني المعلم من جديد "أعرف بما تفكر! أنت تنظر إلى الروايات في مكتبتي، وتتساءل فيما إذا كان بينها روايات أمريكية، وبالذات إباحية، وأفهم أين تذهب بخيالك حول مسألة رقابة الكتب. أنت تعرف الآن أن أشكال الرقابة التقليدية التي تتم ممارستها من أشكال السلطة القديمة لم تعد تنفع، وما يتم منعه محلياً من مجلات وكتب وأفلام سينمائية لم يعد شكلاً عملياً يُمكّننا من الحفاظ على أمن الوطن وأمان المواطن. هناك الآن مئات المحطات التلفزيونية الفضائية التي لا نستطيع السيطرة عليها في حدودنا الجغرافية ـ السياسية، محطات تبث أفلاماً إباحية على مدار الساعة، لا ينفع معها التشفير الإلكتروني، تجاوزت عرض الأفلام الإيروتيكية ووصلت إلى الأفلام البورنوغرافية، وإلى جانبها شركات هاتف تبيع التأوهات الجنسية بفواتير دولية مرتفعة

عن طريق هذه المحطات. وهناك أيضاً محطات معادية تشتم رموزنا وقيمنا الوطنية، لا تستثني شيئاً أو أحداً، تفتح أبوابها حتى للعملاء الهاربين إلى الخارج. وإضافة إلى ذلك توجد محطات لمجموعات دينية متطرفة، طوائف وفرق، صغيرة وكبيرة، تهين مقدسات الآخرين بكل بساطة، معلنة امتلاكها هي وحدها الحقيقة النهائية والمطلقة القادمة من السماء..... وأنا أعتقد أن الحل العملي لصيانة أمننا الوطني من الأفكار المخربة هو الثقة بالمواطن الواعي، الذي سيراقب وحده الأفكار الهدامة ويمنع نفسه من تقبلها، سواء القادمة من المحطات الفضائية المعادية أو الكتب التي لا تناسب مع أهدافنا الوطنية، ولكن هذا لا يتم إلا من خلال إشعار المواطن بحريته، وكرامته، وإنسانيته، وشعوره بضمان مستقبله".

تعود الآن من جديد المشاعر إلى وجهي، فيلاحظ المعلم علائم المفاجأة، والاندهاش، والاستغراب، والصدمة، والبلبلة، والاضطراب، والضياع، والشواش، والقلق، وفقدان القدرة على النطق الذي لا أستعمله، وأنا أسمع "الثقة بالمواطن..... من خلال إشعاره بحريته، وكرامته، وإنسانيته، وضمان مستقبله!"، فيردف مسرعاً "هذا ليس فقط رأياً شخصياً وإنما هي التوجيهات الفعلية من القيادة".

يُحضر السيد لؤي في هذه اللحظة ثلاثة فناجين من القهوة، يُقدم لي واحداً، وهو ينظر إليَّ..... حتى هنا يتابعني بنظرته الماكرة، كنت أظن انه سيتخلى عنها مادام المعلم قال إنني أصبحت منهم، أم إنه يعرف الحقيقة في داخلي بحدسه الغريب! أو ربما لا يوجد شيء في ابتسامته، فمن الممكن أنني أتخيل أنه يتابعني بهذه النظرة! ثم يقدم الفنجان الثاني للمعلم مع أقصى الانحناء والاحترام، ويأخذ الفنجان الثالث، ويجلس إلى جانبي.

يتابع المعلم وقد قرر كما يبدو الدخول أكثر في الموضوع الأساسي الذي طلبني من أجله "أنت تعرف أن تاريخنا مليء بالإباحية

والشذوذ الجنسي، وهو ما كان يحدث بشكل خاص في بلاط الخلفاء والأمراء والوزراء، ونصف حكايات التراث المطبوعة في الأسواق هي عن الجواري، والغلمان، وحفلات الخمر والمجون. ثم ظهرت التحريمات الجنسية الشديدة والعنيفة باسم الأخلاق والدين بشكل سادي متطرف، يعادل التطرف الإباحي التاريخي، شيوخ ملؤوا الدنيا بمئات فتاوى التحريمات الصحراوية. وقد أدى هذا إلى زيادة الكبت العاطفي والجنسي لدى أفراد المجتمع، مولداً ليهم أمراضاً عُصابية حسب نظريات فرويد، مما وجد انعكاسه في تصرفاتهم اليومية بطرق سلبية وعدائية تجاه الآخرين".

يتدخل هنا السيد لؤي "كل هذا صحيح يا معلمنا، وهذا الكبت المُدمِر يكثر في الأحياء المدينية المنغلقة المتعصبة، بعكس الانفتاح الطبيعي في الأرياف من حيث نحن قادمون".

يتابع المعلم "نسمع في الغرب عما نسميه انحطاطاً أخلاقياً وإباحة جنسية تتجاوز الحدود الطبيعية، ممارسات سادية ومازوشية، ولواطة، وسحاق، وفيتيشية، وجنس مع الأطفال، وجنس في العائلة الواحدة مع ما يُسمى بالمحارم، تبادل زوجات، جنس جماعي، جنس مع الحيوانات، جنس مع الجثث، طقوس جنسية معربدة لعبادة الشيطان".

ينظر المعلم إلى رفوف الكتب أمامه "قرأت كثيراً عن هذه المواضيع، وأنا متأكد من انتشارها في بلادنا، بشكلٍ أو بآخر. في الغرب هي معلنة، وتتم معالجتها اجتماعياً ونفسياً وطبياً، وهي لدينا مخفية، نمارسها في السر بمتعة ونحرمها في العلن، ونحن نقول إن من يمارسها هو شاذ ومنحط أخلاقياً. والأفراد الذين يدعون لدينا بشكل متعصب إلى الفضيلة، والفصل بين الجنسين، وإقامة حدود التحريمات، هم في الحقيقة هؤلاء الأفراد الموتورون جنسياً، والذين يمارسون كل ما يسمونه رذائل، في حين يحاولون الظهور أمام الجميع بمظهر الفاضل، وحارس الشرف والأخلاق. ومنهم من يصل

إلى مناصب إدارية عليا، مهمة وفاعلة، فيستغل سلطاته ليمارس شذوذه من ناحية وليعلن تحريماته من ناحية أخرى..... سلسلة متصاعدة من الفاسدين والمريضين نفسياً، يغطون على بعضهم بعضاً في غياب رقابة اجتماعية في إطار نظام ديمقراطي، مثل الصحف، والجمعيات الشعبية، ومجموعات المعارضة التي تعمل في إطار الدستور".

من جديد يلحظ المعلم على وجهي علائم المفاجأة، والاندهاش، والاستغراب، والصدمة، والبلبلة، والاضطراب، والضياع، والشواش، والقلق، وفقدان القدرة على النطق.

ينهض المعلم الآن ويتناول كتاباً من أحد الرفوف، ويقول "هنري ميللر واحد من أهم الكتاب الأمريكيين المعاصرين من جيل ما بعد أرنست همنغواي، وواحد من أهم الكتاب السرياليين في العالم، إضافة إلى كونه رساماً وعازف بيانو، وقد مات في القرن الماضي، وبالضبط في عام 1980، بعد أن عاش حوالي تسعين عاماً، وكتب أهم ثلاث روايات له في باريس. ومن يريد أن يمنع أدب هنري ميللر عندنا عليه أن يقرأه أولاً ويعرف قيمته السياسية والاجتماعية، فهو ليس بكاتب إباحي كما تذهب الأفكار المتداولة عنه لدى الأغبياء عندنا، وإنما هو روائي وناقد اجتماعي، يستخدم الجنس المباشر ولغة الشارع لتعرية المجتمع الأمريكي المعاصر وفضحه بآلته الرأسمالية المعاصرة التي تسحق الفرد وتدمر الحضارة. ورواياته كما قرأتها وفهمتها هي دعوة لكسر المحرمات السياسية والجنسية والتقاليد الأدبية واللغوية لتقديم الحياة كما هي، دون رتوش وتزيين، ومضمونها هو تحرير الإنسان من الزيف والخداع الذي يحيطه من أجل تحرير طاقاته المبدعة..... وأظنك توافقني على هذه الرؤى!".

ودون أن يسمع ردِّي أو يلاحظه على وجهي، يتناول كتابين جديدين، ويقول "والغبي الأكبر من يظن أن الروايات الأمريكية مكتوبة كلها على طريقة هنري ميللر، دون أن يستطيع التفريق بين هنري ميللر، وأرثر ميللر، ونورمان ميللر، الذين عاشوا في حقبة

واحدة، ويريد أن يسحب طريقته الغبية في التفكير إلى مجتمعاتنا، وهو يظن أن كل ما حوله هو إباحي".

يتدخل هنا السيد لؤي من جديد "هذا صحيح يا معلمنا، وهذا في الحقيقة يعكس ما بداخل هؤلاء المريضين نفسياً وطريقة تفكيرهم، لا فرق هنا بين شيخ موتور وإداري فاسد، فكلهم لا يرون العالم إلا من بين فخذي امرأة".

أصاب الآن بانفصام في الشخصية، مما ينعكس على شكلين متراكبين من وجهي، وجه مليء بانفعالات الغرائبية المدهشة، يبرز على السطح، متناغماً مع سحر المعلومات والتحليلات العقلانية الدقيقة، وثاني مسطح بالكامل لا يبدي أي انفعال، بارد، جامد، لا يصدق ما يحدث حوله، وكأن وهماً قادماً من أحد العوالم الكونية المتوازية، استطاع أن يفلت منها ويتلبس دماغي، كما حدث مع الجنية سهام، ومع ورد .

يجيب المعلم الآن على التساؤلات المرتسمة على وجهي المنفعل أمام الغرائبية المعلوماتية المدهشة "أرثر ميللر هو روائي ومسرحي أمريكي أيضاً، وقد مات منذ وقت قريب في عام 2005، معروف بميوله اليسارية وإدانة الأنظمة القمعية في كل مكان من العالم، وبشكل خاص السياسة الأمريكية، بدءاً من حرب فيتنام ومروراً بانتهاكات حقوق الإنسان. وأرثر ميللر مشهور بزواجه غير الناجح مع مارلين مونرو، بالرغم من استمراره خمس سنوات، وهي التي ستصبح عشيقة الرئيس الأمريكي روبرت كنيدي. أما نورمان ميللر، فهو روائي وصحفي ومسرحي ومخرج سينمائي، تلميذ نجيب لهنري ميللر، سار على خطاه وأبدع، فسُمي مشاغب الأدب الأمريكي، وقد توفي منذ وقت قريب جداً في عام 2007. وقد أثار كتابه بالذات عن مارلين مونرو ضجة كبيرة عندما اتهم المباحث الفيدرالية والمخابرات الأمريكية بتدبير اغتيالها بسبب علاقتها مع الرئيس".

انتهت حكايات المعلم، يخيم الصمت على المكتب، وينسحب وجهي المنفعل أمام الغرائبية إلى الأعماق، بدأت أشك الآن أن تأثير عبير الياسمين الذي رافقني منذ دخولي إلى المكتب قد فقد تأثيره بالكامل، وهو ما كنت أظنه وهماً! ولم يبقَ مني سوى الوجه المسطح، الذي لا يستطيع أن ينطق، أن يُعبِّر، أن ينفعل، ولكنه يسمع كل ما يقال أمامه، إلا إن الكلمات تصل إليه كرنين معدني في مكان مغلق بقبة سماوية رصاصية تطبق على القلب.

يتابع المعلم الذي لا أدركه الآن إلا كصوت "وبالمناسبة فإن اختيار البهاليل ودفعهم للتحرك هي لعبة من عميلنا في العُصبة، فقد حرَّض الحوادث وفق توجيهاتنا، وجعلها تسير في اتجاه محدد، ليس فقط لمعرفة من تجاوز الخطوط الحمراء، ولكن أيضاً لكشف من يقف وراء هؤلاء الذين تجاوزوا الخطوط الحمراء".

كم أنا غبي وبسيط جداً، أصغر من رجل صغير في لعبة أكبر من الكبار، شعرت أنني لا أعرف شيئاً، لا عن العالم ولا عما يدور حولي. أنا لا أعلم، لا أعرف، لا أدرك، لقد انهارت آخر أسوار قوتي الوهمية، المعرفة، شعرت وكأنني أصبحت مسجوناً في غرفة مظلمة لا ينفذ إليها النور، وفي داخلي ظلام مطبق.

غمامة من اللاشيء تلفني، وقد أصبحت أسمع صوت المعلم رنيناً ضاجاً "لقد تم طردك من العمل رسمياً، ولكن لا يهم، فهذا جزء من اللعبة وضرورة استمرارها. أنت عميل استثنائي لنا، فكل الدراسات والتحريات والدلائل تشير إلى قدرتك على التسلل إلى العوالم الماورائية، التي لا نستطيع الدخول إليها بالرغم من كل تقنياتنا الحديثة. نريد أن نعرف ماذا يوجد هناك بالضبط، وما الذي يشد إلى العوالم الماورائية هؤلاء الأفراد الذين يقومون بنسف أنفسهم مشعلين الفوضى حولهم، وتحدوهم الرغبة بقتل أكبر عدد من الأفراد معهم، ما الذي يشدهم إلى هناك؟".

لم أعد أدرك شيئاً، سوى يد المعلم تدفعني مودعـة، وفيمـا أنـا كالنائم وبصري متجه إلى الأرض، أنظـر إلى حـذائي المهتـرئ الـذي يتقدم بـصعوبة في الممـر، ألمـح حـذاء آخـر، أنيقـاً وأسـودَ لامعـاً، يتضخم شيئاً فشيئاً، ويصبح بحجم دراجة صغيرة، فأهرب مـن أمامـه بسرعة قبل أن يتضخم أكثر وأتحول إلى دودة تتلوى أمامه فتسحقني.

* * *

الشيخ خالد - الشيخ ماهر

أتذكر أنه جاء زمن قاسٍ في بلدتنا، زمن كثر فيه المتعطلون المتسكعون في الشوارع، يتجمعون في المقهى الشعبي سيء الصيت قرب محطة الحافلات، وعند مدخل الحارة القديمة حيث تخيم العتمة باستمرار في أزقتها الضيقة وفي قلوب ساكنيها، في حين كانت تلتم المجموعة الأسوء بينهم قرب البساتين، وخاصة في الغيضة التي يخفي سياجها العالي ما يجري بداخلها من أسرار مشينة. المتعطلون المتسكعون موجودون في البلدة بشكل دائم منذ زمن طويل، ولكن أعدادهم ازدادت فجأة في هذا الزمن القاسي، عندما انتهت نهضة الأحزاب "التقدمية "ومالت إلى الغروب، تاركة مناضليها أشلاء منهارة على هامش الحياة، وعندما مضت حافلات الإيمان الأولى للباحثين عن رائحة الذهب الأسود إلى بلاد الصحراء، ولم ترجع لتأخذ دفعات جديدة منهم. وفي هذه الأثناء فإن الكثير من الشباب، وبمن فيهم حاملو الشهادات الدراسية، لم يجدوا عملاً يخفون به "بطالتهم المقنعة "في إحدى الدوائر الرسمية أو التعليمية بعد أن سيطر الحزب الواحد وعشائره على جوازات المرور إليها، وسمح لمريديه المناضلين المنتسبين إليه بعبور أبوابها.

ومع ازدياد أعداد المتعطلين المتسكعين فإن أماكن تجمعاتهم توسعت إلى معظم المناطق الحيوية في البلدة، إلى أي مكان يجدون فيه تسلية، أو عملاً عابراً، أو أية إمكانية لخلق المنازعات والمشاكسات، في الساحة الرئيسية تحت شجرة اللبلاب، وأمام المؤسسة التموينية من أجل تنزيل حمولة السيارات، وعند بائع الحلويات والمثلجات، وعند مؤجر الدراجات الهوائية، وقرب الطاحونة التي تعمل على الديزل. ارتدى بعضهم الشروال القديم، وترك قميصه مفتوحاً ليبرز صدره

العاري، وحمل سلسلة معدنية طويلة يتلهى بها على أصابعه، فيما ظهر الباقون بملابس قديمة مناسبة للجلوس والتمدد على الأرض في ظل جدار أو شجرة، أو على الأسوار المنخفضة حيث تتدلى أقدامهم دون مبالاة.

وأينما وُجد المتعطلون المتسكعون فهم يثرثرون، ويتصايحون، ويتدافعون، ويتماحكون، ويتنازعون، ويتصيدون المشاكل فيما بينهم للتسلية أو لإثبات وجودهم في الشارع، وقد تُخرج المُدى والسكاكين أحياناً من جيوبهم وترسم ندوباً على الوجوه. وإن أمضى بعضهم الوقت في تدريبات الرقص الشعبي، واللعب بالسيف والترس، ونفخ النار من الأفواه، من أجل إحياء الأعراس والمناسبات الاجتماعية، فإن القسم الأعظم منهم كان يجتمع في المقهى الشعبي المفتوح على السماء قرب محطة الحافلات، إذ يميلون إلى الصراخ والعبث والمشاكسة بعد لعبة نرد أو دومينو أو أوراق الكوتشينة. وحتى يضع مالك المقهى العجوز حداً للفوضى التي تعقبها، فقد اقترح عليهم اللعب على رهانات يدفع ثمنها المهزوم، حلويات في الشتاء ومثلجات في الصيف، ولكن سرعان ما تحولت رهانات الأطعمة إلى رهانات نقدية، ليصبح المقهى في النهاية مرتعاً للمقامرين. وعندما ضايقتهم الدوريات البليدة لشرطة البلدية، حيث يُغِير عليهم شرطيان عجوزان بكرشين كبيرين، يحضران شبه نائمين على دراجتيهما القديمتين، فقد نقلوا نشاطاتهم إلى الغيضة، حيث يسترهم سياج العليق والأشجار الكثيفة عن عيون المتطفلين.

وفي الغيضة تم تنظيم ألعاب القمار بإشراف "شيخ الشباب"، الزعيم الأكثر شراسة بينهم، الذي بسط سلطته وحمايته على المكان، وهناك تحول التدخين من السجائر الرخيصة إلى الحشيشة المهربة التي كانت تصل عن طريق الخباز، واستبدل شرب الشاي بعَرق التين أو عَرق اليانسون، الذي يتم الحصول عليه من محلات أبو كارو، أما

المماحكات والمداعبات الصبيانية فقد وجـدت مجالهـا لتـصبح فعـل لواطة في أجواء مناسبة تحت عتمة الأشجار الكثيفة.

تقلبت عواطـف أهـل البلـدة إزاء المـتعطلين المتـسكعين، فهـم يعرفون أن لا شيء يـستوعب طاقـاتهم وفـراغهم في بلـدة منـسية مـن الخدمات العامة ومرافق التـسلية والنـوادي الرياضـية، حيـث اتجهـت طاقات البلدية إلى تأمين متطلبات المـزارع الجديـدة. وبـرغم الـسمعة السيئة أخلاقياً لمعظمهم، ومع الفوضى التي يزرعونها أينما تواجدوا، إلا أنهم لم يتجاوزوا حدود الإخلال بالأمن والهدوء في البلـدة، فلـم يشكلوا مثلاً عصابات سطو، ولم يعتدوا علـى الأشـخاص والمنـازل. وبالعكس فإن بعضهم لازال يَعِدُّ نفـسه حاميـاً لتقاليـد "نخـوة الرجـال "القديمة، يحافظون على شرف "بنات البلـدة "مـن إسـاءات الغربـاء، ويعاقبون بشدة من يتلصص على البيوت، ويقفون إلى جانب الـضعفاء في وجه متسلطين عليهم.

هكذا كان المتعطلون المتـسكعون يعيـشون في إطـار أخلاقيـات خاصة بهم، أخلاقيات شارع فوضوية متقلبة، لا علاقة لهـا بنـضالات الأحزاب المتدهورة، ودون أي خلفيات دينية. فهم يعيـشون يـومهم، وليومهم فقـط، يمـضون وقتـهم بـين العبثيـة والعـشوائية وأخلاقيـات النخوة القديمة.

وكان هناك زمن تراجعت فيه خطوط المواجهة مع العـدو باتجـاه البلدة، فكثرت المواقع العسكرية حولها، وجـاءت عـائلات العـسكر من كل المناطق البعيدة لتقطن الأطراف المهملة والأحياء الفقيرة منها. عائلات قادمة من أرياف فقيرة متخلفة، بعادات ولهجات غريبـة علـى أهل البلدة، وقد دفع الفقر برجالها إلى احتراف الحياة العسكرية ملجأ أمان من غوائل الزمن والمتسلطين القدامى. إلا أن قدوم هذه العائلات أقلق تقوقع قاطني الحي القديم من البلـدة وانغلاقهـم، الـذين نظـروا إليهم نظرة دونية بالرغم من مستوى الفقر المتشابه لدى الطرفين.

وجد المتعطلون المتسكعون في القادمين الجدد مادة جديدة للتسلية، ابتدأت بالسخرية منهم بالارتباط مع النظرة الدونية إليهم. ثم ما لبثت أن تحولت السخرية إلى تحرشات عبثية متتالية بهم، وبشكل خاص بفتياتهم ونسائهم اللواتي كن يظهرن سهلي المنال أمام قداسة التقاليد الأخلاقية البالية لأهالي الحي القديم ورفعتها. كثرت الحوادث والمنازعات الفردية في البلدة بين الطرفين، وشرعت تطفو على السطح وتظهر للعلن أكثر، مما أدى إلى ازدياد التقوقع والتكتل لدى كل منهما، فأخذت كل جهة تؤكد تمايزها بالأصول المناطقية، التي ما لبثت أن أخذت تتشكل في اختلافات مذهبية مؤيدة برؤى سماوية.

وكان من نصيب تحرشات المتعطلين المتسكعين عسكري شاب صغير، بسيط، ضعيف البنية، يغيب معظم نهاره في المعسكر، ويترك زوجته الممتلئة جسداً وقباحة لوحدها في غرفة طينية صغيرة، استأجرها على رأس زقاق عريض. لم يعرف هؤلاء أن الشاب البسيط يعمل طباخاً في وحدته، وتفوح رائحة الطعام باستمرار منه ومن ملابسه، وأن زوجته تنفر منه، ففتحت نافذتها للسماء والهواء. لم يكن هذا مهماً، ولكن الذي لم يعرفوه ـ وهو مكمن الخطر القادم إليهم ـ أن الشاب ينتمي إلى وحدة عسكرية جديدة، أنشئت حديثاً لحماية "مكتسبات الثورة"، وأنها تسعى لبسط نفوذها على الشارع كما في كواليس السلطة، وتتحين أية فرصة للتمدد والسيطرة واثبات وجودها.

رجع الشاب البسيط ذات مساء إلى منزله فوجد أن بعض المتعطلين المتسكعين قد افتتحوا موقعاً جديداً لتجمعهم قرب النافذة المفتوحة لغرفته، لم يكن ليستطيع إلا أن يبدي امتعاضه من زوجته بالصراخ عليها وإغلاق النافذة. إلا أنه في أحد الأيام رجع باكراً على غير عادته، حيث لم تتوقع زوجته هذه العودة المفاجئة،

فرأى ما لا يسره من التجمعات المريبة تحت النافذة. وما أن نطق بأول كلمة غاضبة حتى قام "الأبطال الصناديد "من المتعطلين المتسكعين بالسخرية منه وضربه ضرباً مبرحاً، وبصعوبة تسلل من بين الأقدام هارباً وهو يصرخ ويشتم.

الساعة الخامسة فر العسكري الصغير المهزوم مغادراً الحي! الساعة السادسة عاد مع جيش جرار من وحدته، عشرون سيارة شاحنة عسكرية، ممتلئة بجنود يرتدون خوذهم الرمادية مع عتادهم الحربي الكامل، من البنادق الرشاشة، والرمانات اليدوية، والقذائف المضادة للدبابات. ظن الناس للوهلة الأولى أن هناك خرقاً معادياً في أحد مواقع الجبهة، غير بعيد عن البلدة، ولكن الإنزال المسلح المفاجئ والخاطف حدث أمام الغرفة الطينية ذات النافذة المفتوحة، إضافة إلى المقهى الشعبي، والغيضة..... يبدو أنه ستتم تصفية الحسابات القديمة المتراكمة مع أطراف عديدة في البلدة.

نهض المتعطلون المتسكعون يشاهدون فيلماً حياً لجنود مقاتلين ينتشرون والبنادق مصوبة نحو كل شيء، ثابت أو متحرك، مع إطلاق نار كثيف في الهواء. ظنوا أن هذا تدريباً حياً على حرب الشوارع، بعكس الدروس البليدة التي كانوا يتلقونها وهم نائمون على مقاعد مدرسة جيش الشعب منذ سنين بعيدة. ولكنهم فوجئوا أن التدريب الحي أخذ يطالهم، ومن ثم أصبح موجهاً ضدهم، ولم يعودوا يدرون من أين أخذت الصفعات والركلات تأتيهم، دون أن يبدوا حراكاً أو ردة فعل ما، فهم لا علاقة لهم مع هؤلاء الجنود الأبطال الذين يحمون الوطن. وقبل أن يستوعبوا ما يحدث أمامهم من فيلم سينمائي، أو تدريب حي، إلا ووجدوا أنفسهم مرميين أرضاً وأيدهم مقيدة إلى الخلف والبنادق مصوبة إلى رؤوسهم، وتم إلقاء "الأبطال الصناديد "على أرضية الشاحنات، التي انطلقت بهم في الساعة الثامنة نحو جهة مجهولة.

انكسرت شوكة المتعطلين المتسكعين في البلدة منذ تلك الحادثة، أولئك الذين كانوا يثرثرون، ويتصايحون، ويتنازعون، ويتصيدون المشاكل، وبدؤوا يختفون من الشوارع. ولكن الأوضاع لم تتغير في البلدة! فلقد اندثرت موضة الأحزاب التقدمية بشكل شبه نهائي، وهي التي كانت تشغل بنشاطاتها قسماً كبيراً من الشباب، وانقطعت رائحة الذهب الأسود بعد تململ المسافرين إلى بلاد الصحراء وبدء عودتهم خائبين. ما تغير هو ازدياد قبضة الحزب الواحد بافتتاح فروع جديدة لعناصر جهاز الاستقرار الوطني داعمة له، ضبطت أوضاع المتعطلين المتسكعين السابقين وغير المتعطلين المتسكعين في متابعة رقابية دقيقة لما يفعلونه، سواء في الشوارع أو في البيوت.

عندما ينغلق الطريق أمام السيل القوي المندفع، فإنه يلتف ويبحث عن مجرى جديد يتسلل منه، ولا شيء يقف بوجهه. كانت أعداد المتعطلين عن العمل في البلدة بازدياد، يظهرون كالسيل، ولكن التسكع ممنوع عليهم، في حين بقيت مرافق التسلية والأندية الرياضية مفتقدة. إلا أنهم سيجدون منفذاً جديداً يفرغون فيه طاقاتهم ويملؤون به أوقاتهم، بدلاً من تسكعهم المباشر في الشوارع، التي تراقب أي تجمع فيها عيون أجهزة الاستقرار، أو في المقهى القديم الذي تم تحويله إلى مطعم حديث بمشروبات كحولية، لكن دون لعب القمار، أو في الغيضة التي اخترقها شارع عريض، فدمر سياجها وأشجارها الكثيفة، وكشف حميمية الباحثين عن المتعة المثلية من الشباب..... وجاءت الفرصة الذهبية مع المد الديني الجديد، الذي نهض مع إخفاق الأحلام الثورية القديمة، فانتقلوا للتسكع في الموالد الدينية، واجتماعات العزاء، وعقود الزواج التي تحدث في البيوت في إطار التقاليد الدينية قبل التسجيل في المحكمة قانوناً.

تحولت المناسبات الاجتماعية التي وجدت غطاء دينياً إلى

تجمعات شعبية عشوائية، لم تستطع السلطة الثورية إزاءها فعل أي شيء سوى زيادة شدة المراقبة والسيطرة على ما يحدث فيها، وبخاصة الأحاديث التي تتم فيها باسم الوعظ الأخلاقي الديني. فما أن يتحدث أحدهم مرة واحدة عن ضرورة عودة الأخلاق الحميدة مع دولة الأصول، حتى يختفي وتندثر أخباره هو وأصوله، دون أن يجرؤ أحدٌ على السؤال عنه. ولذلك أصبح من المتعارف عليه أن تتحدد الأحاديث في مجالس العزاء بعظة الموت، وما ينتظر الناس نتيجة أعمالهم في الحياة الدنيا من عذابات أبدية في جهنم أو متع خالدة في الجنة، وإذا ما كانت المناسبة عقد قران فالأحاديث تنصب على النكاح وفوائده في غض البصر، ولا مانع من التذكير بأن نكاح الدنيا عابر، بعكس نكاح الحوريات الذي يمثل النعيم الأبدي.

لم تكن البلدة لتحتمل أكثر من إمامين عجوزين تقليديين للمسجدين الوحيدين فيها، واحد للمسجد القديم الصغير، وثان للمسجد الجديد الواسع. ومع التزامهم بإمامة الناس ـ على قلتهم ـ للصلاة خمس مرات على مدار النهار، فإنه لم يكن لديهم الكثير من الوقت للتنقل خارج المسجد من أجل حضور المناسبات الاجتماعية التي تحتاج غطاءً دينياً. وقد كان حضورهم ثقيلاً وأقوالهم بليدة، يؤدونها بتكرار ممل دون أية جاذبية، مستندين إلى جر المؤمنين لاستماعهم على سلطة القداسة السماوية التي يحملونها في عمائمهم وأثوابهم الطويلة. وعلى كل الأحوال لم يكن من الممكن تمييز شيءٍ خاصٍ بهم سوى عيونهم المغمضة والتمتمة المبهمة التي ترافق باستمرار شفاههم المرتجفة، والمنسجمة مع طقطقة السبحات بأيديهم.

ومع ازدياد المناسبات الاجتماعية, التي تحتاج إلى غطاء ديني وحاجتها لمتحدثين يملؤون الوقت فيها بأي كلام، فقد توجه المتعطلون الذين لازالوا يتكاثرون بشكل كبير نحو أماكن التسكع الجديدة، إلى الموالد ومجالس العزاء وعقود القران، فدخلوا إليها

بحيويتهم، وأخذوا يملؤون أوقاتهم ويفرغون طاقاتهم فيها. وبدلاً من الثرثرة والصياح في الشارع والمقهى والغيضة، انتقلوا للثرثرة والصياح في هذه المناسبات الاجتماعية باسم الوعظ الديني، وتحولوا من متعطلين متسكعين إلى متعطلين واعظين. هنا يصرخون، ويشتمون، ويتأففون، فيثبتون وجودهم دون منافس، إذ لا يجرؤ أحد على الاعتراض على ما يقولون على اعتبار أنهم يتحدثون باسم السماء، وسلطة ثرثرتهم مهما انحدرت في ابتذالها هي من سلطة السماء. ولذلك ما أن يرموا بفكرة سخيفة عابرة حتى يتبعوها بنص مقدس لا علاقة له بها، فيصمت الجميع مضطرين.

لم يكن يحتاج عمل المتعطلين الواعظين إلى أي مجهود أو إعمال تفكير، هذا دون الحديث عن عدم ضرورة وجود أية شهادة دراسية، حتى ولو كانت مرتبطة بمعرفة فك الأحرف الهجائية. كل ما هناك أن يكون لدى أحدهم خللٌ ما في حياته أو عقله، أو مصاب بمرض نفسي، ويتبع ذلك بحفظ مقاطع صغيرة من النصوص المقدسة، وسلسلة من الأدعية والعبارات التقليدية الجاهزة، التي يتم تكرارها بغباء شديد منذ مئات السنين، ثم يتلبس مظهراً إيمانياً وقوراً اصطناعياً يتناسب مع موقعه الجديد كواعظ ديني..... عندئذٍ يصبح جاهزاً للجلوس في صدر المجلس، فيظن أن الجميع يحييه باحترام، ويُقدَم له صحن الحلويات أو الفواكه الأول، وتدار عليه باستمرار المشروبات، وقد يتمسح به البسطاء الأغبياء ويتباركون به، لتصل الأمور أحياناً إلى حد تقبيل يده.

وعلى كثرة المتعطلين الواعظين فقد أخذوا يتدافعون في المناسبات ليكونوا في المقدمة، فمن يسبق يأخذ صدر المجلس ليتحدث، وإذا ما جلس لا يتزحزح حتى لا يتم احتلال مكانه من قبل أحد المنافسين، فيزداد لغوه وثرثرته غير عابئ بمن ينام منتظراً انتهاء حديثه لتناول الطعام ومن ثم يمضي. وحتى يتمايز الواحد منهم أكثر من غيره فإن عليه أن يصرخ أكثر وأكثر، يزأر ويجأر، وينتفض بيديه

وقدميه، وجسده كله، بحيث يقع أحياناً من على كرسيه أرضاً، دون أن يفهم أحدٌ ما سبب هذا الانفعال المجنون الذي سبب له السقوط. يصرخ مهدداً تاركي الصلاة، ومشاهدي التلفزيون، ومشتري الملابس الفاخرة، والمتفرج على جارته، والمتجول أمام محلات بيع الملابس النسائية، والذي لا يستخدم المسواك، ولا يشمت من يعطس بجانبه، ولا يدخل الخلاء بقدمه اليمنى ويخرج منه بقدمه اليسرى. ثم يرفع درجة تهديده ووعيده لكل من لا يطبق تعاليمه بشأن هذه المواقف بالدمار القادم والهلاك الحاسم من السماء، حتى يظن الجالسون أن الزلازل والفيضانات والصواعق ستحدث بمجرد خروجهم من صالة الاجتماع، فتدمر كل ما يدب على الأرض، وتنشق القبور ويخرج من فيها، ولن يذهب إلى النعيم سوى المتعطل الواعظ ومن يتمسح بأثوابه، فيجلسون مرتجفين خوفاً لا يرغبون بالابتعاد عن ظله.

ولا يكتمل التمايز بين المتعطلين الواعظين بالصراخ وطريقة السقوط عن الكرسي التي تعبر عن اندماجه الإيماني بحكايته، فقد أصبح الجميع يتقن هذا الفن الاستعراضي الصارخ الساقط، ولذلك كان على كل واحد منهم أن يعلن اختلافه عن الآخرين بتمذهب ديني خاص، يعارض به الآخرين، فأحدهم يصبح سلفياً متعصباً مبشراً برؤى بلاد الصحراء، وثانٍ سلفياً معتدلاً على طريقة بلاد النهر، وثالث يختار مذهباً صوفياً متأصلاً في البلدة أو مستورداً من منطقة أخرى، ورابع يبتدع مذهبه الخاص الذي اكتشفه في لحظة وجد واتصال مع السماء، وخامس يخلط بين هذه المذاهب جميعها ويختار منها حسب الظروف، وسادس جديد على الساحة يدعو إلى التقريب بين المذاهب، وإن كانت معرفتهم في النهاية شكلية، ترتكز على المظاهر والثرثرة اللفظية دون فهم لما يقولون.

وقد تعلم هؤلاء المتعطلون الواعظون أن اختلافاتهم المذهبية ينبغي أن تبقى محصورة في الإطار الفقهي، والحكايات الأسطورية التي حدثت على كوكب آخر، ولا مانع من شتم ممثلي المسلسلات

الأجنبية المدبلجة، والأوروبيين الذين يدللون كلابهم ويأخذونهم للنزهة، ومواساة ضحايا الفيضانات في جنوب شرق آسيا وأمريكا اللاتينية، فإذا ما تجاوزوا الخطوط الحمر؛ فإن عناصر جهاز الاستقرار لهم بالمرصاد. ولذلك فهم لم يسمعوا، ولم يقرؤوا، ولم يعرفوا شيئاً عن الجهاد، وإعادة الخلافة، وتكفير الحكام، والحرب المقدسة على الصليبيين والباطنيين والعلمانيين الملحدين، فهذه المصطلحات هي خاصة بالخارجين على الأعراف والقوانين والمارقين بالدين. لا بل إن معظمهم، إن لم يكن جميعهم، أخذ ينشئ علاقات مودة مع عناصر جهاز الاستقرار، فيتبرعون بنقل أخبار عمن يتدافع إلى الصفوف الأولى لصلاة الجماعة في المسجد، أو يتحدث عن الغلاء في الأسعار، أو يتأفف من حفريات البلدية التي لا تنتهي، وذلك مقابل حظوة تمييزهم بالدعوى لحضور المناسبات الوطنية والسماح لهم بالجلوس في الصفوف الأولى على اعتبار أنهم ممثلون لجموع المؤمنين في البلدة.

وحتى يتم إبراز الخيارات الخلافية بينهم؛ فلابد أن تجد تعبيراتها في المظاهر، وخاصة في الملابس واللحى. فواحد يرتدي قميصاً أبيضَ يصل إلى ما تحت الركبتين، تشفّ منه مؤخرته وسرواله بوضوح، فإذا ما نهض من جلوس دخل قماشه بين إليتيه، وثانٍ يرتدي عباءة بيضاء أو سكرية مزخرفة بزنار مذهب على الجوانب، زيادة في إبراز الوقار المصطنع، وثالث بمعطف طويل فوق بنطال خوفاً من ارتسام عورة مؤخرته، ورابع بملابس أوروبية حديثة للتلاؤم مع التطورات العصرية في الحياة اليومية. ويستتبع اللباس إما لحية طويلة مرخية دون تشذيب مع شوارب محفوفة، أو لحية ناعمة مرسومة بعناية على الوجه بعد أن تمت حلاقتها من الأسفل عند الرقبة وفي الأعلى عند الخدين، أو دون لحية لمن يرتدي الملابس العصرية. وقد يحمل بعضهم مسواكاً، يروح ويجيء باستمرار في فمه أمام الناس، مما يولد لديهم شعوراً بالقرف، أو يحمل زجاجة عطر

يمسح بها يديه وصدره بهوس مرضي. وينتعل بعضهم صندلاً، أو خفاً صحراوياً تم شراؤه من بلاد الأصول، أو حذاء إيطالياً أنيقاً غالي الثمن.

وحتى يكتمل التمايز بين المتعطلين الواعظين فلابد من جوقة مرافقة من المريدين، تتراكض بغباء حول كل واحد منهم، يقلدونه بملابسه وحركاته وتصرفاته، فإذا ما ارتدى ثوباً أبيضَ طويلاً، فعلى الجميع أن يرتدوا مثله، وأحياناً بالقياس نفسه، الطويل والقصير، والنحيف والسمين منهم، لينسحب هذا على اللحية، والطاقية، والسبحة، والمسواك، والصندل، والنظارة، والسروال الطويل الشرعي. وبقدر ما تكون الجوقة كبيرة، تتحرك حوله بحيوية ودون هدف محدد مثل الدبابير، بقدر ما تزداد أهمية المتعطل الواعظ ورفعة شأنه، فهي التي تشكل مواكبة راجلة له، تفسح الطريق أمامه في التجمعات، وتدعوه للجلوس في صدر المجلس عند الدخول إلى مناسبة اجتماعية، وهم الذين يطلبون من المضيف تقديم المأكولات والمشروبات له أولاً، جاهزون لتنفيذ أية رغبة له أمام الناس، وقد يعطسون، أو يتثاءبون، أو يسعلون، بدلاً منه. وما أن يجلس المتعطل الواعظ في صدر المجلس للحديث حتى تطلب الجوقة من الجميع الصمت والاستماع إلى الدرر المباركة التي سيلقيها "سماحته"، فما أن يتنحنح قليلاً حتى تتعالى منهم أصوات الاستحسان والإعجاب، وكلما مضى في ثرثرته قاطعوه بالدعاء له ولجواهره الإيمانية التي يلقيها في كل الاتجاهات.

يجد المتعطلون الواعظون فرصتهم الكبرى في مجالس العزاء، يستغلون حالة الحزن ومتطلبات تدخل أحد ما لقطع الصمت المرافق له، فيثرثرون كما يرغبون دون أن يعارضهم أحد ما ماداموا يتحدثون باسم سلطة السماء. يبدؤون حديثهم بالموت عظة من السماء، ويمرون بكوارث طبيعية متخيل حدوثها عقوبة لأقوام لم تتعظ به، وبما أن الحاضرون إما أن يناموا أو يهربوا، ولا يتعظون بالموت

وبالصراخ، فإن المتعطلين يعظون بذكاء شديد كل فئة من الحضور على مقدار عقولها واهتماماتها. فيشرحون للأطباء المُعزين أخر العلاجات السماوية الروحانية بالرقى الشرعية لجميع الأمراض المستعصية لعلهم يتعظون، وللمهندسين الحقائق الإنشائية والمعمارية الموجودة في المرويات المقدسة لعلهم يتعظون أيضاً. ويتحدثون عن خلق الكون في سبعة أيام، وأشراط الساعة الصغرى والكبرى، وقبائل يأجوج ومأجوج، وظهور المسيح الدجال، والفرقة الناجية، وعودة المهدي المنتظر، ويعيدون بناء التاريخ والمستقبل بمرويات تتناسب مع حكايات الأطفال دون الخامسة من العمر. يتحدثون ويتحدثون في كل العلوم والمهن والفنون، في الزراعة، والتجارة، والحدادة، والنجارة، ولا ينسون أن يعرجوا على الطبخ، والخياطة، وتربية الأطفال، وتصليح الأجهزة الكهربائية، وتلميع الأحذية، وتحضير القهوة..... لعل الجميع يتعظ في النهاية.

أما مجال تخصصهم الواسع والشامل والدقيق والمتعمق للوعظ فهي قضايا النكاح وفنونه وألاعيبه، حيث يبرزون خبرتهم المستوحاة من كتب الأصول في الدخول إلى التفاصيل الحميمية للملاعبة والإيلاج والأوضاع، وكل ما تبتدع مخيلتهم المريضة بالتلاعب بين الشبق المجنون والتحريمات، ولا ينسون أن يذهبوا في النهاية إلى النعيم الأبدي، وذكر متعه الحسية من الطعام والشراب والحوريات البكر. وشكل هذا التلازم والتأكيد على حديث النكاح مع نعيم الحوريات هدفاً أساسياً من أجل إثارة انتباه النائمين والخاملين، فيتحول الإيمان لديهم عندئذٍ إلى دعوة لممارسات أرضية متقشفة معقدة، تليها جوائز مادية حسية في الآخرة.

أتذكر الشيخ خالد، أحد المتعطلين الواعظين الأكثر حضوراً في مجالس العزاء، الذي يتلبَس مظهر الخشوع والورع المبالغ فيه مع سبحته المتلألئة، حتى إنه من النادر أن يراه أحد ما مبتسماً. ومن سوء حظه أنه أصيب بمرض الصرع منذ طفولته، مرضٌ يرميه أرضاً بنوبات

اختلاج شديدة، ينهض منها مربداً مكفهراً والزبد يملأ فمه، ليقول إنه مر بحالة استسلام روحي، سمع فيها صوت الشيخ الصوفي ياسين يدعوه إلى متابعة دربه الإيماني. يرتدي باستمرار عباءة سكرية جديدة اشتراها من المدينة، يقول إنها عباءة الشيخ ياسين الذي اختاره لخلافته الروحية، مؤكداً ذلك بالأصوات والإيحاءات التي تتداعى إليه في الليل، بل وقد نشر مريدوه أن الشيخ نفسه يزوره ليلة كل خميس فيأخذ من نوره وعلمه وبركته.

يعبر الشيخ خالد بحديثه المستمر عن النكاح عن ميل عميق في داخله نحو الجنس، ويشرح لمريديه أن المؤمن يستطيع أن يحصل في النعيم الأبدي على كل ما يرغب ويشتهي، ليس من الحوريات البكر فقط، وإنما أيضاً من الغلمان المخلدين الذين يطوفون عليه بالشرابات السحرية المقوية للباه. وتحت دعوى قدراته الشفائية السماوية باستخدام حشائش مخدرة، كثر حوله البسطاء الذين يبحثون عن أدوية سحرية لعلاج أمراض مستعصية في عقولهم. ولشعبيته بين هؤلاء الناس البسطاء عمل مسؤول جهاز الاستقرار على استغلال علاقاته، مجنداً إياه ضمن شبكة مخبريه الرئيسيين في البلدة. ورحب الشيخ خالد بالتعاون معه، بل وأشهر ذلك علناً، فهذا يُعلي من مركزه ويزيد من منزلته بين المنافسين الكثيرين من المتعطلين الواعظين، الذين يعيرونه دائماً بفشله الدراسي. وتعويضاً عن تأخره الدراسي فقد كان يلجأ إلى مراجعه من الكتب الصفراء، المليئة بأخبار الجن والشياطين والعفاريت الذين جعلهم يتحكمون بحياة الناس بالكامل.

ولكن لما كانت المنافسة شديدة مع الواعظين الآخرين المتعلمين بحيث بدت معلوماته ضعيفة أمامهم، فقد حصل على قائمة بأمهات الكتب التراثية، وأخذ يخلط ما تقوله له الأصوات القادمة من السماء مع نتف من المرويات التقليدية، محيلاً إياها عشوائياً إلى أحد هذه المراجع، بل يذكر رقم صفحة عشوائية، معتمداً في الإقناع على سلطته الروحية على الناس البسطاء الذين لم

يسمعوا بهذه الكتب. وعندما تابع أحد الواعظين المنافسين مراجعه، اكتشف عدم وجود الأحاديث المذكورة في هذه الصفحات، بل عدم وجود صفحات بالأرقام التي يذكرها، وعندما يواجهونه بذلك كان يجيبهم ببساطة أن مراجعه الأصلية هي غير المتداولة حالياً، وهي مرصودة له خصيصاً، لا يفتحها أقرانه الجن إلا له.

أما النموذج الثاني الذي لازلت أتذكره فهو الشيخ ماهر، شاب فاشل دراسياً مهتز نفسياً، لم يستطع الحصول على الشهادة الثانوية، رغم كل محاولاته المستمرة بما فيها الاحتيال. وقد استعاض عن ذلك بهبوط ثروة ضخمة مفاجئة عليه من بيع أراضٍ لعائلته بأسعار عالية في موجة جنون ارتفاع أسعار الأراضي والعقارات التي ضربت المنطقة، ليتحول إلى تاجر بناء لا يتقن سوى دفع الرشاوى المستمرة لمسؤولي البلدية، والاحتيال على الناس البسطاء ببيعهم شقق وهمية، سيتم بناؤها بعد عشرات السنين. وبما أنه يعد نفسه من كبار تجار العقارات فإنه لم يجد مانعاً من توزيع بطاقات فيزيت تعريفية تحمل اسمه: المهندس ماهر ـ دراسات تنفيذية، بناء وبيع محاضر سكنية. وبالرغم من ثروته المفاجئة وتوزيعه الرشاوى يميناً ويساراً فلم يكن يحترمه أحد في البلدة، إذ كانوا يسخرون منه لادعائه الحصول على شهادة عليا، ويحذرونه لاحتياله المستمر عليهم، ولكنه وجد منفذاً للسيطرة عمن حوله باسم سلطة السماء، فتحول إلى واعظ ديني، يحضر الموالد وجلسات العزاء وعقود القران. هنا أصبح يتحرك باسم السماء، وعلى الجميع أن يسمعوه واحترام ما يقوله، وإلا فإن غضبها يحل عليهم.

لم يكن أحد يدعو الشيخ ماهر إلى المناسبات الاجتماعية، لكنه يدعو نفسه بوصفه مشاركاً بأفراح الناس وأتراحهم، يدخل هو وجوقته من المريدين الذين يرافقونه، ليتجه مباشرة إلى صدر المجلس. يفسح له المرافقون مكاناً، باللين أحياناً وبالدفع أغلب الأحيان، لتبدأ ثرثرته التي لا تنتهي. وعندما طبع دفعة ثانية من بطاقات التعريف باسمه، ترك وجهها الأول للمهندس ماهر،

وخصص الوجه الثاني لإضافة اسمه مع المهنة الجديدة: الشيخ ماهر، موالد، جلسات عزاء، عقود قران.

ينتمي الشيخ ماهر إلى إحدى العائلات المنغلقة اجتماعياً في البلدة، التي من النادر أن يجلس فيها رجل مع امرأة قبل ليلة زواجه، فنمت لديه عقدة نفسية تجاه النساء اللواتي يمشين "كاسيات عاريات "في شوارع البلدة، فهو شديد الخوف من فتنتهن وفسقهن. ولذلك ما أن يجلس في احتفال عقد قران حتى يبدأ حديثه بحكاية الرجل التقي الذي تاه في الصحراء، فشاهد راعية غنم مع قطيعها وسألها عن مضارب أهلها ليلتجئ إليهم، وما أن مشت أمامه لتدله على الطريق حتى انزعج وأمرها بالسير وراءه خوفاً من فتنتها. أما كيف استدل على الطريق إلى المضارب، فيقول إنها كانت ترمي أحجاراً أمامه في اتجاه المضارب فيعرف الطريق دون أن يلتفت إليها، وبذلك نجا من فتنتها.

وعندما يريد جمع من الشباب السخرية منه يسألونه "يسير منا الرجل في الطريق، فيشعر بالإثارة الدائمة من رؤية النساء الكاسيات العاريات في شوارع البلدة، فماذا يفعل؟".

يجيب "ليذهب إلى زوجته وينم معها، فتنطفئ شهوته".

فيسألونه من جديد "على هذه الحالة ستتعب منه زوجته، وهو يرجع إليها كل ساعة، فماذا يفعل؟".

" ليتزوج ثانية، وثالثة، ورابعة".

" وهل يستطيع تخيل المرأة التي فتنته في الشارع وهو ينام مع زوجته؟".

فيصرخ "أنتم ملحدون، لا أعرف، ليس لدي جواب حسب الأصول".

وليزيدوا من غضبه يلحون عليه بالسؤال من جديد "وإذا لم يكن متزوجاً، وليس معه نقود ليتزوج فماذا يفعل؟".

تزيد ثورته ويبتعد عنهم صارخاً بانفعال شديد "عندئذٍ ليضرب رأسه بالحائط ويقطع عضوه، ليريحني من أسئلته".

اجتمع المتعطلون الواعظون ذات مرة في عقد قران ابن رئيس البلدية، حضر مسؤولو البلدية وكبار التجار ورؤوس العائلات الرئيسية في البلدة، وتمت دعوة جميع الشيوخ الواعظين لأهمية المناسبة، وكان عليهم أن يتحدثوا معاً هذه المرة بوئام ودون منازعة أمام هذا الحشد الكبير والمهم. وبما أن المناسبة هي عقد قران فقد كان من المناسب الحديث عن النكاح على الأرض، وعن ملذاته الأبدية في النعيم الفردوسي:

* "يعيش الرجل منا في هذه الحياة بالبلدة طوال عمره مع زوجة واحدة، وبسبب الظروف الاقتصادية الصعبة لم نعد نستطيع الزواج بامرأة ثانية، وثالثة، ورابعة".

ـ "في النعيم لا يوجد أعزب، هناك سنحصل على حوريات، نواهد أكعاب أتراب، بقدر ما نرغب ونشتهي. نحصل على سبعين حورية دفعة واحدة، ونستطيع النوم معهن جميعهن في ليلة واحدة، بل ويمكن أن يصل العدد إلى مئة، فالواحد منا يكون لديه قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع. وكيف يتم ذلك؟ هناك سرير واسع، وعلى السرير سبعون فراشاً، عليها سبعون زوجة حورية، وعلى كل منها سبعون حلة، فيمكن قضاء الوطر منهن بالتتالي".

* "عندما نتزوج هنا في الحياة الأرضية تكون زوجتنا بكراً في المرة الأولى فقط، وعندما نأتيها في المرة الثانية يصبح عضوها فاغر الفم دون غشاء يحميه من هجومنا عليه، فإذا ما دخلنا فيها فإنها لا تتألم، ولا تصرخ متشنجة، ولا تنزف دماً، فنصبح مطعونين برجولتنا وسيطرتنا، ولا نتلذذ برؤيتها تبكي وتستنجد. ثم من يضمن أن الزوجة لن تنام مع رجل آخر في غيابنا دون غشاء يردعها عن الخيانة".

ـ "هناك الحوريات كلهن أبكار، لم يطمثهن أحدٌ قبل أزواجهن

لا من الإنس ولا من الجن، مصونات كالدر في أصدافه، بل ويرجعن أبكاراً من جديد بعد كل خرق لهن، مطهرات من الحيض والجنب. كما إننا نستطيع الاستمتاع بهن دون خوف من الحمل وكثرة الأولاد، فالحوريات لا يلدن، ولكن إذا ما رغبنا بولد فإن حمله ووضعه ونموه إلى العمر الذي نرغب به لا يتجاوز الساعة".

* "ترافقنا الزوجة طوال العمر دون غشاء بكارة بعد أن تفقده في المرة الأولى، مصيبة ترافقنا طوال العمر، فإذا ما رغبنا بخرق غشاء امرأة أخرى فعلينا أن نقع بمصاريف الزواج ومشاكله من جديد، وكل هذا من أجل ليلة واحدة لمرة ثانية".

ـ "إذا نجت زوجتنا من نار الجحيم ودخلت إلى النعيم، فليس من الضروري أن ترجع إلينا من جديد، إلا إذا رغبنا، وعندها ترجع إلى عمر الثالثة والثلاثين حتى ولو ماتت عجوزاً في الحياة الدنيا، والقبيحة في الدنيا تصبح جميلة، وهذا بفضلنا عليها، إلا إن عليها القبول بوجود كل هؤلاء الضرائر حولها، ملتزمة الأدب معهن. ولكن لا أعرف من هو الغبي الذي يرغب بعودة زوجته إليه في الآخرة وقد شبع مللاً منها في الحياة الدنيا!".

* "نظن أن المرأة التي سنتزوجها جميلة، وقد سرقت قلوبنا بنظرات فاتنة كاذبة، وسرعان ما ينكشف قبحها وبشاعتها بعد الليلة الأولى، بل وتصبح مثيرة للاشمئزاز بعد أن يتقدم بها العمر، فالتجاعيد تغزو وجهها، وبطنها يتهدل، وعضلات عضوها الجنسي ترتخي".

ـ "هناك الحوريات كلهن كواعب الصدر، أتراب في عمر واحد، لا يفنى شبابهن، ولا تبلى ثيابهن، يُحار فيهن الطرف من رقة الجلد وبياض اللون وصفائه كما في بيض النعام. ذوات عيون واسعة حوراء تغطيها جفون رقيقة، عيون نقيات البياض، شديدات سواد الحدقة المستديرة، لهن خدود أصفى من المرآة بحيث يمكننا رؤية صورتنا فيها، ولجمالهن يمكن رؤية مخ الساق من وراء اللحم

والعظم حتى ولو كان عليهن سبعون حلة. واللؤلؤة عليهن تضيء مابين المشرق والمغرب، وإذا سطع نور من ثغر حورية فهي تضحك في وجه زوجها. وبما أنهن أتراب في عمر واحد، بعمرنا نحن هناك في الثالثة والثلاثين، فلا يحدث نزاع أو غيرة أو تباغض بينهن، فلهن قلب عاشق واحد وأخلاق حميدة، مطيعات كلهن لزوجهن".

* "هنا في الحياة الدنيا كم نشعر بالقرف من زوجاتنا وهن يبصقن، ويتمخطن، ويتبولن، بحيث لا نعود نرغب بنكاحهن أبداً".

ـ هناك لا شيء من هذا القرف، فالجميع يأكل ويشرب باستمرار لا لحاجة أو جوع وإنما لتلذذ، ولكن دون أن نتبول أو نتغوط، فبقايا الطعام تذهب كرشح المسك فتضمر البطن".

* "يأتينا الجنب هنا على الأرض في ثوان، فتنتهي متعة النكاح، وعلينا عندئذٍ الاغتسأل لأجل هذه الثواني، والمياه باردة في الشتاء، وتقطعها البلدية باستمرار في الصيف".

ـ هناك وصال دون إنزال فلا يأتينا الجنب أبداً، متعة سرمدية جسدية حسية دائمة ومستمرة، بكل الأشكال والطرق والأوضاع، حتى ما نسميه شذوذاً يصبح هناك مسموحاً مادمنا نشتهيه، لا نمل الوصال مع الحورية الواحدة فكيف مع السبعين".

* "المرأة هنا لا يؤمن منها، لا يدخل لسانها إلى فمها من كثرة الثرثرة، لا تترك شيئاً في جيوبنا إلا وتأخذه، خائنة، ما أن نخرج من البيت حتى تخرج هي أيضاً دون علمنا، ودون حجاب".

ـ "نساء النعيم يقصرن الطرف على أزواجهن، عاشقات لهم متحجبات، لا ينظرن لغيرهم عفة وحياء، عفيفات مخلصات لا يطمحن لغير الزوج. مطيعات، قصيرات الرجل واليد واللسان، لا يخرجن دون إذن، ولا يمددن أيديهن إلى جيوب أزواجهن، وبدلاً من اللغو والثرثرة يغنين لأزواجهن بأعذب الأصوات. أما زوجاتنا اللواتي جعلن حياتنا جحيماً فسيذهب معظمهن إلى الجحيم، فإن

أكثر أهل النار هم من النساء. أما إذا دخلن النعيم فهن معزولات نتيجة الآلام والعذاب والصدود عن النكاح في الحياة الدنيا، التي سببوها لنا، يتمنين رضانا بينما نحن مشغولون عنهن بحورياتنا. تخيلوا لو كان لكل زوجة سبعون حورياً أو غلاماً يخرقونها ليل نهار أمامنا، وبكل الطرق والأوضاع، يتناوبون عليها فرادى وجماعات، أليس بهذا إهانة لكرامتنا الإنسانية وطعناً برجولتنا. أما الولدان الموجودون في النعيم فلا يتمتعون بالنساء، بل هم معدون للخدمة في إطار ملذات الرجال، وبذلك لا خوف منهم على حورياتنا".

تتكرر المرويات نفسها على مر التاريخ، هروباً من حر الصحراء ويباسها وجفاف الحياة فيها، حيث ليس من السهل الحصول على الأبكار فيها، فالرجال كثر يتنازعون على بضعة أبكار جميلات، تشتعل المعارك والمذابح لأجلهن، فيلجؤون إلى المرويات ويحلمون:

" تحت ظلال الأشجار والنسيم العليل يتلاعب بالأغصان، وعلى أسرة وثيرة ناعمة، بطانتها من الحرير والإستبرق، منسوجة بالجواهر ومرصعة بالدرر والياقوت، يضطجع الرجال، يرفلون في كثبان المسك ورياض الزعفران، ومعهم أزواجهم من الحور العين في غاية الصفاء والحسن والنقاء، وقد لبسن أفخر الثياب من السندس والحرير، وتزينَّ بحليهنَّ من القلائد والأساور والخواتم والخلاخيل. يتجاذبن مع أزواجهن أطراف الحديث الذي يخلو من فاحش الكلام وبذيء القول، وينكببن عليهم باللثم والعناق، ويملأن الصدر بنهودهن، ويجللن البدن بذوائبهن. يقوم على خدمتهم غلمان في نضارة الصبا بسن واحدة، كاللؤلؤ المنثور، لا يكبرون، ولا يهرمون، ولا يموتون، يدورون عليهم بأباريق وأكواب من فضة رقيقة شفافة فيها خمر لذيذة جارية من العيون ذات لذة للشاربين، تفوح منها رائحة المسك أو ممزوجة بالكافور ليست كخمر الدنيا، لا تسبب صداعاً ولا تسكر، ولا تسبب الهذيان والفحش في القول. يطوفون

عليهم بما لذ وطاب من لحم الطير، وفي متناول أيديهم الفاكهة الكثيرة المتنوعة، فما إن تقطع ثمرة منها إلا ونبتت مكانها أخرى، والثمرة الواحدة ليس لها طعم واحد بل في كل مرة يقضمون منها يجدون لها مذاقاً مختلفاً، وتستعلي إلى جانبهن الجداول التي تسيل بالخمر والعسل واللبن والسلسبيل".

ولايزال الواعظون يرددون المرويات نفسها عن النعيم الأبدي..... في حين سيظهر على الساحة منافسون خطيرون لهم، يسعون لجذب ناسفي الأحزمة إليهم بنعيم آخر، عصري ومغاير بالكامل..... الجنة الأمريكية!

* * *

صانعة الحكايا

قررت أن أنهي العلاقة مع المعلم الذكي، وأذهب للبحث عن صاحبة الصوت الذي يناديني، صوت ذات العيون العسلية، ولكن الأحداث تلاحقني بما لا أرغب، وهذا المعلم الذكي يحاصرني بشبكة مخططاته الوطنية، يدفعني باتجاه اقتحام العوالم الماورائية لأهدافه الأرضية، المعلوماتية الإستراتيجية..... العوالم الماورائية بالذات التي أتجنب الحديث عنها رافضاً وجودها، لأنها ـ كما أقول لصديقي ـ عوالم وهمية انفصلت عن صانعيها البشر، وأصبحت سلطة مطلقة فوقهم، تسيطر عليهم وتهددهم باستمرار برعب سادي من وراء حجب الغموض والإبهام. وأنا رميتها ورائي منذ زمن بعيد، فقد أحرقت في صغري عوالم الجن والغولة والمُذرة، كي أنتهي من الكوابيس التي حولت طفولتي إلى ليل مخيف مليء بالأشباح، وأحرقت أيضاً أنا والناقمون في البلدة العوالم الشيطانية للشيخ حسني والشيخة حسنية، لإنهاء التهديدات السادية بعذابات الجحيم، وأتبعتها بعوالم كرامات الشيخ ياسين الذي لا يستطيع إنقاذ نفسه في لحظة من الزمن، فكيف له أن يُشفي الآخرين من آلامهم العابرة للتاريخ.

والآن من أين تأتيني العوالم الماورائية الجديدة هذه، التي يظن المعلم الذكي أنها تشد ناسفي الأحزمة، وتجعلهم يذهبون إليها برضى وشوق غريب! ثم ما علاقتي أنا بهذه القضية التي لا تهمني لا من قريب ولا من بعيد، وأنا لا أتدخل بأفكار الآخرين وتصرفاتهم ماداموا لا يتدخلون بحياتي، فلماذا يُقحمني المعلم الذكي بكل هذا؟!

سأهرب من كل شيء، وأذهب بعيداً جداً، وقد حررني الطرد

من العمل من آخر القيود التي كانت تعيقني على الانفلات. ولذلك ما إن خرجت من حديقة المعلم الذكي حتى كنت اتخذت قراري بشكل نهائي وحاسم، الابتعاد من هنا بقدر ما أستطيع، أما كيف، وإلى أين، فحتى هذه اللحظة لا أدري؟ ولكن سأبتعد بالتأكيد، وربما سيساعدني صديقي في ذلك. والشيء الوحيد الذي يجعلني أشعر بالتوتر من جراء هذا القرار هو ورد، إذ لا أدري كيف سأفسر لها هروبي، فالمطر يهطل من جديد، وستأتي معه، وهي تنتظرني الآن بالتأكيد لتتسلل إلى شقتي عبر النافذة بمجرد عودتي. أشعر أنني سأضعف فيما لو فكرت أكثر بورد، وقد أتراجع عن الهروب بسببها، فأقرر تناسيها، وسأشرح لها كل شيء عندما ألتقي بها، وينبغي أن تتفهمني، أما كيف، ومتى، فليس لديَّ جواب، فالمهم أن لا أتراجع الآن.

ما إن سرت بضع خطوات تحت المطر حتى شاهدت يد فتاة تلوح لي من نافذة سيارة أجرة، تقف عند ناصية الشارع، أقترب منها فيفاجئني وجود صديقي ولميس في المقعد الخلفي. يبادرني صديقي بالقول مبتسماً "إلى أين تريد الهروب وحدك؟ ألم نتفق في المقهى القديم على السفر إلى بلدتي في أعالي الجبال، وتناول المشروب السحري هناك؟".

أجيبه مسروراً وقد عرفت الآن إلى أين سأهرب "هذا صحيح، وعندما سألتك متى، أجبتني أننا سنسافر فور الانتهاء من قضيتنا مع الروائي نبيل ومن تداعياتها".

يتابع صديقي" والآن أنت انتهيت من تداعياتها، سنسافر فوراً، اركب في المقعد الأمامي ولننطلق مباشرة إلى محطة الحافلات القديمة، ولنهرب معاً من كل شيء هنا".

أسأله بدهشة وأنا أركب جانب السائق "ولكن كيف عرفت أنني انتهيت من تداعياتها؟".

تتدخل لميس بلهجة ساخرة وتقول لي "أنت وصديقك مريضان مختلا العقل، هو مصاب بانفصام الشخصية، أو بالأحرى يمتلك شخصيتين متناقضتين، بارد وعقلاني في الصباح، وانفعالي مشبوب العاطفة في المساء. أما أنت فلديك انفصام تعددي يبعثرك إلى عشرات الشخصيات المتناقضة، وكل منها ينتمي إلى أحد العوالم الغريبة".

أسألها "وماذا يعني هذا أيتها المحللة النفسية العظيمة؟".

تستمر في سخريتها "من كثرة ما ثمل رأسيكما بالنبيذ، وتحدثتما عن الموسيقى والشعر تحت المطر، فقد تبادلتما تحت تأثير الانسجام بينكما طبائع من شخصياتكم المريضة الانفصامية، فأصبح من السهل حدوث نوع من التخاطر بالأفكار بينكما، أو نوع من طريقة التفكير المشتركة بينكما..... لا أدري لماذا التقيت بعد طول انتظار أناساً ممسوسين بالجنون مثلكما".

يفرمل السائق سيارة الأجرة بشدة وبشكل مفاجئ بحيث كدت أصطدم بالزجاج الأمامي، وهو يصرخ طالباً منا النزول، وما إن التقت نظراتي بوجهه الغاضب حتى عرفته، هذا هو السائق الذي أوصلني منذ زمن إلى مؤسسة الأعلاف للدواجن! يستمر مهدداً "عرفتك أيها المجنون، الذي ظننتك ذاهباً إلى المستشفى، أنت تنتمي إلى عائلة مجانين، شخصيات انفصامية متناقضة مريضة! ارحمونا، البلد كله أصبحت ممتلئة بالمجانين، لا نستطيع أن نعمل بهدوء، ونحن لا نجد ثمن رغيف خبز، ولا وقت لنقبل به أطفالنا، نحن نختنق في اليوم عشرات المرات بالجنون حولنا! هناك من يضخ الجنون في البلد كله، كي نثور على بعضنا ليتلهى بجنوننا ويتسلى..... انزلوا بسرعة من سيارتي قبل أن أشعر بالانفصام معكم".

ننزل مسرعين ولميس تنفجر من الضحك، تركض على الرصيف، تقفز تحت المطر وترقص وهي تتغنى بأشعار صديقي.

يقول صديقي "على كل الأحوال وصلنا تقريباً إلى محطة الحافلات القديمة، لنكمل سيراً على الأقدام".

أسأله "ولكن لم تقل لي كيف عرفت أنني انتهيت من تداعيات القضية".

" كما قالت لميس، شيءٌ ما غريب يحدث بيني وبينك، تواصل أو تخاطر، سمعتك تناديني، تستنجد بي، وكأنك تطلب مني أن نهرب معاً، كنت أسمع صوتك في رأسي يضج كأغنية مطر حزينة، يتوسل إليَّ أن أنقذك، ركبت سيارة أجرة أنا ولميس، وأتينا لنهرب معاً، ببساطة هذه هي الحكاية".

تتدخل لميس ضاحكة، وتخاطبني "صديقك قال نصف الحقيقة عما كان يسمع في رأسه، ولكنه لا يخبرك أنه بواسطة التخاطر معك عرف أنك تحبني من تصرفاتي، أنك تحب الأحذية الطائرة، واللوحات المقلوبة، والهجوم المباغت الذي أشنه للحصول على قبلة، قال إنك تحب كل هذه التصرفات، ولكنك لا ترغب بي جنسياً!".

وتوقفت هنا عن الضحك، وانقلبت فجأة إلى فتاة حزينة "جعلتني أفقد الثقة بنفسي كأنثى، هل إلى هذه الدرجة لا يثيرك جسدي ؟!".

" وماذا قال لك صديقي أيضاً؟".

أجابت بوجه ممتعض "كنت أظن أن سهام تشبعك بجسدها الممتلئ، ولكن صديقك قال شيئاً شبيهاً بالهلوسة، شيئاً قريباً من أشعاره المجنونة، قال إنك متخم جنسياً بفتاة الحنين إلى حد الإشباع، ولكن لديك اشتياق مشبوب لعيون قادمة من الحلم، ولم أفهم شيئاً مما قاله".

سرعان ما تساءلت عن مدى التخاطر بيني وبين صديقي، بحيث أستغربت كيف أخذ يلتقط أفكاري المجنونة من مسارب الذاكرة، فأخاطبه "متى عرفت كل هذا وتحدثت به مع لميس؟".

يجيبني "حدث هـذا في أثنـاء عاصـفتك الغباريـة الـتي حبـستني بمكتبي في القبو أنا ولميس، كان الحصار الغباري شديداً في الخـارج بحيث لم نستطع الخروج، وكنت ألمح من نافذة القبـو العلويـة ظـلال رجال ملتحين نصف ملثمين يلـصقون أوراقـاً علـى الجـدران، كانـت اختناقاتك الغبارية المستمرة قوية، بحيث انتقلت بعضاً مـن كوابيـسك إليّ".

" ولميس ؟!".

" هـي الـتي أنقـذتني منـك، مـن هوسـك المجنـون بالأوهـام والتخـيلات، ومـن حـصار عوالمـك الداخليـة، فمـا إن عرفـت لمـيس بالأوضاع الغبارية التي حجزتنا في المكتب حتى قررت استغلال الفرصـة بالكامل. طار حذاؤها بسرعة في فـضاء المكتـب، ولحقـت بـه ملابـسها الخارجية، ثم ملابسها الداخلية، ثم اقتحمني عشقها وأنفاسـها ومجونهـا وأصبحنا جسداً واحداً، ولم تنفصل عني طوال العاصفة الغبارية. ولكنـها كلما كانت تغفو على صـدري تنـهض مرعوبـة مرتعـدة، قالـت لي إنهـا تشاهد كوابيس مجنونـة، تـشاهد صـور رجـال بلحـى طويلـة تـصل إلى الأرض، يركضون في الشوارع، عراة من الأسفل بأعضاء جنسية ضـخمة منتصبة، يمسكونها بيـسراهم، والخنـاجر بيمنـاهم، ويتـصيدون النـسوة. قالـت إن هـذه الـصور المخيفـة تأتيهـا كـشريط سـينمائي كلمـا شـعرت بالارتخاء وأغفت على صدري، قريبـاً مـن رأسـي.... أمـا أنـا فـلا أدري كيف وصلت هذه الصور إلى رأسي!؟".

" وماذا فعلت لها؟".

" عندما أخبرتها أنك ترغب بالهروب من الاختناقات هنـا، أصـرت أن تهرب هي أيضاً، مؤكدة أنها ستتخلص بفرارها من هذه الكـوابيس. لم أشاهد لميس في مثل هذا الإصرار على الهروب من قبل!".

نصل أخيراً إلى محطـة الحـافلات..... القديمـة، كنـت أظـن أن المحطة هي القديمة، وليست الحافلات!

أسأل صديقي "أمازالت مثل هـذه الحـافلات القديمـة موجـودة، التي تذكرني بأسفار طفولتي الأسطورية من البلدة إلى المدينة منذ أكثر من ثلاثين عامـاً، حـافلات يرتـسم علـى هيكلـها الخـارجي خطـوط طولانية متراكبة بكثافة، تتدرج فيها الألـوان بطريقـة متنـافرة، ولكنـها تلفت الانتباه، ويتوسـطها علـى الأغلـب صـورة نـسر كـبير، يـوحي بالعظمة والاعتزاز، فارداً جناحين طويلين، معلناً حمايته للحافلة".

" نعم هذه هي الحافلات الوحيـدة الـتي تـستطيع الـصعود نحـو الجبال".

" ولماذا لا نستقل إحدى الحافلات الحديثة التي تقهر الجبال؟".

" لا تستطيع أن تصمد، فالقديمة هي فقط التي تمتلـك تعاويـذها السرية التي تجعلها تصل إلى حدود الغيوم. لنركب وسترى".

" والتذاكر؟".

" هنا لا تذاكر، فقط التحيات والابتسامات الودودة التي تكـشف الرغبات العميقة بالسكينة والحاجة للسلام الداخلي، هؤلاء فقـط مـن يستطيعون السفر".

ما أن أضع قدمي على درجة باب الحافلـة القديمـة وأدخـل فيهـا حتى أشعر وكأني انتقلت إلى عالم سري سحري، تضيئه زرقـة حالمـة قادمة من مصابيح صغيرة موزعـة علـى مـدار الـسقف، أجلـس علـى كرسي خشبي مغطى بجلد خمري قديم، يعلوه قـوس نحاسـي فـضي للتمسك به في أثناء السير. أنظر حولي مدهوشـاً وأنـا أشـاهد تزيينـات شرقية مرسومة بعفوية، تنتشر في كل مكـان، علـى الـسقف وأطـراف النوافذ، زنانير قلوب حمراء نازفة تتنـاوب مـع عيـون زرقـاء دامعـة، تتناثر بينـهما خطـوط ناعمـة عـشوائية بانحناءاتهـا، نهديـة وبنفـسجية وخمرية بألوانها، تمتد أطرافها المتلوية حولها وكأنها تحنو عليها.

وفي مقدمة الحافلة، ينهض عالم ملـيء بالأسـرار، يكـاد يغطـي الواجهة الزجاجية، فلا أدري كيف يتبين السائق الطريـق أمامـه عنـدما

يقود. يتوسط هذا العالم مجسم لقلب كبير يضج بحمرته، تنزف منه قطرات كثيفة من الدماء الحمراء جراء إصابته بسهم عشق أزرق. وينهض فوقه مجسم عين واسعة بحدقة..... أتوقف مدهوشاً وقد أصابني الذهول، عين بحدقة عسلية تتألق، تبكي قطرات شفافة مكتنزة من الدموع، يرتعش القلب لمرآها، ويود لو يبكي معها، ولفترة طويلة لا أستطيع إبعاد نظري عنها، وكأنها تشدني بحزنها الساحر! ثم يجذبني منظر طاووسين ملكيين متقابلين، يحيطان بالقلب، وقد فرشا ذيليهما حوله وامتدا عالياً ليحميانه، ذيلان أزرقان ببقع رمادية تتمركز في وسطهما نقاط سوداء، مع تناثر ومضات نهدية وبنفسجية وخمرية، تتماوج بين الإخفاء والتألق.

تمتد على طول السقف من الطرفين صور جبال وبحيرات وسموات، تتوزع بينهما رسومات حكاية قديمة. بطلٌ بهيٌّ الطلعة، عاري الصدر، بشعر طويل مرخٍ على الكتفين، يصارع تنيناً لينقذ حبيبته دامعة العينين، المقيدة في قلعة بين الغيوم. وتليها صورة البطل يركب حصاناً أبيضَ مجنحاً يطير به في السماء، وقد ارتمت في حضنه حبيبته التي أنقذها من براثن الوحش، وقد التفت يداها حول عنقه، وتنظر عيناها إليه بولهٍ. وتأتي بعدهما صورة غابات، تحيط بها رسومات فواكه وجرار وقدور مائلة ينسكب منها العسل، تتطاير حولها العصافير وتتقافز حملان صغيرة، حيث يرتاح البطل وحبيبته بعناق حميم، ويحوم حولهما نسر ذهبي يفرش جناحيه عليهما.

تسحرني الحكاية بحيث لا أستطيع رفع بصري عن الرسومات، تأخذني وأصبح جزءاً فيها، فأشعر أنني البطل فيها، وأنني مسافر إلى الأميرة الحزينة.

وما إن دار محرك الحافلة حتى شعرت أن العالم أخذ يهتز أمام السائق وحوله، أشياء تتدلى تذهب وتجيء مع اهتزازات السير، عناقيد عنب حمراء وبيضاء وسوداء متلألئة، أكاليل ورود ملونة، أباريق علاء الدين، دببة صغيرة، قلوب من الخرز الملون، لوحات

معدنية تتوسطها كتابات وتتدلى منها خرزات زرقاء، أميرات صغيرات بقبعات حكايات الأطفال، قباقيب. ومن بين كل هذه الأشياء المتدلاة تتقافز أجراس فضية وذهبية، صغيرة وكبيرة، تصدر مع اهتزازات السير رنينها القادم من عوالم المدى والصدى، فينتظم تراقص الأشياء وفق موسيقاها، وكأنها تعلن السير نحو بلاد الأحلام.

ومع انطلاق الحافلة اهتزت أيضاً مرآتان كبيرتان، مفرودتان كجناحين أمام السائق، تعكسان صور الزخارف والرسومات والأشياء المتدلية، تعكسان الحكاية. ولكن المرايا الصغيرة كانت تتناثر في كل مكان، مرايا متقابلة تنعكس فيها الخيالات إلى أعماق لا نهائية، مرآة داخل مرآة، وكل المرايا داخل المرايا، فيصبح الشيء الواحد الأشياء ذاتها متعددة بلا نهاية، تتطابق تماماً في أشكالها، ولكنها تصغر أكثر فأكثر كلما هوت في الأعماق، فإذا ما حاول أحد اللحاق بها حتى يغوص فيها بسفر لا ينتهي ولا يعود منه..... مرايا تصنع عوالمَ وأحلاماً، يصبح فيها بطل الحكاية الذي ينقذ الحبيبة أبطالاً ينقذون الحبيبات، وكأن الحكاية تتكرر في كل الأزمنة والأمكنة، وكأن الحكاية الصغيرة تنمو مع الحكاية الأكبر، لتظهر في النهاية حكايتنا الأخيرة في مرآة عالمنا تراكماً لكل الحكايات القديمة، فإذا ما انفصلنا عنها نصبح نحن الحكاية ذاتها.

وفجأة يكاد كل شيء يتمزق، فقد ظهرت في كل المرايا صورة السيد لؤي واقفاً على الرصيف، ملوحاً بيده مودعاً ومبتسماً ابتسامته الماكرة. أصبحت الحكاية تحدياً، هو يصر على محاصرتي بقبضته الناعمة المخملية، وأنا أصر على هروبي وقد رميت كل شيء وراء ظهري دون أسف، إلا لورد، التي سألتقي بها في ظروف أفضل. صورة السيد لؤي الواحدة تتكرر في المرايا، متعددة لا تنتهي، وكأن حكاية رجل السلطان المُراَقب، مثلها مثل حكاية البطل الذي ينقذ حبيبته، تعيد نفسها دون نهاية، في كل العصور، وبتراكب للعوالم فوق بعضها. لا تنسحب صورة السيد لؤي إلا بعد أن تتحرك الحافلة مبتعدة عن المحطة، وكأنني أتركه وأترك كل عالمي القديم ورائي.

تسير الحافلة ببطء ويُسر، تجتاز شوارع المدينة منطلقة نحو الجبال، فيما يضع السائق العجوز شريط تسجيل، يصدح بمواويل امرأة عن شاب يخترق الجبال والبحيرات والسموات، لينقذ حبيبته من الوحش الذي اختطفها وسجنها في قصره بين الغيوم. حكاية تُحكى وفي خلفيتها تتهادى تراتيل مبهمة الكلمات، تشحنها بموسيقى تجعل القلوب تنفطر حزناً لآلام العاشق الباحث عن حبيبته..... يغفو الجميع على اهتزازات الحافلة وسحر الحكاية وموسيقاها، وبمن فيهم صديقي ولميس، بل ويُخيَّل إليَّ أن السائق نفسه ذهب مع الجميع في غفوة السفر مع الحكاية، ويجتاز بنا الجبال، والبحيرات، والسماوات..... أريد أن أغفو وأنام عميقاً، ولكنني لا أجرؤ خوفاً من عودة الكوابيس. أنظر العين الدامعة فوق القلب النازف، تشدني الحدقة، الحدقة العسلية، فأنا عاشق يبحث عن حبيبته أيضاً. تالة! أنا ذاهب إليك بالتأكيد.

وفيما تتسلق الحافلة القديمة الطريق الصاعدة الملتوية ينقطع هطول المطر، وتسود في الخارج عتمة رمادية ثقيلة، أمعن النظر عبر النافذة في الجهة اليمنى، فيرعبني مشهد صحراء منبسطة، تمتد بعيداً بعيداً وكأنها دون نهاية، صحراء قاحلة لا شيء فيها، لا بيت، لا شجرة، لا أرى سوى امتداد الرمال، وكأنني ألمح فجأة فيها خيالات ضباع تتراكض إلى جانبنا، تتراكض دون أن تستطيع فعل شيء لنا. أهرب بنظري إلى الجهة اليسرى، فيصدمني منظر كتل صخرية سوداء موحشة تسد الأفق، تتراكب فوق بعضها بعشوائية، فأشعر بأنها تكاد تطبق على الحافلة، وكأنني ألمح هنا خيالات أفاع ضخمة تتلوى فيها، تتلوى وقد فتحت أشداقها وبانت أنيابها، ولكن دون أن تستطيع فعل شيء لنا. يبتسم صديقي وهو نائم، وكأن هواجسي انتقلت إليه بالتخاطر، يخاطبني بهدوء دون أن يفتح عينيه "هل تظن أن العبور من عالم يسيطر عليه الجنون إلى عالم يحرسه الحلم هو من السهولة بحيث لا نثير عداوات ساكني الصحارى القاحلة وساكني

الكتل السوداء الموحشة؟! هناك من يرغب بقطع طريقنا إلى بلاد الحلم، ولكن الحافلة محروسة بسحر الحكاية وحماية النسور التي فردت أجنحتها عليها في الخارج. هل فهمت الآن لماذا لا تستطيع الحافلات الحديثة الأنيقة أن تجتاز برفاهيتها هذه المنطقة نحو الجبال؟ حافلات دون حكايات، ومسافروها دون قلوب ترتعش!".

وتمضي الحافلة، تتوقف بعد مضي ما يقارب الساعتين من السفر أمام حاجز من الضباب الكثيف، ويعلن سائقها انتهاء الرحلة. يترجل الجميع، ألحقهم، وأسأل صديقي "هل وصلنا إلى القرية؟ فأنا لا أشاهد بيوتاً!".

يبتسم صديقي "لا، وصلنا فقط إلى حدود الجبال".

" وماذا يعني هذا؟".

" انتهى مسير الحافلة هنا، إذ إنه بمجرد دخولنا حاجز الضباب تتعطل جميع الآلات والمحركات مهما كانت، حتى ساعات اليد تتوقف عن العمل، لأننا هنا نحن في اللازمن، أو بالأحرى خارج الزمن. وعلينا الآن أن نكمل الصعود سيراً على الأقدام".

أسأله مستغرباً "وكيف سنتعرف إلى طريقنا في هذا الضباب الكثيف؟".

" الضباب سيطهرك، اتبع صفاء قلبك العاشق وامضِ، وستهتدي إلى دربك نحو الحلم، وسنلتقي في نهاية الطريق".

يمسك صديقي يد لميس، ويمضيان بهدوء وثقة. تلتفت لميس نحوي فألمح لها وجهاً آخر، وجهاً أتعرف إليه لأول مرة، هادئ، مطمئن، حالم. تُلِّوح لي بمودة، وابتسامة ناعمة تداعب وجهها، دون أن تقفز أو ترقص، دون أن تبدي سخرية أو اتهامات بالانفصام، تقول لي وكأنها تشد عزيمتي "سنلتقي في نهاية الطريق، لم يعد يمكنك التراجع الآن".

ويختفيان بالضباب الكثيف.

الآن أنا وحيد، وعليَّ أن أواجه الموقف بشجاعة وأتقدم، الضباب يحمل الغموض، والإبهام، والترقب، والغرابة، والدهشة، ويخبئ وراءه المجهول، واللامتوقع، وما يكون خيالاً خلفه، يصبح واقعاً حقيقياً مع الاقتراب إليه، وبمقدار شدة كثافته تنمحي الاحتمالات وتذهب التوقعات إلى المطلق، لتنفتح على اللامدرك بحواسنا الاعتيادية، فماذا سيحدث إذاً والضباب بهذه الكثافة الشديدة أمامي! ومع ذلك أسير بثقة دون تردد، ودون الالتفات إلى العالم ورائي الذي قررت الهروب منه.

أدخل المنطقة السحرية للضباب، منطقة العبور من عالم الفساد والفوضى إلى عالم الطهر والحلم، أخترق كثافة الضباب فتصدمني رطوبة قطنية باردة منعشة تحمل أسرار الجبال العالية، أتنفسها بعمق فتذهب إلى رأسي صحواً متوفزاً. تحيط بي هذه الرطوبة، تغمرني، تتسلل بنعومة إلى ثنايا جسدي، ويمتصها مسامي، فأخلع جلدي القديم، وأوهامي المجنونة، وتخيلاتي المريضة، وكوابيسي السوداء، واستحم بألق الندى الضبابي. يغتسل كل شيء بي، الجسد وانفعالاته، والقلب وارتعاشاته، ومسارب الذكريات والحنين، وعوالم الحلم والاشتياق للمدى والصدى في ذاكرة تستيقظ بانتعاش.

أرجع عارياً بصفاء لقاء الإنسان البدائي الأول مع الغابة العذراء، أصبح أنا لا أنا، فقد تركت نفسي قبل حدود الضباب، وأصبحت هنا أناً أخرى، صافية، ريشة حرة تتراقص في مهب الريح، لحناً يعزفه حنين الريح للجبال، فتردد الوديان صداه، كلمات وجد تتماوج مع قطرات الندى والمدى، ساقية تنتشي الفراشات الملونة على ضفافها بعشقها لزهور الشذى. لا أرى يداً لي، لا أرى شيئاً مني، لا أرى مني ما أنا، فقد توحدت مع مويجات الضباب الناعمة، التي تجتاحني الواحدة تلو الأخرى، تنفجر الأحاسيس والمشاعر المنتعشة، متوفزة ومترقبة للغامض القادم من وراء حجب المجهول. أشعر برغبة في عناق الأبدية واللانهاية، فتطفر الدموع من عينيي،

دموع تطهر الفؤاد وتفتح أبوابه نحو المعاني المختبئة وراء الغامض، تتخايل ومضات متألقة، تصل ولا تصل، فأمضي وراءها بشوق لأصل.

ومع أن الضباب كثيف لا يسمح للنظر بأدنى توجه لتلمس معالم الأشياء وحدودها، إلا أنني أرى بوضوح شديد، أرى عوالمي، وأعرف إلى أين أمضي، وأين أتجه، وكأن صفاء القلب يقودني نحو دربي.

أسير وأبدأ أتبين خيالات أشجار باسقة كثيفة، تختبئ العتمة الباردة بين جذوعها وأغصانها الكثيفة الأوراق، ولكن النور يتخللها متسللاً حبيبات ضوئية في ممرات طولانية، تنبثق من السماء وتتبدد على أرض الغابة. يتحول الضباب شيئاً فشيئاً إلى مطر ناعم، يتراقص القلب له، وتنساب قطراته على الوجه والعنق والصدر، مطر تعلق قطراته بين رموش العينين، فأرى الغابة حولي من خلاله متألقة بأقواس قزح، أقواس تنثني وتتمايل، وتمضي، لتتوالد من جديد مع قطرات أخرى تسقط.

أمضي في الغابة وحيداً، لا أسمع سوى صوت تقافز حبات المطر على أوراق الأشجار، وهسيس الحشائش الرطبة تحت قدمي، ومن صدى لآخر يتردد غناء طيور العندليب ونقار الخشب، يبعد الوحشة ويوقظ الحياة فيها.

وأخيراً أصل إلى حدود الغابة، أخرج منها فتنفتح أمامي سفوح مكشوفة للغيوم المسافرة فوقها، سفوح تتعالى ببطء نحو القمم. يذهلني كل شيء أمام هذا المشهد، السكينة، والضياء، والمدى، وكأنني خرجت من رحم التشكل الجنيني في الغابة لأواجه عالم البدء الأول، عالماً يمتد بمقدار ما يرى القلب، عالماً يغتسل بضياء أثيري وصمت مطلق، ومن التقاء الضياء والصمت تشتعل الشرارة الأولى، فتولد الأشياء والمعاني.

أمضي والضياء الأثيري ينير أمام قلبي دروب النور والمعرفة، يدفعني إلى أن أتساءل، وأذهب في تساؤلاتي نحو اكتشاف المعاني التي تتوالد منها الكلمات، والحركات، والألحان، والأشكال، والألوان، وكل ما تبدعه الانفعالات الإنسانية، فتنمو الحكايات العابرة للأحزان. أمضي والصمت صمت مطلق، صمت يحيط بالصمت، وينغلق على الصمت، صمت ضاج بصمته، يخترقني في المسامات، فتنبعث السكينة الأبدية منه، سكينة تدفع بتوق الإنسان إلى أقصى مدى لمعرفة البدايات والنهايات. من هذا الصمت تأتي السكينة الأبدية، ومنها يطلع الصفاء نحو المعرفة، فيمنح أنامل القلب القدرة على تلمس المعاني المتراقصة في النور، المعاني التي تتوالد منها الكلمات، والحركات، والألحان، والأشكال، والألوان، فتتجاوز الحكايات العابرة للأحزان حدود الأزمنة والأمكنة.

اقترب المساء وأنا أسير نحو القمة، دون شعور بالتعب أو التردد، أغذ السير منتعشاً، صافي القلب والذهن، ألمح أخيراً بيوت القرية، التي تبدو من بعيد كأشكال هلامية الحدود، وكأنها خيالات معلقة على سفح الجبل، يخفيها ضباب عابر بين الفينة والأخرى، متطاولة تتقافز نحو الأعلى بضيائها المسائي. وبقدر ما أقترب تتوضح معالمها، جدران من أحجار رمادية صوانية، ترتفع وتتربع فوق بعضها، يختزن كل واحد فيها ذكرى ما رأى من مطر عانق الأحلام، فشكلت بتتاليها حكايات وحكايات. تنفتح من البيوت نوافذ زرقاء متروكة للضياء، بستائر زهرية شفافة نصف منسدلة تتلاعب بها النسمات، نوافذ مزينة أرضيتها بزهور ألوان قوس قزح مزروعة في أصص حمراء، وتتناثر هنا وهناك كوى تشتعل فيها شموع اقتراب الليل، لتضيء دروب العابرين إليها، فيما عجائز بوجوه منيرة يرتسم على تجاعيدهم تاريخ طويل من المعاناة وخبرات الحياة، يجلسون على مصاطب طينية بيضاء جانب الأبواب الزرقاء، يبتسمون وتدعوني نظراتهم الودودة لمشاركتهم حكايات المساء. وارتفعت على الأسطح

أعلام صفراء، ترتسم عليها قلوب حمراء أصابتها سهام عشق زرقاء، وفوقها عيون دامعة، يُخيَّل إليَّ أنها كلها عسلية، أعلام ترفرف مع نسيمات المساء فتتراقص معها القلوب والعيون، وكأنها تحيا لتشارك الناس أمسياتهم.

وفجأة أجد نفسي وجهاً لوجه أمام صديقي ولميس، جالسين على صخرة مرتفعة صغيرة، يبتسمان لرؤيتي وقد وصلت. يبادرني صديقي "وأخيراً عبرت، خرجت من عوالمك الداخلية المبعثرة المضطربة، ووصلت إلى عالم الحلم الجميل المتماسك عبر ضباب الغابة العذراء، وقد وضعت قدمك الآن على أرض صلبة من الآمال الحقيقية..... الأهل ينتظروننا أمام البيت وقد أعدوا لنا عشاءً ومشروباً يليق بحلمك".

لميس هادئة، ساكنة، لا تتحدث، لا تضحك، ولكن وجهها اكتسب استنارة داخلية تشع كلما مالت نحو صديقي، تتمسك بساعده وترمي برأسها على كتفه، بينما يحنو هو عليها بعطف لم أشهده من قبل لديه. هل وقع صديقي أخيراً في عشق حقيقي، وأحست لميس بذلك، فهدأت واستكانت له؟!

أرفع نظري قليلاً، يفاجئني وجود مغارة، هناك فيما وراء الصخرة حيث يجلسان، عند التقاء قمة الجبل بحدود السماء، تشتعل بأنوار متراقصة. يثيرني الضياء ويشدني، فأطلب من صديقي أن نصعد لنرى. نصل، يذهلني وجود بساط من الشموع المتراقصة الشعلات، بساط لا ينتهي وكأن أرض المغارة زرعت حتى نهايتها العميقة بزهور النور، وعرشت ظلالها المتراقصة على الجدران. وما أن أخطو إلى الداخل قليلاً حتى أشعر أنني أصبحت داخل جنة النور، عالم سحري يشعل الحلم أكثر فأكثر، فأعرف أنني اقتربت هنا منه، اقتربت من ذات العيون العسلية، هنا دربي إلى تالة، تالة التي ناداني صوتها، ورحلة العبور قادتني ببصيرة قلبي إليها.

أسأل صديقي بدهشة، منبهراً ومتلعثماً "ما هذا؟ أين أنا؟!".

يجيبني وكأنه يحنو عليَّ من وقع المفاجأة "هذه مغارة صانعة الحكايا، صانعة حكايا العشاق العابرة للأزمنة والأمكنة، تقيم فيها منذ مئات السنين، وإليها يأتي الباحثون عن الأحلام، لكل عاشقين شمعة لا تنطفئ مادام حلمهما مشتعلاً، ويتمنون، وغالباً ما تتحقق الأمنيات".

" ومن هي صانعة الحكايا يا صديقي، ولماذا تحمل هذا الاسم؟".

" لأنها تصغي للعشاق، فتصنع من أحلامهم حكايا..... هيا لنذهب الآن إلى البيت، ووالدتي ستروي لك كل شيء عنها على العشاء".

نصل بيت صديقي، يجتمع أمامه في الفسحة المعشوشبة نسوة ورجال وأطفال، يصدحون بأغنيات الترحاب وموسيقى القبلات، تنبثق من الجمع امرأة عجوز عركتها السنون، تتقدم نحوي بوجه منير، وتضمني إلى صدرها وتقبلني بود، تقول لي "حدثني ابني عنك طويلاً، قال لي إنك تعاني كثيراً لتصل إلى حلمك، اذهب يا بني غداً باكراً في الصباح لعند صانعة الحكايا، بث همومك لها وتمنى ما ترغب، فتحقق حلمك وتصنع منه حكاية، وربما تكون لك هناك شمعة..... والآن لنجلس إلى العشاء، نطعمك من لحم غزلان الجبال، ونسقيك من مشروبنا السحري، طعام وشراب لم تذق مثله في حياتك".

أسألها برجاء "وتحدثيني في أثناء العشاء عن صانعة الحكايا، وكيف أصل إليها؟".

" سأروي لك، سأروي، أنت هنا صافي القلب بعد اجتيازك الغابة، ومن خلاله ستسمع صانعة الحكايا نداءك ورجاءك، وتدعوك إليها".

وتحت ضوء النجوم المتألقة تشتعل حطبات يابسة على فسحة من الأرض في دائرة من الأحجار الصوانية، ينتصب فوقها لحم غزال معلق على حاملين، يتقلب فوق جمراتها، ترتفع رائحة الشواء في الهواء وتتسلل إلى البطون الجائعة. يأتي الجميع إلى النار ويلتمون حول دفئها ونورها، يجلسون، يقرفصون، يتمددون، يستندون إلى جذع شجرة. يقترب رجل عجوز مني، حاملاً جرة فخارية صغيرة بزنار من قلوب تزينها وكوبيّ خشب قديمين بمقبضين، ويجلس بقربي، يقول وهو ينظر إلى النار "حدثني ولدي أنكم لا تشربون في المدينة إلا نبيذاً، تنتشون به فتذهب عقولكم، وتنامون بعده مخبولين".

ثم يحدق بعيني مبتسماً ويقول "أما هنا فستتناولون شرابنا، تنتشون به فتصحوا قلوبكم، وتذهبون بصفاء وراء حلمكم".

أسأله "لماذا لا يوجد من شرابكم السحري في المدينة؟ وكيف تصنعونه هنا؟".

" هو يصنع نفسه بنفسه..... هناك في أعالي الجبال البكر، تنمو شجيرات صغيرة في ظل الصخور المعلقة بين السماء والأرض، تحرسها النسور بأعشاشها، تمتد جذورها عميقاً في ثنايا الأرض الجبلية لتمتص رحيق رطوبتها السرية، وتتنفس زهراتها حنين الريح والمطر والضياء للتشبث بتويجاتها، فتنمو ثمارها البرتقالية مكتنزة بطعم الأيام وذاكرتها. يتسلق إليها رجال شجعان، أصدقاء النسور، لا يهابون دوار الأعالي، يقتطفون الثمار مع ندى الصباح الباكر، ويجمعونها في سلالهم على ظهورهم، ثم يأتون بها إلى أجران حجرية متطاولة، منحوتة منذ زمن بعيد في صخور القرية قرب بيوتها. أجران نُقشت عليها من الداخل كلمات سحرية قديمة، انمحت معانيها من الذاكرة بعد اختفاء لغاتها، إلا أن الأجران والكلمات وسحرها بقيت، تفعل فعلها بما تتلقاه، دون أن ندري كيف!".

يستمر الوالد العجوز بالحديث وهو يراني مشدوداً إلى ما يقوله "في هذه الأجران المسحورة تُلقى الثمار المكتنزة قبل أن يمسها ضياء الشمس حتى لا يتطاير منها ندى الصباح، وتُغطى بأغطيتها الحجرية الثقيلة. وفي الليل تأتي صبايا عذارى، وعذارى فقط، يشمرن أثوابهن حتى الخصر، ويتراقصن فوق الثمار بأقدامهن الندية الناعمة التي تراكضت على الحشائش الرطبة، يتراقصن ويتضاحكن ويروين أخبار عشقهن، فتنسحق الثمار على إيقاع الحركات والضحكات والأحلام التي لا تنتهي لديهن، فتسيل العصائر, وتلتحم مع سحر الكلمات المنقوشة على جدران الأجران، وما أن يأتي الصباح حتى تكون الثمار قد ذابت بالكامل تحت أقدامهن. نغلق الأجران وندع الشراب يعتق، وبقدر ما يصبح عتيقاً بقدر ما يمتلئ الرأس بالنشوة ويقود إلى الصفاء عند تناوله. نأخذه مباشرة من الجرن بهذه الجرار الفخارية ونشربه بمثل هذه الأكواب الخشبية، وإذا ما مر وقت عليه خارج الأجران دون شربه تطاير سحره في الهواء، ولا يبقى منه سوى الماء..... اشرب يا بني، اشرب، وانسَ أحزان المدينة وفسادها وفوضاها".

يسكب لي والد صديقي كوباً خشبياً مترعاً، وتقترب الوالدة بقطعة لحم من ضلع الغزال ورائحتها تسبقها، أتلقاها وأنا أنظر إلى وجهها برجاء لتجلس قربي. أقضم قطعة من اللحم الأشقر المائل إلى الحمرة، الذي تتصاعد أبخرة اشتعاله بقبلات الجمرات، فتذوب في الفم بدسمها الجبلي الطبيعي، وتترك طعماً لذيذاً فيه لسعة احتراق، فأطلب المزيد والمزيد. أذهب بالكوب إلى فمي، تلامس شفتي حوافه الخشبية الخشنة، فينزلق الشراب البارد إلى فمي، مختلطاً بطعم قضمة اللحم، فتجتاحني موجات من المذاقات المتراكبة بتتاليها، من الحلاوة الكثيفة إلى المرار اللاذع، يصعد بخار إلى الرأس، يدخل في التلافيف والمسارب والثنايا، فتنفتح بوابات الذاكرة والأحلام. تتنامى مع الشراب المشاعر والانفعالات التي

امتلأت بها في أثناء عبور ضباب الغابة، فتكبر وتتكثف، وكلما شربت أكثر أطفو فوق الزمان والمكان، فأطلب المزيد والمزيد.

وأسمع صوت الوالدة العجوز تروي :

" كانت هناك يا بني في زمن بعيد بلاد سعيدة، تحيط بها الجبال الشاهقة بغاباتها الواسعة الكثيفة والبحيرات الكبيرة بمياهها العميقة، فتحميها من الغزاة الطامعين، ويعيش الناس فيها بوئام ومحبة، يعشقون المطر الذي تحيا به الغابات وتنتعش القلوب. وجاء زمن أسود، نزل فيه تنين خرافي من السماء، وأخذ يحوم حول الغابات نافثاً اللهب من فمه، فيتسلى بإشعال الأشجار والبيوت والناس. وطلب الوحش من الناس أن يعبدوه بدلاً من عشق المطر، وهددهم بالحرائق المدمرة إذا رفضوا، بل وزاد عليهم بطلب أضحيات من الصبيان البكر والصبايا العذراوات بعمر الورد. وذات مرة شاهد الوحش الأميرة الحسناء بنت الملك على شرفتها تداعب قيثارتها بأناملها الناعمة، وتغني الأشعار بصوتها العذب. أثارته بحسنها وغنائها، فاختطفها وسجنها بقلعته العالية في رؤوس الجبال. حزن الملك على ابنته حزناً شديداً، وأعلن أنه سيزوجها لمن ينقذها من الوحش المخيف القادم من السماء، فلم يجرؤ أحدٌ من نبلاء بلاطه المتخاذلين على مواجهته خوفاً من نيرانه السماوية.

وكان هناك حطاب عاشق للمطر ولصوت الأميرة، يصله يومياً من الشرفة إلى الغابة القريبة حيث يعيش في كوخه الخشبي ويعمل في جمع الحطب وتكسيره. لاحظ فجأة انقطاع غناء الأميرة وعزفها من ناحية القصر، ومن ثم تناهى إليه صوت بكائها الحزين من سجنها العالي في الجبال، وكأنها تناديه وتستنجد به. انطلق الحطاب بصدره العاري وشعره الطويل المنسدل على كتفيه إلى القلعة العالية المحصنة بمساعدة صديقه الحصان المجنح، واجه الوحش متحدياً، وقال له "أنت ونارك أوهام سقطت علينا من السماء، سيطرتَ على الناس

البسطاء بالخوف، وسأطفئك إلى الأبد بمطر الحياة وأعيدك إلى العدم".

وفي ثوان انطفأ الوحش الخرافي وناره بقطرات المطر التي رماه بها الحطاب بعد أن حصل عليها من غيمة رمادية مكتنزة جاءت لمساعدته، واختفى من الوجود والكوابيس. عاد الحطاب بأميرته على حصانه المجنح، ففرحت الغابات، والطيور، والحكايات، عاد بالأميرة التي عشقته بشغف، وتولهت به لقلبه المشتعل بغنائها والملبي لندائها، فقررت الذهاب معه مباشرة إلى الغابة، لتنام على صدره العاري ليل نهار، بعيدة عن نبلاء بلاط والدها المتخاذلين".

تعطيني الوالدة قطعة لحم، الواحدة تلو الأخرى، ويسكب الوالد الشراب في الكوب، المرة تلو الأخرى، وأنا أطفو بالنشوة وأشعر بالاشتياق الشديد لشيء مبهم، أحاول الوصول إليه دون أن أدرك ما هو! أسأل الوالدة "كأنني تعرفت على شيء من هذه الحكاية في رسومات الحافلة القديمة التي أقلتنا إلى حدود الجبال، وتلمست آثارها في صفاء الغابة بين دفقات الضباب، حيث الخيالات تصير حقائق".

" أنا أروي لك الحكاية الأم، التي توالدت منها كل الحكايات عبر العصور، وأنت تتحسس بصماتها في كل مكان".

أقول مبتسماً "وانتهت الحكاية طبعاً بسعادة يا والدتي، تزوج الحطاب الشجاع الأميرة الحسناء وأنجبا الأطفال، وعاشوا جميعاً في محبة ووئام، كما تنتهي كل الحكايات الجميلة التي تُروى للأطفال".

تقاطعني الوالدة وهي تستغرب من بساطتي "لو انتهت الحكاية بهذه الطريقة لما بقيت في الذاكرة، حكاية تروى في الأمسيات من جيل إلى جيل، وتعيش في كل الأزمنة والأمكنة".

فأسألها متلهفاً "لماذا؟ ماذا حدث بعد ذلك؟".

" ساء الملك المتعجرف أن تعشق ابنته الأميرة رجلاً من عامة الناس، ونسي وعوده بتزويجها للبطل المنقذ، واصطف إلى جانبه نبلاء بلاطه الطامعين بعرشه من خلال زواج ملكي، وساء كهنة الوحش الخرافي انفضاض الناس عنهم وانقطاع الأضاحي والهدايا إليهم باسمه، فتآمروا جميعاً على البطل المنتصر، الملك والنبلاء والكهان، فدعاه الملك إلى وليمة في القصر ودس له فيها السم القاتل".

" وانتهت الحكاية هنا بموت البطل المغدور وجنون الأميرة العاشقة التي ألقت بنفسها من سفح جبل عالٍ".

" لا، الحكاية الحقيقية ستبدأ من هنا، فقد اعتزلت الأميرة الناس، وانزوت في المغارة الواقعة في رأس الجبل، ومنذ غابر الأيام والأحلام تبكي وتبكي عاشقها المغدور به، فتنمو من دموع حزنها شموع النور التي لا تنطفئ، لتضيء الحلم للعاشقين. ومن وقتها يكره العشاق الحكام الظالمين، الذين يعدون شعوبهم بالآمال الجميلة ثم ينقلبون عليهم، ومن وقتها ينبذ العشاق الكهنة الذين يستقوون بأوهام السماء على أحلام البسطاء. ولكن العشاق أخذوا يعشقون المطر أكثر، لأنه أطفأ نيران الوحش الخرافي وأوهامها، المطر الذي جمع قلبي البطل والأميرة العاشقين، متحدين نذالات الحكام والكهنة. وأخذ العشاق يزورون الأميرة الباكية في المغارة، التي اختزنت حزن العالم كله في صدرها وحولته إلى حكمة عشق، يزورونها ويشكون لها لواعجهم ويبوحون لها بأحلامهم صعبة المنال، فتصنع من عشقهم حكايات تعيش في الذاكرة، تصنع حكايات وحكايات لكل الأزمنة والأمكنة..... ولذلك تُسمى صانعة الحكايا".

" وبعد أن بكت طويلاً يا والدتي، أصبحت عجوزاً وماتت".

" مسكين أنت يا بني، صانعة الحكايا لا تشيخ، ولا تموت، مثل حكاياها، صانعة الحكايا هي حية في القلوب مادامت أحلام العشاق

تحتاج إليها، وهذا ما سيستمر دائماً في كل العصور. يقولون إنها لازالت تعيش في أبهى حلل جمالها، صنعت مملكتها في مسارب الجبل تحت المغارة، تخرج للجميع وتستمع لهم عندما يزورون المغارة، ولكن لا يراها إلا العشاق الذين يعيشون أقصى لوعة الاشتياق لأحلامهم، التي تبدو بعيدة المنال. تظهر لمن ترغب فقط، وعندما ترغب فقط، ويقال إن من يراها لا يتماسك ولا يصبر، يعشقها ويكاد أن يمسه الجنون من بهائها".

" يا والدتي حزين أنا جداً لصانعة الحكايا، أريد أن أكفكف دموعها وألتقطهما بأناملي وشفتاي وارتعاشات قلبي، أتمنى أن أنتشلها من أحزانها العميقة عمق العصور!".

" لا تحزن لها يا ولدي، احزن لحزنك وألمك، هي قوية ورائعة، تلمس الآخرين بحنانها فتعطي المعنى لأحلامهم، ولكن لا أحد يمتلك القدرة على اكتناه أسرارها".

" يا والدتي، أريد أن أبكي وأبكي، لا أعرف لماذا؟".

تُمسد الوالِدة رأسي المحموم، وتقول "شربت الليلة كثيراً يا بني، ابكِ مِلءَ قلبك، واذهب بمنامك إليها".

تطفر الدموع من عيني، وقد تجمع في صدري كل بكاء العالم وحزنه، وأكاد أن أختنق بهما، أشعر بتثاقل مهدهد في جسدي يدفعني إلى أن أتمدد أرضاً، أتمدد على العشب بشوق لرائحة رطوبته المنعشة للأحلام. أشعر بدوار جميل في رأسي يدفعني لغفوة حزينة على كتف أغنية قادمة من مكان ما هناك في الأعالي، قادمة من رأس الجبل. ومن بين اختناقات الدموع الطالعة بين الرموش، أرى الناس حولي خيالات، خيالات تتمايل وتمضي غافية في الضباب، وقبل إغماضة العين الأخيرة ألمح لميس تنام مستكينة على صدر صديقي، الذي يداعب شعرها بوداعة، بحيث لم أراهما بمثل هذه الشاعرية من قبل، ألمحهما متمددين على غيمة من الضباب الكثيف، تعلو بهما

قليلاً عن العشب، وتتأرجح بهما بنعومة وكأنها تهدهدهما بأغنية نوم طفولية.

وفي سقوطي الهادئ في غفوتي، تتصاعد الأغنية القادمة من فوق، من صوب المغارة، تصلني كنداءات مبهمة تشعل الاشتياق في أضلعي، تهدهدني بهمساتها الناعمة، وكأن نشيج قلبي وصل إلى هناك بصمت، فتدعوني كي أكفكف دموعي. أترك جسدي ينفلت مني أرضاً، أتركه غافياً على العشب، وأنهض أنا، شيئاً مني وقلبي، ألملم نفسي من جسدي وأطفو في الضباب، أسير مسحوراً دون أن تلمس قدماي الأرض، أسير وصفاء في القلب يشتعل، ودموع في المآقي تتفجر، وأنا مشتاق، وأمضي بسكينة إلى المغارة.

وأخذت تمطر مطراً ليلياً ناعماً، ينتعش وجهي برذاذه البارد، أتهادى إلى الأمام ولا أرى سوى مويجات ضباب ناعمة، تجتاحني وهي تتراقص أمامي، أخترق غموضها السري إلى النداءات المبهمة خلفها..... وألمحها، ألمحها عند باب المغارة، أراها، صانعة الحكايا! أراها بين مويجات الضباب بكل جمالها، وبهائها، وعظمتها، وسموها، وجلالها، ورفعتها! تتهادى خيالاً وحقيقة! تملأ المكان بحضورها، تُحول الليل حولها ألقاً نورانياً مقدساً.

أميرة حقيقية، أميرة تجلس على الصخرة عالياً أمام المغارة بكبرياء وشموخ الجبل وراءها، لكنني لا أرى ملامح وجهها بوضوح، فالضباب يروح ويجيء ليزيد ألق الغموض والدهشة فيه. يذهلني ثوبها الملكي الذي يفترش امتداد الأرض إلى الأسفل، فيتطاول فوق العشب ورطوبة الليل وسكينته دون نهاية، ويذهب بعيداً إلى المدى كمواويل أغنية عاشقة نحو صداها. تبهرني ألوانه الحالمة التي تتداعى وراء بعضها بتألقات متتالية، تشف إضاءات زهرية، وليلكية، وبنفسجية، فتملأ الفضاءات الضبابية حولها بعوالم حالمة ملونة. يتسلق بصري ثوبها، إلى صدرها العالي الناهض، فأتهيب،

صدراً يوحي بالعظمة، يتكامل بسموه مع غطاء أبيض ارتمى كتاج ملكيٍ على رأسها، في حين انسدل شعرها الناعم الطويل من تحته طويلاً على كتفيها، ليصل العشب والندى. ترفع يدها فأرى أساور ملونة، مزينة برسوم متتالية لقلوب حمراء نازفة وعيون زرقاء باكية، تصدر لحن خشخشة ناعمة معلنة انفتاح غموض مبهم، ترفع يدها لتمسح مويجات الضباب عن..... وجهها، فألمح طيف ابتسامة على شفتيها.

لا أقوى على الحركة مذهولاً، أسقط أرضاً على ركبتي، يبكي القلب، وتبكي الذكريات الأحلام والأيام، تتهدج الأنفاس وتتسارع وتنفعل المشاعر بعفوية، أرفع بصري إلى وجهها الهادئ الناعم، فيمنحني طيف ابتسامتها بعضاً من السكينة والهدوء، وفجأة أرى عينيها بوضوح، فأهمس مندهشاً "أميرتي، عيناك، عيناك عسليتان ساحرتان!..... عسليتان كما في الحلم الأبدي القادم من عمق الغابات بأسرار الضباب فيها، عسليتان كما في المعاني التي تصنعها قبلات الصباح للأشياء المنفلتة من سير الزمان".

تبتسم الأميرة صانعة الحكايا، وكأنها تعرف من قبل ما أقوله، تبتسم وكأنها تشجعني على الاستمرار، فأهدأ وأتماسك، وأتابع همسي "أميرتي، بحثت طويلاً عن عينيك العسليتين، عبرت الجبال، والبحيرات، والسماوات، كي أصل إليك، أعبرهما منذ ماضي الزمان وأنا أسير إليك. حزني عميق من الفوضى والخراب اللذين يحاصراني، أكره السلطان ورجاله المختبئين في كل الزوايا، أكره أوهام السماء التي تهددنا بالنيران، هي وكهنتها الموتورون، يحاصرونني باستمرار ولا يتركوني أبحث عنك..... وأنا أريد اللجوء إلى عينيك العسليتين لأنجو".

تسمعني، تشع ابتسامتها أكثر، تتألق نجيمات على أسنانها، تفتح شفتيها، تنطق، تنساب الكلمات، فيأتي صوتها من كل الاتجاهات موسيقى عذبة، أسمعها بكل جوارحي، فتخترقني في

الصميم "أعـرف..... منـذ أن عـبرت الغابـة في الـضباب وأنـا أصـغي لأنات قلبك، يصلني نشيج حزنـك العميـق، مخترقـاً صـمت الجبـل الأبدي، أتحسس توقك لحلمك وأنـت تتبـع والـدة صـديقك لتعـرف حكايتي بكل تفاصيلها. لن أصنع من عشقك حكاية، فأنـت الحكايـة. أتفهم صراعك الداخلي بين الحنين الذي يشدك إلى الماضـي والحلـم القادم من المستقبل، وأستشعر ضياعك بينهما".

" أميرتي، أتمنى لـو أصـير حطابـاً، وأطـير إليـك علـى حـصان مجـنح، وأحميـك برمـوش العيـنين، وخفقـات الفـؤاد، وأغنيـات المساء، أعود بك مع غناء المطر إلى الغابات التي تهفو لصوتك وأنت تغني، وأحطم لأجلك كل القلاع المسحورة والمحمية بأوهام السماء. ثم أجلـس متـأملاً بهـاءك دون نهايـة، أتـنفس ابتـساماتك، وأحـرس نبضات قلبك، وأُقبـل أنفاسـك وهـي تخـرج مـن صـدرك، وأجمـع تنهداتك في شغف الحنين لأصابعك وهي تداعب القيثـارة، وصـوتك يـصدح شـعراً. أنـا العاشـق للمعـاني الـتي تبعثرينـها وراء الهمـسات والنـداءات، أنـا كـل الحطـابين والبـسطاء، الـذين تولهـوا بـك، وبحكايتك، وركعوا عند عتبة مغارتك..... أعشق التوحـد بأنفاسـك، وهمساتك، ورعشاتك، أتوحد بألق حـضورك وتخـاطرك، أذوب في ضياءك وأذوي، فلا أعـود أنـا، وإنمـا أنـت فقـط، أمـيرة الحكايـات والأحلام".

ألمح ألقاً في العينين العـسليتين، يتبعـه طيـف دمعـتين، تهمـس مشدوهة "أشعر أن قلب بطلي المنقذ يختـلج بـين أضـلاعك، وكأنـك تعبر الأيام والمسافات كلها لتـصل إليَّ، كأنـك حكايـة بطلـي، تعـود لتشعل قلبي من جديـد، وأنـا كنـت أظـن أنـني قـد أغلقـت الحكايـة الكبيرة، وتركت الحكايات الصغيرة تتوالد منـها، لمـاذا تـوقظني مـن إغفاءاتي مع أسرار الجبال؟".

أشعر بأميرتي منفعلة متنهدة، فتضطرب الأنوار خلفها في المغـارة،

تتطاول الشموع منها بشعلاتها نحو السماء، فتنير الليل بضياء ينفتح نحو السماء بنجومها، فأندفع أكثر بالتعبير عن اشتياقي "أنت آلهتي، وأريد أن أُنْشِأَ محراباً لك.....".

" لا، توقف، أنا لست إلهة! لا تجعل عواطفك المشبوبة تذهب بك بعيداً، لا تدع عوالمك الداخلية تنهار، وتنفصل عنك لتتحول إلى عوالم ماورائية تستبد بك، الآلهات يفعلن ذلك، تعشقهن وتعبدهن، ولكنهن يبقين بعيدات في السماء. أنا عاشقة عابرة للتاريخ، أنا حكاية، وإذا كنت تعشقني فاجعل عوالمك الداخلية تتحول إلى حكاية، والحكاية إلى حياة حقيقية، ولكن إذا ما حولتني إلى عالم ماورائي حيث الأوهام فستفقدني، لأن الحكاية والوهم لا يلتقيان. الحكاية تأتي من الواقع، والوهم يأتي من الهروب من الواقع".

" أميرتي، أنا ضائع وأخاف أن أفقدك! صديقي يقول لي إن ما يحيط بي من خراب وفساد يدفعني إلى العوالم الماورائية دون إرادتي، وأنا لا أرغب بذلك..... لا تتركيني، وساعديني، وجدتك بعد أن بحثت عنك منذ قدم التاريخ، أنت أميرة أحلام كل المقهورين مثلي، فامسكي بيدي ودعيني في مطر الحلم".

" عليك أن تجتاز عالماً ماورائياً، وسأعطيك بصيرة تساعدك على عبوره بسلام، ولكن عليك أن لا تقع في فخ إغراءاته..... فإذا نجوت منه، فستكون أهلاً لتكملة حكايتي العابرة للأيام، وستجدني بانتظارك".

" وماذا أفعل الآن؟".

" عليك أن تعود إلى المدينة وتواجه الواقع، وتواجه العالم الماورائي الذي أصبح جزءاً منه، وسأنتظرك هناك بعد العبور، وقلبي يحدثني أنك ستنجح، مثلما نجحت في عبور عالم حكايتي..... وربما تأتي بعدها إلى حكاية مملكتي في مسارب الجبل، وتصبح جزءاً منها!".

" وكيف ألتقيك يا أميرتي؟".

" لقد وصلت، والتقيت بي بعد أن أيقظتني، أنا كل العاشقات للحالمين أمثالك، أنا تالة التي سمعت نشيج قلبك ونادتك من لوحة العيون العسلية".

" وأين تالة؟".

" أنا تالة، أنتظرك تحت المطر في أحد شوارع المدينة، وسنلتقي بعد عبورك العالم الماورائي".

" ولكنك أنت الأميرة؟".

" أنا الأميرة هنا، أستمع إلى نداءات العاشقين، وأنا هناك تالة التي ستأتيك رائعة تحت المطر بقدر حلمك. ستأتي تالة فقط إليك، ستكون حقيقية، تسمو عالياً ببساطة حياتها اليومية وبكبرياء قلبي، اذهب، سأكون معك تالة".

" أميرتي لا تتخلي أبداً عني..... أنا أعشقك أنتِ".

" وأنا..... أعشقك أنتَ".

* * *

الحوريات

أنا عاشقٌ، عاشقٌ صانعة الحكايا، تشعل بي الحلم الإنساني بتوقه العميق لاكتشاف المعاني العابرة للأزمنة والأمكنة، واستطعت بعشقي لها أن ألمس شغاف قلبها الغافي في ذاكرة الأيام، فاستيقظت من حكاياتها في غمامات الضباب الليلي المشع بالرؤى والآمال، نهضت من أحزانها القديمة المختزنة في صدرها منذ بكاء العاشقين الأوائل، وأتت إلى حكايتي وتلمست أحزاني..... وقبلت عشقي، وانتشلتني، وأنا ذاهب إليها الآن مهووساً بعشقها. وبما أن أصلَ الحكاية دائماً حقيقة وواقع، فهي تنتظرني هناك، في المدينة، تنتظرني تالة بتفاصيل حياتها اليومية، التي ناداني صوتها ذات مرة، فدفعتني للبحث عن صانعة الحكايا.

أعود من قرية صديقي وقد تلمستُ حلمي، فاشتعلتُ بجنون اكتشفت به نفسي، اكتشفت التوق العميق في داخلي للاندماج بالمعاني من خلال السكينة والصفاء، وقد تنفستهما في عيني صانعة الحكايا العسليتين وفي ابتسامتها، فأصبحت قادراً أكثر على تلمس المعاني المستترة وراء الغموض والإبهام.

أشعر بالسكينة تغمر قلبي بابتسامتها، والصفاء يظلل قلبي بنظراتها، وكأنني انبعثت من جديد ممتلكاً قوى سحرية قادرة على اختراق الحجب والأستار. انبعثت من جديد متألقاً بعد عبور ضباب الغابة السحري، وصمت الجبل المطلق، وبعد الاستماع إلى حكاية العجوز العابرة للتاريخ، فإذا بي أنا نفسي بداية حكاية، اشتعلت بها بشوق شديد للوصول إلى حلمي، فتطاول اللهيب ومس قلب صانعة الحكايا، لتستيقظ، وتتقبل عشقي. وقالت لي إنها ستراني هناك، في المدينة، من خلال تالة، حكاية صانعة الحكايا..... ولكنها اشترطت أن أجتاز عالماً ماورائياً غريباً عن أحلامها، كمرحلة اختبار ومواجهة

مع ذاتي، فإما يسطو عليَّ ويغتصبني، أو أنجوا وأصبح أهلاً لنستمر معاً في حكايتنا، أنا وصانعة الحكايا، أنا وتالة.

نعود بالحافلة القديمة، أنا وصديقي ولميس المستكينة أبداً على صدره، تهتز بنا طوال الطريق برتابة آلية هادئة، كهدهدة وليد صغير يغفو على صدر والدته الحنون، فيغفو الجميع. ولكن قبل أن أدخل غفوتي أرحل وأجول في ما حولي، وفيما أغوص في الإغماضة الأخيرة يتراءى لي كل شيء حولي خيالات تتراقص وتتقافز بهدوء وصمت، ورويداً رويداً تنمحي الصور والرسومات من الحافلة، وتختفي الأشياء الجميلة المتدلية في مقدمتها، ليحل مكانها وجه صانعة الحكايا بعينيها العسليتين المتألقتين، تبتسم وتمنحني الثقة والطمأنينة. وأينما أدرت قلبي في أي اتجاه أجدها أمامي، أنظر عميقاً في عينيها العسليتين فتزداد ابتسامتها عشقاً، ويخفق قلبي مرتعشاً باقتراب التوحد بها.

" عشقي القديم، أريد أن أصل إليك، أن أنظر إلى عينيك فأذوب فيهما، أضمك وأتوحد بك؛ فأكتشف معاني الكلمات والأشياء معك. سأذهب لأجلك عميقاً في عوالمي الداخلية لأعبر التجربة في العالم الماورائي بسرعة وأختبرها، وسأجتازها بنجاح لأصل إليك، لن أسقط هناك وسأعود إليك بالتأكيد".

أقرر أن أذهب بعيداً في غفوتي، بعيداً في اهتزازات الحافلة التي تأخذني موجاتها عميقاً، لأغوص في أحد عوالمي الداخلية، وأقفز منه إلى عالم ماورائي. ولوهلة قبل أن أغوص، أشعر بيد تتلمس يدي وتمسكها، يد ناعمة واثقة تبث بي مزيداً من السكينة والصفاء، وطيف قبلة يلثم شفتي، وإذا بهمس صانعة الحكايا يأتيني في القلب واضحاً "اذهب وانتصر على نفسك، أنتظرك بشوق شديد، لا تدعني أفقدك بعد أن أيقظتني".

وأذهب في عالم ماورائي.

أستيقظ تحت شجرة وارفة الظلال، شجرة كبيرة عالية تذهب أغصانها بعيداً بعيداً، وكأنها بلا نهاية. أجد نفسي متمدداً على عشب رطب منعش، تداعب وجهي أشعة ذهبية ناعمة، تتسلل من بين تراقص أوراق الشجر التي تتلاعب بها نسيمات هواء، فتصدر خشخشة محببة. أحاول أن أستعيد إدراكي لأعرف أين أنا، فيتناهى إلى سمعي صوت خرير مياه، قادماً من تساقط شلالات غير بعيدة، تسقط من الأعالي في لجة بحيرة واسعة، فتصلني موسيقى تراقص مياه تتداخل مع تغريدات طيور تتنقل بين الأغصان.

أنهض ولا أدري أين أنا، أسير نحو صوت الشلالات، فألمح من بعيد بحيرة تخفيها أجمات كثيفة من أشجار الصفصاف والزيزفون. وما أن أقترب منها حتى تبرز فجأة فتاة بعمر الورد، بما يقارب الثامنة عشرة من عمرها، بقامة مسكوبة على قدمين حافيتين، أستغرب تراكضها نحوي عارية بالكامل، بثديين مكورين ناعمين يهتزان نحو الأعلى والأسفل مع قفزاتها الصغيرة التي تتقدم بها، وشعر أسود تقطر منه مياه البحيرة التي خرجت منها، ينسدل على كتفيها وتتطاير خصلات رطبة منه بتثاقل مع النسائم الخفيفة. تقترب مني أكثر فأشاهد بطناً ضامراً لدناً مغرياً، وإلى الأسفل منه زغب عانة أسود يخفي تحته عتمة ليل صغير. تصل إليَّ مندفعة وترتمي على صدري بشوق كبير وأنا مذهول منها، تعانقني وتلثمني في كل مكان من وجهي دون أن تعطيني الفرصة لأبدي ردة فعل ما، في حين أشعر على ثيابي بلل قطرات المياه المتساقطة من شعرها وجسدها. تهمس بفرح مجنون غريب "نحن ننتظرك منذ زمن طويل، لماذا تأخرت؟".

أبعد الفتاة عني بصعوبة دون أن أتمكن من فك يداها عن عنقي، وأسألها وأنا تحت تأثير المفاجأة "أين أنا؟".

تجيبني بغنج ودلال ورأسها الرطب يتمسح بصدري "أنت هنا في النعيم الفردوسي، قررت أن تنتقل إلينا أخيراً من الحياة الدنيا،

فأتيت، ونحن ننتظرك هنا منذ زمن طويل. منذ أن ظهرت إلى الوجود ونحن ننتظر قرارك بالانتقال إلينا، وها أنت قد أتيت. نعرف أنك حلمت بفتيات جميلات في حياتك الدنيا، وعانيت كثيراً في محاولة الوصول إليهن، وكنت صادقاً مع نفسك في حصار الأيام حولك، مما جعلك تتعذب كثيراً وتعيش متقشفاً دون أية متعة، وسنعوضك الآن عن كل الحرمان الجسدي والآلام التي نتجت عنه، سنجعلك تعيش ليالي لذة وإثارة لم تذقها في حياتك".

أتأمل الفتاة العارية وهي تضمني وقد نقلت سكينة ما إليَّ، فأكتشف صفاء جسدها الجميل، وروعة ثدييها الصغيرين اللذين استقرا الآن هادئين متدليين على صدرها الناعم، أتنشق رائحتها، مِسكٌ وزعفران وعنبر، أشمها دون أن أدري من أين أتت معرفتي بهذه الروائح. أنظر بهاء عريها المثير، الناعم اللدن، فأشعر بإثارة، تزداد عندما أصل إلى عضوها المختبئ بحيائه. ولكن ما أن ينزل بصري إلى رجليها حتى يصدمني منظرهما، وكأنني ألمح مخ ساقيها من تحت الجلد والعظم، فأصاب بتقزز ونفور، فتذهب الإثارة وتطير من رأسي. وسرعان ما تنتقل خواطري إلى الفتاة، فترجع قدميها إلى قوامهما ولونهما الطبيعي، ولكن الإثارة كانت قد ذهبت وطارت.

وجه الفتاة محبب إليَّ، وكأنني رأيته في مكان ما، والفتاة كنت أعرفها في زمن ما، فأسألها "من أنت؟ وكأنني أعرفك والتقيت بك مراراً!".

تجيبني وهي تغمغم كقطة صغيرة "ألا تتذكرني! أنا إلهام التي كنت تقف من أجلها في رأس الحارة تحت المطر، نتبادل الرسائل ونلتقطها من قرب برك المياه الصغيرة في الشارع. وبدلاً من هذه البرك الصغيرة فأنا أطلع الآن إليك من بحيرة حقيقية كنت أستحم بها لأجلك".

" ولماذا أنت عارية هكذا بالكامل، ألا تشعرين بالحياء، ألا يوجد حولنا أحدٌ ما؟".

" ألم تستوعب حتى الآن أين أنت! أنت هنا في النعيم الفردوسي، وهذه منطقتك المصونة من العيون، لا يحق لأحد الدخول إليها، وأنا الحورية إلهام ذات الثمانية عشرة ربيعاً، الأولى التي أستقبلك".

" ولكن إلهام التي أعرفها كانت في الرابعة عشرة، ثم غابت عني وسمعت أنها تحولت في نهاية عمرها إلى مخبرة أمنية تكتب التقارير بمن حولها!".

" أمسح هذه الذكريات الأرضية من ذهنك، الحياة الدنيا وهم وخيالات زائلة، والحياة الحقيقية هي هنا فقط، ونحن لا نتجاوز فيها عمر الثالثة والثلاثين. وعلى كل الأحوال سأحضر لك الحورية إلهام ذات الأربعة عشر ربيعاً".

ودون أن تنادي تبرز من البحيرة فتاة صغيرة عارية في الرابعة عشر من عمرها، يقطر الماء من جدائلها وجسدها، وبالكاد تكور ثدياها ونما جسدها، تركض نحوي بمؤخرة طفولية، وتفاجئني أيضاً بارتمائها على عنقي وبقبلاتها الحارة، وتقول "مع كل رسالة رميتها لك قرب برك الماء الصغيرة كنت أرغب أن أطبع هذه القبلات على وجنتيك وشفتيك".

أقف مذهولاً بالكامل بين الفتاتين العاريتين، واحدة صغيرة بالكاد تنمو مفاتنها، والثانية طفح جسدها بالأنوثة والإثارة، تقطع ذهولي إلهام ذات الثمانية عشر ربيعاً "أنت هنا في النعيم، كنت ترغب بنا وتتخيلنا كلما مارست الجنس مع ورد، وها نحن أمامك حوريتان حقيقيتان كما كنت تتخيلنا..... وقد ظهرت أنا لك من البحيرة في البداية حتى لا نسبب لك صدمة برؤيتنا جميعاً، نحن الآن أمامك حوريتان، ولكن أنتظر قليلاً".

وفجأة تخرج اثنتا عشرة فتاة أخرى من البحيرة عاريات بالكامل أيضاً، ولكن بأعمار مختلفة، ويحملن كلهن وجه إلهام. أعرف

الفروق بين أعمارهن من خلال حجم أثدائهن الناهضة، وتكور مؤخراتهن الجميلة، وامتلاء مثلثهن السفلي بعضو يظهر ويستتر تحت شعر العانة مع كل تمايل لهن، وهن يتراكضن نحوي ويرتمين عليَّ.

تقول لي إلهام ذات الثمانية عشر ربيعاً "نحن بالمجموع أربع عشرة حورية تشكلنا في الأعمار التي تشتهيها، بدءاً من إلهام ذات الأربعة عشر ربيعاً، ولن تتجاوز الكبرى منا الثالثة والثلاثين لكي نبقى في حسننا وبهائنا لأجلك، ولكن إذا رغبت يمكن أن يتشكل لك استثناءً جسد حورية وتصبح جاهزة لممارسة الجنس ابتداءً من عمر التاسعة، جنس طفولي ولكنه حقيقي، فهذا يعود لرغبتك. ونحن هنا جميعنا أبكار لم يمسسنا إنس أو جان من قبلك، مطهرات خالصات لك. أما حكاية المخبرة الأمنية فهي وهم أرضي لخيال كان يعيش على الأرض، فانسها هي وحكايات تقاريرها، فنحن هنا لسنا إلا حوريات، نعيش لوصالك ومتعتك الجسدية وملذاتك الحسية. ولا تخف فبالرغم من عددنا لا نغار من بعضنا، فكلنا قلب واحد تملكه، ويلهج بالعشق لك".

يقتربن جميعهن مني ويكدن أن يطبقن عليَّ بأجسادهن العارية اللدنة المشتعلة أنوثةً، أحاول أن أبعدهن عني وهن يحاولن نزع الثياب عني والتهام جسدي، فأصرخ بإلهام ذات الثمانية عشر ربيعاً التي كدت أن أضيعها وسط زحام الأجساد العارية "أين أنتِ دعيهم يتوقفوا، عندما كنت أنام مع ورد لم أكن أحلم بإلهام فقط!".

تجيب مضطرة لإيقاف الهجوم عليَّ "نحن هنا لتلبية رغباتك، بجسد من كنت تحلم أيضاً عندما كنت تمارس الجنس مع ورد؟".

" بهند التي كنت أركض من أجلها نحو التلال الجرداء البعيدة صباحاً ومساءً، قبل أن تتزوج من تاجر المواشي البدوي القادم من الشمال".

تبتسم الحوريات كلهن، يبتعدن عني قليلاً، يتمددن على

العشب بانتظار تحقق إحدى رغباتي، وينظرن في الاتجاه المعاكس للبحيرة. أذهب معهن بنظراتهن فأرى تلالاً ممتدة بعيداً، ولكنها ليست جرداء بل خضراء، مروج خضراء تغطيها بالكامل، وتجمعات أجمات شجيرات متناثرة هنا وهناك تزينها. يمتلئ الأفق بضحكات فتيات يقتربن بأصواتهن منا، ومن جديد ألمح فتيات عاريات قادمات نحونا، أعددهن، أربع عشرة فتاةٍ بأعمار مختلفة، ويفاجئني أنهن كلهن يحملن وجه هند وابتسامتها الساحرة. أجساد مليئة بالأنوثة كما كنت أتخيل هند من تحت جاكيتتها الحمراء وعندما أنام مع ورد. يصلن إلي وهن يحملن باقات من الورود الحمر، يلتففن حولي ويعانقني بالأشواق نفسها لأجساد إلهام.

تبرز من بينهن هند ذات الثمانية عشر ربيعاً، تخاطبني وهي تلتصق بي بالكامل "نحن الحوريات هند، هنا لن يهمنا إن كنت تقرأ أم لا، ولن تركض لأجلنا نحو التلال والأحلام، بالعكس نحن سنركض لمتعتك وملذاتك، نريد فقط أن نشبع جسدك حتى الثمالة. وتلك التي تزوجت البدوي في الحياة الدنيا كانت خيالاً، وهماً، فامحها من ذكرياتك، هي وتجاعيد وجهها وابنها ذو الأصول البدوية. نحن هنا أبكار لك وقلبنا لا يميل إلا إليك، فتمتع بنا كما ترغب".

أنشد إلى اللعبة قليلاً، ولكن أين قريبتي سهير التي كنت أحلم بجسدها أيضاً عندما كنت أمارس الجنس مع ورد! وسرعان ما تنتقل أفكاري إلى جميع الحوريات المجتمعات، يضحكن بصوت عال وتشير أيديهن إلى اتجاه جديد. أفاجأ برؤية صف من شجيرات رمانٍ خضراء وكثيفة، تكاد أغصانها تسقط أرضاً من ثقل ثمارها الضخمة الناضجة المتدلية. وهناك أشاهد أربع عشرة فتاة، يتمددن بعريهن تحتها على عشب أخضر، يبتسمن لي ويرفعن أيديهن ملوحات، وهن يدعونني إليهن. أستغرب أنهن لا يركضن نحوي بشوق مثل الأخريات، ولكن عندما أتأملهن ألاحظ أنهن يتمددن بوضعية مغرية، وكأن كل واحدة تدعوني إلى مداعبة ثدييها الممتلئين الناضجين

بعـصير أحمـر كحبـات الرمـان، تلتمـع مـن بعيـد حلمتـاه البنيتـان الغامقتان، ويرتمي على صدر يخفق بشدة.

تنادي من بينهن سهير ذات الثمانية عشر ربيعاً "انظر إلينا، ليـست أثداؤنا فقط دون بثور وإنما كامل أجسادنا أيـضاً، نحـن لم نـسافر إلى بلاد الصحراء، ولم نتزوج ولازلنا أبكاراً. ونحن هنا لا نلبس حجابـاً، إلا إذا أردت أن تـزور أحـد معارفـك في الطـرف الآخـر مـن النعـيم وتصطحبنا معك".

وفي هـذه اللحظـة أسمـع ضـحكات جديـدة فـوقي، أنظـر إلى الأعلى فأشاهد أربع عشرة فتاة يحملن وجه جورجيت، يتمددن علـى أسرة معلقة على شجرة كبيرة فوقي، وعلـيهن أغطيـة صـوفية ناعمـة، وهن يدعونني للتمدد معهن. تقفز جورجيت ذات الثمانية عـشر ربيعـاً أمـامي مـن الـشجرة بجـسد عـارٍ ممتلـئ، وتقـول "نحـن الحوريـات جورجيت، عندنا فوق تمطر والجو بارد، ولذلك نتغطـى، ولكـن إذا كنت ترغب أن تشعر بدفئنا فيمكن أن تصعد إلينا".

أسألها "وأنتن ماذا تفعلن في النعيم؟".

" في النعيم لا تفرقة دينية أو مذهبية أو طائفيـة، نحـن مثـل كـل الحوريات اللواتي يعشقنك فقط دون أية انتماءات. عملنـا ينحـصر في إمتاعك فقط، ولكن بطرائق مختلفة، فسيقاننا تحـن إلى سـاقيك وإلى الالتفاف على كل جسدك، وتعطـيرك بـشذى زهـر الليمـون، ونحـن مخلصات لك لا نلتفت إلى أي شخص حتى ولو كان جسمه رياضياً".

وتبرز الآن رولا في الثامنة عشرة من عمرها، لا أدري مـن أيـن، وكأنها انبثقت من الهواء أو نبتت مـن الأرض، جـسد أنثـوي نحيـل، لكن تفاصيله مليئة بأقصى درجات الإثـارة، ومـع نحولهـا تخيلـت أن عـضوها الجنـسي سـيقبض علـيَّ بنعومـة شـديدة، ويمـنحني أعلـى درجات المتعة. تعانقني والشهوة تقطر من عينيها وفمها ويديها ومثلث المتعة لديها، وتقول لي "أنـا الحوريـة رولا، في الحيـاة الـدنيا كنـت

تظنني مريضة نفسياً، وكنت تسعى دائماً لتكفكف دموعي وآلامي. كنت أعرف أنك كنت تشتهيني بشدة وترغب بالنوم معي، دون أن تسمح لك عمتي بزيارتي. كل ذلك كان وهماً وخيالاً، وأنا هنا لأعوضك عن كل ما رغبته مني أضعافاً مضاعفة".

أسألها بدهشة "ولكن لماذا كل واحدة ممن عشقتهن عددهن هنا أربع عشرة، إلا أنت واحدة فقط!".

تبتسم وتقبلني قبلة طويلة، ثم تبتعد عني قليلاً لتتناسخ إلى أربع عشرة حورية، كل واحدة منهن في عمر مختلف، وكلهن نحيلات، ولكن أجسادهن تقطر بالشهوة".

صدمني هذا إلى درجة الإحباط، فهذه الحوريات لسن إلا تسلسل نسخ متشابهة، مع إضافات جسدية تناسب العمر المطلوب، ودون أن أفهم حتى الآن لماذا يتناسخن حتى الرقم أربعة عشر فقط.

تضج الحوريات كلهن وقد اكتملن وتتنادى أصوات نحوي "أكتمل الجمع أصبحنا سبعين حورية، لنذهب ونقضي نهاراتنا ولياليناا الماجنة المستمرة، والتي لم تذق مثلها في حياتك، بل لو جمعت كل ملذات الحياة الدنيا فلن تعادل يوم متعة هنا".

أنظر بذهول إلى هذا الجمع الغريب من الأجساد أمامي، فتأتيني أصوات مشجعة من بينهن "لا تخف سيكون لديك قوة سبعين رجل في الطعام والشراب والجنس، ولن تتعب معنا أبداً".

أسأل "ولكن أين الحورية ورد، ونسخها؟".

يعلو اللغط، والضجيج، والتشويش، والفوضى، وصيحات الاستنكار:

" لا، ورد ليست حورية، ورد هي عدوتنا، جسد ينتمي إلى عالم موازٍ آخر معادٍ لعالمنا".

" نحن نكره ورد، فهي تختصر أجسادنا كلها بجسد واحد هو جسدها".

" نحن هنا بلا زمن، أو بالأحرى زمننا سرمدي مطلق، بينما ورد تنتمي إلى الماضي، هي حنين الماضي، وإذا ما التقى زمنانا فسيحدث الخراب والدمار في العالم من اصطدامهما".

" ورد ذكية تتلاعب بك، تحقق كل رغباتك في السرير فتتحكم بك وتقودك كما تريد هي، وأنت منصاع لها ولأهوائها ونزواتها، أنت ضعيف أمامها".

" ورد لها ميولها الشاذة، تتسلل من النوافذ وتأتي مع المطر فقط".

" ورد ليست مخلصة لك، أنت لا تعرف أين تقضي وقتها في غيابك عن المنزل، ولا تعرف أين تذهب عندما لا يكون هناك مطر".

" نتمنى أن ينام مع ورد سبعون بدوياً جلفاً وقاسياً، ولكل منهم قوة سبعين رجلاً في النكاح، حتى تنطفئ ورد إلى النهاية تحتهم".

"عالمنا لا يقبل حضور ورد، إذا حضرت يتدمر عالمنا ونموت".

أمامي الآن خمس حوريات بأربع عشرة نسخة بأعمار مختلفة، يضحكن جميعاً فرحات، ويدفعنني إلى لؤلؤة كبيرة مجوفة تشع بالبهاء، تقع عند طرف البحيرة تحت الظلال. وما أن أدخلها حتى يدهشني وجود سرير عريض جداً بحيث لا أرى نهايته، مرمي على أرض حصاها من اللؤلؤ والمرجان، تفوح منها رائحة المسك والزعفران والعنبر، سرير عريض عليه سبعون فراش ناعم، مغطاة بالحرير ومزينة بالدرر والياقوت. تتقافز الحوريات فرحات وهن ينتظرن الوصال، ولكنني في داخلي أتساءل عن ماذا سأفعل مع السبعين حورية دفعة واحدة.

تأتي الحورية إلهام، والحورية هند، والحورية سهير، والحورية جورجيت، والحورية رولا، ذوات الأعمار الثمانية عشر، ويخاطبنني:

" لا تنسى سيكون لديك قوة سبعين رجلاً".

" ستشعر بمتعة عظيمة وأنت تخرقنا جميعاً فاتحاً بكارتنا، سنتألم تحتك فتشعر برجولتك".

" لن تنزعج أبداً، فغشاء البكارة سيعود إلى مكانه عندما تعاود الدور مرة ثانية، وستفضها من جديد، وفي كل مرة سنتألم تحت رجولتك".

" لن تمل من وصال الواحدة منا فكيف مع السبعين، هنا لا سأم أو ملل أو قلق، أصلاً لن يكون لديك وقت أو مجال للتفكير بشيء آخر سوى متعة الوصال".

" ذروة اللذة التي تصلها في الحياة الدنيا بعد النكاح تنهكك، وتجعلك تنام متعباً بعد الحصول على متعة قصيرة وهمية، كما تصبح بعدها جنباً وبحاجة للاغتسأل. أما هنا فوصال مستمر دون نهاية، ليل نهار، ودون جنب، لا تمل ولا تكل ولا تتعب".

" ستنكحنا هنا دون خوف من الحمل، فنحن لا نحمل ولا نلد، وليس لدينا كل سوائل الجسد الإنساني المقرفة التي تعرفها في الحياة الدنيا".

" نحن لا نمل هنا، ففيما تنكح واحدة منا تجلس المتبقيات ويغنين لك أعذب الألحان بأجمل الأصوات".

يدخل غلمان في مابين العاشرة والسادسة عشرة، يرتدون ثياباً ملكية مع تيجان على الرؤوس، يحملون صحائف ذهب مليئة بأطايب الطعام، وكؤوس من الفضة مليئة بالخمرة، تستمر الحوريات بالحديث:

" لا تنزعج، هؤلاء الغلمان موجودون هنا لخدمة توزيع الطعام والشراب، مخصيون لا يثيرهم مرأى نسائك الحوريات العاريات، ولا تنتصب أعضاؤهم أبداً، فلا خوف منهم".

" بما أنه في النعيم تتحقق كل الرغبات وكل ما يمكن اشتهاؤه، فإنه إذا أعجبك أحدهم سنوسع له مكاناً بيننا بكل ود، وستنام معه بمتعة خاصة مغايرة للتي تحصل عليها معنا".

" ولكن إذا كنت لا تتلذذ بمرآهم ويزعجك وجودهم وأنت تنكحنا فيمكنك الاستغناء عنهم، وستبقى الخدمة مؤمنة. فمن مكان جلوسك هنا على السرير تستطيع أن تمد يدك بكأس إلى أحد الأنهار الأربعة التي تسيل بقربنا على مجاري الدر والياقوت. لدينا نهر خمر مخلوطة بالكافور أو الزنجبيل، تمتعك دون أن تسكر وتتلفظ بفاحش الكلام، ونهر ثانٍ بمياه سلسبيل عذبة، ونهر ثالث بعسل مصفى، ونهر رابع بلبن لا يفسد، أنهار لا ينقطع مجراها أبداً. وإذا ما رغبت بفواكه فإن أغصان الأشجار تنحني إليك فتقطف منها ما تشتهي من ثمار، يتغير ما لذ من طعمها من ثمرة إلى أخرى، وإذا ما اشتهيت لحماً يأتيك الطير مشوياً من السماء، فتتناول منه وهو يطير فوقك. ستأكل لا من جوع، وستشرب لا من عطش، وإنما من أجل المتعة واللذة، وسيتبخر كل شيء من بطنك كريح المسك".

تعانقني الحورية إلهام ذات الثمانية عشر ربيعاً، وتشدني إلى السرير العريض وهي تحاول تجريدي من الثياب، أقاطعها "يا إلهام ولكن أنا لازلت أعيش في الحياة الدنيا، وما تسللت إلى هنا إلا عن طريق سري من خلال أحد عوالمي الداخلية، قدمت من أجل اختبار عليَّ أن اجتازه".

يبدو أن الحورية إلهام لا تتفهم ما أشرحه لها، تقول لي "لا، لقد وصلت إلينا بأعجوبة، نجوت من كل تعقيدات العبور بين عالمين. أنت هنا معنا حقيقة دائمة، أما جسدك النائم في الحافلة المسافرة فهو وهم، خيال عابر وزائل. إذا ما قررت أن تبقى معنا هنا يمكن للحافلة أن تتعرض لحادث وتنقلب أو تنفجر، فتموت ويدفنوا جسدك، وتنتهي القضية باختفائك من الحياة الدنيا وبقاءك في النعيم

معنا. أما إذا قررت الرجوع فهذا دمار لعالمنـا هنـا، نحـن الحوريـات سننمحي من الوجود ونختفي..... فكر جيداً، فرصـة تـسللك إلى هنـا دون حسابات ماورائية لن تتكرر، وإذا ما حاولت مـرة ثانيـة فقـد يـتم اكتشاف الفجوة التي تسللت منها وتسقط في الجحيم، ومـن هنـاك لا عودة لك ولا مفر".

وزيادة في الإغراء تغير الحورية إلهـام لهجتـها نحـو الاسـتلطاف "انظر كم نحن حسناوات نُسِّر القلب والبصر، تخيل متعة الوصال التي ستحصل عليها معنا، ولكنني أحذرك هنا لا تجريب، فإذا مـا غـصت فينا فلن يعود بإمكانك الانفكاك عنا، سنلتهم جسدك باستمرار وبشبق لا حدود له".

أنظر إلى الحوريات الـسبعين، المتمـددات علـى سـبعين فراشـاً بأوضاع مغريـة، مـستعدات للوصـال بكامـل كيـانهن، وقـد اسـتلقى بعضهن على ظهورهن، وباعدن سـيقانهن أو رفعنـها عاليـاً في الهـواء بزوايا مختلفة، لتنكشف أعضاؤهن الجنـسية المكـتنزة، المغلـف كـل منها بغشاء بكارة شفاف متألق. واستلقى بعـضهن علـى بطـونهن وقـد رفعن مـؤخراتهن عاليـاً في الهـواء بزوايـا مختلفـة، فـبرزت بوضـوح فتحات مؤخراتهن فوق أعضائهن الجنـسية، فتـساءلت بـسرعة بمـا أن الحوريات لا يتبولن ولا يتغوطن، فلِـمَ توجـد هـذه الفتحـات! علـى الأغلب هي موجودة للاستخدامات الجنسية فقـط. وفي النهايـة كانـت هناك حوريات يتمددن علـى جنـوبهن، أو مقرفـصات، أو واقفـات، وكلهن ينتظرن الوصال.

يختلط الأمر علـيَّ وأشـعر بالتـشويش، أضـيع بمنظـر الأعـضاء الجنسية الأنثوية المترامية على مد البصر، فلا أعـود أميـز بـين حوريـة وأخرى، أثداء متدلية، مؤخرات لدنة، أعضاء جنسية مكـتنزة، بطـون ضامرة، سيقان متباعدة، أذرع مفتوحة للوصال. حوريـات متمـددات ينتظرن أدوارهن للوصال بصبر غريب، وبالتأكيد فإن كل واحدة تنتظر

دورها وهي على درجة عالية من الإثارة، فمتى سيأتي دور الحورية رقم خمسين، أو الستين، أو سيئة الحظ السبعين؟ واللواتي لن يأتي دورهن الليلة عندما لا يتم الملل من الوصال من إحداهن، هل سيجلسن وينتظرن بصمت مثل دمى جامدة دون مشاعر أو أية ردود فعل انفعالية، أم يحزنَّ ويتألمن ويبكين من الشعور بالقهر والغبن والتمييز؟ وإذا لم أصل إلى إحداهن وبقيت مشتعلة بالشبق والإثارة، فهل تنقلب إلى رفيقتها وتمارس السحاق معها، أم تمارس الاستمناء لوحدها؟ وإذا ما أعجبتني واحدة منهن وقررتُ أن أبقى معها طويلاً، فمن المفترض أن المتبقيات لن يشعرن بالغيرة، ولكن ماذا سيفعلن وهن لا يطبخن ولا يغسلن ولا ينظفن؟

أجساد وأجساد، أجساد عارية، أجساد مقطعة..... أشعر بالضجر لمرآها، بل وينبعث في داخلي السأم والملل لجودي بين هذه الكتل من اللحم. أتذكر أنه في عالمي، عندما أقمت في سلومانيا، كنت أرتوي جسدياً من الفتيات العابرات، ولكن ما أن أنتهي من ممارسة الجنس مع إحداهن حتى كنت أشعر بفراغ داخلي، فراغ يأكلني ويتركني بتراكماته في آلام ودمار، يتركني في جوع إلى فتاة حقيقية يرتعش القلب لوجودها، كنت أريد قلباً واحداً نابضاً بالحياة. هربت أنا من العالم البارد لذوات العيون الرمادية، فإذا بي هنا في عالم من العيون الحوراء المخيفة، عيون بحدقات سوداء كبيرة دون ألق، تلتهمني بنظراتها كما في الكوابيس. وأنا بحثت طويلاً عن ذات العينين العسليتين، وعانيت كثيراً حتى وجدتهما، فكيف أتخلى الآن عن حلمي ، وأقع في مصيدة جديدة بعد سلومانيا.

تتذمر الحوريات من الانتظار الطويل وقد وصلن إلى ذروة الإثارة، شعرن بترددي فأخذن يتمسحن بي ويذرفن الدموع، يرتجين مني البقاء والوصال، في حين تتداعى بقوة صورة صانعة الحكايا إلى ذهني، تصلني أنفاسها، همساتها، ابتسامتها، وكأنها تنتظر قراري.

أفكر، ما هذا العالم الماورائي المضجر هنا، ماذا يعني هذا

العالم، دون غرفتي والنافذة التي تطل على شجرة السرو وأسطح البيوت القديمة، ولوحة شيماء، ودون ورد التي تأتي مع المطر، دون لميس ومشاغباتها وصديقي وجنونه، ماذا يعني هذا العالم دون صانعة الحكايا، ودون الحكايا..... ودون تالة ذات العينين العسليتين.

أمد يدي، لا أدري إلى أين، أمد يدي لأخرج من هنا، وأهرب. تلتقط يدي يداً، أعرفها، يد ناعمة سحرية واثقة، تمنحني السكون والطمأنينة، يد صانعة الحكايا. أتمسك بها بقوة ورجاء، فتنتشلني، وتعينني على الانزلاق من هذا العالم الماورائي والابتعاد عنه، وتعيدني إلى عالمي..... يوقظني صوت سائق الحافلة معلناً وصولنا إلى المدينة، يستيقظ صديقي ولميس مبتسمين، يفاجئني صوت صديقي "نجوتَ من عالمك الماورائي.... وصلنا دون حادث".

***

العميل إكس -السكرتيرة سيكس

رجعنا إلى المدينة، أنا وصديقي ولميس، وصلنا محطة الحافلات القديمة، يخيم على ذهني صفاء وسكينة، ونشوة في القلب. واثق من نفسي، وخاصة بعد اجتيازي اختبار العالم الماورائي ونجاتي منه، واثق من نفسي حتى ولو كان بانتظاري السيد لؤي، فهو لن يشوشني بعد الآن ويجعلني أشعر بالاضطراب والقلق، لن أشعر بالضعف أمام ابتسامته الماكرة، وأعرف الآن هدفي بالضبط..... تالة ذات العينين العسليتين.

لا أدري لماذا فكرت بالسيد لؤي في هذه اللحظة؟ هل كان قلبي ينبئني أنني سألقاه قريباً، أم إن هذا التفكير قد تزامن مع ظهور صورته من جديد على جميع مرايا الحافلة عند وصولنا، تستقبلني بمئات الخيالات له، وكأنني أراه في المرآة واقفاً على الرصيف بابتسامته الماكرة ويده تلوح مرحبة بي. أقرر أن أختصر كل المرايا في مرآة واحدة تقع فوق رأس السائق وأركز عليها، فتنمحي كل المرايا من الحافلة، وتتجلى عندئذٍ صورة واحدة للسيد لؤي، وقد اختفت فيها ابتسامته الماكرة، واكتسى وجهه لبوساً جدياً غريباً، وذبلت يده المرحبة بي وسقطت إلى الأسفل..... ومع ذلك بقي ينتظرني على رصيف المحطة.

أنزل من الحافلة، يغادرني صديقي ولميس مسرعين مع مرأى السيد لؤي، يتركاني هاربين لأحل مشكلتي وحدي معه وهما يبتسمان بخبث هذه المرة، هما وليس هو. يقترب مني محيياً، يتأبط ذراعي وكأننا صديقان قديمان، ويطلب مني أن نتمشى قليلاً، يخاطبني "يبدو أنك نجحت أنت حيث نفشل نحن دائماً، نجحت في الوصول إلى القرية المعلقة في الجبال بعد أن عبرت بذكاء مريب منطقة الضباب،

حيث تتعطل دائماً جميع أجهزتنا الإلكترونية المتقدمة. كما إن أحداً من عناصرنا لم يستطع تجاوز هذه المنطقة، يتوهون غالباً في الضباب ويعودون مخبولين مختلي العقل، فنضطر إلى الاستغناء عن خدماتهم..... على كل الأحوال أطلب منك تقريراً خطياً تفصيلياً بكل ما شاهدته هناك في إطار مشروعك الفكري عن العوالم الماورائية، الذي يرغب المعلم أن تتعاون من خلاله معنا".

أرد مستنكراً وبطريقة هجومية هذه المرة "لماذا أكتب تقريراً بما شاهدت، فأنا لا أعمل لديكم، ثم كانت هذه رحلة شخصية لا علاقة لها بالأمن الوطني، ولا تشكل تهديداً يقلق راحة المسؤولين والوطن".

" لا أبداً لم تكن رحلة شخصية، أنت خبيرنا الوحيد المعتمد بالعوالم الماورائية، وكل ما تعرفه سيكشف لنا بعضاً من تفكير ناسفي الأحزمة من أجل السيطرة على أفعالهم قبل حدوثها. ما الذي يشدهم إلى هناك كي يذهبوا بحب وشوق؟ ولماذا يأخذون معهم آخرين يرغبون بالحياة، ومن بينهم أطفال ونساء وشيوخ لا علاقة لهم بأعدائهم؟".

أرد مستغرباً "من أين هذا المنحى الإنساني المفاجئ لديك يا سيد لؤي!".

يجيب دون ابتسامة ماكرة "هذا عمل معلوماتي وطني، عمل احترافي، بالعكس أنت الذي تعطيه منحاً إنسانياً..... لنترك هذا حالياً، هناك أمور أهم وأخطر تشغلنا. فمعلوماتنا تشير إلى أنه بمجرد خروجك من محطة الحافلات سيبحث عنك عميل أمريكي، يريد الاتصال بك من أجل موضوع غير واضح لنا تماماً، يبدو أنه يتعلق بناسفي الأحزمة الذين يشكلون قلقاً كبيراً لرؤسائه، ويشوشون على مخططاتهم للسيطرة الكاملة على المنطقة. وهم يظنون أن خبراتك بالعوالم الماورائية ستساعدهم في معرفة طرق تفكير ناسفي الأحزمة من أجل البحث عن وسائل للتخلص منهم".

" عفواً يا سيد لؤي، يريدون معرفة طرق تفكير ناسفي الأحزمة، لكن ليس للتخلص منهم، وإنما من أجل التحكم بعملياتهم وفق مخططاتهم للسيطرة الكاملة على المنطقة".

" لا تهمني تحليلاتك، سيعمل خبراؤنا على تحليل المعلومات التي تصلهم، ويقدمون استنتاجاتهم إلى المعلم".

" وما علاقتي أنا بكل هذا؟".

" نحن نعرف أنهم يبحثون عنك منذ وقت، وقد أوحينا إليهم بتحركاتك لتسهيل وصولهم إليك، وبواسطتك سنعمل على اكتشاف بعض من مخططاتهم في المنطقة".

أقول مستنكراً "أي جعلتم مني طعماً لتحقيق أهدافكم يا سيد لؤي".

يرد بثقة "ألم يقل لك المعلم إنك واحد منا، وتهمنا حياتك وخبراتك النادرة بالعوالم الماورائية. نحن معك في كل مكان، ونتكفل بحمايتك من أي أذى يصدر منهم".

" وكأنك تتحدث عن أحد ما خفي، يلعب من وراء الستار، من هم؟".

" حسب معلوماتنا توجد منظمة سرية تتخفى وراء معهد دراسات وأبحاث يسمى ظاهرياً "مؤسسة نشر الديمقراطية"، ولكننا نعرف أن الاسم الحقيقي هو "مؤسسة نشر الديمقراطية في البلدان المتخلفة حضارياً، والقاصرة عقلياً، والمكبوتة جنسياً". وتتلقى هذه المنظمة السرية بواجهتها المؤسساتية الظاهرية دعماً رسمياً مباشراً من قيادات عليا محددة لدى المخططين الإستراتيجيين الأمريكيين".

فجأة ينتابني فضول شديد نحو الموضوع، وبشكل خاص نحو هذه المنظمة السرية، فأنا عادة ما أبقى خارج الحدث بعيداً عنه، إلا أنني أحب الوصول إلى كامل المعلومات عنه. ولكن كنت قد قررت

سابقاً قطع علاقتي مع المعلم الذكي ومخططاته الوطنية، فأسرع بالقول "على كل الأحوال أنا لا علاقة لي بهذا الموضوع، وأرفض التعامل معكم".

يستمر وكأنه لم يسمع عبارتي الأخيرة "المعلم يضع كل ثقته فيك، وفي النهاية فإن الموضوع كله يعود إلى مدى حسّك الوطني".

أصحح له هذه المرة "لا، إنما يعود إلى مدى حسّي العاطفي، حيث تنتمي أحلامي".

تعلو الدهشة وجه السيد لؤي أمام هذه اللهجة الملغزة التي لم يسمعها من قبل، إذا يبدو أن الثقة التي رجعت بها أخذت تنعكس بسيطرة ما لي على الأمور، التي أخذت أتحكم بها أكثر. ولكن بما أننا وصلنا إلى بوابة الخروج من محطة الحافلات فإنه يضطر إلى مغادرتي، فالعميل الأمريكي قد يسقط عليَّ في أية لحظة حسب قوله.

ما أسير بضع خطوات في الطريق حتى تتوقف إلى جانبي سيارة سوداء فخمة طويلة، بثلاثة أبواب جانبية ونوافذ عاتمة لا تسمح برؤية ما بداخلها، ينفتح بابها الخلفي ويطل منه رأس أشقر يتحدث العربية بلهجة غريبة، خليط بين الفصحى والعامية مع أحرف مكسرة، ويدعوني للركوب. وكأنني دخلت في السيارة دون إرادتي، إذ شعرت بوقوعي في مجال مغناطيسي شلني وجذبني إلى داخلها. يصدمني في الداخل جو مبرد بشدة يجعل حواسي تستنفر إلى أقصاها، يدفعني لترقب شيء ما سيحدث هنا، ويجعلني أنسى بالمقابل أي ارتباطات لي بالخارج. أجلس في مقعد وثير أهبط في فخامته، بعكس اتجاه السائق الذي يفصلني عنه حاجز بلوري معتم، وأجد نفسي مقابل الرجل الأشقر الذي دعاني للركوب وإلى جانبه امرأة شقراء.

يبدو الرجل الأشقر رياضياً، قوي البنية، مفتول العضلات، يذكرني مباشرة بصورة عناصر وحدات الكوماندوس في الأفلام الأمريكية، الذين انتهوا من مهماتهم ضد الإرهابيين في مناطق جنوب

شرق آسيا، ثم انتقلوا بعملياتهم إلى بلدان أمريكا اللاتينية، ثم استقروا ليكافحوا أخيراً "بؤر الإرهاب "في العراق وأفغانستان. ولا أدري من أين أتتني فكرة أن هذا البطل الأشقر قادم إلينا، ليقتل أكثر من مئتي إرهابي يزعزعون الاستقرار العالمي خلال فيلم يستمر ساعتين. وينتهي الفيلم بموسيقى انتصار عظيمة مع قبلة شبقة للفتاة الشقراء التي تجلس إلى جانبه، ولكن ليس في السيارة، وإنما وسط جثث الإرهابيين المتناثرة بعد المعركة، وهي تضمد الجراحات والدماء النازفة منه وتمسح الشحوم والأتربة التي تلطخ وجهه. وهذه الفتاة الشقراء الجالسة إلى جانبه، والتي خرجت قبل قليل من الفيلم، تبدو في الثلاثينيات من عمرها وتضج بالأنوثة والإغراء، وعلى الأغلب نسيت ارتداء بقية ملابسها بعد أن أنقذها البطل من أيدي الإرهابيين الذين كادوا يغتصبونها، إلا أن البطل أنقذها في اللحظة الأخيرة. وبقيت بشبه فستان قصير، بالكاد يخبئ بعضاً من ثدييها، في حين تركت الفخذين يتنفسان مباشرة الهواء المبرد المنعش في السيارة.

تنطلق بنا السيارة متمهلة وكأننا في نزهة، يبتسم الرجل الأشقر لي ابتسامة فيها خليط من الثقة والعجرفة، ويفتح براداً صغيراً إلى جانبه ويسألني "ويسكي؟".

كنت لا أزال مرتوياً بمشروب الجبل السحري، وهو ما جعلني أبقى متماسكاً في داخلي بالرغم من الموجات التي شلتني وسحبتني دون إرادتي داخل السيارة. أعتذرُ عن الشراب، فيصب الرجل الأشقر لنفسه كأسا ويضيف إليها قطعاً من الثلج. وفي هذه الأثناء ترميني المرأة بنظرات إغراء ناعسة، وهي تتلاعب بقلم على شفتيها المصبوغتين بأحمر شفاه كرزي اللون، فتدعو انفراجة الشفتين المتباعدتين بحركة مستمرة منه إلى إغراء امتصاص قبلة طويلة مليئة بعصير الكرز. ولكن ما أن أتأمل عينيها حتى تصدماني، عينين مظللتين بالتناوب بكل الألوان التي أكرهها، الرمادي المغبر، الأسود

المعتم دون ألق، البني الترابي المطفئ، فينتهي إغراؤهما ويفشل هجوم المرأة المثيرة نحوي، ولم يعد يعنيني وجودها.

يبادرني الرجل الأشقر بالحديث "أنا العميل إكس من مؤسسة نشر الديمقراطية"، ويصمت قليلاً، أبتسم في سري فهو لن يكمل بقية الاسم الذي أخبرني به السيد لؤي، ويتابع "وهذه السكرتيرة سيكس التي ترافقني دائماً في أعمالي".

أسأله ببرود "ماذا تريدون مني؟".

يكتسي الآن وجهه علائم الجدية "نحن نعرفك منذ زمن بعيد، ونعرف طريقة تفكيرك وشغلك المستمر على العوالم الماورائية، نعرف أنك تخلصت من آخر أوهامك اليسارية في سلومانيا مع انهيار الجدران، وخاصة سور برلين، إلا أنك لم تنجر عاطفياً إلى تعصب شرقي كردة فعل نتيجة الفراغ الفكري والروحي الذي وقع به معظم رفاقك اليساريون، حمتك عقلانيتك الصلبة من التحول إلى مجموعة مؤمني أيام الجمع والآحاد، ويُخيل إليَّ أنك تلتقي الآن بأفكارك مع توجهات الليبراليين العلمانية بعيداً عن ثرثرات سقوط الرأسمالية الوشيك. وأنت خبير متخصص بالعوالم الماورائية، ونعرف أيضاً أنك دائماً في حالة اضطراب مستمر وتوتر دائم، وعلى الأغلب يعود هذا إلى القلق الذي تسببه لك مشاكلك المالية المستمرة، ولذلك سأسلمك شيكاً مفتوحاً بمبلغ تسجله أنت مقابل مهمة اطلاعية ستفتح لك آفاقاً واسعة أمام أبحاثك، دون أن تسيء إلى موقعك وسمعتك كمثقف".

وفي هذه اللحظة ينفرج فخذي السكرتيرة سيكس، فأكتشف أنها لا ترتدي ملابس داخلية في حين بدا مثلثها نظيفاً، محلوقاً بعناية، ترتمي بصدرها نحوي بعد أن توقفت عن مداعبة شفتيها بالقلم، وتركتهما مفتوحتين لقبلة بطعم الكرز. أتجاهل كل ما تفعله وكأنه لا يعنيني، وأرد على العميل إكس مقاطعاً إياه باحتجاج "انتظر، هذه المعلومات عني فيها الكثير من الخلل، وهي لا تنطبق عليَّ، وأنا لا أحتاج للمال".

يرد بثقة "للمال إغراءاته، ولا أحد يصمد أمامه، وإذا لم ترغب به منا فهذه مشكلتك. أما بالنسبة لمعلوماتنا فقد حصلنا عليها من مصادر موثوق بها، وقام خبراؤنا بتحليلها لمعرفة طرائق تفكيرك، ومن ثم قاموا بتنظيمها ودمجها في مخططاتنا التنفيذية".

" ولكن من أين حصلتم على هذه المعلومات حتى تشعروا بهذه الثقة؟".

ينفرج الآن فمه عن ابتسامة خبيثة "من مخبرنا الذكي، من شخصية المنقذ الأمريكي العالمي المزروعة في داخلك. أنت نجحت بطرد رجل جهاز الاستقرار "أبو أحمد "والشيخ عثمان من داخلك بمجرد خروجك من حدود بلادك، ولكن كلما حاولت طرد المخبر الأمريكي من داخلك، عاد بذكاء متسللاً إليك من جديد دون إرادتك وأينما كنت، مغريات الحياة اليومية الأمريكية أصبحت قوية بحيث يصعب مقاومتها، والجميع ينجرف وراءها، الجميع يتأمرك".

" والآن ماذا تريدون مني بالضبط؟".

" رحلة صغيرة، ستكون ممتعة لك بالتأكيد، سندعوك لزيارة المنطقة الحمراء التي أقمناها على حدود الصحراء، منطقة مجمعات عالم التسوق الحضاري".

" وماذا ستستفيدون من زيارتي؟".

" هناك سمعة سيئة عن أهدافنا الإنسانية والحضارية في المنطقة، فبقايا اليساريين والقوميين يربطون قدومنا إلى هنا بحاجتنا إلى الذهب الأسود، والإسلاميون الناشطون حديثاً على الساحة يتحدثون عن قيامنا بحرب صليبية جديدة".

أرد بسخرية شديدة "هذا غريب مع أن الجميع يبدون مؤمركين بالكامل في تفاصيل حياتهم اليومية!".

يستمر دون أن يلقي أهمية لما قلته "ومع ذلك فإن الدعايات الإيديولوجية الشيوعية القديمة والدعايات التكفيرية الإسلامية الحديثة

ضدنا هي فاشلة، والدليل أن مشروع مقاطعة البضائع الأمريكية الذي طرحه اليساريون سابقاً، ومن ثم تجدد مع الإسلاميين، لم يجد أي نجاح رسمي أو شعبي خارج الشعارات ومهاترات الخطابات التحريضية".

أستمر ساخراً معه من جديد "وبالتأكيد فإن نظام العالم كله سيتخلخل دون سيل البضائع الأمريكية ونمط الاستهلاك المرافق لها!".

يبدو أنه انتبه الآن للهجتي غير الودية، فقال "لأكن صريحاً معك، لقد وصل إلى قيادتنا هاتف من الرب في السماء، يطلب منها نشر القيم الحضارية العالمية التي نمثلها في العالم كله، ونحن نحقق رغبة السماء وعدالتها، ولكن يجب أن تتأكد أننا لا نحمل لكم شيئاً مغايراً للطبيعة الإنسانية، وإن تعارض ذلك مع بعض قيمكم المحلية المتخلفة، لأنها هي بالأصل معارضة لما هو إنساني..... نحن نريد نشر مفاهيم الحرية والخيار الديمقراطي، ونطبق ذلك على حرية اختيار السلع المعروضة بشكل تعددي ديمقراطي في مجمعات ضخمة للتسوق الحضاري. كما إن هذه الحرية الديمقراطية التعددية للعيش بعالم التسوق ستلغي نزوع بعض الأفراد نحو التطرف والإرهاب وحب السيطرة، ونشرهم مفاهيم متخلفة عن تمايز خير أمة أخرجت للناس..... فالجميع كلهم متساوون أمام المجمعات التجارية، لا فرق بينهم مهما كانت انتماءاتهم العرقية أو الدينية أو القومية، وإنما يتمايز منهم المجدون والناشطون في مجال الشراء والاستهلاك، فنحن نسعى للوصول إلى المواطن العالمي الاستهلاكي الواحد على مستوى العالم".

يصمت العميل إكس قليلاً ليأخذ رشفة من كأس الويسكي الذي يهزه طوال الوقت لإذابة الثلج فيه، مستمتعاً بموسيقى قرع قطع الثلج على زجاجه، وفي أثناء ذلك يكاد ما يشبه ثوب السكرتيرة سيكس يسقط عن صدرها ويزداد اقترابها مني، وتباعد فخذيها واسعاً بحيث

يبدوا واضحاً ألق عضوها المحلوق بعناية، ويكاد عصير الكرز أن يسيل لوحده من الشفتين.

يتابع العميل إكس "ولكن المنطقة تعج بالحكام الديكتاتوريين من العسكر، المتحالفين مع أصدقائهم من الملوك والأمراء المطلقي الصلاحية بأعراف عشائرية من القرون الوسطى، وسوف يسوءهم كلهم انفضاض الناس عن شعاراتهم البالية، سواء بأشكالها الثورية التي تحولت حالياً إلى إصلاحية تضامنية، أو بأشكالها العشائرية التي تحاول أن تأخذ لبوساً معاصراً استهلاكياً. وهناك أيضاً جيوش من رجال الدين المرتزقة الذين سيسوءهم انتقال دور العبادة من المساجد ومراكز الأولياء إلى المعابد الجديدة في مجمعات عالم التسوق الحضاري، حيث ستنشط هنا عبادة اللامرئيات الصنمية المرتبطة بروح الاستهلاك، وبطقوس دينية مبسطة تعتمد حرية الخيار الديمقراطي في التواصل مع السماء، بعيداً عن التعقيدات والخلافات الفقهية لديهم".

" وهكذا أنتم في مشكلة كبيرة أمام هذا العداء الرسمي من السلطات كافة, التي تخاف من ريادتكم الحضارية؟".

" في الظاهر يبدو أننا في مشكلة، ولكن في الحقيقة فإن الجميع يتراكض إلينا مادمنا نحافظ على شكليات سلطاته وأوهامها. إلا أنه مع معرفتنا الأكيدة بحاجة شعوب المنطقة إلينا التي لا تستطيع إعلان رأيها بسبب السيف المسلط على رؤوسها من قبل السلطات السياسية والدينية المتحكمة في رقابها، فقد كنا مضطرين جداً إلى احتلال منطقة صغيرة، مهملة في طرف الصحراء، لإنشاء مجمعات عالم التسوق الحضاري. ولم يتم ذلك بسهولة إلا بعد إنشاء تحالف غربي كبير، مع تكاليف عسكرية باهظة، ودماء كثيرة من جنودنا، بسبب سوء فهم أسباب قدومنا. والمهم أننا نجحنا أخيراً في إنشاء المجمعات وجعلها مركز إشعاع حضاري استهلاكي في المنطقة كلها، يصبون إليه الجميع بأحلامهم القابلة للتحقيق في الواقع، وليس في

الـوهم والخيـال كمـا في عـوالمكم الماورائيـة..... وسميناهـا بالجنـة الأمريكية".

أتذكر أن إنشاء الأمريكيين لمجمعاتهم في طـرف الـصحراء بعـد احتلال المنطقة عسكرياً قد أثار ردود فعل رسمية وشـعبية غاضـبة في وقتـها، إلا أن درجـة الغليـان الغاضـبة الرسميـة سـرعان مـا أخـذت تنخفض شيئاً فشيئاً بعد مـا تم الاعتيـاد علـى الأمـر الواقـع، ومـن ثم تقبلوه، لا بل وجد بعـضهم مـصلحة لـه في هـذا التـدخل العـسكري الغربي المباشر لإقامة المجمعات، من أجـل لجـم انـدفاعات معاديـة لهم قادمة من الجبال البعيدة. وفي الوقت نفسه تململ الشعبيون أيـضاً من انخفاض درجة الإثارة، في عدد القتلى ومظاهر الـدمار، وأخـذوا يبحثون عن حوادث مثيرة أكثـر في منـاطق أخـرى مـن العـالم، مليئـة بالعنف والـدم والـدمار، يـشاهدونها علـى شاشـات التلفزيـون وهـم يجلسون يـأكلون ويـشربون في غـرفهم الآمنـة. ولم تبـقَ هنـاك سـوى مجموعات صغيرة من ناسـفي الأحزمـة، المحـاربين ضـد الـصليبيين الغربيين الملحدين، وضد البـاطنيين الكفـرة أصـحاب البـدع، وضـد المتعاونين مع الشيطان من أهل المنطقة، فكانوا يـضربون هنـا وهنـاك دون تمييز واضح، إلا أنهم وصلوا بهجمـاتهم إلى مجمعـات المنطقـة الحمراء بضربات قاسية ومؤلمة وموجعة.

وأتذكر أن الروائي نبيل حدثني في جلسة جمعـتني بـه وصـديقي أنه اقترب ذات مرة من المجمعات في المنطقة الحمراء في جولة دولية مع مجموعة من الصحفيين، فشاهد تحصينات كبيرة تحيط بها من كل الجهـات، أسـلاك شـائكة مكهربـة وحقـول ألغـام وكـاميرات مراقبـة إلكترونية، نقاط مراقبة ثابتة تشكل قلاعاً لا يمكن اجتيازها، دوريـات راجلة مع كلاب بوليسية، دوريات مؤللة بمدرعات قاذفة للـصواريخ، دوريات رجال آلبين، مناطق ممسوحة بمجالات مغناطيسية تعطـل أي جهاز يعمل في نطاقها، وفوق كـل هـذا تحلـق فوقهـا بـشكل مـستمر طائرات هليوكوبتر مزودة برشاشات وصواريخ..... وما أن يُلمح شيء

مشكوك به يتحرك؛ فإن نيران الجحيم تنفتح عليه من كل الأبواب.

وعندما سألت الروائي نبيل عن إمكانية الدخول إلى مجمعات عالم التسوق الحضاري، أجاب ساخراً من جهلي بما يحدث هناك "الدخول إلى المجمعات حلم، ويحتاج إلى إجراءات معقدة من أحد مكاتب المتعاقدين الأمريكيين، تسبقها تحقيقات ودراسات عن الشخص الذي يرغب بالزيارة، وبخاصة الدولة التي ينتمي إليها".

أستيقظ من تداعي ذكرياتي وقد أصبحت السكرتيرة سيكس تجلس الآن في حضني بالكامل، وقد التفت قدماها حول ظهري بشدة، ويداها حول عنقي بنعومة، في حين انحسر ثوبها من الأسفل ومن الأعلى إلى لفافة صغيرة حول الخصر، وهاجمني عطر شديد أخذ يشلني أكثر فأكثر، وكدت أشعر بالضعف والانهيار باتجاهها، فيما أخذ فمها يقترب من فمي، ولم يبقَ بينهما إلا سنتيمترات، وأخذ عصير الكرز يتفجر لوحده.

يتابع العميل إكس حديثه وكأن ما تقوم به السكرتيرة هو جزء من أعمالها التنفيذية، دون أن يعنيه ذلك "الأمور أصبحت جيدة بالنسبة إلينا ونكاد نقترب من السيطرة الكاملة، سنتيمترات فقط ونسيطر. فأعداد المتسوقين الأحرار الديمقراطيين الذين انتقلوا إلى مراكز العبادة الجديدة في ازدياد، ويبدو أن المتبقين راغبون في التخلي عن ديانتهم القديمة، وهم مستعدون للانضمام إلينا، ونحن نعرف ذلك من خلال مراقبة أحلامهم. ولكن المشكلة تكمن في أن ناسفي الأحزمة في ازدياد ولا ينتهون، وهناك المئات من ورائهم مستعدون وجاهزون للانضمام إليهم، يفجرون أنفسهم ويأخذون معهم مواطنينا ومواطنيكم إلى الجحيم، ثم يأتي غيرهم من جديد. الجميع يريد من خلال تفتيت الجسد العبور إلى نعيمه".

" إذاً مشكلتكم هي مع ناسفي الأحزمة، فما علاقتي أنا بهذا! أنا رجل مسالم لا أؤمن.....". وكدت أقول إلا بالأحلام، إلا أنني

صمتت لأنه لن يفهمني، أو ربما سيفهمها على طريقته، أنني لا أؤمن بالعنف.

ولكنه يستمر "أنت تعرف بالتأكيد النعيم الذي يسعون للذهاب إليه ما دمتَ خبيراً بالعوالم الماورائية، ولذلك نحن نرغب أن تزور الجنة الأمريكية، التي صنعنا فيها عالماً عصرياً يداعب أحلام الإنسان الحديث وتطلعاته ورغباته ونوازعه الدفينة، مستغلين آخر التقنيات الحديثة، وعلى رأسها المنظومات الإلكترونية السمعية ـ البصرية المحوسبة. وسينهار نعيمكم التقليدي، المتوارث من دين إلى دين، ومن عصر إلى عصر، دون أن يناله التحديث والتجديد..... ستدخل جنتنا، وستترك بالتأكيد تأثيرها على أبحاثك عن العوالم الماورائية التقليدية، وسترى أهمية العوالم الأمامية الأمريكية المعاصرة في غسيل عقول الناس المتخلفين حضارياً، والقاصرين عقلياً، والمكبوتين جنسياً. ونحن نرغب بتعريف أهل المنطقة بالجنة الأمريكية، بمتعها الحقيقية الملموسة، بعكس أوهام عوالمكم الماورائية. والآن لازال لديك الشيك المالي المفتوح، أرجو أن تعيد التفكير به، فهو يمثل فرصة كبيرة لا تعوض كي لا تركض طوال النهار وراء سيارات الأجرة، وكي لا تستدين ثمن الخبز ابتداءً من منتصف الشهر".

بصعوبة أبعد يدي السكرتيرة الشقراء سيكس عني وهي تحاول أن تفك أزرار قميصي، أدفعها إلى المقعد المقابل بشيء من العنف، وأمزق الشيك نتفاً صغيرة، وأقول للعميل إكس "أنا موافق على الذهاب، ولكن دون مقابل مالي، وبشرط الانسحاب عندما أرغب دون أية التزامات محددة تجاهكم. وسأكون أنا أيضاً معك صريحاً، فأنا ذاهب إلى هناك لمجرد المعرفة والفضول، ولي أسبابي الشخصية وراء هذه الزيارة".

أرى خيبة أمل شديدة على وجه السكرتيرة سيكس التي كانت قد

بلغت ذروة الإثارة، تستقر في مقعدها وتأخذ بمداعبة عضوها بإحدى يديها فيما تعصر ثدييها باليد الثانية، وقد عضت شفتيها بشدة بحيث سال عصير الكرز غزيراً على صدرها. وفي أثناء ذلك تختفي الابتسامة الواثقة من وجه العميل إكس، وتبقى فقط الابتسامة المتعجرفة، يبدو أنه رضيَّ بشروطي مضطراً، مع استغرابه من رفضي العروض التي قدمها ليَّ، سواء المالية أو السكرتارية. وقبل أن أخرج من السيارة يقول لي وهو يناولني بطاقة إلكترونية "حتى تنتهي من تعقيدات الوصول وإجراءاته إلى مجمعات عالم التسوق الحضاري، يمكنك الدخول مباشرة إليها بواسطة هذه البطاقة الإلكترونية".

" ومن أين الدخول، وكيف يتم؟".

" من أية لوحة إعلانية تتطابق شيفرتها مع أرقام هذه اللوحة الإلكترونية".

" وكيف سأعرفها؟".

" ظهور الضوء الأحمر عليها يعني أنك تسير نحو اللوحة الإعلانية الصحيحة التي تستطيع القفز منها إلى الجنة الأمريكية، وبقدر ما يشتد الضوء فأنت تقترب منها، وعندما تصل إليها تماماً سيصدر رنين صوتي يتطابق مع الإضاءة الحمراء".

وقبل أن يغلق الباب يقول "ولا تنسَ أن البطاقة لا تعمل إلا على بصمتك الشخصية ولمرة واحدة فقط..... أرجو أن تصبح عميلاً رسمياً دائماً في مؤسستنا، فأنت خبير مميز بالعوالم الماورائية".

وتعلق أيضاً السكرتيرة سيكس وقد استرخت الآن بعد أن وصلت إلى ذروة متعتها "هذا إذا نجوت من فخ الإغراءات التي سنحضرها لك هناك، لن تسير الأمور هناك كما حدث هنا في السيارة".

أنزل من السيارة، وكأنني ألمح ظل السيد لؤي ورائي في مكان ما، أحس به موجوداً باستمرار ورائي يلاحقني، ولكن دون أن أراه!

أفكر الآن ما الذي يدفعني لزيارة الجنة الأمريكية، هل هي رغبة شخصية لمعرفة عالم جديد معاصر يسعى لمنافسة النعيم التقليدي؟ أم هل هناك شيء يسيطر عليَّ يتجاوز رغبتي الشخصية بالمعرفة، ودوافع السيد لؤي، ومخططات العميل إكس، إذ ربما لازلت خاضعاً للاختبار الذاتي في تجربة عبور عوالم ماورائية كي اكتشف فيما إذا كنت مؤهلاً لأصل إلى صانعة الحكايا، وإذا كان هذا صحيحاً فهل تجربة الجنة الأمريكية هي اختبار جديد لي، أم اختبار متمم لما مررت به في النعيم التقليدي؟ هل أنا بحاجة للمرور بكل هذه الاختبارات الماورائية والأمامية واجتيازها بنجاح حتى أستطيع أن أصبح حكاية وألتقي مع تالة!

بعيداً عن كل هذه التساؤلات كنت قد أخذت البطاقة الإلكترونية ومضيت.

اللوحات الإعلانية مزروعة في كل مكان من المدينة، في الأحياء الراقية، والأحياء الفقيرة، والضواحي، والأطراف العشوائية، مزروعة في الشوارع، والساحات، والحدائق، والأنفاق، على الجسور، وجدران المنازل، والأسطح، وداخل المطاعم، والمحلات التجارية. لوحات ثابتة ومتحركة، بألوان جذابة، مضاءة ليلاً ونهاراً بألوان حالمة، تزين المدينة الشاحبة بحيويتها، وتسد الأفق الكئيب العشوائي بعظمتها. يشاهدها المارة وهم يسيرون، فتسحر عقولهم وتدغدغ أحلامهم دون أن يستطيعوا رفع أبصارهم عنها، فيصطدمون ببعضهم ويتنازعون، أو يسقطون في حفر البلدية المنسية، أو تصدمهم سيارة يكون سائقها نفسه مسحوراً بلوحة إعلانية..... لا أحد ينجو من تمائم اللوحات الإعلانية، فمع أن المارة يغادرونها، إلا أن الإعلان الموجود فيها يستقر في الذاكرة، ينخر فيها باستمرار ليدفعهم إلى الشراء. وبقدر ما تستقر في الإعلان صورة امرأة عارية ـ بما تسمح به الرقابة الإعلانية من إظهار عريها ـ فإن السيارة، والغسالة، والمكواة، والعصارة، المشمولين برعاية جسدها، تكون قابلة للتسويق أكثر.

يشتري المستهلكون الغسالة مثلاً مع صورة المرأة العارية الفاتنة المرافقة لإعلانها، فتذهب الغسالة إلى الحمام حيث موقعها قرب صنبور المياه، وتذهب صورة المرأة العارية إلى فراش المستهلك الذي اشتراها، وتفسح زوجته لها مكاناً في السرير لتنام معها في حلم زوجها، بينما عليها هي النهوض باكراً لمتابعة أمور الغسيل.

إذاً هذا هو سر الدخول إلى الجنة الأمريكية، هو الوقوع تحت إغراءات حلم الاستهلاك الأمريكي، واللوحات الإعلانية هي المدخل، ولكن عليَّ أن أجد اللوحة المناسبة للقفز إليها.

أسير قرب اللوحات الإعلانية بدءاً من الأحياء الراقية، إذ ينبغي أن يكون هنا مدخلٌ ممتازٌ للقفز إلى الجنة الأمريكية، بسبب رفاهيتهما المشتركة، هكذا أظن، ولكن البطاقة الإلكترونية لا تعطي أية إشارة ضوئية. أجتاز الأحياء الشعبية وأصل الضواحي، لا شيء..... ربما كان هذا فخاً لي، فالبطاقة لا تعمل. وكدت أرجع عندما وصلت إلى حدود الأحياء الفقيرة المهمشة المرمية حول المدن بعشوائية، إذ بدأ بصيص نور أحمر يلمع، لتزداد إضاءته كلما أوغلت فيها. هنا تنتصب اللوحات الإعلانية على جانبي الطرق الذاهبة إلى الأرياف، وعلى جانبيها تتجمع أكوام النفايات، وركام من بقايا الحفريات والهدم. هنا تنتشر بقايا أكياس النايلون التي بعثرتها الرياح على مساحات شاسعة من مكبات القمامة، ويتزين المنظر كله بزجاجات بلاستيكية وزجاجية مستعملة وبقايا علب معدنية، تلمع تحت أشعة الشمس، هنا ينقب جامعو القمامة عن كنوزهم من بقايا المواد المستعملة ليجدوا سبباً للحياة..... وعلى طول هذه الطرق، وسط الركام وأكوام النفايات، حيث لا حقول، ولا أشجار، ولا حياة، تنتصب اللوحات الإعلانية لتجذب أنظار العابرين، سواء على الأقدام أو السيارات، تنسيهم مشاهدة الخرائب المنتشرة في كل مكان، تجعلهم ينسونها ويتطاولون بأفئدتهم إلى حلم الاستهلاك الأمريكي.

فهمت الآن لماذا اشتعل ضوء البطاقة الإلكترونية هنا، فساكنو الأحياء الفقيرة الذين يخوضون في الركام والنفايات هم الأكثر حاجة للحلم الأمريكي، حلم الاستهلاك الحضاري. هنا لوحات إعلانية عن السيارات، والأجهزة الكهربائية، والرحلات السياحية، والسفر بالطائرات..... وكلها برعاية صورة الجسد النسائي، تخترقها الأبصار فتعريها بالكامل. هنا بدأت اللوحة الإلكترونية تعمل، فاشتعل ضوءها الأحمر مترافقاً بطنين صوتي، إذاً هذه هي شيفرة الدخول.

أجد نفسي أمام لوحة إعلانية تُسوق لرحلات أسبوعية إلى أحد المنتجعات الحالمة على شاطئ بحر قرب الجبال، تحيطني وتسيطر عليَّ بجاذبية إثارتها اللونية والضوئية، أتقدم وأدخل في مجالها، أقفز منها إلى الجنة الأمريكية.

* * *

مضيفة الجنة الأمريكية

أستيقظ، فأجد نفسي ممداً على سرير مريح، ولكنني أشعر بثقلٍ ودوارٍ يملأ رأسي، وكأنني صحوت من نوم عميق بعد إجراء عملية جراحيةٍ في رأسي، أو أنني قادم من عالم بعيد جداً، ودخلت في عالم آخر! تجتاحني برودة منعشة من أجهزة تكييف مزروعة في الزوايا، تتسلل إلى كل مسامات جسدي. وتنزلق إلى أنفي روائح طيبة، تنشرها أجهزة معطرة للجو لامرئية، تبث مويجات متتالية من شذى زهر الليمون، والياسمين، والفل، والورد الجوري، والبنفسج، لم يكن لي إلا أن أحرك رأسي في اتجاه ما لألتقط شذى رائحة محددة منها. وتموج الأجواء حولي بموسيقى خافتة، ناعمة وحالمة، تسللت إليها تأوهات جنسية شبقة مبهمة، لتندمج معها بانسجام خفي سري.

أنهض فإذا أنا في قاعة واسعة منارة بشدة، وأغرق في ضياء أنوار مصابيح بيض، مزروعة في سقف لا أتبين حدوده أو معالمه. تأخذني الأنوار نحو الأعلى إلى أبعاد لانهائية من الألق، فتتضخم المساحات حولي وكأنها دون حدود. وفي الأسفل تغوص قدماي في انعكاسات شفافة لبلاط مرمري، أسير في تموجاتها الخفية وكأنني أتقدم في ساقية نور تسيل على أرضية تتراقص ألوانها بين تدرجات اللون الأبيض، من الصفاء إلى الامتزاج بأطياف ألوان حالمة.

أسير وكأنني أسبح في بحر من الأنوار المتماوجة، أنوار منتشرة في كل مكان، تروح وتجيء، تتجمع وتنساب هاربة، تتلاعب بمساحات الفضاء حولها من خلال تراقصاتها الضوئية، تبعثرها وتعيد تشكيلها في عوالم غريبة، لا تلبث بعد هنيهات أن تتبعثر وتعود لتتشكل بمظاهر مختلفة جديدة.

وبصعوبة أتبين حدود القاعة، أشباه نهايات تختفي في جدران من المرايا الطولانية المستطيلة، والمصفوفة إلى جانب بعضها بعضاً، وتمتد نحو انفتاحات لامرئية في الأعلى. تحيط المرايا بهذا العالم الذي رميت أنا فيه، بحيث تعكس نفسها متقابلة في عوالم لانهائية. تنبهت عندئذٍ إلى انعكاسات تماثيل من المرمر الأبيض المتألق مبعثرة في الصالة، تماثيل زوجية وجماعية لرجال ونساء عراة في أوضاع شبقة مثيرة، تتعدد بغرابتها بقدر ما يذهب الخيال بعيداً، ما إن أمعنت النظر فيها حتى لاحظت أنها تتحرك باهتزازات اتصال جنسي هادئ، فبدت وكأنها حقيقية تكاد أن تدعوني لأشارك متعتها الحجرية. بضعة مجموعات من التماثيل تصبح عشرات ومئات الصور الحية في انعكاساتها المهتزة على المرايا المتقابلة دائرياً، فتصبح عوالم داخل عوالم تضج بشبق جنسي، وكأنها هي التي تصدر التأوهات الجنسية المبهمة المرافقة للموسيقى الناعمة الحالمة.

تنفتح حواسي إلى أقصى الحدود، تضج لاكتشاف سحر المعاني المستترة وراء غرائبية المكان، وكأنها تريد أن تنساق وراء إثارة خفية تصدر كمويجات من نبع خفي كامن فيه. أشعر بنشاط وحيوية غريبة تنتابني، تصبح كل عضلاتي متوفزة، تضج بالحاجة للفعل والانغماس في المتعة، وكأنني أريد الخروج من ملابسي، الخروج من جلدي.

" نرحب بك في الجنة الأمريكية، المدارة إلكترونياً وفق أحدث تقنيات الحوسبة كلية الوجود لعصر العولمة، أنت الآن في مرحلة التطهير الإلكتروني للانتقال من عالمك القديم الموبوء، عالمك المتخلف حضارياً، والقاصر عقلياً، والمكبوت جنسياً، إلى عالم الحرية والديمقراطية وتعددية السلع، إلى مجمعات عالم التسوق الحضاري".

تصدر كلمات الترحيب من امرأة انبثقت فجأة من باب زجاجي ينفتح إلكترونياً، وتتقدم نحوي بجسد ناهض واثق، امرأة شقراء شبه

عارية، إذ إن القليل مما تضعه على جسدها من إكسسوارات هو للمشاركة فقط في لعبة الإخفاء والكشف من أجل إبراز مفاتنها بطريقة مثيرة. وبقدر ما تقترب مني أتبين ملامحها وما يرتمي على جسدها، فقد ارتسم على عينيها قناع رمادي مرقش بخطوط سوداء، يذهب في أطرافه حتى أذنيها، منسجماً مع خصلات وبرية نهدية مزروعة في مقدمة الشعر الأشقر، مما أعطاها مظهر قطة شبقة مجنونة، تدور عيناها في المحجرين بحيوية في كل الاتجاهات، مع تكشيرة لالتهام أي جسد يعترضها بقبلات دموية. وتحيط بعنقها سلسلة ذهبية متألقة، تتدلى منها كرة كريستالية تنعكس فيها الأنوار والألوان بعشرات التموجات الضوئية، كرة تتلاعب بين ثديين مليئين، يتبادلان لعبة القفز إلى الأمام والنهوض إلى الأعلى حسب اندفاعة السير أو تبديل الاتجاه، في حين اختفت الحلمتان تحت نجمتين خمريتين. وألتفت على ساعديها قطعتان جلديتان سوداوان، تزينهما رؤوس مسامير فضية، وكأنها توحي باستعدادهما للمشاركة في حفلة جنون سادية. وشُدَّت على خصرها سلسلة كبيرة سوداء متشابكة الحلقات على شكل مثلثات، ولكنها مالت نحو الأسفل تحت ثقل ألماسة فضية كبيرة على شكل قلب، انزلقت فوق العانة لتتأرجح فوق عضوها في لعبة الكشف والإخفاء مع كل خطوة كانت تتقدم بها نحوي. وتسلّق قدميها حذاء جلدي أسود يرتفع حتى ركبتيها، التي استمرت في الصعود منها جوارب نسائية سوداء مخرمة بمستديرات مثيرة، تلمح إلى بياض فخذيها بإثارة شديدة. واندمجت سرة بطنها بوشم رجل وامرأة في وضع شبق، يرتجان ويهتزان مع سير إغراء عارضة أزياء فاتنة.

إذاً هذه هي حورية الجنة الأمريكية! حورية العصر الإلكتروني! جاءت واحدة، ولكن انعكاسها في المرايا جعل منها عشرات الحوريات قادمات إليَّ دفعة واحدة، نسخ متشابهة لجسد واحد في إثارته، مما ترك لديَّ انطباعاً مملاً منهن، فأنا أكره التشابه والتكرار، وأفضل لو جاءت هذه الحورية وحدها دون نسخها أو انعكاساتها.

تصل المرأة إليَّ في زحمة الأنوار، وما أن تقف أمامي وأتبين ملامح وجهها حتى تصدمني حمرة شفتيها القانيتين التي يكاد يسيل منهما الكرز، هل هي السكرتيرة سيكس؟! وأتوقع أن تخاطبني "أنا مضيفتك سيكس في هذه الجولة، كنت أتمنى لو وصلنا إلى بعض الحميمية في السيارة عندما تقابلنا في عالمك الموبوء المريض، لكانت انكسرت العديد من الحواجز بيننا، ولكن الجولة ستتكفل بذلك، وأنا راغبة بك بشدة".

لكنها لم تقل شيئاً من هذا! كانت ودودة بابتسامة حيادية حِرفيّة وكأنها تراني لأول مرة، مع أنني متأكد أنها السكرتيرة سيكس، أو ربما تكون نسخة منها! لا أدري، فكل شيء أصبح ممكناً أينما تحركت، دون أن أفهم سبب ذلك، هل هو خلل في عقلي، أم أنني أخضع لحصار من قوى خفية من عوالم أخرى؟

تقترب مني حورية الجنة الأمريكية وتخاطبني "أنا مضيفتك التي سأرافقك في جولتك، أنت هنا الآن في حفل استقبال أنواري إلكتروني، حرّضَ حواسك واستثارها باتجاه الحدود القصوى للمتعة، فالبرامج مصممة هنا كي تتخلى عن جسدك الضعيف الخائر ومعنوياتك المنهارة وتنساهما، وتتجدد حيويتك ونضارتك بقوة عظيمة، ولنقل بقوة سبعين رجلاً".

تتوقف وتضحك ضحكة خبيثة مليئة بالإغراء وهي تلاحقني بعيني القطة الشبقة "وأظن أنك في النهاية لن تغادرنا، فأنت محاصر هنا بالإثارة القصوى التي لا يمكن لأحد أن يتجاوزها أو يتغلب عليها..... وأعلمك أنني لست متخصصة فقط بفنون الإثارة وألاعيبها التي يبدو أنها لم تجدِ كثيراً معك حسب معلوماتنا عنك، وإنما أحمل أيضاً شهادة عليا في الدراسات النفسية والاجتماعية، وتم اختياري لك نظراً لمستواك الفكري ورأسك "اليابس "الذي لا يتفهم بسهولة رؤانا الحضارية وأهداف جنتنا، كما تشير التقارير لدينا. ولكن لا تخف سأكسر حدة التشدد في أفكارك

وستنفتح معي على الجسد وغرائبية متعه، وعلى دوره في تحقيق أهدافنا".

تترك لهجة المضيفة الهجومية المستنكرة ردة فعل سلبية لديَّ بالرغم من كل إثارتها العالية وإمكانية تفريغ توتري الشديد معها، فأسألها على سبيل السخرية "ألا يوجد لديكم رجال مضيفون؟".

أسألها هذا السؤال بفضول ساخر، وأنا أتوقع رؤية رجال عراة، دون أن أستطيع أن أتخيل ماذا يمكن أن يضعوا على أجسادهم من إكسسوارات. ولكن يبدو أنني طرحت السؤال الخطأ في الوقت غير المناسب أيضاً، إذ تجيبني مستغربة "معلوماتنا عنك تشير إلى أنك لست مثلياً، لا تحب النوم مع الرجال، ولكن إذا كنت ترغب.....".

وفجأة يبرز رجل ضخم عملاق مفتول العضلات بابتسامة ماكرة على وجهه، تغطي عري جسده رسومات وشم ملونة، حُفرت عميقاً في جلده. يذهلني منظر عضوه الكبير المنتصب كعضو حصان في حالة شبق، فأرتعد قلقاً وأتوجس خيفة منه. ثم يتقدم إلى جانبه غلام أمرد في حوالي السادسة عشرة من عمره، تتمايل وتهتز مؤخرته في أثناء مشيه، فيختلط عليَّ المظهر بين صبي وصبية، وما أن ألمح عضوه الذابل إلى جانب هذا الجسد النسائي حتى أشعر بالاشمئزاز والقرف.

شعرت تماماً بخطأ سؤالي، فسارعت بالقول "كان سؤالي فضولياً، أنا لست مثلياً، أرغب فيك أنت، بجسدك المثير جداً والرائع".

وكأن هذه العبارة هربت مني دون إرادتي كي أنجو من نتائج سؤالي الغبي حول المضيفين، إلا أنها كانت قد التقطتها بسرعة، فارتسمت على وجهها ابتسامة الشعور بالانتصار الأول.

أسألها "وإلى أين سنذهب الآن؟".

تنظر إليَّ ساخرة "وهل ستذهب هكذا، بثيابك! ستبدو غريباً وأحمقَ بين الجموع، جميع ضيوفنا المحظوظين، رجال ونساء، يتجولون عراة، يعودون إلى إنسانيتهم الأولى كما كانوا في أحضان الطبيعة الأولى. الملابس حاجز اصطناعي بين الجسد وتنفسه الطبيعي، وحاجز اجتماعي يفصل بين الناس غنيهم وفقيرهم، الملابس تؤكد فكرة ملكية الجسد من خلال ستره ومحاصرته بالتحريمات. العري هنا في جنتنا طبيعي وعفوي، يذكر بالأيام التي لم تكن فيها هناك آلهة تدّعي خلق الإنسان. ولا تنسَ أن العري يجعل الجسد جاهزاً بشكل مباشر للانغماس في المتعة دون أية تعقيدات، بدءاً من حل أربطة الأحذية وفك الأحزمة التي تصبح معقدة جداً عند الوصول إلى درجة عالية من الإثارة".

أسألها بسخرية "ولماذا أنت محتشمة هكذا؟".

تضحك طويلاً "كم أنت ساذج، ستبقى دائماً شرقياً في داخلك، أنا أيضاً هنا عارية، لكن هذا لباس التشريفات الذي ترتديه المضيفات الحوريات، وهو مصمم لزيادة الإغراء والإثارة من أجل الضيوف، فالغموض المختبئ يوقظ الشهوات السرية".

" ورغم ذلك لن أخلع عارياً".

" لا ستخلعها، حواسك كلها متوفزة ومتوترة وناهضة، جسدك يريد الخروج من الجسد، ستتألم إذا لم تفرغ طاقتك وتوترك، هكذا تم تصميم البرامج".

" وإذا رفضت؟!".

" على الأقل كن أمريكياً جنتلماناً، أخلع عقلك الشرقي وعباءته المتخلفة، وارتدِ بنطالاً قصيراً وقميص تشيرت وانتعل حذاءً رياضياً، وكأنك تتنزه قرب شاطئ البحر دون رسميات".

التجول بملابس رياضية! لا أجد في هذا أي تنازل، ألبسها،

ولكن المضيفة تبتسم منتصرة "جيد، هذه أولى الخطوات نحو قبول الأمركة، بدأنا بغسيل عقلك".

أمركة! كنت قد بدلت الملابس وانتهيت، دون أن أدري أنني خطوت في الأمركة.

تثرثر المضيفة "في الشرق لازالوا يلتفون بعباءاتهم، نساءً ورجالاً، ونحن ننشئ مسابح للعراة، وشواطئ للعراة، ومحميات طبيعية في الغابات للعراة. أنتم تريدون الاختناق في داخلكم، ونحن نريد تحريركم من الظلمة وعصور الحصار والتحريمات".

تمضي بي المضيفة الآن نحو المخرج، ينفتح الباب إلكترونياً، تهاجمني أضواء ذهبية باهرة وموسيقى غجرية معاصرة على الكمانات بصوت ضاج، وكأنها تستقبلني ضيف شرف إلى التجوال المتشرد في عالم التسوق الحضاري. ألمح قرب الباب سلة مملوءة بأوراق نقدية خضراء، فأقف مذهولاً، تبتسم المضيفة "نحن هنا لتحقيق الأحلام والرغبات، تستطيع أن تغرف قدر ما تريد من النقود الأمريكية كي تشتري كل ما تشتهيه. ومع أن كل شيء هنا بالمجان فإن المتعة لا تكتمل إلا بالشراء، فالتسوق يقضي على الكآبة والملل، وهو أفضل علاج للأمراض النفسية، بدءاً من الشيزوفرينيا، ووصولاً إلى ذلك المرض الغريب المنتشر لديكم منذ زمن بعيد، ويظن في المريض أن أحداً ما يحدثه من داخل رأسه أو من قمة جبل أو من السماء".

" ولكن لماذا لا يتم الدفع بواسطة بطاقة إلكترونية؟".

" يجب أن تفهم أن الناس تستمتع بملمس النقود، تدفع وتسترد الباقي، وتحسب ما تبقى لديها لتكدس من جديد، التعامل بالنقود هو جزء أساسي من متعة التسوق..... وعلى كل الأحوال أقترح أن لا تغرف الكثير من النقود، فالسلال موزعة في كل مكان، عند المداخل والمخارج، على الأدراج والرفوف والزوايا، لا قلق هنا من ناحية النقود".

وما أن أمضي إلى الأمام قليلاً وقد خفت حدة الأنوار التي بهرت عينيَّ في صدمة الدخول حتى ينفتح مشهد بانورامي عـريض، تنـساب أمامي بحيرة اصطناعية صافية، تتساقط فيها شلالات من ارتفـاع عـدة أمتار، ويتناغم خرير السقوط مع صـوت ارتطـام أجـساد عاريـة تقفـز باستمرار إليها لتستمتع ببرودة المياه وصخبها. وتناثرت على الأعشاب حول البحيرة أرائـك ومـساند أسـفنجية ناعمـة، يتمـدد عليهـا رجـال ونساء متعـانقين بأوضـاع حميميـة مـثيرة، غـارقين في أقـصى حـدود اللذة، وكأنه لا يعنيهم شيءٌ مما يحدث حولهم. وأينما نظـرت لا أرى إلا عراة مبعثرين هنا وهنـاك، يتحركـون ويمرحـون بـصخب ضـاج، يتراكضون ويتدافعون ضاحكين، يرتمون على العشب ويتقلبون عليـه، ثم يلتفون على بعضهم بعـضاً. ألمـح بينـهم رجـالاً متعـانقين، ونـساء متعانقات، وجميعهم في أقصى لحظات المتعـة، وفي إحـدى الزوايـا يرتمي خليط جماعي يلتف على بعـضه بحيـث لا يمكـن تـبين معـالم الرجال من النسوة فيه.

وعلى ارتفاع ما يقارب المترين عـن الأرض أرى سلاسـل ذهبيـة تتحرك مثل سكة القطار بين الأرائك والمساند، تنقل للجالسين حـول البحيرة وجبات طعام سريعة ساخنة يتصاعد منها البخار، أعرف منـها البيتزا، والهامبرغر، والكوردون بلو، والتشيكن هـاوس. وإلى جانـب هذه السلاسل تنتصب أيضاً سواقٍ فضية، تسيل فيها مشروبات روحيـة دون انقطـاع، وأعـرف منـها أيـضاً الويـسكي، والنبيـذ، والبرانـدي، والشمبانيا، والبيرة. ولم يكن أمام المستلقين على المقاعـد إن اشـتهوا شيئاً من الطعام أو الشراب إلا أن يمدوا أيديهم ويتناولوا وجبة سـاخنة بـصحونها الكرتونيـة الفـضية، أو يغرفـوا شـراباً بكـؤوس بلاسـتيكية مذهبة.

أذهـب ببـصري إلى حـدود المكـان حـول الـبحيرة فأشـاهد في الخلف عدداً كبيراً من محلات تسوق متنوعة السلع، تبرز معروضـاتها معلبة ومغلفة بصور جذابة ملونة من وراء الواجهات الزجاجية، تـدعو

للشراء؛ إذ يذهب الأشخاص إليها مذهولين تحت إغرائها دون القدرة على الخلاص من الوقوع في فخها. تشهد هذه المحلات حركة دؤوبة لا تنقطع، أشخاص يدخلون ويخرجون مثل صفوف النمل التي لا تنتهي، يغترفون نقوداً من السلال ويدخلون، ثم يخرجون وهم يدفعون أمامهم سلالاً متحركة وعليها أكوام كبيرة من السلع التي اشتروها. أستغرب عندما أراهم يرمونها عند أول زاوية تصادفهم أو في أسفل درج، ويدهشني أكثر عودتهم لاغتراف المزيد من النقود والعودة إلى الداخل من أجل الشراء مجدداً.

تلاحظ المضيفة استغرابي ودهشتي فلا يكون أمامها إلا أن تعلق "ألا ترى، هذه هي متعة التسوق، الناس يملؤون وقتهم وحياتهم بالشراء، فينسون كل مشاكلهم، المهم الشراء".

لا أفهم لماذا ينظر إليَّ الجميع باستغراب، وكأنهم اكتشفوا حيواناً غريباً نادراً، حيواناً يرتدي ملابس ويتجول خطأ بين مجموعات العراة. تقول لي المضيفة "لقد نبهتك، تبدو أحمقَ وشاذاً بين الناس الطبيعيين".

اضطر إلى الهروب من النظرات الفضولية التي تلاحقني، فأطلب من المضيفة التوجه نحو درج في الزاوية للخروج من المكان المزدحم بالعراة الفضوليين. يلاحق نظري الدرج صعوداً، أرفع رأسي وراءه، وفجأة أصاب بدوار شديد، بل كأن كل شيء يدور بي، إذ اكتشفت أنني في قعر فجوة على أرضية بناء ضخم شاهق، ترتفع فيه عشرات الطوابق على شكل دائري حول فسحة البحيرة، دون أن أدرك النهايات في الأعلى التي تختفي في الأضواء الباهرة. وأينما أدرت بصري أرى أدراجاً كهربائية بأغطية بلورية شفافة تتحرك صعوداً وهبوطاً، مصاعد بجدران زجاجية تطير وتهبط، جسوراً متحركة تربط بين أجزاء الطابق الواحد، وكلها ممتلئة بخطوط النمل الدؤوب، تذهب وتجيء ضاجة فيها، فشعرت وكأنني في مدينة فضائية على أحد الكواكب التي احتلها الأرضيون.

أسأل مضيفتي "أين سنذهب في هذا العالم الواسع؟".

" أينما ترغب، فالطوابق مخصصة حسب نوع السلعة أو الخدمة التي نقدمها للزبائن المستهلكين، وستجد في الطابق الواحد تنوعاً هائلاً في السلعة أو الخدمة الواحدة ضمن مفهوم تنافس السوق وإغراءاته".

" وإلى أي طابق سنذهب؟".

تقترب من لوحة إلكترونية معلقة في أحد الجدران، تضغط أزراراً فتظهر لائحة طويلة تشير إلى تخصصات كل طابق: قسم الأعشاب والمقويات والمنشطات الجنسية الطبية والطبيعية، قسم العطور ومستحضرات العناية بالجسد وتجميل الوجه، قسم الملابس الداخلية وإكسسوارات الإغراء والإثارة، قسم مخازن الأدوات والأجهزة الجنسية، مع فروع تخصصية للساديين والمازوشيين، قسم المنشورات والتسجيلات السمعية ـ البصرية وألعاب الفيديو المخصصة للجنس، قسم صالات الواقع الافتراضي الجنسي، صالات القمار بمراهنات جنسية، قسم خدمات التدليك والمساجات المنشطة للطاقة الحيوية الجسدية والجنسية، قسم الجنس الجماعي المتنوع، قسم الاتصال الجنسي الغرائبي، قسم المعالجات النفسية للاضطرابات الجنسية، قسم التحويل إلى جنس مغاير، القسم السري الخاص بتلبية نزوات كبار المسؤولين الشاذين..... أشعر بالدوار فأتوقف عن القراءة.

تسألني المضيفة "اختر الآن، إلى أين تريد الذهاب؟".

يفاجئني تنوع السلع والخدمات المعروضة على اللائحة، أشعر بالحيرة والتردد في تحديد ما أرغب برؤيته، لا أستطيع أن أفكر بشكل طبيعي وأنا أشعر بتوتر أعصابي وانشداد عضلاتي الشديد منذ أن حرضت قاعة الاستقبال بمؤثراتها المبرمجة طاقاتي الحيوية. تجتاحني رغبة شديدة باستمرار، تدفعني لتخفيف التوتر مع أي جسد، فيما

المضيفة تحتك بي طوال الوقت في حركات مدروسة لإغرائي والإيقاع بي في أحضانها. ما يجعلني أتماسك وأتغلب على توتري وانفجار طاقتي هو خوفي من فقدان ذاتي والفشل في عبور مثل هذه العوالم، فإذا ما دخلت التجربة مع المضيفة فلن أستطيع التوقف أمام هوس جسدها الذي يشتعل أكثر فأكثر، وسأنهار بالكامل أمامه. لا أنسى أنني هنا بتجوال إطلاعي على الجنة الأمريكية بدعوة من العميل إكس، ولكنني أتيت أيضاً بدافع خفي يتجاوز فضولية المعرفة إلى نوع من الاختبار الذاتي في المواجهة الشخصية مع عوالم الإغراء الوهمية والاصطناعية والصمود فيها، ومن ثم النجاح في اجتيازها. ولذلك فبرغم توتري وحيويتي المتفجرة، وهو ما تراقبه المضيفة بارتياح شديد منتظرة فرصة الإيقاع بي، فإنه عليَّ البقاء بعيداً عن فخ الإثارة، بعيداً عن الانغماس في عملية جنسية مع جسد لا أعرفه، مع فتاة لا أحبها..... فهناك من ينتظرني، وعليَّ أن أكون أهلاً له.

وأمام حيرة الاختيار والتردد فكرت أنه لا بأس لو ذهبت إلى قسم التدليك والمساجات، فقد يخفف هذا من توتر أعصابي دون أن أقع في فخ ممارسة جنسية لا أرغبها. تقودني المضيفة إلى الطابق الرابع عشر، أختار أول غرفة مفتوحة، أرتمي على السرير بعد أن أخلع ملابسي حسب التعليمات المعلقة على الجدار، وأتمدد على صدري تحت غطاء حريري ناعم. تتمدد المضيفة على سرير آخر مقابلي بشكل جانبي، وقد انكشفت مفاتنها الحميمية بعد أن تدلت سلاسلها جانباً، يبدوا أنها لازالت مصرة على الإيقاع بي بعد جلسة الاسترخاء، منتظرة فرصة انهياري واستسلامي، فأدير وجهي إلى الجهة الأخرى هرباً من رؤية ارتماء جسدها المستلقي بوضعية ناعسة تغري بإغفاءة بين أحضانها.

الأجواء حولي تدعو للاسترخاء، جدران وردية، إضاءة ناعمة خافتة، روائح عطرية، موسيقى حالمة، تيارات هوائية دافئة، سرير مريح ناعم. أكاد أغفو لو لم أشعر بيدين تدهنان ظهري بمرهم يُسهل

التدليك والانزلاق، ثم تذهبان بمهارة في تفاصيل جسدي، تكتشفان معالم عضلاتي المشدودة وامتدادات الأعصاب والأوردة المختبئة تحت جلدي. تلاحق اليدان الناعمتان مسارات انسياب الطاقة في الجسد، فتحرضان مجالات كهربائية مغناطيسية فيه، وتسحبان بالأنامل كل توترات الجسد من جذورها في الأعماق، لتبعثرها وتجعلها تتلاشى في الهواء بعيداً عنه. أشعر باسترخاء شديد يتسلل إلى أعماق تلافيف الدماغ في رأسي، وينسال في مجاري الدم والسيالات العصبية، وأصبح طيعاً بين اليدين الساحرتين وفق نزوات تجوالهما وقد أخذتا تنزلقان إلى الأسفل أكثر. أدير وجهي نحو مضيفتي، يدهشني أنها أخذت تسترخي معي، وكأن حفلة التدليك مشتركة بيننا، وتتلقى رحلة اليدين الماهرتين نفسها على جسدها، فأرى مشاعر استرخاء على وجهها شبيهة بمشاعري، وكأن هناك تواصلاً أو تخاطراً في تلقي التموجات المنبعثة من نبع واحد. ولكن مع اقتراب اليدين الماهرتين إلى مؤخرتي ومحاولتها التسلل إلى أعضائي الحميمية، رأيت المضيفة تذهب بيدها إلى عضوها لتداعبه بمتعة، إذ إنها كما يبدو لم تعد تحتمل الإثارة وفقدت الأمل بي حالياً، وخاصة بعد أن رأت اندماجي مع موسيقى اليدين الماهرتين، فما كان مني إلا أن أدرت وجهي عنها إلى الجهة الأخرى.

للحظات ينتابني شعور أنني أعرف هاتين اليدين كلما مرتا على وجهي في رحلتهما على جسدي، ألمحهما بطرف عيني، يدان نحيلتان رقيقتان بالرغم من شدتهما في التدليك! لا أدري لماذا تذهب بي الذكريات نحو يدين تلتقطان بالأنامل النحيلة الرقيقة رسائل عشق طفولية من قرب برك المياه الصغيرة أيام سقوط المطر، تذهب بي الذكريات بعيداً في دفء الأجواء ومتعة الاسترخاء. وفي اللحظة التي تتسلل فيها اليدان مباشرة لمداعبة الأجزاء الحميمية، يدفعني شعور قوي إلى الانقلاب على ظهري ومواجهة وجه الفتاة التي أثارت بي هذا الاسترخاء، وحرضت هذه الذكريات..... أنقلب، يصدمني وجه

أليف يحرك الحنين في القلب، أرى وجه إلهام! حبيبة الكلمات الأولى! أنظر إليها بفرح ودهشة وأتأملها بشوق، ولكنها ليست في جسد الرابعة عشر من عمرها عندما كنت أرمي لها الرسائل في الأيام الممطرة، بل في جسد ثلاثيني ناضج، طويل ممتلئ، وثديين لم يعودا طفوليين ممسوحين على الصدر، بل حمامتين ترتميان بكسل مغرٍ على مساحة واسعة منه، في حين أخفى سرير التدليك أسفل جسدها. يكشف عريها الناضج إثارة شديدة لا أستطيع ربطها مع فتاة الذكريات ذات الأربعة عشر ربيعاً، تلك التي كانت تمتلئ حياء ويحمر وجهها عندما تتقابل العيون.

تلتقي نظراتي الآن بنظرات إلهام، تبتسم ابتسامة حرفية غير آبهة لدهشتي برؤيتها بعد غياب طويل، واشتعال ارتعاشة في القلب، في حين كانت يداها تصران على إنهاء توتري بمهارة. ربما كدت أنساق إليها تحت ضغط الذكريات، لكن رؤية وجهها المحايد بابتسامتها الاحترافية، وجسدها الناضج الذي لا علاقة له بفتاة الأربعة عشر ربيعاً، وانكسار العشق الطفولي بجرأة يديها، كل هذا جعل الاسترخاء يطير من جسدي ويختفي من تلافيف دماغي.

أسأل بدهشة "إلهام! هذه أنت!".

تجيبني ولازالت ابتسامتها الاحترافية الواثقة على فمها "نعم هذه أنا، وما الغرابة بذلك!".

" ماذا تفعلين هنا؟".

" أنا أعمل هنا في الجنة الأمريكية. لقد وصلت معك إلى نصف الطريق نحو متعتك، وكدت أجعلك تسترخي من توترك الجسدي والجنسي بطريقة لم تختبرها أبداً في حياتك، ولكن هجوم ذكرياتك المريضة قطع انسياب المتعة، ذكريات دون معنى أفقدتك متعة اللحظة الآنية".

" ولكنني كنت أعشقك كالحلم؟".

تجيب ساخرة "ألازلت متعلقاً برومانسيات مجتمعات شرقية متخلفة ومكبوتة، حيث لا يستطيع الشاب والفتاة الحصول على قبلة إلا في ليلة عرسهما! أنا لست عشقاً لأحد، أنا امرأة عملية منفتحة نحو الجميع، وعملي هو منح الاسترخاء والمتعة لضيوف الجنة".

" لا أدري كيف وصلتِ أنت إلى هنا، إلا أنني سمعت أنك فقدت براءتك الأولى وتحولت إلى كتابة التقارير الأمنية بمن حولك، وقد انهارت بيوت وأُسَرٌ مقابل القليل من المال كنت تحصلين عليه مقابل هذا العمل السيئ. شخصياً لا أصدق أنك كنت تفعلين ذلك، أنا أعرفك، لم تتعلمي سوى كتابة رسائل الحب الطفولية، وبالتأكيد أنت بريئة من هذه الاتهامات، أليس كذلك؟".

"لا ليس كذلك، ولكنني اكتشفت خطئي قبل فوات الأوان، كنت غبية بالتعامل مع الأجهزة المحلية التي لم تكن تدفع لي إلا القليل من النقود وبالعملة المحلية التي تنقص قيمتها باستمرار. تخليت عن كتابة التقارير للأجهزة المحلية، وتحولت إلى كتابة التقارير لأجهزة المخابرات العالمية، بالعملة الأمريكية، وتم تقدير خدماتي لصالح الإنسانية، فتمت مكافأتي بالعمل في الجنة الأمريكية. وأُسر لك أنني لازلت أمارس هواية كتابة التقارير هنا إلى جانب مهنتي الاحترافية بمنح المتعة عن طريق التدليك".

" وهل ستكتبين تقريراً عن لقاءنا؟".

" بالتأكيد، ولكن بسبب نظراتك المجنونة لي سأكتبه بشكل إيجابي عنك، وعن انسجامك الرائع مع متع الجنة الأمريكية، فأنا لم ألتقِ مع ضيوف مثلك. والآن لندخل إلى حمام دافئ لأدلكك بالماء والصابون المعطر، تغتسل بهما من بقايا أفكارك المتخلفة..... نظراتك المليئة بالدهشة والحنين إلى شيء غريبة في وجهي لم أفهمها، ولكنها جعلتني أشعر بإثارة غريبة، وأكاد أخرج عن طوري بانتظار حفلة جنسية رائعة ومغايرة معك في حوض حمام من المرمر مع كأس من الشمبانيا، حفلة

لم تشاهد مثلها حتى في الأفلام الأمريكية. وإذا أردت ليلة جنسية قرب بركة مياه لتشبع حنينك لذكرياتك العفنة، فيمكنني أن أخلق حاسوبياً أجواء شبيهة ببحيرة مياه ومطر، وسأنحني لك وألتقط رسائل وهمية قدر ما تريد، فيما أنت تأخذني من الخلف، فأنا أرغب بليلة مهووسة معك بكل الطرق والأوضاع".

أسألها ببعض الخجل وقد فقدت الرغبة برغم كل المحرضات التي تلقيتها "لا أصدق أنكِ بهذا النضوج وهذه الجرأة، وأنت لازلت..... بكراً، فلقد سمعت أنك لم تتزوجي أبداً".

تجيبني ساخرة "بكراً! هل تظنني شاذة ومريضة نفسياً! سترى الآن خبرة جسد ارتمى تحت شبق عشرات من الرجال المجانين به، والذين وصل صوت لهاثهم إلى السماء".

" ولكنني أرغب بإلهام الصغيرة، أرغب أن أجلس معها وأنظر في عينيها، أتحدث معها ونحن نقرأ رسائلنا الطفولية القديمة".

وكأن إلهام فقدت الأمل مني بعد ما سمعت العبارة الأخيرة وشاهدت ارتخاء عضلاتي، فدفعت المضيفة بغيظ عن سريرها، التي كانت وصلت إلى استرخاء كامل، أخذت مكانها وتمددت، وذهبت تداعب نفسها بحيوية شديدة، بحيث كاد صوت لهاثها يصل إلى السماء.

أنظر إلى إلهام وهي تداعب نفسها وتنظر إليَّ بغيظ شديد فيما أرتدي ملابسي، ولكن المضيفة لاتزال مستمرة شرسة وتقول "في معاييرنا الغربيةٍ الفتاة التي لم تجد شاباً أحمقَ لإزالة بكارتها هي الغبية، الباردة جنسياً، عديمة الخبرة في الحياة وفي فنون الجنس، ولذلك يحاذرها الرجال لدينا حتى لا يتلوثوا بدماء المرة الأولى. وكلما تقدم العمر بالفتاة عندنا دون أن تتخلص من بكارتها تصبح مليئة أكثر فأكثر بالعقد النفسية، ومن الصعب أن تجد رجلاً يقبل بالليلة الأولى معها. وإذا لم تتجه إلى الاستمناء والسحاق لتفريغ

شحنات الطاقة بداخلها، فإن حياتها تمتلئ بكبت مخيف، ينعكس عندها على شكل تحريمات ودعوات متشنجة مريضة إلى الفضيلة..... يجب أن تقدر قيمة إلهام الآن بخبراتها وتجاربها العميقة، اِنْسَ غشاء البكارة وقصص الفضيلة الخرافية حوله، أنتم تهربون من مواجهة الذات، وكأنكم لا تعرفون أن الفتاة تستطيع الاستمتاع جنسياً مع عشرات الرجال دون أن تفقده، وإذا ما تمزق بالخطأ فتستطيع أن تجري ببساطة عملية ترقيع له، وتصلكم سالمة ليلة العرس وأنتم تظنونها طاهرة بعبارات مثل ملاك هبط من السماء".

أذهب مبتعداً، وصوت إلهام يلاحقني "سأغير كتابة التقرير عنك بسبب سلبيتك، مجنون أنت ورأسك اليابس".

أذهب مبتعداً، وتموت إلهام ذات الأربعة عشر ربيعاً..... وتُمحى من الذاكرة.

تسألني المضيفة بغيظ شديد "لم أصدق أن رأسك يابسة إلى هذه الدرجة، ولكنني مصرة أنك ستنهار في النهاية، والآن ماذا ستختار؟".

ما أن أسير بضع خطوات حتى تعود الحيوية إليَّ من جديد بتأثير الأجواء المبرمجة بالكامل في هذا الاتجاه، وهذا ما سيجعل وضعي صعباً من جديد في هذه الجنة الأمريكية، ولذلك أحاول أن أختار قسماً لا يوجد فيه احتكاك مباشر مع النساء حتى لا أتورط مع امرأة أخرى مثل إلهام، فأختار قسم الملابس الداخلية وإكسسوارات الإغراء والإثارة.

تقودني المضيفة إلى الطابق السابع عشر، دون أن أستغرب من جديد لقاء وجه أعرفه فيه. تأتي إلينا مسؤولة القسم من بعيد، مرتدية ملابس داخلية حمراء مثيرة، سروال، وحمالة ثديين، وفوقهما قميص نصفي شفاف. ولكن الملابس هذه تبدو ممزقة بالكامل بطريقة غريبة وكأن المرأة تعرضت لعملية اغتصاب فلم يبقَ منها سوى نتف قماشية رقيقة معلقة على الجسد هنا وهناك، لا تغطي شيئاً من عريه وحميميته.

أهمس بأذن المضيفة "لماذا الملابس الممزقة! ألا يوجد لـديها ملابـس جديدة؟".

تسخر المضيفة "هذه آخر موضـة في الملابـس الداخليـة لـدينا، ملابس مليئة بالإغراء وخاصة للمهووسين بـالعنف الجنـسي، ولـذلك تم اختيار اللون الأحمر مترافقاً معها، إذ إنها تزيـد الإيحـاءات لـديهم بالدم فيشعرون بإثارة أكبر".

تصل مـسؤولة القـسم إلينـا..... مـن جديـد أعرفهـا! جورجيـت الرائعة التي أحمل لها في قلبي الكـثير مـن الـذكريات الحميميـة عـن اللقـاءات الجنـسية الأولى المليئـة بالمـشاعر والعواطـف الإنـسانية، جورجيت التي حافظت على كرامتـها ولم تتنـازل لزوجهـا المتعـصب عن دينـها. وسـرعان مـا شـعرت سـاقي بـالحنين إلى لقـاء الـسيقان، فارتعش القلب لها. إلا أن تعابير الوجه المبتسمة اصطناعياً لـضرورات المهنة صدمتني، لم أرَ لديها أي طيف ابتـسامة حـب، أو ذكـرى، أو ارتعاشة قلب، فانمحى مباشرة من ذاكرتي جـسد فتـاة الـسابعة عـشرة الذي احتضنته طويلاً ومراراً في زمن ما، بل وأصـبحت لا أرى أمـامي سوى جسداً عارياً مترهلاً، لم تعد تعنيني إثارته بعد اسـتقبالها البـارد. تلاحظ المضيفة عدم اندماجي وانسجامي مع أشخاص كـانوا محبـبين إليَّ، تصمت طويلاً، يبدو أنها تفكر أن هناك خللاً ما ببرمجة الزيارة، أو ربما بشيء آخر لا تستطيع إدراكه..... هكذا أظن.

وبحرفيـة عاليـة تنـشر جورجيـت أمـامي نمـاذج لا تنتـهي مـن الملابس الداخلية وإكسسوارات الإثارة والإغراء الخاصـة بالنـساء، لا أجرؤ على السؤال عن ملابس الرجال حتى لا يرسـلوا إليَّ مـن جديـد الرجل الحصان والغلام الصبية. تشرح جورجيت لي بثقـة المتخـصص بمهنتها "متعة رؤيـة جـسد المـرأة ومفاتنـها تتبـدى في لعبـة الـصمت والإخفاء، الصمت الذي يتحدث، والإخفاء الذي يكشف. لعبة تأخـذ معانيها من ارتماءات الألـوان علـى الجـسد، سـواء بإمكانياتهـا علـى

استشفاف الأسرار وراء إيحاءت الكشف، أو بإعمال الأحاسيس في الغوص بعيداً وراء إيحاءت الإخفاء. والمرأة القادرة على اكتناه خفايا لعبة الصمت والإخفاء بالألوان والتلاعب بالإثارة البصرية لدى الرجل هي التي تجعله يعرف قيمة جسدها، فتثيره بقوة. وإذا ما استطاعت إيجاد التناغم والانسجام بين الإثارة البصرية والإثارة اللمسية فإن وتيرة المتعة ترتفع أكثر. فالرجل عندما يرى وتبلغ به الإثارة ذروتها يتلمس، تتنزه لمساته بين نعومة الملابس ونعومة الجسد، ليصل إلى تلك اللحظة التي تقوم فيها يداه بنزعها واكتشاف ما تخبئ. تُرمى الملابس في كرنفال ضاج من الألوان على السرير، والكرسي، وأرضية الغرفة، وتنسدل على النافذة. وإذا كانت المرأة ذكية أكثر عطرت ملابسها بروائح الإثارة، فيبلغ تحريض الحواس عند الرجل ذروته. ونحن لا نكتفي هنا بمعطرات الجسد والملابس، بل ولدينا معطرات لأغطية السرير، للستائر، لجو الغرفة، للسجاد، لأرضية الحمام، فالعطر يفتح عوالم حسية تعود بنا إلى زمن بدائي، زمن الغابة البكر عندما كانت حاسة الشم هي أداة الإنسان الأول في اكتشاف الجسد والعالم حوله".

يذهلني استغراق جورجيت في تفاصيل الاستثارة الحسية التي تولدها الملابس، مستغرباً من حصولها على هذه المعلومات والخبرات التفصيلية والدقيقة، فأسألها "ربما بدأت خبرتك في تأثير العطور منذ زمن بعيد، عندما كنت تثيريني بعطر شذى الليمون الذي.....".

تقاطعني بعنف "عندما تعيش المرأة حريتها الطبيعية بعيداً عن سلطة الرجل الأبوية، وتستطيع النوم مع من ترغب من الرجال، مثلها مثل الرجل الذي ينام مع من يرغب من النساء، تختفي الذكريات الشخصية البعيدة، وتحل مكانها متعة اللحظة الآنية، لحظة اشتعال الجسد في الحاضر دون ذكريات وحنين... ولذلك انسَ ذكريات عطر الليمون والحنين إليها، فأنت قادم من مجتمع متخلف، موبوء ليس بالحنين والذكريات فقط، بل وبأوهام حوريات لا تعرفون إلباسها إلا

ملابس سندس، دون أن تعرفوا أن اللون الأخضر هو مهدئ نفسي وجنسي، يتناقض مع الشبق لديكم للحوريات، أما إثارة الألوان الأخرى فلا تعني لكم الكثير. نحن نلبي هنا الرغبات الإنسانية الأكثر عمقاً التي تتجاوز متطلبات صحرائكم الضيقة بالانفتاح على كل الألوان. الحياة تعيشها مرة واحدة ولن تتكرر، وعليك استغلال كل لحظاتها والاستمتاع بها إلى أقصى الحدود..... والآن أدعوك إلى ليلة ماجنة معي، وسترى كرنفالاً من الألوان الضاجة على جسدي، عالماً غرائبياً من ملابس الإثارة، الملونة والناعمة والمعطرة، ولن تنسى هذه الليلة أبداً، إذ سيرافقك هوسها باستمرار، وربما تبقى معي هنا متعلقاً بالمتع التي سأمنحك إياها".

ولكن بالرغم من الخبرة المثيرة والعميقة التي تحدثت بها جورجيت، إلا أنني فقدت الرغبة في ملابسها، وإثارتها البصرية واللمسية والشمية، فقدت الرغبة وأنا أراها تحترف لعبة الصمت والإخفاء دون حنين وذكريات. أدير ظهري لكل احترافيتها التي انكسرت أمامي، وقد تركتُ خيبة أمل كبيرة على وجهها.

إلا أنني قبل أن أمضي سألتها "وزوجك الأول الذي عشقته وهربت معه من البلدة من أجل جسده الرياضي، ثم فاجأك بتعصبه الديني هو وأسرته ضد مسيحيتك، ماذا حدث معه؟ فلقد سمعت أنك غادرته إلى زوج آخر احترم عقائدك!".

تجيبني مستنكرة "أنا مع زوجي الرياضي دائماً، ولم أتركه أبداً، والحكايات التي تم نشرها عن مغادرتي له إلى زوج آخر هي كاذبة. زوجي الرياضي الرائع لم يكن متعصباً، بل منفتحاً على كل الأديان، وتأكيداً على ذلك فقد أصبح مسيحياً مثلي، وعندما جاءته الفرصة ليعبر عن انفتاحه انضم إلى أبرشية مسيحية بروتستانتية تم إنشاؤها حديثاً في المنطقة من قبل "مؤسسة نشر الديمقراطية"، وترعاها الجيوش الأمريكية التي قدمت إلينا لإنشاء مجمعات التسوق الحضاري، وهو يبشر الآن بعودة المسيح المنتظر".

أغـادر جورجيـت غـير متأسـف، تلاحـظ المـضيفة امتعاضـي الشديد، وتحـاول أن تـستغل الفرصـة وتبـدي تعاطفهـا معـي دون أن تستطيع فهم أسبابه، وتسألني بود غريب "إذا كنت ترغب رؤية ملابـس الإثارة عليَّ فأنا جاهزة، أستطيع أن أخلع ما ألبسه مـن إكسـسوارات، وأرتدي شيئاً جديداً لأجلك".

" لا أرغب، لكنني بدأت أشعر بالملل من التجوال في جنتكم".

" أستغرب مـن الملـل الـذي تبديـه، مـع أن كـل شـيء مخطـط ومبرمج له بشكل جيد، ماذا أستطيع أن أفعل لك؟".

" يبـدو أن الفتيـات اللـواتي عـشقتهن في مرحلـة شـبابي كلـهن موجودات هنا، ولكنني أصاب بخيبة أمـل وأشـعر بالـصدمة لرؤيتـهن هنا بهذه الطريقة. لم أعد أرغـب بلقـائهن، فهـل تكـوني ودودة معـي وتخبريني عنهن، ثم سأترك لك حرية إنهاء الجولة كما تـرغبين منفـذاً كل طلباتك".

" هذا يسرني أن تلجأ إليَّ في النهاية، عمن تريد السؤال؟".

" هند؟".

" تلك التي تزوجها تاجر مواشي الشمال؟".

" نعم، ماذا حدث لها؟".

" هذه الفتاة محظوظـة جـداً في جنتنـا الأمريكيـة بعـد أن أصـبح زوجهـا مـزود لحـوم الأغنـام للجيـوش الأمريكيـة الـتي قـدمت إلى المنطقة، وقد أضاف إليها تربية الخنازير بسبب شعبيتها بينهم من أجل زيادة أرباحه، ومكافأة له حظيت زوجته بالعمل هنـا في قـسم مخـازن الأدوات والأجهزة الجنسية "سـيكس شـوب"، وأصـبحت أهـم بائعـة لدينا في هذا التخصص".

" وماذا تبيع في هذه المخازن؟".

" لنذهب ونرَ".

" لا أفضل أن تخبريني أنت حتى لا ألتقـي بهنـد وأصـاب بخيبـة أمل جديدة".

" بكل سرور، تبيع المخازن هذه كل ما ابتكرته المخيلة الإنـسانية خلال التاريخ مـن أدوات وأجهـزة اصـطناعية لزيـادة الإثـارة والمتعـة الجنسية في حال تعثرت الممارسات الجنسية الاعتيادية: أعضاء ذكرية جنسية اصطناعية، مطاطية وبلاستيكية، وبجميـع الأحجـام والأطـوال والألوان المرغوبة، والتي تعمل يدوياً أو على البطارية أو كهربائياً، أو يمكن برمجتها حاسوبياً حسب الطلب. وتستخدم هذه الأعضاء بـشكل خاص من قبل السحاقيات، وممارسـي الجـنس الجمـاعي، والرجـال الذين فقدوا حيويتهم ولا تنتصب أعضاؤهم. ويمكن لهذه الأعضاء أن تجهز بأحزمة خاصـة للـسحاقيات المـسترجلات، اللـواتي يـشعرن أن بداخلهن رجل يكاد يخرج من تحت جلدهن".

تصيبني الدهشة مما تقولـه، فأسـألها سـاخراً "كـل هـذا لـديكم لهؤلاء النساء المسكينات اللواتي لا يحصلْنَ على متعة طبيعيـة! ومـاذا يوجد للرجال المساكين الذين يخافون النساء من كثرة تقريع الأمهـات لهم في صغرهم".

" توجد أيضاً مثلها أعضاء أنثوية اصـطناعية بالمواصـفات نفـسها للرجال الذين يخافون النـوم مـع نـساء حقيقيـات، ويـشعرون معهـن بالإخفاق. ولكن يفـضل وضـع هـذه الأعـضاء في دمـى قابلـة للـنفخ بالهواء ويمكن النوم معها حتى الصباح، وهـي دمـى سـهلة الطـي في حقائب صغيرة ويمكن اصطحابها في الأسفار والرحلات".

" رجل ينـام مـع دميـة مطاطيـة منفوخـة، يحـدثها طـوال الليـل ويداعبها! أليس هناك أيضاً دمى رجال للنساء اللواتي يخفن النـوم مـع رجل حقيقي؟".

" توجد، ولكن ليس لها شعبية بين النساء اللواتي يفـضلن رجـلاً حقيقياً أو يلجأن إلى السحاق".

" هـل انتـهيت، أم توجـد بعـد أجهـزة للكـسالى تنـوب عنـهم بممارسة الجنس؟".

" ليس إلى هذه الدرجة، ولكن توجد أجهـزة مـساعدة، أسـرّة، وكراسي، وأحواض سباحة، وكلها هـزازة إلكترونيـاً تعفـي ممارسـي الجنس من بذل أي مجهود".

" هل يتم الاكتفاء بهذا أم انتهى إبداع الخيال هنا؟".

" طبعاً لا، لـدينا ملابـس جلديـة للـذين يـثير رؤيتـها وملمـسها ورائحتها على الأجساد الشبق لديهم، أحذية طويلة، بناطيل وسـترات تسير مع انـسيابات الجـسم ملتـصقة بـه، قفـازات للأيـدي، ربطـات للسواعد، ملابس داخلية، أقنعة للوجـوه، ومـع أن الجميـع يفـضلون الجلود السوداء إلا أن للجلود الحمراء أيضاً شعبيتها. وأخبرك أن هـذه الملابس تناسب بشكل خاص الساديين والمازوشيين.....".

" ساديون ومازوشيون! هؤلاء المرضى النفـسيون الـذين يـسببون الأذى لغيرهم وللآخرين".

" لا تفكر هكذا، أنت قادم من مجتمعات مريضة تمارس الأفعال في السر وترفضها في العلن، ولا تعرفون إلا حكـم الـسيف والـسجن لمعالجة الاختلالات الجينية عند الإنسان. هؤلاء أناس طبيعيون ولهـم الحق بالحياة، جاءهم بلاء غير طبيعي من خلل جيني منـذ ولادتهـم، مثلهم مثل اللوطيين والسحاقيات، ولأنه لا توجد معالجات فعالة لهم فيجب مساعدتهم وتحقيق رغباتهم ماداموا يتحركـون ضـمن دائـرتهم دون أن يسببون أذى للآخرين. والمخازن تلـبي متطلبـاتهم مـن أدوات التعذيب بأشكاله المختلفة، سياط، حبـال وقيـود وجنـازير، مناديـل للخنق، عُصابات للعيون، أحزمة للتعليق في الـسقف، أقنعـة لإخفـاء الشخصيات، وجوه مصاصي دماء، قرون وأذناب شياطين، سـكاكين وخناجر، كراسي لتقيد النساء واغتصابهن".

أفكر مباشرة أنه من الجيد أنـني لم أزر هـذا القـسم، فكـل هـذه

الأدوات والأجهزة تـثير تقـززي واشمئـزازي، فهـي تـذكرني بتقطيـع اللحم والعظم، فيما الدماء تنزف في كل مكان.

أسأل المضيفة "أرجو أن لا تكون هناك أخبـار سـيئة مثلـها عـن سهير؟".

" سهير كانـت الأذكـى بـين فتياتـك، عنـدما رجعـتْ مـن بـلاد الصحراء اكتشفت أن زوجها انضم هناك إلى تنظيمٍ ديني إرهابي يختبئ عناصره في الجبال. وبما أن زوجها قد نساها تقريباً وأخذ يهـتم بـسبايا الحرب من النساء، فقد شعرت بخطورتـه علـى بنـات جنـسها وعلـى الإنسانية بشكل عام، فكتبت به تقريراً للأجهزة الدولية فـألقوا القـبض عليه هو ومجموعته، وتمت مكافأتها بالعمل هنا في الجنة الأمريكية".

" وماذا تعمل هنا؟".

" في قسم الواقع الافتراضي الجنسي، وهو مـن الأقـسام المهمـة لدينا التي تطورت في عصر الأجهزة الإلكترونية، يجب أن تعرف أننـا نستغل كل الإمكانيات التقنيـة الجديـدة لإشـباع الرغبـات الخفيـة في أعماق الفرد".

" واقع افتراضي، وأجهزة إلكترونية، ورغبات خفيـة، عـن مـاذا تتحدثين؟".

" كما قلت لك الناس عندكم تمارس أشياء تخاف الإعـلان عنـها لأنكـم تخـافون مواجهـة الـذات، فـالأزواج يمارسـون الجـنس مـع زوجاتهم وهم يتخيلون أنهم ينامون مـع امـرأة أخـرى، شـاهدوها في الشارع، أو تنشر الغسيل في المنزل المقابل، أو تـشاركهم في مكتـب العمـل، وبالمقابـل تلجـأ الزوجـات إلى الأسـلوب نفـسه مـع رجـال يقـابلونهن أيـضاً في يـومهم الطويـل، يحـدث هـذا في حـين يخـدع الأزواج والزوجات بعضهم بعـضاً بتأوهـات كاذبـة في أثنـاء ممارسـة الجنس، يريدون الإيحاء بهـا الاسـتمتاع مـع شـريك العمـر. الخيـال والتخيل أصبحا أهم من الفعـل ذاتـه في الحيـاة المعاصـرة المعقـدة،

وهما يساعدان على التخلص من ضغوط الواقع والهروب منها وتحقيق الرغبات المكبوتة".

" وما علاقة الأجهزة الإلكترونية بكل هذا؟".

" تقنيات الواقع الافتراضي في عوالم الحوسبة كلية الوجود حلت هذه المشكلات، فهي تشبع الخيال بفعل في واقع آخر افتراضي، مغاير للواقع الحقيقي. وما على الشخص الذي يرغب بالانتقال من الواقع إلى الخيال إلا أن يجلس على كرسي خاص مجهز لهذه العملية، وتربط أعضاؤه وبما فيها الحميمية التي تنقل له الأحاسيس بمجسات ونواقل إلكترونية تتصل برامج حاسوبية خاصة، فتتحرض حواسه بفعل ورد فعل. وبهذا يمكنه المشاركة بحواسه البصرية واللمسية والشمية كافةً في حوادث فيلم مبرمج حاسوبياً لهذه الغاية، بل ويتحكم بمجرياته بكونه أحد الشخصيات الرئيسية فيه كما يتحكم بأحلام اليقظة، والمشاركة ستكون حقيقية ولكن في عالم افتراضي. وهكذا بدلاً من مشاهدة أفلام جنسية عن طريق السينما أو أشرطة الفيديو والتماهي مع شخصياتها على المستوى النفسي بالخيال، فإنه سيشارك في العملية الجنسية فعلياً، وسيتحكم بها وفق رغباته ونزواته".

فكرت مباشرة أن الإنسان سيصبح هكذا جزءاً من الآلة ـ الصورة، ولكن لماذا لم تقل لي المضيفة أنه سيمارس الجنس مباشرة مع آلة إلكترونية من أجل إشباع خياله الشبق. تشعر المضيفة بعلائم السخرية على وجهي من هذا الاستخدام للواقع الافتراضي، فتهاجمني من جديد "ستبقون دائماً من مخلفات العصر الورقي، أو بالأحرى من مخلفات العصر الحجري، ولكن عندما يجتاحكم العصر الإلكتروني سيفنيكم أنتم ونسلكم وسيمحي آثاركم الورقية المتخلفة".

" ورولا ماذا حدث معها؟".

" رولا تقدم خدمات المعالجة للشخصيات التي لديها

اضطرابات نفسية على أرضيات خلل جنسي، يجب أن تعرف أنه من السهل حل مشاكل الساديين بإيجاد مازوشيين يتجاوبون معهم، أو بالعكس حل مشاكل المازوشيين بإيجاد ساديين لهم، والفيتشيون والاستعراضيون لا يشكلون خطراً كبيراً على المجتمع، ولكن عندما تتجاوز الاضطرابات حدوداً معينة لتترك تأثيراتها السلبية على الآخرين، فينبغي عندئذٍ معالجتها جدياً".

" وما هي الاضطرابات التي تتجاوز حدوداً معينة؟".

" اغتصاب الأطفال والنساء والانتهاء بقتلهم، ممارسة الجنس مع الحيوانات، ممارسة الجنس مع جثث الأموات، طقوس الجنس الجماعي المرافقة لتقديم أضاحي بشرية للشيطان.....".

" أرجوكِ يكفي هذا، ولا أرغب أبداً بمشاهدة رولا، ولا معرفة المزيد عن عملها. ولكن لفت انتباهي في اللائحة أنه يوجد قسم سري خاص بتلبية نزوات كبار المسؤولين غير الاعتيادية..... هل تعمل به فتاة اسمها ورد؟".

" لا، لا نستخدم هنا فتيات بهذه الأسماء الغريبة عنا، ورد اسم شاعري يعبر عن الحنين إلى الماضي المريض لديكم، فهي مرفوضة عندنا ولا يمكن برمجتها وفق متطلباتنا الحضارية، أما المسؤول المباشر عن القسم السري الخاص فهو العميل إكس بسبب أهميته وحساسيته".

" ولماذا القسم خاص وسري؟".

" لأن الإعلان عن أسماء الشخصيات التي تزوره من كل العالم ممنوع، زعماء مسيطرون يملكون بلادهم وما عليها، رأسماليون كبار، أصحاب مصارف عالمية، ديكتاتوريون عسكريون، أمراء من الصحراء..... وكلهم شاذون ومجانين مختلو العقل، ولكننا نحن نلبي هنا متطلباتهم كافة ماداموا ملتزمين بأهدافنا في نشر الديمقراطية وتعددية الوصول إلى السلع في بلدانهم".

" لا أريد معرفة أسماء، ولكن أخبريني ماذا تقدمون لهم من خدمات؟".

" في البداية كانوا يرغبون برؤية أفلام جنسية بمتطلبات غريبة، أفلام فيها تعذيب سادي واقعي وتنتهي بمشاهد قتل حقيقية، ولم يكن من السهل إقناعهم بذلك بواسطة خدع سينمائية. ولكن المتطلبات لم تنته عند أشرطة السينما والفيديو، بل طلبوا هم ممارسة ذلك مباشرة، جنس وتعذيب وقتل بأيديهم لزيادة متعتهم الغريبة، مما كان يضعنا في مشكلة إيجاد بضاعة من الأجساد الجديدة بشكل مستمر، وخاصة النساء والأطفال. وبما أن هذه الشخصيات المُتطلبة هي ضرورية لنا لاستقرار النظام الديمقراطي والتعددي في العالم، فإن قسم الأبحاث لدينا يسعى بشكل سري لاستنساخ أجساد بشرية دون هوية، تستخدم لهذه الحفلات مرة واحدة ثم ترمى في حفر خاصة بعيداً عن أية مساءلات قانونية..... وأخبرك أن هذه المعلومات ليست للنشر، فإذا ما تسربت عن طريقك تصبح أنت نفسك بضاعة خاصة في هذه الحفلات".

" ولكن لماذا أخبرتني بكل هذا؟".

" لا أعرف وكأن هناك خللاً ما في برمجتي، فقد بدأت أستلطفك بعد هذه الجولة الطويلة، وأرغب أن أكون معك في جلسة شاعرية بعيداً عن هنا".

لا أدري من أين أتتها هذه المشاعر المفاجئة، ربما تأثرت بردات فعلي وأصبح عندها رغبة بمعرفة عالمي، ولكنني أراها تشعر بالتردد والاضطراب والتشويش. تبتعد عني وتختفي بعض الوقت دون أن أدري أين ذهبت أو ماذا فعلت، تعود وتقف في زاوية لتضغط على زر أزرق في الجدار؛ فتسقط عليها حزمة من الإشعاعات الزرقاء، تصبح منتعشة وواثقة من نفسها، وتخاطبني "انسَ ما حدثتك به منذ قليل عن المشاعر الغريبة التي انتابتني، كان خللاً تقنياً وتم إصلاحه.

والآن وعدتني أن تترك لي حرية إنهاء هذه الجولـة كمـا أريـد بعـد أن نفذت لك كل طلباتك، سنذهب إلى مكان وسترى فيه شـيئاً مميـزاً لم تتوقعه أبداً، وستجده ممتعاً إذا ما شاركت به".

" أخيراً سنرى شيئاً مميزاً من اختيارك، ما هو؟".

تجيب بثقة وإغراء "الجنس الجماعي الغرائبي".

وقبل أن تبدر مني أية ردة فعل تجاه ما تقول وجدت نفسي معهـا في صـالة غريبـة خافتـة الأضـواء، وأصـوات همهمـات وتأوهـات وهمسات ضاجة تعلو فيها. يذهب بصري إلى حوض دائـري كـبير في منتصف الصالة، ولا أصدق ما أرى! يـصدمني منظـر لم أشـاهد مثلـه في حياتي، بل ولا يمكنني تخيله أبداً، كتلة كبيرة من الأجساد العاريـة المختلطة لرجال ونساء، تغلي بحركة هلاميـة حيويـة، مثـل مجموعـة متراصة من الأسمـاك الـتي تنزلـق معـاً، أو بـالأحرى مثـل كتلـة مـن الأفاعي الملتوية المتداخلة مع بعضها بعضاً! أجساد تنفصل وتتجمـع، تنزلق وتتراكـب، تنـساب وتتغلغـل، فـلا أرى سـوى رؤوس، أيـد، أرجـل، أعـضاء جنـسية، أثـداء، دون أن أتمكـن مـن تجميـع بـضعة أعضاء في جسد واحد، وإذا مـا انفلـت جـسد خـارج الكتلـة للحظـة تعيده إليها جاذبية تنبثق من مركزها. جنس جماعي يتقلب فيـه الجـسد مع كتلة من الأجساد الضاجة بهمساتها وتأوهاتها فيضيع فيها، أجـساد رطبة بسوائلها الجمعية التي تجعلها تنزلق فيما بينها، وكـأن الـشخص يمارس الجنس مع كتلة الأجساد كلها، وبغض النظر عن مكوناتها مـن الرجال والنساء، وفي الوقت نفسه الجميع يمارس الجنس معه، سـواء كان رجلاً أم امرأة.

تقول لي المضيفة "ألا ترى كم هذا غرائبي وممتع، كتلة جـسدية دون معالم أو حدود، هنا لا مكان للفردية، فالواحد يـذوب في كتلـة الجماعة، تنمحي شخصيته لصالحها، ويصل إلى متعة جماعيـة كونيـة تعلو فوق ضجيج الأشياء والحياة، كما يحدث في كتلة العماء الكوني

البدئي التي انبثقت منها الآلهة الأولى، ومن ثم تشكلت منها عناصر الحياة الأساسية. هنا متعة حسية في ذروتها تشترك بها كل الحواس، متعة لم تعرفها كل الحضارات التي تميزت علاقاتها الجنسية بالشبق والمجون..... والآن ما رأيك أن نقفز معاً لندخل هذا العماء الكوني الهلامي؟".

تدفعني الآن المضيفة دفعات بين الشدة واللين نحو مجال كتلة الأجساد، تجذبني قوة صادرة منها تشدني إليها أكثر كلما اقتربت منها، تشدني بطريقة لا خلاص فيها من السقوط بها في النهاية، ولذلك قلت للمضيفة باحتيال خفي "ولكنني إذا سقطت فسأفقدك نهائياً، وأنا أشعر برغبة شديدة بك أنت، ولا أرغب بتركك".

تتوقف المضيفة عن دفعي وقد استثارها هذا الخضوع الغريب لها وإعلان رغبتي بالبقاء معها، ولكن علائم وجهها لا تبدو مصدقة، مع أنها تعاطفت معي قبل قليل، وكأني أراها الآن واحدة أخرى. قلت لها ذلك بسبب تضاعف خوفي من السقوط في كتلة الأجساد، فقد تراءى لي أن الأجساد العارية فيها هي شكل من الأشباح الوهمية الهلامية، دون أن أدري من أين أتاني هذا الإحساس. فقد لاحظت أنها تتحرك بآلية هلامية شبه منتظمة، لا بل حتى أن تأوهاتها كانت تصدر وفق إيقاعات رتيبة متكررة، بالرغم من عشوائية الانزلاقات والتغلغلات في ظاهريتها. وكأن هناك محركاً خفياً ينظم انضباط الأجساد بحركاتها العشوائية داخل الكتلة ويمنع انفلاتها منها، مشدودة إلى تموجات تنطلق من بؤرة نور باهر يعمي الأبصار، يصدر من نهاية الصالة. وسرعان ما فكرت بأن كل ما حولي ربما هو شكل من أشكال الاستيهام بالرغم من وجودي الواقعي فيه، بل لما لا تكون المضيفة نفسها نسخة مبرمجة تدخل في إطار هذا الاستيهام! ثم لمَ لا تكون الجنة الأمريكية كلها هي نوع من الاستيهام، يتم من خلاله استلابي، وربما إنشاء نسخ مكررة مني ومشوهة, تكون أداة في يد العميل إكس؟

تلاحظ المضيفة توتري وانشداهي نحو بؤرة النور الباهر المنطلقة من طرف الصالة، وكأنها اكتشفت ما أفكر به، فعادت تدفعني من جديد إلى الكتلة. أحاول أن أوحي لها بتجاوبي معها فأتقدم معها، فتخفف من تمسكها بي، ولكنني بحركة مفاجئة أدفعها إلى كتلة الأجساد الهلامية وأركض نحو بؤرة النور الباهر، وقد راعني صوتها وهي تصرخ مستغيثة، وقد سقطت في الكتلة وتلاشت فيها.

أقفز في بؤرة النور الباهر، وأمضي فيها برغم شدة تيارات التموجات الضوئية الصادرة منها والتي تدفعني إلى الوراء، ولكنني كنت قد صممت على اختراقها وتجاوزها، لإحساسي أن هناك شيئاً ما وراءها يدير لعبة الاستيهام التي أجول محاصراً في عوالمها دون أن أستطيع الانفلات منها. وفي الوقت نفسه كان يتنامى في داخلي شعور أن الضغط المتزايد على رأسي مرتبط بنوع موجات من الطاقة الخفية المنبثقة من ما وراء البؤرة، طاقة تشوشني وتعطل قدراتي على التفكير، بل وتجرني إلى قبول فكرة القفز في كتلة الأجساد الهلامية، وهذا ما زاد تصميمي على المضي في تجاوز البؤرة واكتشاف ما يوجد وراءها.

أجتاز نفقاً طويلاً من النور الباهر لأصل في نهايته إلى ما يشبه الكهف، طويلٌ، تمتلئ جدرانه بشاشات تعرض ما يحدث في كل أنحاء المجمعات، وأمامها طاولات بأزرار مضاءة بألوان مختلفة، ومادام لا يوجد أشخاص أمامها أتوقع أنه يتم تسجيل ما تبثه الشاشات مباشرة على أشرطة أو أسطوانات ممغنطة رقمية من أجل العودة إليها وقت الحاجة. ألمح في إحدى شاشات الطابق الرابع عشر إلهام وهي تجلس على سرير التدليك تكتب تقريراً وقد ملأ وجهها الغيظ، وفي إحدى شاشات الطابق الثامن عشر جورجيت وخيبة أمل كبيرة على وجهها، لا أهتم لما أرى، عليَّ أن أمضي إلى هدفي.

أصل إلى ما يشبه معملاً أو مختبر تجارب، حيث تتناثر هنا

وهناك أجهزة بأنابيب ملتوية مليئة بسوائل ملونة، يتصاعد منها البخار وتصدر منها إشعاعات غريبة. وسرعان ما يذهب بصري إلى أحد الأطراف لأشاهد أجساداً عارية لرجال ونساء مسجاة في صناديق زجاجية، أجساد ساكنة كالدمى غاطسة في سوائل شفافة، تلتصق برأس كل منها مجسات تخرج منها أسلاك، يذهب بعضها إلى أجهزة حاسوبية تعرض على شاشاتها سير العمليات الحيوية في الأجساد، وبعضها الآخر يتصل بأجهزة تحريض كهربائي ومغناطيسي.

تزداد الطرقات الشديدة المؤلمة في رأسي، وكأن شيئاً يضغط عليه ويدفعني للعودة إلى فتحة النور التي قدمت منها، أمسك جبيني بيدي وأقاوم بتركيز قوي، فيأخذني بصري إلى جسد مرمي في أحد الصناديق، ما أن أدقق النظر به حتى أجده جسداً شبيهاً بي، هذا جسدي، وإلى جانبه يقف العميل إكس يعالج الأسلاك الموصولة إلى رأس جسدي هذا الغاطس في سائل الصندوق..... لم أعد أصدق أيهما أنا، أنا الذي يشاهد ما يحدث أمامي، أم أنا المسجى بالصندوق!

أفكر الآن أن الهدف من دعوتي لزيارة المجمعات هو نوع من غسيل الدماغ وبرمجتي وفق رؤى تتناسب مع أهداف "مؤسسة نشر الديمقراطية"، وعندما لم تنجح العملية مع رأسي "اليابس "تم اتخاذ قرار بالتخلص مني وإذابتي في كتلة الأجساد الهلامية. وها هو يعالج الآن نسختي التي تم الحصول عليها بالتأكيد في صالة التطهير الإلكتروني الأنواري بعملية استنساخ، فيما يستغل دماغي الموجود في الصندوق لإرسال إيحاءات محددة إلى عقلي الذي أحمله في رأسي أنا من أجل إنهائي، وعلى الأغلب هو يحاول أيضاً إعادة وجودي من خلال نسخة الصندوق المفترض أنه تمت معالجتها بشكل أفضل وفق متطلبات المؤسسة.

أندفع بقوة وسرعة نحو العميل إكس الذي يفاجئه وجودي،

ولكن قبل أن يستوعب ما حدث؛ فإن دفعتي كانت من القوة بحيث رمته فوق أجهزة تحطمت تحت ثقل جسده الساقط على الأرض، فتنسكب سوائل حارقة منها ما تلبث أن تصل إلى جسده الممدد، فينطفئ ويذوب بحيث لم تبق منه سوى بقعة سوداء صغيرة. أفهم عندئذٍ أن الرجل الذي ذاب دون أية بقايا بشرية ليس هو العميل إكس، وإنما نسخة منه تبخرت، وهذا يعني وجود نسخ أخرى منه. أسرع إلى فصل الأسلاك المتصلة برأسي الموجود في الصندوق، فتختفي الضغوط عن رأسي الذي أحمله، فأشعر بالارتياح والقدرة على التفكير.

تدخل في هذه اللحظة المضيفة التي سمعت صوتها يستغيث وهيٍ تسقط في كتلة الأجساد الهلامية وتتلاشى فيها، لم أعد أستغرب شيئاً هنا مما يحدث حولي، فأندفع نحوها من جديد وأمسك بخناقها بشدة، فتصرخ متحشرجة "أنا لست المضيفة التي كانت تدفعك إلى الكتلة، أنا المضيفة التي تعاطفت معك وأخبرتك ما يحدث في القسم السري الخاص".

أخفف من قبضتي على رقبتها وأسألها "كيف حدث كل هذا وأنا دفعتك إلى الكتلة بيدي؟".

" حدث خلل في برمجتي تحت تأثير موجات قادمة من عقلك، فظهر التشويش لديَّ من خلال تعاطفي معك ورغبتي في قضاء جلسة شاعرية معاً. وفي الوقت الذي اختفيت فيه من أمامك بعض الوقت استنسخت نفسي، واختفيت أنا النسخة جانباً، في حين تم إعادة برمجة النسخة الأصلية تحت حزمة الإشعاعات الزرقاء. ثم رميت أنت المضيفة المعاد برمجتها في كتلة الأجساد، بينما تسللتُ وراءك، وأنا التي ضغطت في أحد أجهزة التحكم على زر تعطيل مؤقت للعميل إكس الذائب، فأنت لا قدرة لك على مقاومته، وظننتَ أنك تغلبت عليه. وبالتأكيد فسوف يكتشفني المبرمجون سريعاً، وهم يتتبعون آثاري إلكترونياً ليتم إنهائي بأقصى سرعة".

" ولماذا فعلت كل هذا وتسللت ورائي؟".

" لا أعرف، شيء ما أشتعل في قلبي إليك متجاوزاً التلاعب الجيني في استنساخي، كنت أراك صافياً أمام كل الإغراءات ولا تهمك الخيالات المستنسخة المكررة..... ولكن لا أمل لي حتى معك، فأنا نسخة مشوهة وأنت تبحث عن شيء آخر أصيل لا يتكرر".

" ولكن هل تخبرينني ماذا يحدث حولي؟".

" عندما قفزت من اللوحة الإعلانية ووصلت إلى قاعة التطهير الإلكترونية أخذ المبرمجون منك نسخة كاملة قبل أن تستيقظ، وهي الموجودة الآن في الصندوق. ثم عملوا على الدخول إلى مسارب العقل والذاكرة لديك من أجل بناء عالم استيهامي مبرمج خاص بك، حيث تم استغلال ذكرياتك الخاصة في تركيباتها الواعية واللاواعية، معتمدين على تقارير المخبر الأمريكي العالمي المزروع في داخلك. ولكن يبدو أن التقارير كانت مكتوبة بطريقة مشوهة، وقام محللو المعلومات بتحليلها أيضاً بشكل خاطئ. وقام المبرمجون ببناء عالم استيهامي، تم التركيز فيه على الجانب النفسي والجنسي اعتماداً على رؤيتنا للشرقيين الذين ننظر إليهم متخلفين حضارياً، وقاصرين عقلياً، ومكبوتين جنسياً. إلا أن مناهجنا البراغماتية اهتمت بالمعلومات الجامدة دون النظر إلى المشاعر، والعواطف، والذكريات، والحنين، والأحلام، ففشلت برامجنا هنا، وهذا فشل للأمركة في استيعاب طرق تفكير مختلفة. وهذا ما أدى في النهاية إلى مقابلتك الشخصيات المستعادة خطأً كجسد دون حنين وحلم، فلم تتعاطف معها وكان لك ردة فعل دمرت كل خططنا..... وقد حاول المبرمجون إعادة إحياء نسخة منك، ولكن عقلك كان يقاوم دائماً".

لأول مرة أشعر بالأسف على أحد ما في الجنة الأمريكية، فأسألها "والآن ماذا سنفعل؟".

" عليك أنت أن تنجو بنفسك، أما أنا فقد انتهيت، قُضيَ عليَّ فالتعليمات في رأسي تأمرني بأن ألقي بنفسي فوق السوائل الحارقة".

ترمـي بنفـسها دون أن أسـتطيع فعـل شـيء، وتتحـول إلى بقعـة سـوداء، أمـا أنـا فـأقوم بتـدمير كـل مـا حـولي، بمـا فيهـا الأجـساد المستنـسخة، وعنـدما أصـل إلى جـسدي المستنـسخ في الـصندوق، أتوقف قليلاً وقد شعرت بـالقلق إزاء مـا سـوف أفعلـه بـه، ولم يكـن أمامي إلا أحد طريقين، إما أن أدمره وأعـود إلى عـالمي، أو اسـترجع هـذه النـسخة إلي ذاتي وأتلبـسها وأعـود وإياهـا إلى عـالمي. وبمـا أن الخيار كان صعباً جداً فقد نفذت كلا الحلين معاً، وقفز كل واحد مني إلى عالم مختلف، عالم يقبلني دون استنساخ، وعـالم يقـبلني بنـسخة مزدوجة مركبة.

* * *

تالة 1

بمجرد عودتي من القرية المسحورة المعلقة في الجبال استطاع صديقي أن يؤمن لي دعوة سريعة من أحد مراكز الدراسات الفكرية لإلقاء محاضرة بعنوان "بعيداً عن سطوة العوالم الماورائية التقليدية: فهم مغاير للعوالم الداخلية للإنسان"، وأشعل دعاية مثيرة لها في الأوساط الفكرية مستغلاً العلاقات القوية الخفية للروائي نبيل، ومن ورائه بالطبع السيد لؤي. أقنعني صديقي بضرورة إنهاء كتابي عن العوالم الداخلية بسرعة، فهو مسرور لانتصاري على ذاتي بعبور عالمين بنجاح، واحد ماورائي وثانٍ استيهامي. وهو يريد أن يستغل هذا النجاح في كتابي، لكنه أصبح يتوجس خشية من اختفاء مفاجئ لي، فهو يعرف ما يحدث معي بتخاطر غريب بيني وبينه، ولكنه يستشف أيضاً ما هو قادم بحدسه الخاص بسبب قدرات استثنائية اكتسبها من معاقرة المشروب السحري منذ زمن طويل.

يحدثني صديقي "تالة قادمة إليك بين لحظة وأخرى، بعد أن عرفتَ الطريق إلى صانعة الحكايا وإيقاعها بعشقك، وهو ما لم يستطع فعله أحد بعد حطابها الأسطوري. تجاوزتني كثيراً بالجنون والهوس وأنت تركض وراء حلمك عن العينين العسليتين، ووصلت إلى هدفك..... ستأخذك تالة مني ومن لميس، ستختطفك من عالمنا، وسنفتقدك، ولكن قبل أن تختفي أريد أن تنهي كتابك عن العوالم الداخلية، فهو نص هام عن إبحارك في عوالم الحنين والحلم، وعن انتصارك على عوالم الأوهام، وبنتائجك الغريبة خلخلت مشروعي الفكري عن العوالم الماورائية الذي كرست له دار نشري".

قاعة المحاضرات مليئة بجمهور حاشد متنوع، يجلس الجميع على المقاعد في العتمة، وأنا على المنصة في النور، والأنظار موجهة

إليَّ. أتهيب قليلاً قبل البدء وأنا أرى هذه الكتلة البشرية التي جاءت تصغي، تبحث عن تفاصيل الإثارة التي وردت في عنوان المحاضرة. كتلة من الأفراد الذين لا أميز أحداً منهم، إذ إن عقلي مشغول باستحضار الأفكار والتعبير عنها مباشرة دون أوراق مكتوبة، فهذا يسمح لي التحكم بعرضها حسب ردود فعل الحضور. لا أميز في البداية سوى صديقي ولميس التي تستكين بقربه في أحد الصفوف الأمامية الجانبية، ستصغي لكلماتي وكأنها صدى لاقترابها العميق منه، فعقلها معي وقلبها هناك يرتعش له. لميس اللعوبة والمشاغبة والمتطلبة أصبحت هادئة، ولمسة شاعرية تظلل كل تصرفاتها منذ أن عادت من القرية المسحورة في الجبل، أما صديقي فلم يعد يكتب شعراً إلا لها، يتغنى بها كمطر ناعم في صباحات زرقاء، وكموسيقى عذبة تتسلل إلى القلوب النائمة فتوقظها عشقاً للأحلام، لميس أصبحت نبيذ صديقي الدائم.

" نشأ وعي الإنسان وتحددت قدراته النفسية على أرضية بنيته البيولوجية، التي ظهرت وتطورت بشكلها الحالي نتيجة وجودها في شروط مادية طبيعية، ليس فقط على مستوى كوكبنا الأرض، وإنما بشكل أشمل على مستوى الكون كله، وبالنتيجة فنحن كجنس بشري أطفال الكون كله. والوعي الإنساني الكلي بمكوناته التركيبية الفردية لا يمكن إلا أن يتناغم مع الوعي الكوني الشامل، وإلا يصبح غريباً عن الوجود وينهار. إن فهم هذا التناغم هو بداية الطريق لمعرفة الأسرار التي يسعى الإنسان لكشفها من أجل تحديد موقعه في الكون، بعيداً عن المفاهيم التقليدية المبتذلة لأسئلة البداية والنهاية بالارتباط مع قانون السببية القاصر، والتي طرحتها الأديان من خلال عوالمها الماورائية. والفرد الذي يستطيع التسلل بقدراته الحدسية الإنسانية إلى أطراف هذا الوعي الكوني هو الذي يمكنه أن يلامس بعضاً من أسرار الوجود، وإن تمكن من ذلك فعلى الحدود. وما الشعر والحلم واللاوعي إلا أدوات أولية للسفر إلى هذه الحدود،

بالرغم من استخدامها أدوات إنسانية قاصرة في تعبيراتها وعلى رأسها اللغة..... ونقطة الانطلاق إلى هذا السفر هي الغوص في العوالم الداخلية للإنسان".

ما إن مضت المحاضرة قليلاً حتى أخذت الأفكار تأتيني وحدها بانسياب غريب، فلم أعد أبذل مجهوداً في استحضارها، مما سمح لي توجيه بعض من تركيزي لمتابعة تعابير وجوه الحضور في ردود أفعالها على ما أطرحه. بدأت أميزهم، رجالاً ونساء، شباباً ومتقدمين في العمر، بعضهم بثياب رسمية أنيقة وآخرون بملابس اعتيادية..... وفجأة ألمح بين الصفوف الخلفية المظللة بالعتمة وجوهاً أليفة محببة، وجوه كأنها انفصلت عن شريط الذكريات في رأسي، تصغي بتركيز لما أقوله، وابتسامات التقدير تعلوها تعبيراً عن مدى الانسجام مع ما أطرحه. أركز نظري عليهن في العتمة الشاحبة فأتبين ملامحهم وأعرفهن، إلهام، وهند، وسهير، وجورجيت، ورولا، أراهن هنا كما عرفتهن في زمن العشق، بل حتى استطعت تمييز الجاكتة الحمراء لهند، والملابس المهلهلة الغريبة لرولا، الفتيات الجميلات اللواتي يمتلئ قلبي لهن بالحنين، دون أية علاقة لهن بالنسخ المشوهة التي قابلتها في نعيم الحوريات أو في الجنة الأمريكية. كيف أتين إلى المحاضرة، ولماذا؟ لا أدري، ولكنهن أمامي مبتسمات وكأن قلوبهن لازالت مرمية إليَّ بارتعاشاتها.

أكاد أتلعثم في الإلقاء وأنا أشاهد غير بعيد عن الفتيات الخمسة شخصيات أخرى قادمة من ماضي البلدة، الفلاح "أبو خالد"، والراعي "أبو حسين"، وبقربه خدوجة البكر الخجولة الحزينة، يجلسون في طرف القاعة بملابسهم القروية البسيطة. لا أدري كيف حضروا هم أيضاً أو من دعاهم أصلاً إلى محاضرة لا تعنيهم بشيء، ولن يستطيعوا تفهم أياً من أفكارها، أتأكد من ذلك وأنا أراهم شبه نائمين في مقاعدهم والاستغراب يعلو وجوههم. ولكن ما يدهشني أكثر هو رؤيتي من جديد "أبو خالد"، و" أبو حسين"، وخدوجة

البكر، يجلسون أيضاً في الطرف الثاني من القاعة، ولكنهم يرتدون في هذه المرة الملابس المبرقعة للمليشيات الثورية، بل لمحت أيضاً مسدس خدوجة البكر تحت سترتها الجلدية. وهؤلاء كانوا على العكس يتابعون كل ما أقوله بتركيز شديد وانفعال واضح على وجوههم.

" نحن لا نعرف إلا قطرات من بحر كوننا في ترامیه الواسع مكانياً وزمانياً، كون واسع وكأنه دون نهايات، فإمكانيات إدراكنا الإنساني المباشر لا تسمح لنا برؤية التخوم. ولكن لا أحد يدري إن كان كوننا هو الوحيد في الوجود، أم له موقعاً بين أكوان أخرى موازية له، أو متفجرة معه من حزمة انبثاق واحد، أو متراكبة معه! إن مثل هذا التساؤل غير قابل للإجابة، على الأقل في المدى المنظور، ولكن ما الذي يمنع تعددية الأكوان مع الدلائل التي بدأت تسعفنا بها الفيزياء الكوانتية والرياضيات الحديثة على سبيل المثال؟ وإن كانت موجودة فإن الذي لا يسمح بتلاقيها هو تواجد كل منها في إطار أبعاد مختلفة عن الآخر، من البعد الواحد وصولاً إلى الأبعاد اللانهائية، في حين أن تركيبتنا البيولوجية والنفسانية نحن البشر تجعل من إدراكنا لا يلتقط إلا مظاهر من كوننا المرتكز على أبعاده الأربعة..... ولكنني أشعر بحدسي الخاص أن أبعاداً من هذه الأكوان قد تتقاطع فيما بينها أحياناً لأسباب لا ندرك مبرراتها، فتنكسر بعض الحدود وتنشأ أنفاق التسرب فيما بينها، تتسلل عندئذٍ من خلالها كائنات ذات بنى مختلفة عنا. وقد يتلاقى بعضها مع أفراد من جنسنا البشري، لهم لحظات إدراك استثنائية ما فوق طبيعية، تلتقي معهم في اليقظة، أو في الأحلام، أو بطرق اتصال معقدة غير مفهومة لنا حتى الآن".

أتوقف قليلاً، فما دمت قد وصلت إلى أفكار الاتصال بكائنات من عوالم أخرى فينبغي أن أرى بين الحضور ورد التي تراودني لحظات شوق إليها من وقت لآخر، ولكن صورة تالة كانت قد أغلقت مسارب الذاكرة إليها، ولماذا لا تأتي أيضاً المُذرة على هيئة

السيدة سهام! أنَقل بصري هنا وهناك بين الحضور، لا أجدهن، يبدو أن الاتصال لا يتم معهن في هذه القاعة، فهن يحتجن إلى أجواء استثنائية لا تتوافر هنا. ثم ماذا يهمهن من محاضرتي برغم أنها تمسهن مباشرة في بعض أجزائها، فالمُذرة تريد فقط أن أعشقها لتمتلكني بالكامل وألعب معها، أما ورد فهي الحنين الذي يأتي مع المطر، تتسلل عبر النافذة إلى فراشي مباشرة، ولا يهمها سوى إرضائي جسدياً..... فمن الطبيعي إذاً أن لا تحضرا.

" في هذه الحال أين هي الحدود بين الأوهام والوقائع، هل نصطنع نحن البشر أوهاماً ونزينها لنهرب من أنفسنا ومن مواجهة الواقع، أم هي الحاجة لإيجاد معنى لأفعالنا وتصرفاتنا ولو من خلال الاستيهام؟ فإذا ما جاءت الخيبة تلو الأخرى بعد ذلك، شعرنا بالانهيار وانقلبنا على ذاتنا وماضينا. إذاً هل ما نتخيله ونفكر به هو حقائق أم استيهام يصطنعه الوعي الماكر ويصوغه باللغة اللعوبة القاصرة؟".

من جديد يصدمني وجود ثلاث شخصيات في القاعة لا أتوقع أبداً حضورها، أيمن وإياد وعادل! هؤلاء الثلاثة الذين أصابتهم الخيبات تلو الأخرى، فتحولوا عن ماضيهم وتلبسوا شخصيات انفصامية، ماذا أتوا يفعلون هنا؟ يجلس أيمن الشيوعي القديم المزمن في سجلات الأمن وحده كئيباً، بالتأكيد هو مازال يهرب من زعيق زوجته المتذمرة دائماً، ويبحث عن مكان دافئ أو رطب يلجأ إليه، إذ لا أدري أي الفصول هو الآن. وإلى جانب أيمن أرى إياد الشيوعي المنقلب إلى إسلامي متطرف منزوياً بصمت وكأنه ليس هنا، ولكن ما يفاجئني هو وجود امرأة منقبة إلى جانبه، بالتأكيد هي زوجته المتدينة والغنية، المنتمية إلى مجموعات "الآنسة". أتساءل كيف شعرت بالرضى عليه أخيراً، هل أدى كفارة مع إحدى مجموعات المجاهدين المقاتلة ضد الصليبيين الكفرة؟ أم أقنعها بالهروب معه إلى مشاهدة الأشرطة الوثائقية لتنظيمات الانتحاريين والاكتفاء بالتماهي في الخيال

مع شخصياتها؟ وإذا كان وجها أيمن وإياد يعبران عن الدهشة والاستغراب مما أقوله، ويزيد من مشاعرهما الانفصامية أمام الضياع الذي يعيشون فيه، فإن وجه عادل كان على العكس يعبر عن اللامبالاة الكاملة عما يحدث حوله، مع نوع من الثقة بالنفس تصل إلى حد الاستعلاء على الآخرين. فقد كان يستمع دون اهتمام مُنقلاً نظراته هنا وهناك بين الحضور، مستعرضاً نفسه ببذلته الأنيقة جداً وقد مد ذراعيه على مسندي المقعدين بجانبه، إذ جلست عن يمينه فتاة الكافيتريا وعن يساره سيدة المطعم.

" أما العالم الماورائي فهو في أرضيته شكلٍ من أشكال العوالم الداخلية للإنسان، نشط الخيال في بنائه اعتماداً على عناصر أولية من الواقع المعاش، ولكن بتراكيب تخيلية جديدة. ثم اكتسب في صياغته الجمعية قداسة مطلقة من خلال ارتباطه بعقائد دينية، وانفصل عن صانعيه بشكل مطلق، ليشكل في النهاية حلاً استيهامياً لأسئلة الحياة الأزلية بأجوبة تعسفية لا منطقية ولا عقلانية. وهذا ما أدى في النهاية إلى الهروب من مواجهة الواقع والمجهول والغامض. ولكن العالم الماورائي سيتحول مع استمراريته الزمنية إلى أداة قمع بيد السلطات الدينية التي تتعيش من وجوده الوهمي بوجهيه المتكاملين، الإرهابي السادي، والحسي المدغدغ للرغبات المكبوتة".

عندما أعَبّر عن هذه الأفكار تُسر وجوه بعض الحاضرين وتعلوها ابتسامة الرضا، في حين تمتعض وجوه أخرى إلى حد ارتسام علائم الاستنكار عليها مع همهمات صادرة عنها. تُسر وجوه "أبو خالد "و" أبو حسين "وخدوجة البكر، القادمون بالملابس المبرقعة، وهم يستغربون أنه بالرغم من أفول شمسهم للغياب فلازال هناك أحد يتحدث بلهجتهم الثورية، وإن افتقدت الحدية والإطلاقية التاريخية الخاصة بهم. أما الوجوه الممتعضة فهي كثيرة، تجلس متراصة في عدة صفوف، تميز معظمها اللحى والملابس القروسطية وتمتمات

الشفاه المستمرة. كنت أظن أن الشيخ حسني والشيخة حسنية قد انكشفت أوراقهما بعد انفضاح تعاملهما مع رئيس البلدية، فما الذي أتى بهم بين هؤلاء الملتحين، برغم جلوسهم في زاوية منعزلة؟ وإلى جانبهما أرى الحاج خليل ساهي النظرات ضائعها، يتطلع باستمرار إلى سقف القاعة المزخرف بأشكال بسيطة تنيرها مصابيح خافتة، وكأنه منفصل عما حوله. ربما حدث له هذا تحت تأثير التعذيب، إذ كان هو بين الأفراد الذين تم إلقاء القبض عليهم بعد إحراق مركز التصوير في البلدة، ثم علت أصوات صراخهما من القبو حتى السماء بعد اتهامهما بالانتماء إلى تنظيم إرهابي.

وفي وسط الصفوف الخلفية تكتلت مجموعة من المريدين حول الشيخ عثمان، ومجموعة أخرى حول الشيخ ماهر، وبالتأكيد هم يستغربون كيف لم يتم دعوتهم للجلوس في الصف الأول من القاعة، ولم تؤخذ بالحسبان أهمية اللحى التي تزين وجوههم وتدل على تميزهم السماوي. وعلى كل الأحوال فهم ينتظرون الضيافة لتكون الصحون والكؤوس الأولى لشيخيهما الجليلين، ثم سيغادرون مسرعين. وبالتأكيد يستمع الشيخان في هذه المحاضرة إلى طلاسم غريبة تلقى عليهم عن تعددية الأكوان، وعوالم ماورائية، وعوالم داخلية، مما لم يرد في المرويات القديمة، ولا شيءٍ فيها عن النكاح وحوريات الجنة وعذابات الجحيم، فلا يفقهون شيئاً مما يتم إلقاؤه. وأرى أن علائم الضياع تنتقل من وجهيهما إلى وجوه المريدين حولهما، الذين ينتظرون منهما المبادرة بالوعظ للجمع الغفير، لا بل مقاطعتي وإنزالي من المنصة للحلول مكاني، فمن هذا الذي يتحدث منذ ساعة على المنصة دون لحية وعمامة، ودون صراخ وسقوط عن الكراسي، ودون بسملة وأدعية ومسح الوجوه والصدور ببركة الكلمات المقدسة.

" وعندما تلتقي مصالح الطبقة المسيطرة سياسياً مع السلطات الدينية فإن الانسجام التام يتحقق بينهما، فهؤلاء يتركون لهم عوالمهم الماورائية، ليتلاعبوا من خلالها بعواطف الناس، لا بل يحتفلون

معهم بمناسبة توهماتهم الاستيهامية الماورائية مشاركين بممارسة طقوسها بخشوع اصطناعي زائد، في حين يلجأ أولئك إلى الدعاء للحاكم والسلطان وطلب النصرة من السماء لكل الفساد والسرقة التي تتم باسم المؤمنين وغير المؤمنين".

أرى الآن بوضوح مجموعة كبيرة من الوجوه الثورية القديمة المحالة إلى النوم على ذكرياتها النضالية المجيدة، يجلسون في الظل بالصفوف الخلفية بعيداً عن المدعوين الرسميين. أتأمل وجوههم فأجدهم حقاً نائمين، يغفون على إيقاع كلماتي الهادئة في مقاعدهم الوثيرة، لا بل أن شخير بعضهم يعلو كموسيقى مخرشة للهدوء، وكأنهم يريدون تأكيد وجودهم الخربشي بالرغم من استبعادهم الإصلاحي. أميز بينهم المعلم "أبو حسان "بحجمه الطبيعي، و" أبو أحمد "العملاق الذي لم يعد عملاقاً، و" أبو رعد "بعد انطفاء مجده النضالي وبرفقته الوجوه الحجرية الخمسة التي كانت تنتقل بي بين الموت والحياة. فأستغرب كيف استطاعت كل هذه المجموعة البقاء والاستمرار ولو على الهامش بعد انتهاء العاصفة الغبارية، التي كادت تأخذ في طريقها الأخضر واليابس، ربما ضحوا بالمدير بهلول، أو بالأحرى بمجموعة البهاليل أكباش فداء بدلاً من تجريم الجميع، فالقضية هي سياسية أكثر مما هي لعبة فساد واستغلال مناصب. ربما كان هناك دور خفي للروائي نبيل في مفاوضات جرت وراء الستار مع المجموعة الضيقة التي تختار البهاليل، وانتهت بتسويات لصالح الاستقرار الوطني.

ينتقل نظري إلى الصفوف الأمامية شبه الرسمية فأشاهد المعلم الذكي الذي تعملق قليلاً، تبدو عليه علائم الاندماج والانسجام مع المحاضرة، أليس هو من يدير اللعبة من وراء الستار؟ وغير بعيد عنه ألمح الروائي نبيل جالساً في طرف القاعة، ولا تبدو على وجهه أية تعابير، ولكنه يستمع إلى كل شيء ويراقب، فبالنسبة إليه وراء كل دخان نار، وهو يبحث عن خيط دخان ولو كان صغيراً. وإلى جانبه

جلس السيد لؤي يراقب هنا وهناك، لم تعد ترتسم على وجهه ابتسامات ماكرة أو غير ماكرة، أصبح جدياً أكثر، ربما بسبب خطورة الأوضاع مع وجود عملاء من نمط العميل إكس. ولم تعد تقتصر ملاحقته لي كي يعرف ما حدث في أثناء اجتيازي الضباب بطريقي إلى الجبل المسحور، بل وما حدث لي مع العميل إكس. يجلس السيد لؤي هنا دون أن يحاول فهم الأفكار المعقدة التي أطرحها، فهو يريد أن يعرف فقط هذا العالم الماورائي الذي يشد ناسفي الأحزمة إليه.

وإذا كان وجود السيد لؤي طبيعياً هنا في المحاضرة، فما الذي يدفع العميل إكس لحضورها أيضاً! وبالطبع ليس كعميل سري، ولا كممثل لمركز دراسات يشكل غطاء "لمؤسسة نشر الديمقراطية"، وإنما كأحد أعضاء السلك الدبلوماسي في المنطقة. أراه يستمع إليَّ باهتمام دون أن تبدر منه أية علائم معرفة أو اتصال سابق بي، وأنا أعرف أن من تخلصت منه في مختبرات الجنة الأمريكية هو شبيه مستنسخ منه، فلا أستغرب وجوده هنا إذاً. ولكن لماذا يستمر بملاحقتي؟ هل لأنني أفلتُّ من مخططاته، ويظن أنني سأخلخل مفهوم جنته الأمريكية في محاضرتي وأمام الرأي العام..... أعاود النظر إلى السيد لؤي، ألاحظ أنه يتابع العميل إكس أكثر مما يتابع المحاضرة.

" تذهب العوالم الداخلية باتجاه التوهم لدى الإنسان المقهور المستكين، غير القادر بذاته على إيجاد معنى لحياته واختراق ستر الإبهام والغموض حوله، سواء بعقله أو بحدسه، فيلقي بهمومه على عاتق طبقة لاهوتية تستغله وتأخذه إلى الضياع الكامل. ولكن الإنسان الذي يعيش تفاصيل الحياة بعشق وحرية، هو الذي يجعل الزمن يتوقف بين أنامله، فيمنح الأشياء والكلمات معنى من ذاته، هو الذي تتحول لديه العوالم الداخلية إلى أحلام مشتعلة، أحلام تبحث عن إمكانية تحقيقها في الواقع... وعندما يتطابق الحلم مع الواقع في لحظة

فريدة من الزمن تولد الحكاية، الحكاية التي تورق أغصانها خارج الزمان والمكان، فتمنح دِفْأَها لكل من يستظل بها. وعندئذٍ يصبح الإنسان قادراً على إعطاء معنى لحياته ليس فقط من خلال التفاصيل اليومية وعلاقاته مع الآخرين، وإنما أيضاً من قدرته الناهضة والمندفعة على كشف المبهم والغامض حوله، والاقتراب بالتالي من حدود الوعي الكوني في تناغم وانسجام معه.....".

في هذه اللحظة من حديثي أشعر أن الوجوه الموجودة أمامي في القاعة تغرق في العتمة وتذهب بعيداً، أرتعش منفعلاً وأنا أنطق عباراتي الأخيرة وصفاء غريب يتفجر في داخلي، وكأنني أتحدث الآن بلسان صانعة الحكايا.

"..... ونصبح نحن عندئذٍ الحكاية. وأنا الآن بداية حكاية، تشكلت منذ أن جاءني الحلم إلى عوالمي الداخلية، وتحول المطر والموسيقى والشعر والنبيذ وصديقي ولميس إلى نيران تؤججه، ووجدت معنى حياتي في طريقي إلى الحلم الذي التقطته بعشق".

يشع ضياء في المكان، لا أستطيع التحديد من أين ينبعث، وكأنه ضياء في القلب ينعكس في المكان، أو ضياء في المكان يجتاح القلب، أعرف عندئذٍ أن تالة هنا، وأنني أصبحت قريباً منها. ألمح وجهها في مكان ما في القاعة، وجهها الذي رأيته في لوحة شيماء حين انفصل عن كتلة الوجوه الحزينة المحتشدة، أرى الآن عينيها العسليتين تتألقان في العتمة، وابتسامتها الرائعة العذبة تشيع الفرحة هنا في المكان..... تالة هنا!

انتهت المحاضرة وتوقفت عن الكلام، وخلال لحظات أحاط بي حشد كبير من الحضور، وارتفع لغط وضجيج:

" محاضرتك رائعة، متى سنراها مطبوعة؟".

" حديثك مليء بالجرأة والإثارة، كسرت كل المحرمات وتحديت السلطات التقليدية".

" أنت وأفكارك مجنون بالكامل، من الذي سمح لك بالوصول إلى هذا المنبر؟".

" أين ـ هو ـ في كل هذه التركيبة؟ هل هو الذي أوجدها؟".

" هل هو موجود بالنسبة إليك أم لا؟".

" هل أنت مع التعددية أم التوحيد؟".

" رائع، كيف دمجت آخر الرؤى والاكتشافات العلمية مع أفكارك الشخصية؟".

" أنت مخبول بالكامل، ضربت بالحائط كل حقائق السماء المتوارثة".

تمتد يد فتاة بكتاب "أرجو أن توقع لي على هذه النسخة من كتابك القديم".

يناولني شاب كدسة أوراق "هذه مسودة أول بحث لي، أرجو أن تقرأها وتعطيني رأيك فيها".

تمتد يد فتاة ناعمة، تعطيني علبة صغيرة ملفوفة بورقة هدية زرقاء مع شريطة حمراء، وتختفي صاحبتها دون أن أراها أو حتى ألمح بعضاً من ملامحها، أضع العلبة في جيبي.

يأتي صديقي وتأتي لميس ليسحباني من الحشد، وفي هذه اللحظة يقترب مني السيد لؤي "أنتظر منك التفاصيل، يا صديقي".

وما أن يبتعد السيد لؤي قليلاً حتى يتقدم نحوي العميل إكس بخطوات واثقة كأحد أعضاء السلك الدبلوماسي، ويخاطبني بصوت عال "محاضرتك ممتازة، حضارية وعقلانية ومتحررة من القيود"، إلا أنه يًقترب مني أكثر ويهمس "لديك الكثير من أسرار منظمتنا، أنت تحت مراقبتنا باستمرار".

من بعيد يُظهر السيد لؤي نفسه وكأنه يطمئنني ويؤكد متابعته لما يحدث معي وحولي.

أخرج إلى الشارع مع صديقي ولميس، تفاجئنا نسمة باردة

منعشة محملة بكل عشق المطر للأحلام، أتنفسها بعمق منتعشاً، ولكنني أشعر ببعض التوتر والقلق في داخلي، أخاطب صديقي وكأنني أتحدث مع نفسي "كانت هنا!".

" أعرف".

" وكيف عرفت يا صديقي؟".

" من خلال نبضات قلبك المتسارعة وتخاطر الأفكار بيننا".

" ولكن هل رأيتها يا صديقي؟".

" لا، ولكنني شعرت بوجودها حقيقة".

" ولماذا لم تظهر لي، فأنا أنتظرها منذ زمن بعيد، وهي كانت تناديني".

" ربما تريد أن تلتقي معك بطريقة مميزة، باحتفالية شعرية تليق بحلمك".

تتدخل لميس مبتسمة "ستراها، سترى تالة غداً بالتأكيد..... لدي إحساس أنها ستختطفك من عالمنا وتمضي بك بعيداً عنا، لا أعرف لماذا أشعر وكأن هذه هي المرة الأخيرة التي سنراك بها".

ليست لميس اللعوبة والعابثة التي تتحدث بهذا، وإنما الصافية والعاشقة، فيصدمني هدوءها وهي تقول عبارتها، تقترب مني وتطبع قبلة على خدي، تودعني هي وصديقي، ويمضيان تحت المطر.

أتحسس في جيبي العلبة التي رمتها لي الفتاة المجهولة ذات اليد الناعمة، لا أستطيع توقع ماذا يوجد في داخلها، ولا من هي الفتاة التي رمتها لي! وأمضي تحت المطر الناعم والمنعش إلى شقتي.

* * *

تالة 2

أعود إلى البيت بعد المحاضرة، المطر يهطل في الخارج وعلى النافذة باستمرار، ولكن ورد لا تأتي، لا تتسلل منها، فمنذ أن قابلت صانعة الحكايا أغلقتُ مسارب الذاكرة والحنين أمامها، وتوجهت بكل مشاعري نحو تالة..... ربما لأجل هذا لا تحضر ورد، فالأجواء غير ملائمة لوجودها.

أدخل غرفتي، تجول نظراتي فيها، الساعة المعلقة على الجدار تعلن العاشرة ليلاً، السرير مرتب وإلى جانبه كرسي وطاولة صغيرة، وفي طرف الغرفة إلى جانب النافذة طاولة الكتابة، وفوقها على الجدار لوحة شيماء بوجوهها الخمسة، أربعة وجوه متكتلة مع بعضها بعضاً بعيون عسلية حزينة، ووجه خامس بعينين عسليتين رائعتين وابتسامة ساحرة منفصل عنها، ظننته مرة أنه وجه تالة! أقترب من النافذة، أشاهد على ضوء مصابيح الشارع شجرة السرو باسقة بكبرياء، تغتسل بمطر ليلي، ووراءها تمتد أسطح المنازل القديمة، لا هديل حمام ولا زقزقة عصافير، تنام الآن في أعشاشها تتبادل القبل والحكايات.

أشعر بتعب بعد صخب نهار طويل، تعب يتداخل مع قلق خفي في داخلي، لا أستطيع تحديد أسبابه أو مصدره. أحاول تجاهله إذ ينبغي الآن التركيز على كتابي عن العوالم الداخلية بعد أحداث الأيام المثيرة منذ لقائي مع صانعة الحكايا، فالزمن يسبقني دون أن أعرف متى سألتقي تماماً بتالة. أتذكر لميس وهي تشيعني بقبلتها وتؤكد أنني سأرى تالة غداً، فأسخر من فكرتها ورؤاها العابثة.

أمسك العلبة الصغيرة الملفوفة التي أعطتني إياها اليد الصغيرة الناعمة في نهاية المحاضرة، وأرميها على طاولة الكتابة. لا أدري

لماذا ارتعش القلب لذكرى هذه اليد الصغيرة الناعمة، أبعدها عن ذهني حتى لا تشوش أفكاري وقد قررت العمل على كتابي في هذه الليلة. على الرغم من تعب النهار الطويل إلا أنني أشعر بعد المحاضرة بازدحام الأفكار الطازجة في رأسي، وبالرغبة الشديدة بتفريغها على الورق، دون أن أنسى إلحاح صديقي على ضرورة إنهاء الكتاب سريعاً.

أبدأ بممارسة طقوسي الليلية لأدخل في أجواء الكتابة وحميميتها، أعيد ترتيب طاولة الكتابة، فترجع الكتب المرمية هنا وهناك إلى أماكنها على الرفوف في شبه انتظام، ألملم أوراق البارحة المبعثرة وأنظمها من جديد، أحضر أقلام رصاص ومبراة وممحاة، فأنا بحاجة ملحة إليهما مادمت أضع الرؤى الأولية على أوراقي البيضاء قبل أن أسجلها بصياغة نهائية على الحاسوب. الصفحة البيضاء تجتاحني بصفائها، توترني إذا لم يكن لونها أبيضَ ناصعاً، كأن تشوبه سمرة ما، وتدعوني كي أغوص فيها، فأنفصل عما حولي كي أملأها بتفاصيل عوالمي الداخلية. أترك إضاءة الغرفة خفيفة، بعكس المصباح على الطاولة، شعور العتمة المحيطة بي يريحني، يجعلني أعيش فقط مع أوراقي البيضاء التي تلتمع تحت ضوء مصباح الطاولة.

أحضر الكأس الكبيرة الأولى من الشاي، تزينها شرائح الليمون وأوراق النعناع الأخضر. أتناول الرشفة الأولى من الكأس الساخن الذي يتصاعد منه بخار خفيف متراقص، فيتماوج الأصفر والأخضر على سطح السائل الأحمر، ويختلط في الرأس طعم الشاي مع شذى الليمون ولذعة النعناع، فأشعر ببعض الانتعاش. تعود الذاكرة بي إلى الطفولة حيث كان إضافة الليمون والنعناع إلى الشاي ترفاً أرستقراطياً في عائلتنا الفقيرة، لا يتناسب مع طقوس الشاي المغلي بكثافة حتى السواد، حتى يعوض بمراره عن مشروبات عرق اليانسون وعرق التين، التي تدخل في قائمة الممنوعات المحرمة لدينا، في حين

تتناوله عائلات كثيرة من البلدة حولنا..... سترافقني كأس الشاي هذه طوال السهرة مادمت أعمل.

أنظر إلى العلبة الصغيرة الملفوفة بورق هدايا أزرق وشريط أحمر، مرمية أمامي على الطاولة، أفتحها من باب الفضول، فأجد في داخلها شريط كاسيت، ومعه ورقة زهرية مزينة على أطرافها بقلوب حمراء، ومكتوب عليها بخط أنيق يعبر عن ذوق عالي "أرغب أن تسمع شريط التسجيل هذا، فهو نادر جداً، سجلته خلسة بآلة تسجيل صغيرة لحفلة شهيرة أقامها عازف العود منير بشير في المدينة. وقتها احتشد الحضور في القاعة بكثافة، بحيث ملؤوا الكراسي، واقتعدوا الأرضية والدرجات الصغيرة وأي مساحة يمكن الجلوس فيها، وعندما لم يبق أي مكان زحفوا إلى المنصة واحتلوها، وبصعوبة بقي متران لكرسي العازف.

اشتعلت القاعة بعيدان البخور التي زرعها الفنان بكثافة على جدرانها قبل حضور الجمهور، فانتشرت رائحتها الكثيفة وملأت فراغات المكان والزمان، وعششت في تلافيف الذاكرة وأشعلت الحنين والأحلام، فنقلت الحضور إلى أجواء شرقية سحرية. وما إن دخل الفنان حتى تهيب الجميع حضوره بكل المحبة، فأطفئت الأنوار وخيم الصمت العميق دقائق طويلة. جلس الفنان في دائرة ضوء صغيرة وأمسك العود، وانتظر قليلاً، وعندما شعر أن الجميع تنشق رائحة البخور ودخل في حميمية الصمت حتى همست الأوتار بين يديه بأنين حزين، ضربها ضربات خفيفة متقطعة تركت صداها يمتد نحو القلوب ويوقظ الذكريات فيها، فتماهى الحضور معه وأخذوا بالتسلل مع رائحة البخور والموسيقى إلى عالمه الصوفي. تعالت الموسيقى أكثر فأكثر، ضجت واشتعلت وسكبت كل الأحزان المبهمة في المآقي، ودعت للتماهي من خلالها مع متعال خارج الزمان والمكان، ولم يعد هناك لا زمان ولا مكان، كانت هناك فقط نفوس بشرية تسبح في فضاءات أثيرية على إيقاعات الموسيقى، وتمضي معها نحو اللانهاية".

يصيبني ذهول شديد من شاعرية النص وحماسته للموسيقى الصوفية، أتساءل من هي الفتاة التي كتبته، ولماذا أرسلته إليَّ؟! بالتأكيد أدهشني النص، ولكن ما علاقتي أنا بموسيقى العود، هذه الآلة الموسيقية التي تعيش في ذاكرتي البعيدة مع الكمانات والربابات ومطربي الدرجة العاشرة، الذين يذهبون إلى حفلات الأعراس في القرى والأحياء الشعبية، حيث يصرخون، ويزأرون، ويجأرون، طوال الليل.

أرمي شريط منير بشير جانباً، وأضع أول شريط تسجيل لشوبان أجده أمامي في آلة التسجيل، فتنساب الموسيقى التي أعشقها بهدوء وتملأ فضاء الغرفة. الشاي والموسيقى أشياء حميمية عندي عندما أكتب، ضروريان كما القلم والورقة البيضاء.

انتهت الطقوس التحضيرية للشروع في الكتابة، أمسك القلم وأتأمل الورقة البيضاء، لا أعرف كيف سأبدأ مع أن مخطط العمل واضح تماماً والأفكار تزدحم في ذهني. تزداد طرقات القلق الخفي في داخلي، لا بل أخذ يتسلل إلى السطح ويتحول إلى بوادر للاضطراب.

أهرب قليلاً من الورقة البيضاء وأنظر إلى المجموعة الكاملة لأشرطة شوبان التي أحضرتها معي من سلومانيا، وتتكدس أمامي بمتعة، كانت هدية ألكسندرا لي في أحد أعياد ميلادي هناك. كنا نعشق الموسيقى الكلاسيكية معاً، وخاصة موسيقى شوبان، نذهب في شبه انتظام إلى صالة الحفلات الموسيقية في المدينة التي كنت أدرس فيها، مساء أيام السبت والثلاثاء، سواء كان الجو صحواً أو يتساقط الثلج بدرجات حرارة منخفضة إلى مادون الصفر.

أرتدي لباساً رسمياً، بذلة مع ربطة عنق، في حين ترتدي ألكسندرا ثوب سهرة يزحف وراء قدميها وهي تسير جميلة به. كانت الأجواء في الصالة التي يعود تاريخ بنائها إلى منتصف القرن التاسع عشر ساحرة، ببنائها، وزخارفها، وأناس المجتمع المخملي فيها، ننتشي

بالموسيقى ساعتين مع أشهر العازفين البارعين في العالم، وعندما ننتهي نعود إلى البيت مشياً على الأقدام، حتى ولو كانت تمطر أو تثلج.

وما أن ندخل البيت وأذهب لأحضر كأسين من النبيذ لإعادة الدفء إلى جسدينا، حتى تكون ألكسندرا قد تحررت برشاقة من ثوب السهرة الثقيل، وتلحقه بما يشبه لباساً داخلياً ترتديه مباشرة تحته، سروال لا يتجاوز عرضه خمسة سنتيمترات وحمالة ثديين لا تستطيع أن تحمل نفسها. ترتمي على السرير وتَعبُ من النبيذ جرعات كبيرة وسريعة، ثم تلتفت إلى شفتي وتلتهمهما بنهم شديد، وتعتصرني بقوة بين ذراعيها وساقيها حتى أنها لا تسمح لي بالتقاط الأنفاس، إذ إنني أخلع بصعوبة شديدة ربطة العنق التي اضطر إلى لبسها في الحفلات والمناسبات الرسمية، وأما الباقي من ملابسي فهي تتكفل به، لا فرق إن تمزق شيئاً منها أو تقطعت أزراره. وما أن تمر لحظات حتى تنتشي بسرعة وبشكل عميق، وتصرخ متأوهة بصوت عالٍ وقد احتقن وجهها، حتى أخاف على اللوحات المعلقة على الجدار من السقوط من صوت لهاثها المدوي. كانت عنيفة وسريعة في كل شيء، تستمتع بالنشوة السريعة بقدر ما تحب التهام التفاح بضراوة وحشية. ولذلك ما أن تصل إلى الذروة، ثم يسترخي وجهها بسرعة، حتى تنهض بسرعة وتبدأ بقضم تفاحة حمراء كبيرة لا يخلو البيت باستمرار من واحدة منها على الأقل، تذهب بها إلى زاوية الغرفة، تنهيها على الأريكة المقابلة وهي متمددة، وخلال لحظات تغط عارية في نوم عميق. أما أنا فأبقى معلقاً في منتصف الطريق إلى المتعة، يتصبب العرق من كل جسدي من الإنهاك، كما لو كنت أركض وراءها لألحقها، ويصبح بارداً، وأشعر في داخلي بالإخفاق والخيبة. أرمي على جسدها العاري غطاء وأتركها تنام، فقد اعتدت على نزواتها وأن لا فائدة من إيقاظها حتى لو أخذتها وهي نائمة، إذ إنها ستموء مثل القطة وتبقى نائمة. أتمدد وحدي حزيناً وكئيباً، فتواسيني ذكرى موسيقى الأمسية التي حضرناها معاً.

كان هذا الوضع يتكـرر دائمـاً مـع ألكـسندرا، بـرغم محـاولاتي إشعال جانب شاعري في علاقتنا إلى جانب الاهتمامات الثقافيـة الـتي كانت تربطني بها بقوة، ولكن لا فائدة. ومع ذلك لم أتخلَّ عنها، فقـد كانت نافذتي الواسعة من خلال عملها التدريسي في الجامعة على كـل ما يحدث مـن نـشاطات سياسـية وثقافيـة في بلـدها، إذ كانـت تتـابع بحماس غريب أخبـار المعارضـة الـسياسية، والـصفحات الثقافيـة في الجرائد، ونحضر معاً آخر الأفلام والمـسرحيات والمعـارض الفنيـة، وأعرف آخر أخبار المفكرين والأدباء والفنـانين الـذين يتململـون مـن القبـضة الحديديـة لنظـام شمـولي أينعـت أيـام سـقوطه، وكـل ذلـك بطريقتها الانفعالية المليئة بالحيوية. لم أتخلَّ عنها، ولكنني كـي أشـبع عطشي الجسدي فقد كنت أتسلل سراً إلى الحلاقـة مـاريلا، أو سـائقة الترامواي إيفـا، حيـث كنـت أعـيش ليـالي ماجنـة مـع أجـساد شـهية برؤوس غبية لا تتقن سوى شرب الفودكا..... وكان هذا سبباً للهروب من ذوات العيون الرمادية كلـهن، والعـودة إلى البلـد بحثـاً عـن ذات العينين العسليتين، عينين أغرق بهما بعد الانتشاء حتى الصباح.

يلتمع فجأة وجه في فضاء الغرفة للحظات يقطع شريط ذكرياتي، يلتمع ويختفي بسرعة، يبـدو أنـه تعـب النـهار الطويـل الـذي يجعـل الأمور تختلط عليَّ، ولكنني لـن أذهـب إلى النـوم فأنـا مـصمم علـى الكتابة اليوم. ألقي نظرة على لوحة شيماء، الوجـه الخـامس بابتـسامته مازال هناك، وموسيقى شـوبان الـتي تـرافقني عنـدما أكتـب أو أحلـم مازالـت تنـساب في الغرفـة. أفكـر مـا الفـرق بـين الكتابـة والحلـم، فكلاهما عمل واحد، وهما الاثنان بحاجة للموسـيقى، وبمـا أنـني لا أستطيع الفصل بين الكتابة والحلم؛ فـإنني لا أعـرف في أحيـان كـثيرة متى أكتب ومتى أحلم.

لماذا تداعت الذكريات البعيدة في هذه الليلة بالذات، تهـاجمني وتجتاحني بقوة، تشوشني وأنا أحتاج إلى التركيز على الكتابة، هل هو هـروب مـن مواجهـة القلـق في داخلـي، الـذي تـصاعد وتحـول إلى

اضطراب، وأخذ ينمو ويتكاثر مثل نبات العليق؟! أستنجد في داخلي بصانعة الحكايا، ولكنني أصرخ بصوت عالٍ "تالة، أين أنت؟". أدهش مما أفعله!، يبدوا أنني إذا استمررت علىً هذه الحال فسأصبح ممسوساً بعقلي وأنا أحدث نفسي، ولكنني أعرف أن صوتي يصل إليهما، وأنا واثق منهما، وأعرف أن تالة ستأتي في الوقت المناسب..... إلا أنني لا أستطيع إلا أن أستنجد.

تستمر موسيقى شوبان في آلة التسجيل، شوبان يرافقني في كل لياليَّ، موسيقاه تجعلني مع الإضاءة الخافتة أنفصل عن العالم المحيط بي، تملأ فراغات الزمان والمكان حولي، وكأنها تجعلني أبحر نحو اللانهاية. أستغرب من استخدامي في اللاشعور أفكار وكلمات الرسالة المرافقة لشريط منير بشير، ألهذا الحد أثر بي النص الشاعري!

انتهى شريط شوبان الأول، وأختار شريطاً ثانياً له، أعيد ترتيب الأشرطة المتبقية أمامي، فتصطدم يدي بشريط الفتاة ذات اليد الناعمة الجميلة، أقلبه وأدعه في مكانه، وأعيد قراءة النص المرافق له من جديد. أذهب بفكري إلى الدراويش الصوفيين، الغريبين بأفكارهم وتصرفاتهم، والذين يبدو أنهم يضجون من خلال هذا الشريط، يريدون اقتحام عالمي حيث لا مكان لهم فيه. صحيح أن الصوفيين يتماهون بعشق رائع لا حدود له مع كائنات علوية تقع خارج الزمان والمكان، وفكرة هذا العشق هي التي تثيرني، إلا أنهم يصبحون مجانين عندما يحلمون أنهم يطيرون في السماء، يطيرون وهم يتراقصون على إيقاعات موسيقى ضاجة رتيبة، تدفع بهم في النهاية إلى الهلوسة، وكأنهم تناولوا مخدراً قوياً، فينسون عندئذٍ عالمهم الأرضي ويبقون في السماء. أفكر مبتسماً، أليس من الأفضل لهم لو عشقوا امرأة حقيقية قادمة من الحلم، وتماهوا معها جسداً وروحاً بلا حدود، كما يتصلون مع كائناتهم العلوية، حتى ولو طاروا بها إلى السماء، لو فعلوا ذلك لكانوا بلغوا ذروة تساميهم الروحي إلى جانب متعتهم الجسدية. ربما لأجل هذا لا أتعاطف كثيراً مع الصوفيين،

لأنهم يهربون من الواقع، وإن كنت أحترمهم لعشقهم، فهو عشق ناقص مشوه يعيش فقط في السماء وبانفصال كامل عن الأرض.

يبدو أن مصدر القلق قد جاءني من هذا الشريط الصوفي، فوجوده والنص المرافق له هو الذي يشوشني ويمنعني من التركيز على الكتابة. يهاجمني ويريد خلخلة أفكاري، وكأنه يقول لي أن لا أصنف عوالمه الصوفية الصافية ضمن العوالم الماورائية السادية، بالرغم من انبثاقها كلها في الأصل من العوالم الداخلية للإنسان، وتوجهها نحو الأعلى. أفكر بالنتيجة أنني عندما سألتقي غداً تالة سأتماهى معها عشقاً صوفياً، ولكن سأبقى معها جسداً على الأرض، مع إمكانية الطيران بها فترة قصيرة في السماء..... غداً! لماذا قلت غداً؟ كيف نطقت بهذا الموعد! هذا بالتأكيد تحت تأثير لميس، المتلاعبة بعواطفي، التي تريد أن تلاحقني بسخريتها حتى في الليالي الصعبة.

أحاول أن أطرد الأفكار عن الصوفيين من ذهني، في حين لاتزال موسيقى شوبان تسترسل في أجواء الغرفة. ولكن لماذا تتعبني موسيقى شوبان في ليلتي هذه؟! في العادة تجعلني أرتاح مهما كنت أشعر به من التعب أو التوتر، تنقلني إلى أجواء هادئة وتحرضني على العمل. أمسك القلم من جديد لأكتب، لا أستطيع، أعجز برغم الأفكار المتزاحمة في رأسي..... شيء يطرق رأسي الآن ويقرع فيه، وكأن هناك رسالة ذهنية تأتيني أو صوت مبهماً يناديني. ما هذا الجنون الذي يداهمني! إنها ساعة الحائط تعلن الحادية عشرة ليلاً، أهز رأسي يميناً ويساراً بشدة في محاولة لإبعاد الوهم عني، فهذه طرقات الساعة بالتأكيد. ولكن ساعة الحائط لها طرقات غريبة غير اعتيادية في هذه الليلة! أصبحت غريبة كما هي موسيقى شوبان الآن! يزداد التوتر، ويفاجئني انشداد غريب للأعصاب، الطرق يحاصرني في رأسي ويضج داخله، وأنا لا أعرف كيف أتصرف معه.

قبل لقائي مع صانعة الحكايا كنت كلما أشعر بقلق أو توتر خفي لا أدرك سببه أسارع إلى الاتصال هاتفياً بسهام، أذهب إليها وأدفن رأسي المحموم في جسدها الأربعيني الممتلئ، فأرتاح وأسترخي. ولكنني كنت أحاذر الاتصال بها بعد الحادية عشرة ليلاً، إذ إنني لا أحب الخروج من عندها بعد منتصف الليل بعد تفريغ توتري معها، كما إنني لا أحتمل البقاء معها في سريرها حتى الصباح. لا أحب الاتصال معها بعد الحادية عشرة ليلاً، فقد يفاجئني وجود أحد عشاقها القدامى أو عاشق غبي جديد مثلي في سريرها في تلك الساعة. كنت أعرف بوجود أحد ما في سريرها من خلال ترددها في الإجابة على الهاتف وتعللها بتعب مفاجئ، رغم معرفتي بسرورها باتصالي ورغبتي باللقاء بها.

سهام تمتلك حاسة أنثوية ذكية، تعرف أنني سأعود إليها كلما شعرت بكآبة، وقد أخذت هذه الحالة تنتابني كثيراً في أيامي الأخيرة، ولذلك كنت أعود إليها وأنا أقول لنفسي هذه هي المرة الأخيرة. نشرب كأسين سريعين من الشاي، ونذهب إلى السرير مباشرة دون مقدمات، وحتى دون حديث ودي أو حميمي.

سهام لن تستطيع أن تطفئ توتري في مثل هذه الليلة، إذ ما أشعر به يتجاوز التعب، والإنهاك الجسدي، والكآبة الاعتيادية، وهو ما لا يمكن إفراغه في أحضانها. فأنا أعرف أنني ما أن أنتهي من علاقتي الجسدية معها حتى أشعر بالحاجة للهروب من سريرها، ومنها، من غرفتها التي يزينها عالم استهلاكي يحيطني بمشترياته، فهي تشتري وتشتري أشياء كثيرة لا أعرف ما الفائدة منها، وعلى الأغلب هي أيضاً لا تعرف، تملأ بها الجدران والرفوف والخزن. أفكر دائماً بالابتعاد عن جسدها بعد أن تحملت نزواتها وتقلباتها وقتاً طويلاً، فهي برغم شهوانيتها المكتنزة لا تدعه يتنفس بحريته، فهذه الليلة لا ترغب بهذا الوضع لأنها مُتعبة، وهذا الوضع الذي أحبه أنا يذكرها بزوجها الحقير الذي تكرهه منذ أن غادرها مع عشيقته، وما ترغب به

من نزوات مجنونة في ليلة ترفضه في ليلة أخرى، فيصبح ما هو حميمي مقرفاً، وما تطلبته من تنويع وتغيير في البحث عن لذة أعمق في ليلة سابقة يصبح محرماً دينياً في ليلة تالية.

ومع كل هذا كنا نلتقي من جديد، أنا لأطفئ شهوتي، وهي لتملأ فراغ حياتها بالرغم من أنها فقدت الأمل من أن أحبها أو أتزوجها. فخارج عملها اليومي الروتيني والممل في "مؤسسة الأعلاف للدواجن "لا تعمل شيئاً سوى التسوق في المجمع التجاري الواقع قرب بيتها والتسكع فيه طويلاً، وفي المساء تمضي وقتها أمام التلفزيون، تثيرها تلك المسلسلات التي تتجاوز المئة حلقة، وتجعل عيناها تمتلئان بالدموع. لا تحب القراءة أبداً، ولا تتذكر متى قرأت آخر كتاب في حياتها، بالتأكيد كان أحد الكتب المدرسية، كما أنها لا تهتم بما أكتب، تقول إن ما أكتبه أكبر من أن يستوعبه عقلها..... وهكذا كنت أذهب إليها بحثاً عن دفء إنساني، ولكني سرعان ما أخرج وأنا أشعر بالبرودة، وأذهب للبحث عن دفء إنساني حقيقي.

أهرب من ذكرى سهام التعيسة تحت ضغط مشاعر هلامية تجتاحني، يعود ذلك الشيء الغريب ليطرق ذهني ويضج في رأسي، كأنه يناديني لمواجهة شيء مبهم لا أدرك ماهيته. أشعر أنني على حافة الاشتعال والانفجار، ونشيج في داخلي بدأ يتصاعد ويكبر..... هل أهرب إلى ضامن كما في الأيام الخوالي، ضامن الذي لم أعد أراه منذ سنين طويلة، وهو متمترس في قريته الجبلية البعيدة بأمان بيئته العشائرية بعد أن تزوج صديقتنا هند واختفى وإياها بين الصخور السوداء. بنى منزلاً جميلاً في طرف القرية يشرف على سهل واسع ممتد حتى الأفق، وأنجب أطفالاً رائعين، أما أنا فقد سافرت وقتها إلى سلومانيا.

تخلى ضامن منذ سفري عن أحلامه الثورية التي جمعته مع هند، وخاصة ما كان يسميه الكفاح المسلح، وانغمس في تفاصيل حياته اليومية. يقول إنه لم ينسَ التغيير والثورة ولكن العالم تبدل،

وأشكال الانتفاضات والتمرد التي حملتها الثورات القديمة لم يعد لها جدوى الآن. ويعترف أنه هو أيضاً تبدل، يحاول أن يكون عقلانياً وعملياً في محاكمته للأمور، ولذلك كان مضطراً لأن يكون عشائرياً في محاولته الاندماج مع بيئته القديمة. أما هند، سليلة والدها الشيوعي المناضل الذي قضى حياته في السجون، فلاتزال وفية لذكرى أخيها الذي قتل في عملية استشهادية في الجنوب. وفي المرة الأخيرة التي زرتهما بها أكدت لي أن أفكارها عن التغيير لم تتبدل، وأن العوالم الماورائية هي دائماً نتيجة توهم الإنسان عندما لا يستطيع مواجهة الذات والواقع، وما يحدث حالياً للثوريين هو انهيارات متتالية لأنهم بالأصل لم يكونوا عقلانيين كفاية..... ضامن ليس هنا الآن، بعيد في قريته الضائعة بين الصخور السوداء، ولكنني لو قابلته في هذا الوقت فإنني أشك بإمكانية استيعابه قلقي وتوتري المستمر وقد ابتعدت بنا الأيام كثيراً عن بعضنا.

يزداد القرع في رأسي، إنها ليست ساعة الحائط بالتأكيد، فقد تجاوزت الثانية عشرة ليلاً منذ زمن، لم أعد أدرك الزمن وكأنه توقف، أغمض عيني وأضع رأسي بين مرفقي وأضغط عليه بشدة، أريد أن يتكسر ويتحطم القرع في داخله، والذي تحول إلى نداء مبهم قوي. رياح مفاجئة تهب في الخارج، أشعر بعصفها الشديد من عويلها، وأسمع قرع حبات المطر التي تحملها على النافذة، قرع كثيف وشديد وقوي..... ورد لا أريدك الآن، في هذه الليلة بالذات، وغداً أيضاً، سأستدعيك فيما بعد، فلا تتسكعي طويلاً أمام نافذتي، ارجعي إلى عالمك ودعيني بعض الوقت، أنا لا أتخلى عنك، ولكن دعيني بعض الوقت.

أهرب من ورد بالعودة إلى محاضرتي مساء البارحة، أتذكر وكأنني لمحت في القاعة فتاة ذات وجه ناعم جميل، بعينين عسليتين وطيف ابتسامة تشع على فمها الرقيق، كانت تجلس جانباً في أحد الصفوف الخلفية..... أتذكرها الآن جيداً، عرفتها! إنها تالة، كيف لم

أفكر بها؟! كنت مندفعاً بعرض أفكاري في حماس شديد، أحاول أن أشد الجمهور العريض بانفعال قوي لإيصال رؤيتي الخاصة عن العوالم الداخلية. أتذكر جيداً الآن وجهها الناعم، لا بل أتذكر يدها الصغيرة تمتد وتعطيني العلبة الصغيرة من بين الحشد المحيط بي بعد انتهاء المحاضرة، وتختفي في لحظات. كيف لم أنتبه لها! كيف لم ينتبه صديقي ولميس لوجودها! كيف تركتها تغادر بدلاً من الاستماع إلى ثرثرة الحضور حولي؟ إذاً هي تالة، وهذا نصها المكتوب بخط يدها على الورقة المرفقة بشريط التسجيل..... كانت تالة معي البارحة، وهي معي الآن.

فجأة تحل عتمة حالكة السواد في الغرفة، ربما أتت مع الغيوم السوداء الممتلئة مطراً وبرقاً ورعداً، وأدت إلى قطع التيار الكهربائي. ولكن عادةً لا تنقطع الكهرباء في المدينة، يتم تدارك الانقطاع بسرعة على عكس البلدات والقرى البعيدة. أشعر بالظلمة تجتاح الغرفة بالكامل وتخيم فيها بحيث لم أعد أرى شيئاً، ولم أعد أرى نفسي. تصبح الغرفة باردة جداً، ومع ذلك يتصبب العرق مني غزيراً وكأن حمى أصابتني، ولكنني لست مريضاً. من أين أتت هذه العتمة الشديدة؟ انتبه إلى أن آلة التسجيل مازالت تدور، وهذا يعني أن التيار الكهربائي غير مقطوع. تدور آلة التسجيل وتُصدر موسيقى، أصاب بالدهشة فهذه ليست موسيقى شوبان على البيانو، إنها موسيقى أخرى، عزف حزين شجي على آلة العود! من بدَّل شريط التسجيل؟ لا أدري! ولكنني أستطيع الآن بسهولة تمييز صوت عزف على العود، تصدر منه موسيقى شجية تتسلل إلى القلب وتزيح العتمة عنه وعن الغرفة، فأصبحت أرى كل شيء حولي بوضوح، إنما ليس بيعيني ولكن بقلبي.

أصبحت الموسيقى الشرقية الصوفية الصادرة من آلة التسجيل تنساب في الهواء وتتداخل مع أنفاسي، تتسلل إلى رأسي مع رائحة البخور، فتنفتح مسارب الذاكرة والأحلام دفعة واحدة. من أين أتى

البخور وكيف أحسست برائحته؟ فأنا لا أعرفه إلا في حكايات التراث التي قرأتها في الكتب، وأعرف انه يُباع في سوق العطارين!

أرى فجأة شراراً مضيئاً يتطاير من أعواد بخور زرعت في كل مكان من جدران الغرفة، فتبددت العتمة بأنوار لطيفة لنجيمات صغيرة تتطاير في فضائها، وتركت الأشياء ترتسم فيها ظلالاً متراقصة على السقف. وتعالت خيوط من دخان البخور، نشرت شذى رائحته الكثيفة في المكان والزمان، اقتحمت الأعماق السرية في عوالمي الداخلية، فأيقظت الذكريات النائمة والخامدة منذ زمن بعيد في ثنايا الذاكرة المتعبة، ونفضت غبار الأيام عنها. تشتد وتضج موسيقى آلة العود التي أصبحت تصدر الآن من كل مكان في الأجواء التي انمحت حدودها، اشتعلت المشاعر والعواطف في داخلي، وإحساس قوي بأصوات مبهمة تأتيني من بعيد، إلا أنها تقترب شيئاً فشيئاً مني فتزداد وضوحاً، اسمعها تردد نداءات صوفية على إيقاعات نقر الدفوف التي تداخلت واندمجت مع موسيقى العود. أصوات تأتي وتروح وكأنها تتماوج مع تراقص رؤوس تهتز نحو اليمين واليسار في نشوة روحية، رؤوس يُخيل إليَّ أنني ألمحها للحظات في نشوة الظلال السكرى بالموسيقى.

أصبحت الموسيقى مشتعلة في داخلي، فانفجرت الذكريات، والكلمات، والصور، التي تعيش في خفقات الزمان، وانساب في القلب صفاء في ذروة ألقه، صفاء يضج بشفافيته إلى حد انعكاس الذات كما في مرآة، صفاء بمرايا تعكس عالماً مسحوراً من الخيال. اختفى التعب، والتوتر، والقلق، والاضطراب، وحلت بدلاً منهما طمأنينة غريبة، والطرق في رأسي أصبح همساً ناعماً محبباً ولطيفاً، هل من الممكن أن يحصل هذا بتأثير موسيقى شرقية غريبة لم أعتد الانسجام معها؟

تتناوب أمامي صور تتدافع بإيقاعات الموسيقى وأهازيج

النداءات، صور بيوت دمشقية قديمة، عرَّش الياسمين على أحجار جدرانها، الخمرية والوردية والسوداء، الياسمين المنتشي بصوت تساقط المياه من نوافير البحرات فيها، وإلى جانبها فرشت ظلالها الرطبة أشجار البرتقال والليمون والنانرج، محملة بثمارها المكتنزة، وأنا ألعب تحتها مع أطفال بعمري على دراجة هوائية صغيرة بثلاثة دواليب. يدور المكان ويدور الزمان، فتأتي حقول خضراء، تمتد وتمتد حتى الأفق، يحيطها المدى بأشجار عاشقة للغيوم تستدعي المطر، وأنا أقطف مع أطفال من عمري توت سياج العليق الشهي، الأحمر النامي حديثاً بحموضته اللاذعة بطيبتها، والأسود الناضج المكتنز بحلاوته. يدور المكان ويرحل ويتوقف الزمان، إلى حيث لا مكان ولا زمان! وفجأة أجد نفسي أعوم بسكينة في سماء أثيرية لطيفة، ترتعش فيها نسيمات عليلة منعشة، والقلب منشرح، والجسد لا جسد، والعقل متناثر في الصفاء. أذهب في الأخضر وأعود مع الليلكي، أتنفس البنفسجي وارتعش مع الخمري، يتلاعب بي الفيروزي ويدغدغني الفستقي..... فأصبح أنا لا أنا، ولا أنا أصبح أنا.

وفي لحظة كشف غريبة من ألق الصفاء لم أختبرها في حياتي ينساب حولي في الفضاءات الأثيرية مع تموجات الموسيقى دراويش بلحىً بيضاء ناعمة صغيرة، ينبثقون من بين أنوار النجيمات المشتعلة بالضياء، ترفرف أرديتهم البيضاء وراءهم وهم يطيرون، يبتسمون لي ويرددون أهزوجة متداخلة مع موسيقى العود والدفوف، يدورون ويتمايلون وهم يهزون رؤوسهم في انتشاء سرمدي، فيتراقصون كشعلات الضياء. يذهلني ما يفعلون وأنا أشاهدهم يقطفون نجوماً من السماء ويجمعونها في سلال يحملونها، يقترب أحدهم مني وينثر فوقي سلة مليئة منها، فتتشرب أحاسيسي بضيائها، وأشعر بالنشوة في داخلي، وأصبح شفافاً مثلهم..... وعندئذ أشاهد وجهاً منيراً يقترب مني، أتبينه، وجه تالة بعينيها العسليتين الصافيتين المتألقتين بالدفء والانتشاء والسحر، وطيف ابتسامة ناعمة يرتسم على فمها الناعم

الرقيق. تحيط بعنقي يد ناعمة صغيرة ويلامسني الوجه، ويطبع قبلة على شفتي، يهمس صوتٌ مليء بالحنين "التقينا أخيراً بعد انتظار طويل".

أشعر بالذوبان والتلاشي، وأنساب لحناً يتبعثر في الضياء، تتبعثر الأنا واللاأنا، فيأتي الدراويش ويلملموني، يحملونني إلى السرير ويمددوني عليه وأغفو بعمق شديد في سكينة سرمدية.

أسمع رنين الهاتف يلح بشدة، يريد أن يوقظني، أشعر بدوار بعد حلم ليلة أمس، والغرابة التي رافقته، لا أريد أن أتذكر، فقد كان حلماً غريباً لا أحتمل تذكره، شيء قريب من الجنون! عتمة خفيفة تخيم على الغرفة، ومن النافذة أرى غيوماً رمادية داكنة تمطر، ومادمت قد صحوت مع رنين الهاتف المزعج فإن كل ما أرغبه الآن هو فنجان قهوة سادة وثقيلة، كي أصحوا, وأتخلص من الدوار في رأسي. رنين الهاتف يستمر دون انقطاع، اضطر إلى الرد، أرفع السماعة بتثاقل والنوم مِلءَ عيني، وأقول دون أن اعرف من هو المتصل "صباح الخير".

" أي صباح..... "يفاجئني صوت فتاة "الساعة الآن الواحدة ظهراً".

أسأل والنعاس يغالبني "من يتحدث؟".

يأتي الصوت من جديد ولكن مع ضحكة صغيرة "هذه أنا..... كنت معك البارحة".

أرد مستغرباً "لم أقابل فتاة البارحة طوال النهار، كنت مشغولاً بالتحضير لمحاضرتي".

" بلى كنت معك، ولكن ليلاً".

يذهلني الصوت المحبب وكأنه مألوف إليَّ، لا أدري من أين أعرفه، وكأنني أعرفه منذ زمن بعيد، فلا أغلق السماعة وأرد مستغرباً "ليلاً! لم أقابل أحداً في الليل!".

" نعم ليلاً، أرسلت إليك شريط تسجيل عزف على آلة العود، ومنذ الساعة الحادية عشرة ليلاً وأنا أحاول الاتصال بك تخاطرياً من خلاله، ولكن رأسك عنيد لم يكن يستجيب بسهولة بسبب عقلانيتك اليابسة التي لم تتقبل فعل التخاطر. كنت تهرب إلى أوراقك البيضاء التي لم تكتب عليها شيئاً طوال الليل، في حين لم تأخذ سوى رشفة واحدة من كأس الشاي بالنعناع والليمون..... وبدلاً من تلقي الاتصال مني أصبحت تغرق في ذكرياتك هارباً دون أن تدري إلى أين، ألكسندرا وماريلا وإيفا، وسهام، وضامن وهند، ولكن لم ينقذك أحد في هروبك.....".

أكاد أفقد عقلي فأصرخ "من يتحدث معي؟".

ولكن الصوت يستمر بألفة"..... ولذلك اضطررت إلى أن أرسل إليك الدراويش ليوقظوك من سباتك المجنون".

أنهض مذعوراً من فراشي، أنظر إلى طاولتي، كأس الشاي بالليمون والنعناع مازال ممتلئاً، الأوراق بيضاء وعلى رأس واحدة منها عبارة "العوالم الداخلية"، ولا شيء غيرها، شريط في آلة التسجيل، علبته مفتوحة مرمية إلى جانبه، الشريط الذي تلقيته البارحة في المحاضرة.

يستمر الصوت ضاحكاً مداعباً بنعومة "وأخيراً جئتك أنا، وطبعت قبلة على شفتيك فذهبت منتشياً وقد ذبت وتلاشيت وانسبت لحناً تبعثر في الضياء، فتلقاك الدراويش وحملوك إلى السرير".

" من أنت؟".

تستمر مداعبة بضحكتها "قبلة واحدة مني وفعلت بك كل هذا! كيف لو أن...".

" أرجوك من أنت؟".

" على قلبك أن يدلك من أنا، صانعة الحكايا أرسلتني إليك، جمعت حلمي وحلمك معاً من أجل حكايتنا".

أصرخ بجنون والدموع تطفر من عيني "أنت تالة".

" أنا تالة..... انتظرتك طـويلاً، فـلا تـدعني أنتظـر الآن أكثـر في الشارع تحت المطر، أنا أتحدث من كابينة الهاتف القريبة منك".

* * *

تالة 3

مطر ناعم جميل يغسل الوجوه والقلوب والأحزان، مطر ناعم جميل يشعل الذكريات والأحلام والأيام، زرقة مطرية حالكة ترخي انتعاشها على الأشياء واللحظات والأنفاس، فتنتشي بكثافتها المطرية. أشجار خلعت غبار الأيام العطشى من أنين الزمان، واستعادت خضرتها الرطبة المتألقة في فرح موسيقى المطر، نثرت إيقاعاتها غيوم مكتنزة على امتداد حنين القلوب إليها..... يوم ليس ككل الأيام.

أغذ السير في الشارع المستحم برطوبة توقظ العشق في غريب الأحلام، مرتعش القلب بالمطر والزرقة، تسبقني علائم اللهفة والاشتياق، لتفسح لي فضاءات الدهشة. أسير، وفجأة من تنهدات الأيام الحبلى بالأحلام يتسللون، يد، مرفق، جسد، دمعة، إلى أشواقي، ويتأبطون مرفقي بحنان، ورأس يتمسح بي قريباً من كتفي كقطة تنشد لمسة حنان، وصوت يهمس في الصمت الضاج بنداء قديم من زمن البدء "ألا تدعوني إلى كأس شاي دافئ في الكافيتريا المقابلة، أشعر ببعض البرد".

ألتفت..... تالة! وجه تالة! وكأنه انبثق واستيقظ بقبلة المطر للأحلام، تجتاحني عيناها القادمتان من مدى الصفاء، عسليتان عسليتان بعمق لم يأتِ بهما زمان، وقد انعكس فيهما المارة، والأشجار، والأشياء، والغيوم، والمطر، والزرقة، بتألق ساحر، فأسقط بهما دون انقطاع، حتى تنتشلني ابتسامتها الناعمة على فمها الرقيق. تالة! أضمها إلى صدري بنشيج الصمت خوفاً من أن تنكسر بعنف الانفعالات التي تفلت مني. تتسلل رائحة شعرها الأسود المنسدل على كتفيها إلى قلبي، فأتنفسها في دمي، وأشعر بصدرها يخفق على أشواقي، فتنفجر دمعتان من المآقي تنسكبان على وجهها،

فيصبح البكاء وكأنه نشيجنا نحن الاثنين، نشيج زمان يغتسل من أحزانه بالدموع.

نقف ونغتسل طويلاً في المطر والزرقة، منذ متى نقف، لا يدري الزمان! يسير المارة إلى جانبنا وهم يتنزهون، يبتسمون لنا ويتساءلون، هل لازال هناك عشاق، وتحت المطر يلتقون وتمتلئ بالدموع عيونهم! تضيع تالة في صدري ورأسها مازال يتمسح بي كقطة صغيرة، وأنا أضيع بأنفاسها وهي تلفحني عند عنقي، ونحن نضيع في الصمت الضاج للزرقة المشتعلة برطوبة المطر.

تنظر تالة إليَّ وتهمس من جديد "هل سنقف هكذا طويلاً تحت المطر، ألن نذهب لنشرب الشاي؟".

تقف الكلمات في فمي مشلولة، وبصعوبة تتحرر "بلى..... ولكنني انتظرتكِ طويلاً".

" وأنا أيضاً"، وتمسك بيدي وتشدني إلى الكافيتريا الواقعة في نهاية الشارع مبتسمة، وعيناها لا تفارقان وجهي.

ندخل ونختار زاوية منعزلة قرب نافذة عريضة، تطل على الشارع المنتشي بقبلات المطر والزرقة، المنعكسة على بلاطه، تخلع معطفاً خمرياً ثملاً بنبيذ معتق مسكوب عليه في ليلة مجون آلهة، وترميه بكسلٍ على كرسي مُشجر قماشه المخملي بوريقات خضراء، وتفك منديلاً وردياً شفافاً عن عنقها الأسمر الذي لازالت تزينه قطرات مطر، تنزلق بمسيلات متألقة إلى الصدر. تنكشف ملابسها، بنطال أسود حريري ينسدل متلاعباً على ساقيها، مشدوداً بحزام مخملي أسود أيضاً، ويندس فيهما قميص وردي شفاف، تركت زره الأعلى مفتوحاً كي يتنفس الصدر، ، وتتسلل إليه النظرات بحثاً عن الدفء.

نجلس، يقترب منا النادل، فتطلب منه مباشرة دون أن تنظر إليه، وهي غارقة بانفعالي المشبوب "كأسين كبيرتين من الشاي الساخن مع شرائح الليمون وأوراق النعناع الأخضر، وباقة ورد

لعاشقين التقيا بعد طول غياب".

تبتسم وهي تراني منفعلاً أمام وجهها، فأسألها "من أين تعرفين هوسي بالشاي الساخن مع شرائح الليمون وأوراق النعناع الأخضر؟".

" أعرفه، لأنني أنا أشربه هكذا دائماً".

" أنت وصانعة الحكايا لكما الوجه نفسه، ولكن وجهها ملكي يحمل كبرياء الجبال في شموخها نحو الغيوم، ووجهك عفوي منتعش يحمل قبلة المطر لأنفاسك".

تبتسم من جديد وتسترخي في مقعدها، تتسلل أنامل يدها الصغيرة إلى يدي المرمية على الطاولة، تداعبها وترسم عليها دوائر عشق شبيهة بالدوائر التي يتركها سقوط حبات المطر في البرك الصغيرة، تتجمع كل أحاسيسي وتتركز في يدي، فترتعش مسامات جلدي بدغدغات لمساتها التي تنساب إلى داخل أعصابي، تصعد نشوة إلى الرأس، لتعود وتسقط دمعة في المآقي.

أمسك كفيها الصغيرين بيديَّ، فيستكينان كعصفورين صغيرين، أقول لها "أريد أن أحدثك بالكثير، فقد بحثت عنك طويلاً في رحلة الحياة".

ترد بثقة وصورتها تنعكس بألق على زجاج النافذة "أعرف..... أعرف كل شيء".

أستغرب "كيف تعرفين كل شيء، ومن أين؟".

" أعرف، أنا وصانعة الحكايا لنا قلب واحد، ينبض لنا ويرتعش في الوقت نفسه".

" وكيف ذلك؟".

" أنا روحها وسليلتها في قريتنا الواقعة بين غابات حطابنا، العاشق الأسطوري لها، قرية تقع على الكتف الآخر من الجبل المسحور، في الجهة المقابلة لقرية صديقك. وصانعة الحكايا تعيش

هناك في باطن الجبل منذ فقدانها لحبيبها، تنمو الشموع في مغارة العشاق من حنينها إليه، تسقيها بدموعها فيشتعل اللهب فيها ليضيء دروب العشاق. وعندما ولدت أنا من قبلة ريح ثلجية لشجر الغابة، تلقتني صانعة الحكايا بأحلامها وانتقلت روحها إلى دمي، وتشبعت منها بالأشواق والتوق للمطلق. ومر زمن، هي تصنع فيه الحكايا وأنا أركض وراء الريح والغزلان لأجدد حكايتها الأصيلة. وذات مرة رأيتك في الحلم حزيناً، وعرفت أنك تبحث عني، فعشقتك، ومن وقتها وأنا أنتظرك، ومن وقتها أصبحت الانفعالات تنتقل بيننا بالتخاطر. كنت أشعر بقلقك وأنت تهرب من العيون الرمادية، وأشعر بتوترك وأنت ضائع في أيامك، وعندما رجعت لأجلي أحسست أنك أصبحت قريباً مني فأخذت أتسلل إلى لحظاتك، وكلما فكّرت بحلمك، كنت أنا التي أشعله وأجعله متأججاً، ليزداد اقترابك مني..... حتى تلك اللحظة الحاسمة عندما قررت تجاوز عالمك والعبور إلى عالمنا".

أصبحت أناملها تكتب الآن الكلمات على يدي وهي تتحدث، تحفرهما وثيقة لتاريخ لا ينسى، فأسألها "وكأنك تروين لي حكاية!".

" ألم تقل لك صانعة الحكايا أنك أنت الحكاية".

" قالت، ولكن أنا وأنتِ الآن الحكاية".

تنظر عميقاً في المطر عبر النافذة وتتنهد، فتنتقل إليَّ خفقات صدرها عبر أناملها التي لازالت تسجل على يدي الحكاية، تقول "قلبنا، أنا وصانعة الحكايا، أرتعش عندما بدأت رحلتك في ضباب الغابة السري والمبهم، واجتزت سفوح الصفاء والصمت على كتف الجبل. حدس غريب كان يرافقني وأنا أفكر فيك دائماً باقترابك مني وأنا أتتبع خطواتك الواثقة، ولذلك ما أن التقتك صانعة الحكايا مشبوباً بحلمك لي حتى سقطت هي بعشقك بعد أن عرفتك بقلبي. ولكن صانعة الحكايا متطلبة دائماً من كثرة ما رأت من خيبات أمل مع

عشاق انهاروا بعد أن وقعوا في فخ مفاتن الحياة والجسد، ولذلك طلبت هي منك أن تكتشف ذاتك من خلال تجربة عالم ماورائي مليء بالإغراءات، فإذا ما نجوت تكون أهلاً لنا..... ونجوت من نعيم حورياتك بصفاء قلبك، وانتشلتك يد صانعة الحكايا وأعادتك إلى حياة الحكاية. إلا أنه من شدة ارتباطك بالأحداث اليومية من حولك، فقد قررت لوحدك أن تخوض غمار تجربة عالم استيهامي خطير مليء بالإغراءات الخطيرة، هكذا قررت وحدك أن تواجهه دون أن تطلب ذلك صانعة الحكايا، لتثبت لنفسك عمق الصفاء في قلبك. وللحظات خفتُ أن أفقدك وينكسر حلمي إلى الأبد، ولكن صانعة الحكايا ببصيرتها كانت قد نفذت إلى عوالمك الداخلية، وذهلتْ من مشاعرك المختلجة بانفعالات غريبة، فوثقتْ بك مؤكدة لي أنك ستنجو وترجع".

يذهلني كل ما تتحدث به وهي تروي حكايتنا، انطفأ كل ما حولي في الكافيتريا في الظلال، ولم يبقَ أمامي إلا وجه تالة ينير حياتي، أسألها "غريب أنك تعرفين كل شيء عني، وأنا لا أعرف شيئاً عنك!".

" تعرفني، رسمتني بدقة في حلمك، وانتزعتني من لوحة شيماء، عرفتني بإشعالك الكوابيس وحرقك المُذرة، وبهروبك من الكآبة مع سهام، وترددك المضطرب مع ورد، وبحبك للتفاصيل الصغيرة مع لميس. صفاء قلبك هو الذي قادك في النهاية إلى صانعة الحكايا وإليّ".

وأخذت السماء تمطر وتمطر، وحبات المطر تطرق النوافذ في المدينة لتوقظ الأحلام النائمة وراءها، وتسيل على نافذة المقهى راسمة قلوب عشق دون سهام جارحة أو دماء نازفة، يمضي الوقت وأنا أتحدث مع تالة.

أسألها "ولكن حدثيني، لماذا تركت قريتك وصانعة الحكايا وحضرت إلى المدينة؟".

تجيبني ونظراتها تتسلل بشوق بين خيوط المطر "أنا لم أترك صانعة الحكايا، أنا صانعة الحكايا، وأنا تالة..... حضرت إلى هنا من أجل الدراسة، قررت أن أدرس في كلية الفنون الجميلة بعد أن اخترت طريق الخطوط والألوان والظلال لأرسم الحكايات والأحلام. ولكن مناهجها لم تستوعب ما يعتمل في داخلي، فتركتها من السنة الثانية، وأنا أرسم وحدي الآن".

" ترسمين؟".

" نعم لدي مرسم صغير حيث أسكن، سيعجبك".

" ولماذا لم ترجعي إلى قريتك مادمت لم تنسجمي مع الدراسة".

" أرجع إلى قريتي؟!".

" نعم إلى قريتك، ما الغرابة، أم أنك ترغبين بالبقاء في المدينة دائماً؟".

" ولكن أنتَ!".

" ماذا أنا؟".

" كيف سأعود وأنا أنتظرك! فأنا أنتظرك لنقرر ماذا سنفعل معاً".

هل لازلت أنا أحلم، أم أن الحلم أخذ يتشكل في الواقع، ويصبح حكاية! أمسك يديها وأقبلهما بجنون ناعم، بشفتي، بعيني، بدمعتين. أشتعل رغبة في عناق أبدي لها دون انقطاع.

تهدهدني بنظراتها وتهز رأسها مشيرة نحو الباب، وتقول لي "والآن هيا بنا".

" إلى أين؟".

" إلى مرسمي".

" ولكنها تمطر بغزارة!".

" تمطر، لا".

ورفعت يدها بطريقة مسرحية أمام زجاج النافذة، فتوقف المطر، دون أن أدري هل توقف وحده مصادفة أم هي التي أوقفته.

تقول تالة "لنأخذ معنا خبزاً وجبناً وحلوى، وفي البيت لديَّ نبيذ معتق".

اقترب المساء وأخذ الليل يزحف بعتمته نحو المدينة، تمضي بي تالة نحو الحارات القديمة في المدينة بشوارعها الصغيرة الملتوية، حيث تتألق أنوار المصابيح الكهربائية على بلاطاتها المربعة المغتسلة بمطر الأيام، وكأن كل واحدة منها تروي حكاية، تاريخاً، لأناس مرّوا من هنا ومضوا، عاشوا برهة من زمان الحياة في إحدى المنازل القديمة فيها، وغادروا بعد أن تركوا ابتساماتهم، وأحزانهم، وذكرياتهم، وأحلامهم، في فضاءات المكان.

أسير في حكايتي مع تالة وكأنها تعيش مستمرة منذ غابر الأزمان، فأينما نتحرك إلا وهناك امرأة تتأبط ذراع صديقها، أو حبيبها، أو عشيقها، أو زوجها، أو حتى عابر طريق حلمت بقضاء ليلة تبكي فيها على صدره، ولو ليلة. يمشون تحت الأضواء الرطبة، يحملون خبزاً، وجبناً، وحلوى، ونبيذاً، وفواكه، يمرون من جانبنا ويحيون تالة بألفة وود، يبدو أنهم يعرفونها منذ زمن بعيد، ويلتقون معها في كل يوم. ثم يدخلون منازلهم، ويجلسون إلى نوافذهم المشرعة للريح دون ستائر، مفتوحة للسماء وفرح العيون الباحثة عن لقاء، يأكلون ويشربون، يدمدمون أغنية، ثم ينامون متعانقين طوال الليل.

نصل إلى المنزل، ينفتح المدخل صعوداً على درج ضيق ملتف، يصل إلى فسحة سماوية علوية، حيث تعرش الورود في الزوايا، وأطراف الدرجات، وتتسلق الجدران. تتطاول الورود بعد أن اغتسلت بالمطر نحونا مع مرورنا بقربها، لنشم شذاها ونلون نظراتنا بها، ترحب بعاشقين اكتشفا نفسيهما فجأة.

ندخل فتنفتح صالة واسعة أمامي بنافذتين، أمام إحداهما طاولة تشتعل بمفرش أرجوني، وأمام الثانية سرير بغطاء متماوج بالليلكي. تقول تالة "أحب هذا المكان لانفتاحه على الضوء والناس، يُذكرني بالقرية حيث لا تُغلق الأبواب والنوافذ في وجه التحيات والابتسامات والزيارات. أنظر إلى السقف وأبحث به منقلاً نظري بسرعة فيه، تفهم تالة بسرعة وتفاجئني "هنا لا توجد مصابيح معطلة، أنا محروسة بسحر الحكاية، لا أحد يعرف بي أو يراني إلا إذا رغبت أنا بذلك، أنا إبهام وغموض متألق قادم من وراء الضباب، لا تنفع معي كل أجهزة المراقبة الحديثة، حتى تلك التي يزرعونها في داخلك، أنا حلمك وبما أنه حقيقي وعميق وإنساني فلا أحد يستطيع مراقبته ومحاصرته".

أسألها مرتاحاً "الآن لا أحد يتبعني ويترصد خطواتي؟".

" لا، يتتبعونك ويتتبعون أنفاسك ولا يتركوك لحظة، ولكنهم ضائعون، فبما أنهم لا يرونني فإنهم لا يفهمون ما تتصرف به، يظنونك مجنوناً ومخبولاً وأنت تعانق الهواء، تبكي وتبتسم، وتتحدث مع خيال".

ترمي تالة بما نحمله من طعام على الطاولة، وتخلع معطفها الخمري وحذاءها الأسود، وتمضي حافية في باب جانبي إلى المطبخ، تعود بكأسين كريستاليين يعكسان الضوء على صفائهما، وصحوناً وردية ناعمة مزينة بقلوب حمراء، وسكيناً بمقبض أبيض مزين بنجيمات زرقاء. تتناثر قطع الحلوى بأناقة على الصحون وتزين الطاولة الأرجونية، وعيناي تلاحقان اليدين الرشيقتين لتالة وهما تقفزان هنا وهناك، تسكبان النبيذ في الكأسين، فيسيل أحمرَ قانياً. أتذكر صديقي ولميس، فنحن لم نرَ مثل هذا النبيذ الصافي بحمرته الخمرية، وتمنيت لو كان احتفالنا معاً بنخب أول كأس لعيني تالة العسليتين.

أمد يدي إلى كأس النبيذ لأشرب نخب حكايتنا، نخب حلمنا

الذي أصبح واقعاً وتحول إلى حكاية، تضرب تالة يدي وكأنها تنهرني وتمنعني من تناول الكأس، وتقول بصوت احتفالي كرنفالي مليء بكل الألوان "الرشفة الأولى على طريقتي".

وقبل أن أسألها عن الرشفة الأولى، تمسك كأساً وتأخذ لنفسها رشفة، لا تبتلعها، تبقيها في فمها، ثم تقترب من شفتَيّ، وتمنحني قبلة العشق الأولى، فأمتص النبيذ من فمها، وشفتيها، ولسانها، ومن أعماق حلقها، لينساب طعمه في دمي لاذعاً مُسكراً. أضمها إلى صدري بشدة ليضيع جسدها الصغير بي، وكأنني عانقت حقولاً، وسواقي، وذكريات، وكلمات، وألوان، ومطراً ناعماً يرمي غلالاته فوقهما جميعاً. أنفصل قليلاً وأسألها وأنا أتمايل مسحوراً وأكاد أن أسقط "هل يمكننا أن نشرب الكأس كلها مثل الرشفة الأولى؟".

تنفصل عني ضاحكة وقد ارتمى رأسها وشعرها الأسود إلى الخلف، وتدفعني إلى الخلف "قبلة واحدة عندما زرتك في بيتك تخاطرياً مع الدراويش جعلتك تتبعثر وتذهب غافياً حتى الصباح، والآن قبلة العشق الأولى مع نبيذ الحياة جعلتك مسحوراً مذهولاً وتكاد تسقط..... لا لن تستطيع الآن أن تشرب الكأس كلها مثل الرشفة الأولى".

أمسك بيديها وأنا أحاول أن أتماسك من صدمة الانتشاء الأولى "لماذا؟".

وفجأة تدور حول نفسها في الغرفة، تدور وتدور، فينفرش ثوب ملكي يتطاول فوق العشب ورطوبة الليل وسكينته، ويذهب بعيداً إلى المدى كمواويل أغنية عاشقة نحو صداها، وتقول بكبرياء "أنا صانعة الحكايا، أنا حلم كل العاشقين، لن تصل إليَّ إلا إذا جاهدت لتكون معي وتتماهى عشقاً بي، ولن تتماهى بي إلا إذا تخليت عن كل شيء من أجلي، كل شيء. وعندما تطير بي على حصانك المجنح وتخترق بي حجب الغامض والمبهم والمجهول، فلن تكون هناك فقط رشفة

عشق نبيذية أولى، بـل توحـد وانـصهار نبيـذي يحمـل النـشوة حـتى الثمالة، حيث لا يبقـى بعـدها لا جـسدي ولا جـسدك، وإنمـا جـسد أثيري واحد لنا، يتماوج في متعة البدء الأول التي انبثقـت منـها حيـاة البـشر والأشـياء. أنـا مليكتـك صـانعة الحكايـا، أنـا مانحـة الأحـلام ومحققتها، فهل ستتجاوز رغبات الجسد الحسية لتليق بها؟".

أسقط علـى الكرسـي مـذهولاً، لا أفهـم كيـف انبثقـت ملـيكتي صانعة الحكايا ومن أين! لم أعد أدري مـع مـن أنـا، مـع تالـة أم مـع صانعة الحكايا!

يتوقف الفضاء عن الدوران، ولكن رأسـي يبقـى يـدور، تقتـرب تالة مني؛ فأرمي رأسي على صدرها، وأسألها مختنقاً "متى أنت تالـة، ومتى أنت صانعة الحكايا؟".

تداعب تالة شعري لتهدئني "أنا الاثنتان معاً، ولكن قبلـة العـشق النبيذية ردتك إلى الأعماق والجـذور، حيـث نهـضت منـهما صـانعة الحكايا. أنا الآن تالة فتاة الحياة اليومية، ولكن كلما اشتعلت رغبـة بي فأنت تقترب منها..... وإذا ما تخليت عن ذاتك وتماهيت مـع عـشقك فأنت تقترب لتتماهى بنا معاً، وعندئذٍ لن تبقـى أنـت، ولا تالـة، ولا صانعة الحكايا، وإنما نحن، قطرة مطر تحيي حقولاً وغابات".

" وكيف سأصل إلى التوحد بكما؟".

تمسك يدي وتشدني "ستصل أنت تسير نحونا، ولكنك مـذهول فقط من صدمة اللقاء الأول، ستصل بـشكل طبيعـي وعفـوي دون أن تدري. أشعر بكل حواسك، ومشاعرك، وأنفاسك، ونبضات قلبـك، ناهضة نحوي، وقلبي ينبض معك..... تعـال الآن، ألا تريـد أن تـرى مرسمي وكيف أوثق الحكاية؟".

" لا أعرف متى أنا معك داخـل موجـات الـزمن، ومـتى أنـا مـع صانعة الحكايا خارج الزمن".

" تضيع لأنه ليس لديك ساعة يد تخترق الزمن، وتدلك متى أنت داخله ومتى أنت خارجه، أعرف أنك رميت ساعتك القديمة في الضباب عند عبورك الغابة".

" صديقي قال لي إن جميع الأجهزة والأدوات تتعطل هناك، توقفت ساعتي عن العمل فرميتها".

تلبسني تالة ساعة يد فضية جميلة متألقة، يومض عليها اسمها بألق ماسّي "احتفظ بها لك منذ زمن بعيد، كل لحظة أقضيها معك تعني لي الكثير..... والآن هيا بنا إلى المرسم".

تمضي بي تالة إلى ممر صغير، تظلله إضاءة زرقاء خافتة، تنبعث من مصابيح صغيرة مزروعة على جانبيه، نجتازه ونصل إلى غابة من اللوحات المرسومة، لوحات بأحجام مختلفة، معلقة على الجدران أو متناثرة في الوسط على حواملها. غابة كثيفة من اللوحات، ما إن دخلت فيما بينها حتى شعرت أنني تهت في عوالم غريبة سرقتني من عالمي، إلا أن يد تالة كانت تمسك بي وتقودني خلالها وأنا مستكين لها.

أسأل تالة بكل الدهشة "هل رسمت كل هذه اللوحات، ومنذ متى؟".

" نعم أنا رسمتها، ولكن هذه هي مجموعتي الأخيرة..... في القرية كنت أحفر رسوماً ملونة عفوية في كل مكان، على الأبواب والنوافذ، والملابس والستائر، والأشجار وسفوح الجبال، والغيوم ونسمات الهواء، والقلوب والذكريات، والكلمات والأنفاس. هكذا كنت أرسم في كل مكان، فأطرز التفاصيل اليومية بظلال الأشياء وتدرجات الألوان، التي أشكلها في رؤى تعطي معنى لحياة الناس الذين أحبهم. وعندما جئت المدينة لأدرس الفنون الجميلة انسحبت مني براءتي وعفويتي إلى الداخل، وضعت في المحاضرات والدروس العملية التي تفسد الألوان والخطوط والبقع والظلال والأنوار،

المنبعثة من القلوب والأحلام. لم أحتمل الوضع طويلاً، فتركت كل شيء في الجامعة، وانسحبت إلى مرسمي هنا لأعمل به وحدي. أرسم دون أن أسمح لأحد بالدخول إلى عوالمي السرية هنا، حتى إن الجيران الذين يحضرون لشرب القهوة لا يعلمون بوجود وكري هذا".

أعانقها من الخلف وأنا أنظر إلى اللوحات، وأشدها إليَّ بحنان، أطبع قبلة خلف أذنها وأنا أتنفس رائحة شعرها الأسود الناعم، وأسألها "منذ متى بدأت رسم هذه المجموعة؟".

تلتفت إلى عيني وتنظر فيهما بعمق، وأنا أذوب أكثر كلما نظرت إليَّ هكذا فأرتعش، وتجيب "رسمتها منذ أن بدأت عبورك ضباب الغابة السري الملغز، منذ تلك اللحظة، وأنا أعيش لهفتك للوصول إليَّ، ومنذ تلك اللحظة وأنا ارسم الحكاية".

تقودني تالة ونسير في درب تعرش فيه لوحات، أغوص فيها وأصبح في داخلها، كل شيء فيها مغطى بغلالة ناعمة من ضباب تغلب عليه الزرقة، لا أكاد أرى وراءه شيئاً بحيث ظننت أن اللوحات تكرر نفسها. لكن ما أن أدقق النظر فيها حتى تنفتح أسرار الغموض والإبهام، وأذهب في رطوبة الندى الضبابي، كما في رحلتي القديمة، فألمح خيالات أشجار تخفي وراءها آمالاً، وأسمع غناء طيور عندليب تتداعى من بعيد، أستغرب كيف تحضر الأصوات من اللوحات، أصوات ملونة، وتغني! وسرعان ما ألمح في اللوحات التالية ظلاً يتحرك، يخطو إلى الأمام بثقة وكل شيء فيه منتعش وناهض، جسده، وقلبه، وعيناه..... أعرفه، إنه أنا، فتجتاحني موجة من ندى الغابة الصباحي.

وفيما أنا غارق في رطوبة الحكاية التي شكلتها اللوحات تأتيني همسات تالة "كنت أنا معك هناك، أحرس الحلم برموش العينين، كنت أقودك في دربك دون أن تدري، ولكنك كنت مندفعاً بطريقة مجنونة، لا شيء يوقفك".

تتوالى صور الحكاية كلما سرت في ضباب اللوحات، أمضي في تأملها وكلي لهفة شديدة كي أرى صورة لقائي مع صانعة الحكايا، ينفتح سفح الجبل بصمته المطلق وصفائه العميق، بيوت القرية المعلقة في الجبل، صديقي ولميس يجلسان على صخرة أمام مغارة الشموع، والدة صديقي العجوز بوجهها المنير، وأنا أطفو من جسدي وأمضي نحو المغارة. وفي لوحة أخيرة تنفتح المغارة بكل ضيائها، ولكنني لا أرى صانعة الحكايا أمامها! الشموع مشتعلة والصخرة أمامها، ولكن صانعة الحكايا لا تجلس عليها! أسأل تالة مندهشاً دون أن ألتفتَ إليها "لماذا لم تكملي الحكاية وترسمي اللقاء مع صانعة الحكايا؟".

لا تجيب، ولكن يد ناعمة تتلمس جانب وجهي وتمضي في مداعبته عشقاً، أعود وأسألها ملتفتاً إليها "لماذا لم تكملي....."، وأراها، أراها هي! صانعة الحكاية تلمس وجهي، هادئة دون دوران بثوبها الملكي، وكأن الزمان توقف، أراها كما قابلتها في المرة الأولى بكل جمالها، وبهائها، وعظمتها، وسموها، وجلالها، ورفعتها، تتهادى خيالاً وحقيقة، وقد بسطت ألقها النوراني على كل ما حولها. أشعر بخفقان قلبها وعيناها تقولان "أنا لست صورة في لوحة، ولا يمكن أن أكون، أنا هنا حقيقة، فخذني إلى ألق لحظاتك".

أحمل صانعة الحكايا كغزال صغير على ساعديَّ، تتعلق يداها على عنقي وترمي رأسها على صدري، وأمضي بها خارجاً من المرسم، ولكنني في أثناء خروجي ألمح لوحتين أخيرتين غريبتين، أمرُّ بهما بسرعة، ولكنني أتبين تفاصيلهما بسرعة. تشتعل اللوحة الأولى بالأخضر، وحوريات النعيم فيها يشتعلن وينطفئن ويذبن في الأخضر، يستغثن ولكن لا أحد ينقذهن. وفي اللوحة الثانية أرى أنقاضاً لأبنية ضخمة، تتصاعد منها النيران، ومضيفات متشابهات النسخ يركضن هنا وهناك، ينطفئن ويذبن وهن هاربات.

أذهب بصانعة الحكايا إلى السرير بالغطاء المتماوج بالليلكي، أمددها، ينفرش ثوبها الملكي بألوانه المنيرة، ويتساقط على الأرض ليذهب بعيداً وبعيداً، فيحتل المكان والزمان. أستلقي بملابسي قربها، وأتسلل إلى شذاها وأضمها إلى صدري. تستكين على ساعدي، أنظر إلى عينيها، أصبحتا الآن عسليتين جداً بعمق أسرار الكون كله، تقترب بوجهها مني، تطبع قبلة على فمي، تغلق عينيها، وتروح في نوم عميق كأنها كانت تشتهيه منذ زمن بعيد، وأغفو أنا في نوم عميق أشتهيه أيضاً منذ زمن بعيد، أغفوا وأنا أعانق الكون كله.

ننام ليال، وأياماً، ودهراً، ننام وننام، فتموت الأحزان إلى الأبد، وتعيشٌ الأحلام حقيقة إلى الأبد، وتكتمل الحكاية.

يمضي ليل، ويأتي صباح، تمضي ليال، وتأتي صباحات، تمضي وتأتي، وذات صباح أصحو على قبلة الضياءً، فأجد تالة مستيقظة، تحنو فوق وجهي مع تسلل أولى إشعاعات النهار، ولكنها إشعاعات زرقاء، فالسماء مازالت تمطر وتمطر في الخارج، وتلون الأشياء بزرقتها الرطبة. تجلس تالة متربعة قربي على السرير، وشعرها الصباحي محلول ومفرود ومبعثر، يوحي بعذوبة عفوية ما بعد النوم. لازالت ترتدي قميصها الوردي، ولكن بأزرار مفتوحة وقد تحررت من حمالة ثدييها، اللذين شفا كحمامتين صغيرتين تتأملان نومي وصحوي، ولازالت ترتدي بنطالها الحريري الأسود، ولكنه دون نطاق، فتنفست منه نعومة جسدها دون اختناق، في حين تجعدت أنا ملابسي بالكامل إثر النوم الطويل بها.

تناولني تالة فنجاناً كبيراً مترعاً بالحليب والقهوة مع قطعة صغيرة من الحلوى إلى جانبه، أجلس وأتناول رشفة منه، تبادرني مبتسمة "يبدو أننا نمنا عميقاً وطويلاً".

" أتمنى لو أنام وأصحو عشرات المرات، وفي كل مرة أجدك جانبي مع فنجان الحليب بالقهوة، وشعرك المفرود يغمرني مع عذوبة الصباح".

" كنت أشعر بك طوال الليـل، تـصحو وتقـبلني وتعـود لتغفـو، تكرر ذلك وكأنه دون نهاية".

" تالة أرغب بك بشدة، انتظرت صحوك لأقول لك هذا".

تستثيرني قائلة "لمرة واحدة، لصباح واحد بشعر مفـرود، وبعـد فنجان القهوة بالحليب!".

" لا، أنت تسخرين مني، أرغب بك بطريقـة أنـصهر فيهـا معـك وأذوب إلى الأبد".

" إذاً أنت لا ترغب بي".

تصدمني بإثارتها المتتالية، فأرد مستنكراً "كيف لا أرغبك؟".

تبتسم "أنت ترغب بروحي، أنت ترغب صانعة الحكايا".

" لما لا، مادمت أنت صانعة الحكايا".

تسألني مداعبة "وستتخلى عن كل شيء لأجلي، لأجلنا".

في هذه اللحظة يزداد قرع حبات المطر بشدة على النافذة بحيـث تكاد تحطمها، أعرف أن ورد هناك، ربما أدركَتْ أنني إذا تخليت عـن كل شيء فهذا يعني نهايتها، ولذلك فهـي تلـح بـشكل مجنـون علـى التسلل بأيـة طريقـة، ولكـنني كنـت أغلقـت عليهـا مـسارب الـذاكرة والحنين منذ رحلتي في الضباب، فلا فائدة لها.

أرد على تالة "نعم سأتخلى عن كـل شـيء، فقـد رميـت حنـيني ورائي، ولوحة شيماء لم تعد تعني لي شيئاً مادمت قد خرجـت منـها، ستـصدم الأوراق الفارغـة البيـضاء إلا مـن عنـوان العـوالم الداخليـة صديقي ولميس، ولكنهما سيتفهمان موقفي، سـأتخلى عـن موسـيقى شوبان وأعيش مع ألحانك الـصوفية..... ومـاذا غـيره، لا شـيء آخـر لديَّ لأفقده، فقد عشت حياتي كلها وأنا أبحث عنك، فـلا حاجـة بي لشيء آخر بعد أن التقيتك. سأتخلى أنا عن كل شيء، ولكـن سـنأخذ معنا لوحاتنا، حكايتنا، أليس كذلك؟".

تضحك وألق جميل على فمها "لوحاتي غير موجودة، لا أحد يراها سوى عينيك الرائعتين، وهذا المرسم غير موجود حقيقة في المنزل، إنه عالم سري لا يخترقه أحد غيرنا، أما حكايتنا فستبقى مرسومة على تجاعيد الزمن في وجوه العجائز اللائي يعشن في الجبال المسحورة، يروينها باستمرار، وأنا لا شيء عندي لأتخلى عنه، كان لديَّ حزن صانعة الحكايا، ولكنك غسلته بعشقك".

" وأنا أيضاً لا شيء لديَّ سواك أنت".

" لا، أنت لازال لديك عالمك الذي تعيش فيه، فهل تتخلى عنه؟".

أمتلئ بالحيرة، كنت أتحدث مع صديقي عن عوالمي الداخلية وعوالمه الماورائية، وقد اجتزت أنا عالماً ماورائياً ثم عالماً استيهامياً، فعن ماذا تتحدث تالة الآن!

تواجهني تالة بتحدٍ "هل تتخلى عن عالمك الذي تعيش فيه؟".

أفكر، عالمي مجنون، مشبع بالجنون، كل ما حولي يوحي بالفوضى والاضطراب والخراب والسأم، وكل هذا يقود إلى الجنون، وهو ما يحاصرني إلى حد الاختناق، فلماذا لا أتخلى عنه، مادمت واثقاً بعالم الصفاء والسكينة الذي ستقودني إليه صانعة الحكايا.

أقول بثقة "لأجل عينيك العسليتين سأتخلى عن كل شيء، حتى عن حياتي لأجلهما".

تمسك يدي وتنهض وهي تقفز بسرعة "إذاً هي بنا إلى دوامة البحيرة".

ودون أن أفهم ما تقصده بدوامة البحيرة أنهض لأنطلق معها، فأنا مستعد للذهاب معها أينما تريد. لكني فيما أنهض إذ بي ألمح عبر النافذة العميل إكس، أو ربما نسخة من العميل إكس، تتمشى عبر الشارع جيئة وذهاباً. أقول لتالة بقلق "مادام العميل إكس يلاحقني وقد تعرَّف إلى مكاني فهذا معناه أن السيد لؤي وراءه، وبالتالي فهو يعرف مكاني أيضاً".

تسخر تالة من أفكاري السوداء "وماذا يعني هذا، هم يرونك، ولكنهم لا يروني، وأنت الآن معي محمي بسحر حكايتنا، وستتخلص منهم سريعاً بعد أن تغادر عالمك".

لم أعد أفكر بشيء سوى بالذهاب مع تالة، لا أدري إلى أين، ولكنني سأذهب معها، وهذا يكفيني.

ترمي بنا سيارة أجرة بعيداً عن المدينة، عند تلال تمضي صعوداً نحو الجبال العالية التي تسد الأفق. كانت الغيوم المكتنزة تغطي الجبال، وتزحف في نزولها عبر التلال نحو السهول، والمطر يتساقط على الأرض والأحلام في كل مكان. تركض بي تالة صعوداً في التلال بين الغيوم، فنخترقها دون أن أعرف ماذا تخبئ وراءها، ولكنها هي تعرف، فهي التي تمضي بي بثقة ممسكة بيدي. كان وجهها مُشرّعاً للهواء منتشياً برطوبته، بحيث لم أعد أدري كم هي سعيدة بالأجواء حولنا، وكم هي سعيدة بهروبي من عالمي معها. تصعد وتصعد، وفجأة ينفتح أمامنا مشهد بحيرة واسعة، لا يمكن توقع وجودها في مثل هذا المكان، فلو كنت سائراً وحدي وسط هذه الغيوم الكثيفة لسقطت في هاوية مياهها، تقول تالة "ها هي، بحيرة الدوامات".

أعرف البحيرة من حكايات العجائز المنسية في بلدتنا، كنت أظنها غير موجودة سوى في خيالاتهن، يذكرن اسمها مواربة بالبحيرة، خشية من ذكر اسمها بالكامل "بحيرة الدوامات". يروون أنه في القديم البعيد كان إله الجبال العالية يمنح المطر للحقول المزروعة قمحاً لأنه كان يتلقى أضحيات بشرية، أولاداً بكر وفتيات عذارى. وجاء زمن تحدى فيه البشر هذا الإله بعد أن شرب الكثير من دمائهم، ورفضوا تقديم أولادهم أضحية له. ولما كان إله الجبال العالية لا يستطيع معاقبتهم بمنع المطر عنهم، لأنه كان يختنق بالغيوم إذا لم يرسلها بعيداً عنه، فقد جعل هذه البحيرة تنبثق من باطن الجبال طوال الشتاء والربيع، فتمتلئ حتى رؤوس الجبال. وعندما يتوقف النبع عن

الحياة مع الصيف، كانت المياه تتراجع في البحيرة إلى باطن الأرض مشكلة دوامات كبيرة تسحب معها كل ما يطفو على سطحها. وزين الإله ما حول البحيرة بالشجر والخضرة، وأغرى الأولاد بالسباحة في مياهها الصافية، فما أن ينزلوا إليها حتى يسحب أحدهم إليه عبر الدوامة، التي تأخذه معها إلى باطن الأرض. تقول العجائز إن الإله لم يتخل عن أضحيته، ولكنه استردها بطريقة ماكرة، ومن وقتها سُميت بحيرة الدوامات، حيث يترافق اسمها مع الخوف والرعب من طريقة اختيار ضحاياها.

يمتلئ قلبي رهبة وأنا أتذكر ما قالته تالة عن دوامة البحيرة، أنظر إليها وقد ارتسم على وجهي قلق مفاجئ، فأسألها ونحن نقف على صخرة مرتفعة فوق المياه، وبالضبط فوق مركز دوامة كبيرة أرى مياهها تلتف حول نفسها وتغور نحو الأعماق "إلى أين نحن ذاهبان؟".

" إلى عالمنا، عالمي وعالم صانعة الحكايا".

" وهل سيتم هذا عن طريق البحيرة؟".

" نعم، وعن طريق الدوامة، وما الغريب بالأمر؟!".

أسألها متردداً "ألا توجد طريقة أخرى غير الدوامة؟".

" لماذا؟ هل أنت خائف؟".

وفي هذه اللحظة أشاهد العميل إكس الذي لا أدري كيف تتبعني إلى هنا، وقد انبثق فجأة بجسده الرياضي الممشوق على الطرف الآخر من البحيرة، ولكنه في هذه المرة لم يكن في لباس رسمي، وإنما في لباس مقاتلي الكوماندوس الأمريكيين الذين أعرفهم من السينما. فقد ترك صدره عارياً مفتوحاً للمطر متحدياً الطبيعة، وربط جبينه بعُصابة سوداء، ودهن وجهه بشحوم سوداء وخضراء ليزيد في إثارة الرعب لدى مرآه، وارتمى على صدره العاري شريطان متقاطعان مليئان بطلقات رشاش ثقيل، حمله إلى جانبه بساعديه المفتولي العضلات، وتمنطق بمسدسين ورمانتين يدويتين، وتوزعت خناجر

في كل مكان من جسده، على الساعد، والخصر، والـساقين، وفـوق كل هذا حمل سيفاً عريضاً على ظهره، حيث أستغربت وجوده فـنحن في منطقة مفتوحة وليس في منطقة غابات كثيفـة الـدغل. وغـير بعيـدة عنه جلست السكرتيرة سيكس على صـخرة بثيـاب ممزقـة، تنتظـر أن ينهي مشهده السينمائي لتمنحه قبلة الانتصار في نهايـة المعركـة، قبلـة شكر إنقاذها من...... هذه المرة لا أدري ممن؟ .

نظر إليَّ العميل إكس مـن الطـرف الآخـر للـبحيرة نظـرة تحـدٍ، أخرج أحد سكاكينه، لحسها بلـسانه وجـرح بهـا خـده حـتى يـثير بي الرعب أكثر، وفجأة بدأ يتناسخ إلى عشرة مقاتلين شبيهين بـه باللبـاس والعتاد نفسه، ثم أخذ كل واحد من العشرة يتناسخ إلى عشرة مقـاتلين جدد فأصبح العدد مئة، وأخذوا ينتشرون حول البحيرة، بل وغاصـوا بأقدامهم فيها.

ومع شعوري باقتراب الخطر مـني أسـأل تالـة "بعـد أن نقفـز في دوامة البحيرة، ماذا سيحدث للمياه؟".

" لا شيء، سنذهب نحن في الدوامة ونخـرج مـن هـذا العـالم، وتبقى البحيرة".

أفكر أنه ستكون فكرة جيدة لو تغور المياه وراءنا، أنا وتالة، بعد القفز في الدوامة، ليغوص العمـلاء وراءنـا في طينـها وهـم يحـاولون اللحاق بي، فيعلقون هناك ولا يـستطيعون الخـروج والخـلاص منـها. وتتحقق عندئذٍ نبوءات نشرات الأخبـار الوطنيـة الرسميـة "جـاؤوا إلى هنا، ولكنهم سيغرقون في وحول المنطقـة". سـيعلقون هنـا في الطـين وتـتعفن جثـثهم لتأكلـها الطيـور والوحـوش الكاسـرة النازلـة مـن الجبـال..... هـذا هـو علـى الأغلـب بقيـة الـسيناريو الـذي لم تكملـه النشرات الرسمية. أليس هذا أفضل يا سـيد لـؤي، الأفـضل أن ينتـهوا في الطـين، بـدلاً مـن اسـتغلالهم لناسـفي الأحزمـة وفـق أهـدافهم وخططهم التوسعية في المنطقـة، وجعلـهم حجـةً للقـدوم إلينـا لبنـاء جناتهم الأمريكية!

وفيما كانت نسخ العملاء تطبق على البحيرة من كل الجهات لتنقض عليَّ، كانت تالة قد أمسكت بيدي وشدتني معها قافزين في دوامة المياه. نقفز وأنا ألمح في الثواني الأخيرة قبل الاصطدام بالمياه الذهول والدهشة على وجوه العملاء، وهم يظنون أن ما أفعله هو انتحار مجنون، شبيه بانتحار ناسفي الأحزمة.

نسقط أنا وتالة عميقاً في المياه، نستسلم لموجات الدوامة التي ندور معها وهي تسحبنا إلى الأسفل، وما أن نتحرر منها حتى ننساب منطلقين في عالم بلوريّ صافي من المياه الزرقاء، المتألقة بنجيمات ذهبية مضيئة قادمة من سطح البحيرة، التي ترتسم عليها دوائر سحرية متشكلة من انسكاب المطر فوقها. ننساب كالدلافين، نذهب ونجيء، نتلاعب ونتراقص، وقد تخلصنا من قوانين الجاذبية وحاجتنا للهواء. أتذكر عندئذٍ عالم حوريات البحر اللواتي يعشن بأعماق البحار في قصورهن من اللآلئ الكبيرة، حوريات بأنصاف أجساد بشرية علوية لنساء مثيرات، ينهضن ممتلئات الصدر بنهود مغرية مع شعر ذهبي مفرود يتطاول مجروراً وراءهن، في حين ينتهي نصفهن الأسفل بذيل سمكة ذهبي.

وكأني أرى حورية بحر جميلة، ابنة ملك البحار، تنقذ بحاراً غرقت سفينته وتقوده إلى شاطئ الأمان، وتعشقه لطلته البهية، ومن أجله تتخلى عن عالمها الملكي البحري وتتحول إلى امرأة بشرية كاملة، يتزوجها ويعيش معها سعيدة، كما تنتهي كل حكايات الأطفال الجميلة الحالمة.

تمسك حوريتي تالة بيدي وتقودني بعيداً في الأعماق، أشعر بصفاء داخلي وخفة لطيفة، وكأنني رميت جسدي الأرضي هناك بعيداً في عالمي القديم وارتديت جسداً أثيرياً مائياً. أمضي وأمضي مع تالة، وكأننا نجتاز نفقاً مائياً ينتهي بفوهة مفتوحة على نور لازوردي. نصعد إليها، نخرج منها ونسقط في لجة ضياء أثيري صافي، وخيوط الماء تسيل من

ملابسنا، التي سرعان ما نتجرد منها. نستعيد تنفسنا بأجسادنا الأرضية، ولكنها أجساد لدنة وناعمة ومشبعة بالنور، تتماوج مع رعشات الضياء في فضاءات مفتوحة دون معالم أو حدود. ننساب الآن في موجات الضياء، دون تلك الجاذبية التي كانت تقيدنا في عالمنا القديم، فتهدهدنا ذبذبات ضوئية خفية تتشربها مسامات أجسادنا، لتشتعل في كياننا نشوة لم أختبرها من قبل.

يذهلني الجسد المعشوق المضيء أمامي، جسد صانعة الحكايا وتالة معاً، إذ لم أعد أميز بينهما بعد أن خلعت الأولى ثوبها الملكي بكرنفال ألوانه، وخلعت الثانية بنطالها الأسود وقميصها الزهري. جسد نوراني بعريه البدائي، وقد أخذ النهدان يتلاعبان حسب انسيابه في تماوج النور، يتدليان، يتكوران، يتمايلان جانباً، ينثنيان، في حين تطايرت خصلات الشعر مبعثرة في هواء مشع، تتلاعب على الوجه بلعبة الإخفاء والكشف. تلتمع العينان بألق سحري، ينبعث ويختفي وراء تلاعب النور بخصلات الشعر، فيخفق القلب راكضاً وراء انفتاح لحظة تألق للقفز إلى أعماقها والغوص بها إلى الأبد.

أشعر بالجسد المعشوق المنساب أمامي مرتعشاً برغبة الوصال بي، يشدني، يجذبني إليه بقوة، ليأخذني، ألتصق به، فترتعش الأحاسيس والمشاعر بانفعالات تتجاوز الإدراكات المباشرة. أتلقى الوجه العاشق بيديَّ، مضيئاً، مندفعاً، فيجتاحني بشوق عنيف، ألثم الشفتين بطيف قبلة صغيرة، لا هذا ليس نبيذاً ما أرشفه، بل شيئاً أقوى من المشروب السحري الذي تناولته في القرية المسحورة، شيء يملأ كياني كله بنشوة متركبة غريبة، تختلط فيها الإدراكات الحسية مع مشاعر فكرية عميقة، وكأن المتعة الجسدية يرافقها ألق اكتشاف المجهول والغامض، وكأن متعة التقاء جسدين مشتعلين طريق للمعرفة العميقة. أقبلها ثانية، فأنساب إلى الأعماق السرية الحميمية، فيتداخل فمي، وأنفي، وعيناي، وجبيني، في الوجه المعشوق. يغرق

وجهي في وجه معشوقتي، ونصبح تنفساً واحداً وألقاً واحداً، وأشعر أن جسدي يذوي متداخلاً مع جسدها ويذوب، بالانفلات الغارق نفسه كما في الوجه.

يقطع الوجه العاشق القبلة ليسألني "هل كنت لتصدق انتقالك إلى عالمي؟".

غارق أنا في الشذى والندى والمدى، ذائب كندف ثلج صغيرة على وردة قرمزية، منتشٍ بسكرة النور الذي تشربته مساماتي، أصحو لثوانٍ من الثمالة لأجيبها "أنا واثق بك فقط، حتى لو ذهبت معك إلى الفناء".

" لقد تجاوزت عالمك القديم، وتحررت من قيوده وعلاقاته، لن يستطيع أحد أن يلاحقك منه بعد الآن. ستدخل الآن في جسدي وأدخل أنا في جسدك، ونتماهى في ارتعاشة كونية، لنصبح جزءاً من الوعي الكوني الشامل، جزءاً من الوجود السرمدي، فوق كل العوالم التي تتوالد منه".

وفيما يمضي جسدانا بالتماهي معاً، يحدث شيء غريب من بعيد حولنا، شيء مجنون قادم من أطراف حدود لامرئية، وكأنه يريد أن يخلخل الفضاءات حولنا ويبث الفوضى والشواش في تموجاتها النورانية، شيء انبثق من عوالم بعيدة يريد أن يربكني ويمنع التماهي والاندماج مع معشوقتي في طريقنا للاندماج مع الوعي الكوني. أعرف أنني تخلصت من عالمي القديم، ولم يعد أحد يستطيع ملاحقتي منه، ولكنني نسيت المسارب والأنفاق التي يمكن أن تنفتح مع عوالم أخرى.

أرى من بعيد ناراً مجنونة تتأجج بطريقة مرعبة وكأنها تريد أن تلتهمني من بعيد بلهيبها، ومن الجهة الأخرى أسمع صراخاً مجنوناً يقشعر له جسدي ويهز أوصالي، ليملأ أذنيَّ بالصمم. وعندما أمعن النظر في الجهتين أرى المُذرة تتأجج غضباً في النار المجنونة، فلا أستغرب

جنونها وهياجها، ولكن ما يفاجئني رؤية ورد الحنين الناعمة الجميلة وقد تضخمت بطريقة مخيفة، وأصبحت تصرخ مأزومة بشراسة كالممسوسين، فتبخرت من خيالي كل أنوثتها وأشواقها الجسدية إليَّ.

أشعر بالرعب والتوتر، فما الذي أتى بهما في لحظة الاتصال النهائي وأنا أكاد أذوب في حلمي الكوني، لماذا ترغبان بمنعي من تحقيق حلمي النهائي مع من أعشقه إلى الأبد!

تصرخ المُذرة صراخاً وحشياً نارياً وهي تجأر باكية "حرقتني مرة مع كوابيس طفولتك، وحرقتني مرات ومرات بإهمالك للكوابيس الجنية كلها بعقلانيتك القاسية، وكانت ذروة فشلي معك عندما أتيتك في حفلتنا الخاصة متلبسة جسد سهام، وفشلت بالإيقاع بك برغم المائدة الجنية والرحلة الخاصة في جسدي. أترصدك طوال الوقت لأتسلل إليك من أحد كوابيسك على أمل أن تعشقني إلى الأبد، ولكن كوابيسك أصبحت معقدة جداً، أناس غرباء يحاصرون أحلامك في حياتك اليومية ويقفون سداً في وجه تحقيقها، ولم يعد هناك نهائياً أيُّ مكان للكوابيس الجنية في حياتك. وأنا أذوي في عالمي عشقاً لك، بينما المُذرات صديقاتي مسرورات مع عشاقهن من الرجال الوسيمين الأقوياء، يصبنهم بالشلل، وبعضهن يمتصصن دماءهم. أنا لا أريد أن أصيبك بالشلل وأتحول إلى مصاصة دماء، ولكنني أرغب فقط باللعب والتسلي معك دون توقف أو نهاية..... ولكنني أرى الآن أن صانعة الحكايا استطاعت الإيقاع بك، وهاهي تقودك إلى عالمها النوراني الكريه، أرجوك أن تتراجع وتذهب معي، وسأعشقك دون الجميع".

أما ورد التي تضخم جسدها العاري بطريقة مشوهة بشعة، فقد كانت تنشج بجنون وحشي وتصيح مأزومة بي "أنت خلقتني بذبذباتك العاشقة والمليئة بالحنين لأيامك الماضية، بالحنين للحظات متعة اكتشاف أجساد فتياتك المعشوقات، الناعمات الجميلات اللواتي لم

يتجاوزن العشرين من أعمارهن. خلقتني بصورة من خيالك، وتـركتني بعيداً في عالمي مع كائنات مثلي كن يستطعن الذهاب إلى من خلقهـنَّ متى رغبن، أما أنت فلم تكن تستدعيني إلا في حالات مزاجية خاصـة بك، في حالات الحنين التي يثيرهـا هطـول المطـر وأنـت تراقبـه مـن النافذة. ومع هذا كنت أقبل بهذا الوضع، وأتيك جسداً مـشتعلاً ملونـاً كما ترغـب، لأشـبع كـل نزواتـك. ثم بـدأت تعـيش أكثـر فـأكثر مـع حلمك، فأخذت تغلق مسارب الذاكرة والحنين التي كنت أتسلل منـها بقدر اقترابك منه، حتى أقفلتها عليَّ بالكامل. ومنذ تلك اللحظـة وأنـا أذوي، إلا أن أملاً بقي لي أن تعود إليَّ وتحييني. أما الآن فأنا أراك قـد ذهبت في التماهي إلى النهاية مع صانعة الحكايا التي استغلت ضـعفك نحو الحلم، وهذا لا يعني موتي فقط، وإنما فنائي إلى الأبد".

أتشبث بالجسد المعشوق، أستمر بالاندماج والتماهي به، ولكـن لهيب النار القادمة من المُذرة المجنونة، والصراخ الوحشي القادم مـن ورد يشوشاني..... أفلت يديَّ في محاولة لأن أخبئ رأسي بهمـا هربـاً من سطوع النار الحارق للعينين ومن الصراخ الصام للأذنين، فأسقط، أسقط لا أدري أين؟ وكأنني أسقط في هاوية عنيفة لا قرار لها، أسـقط وأسقط.....

وأستيقظ.

***

الخاتمة

الزوجة

استيقظ محموماً والعرق يتصبب مني، لا أقوى على النهوض من الفراش للذهاب إلى عملي اليومي المقيت، أطفالي الأربعة يتنازعون منذ الصباح الباكر، كالعادة، يملؤون البيت ضجيجاً وصخباً وبكاءً، أشياء تقع على الأرض وتنكسر، زجاج يتحطم ويتبعثر في المطبخ..... تبدأ زوجتي الاحتفالية البكائية الصباحية، تصرخ، تجأر، تزأر، من عدم وجود نقود في البيت، تتذمر بصوت عالٍ يصل إلى نهاية الشارع وهي تسأل عن كيفية الخلاص من أزمتنا الماليةً:

ـ متى ستزيد الدولة رواتب الموظفين "الشحاذين "أمثالك، الذين ليس لديهم إمكانية السرقة أو تلقي هدايا أو رشاوى؟ كيف سنستمر بالحياة وراتبك ينتهي في اليوم الثالث من الشهر بسبب ديونك التي لا تنتهي!

ـ منذ ثلاثة أيام لا يوجد في البيت لا حليب ولا بيض ولا جبنة، والأطفال يأكلون خبزاً وزيتوناً فقط، ونهاية الشهر لاتزال بعيدة.

ـ عبوة الغاز فارغة منذ أسبوع، ولم تبدلها حتى الآن، إلى متى سأسخن الماء عند الجارة من أجل الشاي؟

ـ خزان الماء على السقيفة بحاجة إلى تصليح، تتسرب منه المياه باستمرار بحيث ظهرت علائم الرطوبة على الجدران، وأنت تؤجل التصليح للشهر القادم، ألا يكفينا أن البلدية تقطعٍ المياه عنا باستمرار، فإذا ما فتحوها لنا مساءً تسربت من الخزان ليلاً.

ـ كسر أولادك العفاريت المصباح الكهربائي الرابع، وأنت تؤجل شراء المصابيح حتى يصبح لديك نقود كافية، وعلى هذا سنعيش في العتمة بعد عدة أيام مع هؤلاء المجانين الذين لا تستطيع تربيتهم.

ـ الغسالة الكهربائية لازالت معطلة، أتى عامل التصليح وفحصها، قال إنها تحتاج إلى صيانة وتبديل عدة قطع فيها بسبب اهترائها مقابل مبلغ يعادل نصف راتبك الشهري. اعتذرت منه، وأنا أغسل الضروري من الملابس تحت الحنفية، مثلما تفعل نساء الفلاحين قرب السواقي.

ـ قرع صاحب الشقة الباب منذ الصباح الباكر، وطالبني بإيجارها الذي لم ندفعه منذ ثلاثة أشهر، وهددنا أنه إذا لم ندفع في نهاية هذا الشهر، فإنه سيطلب من الشرطة رمي أثاثنا وحاجياتنا في الشارع.

ـ جاء ابن عمك التاجر في أثناء نومك ليلاً، فقلت له إنك غير موجود في البيت، فذكّرني أننا نستدين منه منذ عام ولا نرد له شيئاً، المبلغ أصبح كبيراً وهو يريد استرداده بسرعة، وأبلغنا أنه لن يقرضنا بعد الآن ثمن الخبز، حتى ولو ذهبت إليه باكياً.

ـ المدرسة تطلب أقساط تسجيل الأولاد الأربعة، وإلا فإنها ستطردهم، هل تريد أن يذهبوا إلى المدارس الحكومية المجانية ويتخرجوا منها أغبياء، ويصبحون بلا مستقبل؟ وأعلمك أن الصغيرين في المدرسة الابتدائية أصبحا يحتاجان أيضاً إلى مُدرسين خصوصيين، مثل إخوتهم الكبار، فأنا لم يعد لديَّ الوقت والصبر لتعليم هؤلاء المجانين.

ـ أصبح رأسي يؤلمني من طلبات الأولاد المستمرة، الصبي الكبير يريد شراء ملابس نادي "ريال مدريد"، والصغير ملابس "سبيدرمان "و "باتمان "و "سوبرمان"، أما البنتين فهمالم تعد تقبلان إلا ملابس وحقائب وقرطاسية "فلة "و "باربي "و "سندريلا"..... جميع الأهالي يشترون لأولادهم ما يرغبون به، إلا نحن فإننا نحرمهم من ضروريات طفولتهم.

ـ متى سأغير أطقم الفناجين والكؤوس والصحون التي أزين بها خزن غرفة الجلوس، أصبحت أخجل أمام الجارات وكأنني قادمة من قرية بعيدة في الجبال. المجمع التجاري الذي تم افتتاحه حديثاً في وسط المدينة فيه أحدث الماركات الفرنسية والإيطالية من الزجاجيات والميلامين والستانلس، وهي أفضل من البضائع الصينية السيئة

المظهر والقابلة للكسر..... كما تم فيه افتتاح قسم خاص للملابس الأوروبية "السبور"، متى سنذهب للتسوق هناك ويستمتع الأولاد بمدينة الألعاب الإلكترونية الموجودة في المجمع؟

ـ متى سنتخلص من أكوام الكتب لديك التي لا تجلب إلا الغبار والحشرات، أليس من الأفضل أن تبيعها هي وشهاداتك العليا المعلقة على الجدار لبائع الفلافل، فنحصل على قليل من النقود لحل بعض مشاكلنا، كما أنني سأجد مكاناً واسعاً لعرض مشتريات الأواني والمفارش والستائر التي تتكدس في الخزن المغلقة.

ـ تركت عملك المسائي، متعللاً بتعبك وعودتك متأخراً إلى البيت بعد الساعة الحادية عشرة ليلاً، ينبغي أن تنام في عملك الصباحي عند الدولة، وتتفرغ لهذا التاجر الذي تسخر منه أنه شبه أمي ويصرف على دعوة عشاء مع عشيقته بما يعادل راتبك الشهري. هذا بدلاً من أن تبحث عن عمل ثالث ليلاً تستطيع النوم به، ناطور بناية أو حارس ليلي لمنشأة..... وماذا يعني أنك تحمل شهادة عليا، فهذه يمكن شراؤها بسهولة.

ـ متى ستشتري سريراً آخر لنا، بعد أن هربت من النوم معك إلى الأريكة..... أصبحت بصلعة وكرش كبير ومؤخرة سمينة، ورائحتك كريهة من كثرة التعرق بسبب عدم وجود جهاز تكييف لدينا. كما أنك تشخر عالياً وبشكل مزعج طوال الليل، ولا تكف عن التقلب مثل المجنون في فراشك، تنهض من كوابيسك التي لا تنتهي وتصرخ في الليل وتخيفني أنا والأولاد، تنام وتصحو عشرات المرات في الليل ولا أراك إلا جالساً قرب النافذة..... أصبحت الحياة معك جحيماً لا يطاق، لماذا لا تذهب وتنام في المطبخ؟

ـ منذ متى اشتريت هذه الساعة الفضية الأنيقة الغالية السعر، ونحن ليس لدينا ثمن خبز..... وماركتها عالمية أيضاً "تالة".

***

أنباء من الصحافة العربية

يوم الجمعة، يوم العطلة الأسبوعية، نهار كامل في البيت يعني معركة مستمرة مع الزوجة، وطلبات الشراء والتصليح التي لا تنتهي، والأطفال يرغبون بالذهاب إلى مطعم، أو مدينة الألعاب، أو مجمع التسوق، فالحديقة العامة في الحي الذي أسكن به أصبحت أشبه بمجمع أتربة ونفايات، وتحولت إلى ساحة معارك بين القطط والجرذان، والأولاد لم يعودوا يجرؤون على الدخول إليها. أحاول أن أقنعهم بنزهة مسائية في الشوارع بين دخان السيارت، بعيداً عن المحلات المضيئة المتلألئة بسلعها المعلبة والملونة، حيث كل شيء يدعو للشراء.

يوم الجمعة، يوم الراحة الأسبوعي، أحاول فيه أن أرتاح من البيت والعمل، أهرب صباحاً إلى المكتبة العامة، أتسلى بتقليب الصحف العربية المقيتة، لا أحب قراءة عناوينها الرئيسية الأولى، عناوين رسمية تمجد الانتصارات الوهمية، والأوضاع الداخلية المستقرة والرخاء الاقتصادي المميز..... انتصارات واستقرار ورخاء في البلد الذي يُصدر الصحيفة أو يدعمها بالسر، ولكن الهزائم والفوضى والاضطراب تعم البلدان المجاورة!

أحضر مجموعة عشوائية من الصحف من الفترة الأخيرة، أقلبها، وأقرأ العناوين التي تلفت انتباهي:

❊ـ دراسة: الجمود يغلب على السوق حالياً والمضاربات تعرقل تراجع الأسعار 500% نسبة ارتفاع أسعار العقارات في سورية خلال 8 سنوات. [2010/6/19].

ـ فيه يتحول الجميع إلى خبراء ومحللين رياضيين

"شهر المونديال".. موسم للمقاهي في سورية [2010/7/8].

ـ منظمات حقوقية سورية تتحدث عن محاكمة كاتب معارض "نشر أنباء كاذبة "[2010/7/12]

*ـ بفضل التنسيق الأمني غير المسبوق مع الأجهزة الأمنية الفلسطينية

الأمن الإسرائيلي يوافق على 50 مدرعة روسية للسلطة.. والسياسيون يساومون [2010/7/24].

ـ التفاوض المباشر على ما تبقى من فلسطين!

غطاء أمريكي لشروط إسرائيلية ومباركة عربية [2010/8/21].

ـ إسرائيل تعمق استيلاءها على آبار المتوسط: اكتشاف نفط تحت حقول الغاز [2010/8/30].

ـ قالت إن تدخل إيران في القضية الفلسطينية لم يجلب لها الخير أبداً.

فتح تهاجم خامنئي وتتهمه بالتدخل السافر في الشأن الفلسطيني [2010/9/13].

ـ الجيش الإسرائيلي و" المارينز "يتدربان على مواجهات مشتركة [2010/9/17].

*ـ "القاعدة "تستعيد تكتيك الزرقاوي في الهجمات

عشرات القتلى وعلم "الدولة الإسلامية "وسط بغداد [2010/8/4].

ـ قيادي بائتلاف المالكي: سفير إيران الجديد تحدث وكأنه في بازار طهران.. وحكومتنا لم تحرك ساكناً [2010/8/13].

ـ 340 قتيلاً وجريحاً في 6 مدن (60 قتيلاً و 280 جريحاً) أوديرنو (قائد قوات الاحتلال الأمريكية): القوات العراقية جاهزة [2010/8/9].

ـ التفجير الأكثر دموية في العراق هذا العام 61 قتيلاً و125 جريحاً من المتطوعين للجيش [2010/8/18].

ـ العراق يسقط مجدداً ضحية الفراغ الأمني والسياسي

264 قتـيلاً وجريحـاً في 52 هجومـاً علـى الجـيش والـشرطة [2010/8/26].

ـ بغداد تعلن حاجتها للأمريكيين إلى الأبد [2010/9/10].

ـ مسؤولون عراقيون يطالبون الأمريكيين بالبقاء

الجيش العراقي لن يكون جاهزاً قبل عام 2020 [2010/9/12].

ـ بغداد ستدفع تعويضات لأمريكيين "تعرضوا لمعاملة سـيئة "في عهد صدام [2010/9/12].

*ـ تخللتها مهمة لتطهير "المغاور "من الإرهابيين. قائـد ميـداني: نتعامل مع تهديدات التنظيم بـ" جدية "

السعودية تستعد لسيناريو مواجهة جبلية مع "القاعدة "بـ" منـاورة ضخمة "[11 ـ 6 ـ 2010].

ـ مذبحة كمبالا: 74 قتيلاً من عـشاق كـرة القـدم في أول هجـوم "للشباب "خارج الصومال (المرتبطة بتنظيم القاعدة).

ـ عشرات القتلى في مواجهات عنيفة بـين الجـيش الموريتـاني و" القاعدة "[19 ـ 9 ـ 2010].

*ـــ بعـد أن تـسبب افتتـاح مونـديال جنـوب أفريقيـا في إرجـاء الاحتفال بعيـد الجـلاء القـذافي يـدعو إلى محاربـة "الفيفـا" ويـصفها بـ"منظمة المافيا العالمية الفاسدة "[2010/6/14].

ـ القذافي يثير جدلاً في إيطاليـا: يجـب أن يـصبح الإسـلام ديـن أوروبا [2010/8/31].

*ـ الجيش المصري في وسط الصراع على السلطة

اعتراضات على التوريث.. قد تنهيها تسوية [2010/9/13].

ـ حملة جديدة تناشد بن علي الترشح لفترة رئاسية سادسة

"نداء الألف "يربك الأحزاب السياسية في تونس [2010/7/21].

*ـ خادم الحرمين الشريفين: مصلحة الدين والوطن فوق كل اعتبار

السعودية: أمر ملكي بقصر الفتوى على هيئة كبار العلماء

مفتي السعودية: خادم الحرمين وضع حداً لـ"فوضى الفتوى" [2010/8/13].

ـ دعا إلى توحيد الجهود بين الرابطة ومنظمة المؤتمر الإسلامي

الأمير نايف: وجود رابطة العالم الإسلامي في السعودية أمر طبيعي لكونها مهبط الوحي [2010/8/23].

ـ السعودية: أمر ملكي بإنشاء "مؤسسة خادم الحرمين الشريفين العالمية للأعمال الخيرية والإنسانية " خالد بن عبد الله نائب رئيس مجلس الأمناء: تهدف إلى خدمة الدين والأمة ونشر التسامح والسلام [2010/9/18].

ـ أميركا تعقد مع السعودية أضخم صفقة أسلحة:

60 مليار دولار ثمن طائرات ومروحيات [2010/9/15].

ـ الموازنة "تحاصر" الجيش: 30 مليون دولار للتسليح... فقط لا غير (لبنان) [2010/9/14].

*ـ ينتقدون تشبيهات خامنئي للمعارضين بطلحة والزبير

مصادر في طهران: قرارات سرية من قم بالتضييق على السنة لعزلهم [2010/6/11].

ـ إيران: تحذير نحو 62 ألف امرأة بسبب "عدم ارتداء الحجاب الصحيح "في قم [2010/6/22].

ـ قال إنه ينبغي معاقبة من تخالف الاحتشام العام بالسجن قرابة شهرين أو الجلد 74 جلدة النائب العام الإيراني يدعو لتشديد تطبيق قواعد الاحتشام.. ويعتبر مخالفتها "جريمة" [2010/7/19].

ـــ طهران تجند ألف رجل دين لمحاربة "النفوذ الغربي "[2010/7/12].

*ـ مصر: أشرطة عن الأسلمة والتنصير تثير مخاوف على العلاقات الطائفية [2010/9/13].

ـ خطأ في اتجاه القبلة يثير خلافاً بين علماء الأزهر

مسلمو إندونيسيا يكتشفون أن قبلتهم كينيا وليست مكة المكرمة [2010/7/17].

*ـ قالوا إن صوتها "عورة "وقراءتها القرآن أمام الرجال "فتنة "

علماء أزهريون: السماح للمرأة بقراءة القرآن في الإذاعة والفضائيات سيفتح باب الانحلال في المجتمع [2010/6/22].

ـ الناطق باسم الداخلية: من غير اللائق أن تضع المرأة قدماً على قدم وتشرب النرجيلة أمام الناس

منع النساء في غزة من تدخين النرجيلة في الأماكن العامة.. لمنافاته العادات [2010/7/19].

ـ اكتشاف قطاع غزة في جولة على الدراجة الهوائية

ناشطة فلسطينية تتحدى "شرطة الفضيلة"... ومحظوراتها [2010/9/13].

ـ حملة لتصحيح الحجاب العلماني في بغداد (الجينز الضيق والملابس العصرية مع غطاء الرأس) [2010/9/13].

ـ التحقيقات تنزهه عن إثارة الفتن أو خدش الحياء العام

"القاهرة: حكم قضائي ثان بالبراءة لكتاب "ألف ليلة وليلة" [2010/6/9].

ـ مظاهرة غداً أمام قصر عابدين ومحام يسلم احتجاج لمسؤول بالرئاسة المصرية، البابا شنودة: أي مسيحي يلجأ للقضاء من أجل زواج ثان.. زان [2010/6/9].

ـ "المنار" و"إن بي إن" أوقفتا العرض ونائب في "الكتائب" لسنا في طهران مسلسلات إيرانية تفجر توترات في لبنان.. واستياء في

تونس "المنار " و"إن بي إن "تراجعتا عن عرضه بعد اعتراضات رجال دين مسيحيين مسلسل إيراني عن حياة السيد المسيح يتسبب بتوترات طائفية وسياسية في لبنان [2010/8/14].

ـ هاري بوتر و "لا تحزن "للشيخ القرني أكثر الكتب شعبية في غواتنامو [2010/8/23].

ـ رجل دين يناشد الفضائيات منع عرض "ما ملكت أيمانكم "

أنزور: "إنه يهدر دمي.. والاعتراض غير محق "[2010/8/1].

ـ تقرير تسلمه البوطي من وزير الأوقاف كان وراء البيان

أنزور: إذا وصل الموضوع حداً فسأعلن اسم كل شخصية في المسلسل وكلها حقيقية. البوطي رفض الاحتكام للقرضاوي... وبعض المسؤولين يعيشون حالة فصام [2010/9/15].

عالم مجنون يحيط بي، لا فسحة أمل فيه، أقرر الإقلاع عن قراءة الصحف نهائياً، ولكنني سأستمر بالحضور إلى المكتبة كل نهار جمعة، سأدخل إلى قاعة الصحف..... وأنام على كدسة من الصحف حتى يحين موعد النزهة المسائية بين دخان السيارات.

* * *

النهاية - البداية

أمضي إلى عملي يومياً، أهرب من ضجيج الزوجة وأطفالي الأربعة، أجلس وراء مكتبي، وأصمت، أتحاشى الصدام مع دائرة المخبرين والحاشية، أنام بعيون مفتوحة حتى انتهاء الدوام الثقيل، محاذراً الوقوع في حلم يقظة تفضحه أسارير وجهي بابتسامة.

تمضي بي الحافلة يومياً من البيت إلى العمل، ساعة تفصل بين ضجيج البيت وسأم العمل، الزمن الوحيد الذي أتنفس فيه بحرية طوال النهار. أنظر من نافذة الحافلة وأراقب الناس الذين يمضون إلى العمل بوجوه حزينة، النوافذ المغلقة، الأشجار الكئيبة المغبرة العطشى للمطر. وفي أحد المنعطفات أشاهد كل يوم البناء الضخم المستقر على الرابية، والذي تحيط به أشجار السرو دائمة الخضرة.... لا أعرف ماذا يثيرني في هذا البناء، ولكنني أشعر براحة عميقة عند مرور الحافلة بقربه، حيث تتوقف هناك لتلتقط ركاباً. أتأمله وسكينة تجتاح كياني بالكامل، ولكن ساعتي الفضية تتلألأ هناك، تهتز بذبذبات شديدة وكأنها مشدودة إلى شيء خفي داخله، ساعتي الفضية المحفور عليها اسم تالة، والتي استيقظت ذات صباح ووجدتها في معصمي.

وذات صباح وقد داهمني شعور بحصار قوي يشتد حولي، قررت النزول هناك، عند هذا البناء الذي يمنحني السكينة، وكأني أسمع صوتاً هامساً من داخله يناديني. أجتاز المسافة بهدوء إلى مدخله، وهناك أرى لافتة سوداء كبيرة موجهة للخارج، كُتب عليها بخط أبيض كبير "مستشفى الأمراض العقلية"..... وبما أن اللوحة موجهة للخارج فقد فهمت أن المصابين بالأمراض العقلية هم في خارج البناء، في المدينة، أما داخله فهو مخصص للعقلاء أمثالي..... أمضي إلى داخل بناء مستشفى الأمراض العقلية وقد قررت أن أقيم فيه وأرتاح، في هذه اللحظة ألمح تالة هناك تلوح لي من إحدى نوافذ الطابق الثاني!

27/9/2010

الفهرس